روجيه مارتان دُوغار

اسرة تيبو

١

ترجمة

بهيج شعبان

منشورات عويدات
بيروت - لبنان

روجيه مارتان دُوغار

اسرة تيبو

الجزء الأول

الدفتر الرمادي الاصلاحية
الفصل الجميل

ترجمة

بهيج شعبان

منشورات عويدات
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى ١٩٧٠

الدفتر الرمادي

١

في زاوية شارع فوجيرار ، حيث كانت تمتد مباني المدرسة آنذاك ، فإن السيد تيبو الذي لم يكلم ولده أثناء الطريق وقف فجأة وقال :

ـ آه ! هذه المرة ، كلا يا انطوان . هذه المرة تجاوز الأمر الحد .

فلم يجب الشاب بشيء .

وكانت المدرسة مقفلة ، والنهار الأحد ، والساعة التاسعة مساءً ، وفتح بوابٌ الكوة ، فصاح انطوان :

ـ أتعلم أين اخي ؟..

فحملق الآخر بعينيه ، وفحص السيد تيبو برجله وقال :

ـ اذهب وادع لنا الأب بينو .

وتبع البواب الرجلين حتى قاعة الاستقبال ، وسحب من جيبه فتيلاً قطنياً مغطى بالشمع وأنار الثريا .

ومضت بضع دقائق . وارتمى السيد تيبو ، الضيق النفس ، على كرسي ؛ وتمتم من جديد ضاماً أسنانه :

ـ هذه المرة ، انت تعلم ، كلا .

وقال الأب بينو الذي دخل دون ضجة :

ـ عفوا يا سيدي .
وكان قميئاً ، واضطر الى أن ينتصب ليضع يده على كتف انطوان :
ـ صباح الخير أيها الشاب ! ما الأمر إذن ؟
ـ أين اخي ؟..
ـ جاك ؟
وهتف السيد تيبو الذي نهض واقفاً :
ـ لم يعد اليوم إلى البيت !..
فقال الكاهن دون أن يبدي الكثير من الدهشة :
ـ ولكن ، أين ذهب ؟
ـ هنا بالتأكيد ، في الحجز .
فأدخل الكاهن يديه تحت حزامه وقال :
ـ جاك لم يكن محجوزاً .
ـ ماذا ؟..
ـ جاك لم يظهر اليوم في المدرسة .
وتعقدت القضية . ولم يترك انطوان وجه الكاهن بنظره . وهز السيد تيبو كتفيه ، والتفت نحو الكاهن منتفخ الوجه وجفونه الثقيلة تكاد لا ترتفع :
ـ لقد قال لنا جاك البارحة انه محجوز أربع ساعات . وفي هذا الصباح ذهب في الساعة المعتادة . ويبدو انه عاد نحو الساعة الحادية عشرة حين كنا جميعاً في القداس : لم يجد سوى الطاهية . وقال انه لن يعود لتناول طعام الغداء لأنه محجوز ثمان ساعات بدلاً من أربع .
فقال الكاهن : محض اختلاق .
وتابع السيد تيبو :
ـ لقد اضطررت الى الخروج في نهاية فترة ما بعد الظهر حاملاً مقالي الى «مجلة العالمين» . وكان المدير يستقبل ، ولم أعد الى البيت الا لتناول طعام الغداء . وجاك لم يكن قد عاد . وفي الساعة الثامنة والنصف ، لا أحد .

فانتابني الخوف وأرسلت في طلب انطوان الذي كان مناوباً في مستشفاه . وها نحن جئنا .

وعض الكاهن على شفتيه مفكراً . وفتح السيد تيبو جفونه قليلاً ورشق الكاهن ثم ولده بنظرة حادة .

ـ اذن ، يا انطوان ؟..

فقال الشاب :

ـ اذا كان الغياب متعمداً يا أبي فانه يبعد افتراض وجود حادث .

وكانت هيئته تدعو الى الهدوء . وأخذ السيد تيبو كرسياً وجلس ؛ وكان عقله النشيط يلاحق آثاراً مختلفة ؛ ولكن الوجه الذي شلّه الشحم لم يكن يفصح عن شيء . وردد :

ـ اذن ما العمل ؟

فقال انطوان مفكراً : هذا المساء لا شيء سوى الانتظار .

كان الأمر واضحاً . ولكن استحالة الوصول الى نهاية سريعة بعمل من السلطة ، والتفكير بمؤتمر العلوم الاخلاقية الذي سيفتتح في بروكسل بعد غد حيث كان مدعواً لترؤس القسم الفرنسي ، كل هذا جعل نفخة غضب تصعد الى جبهة السيد تيبو ، فنهض وهتف :

ـ سأجعل الدرك يبحثون عنه في كل مكان . ألا يزال يوجد شرطة في فرنسا ؟.. ألا يجدون الاشرار ؟

وكانت سترته تتدلى من جانبي بطنه ؛ وثنيات ذقنه تنقبض كل لحظة بين طرفي طوق عنقه ، ويحرك فكيه الى الأمام كجواد يسحب عنانه . وفكر : « آه !. هذا التافه ، لو يحدث مرةً ان يسحقه قطار ! » وفي وقت لا يتجاوز فترة البرق بدا له ان كل شيء قد سُوّي : خطابه في المؤتمر ، ربما نيابة الرئاسة .. ولكنه في نفس الوقت يشاهد الصغير على نعش ؛ ثم موقفه ، هو الأب البائس ، في كنيسة مشتعلة ، وشفقة الجميع .. انه يشعر بالخجل . وقال بصوت مرتفع :

ـ انقضي الليل في هذا القلق ! هذا أمر شاق أيها الكاهن ، هذا شاق على

والد أن يمر بساعات كهذه .

وسار نحو الباب . وسحب الكاهن يديه من تحت حزامه ، وقال خافضاً صوته :

ــ اسمح لي .

وكانت الثريا تنير جبهته التي اختفى نصفها تحت خصلة شعر سوداء ، ووجهه الهزيل الذي استدق بشكل مثلث حتى الذقن . وبدت بقعتان حمراوان على خديه .

ــ اننا نتردد منذ هذا المساء في اخبارك قصة عن ولدك . ــ مع انها لا تزال حديثة العهد ــ وتدعو للأسف .. ولكننا ، بعد كل شيء ، نعتبر ان بالامكان الحصول على بعض الأدلة عليها .. ولو كان لديك لحظة يا سيد ...

كانت اللهجة البيكاردية تثقل على تردده . اما السيد تيبو فقد عاد نحو كرسيه دون أن يجيب ، وجلس بتثاقل مطبق العينين . وتابع الكاهن :

ــ لقد أظهرنا في هذه الايام الأخيرة اخطاءً لولدك ذات طابع خاص ... اخطـــاء خطيرة بشكل خاص . حتى اننا هددناه بالطرد . أوه !.. وذلك لنخيفه . ألم يحدثك بشيء ؟..

ــ الا تعرف كم هو مراء ؟.. لقد كان صموتاً كالعادة .

وقال الكاهن مصححاً :

ــ ان الغلام العزيز ليس رديئاً في الاصل رغم الاخطاء الأخيرة. ونحن نعتبر انه في هذه المناسبة الأخيرة قد أقدم على الخطيئـــة بسبب الضعف ، بسبب الانقياد : تأثير رفيق خطر ، كما هو موجود بكثرة ، مع الاسف ، في مدارس الدولة ..

ووجه السيد تيبو إلى الكاهن نظرة قلقة .

ــ هذه هذه الوقائع أيها السيد ، بالترتيب : نهار الخميس الماضي ..

واستجم هنيهة وتابع بلهجة شبه مرحة :

ــ كلا ، عفواً . كان ذلك نهار الجمعة قبل البارحـــة ، نعم ، صباح الجمعة

اثناء فترة الدرس ، قبل الظهر بقليل . وقد دخلنا إلى القاعة بسرعة كما نفعل دائماً – وطرف بعينه لناحية انطوان – لقد ادرنا الزر دون ان يتحرك الباب . وفتحنا بدفعة واحدة . ولدى دخولنا سقطت أنظارنا على الصديق جاكو الذي كنا قد وضعناه مقابل بابنا تماماً . وسرنا إليه ، وأزحنا قاموسه . لقد علق ! وامسكنا بالكتاب المشبوه : رواية مترجمة عن الإيطالية لمؤلف نسينا أسمه بعنوان : « عذراوات الصخور » .

فصاح تيبو :

– ما أنظف هذا !

– وبدت هيئة الغلام القلقة انه يخفي شيئاً . ونحن معتادون على ذلك

واقتربت ساعة الطعام . وعندما قرع الجرس طلبت من استاذ الدرس ان يسير بالتلامذة إلى غرفة الطعام . وحين بقينا لوحدنا رفعنا قمطر جاك : كتابان آخران : « الإعترافات » لجان جاك روسو ، أما ما هو أقل طهارة ، عفواً يا سيد ، فرواية سافلة لزولا : « غلطة الأب موريه ».

– أه ! التافه !

– وكدنا نعيد اغلاق القمطر حين جاءتنا الفكرة بأن ندخل اليد وراء صف الكتب المدرسية ، حيث رجعنا بدفتر ذي قماش رمادي اللون لم يكن عليه أي طابع مخالفة خفية . وفتحناه وتصفحنا الصفحات الأولى ..

ونظر الكاهن إلى الرجلين بعينيه الحيتين الخاليتين من الرقة وتابع :

– وعرفنا ما نريد ان نعرفه . ووضعنا غنيمتنا في مأمن . وقد استطعنا اثناء فرصة الظهر ان نقوم بجردة على مهل . كانت الكتب مجلدة باعتناء وتحمل في أسفل الظهر حرف : ف . أما الدفتر الرمادي ، المستند الرئيسي – المستند المقنع ، – وكان نوعاً من دفتر مراسلات ؛ كتابتان متباينتان جداً : كتابة جاك مع توقيعه : ج ؛ وكتابة أخرى لا نعرفها ، موقعة بحرف د كبير .

وتوقف ، وخفض صوته :

– اللهجة ، ومضمون الرسائل لا يتركان أي شك ، مع الإسف ، حول

طبيعة هذه الصداقة . إلى درجة اننا اعتقدنا يا سيد ان هـــذه الكتابة المحكمة المطولة هي كتابة فتاة ، أو بالأحرى كتابة امرأة ..

واخيراً ، بعد ان حللنا النصوص ، أدركنا ان هذه الكتابة المجهولة كانت كتابة أحد رفاق جاك ، وليست كتابة تلميذ من مؤسستنا ، والحمد لله ، ولكنها من غلام كان جاك يلتقي به دون شك في المدرسة . ولكي نتأكد ، ذهبنا في ذلك النهار إلى المراقب ـ ذلك الشجاع السيد كيلار . ـ قـــال ذلك ملتفتاً إلى انطوان . ـ وهو رجل صلب ذو تجربة كئيبة مع التلامذة الداخليين . وجرب حالاً اثبات الهوية . فالغلام المتهم الذي يوقع بحرف : د ، هو تلميـذ في الصف الثالث ، ورفيق لجاك ، ويدعى فونتانان ، دانيال دي فونتانان .

فهتف انطوان :

ـ فونتانان ! بالتأكيد ! اتعرف يا أبي اولئك الذين يسكنون ميزون ـ لافيت ، صيفاً ، بقرب الغاب ؟.. فعلاً ، فعلاً ، ففي هذا الشتاء ، عندما كنت أعود مساء فاجأت جاك عدة مرات وهو يقرأ كتباً شعرية أعـــاره إياها فونتانان هذا .

ـ كيف ؟.. كتب مستعارة ؟ أما كان عليك ان تخبرني ؟..

ـ لم يكن هذا يبدو لي خطراً .

أجاب انطوان وهو يتطلع إلى الأب كأنه يعارضه ؛ وفجأة أضاءت وجهه المتأمل ابتسامة صغيرة جداً مرت بسرعة . وقال موضحاً :

ـ انها لفكتور هيغو ولامارتين . وقد صادرت له القنديل لأجـــبره على النوم .

وكان الكاهن قد ترك فمه مفتوحاً فقال ثائراً لنفسه :

ـ ولكن هناك ما هو أكثر خطراً : ان فونتانان هذا هو بروتستانتي .

وصاح السيد تيبو مرهقاً :

ـ ايه ، أعرف ذلك جيداً .

وقال الكاهن على الأثر مظهراً إنصافه :

ـ ومع ذلك فهو تلميذ ممتاز . وقد قال لنا السيد تيلار : « انه كبير ويبدو رصيناً ؛ وهو يخدع من حوله ! والأم أيضاً تبدو انها جيدة» .

فقال السيد تيبو مقاطعاً :

ـ أوه !. الام .. أناس صعاب رغم هيئاتهم الوقورة .

وتدخل الكاهن بمهارة :

ـ وبعد ، فإن ما تخبئه رصانة البروتستانت معروف !

ـ ومهما كان الأمر ، فالأب متقلب حسب مصالحه .. وفي ميزون لا يستقبله احد ؛ ولا يكادون يلقون عليه التحية . آه ! يستطيع أخوك ان يفخر بحسن انتقاء علاقاته .

وقال الكاهن :

ـ مهما كان الأمر ، فقد عدنا من المدرسة عارفين بكل شيء . وكنا على استعداد لفتح تحقيق حسب الأصول عندما قام الصديق جاك بهجوم على مكتبنا البارحة ، نهار السبت ، عند بدء دروس الصباح . هجوم بالمعنى الحرفي . كان شاحباً ، واسنانه تصر . وصاح بنا من الباب دون ان يلقي تحية الصباح : « لقد سُرقت لي كتب واوراق !.. » فجعلناه يلاحظ ان دخوله كان غير لائق ابداً . ولكنه لم يسمع شيئاً . وعيناه الصافيتان عادة أصبحتا قاتمتين من الغضب . وكان يصرخ : « انتم سرقتم دفتري ، هذا انتم ! »

واضاف الكاهن بابتسامة بلهاء :

ـ وقال لنا أيضاً : « لو تجرأتم على قراءته فسأقتل نفسي » . وحاولنا أن نأخذه باللطف فلم يدعنا نتكلم : « اين دفتري ؟ اعيدوه الي ! سأحطم كل شيء الى أن يعاد إلي ! » وقبل ان نستطيع منعه أخذ عن مكتبنا مكبس ورق من البلور ـ اتعرفه يا انطوان ؟ انه تذكار جاءنا به تلامذة قدامى من بوي ـ دي ـ دوم . ـ وقذفه بكل قوته على رخام المدخنة . انه أمر تافه ـ اسرع الكاهن مضيفاً ليجيب على حركة السيد تيبو المبهمة . ـ ونحن ندلي إليكم بهذه التفاصيل لنريكم الى أية درجة من الهوس توصل ولدكم العزيز . وهنا أخذ

يتدحرج على الأرض عرضة لنوبة عصبية حقيقية . وقد استطعنا التخلص منه ودفعناه الى غرفة صغيرة للقراءة ملاصقة لمكتبنا وأقفلنا عليه .

فقال السيد تيبو رافعاً قبضتيه :

ـ آه ! منذ عدة أيام وهو كأنه مصاب بمس ! سل انطوان : ألم نره يتعرض لمثل هذه الحالات من الهياج لمجرد معاكسة بسيطة ؟ كان يَزْرَقّ وتنتفخ أوردة عنقه ، ويكاد يختنق من الغضب !

وقال انطوان مؤكداً :

ـ ذلك لأن جميع آل تيبو من ذوي العنف .

وكان يبدو انه يشعر بقليل جداً من الاسف بحيث ظن الكاهن ان من واجبه أن يبتسم ملاطفاً ، وتابع :

ـ وحين كنا نعمل على إنقاذه بعد ساعة ، جلس أمام المنضدة ورأسه بين يديه وأخذ يقذفنا بنظرة مخيفة . وكانت عيناه جافتين ، وقد طلبنا منه أن يعتذر ، فلم يجبنا . وكان يتبعنا مطيعاً الى مكتبنا ، وعيناه في الارض بهيئة عنيدة . وقد جعلناه يلتقط بقايا مكبس الورق المحطم ولكن دون أن يكف عن الشد على أسنانه . وعندئذ سرنا به الى الكنيسة ، معتقدين ان من المناسب ان نتركه وحيداً مع الله طوال ساعة كاملة . ثم جئنا وركعنا بجانبه ، وقد بدا لنا في تلك اللحظة انه ربما كان يبكي ؛ ولكن الكنيسة كانت مظلمة ، ولم نجرؤ على التأكد . وصلينا عشر مرات بالسبحة وبصوت منخفض ؛ ثم وبخناه ، وصورنا له غم والده عندما يعلم ان رفيقاً رديئاً قد لوث طهارة ولده العزيز وكان قد صالب ذراعيه على صدره ورفع رأسه ، وعيناه ناظرتان الى المذبح كأنه لم يسمعنا . وحين رأينا ان هذا العناد قد طال ، ألزمناه بالعودة الى الدرس . وظل هناك حتى المساء ، في مكانه ، وذراعاه متصالبان دائماً دون أن يفتح كتاباً . ولم نكن نريد أن نبدي اهتماماً بذلك . وفي الساعة السابعة ذهب كالعادة دون أن يأتي لتحيتنا .

واختتم الكاهن حديثه بنظرة فيها الكثير من الحيوية وقال :

ـ هذه هي الحكاية كلها يا سيد ، ولكي نخبركم بذلك كنا ننتظر المجازاة التي اتخذها مراقب المدرسة بحق ذلك العادم الحظوة المسمى فونتانان : طرد بحت وبسيط دون شك . ولكن حين رأيتك قلقاً هذا المساء ...

فقاطعه السيد تيبو وقد ضاق نفسه كأنه كان يركض :

ـ يا سيدي الاب ، لقد قضي علي . وهل أنا بحاجة لأقول لك ! حين أفكر بما يمكن أن تخبئه لنا أمثال هذه الحشرات ! لقد قضي علي .

وردد ذلك بصوت حالم، منخفض تقريباً، وظل جامداً، ورأسه الى الامام، والبدان على الفخذين . ولولا الرجفة التي لا تكاد تُرى ، والتي كانت تحرك شفته السفلى ولحيته البيضاء تحت شاربيه الرماديين ، لأكسبته جفونه المنخفضة هيئة رجل نائم .

ـ التافه !

هكذا صرخ فجأة ، دافعاً فكه الى الامام ؛ وكانت النظرة النافذة التي ترقرقت في تلك اللحظة من بين الاهداب تسجل الكثير من الاحتقار ، وقد ظل وقتاً طويلاً على جموده الظاهر . وأطبق عينيه ، وأدار جسده نحو انطوان . والشاب لم يجب على الأثر ، بل كان يمسك لحيته بيده ، عابساً ، ناظراً الى الارض . وقال :

ـ سآمر على المستشفى لكي لا يعتمدوا علي غداً . وسأذهب منذ الساعة الاولى لأسأل فونتانان هذا .

فردد السيد تيبو آلياً ، ثم انتصب واقفاً :

ـ منذ الساعة الاولى ؟ وبانتظار ذلك ستكون ليلة بيضاء .

وتأوه ، وسار نحو الباب . وتبعه الكاهن . وعلى العتبة مد الرجل الكبير يده اللدنة الى الكاهن وقال متأوهاً دون أن يفتح عينيه :

ـ لقد قضّي علي .

فقال الاب بينو بأدب : سنصلي للرب ليساعدنا جميعاً .

ومشى الأب والابن بضع خطوات صامتين . وكان الشارع مقفراً .

وسكنت الريح ، والامسية حلوة . انها الايام الاولى من شهر ايار .

وكان السيد تيبو يفكر بالهارب . « لو كان في الخارج فهو على الاقل لن يبرد كثيراً » . وبعث التأثر الوهن في ساقيه . ووقف والتفت الى ولده . وقد أعادت إليه هيئة انطوان شيئاً من الاطمئنان . كان يحب ولده البكر ؛ وهو فخور به . وهذا المساء كان يحبه بشكل خاص لأن حقده على ولده الثاني قد ازداد ، لا لأنه غير قادر على محبة جاك : فقد كان يكفي أن ينيله الصغير شيئاً يرضي كبرياءه حتى يوقظ حنوه ؛ ولكن تصرفات جاك الخاطئة وانحرافاته كانت تصيبه دائماً في النقطة الأكثر حساسية ، في حب الذات . وقال مدمدماً:

ـ بشرط ألا يسبب كل ذلك الكثير من الفضيحة !

ثم اقترب من انطوان ، وتغير صوته ، وقال :

ـ انا مسرور لأنك استطعت أن تبدل مناوبتك هذه الليلة .

وخجل من العاطفة التي افصح عنها . اما الشاب الذي كان أكثر قلقاً من والده فلم يجب .

وتمتم السيد تيبو وهو يزلق ، ربما لأول مرة ، ذراعه تحت ذراع ولده :

ـ انطوان .. انا مسرور لوجودك بقربي هذا المساء ياعزيزي .

٢

في نهار الاحد هذا ، وجدت مدام دي فونتانان ، عند عودتها حوالي الظهر ، كلمة من ولدها في دهليز البيت ، فقالت لجني :

ـ لقد كتب دانيال يقول انه أُبقي على الغداء عند آل برتيه . ألم تكوني هنا حين جاء ؟

ـ دانيال ؟

ثم ارتمت على قوائمها الاربع لتمسك بكلبتها الصغيرة المتلبدة تحت كنبة . ولم تكد تنهض حتى قالت :

ـ كلا : لم أره

ثم اخذت الكلبة بوس بين ذراعيها وهربت وثبا الى غرفتها مغطية الحيوان بالمداعبات .

وعادت ساعة الغداء وقالت :

ـ اشعر بصداع . لست جائعة ، وأريد ان استلقي في الظلام .

ووضعتها مدام دي فونتانان في سريرها وأسدلت الستائر . وتغلغلت جني تحت الاغطية . واستحال النوم . ومضت الساعات ، وجاءت مدام دي فونتانان عدة مرات في النهار لتضع يدها اللدنة على جبهة الطفلة . وعند المساء ، وكانت قد خارت قواها من الشفقة والقلق ، امسكت الصغيرة بتلك اليد وقبلتها دون ان تستطيع امساك دموعها .

ـ انت مهتاجة الاعصاب يا عزيزتي .. يجب ان يكون عليك شيء من الحمى .

ودقت الساعة السابعة ، ثم الثامنة . وكانت مدام دي فونتانان تنتظر ولدها لتجلس الى المائدة . ليس من عادة دانيال ان يتغيب عن وجبة طعام دون ان يخبرهم .. وخصوصاً لم يكن يدع امه وأخته تتناولان غداءهما وحيدتين نهار الاحد . وأسندت مدام دي فونتانان مرفقها الى الشرفة . وكان المساء هادئاً . وهناك مارة قلائل يسيرون باتجاه جادة الاوبسرفاتوار . واشتد الظلام بين كثافة الاشجار . وظنت عدة مرات انها عرفت دانيال من خطواته على ألق المصابيح . وقرع الطبل في حديقة اللوكسمبورغ . واقفل حاجز القضبان المشتبكة . وجاء الليل .

واعتمرت قبعتها وركضت الى منزل آل برتيه : كانوا في الريف منذ البارحة . لقد كان دانيال يكذب .

وكان لدى مدام دي فونتانان تجربة عن هذه الاكاذيب ؛ ولكن من دانيال ، من دانيالها ، فهذه الكذبة هي الاولى ! وقد بلغ الرابعة عشرة من عمره .

ولم تكن جني قد نامت ، كانت تترصد الجلبة ، ونادت امها :

ـ ودانيال ؟

ـ لقد نام . فقد ظن انك نائمة ولم يشأ ان يوقظك .

كان صوتها طبيعياً ، وما الفائدة من إخافة الطفلة ؟

واصبح الوقت متأخراً . وجلست مدام دي فونتانان على كنبة بعد ان فتحت باب الرواق قليلاً لتسمع ولدها وهو عائد .

ومضى الليل كله ، وجاء النهار .

حوالي الساعة السابعة انتصبت الكلبة مزمجرة . فقد دق الجرس. واندفعت مدام دي فونتانان في الدهليز ؛ كانت تريد ان تفتح بنفسها . ولكنه كان شاباً ملتحياً لا تعرفه .. حادث ؟..

وذكر انطوان أسمه ؛ وطلب ان يرى دانيال قبل ان يذهب هـــذا إلى المدرسة .

ـ ولكن ولدي قد اختفى هذا الصباح .

واتى انطوان بحركة تدل على الدهشة .

ـ عفواً إذا ألححت يا سيدتي .. فإن أخي الذي هو صديق حميم لولدك قد اختفى منذ البارحة . ونحن قلقون جداً .

ـ اختفى ؟..

وتشنجت يدها على الخمار الأبيض الذي كانت تغطي شعرها بــه . وفتحت باب غرفة الاستقبال ، وتبعها انطوان .

ـ ودانيال أيضاً لم يعد البارحة يا سيد . وانا قلقة أيضاً .

وكانت قد خفضت رأسها ، ثم رفعته على الأثر ، واضافت :

ـ بالإضافة إلى ان زوجي في هذه اللحظة غائب ايضاً في باريس .

كانت امائر هذه السيدة توحي ببساطة وصدق لم يلتق بها انطوان في الخارج . أما وقد فوجئت هكذا ، وبعد ليلة من السهر وتشوش قلقها ، فإنها قدمت لنظر الشاب وجهاً عارياً ، تتتابع العواطف عليـــه كأنغام واضحة . وتطلعا ببعضها البعض عدة ثوان دون ان يرى أحدهما الآخر. فقد كان كل منهما

يتبع وثبات تفكيره .

كان انطوان قد قفز من السرير بنشاط شرطي . ولم يحمل هرب جاك على محمل الأمر الفاجع، إلا أن فضوله وحده كان في حالة عمل : وقد جاء يسبر غور « الآخر » ، شريك الذنب الصغير . ولكن ها ان الأمر يتعقد مرة أخرى . وقد شعر باللذة من جراء ذلك . وما ان كان يفاجأ بالحادث هكذا حتى تصبح نظرته مشؤومة ، وتحت الذقن المربعة ، فإن الفك ، فك آل تيبو القوي ، يشد تماماً . وسأل :

– في أية ساعة ذهب ولدك صباح البارحة ؟..

– باكراً ، ولكنه عاد ، بعد قليل ..

– آه ! بين العاشرة والنصف والحادية عشرة ؟..

– تقريباً .

فاستنتج بلهجة واضحة ، شبه فرحة :

– مثل جاك . فقد ذهبا معاً .

ولكن الباب الذي ظل مفتوحاً قليلاً ُفتح في هذه اللحظة ، وسقط جسد ولد بقميص النوم ، على الطنفسة . فأطلقت مدام دي فونتانان صرخة . وكان انطوانقد رفع الأبنة المغمى عليها وحملها بين ذراعيه؛ ودلته مدام دي فونتانان فسار بها الى غرفتها ووضعها على سريرها .

– لا عليك يا سيدتي . أنا طبيب . ماء بارد . هل عندكم أثير ؟

واستعادت جني وعيها حالاً . وابتسمت أمها لها ، ولكن عيني الطفلة ظلتا قاسيتين . وقال انطوان :

– ليس في الأمر شيء . يجب أن تنام .

– أسمعت يا عزيزتي ؟..

هكذا تمتمت مدام دي فونتانان ، ويدها الموضوعة على جبهة الفتاة الرطبة انزلقت حتى الجفون وأبقتها مطبقة .

كانا واقفين على جانبي السرير لا يتحركان . والأثـــير المتبخر كان يعطر

الغرفة . وكان نظر انطوان ، المتطلع أولاً باليد اللطيفة وبالذراع الممدود ، يفحص مدام دي فونتانان من طرف خفي . وكانت المخرمات (الدانتيل) التي تغطيها قد سقطت ؛ وشعرها أشقر ولكنه مخطط بفتائل رمادية ؛ يجب أن تكون في الأربعين مع ان مشيتها وحركة قسماتها تدل على امرأة فتية .

وبدت جني انها نامت . وانسحبت اليد الموضوعة على عيني الطفلة بخفة جناح . وتركا الغرفة على رؤوس الأصابع تاركين الأبواب مفتوحة قليلاً . وكانت مدام دي فونتانان تسير في المقدمة ؛ والتفتت قائلة :

— شكراً .

قالت ذلك مادةً يديها . كانت الحركة عفوية ، مذكّرة ، بحيث ان انطوان أخذ هاتين اليدين وشد عليهما دون ان يجرؤ على وضع شفتيه عليهما . وقالت موضحة :

— هذه الصغيرة عصبية جداً . لقد سمعت بوس تنبح فركضت ظانّة ان أخاها قد جاء . ليست على ما يرام منذ صباح البارحة وقد انتابتها الحمّى طول الليل .

وجلسا . وسحبت مدام دي فونتانان من صدرها العبارة التي كتبها ولدها البارحة وقدمتها إلى انطوان . وكانت تنظر اليه وهو يقرأ . كانت دائماً تقاد بغريزتها في علاقاتها مع الكائنات . وقد شعرت منذ الدقائق الأولى انها في حالة ثقة بجانب انطوان . وكانت تفكر : « الرجل الذي يحمل هذه الجبهة لا يقوم بعمل سافل » . وكان شعره مرفوعاً ولحيته كثيفة على الخدين ، بنوع ان العينين الغامضتين ومثلث الجبهة الابيض تؤلف كل وجهه بين هاتين الكتلتين القاتمتين بلونهما الرمادي الأسمر تقريباً . وبدا انه يفكر بما قرأه ؛ كان في الواقع يبحث عن وسيلة ليقول بعض الأمور . وقد قال ملمحاً :

— في رأيي ، اعتقد ان من اللازم ان نقرر وجود رابط بين هربهما وهذا الواقع : هو ان صداقتهما .. وعلاقتهما قد اكتشفتا من قبل الاساتذة .

— اكتشفتا ؟

ـ ولكن نعم . فقد وجدت مراسلاتها في دفتر خاص .

ـ مراسلاتها ؟

ـ كانا يتراسلان اثناء الدرس . رسائل ذات لهجة خاصة كما يبدو ـ ثم كف عن التطلع اليها ـ إلى درجة ان المذنبين قد هددا بالطرد .

ـ مذنبان؟.. اعترف لك بأنني لا أرى جيداً . مذنبان بماذا ؟ بالتراسل؟

ـ لهجة الرسائل كما يبدو كانت ..

ـ لهجة الرسائل ؟..

لم تكن تفهم شيئاً ، ولكنها كانت كثيرة الحساسية لتلاحظ منذ لحظة قلق انطوان المتزايد ؛ وفجـــأة هزت رأسها وصرخت بصوت مرغم . مرتجف قليـــلا :

ـ كل هذا خارج الموضوع يا سيد .

وبدا أن هناك مسافة فصلت بينهما فجأة ، فنهضت قائلة :

ـ ليكن أخوك وولدي قد رتبا معاً لا أدري أي هرب ، هذا ممكن ؟ مع ان دانيال لم يلفظ ابداً أمامي اسم ..

ـ تيبو .

فرددت بدهشة دون ان تتم عبارتها :

ـ تيبو ؟ هذا غريب : لقد لفظت ابنتي هذا الأسم بوضوح في هذه الليلة ، اثناء كابوس .

ـ لقد استطاعت ان تسمع اخاها وهو يتحدث عن صديقه ..

ـ كلا ، أقول لك ان دانيال ابداً ..

ـ كيف عرفت ؟..

فقالت :

ـ أوه ! هذه الظاهرات الخفية مألوفة كثيراً .

ـ أية ظاهرات ؟

وكانت واقفة ، وقسماتها رصينة وذاهلة ، فقالت :

ـ انتقال الافكار .

كان الإيضاح واللهجة جديدين عليه بحيث تطلع اليها بفضول . ولم يكن وجه مدام دي فونتانان وقوراً فقط ، بل متألقـــاً ، وتتوه على شفتيها نصف ابتسامة لمؤمنة معتادة على اقتحام ارتيابية الغير في هذه المواد .

وخيم الصمت. وخطرت لانطوان فكرة؛ فقد استيقظ فيه نشاطالشرطي:

ـ عفواً يا سيدتي : أقلت لي ان ابنتك لفظت اسم أخي ؟ وانها اصيبت طوال نهار البارحة بحمّى لم تعرف اسبابها ؟ ألا يمكن ان تكون قـــد تلقت اعترافات من ولدك .

فأجابت مدام دي فونتانان بتعبير متسامح :

ـ هذا الشك ينهار من تلقاء نفسه يا سيد . لو كنت تعرف ولديّ وطريقة تصرفهما معي . ليس عند هذه ولا ذاك اي شيء يخفيانه عن ...

وسكتت ؛ فقد لدغتها خيبة الأمل التي أصيبت بها من سلوك دانيال. وقالت على الأثر بشيء من التعالي ، وهي تتقدم نحو الباب :

ـ ومع ذلك ، فسل جني إذا كانت لم تنم .

كانت عينا الطفلة مفتوحتين . ووجهها الدقيق منفصل عن الوسادة ؛ ووجنتاها محمومتان ، تضم بين ذراعيها الكلبة الصغيرة التي كان حلقومها الاسود يتجاوز حافة الغطاء بشكل مضحك .

ـ جني . هذا السيد تيبو ، شقيق صديق دانيال كما تعلمين .

فألقت الطفلة على الغريب نظرة جشعة ، ثم حذرة . واقترب انطوان من السرير ، وأخذ معصم الفتاة وسحب ساعته . وصرح :

ـ لا يزال سريعاً .

وأصغى باذنه الى حالة القلب والصدر . وكان يضع في هذه الحركات المهنية وقاراً راضياً .

ـ كم عمرها ؟

ـ ثلاث عشرة سنة .

ـ حقيقة ؟ لم اكن اظن ذلك . مبدئياً يجب دائماً مراقبة حركات الحمى دون اي قلق .

قال ذلك متطلعاً بالطفلة ، وابتسم . ثم ابتعد عن السرير واتخذ لهجة اخرى .

ـ اتعرفين اخي يا آنسة .. جاك تيبو ؟

فعبست وأتت بإشارة تفيد النفي .

ـ بالتأكيد ؟.. ألم يحدثك اخوك الكبير ابداً عن افضل صديق له ؟

فقالت : ابداً .

وألحّت مدام دي فونتانان :

ـ مع ذلك ، في هذه الليلة ، تذكري . حين أيقظتك كنت تحلمين بأن هناك من يلاحق دانيال وصديقه تيبو على الطريق . لقد قلت تيبو بكثير من الوضوح .

وبدت الابنة انها تبحث ، وقالت اخيراً :

ـ لا اعرف هذا الاسم .

وقال انطوان بعد صمت :

ـ يا آنسة ، لقد أتيت اطلب من والدتك ايضاحاً لا تتذكره ، ولابد منه لإيجاد اخيك : ماذا كان يرتدي ؟

ـ لا اعلم .

ـ اذن لم تريه صباح البارحة ؟

ـ نعم ، عند تناول الفطور . ولكنه لم يكن قد ارتدى ثيابه .

ثم التفتت نحو امها وقالت :

ـ ليس لك الا ان تنظري في خزانته ما هي الملابس الناقصة .

ـ امر آخر يا آنسة ، وهو ذو أهمية كبيرة : هل جاء اخوك ليضع الرسالة في الساعة التاسعة ، ام العاشرة ، أم الحادية عشرة ؟ امك لم تكن هنا ولا نستطيع الايضاح .

ـ لا أعلم .

فاعتقد انه لاحظ قليلاً من الغضب في لهجـــة جني . وقال بحركة لا شجاعة فيها :

ـ اذن سنتعب كثيراً في إيجاد اثره .

فقالت وقد رفعت ذراعيها لتمسك به :

ـ انتظر . كان ذلك في الساعة الحادية عشرة الا عشر دقائق .

ـ بالضبط ؟ أأنت متأكـدة ؟

ـ نعم .

ـ هل تطلعت بالساعة حين كان معك ؟

ـ كلا ، ولكني كنت في تلك الساعة في المطبخ أبحث عن فتات خبز لأرسم ؛ ولو جاء قبل ذلك ، أو جاء بعده ، لسمعت الباب ولكنت رأيت .

ـ آه ! هذا صحيح .

وفكر لحظة . ما الفائدة من أن يزيد في تعبها ؟ لقد كان مخطئاً فهي لا تعرف شيئاً . وقال ، وقد عاد طبيباً :

ـ الآن ، يجب ان تظلي دافئة ، اطبقي عينيك ونامي .

وأعاد الغطاء على الذراع الصغير المكشوف ، وابتسم قائلاً :

ـ نتيجة لا بأس بها : حين تستيقظ تكون قد شفيت ويكون الأخ الكبير قد عاد .

وتطلع إليها . لن يستطيع ابداً ان ينسى ما قرأه في تلك النظرة آنذاك : لامبالاة كلية بأي تشجيع ، وحياة داخلية قاسية جداً ، وضيقة كهذه في وحدة كهذه . لقد اضطرب لاإرادياً وخفض عينيه . وقال حين عاد الى غرفة الاستقبال :

ـ انت على حق يا سيدتي . هذه الطفلة هي البراءة نفسها . انها تتعذب بشكل مخيف ولكنها لا تعرف شيئاً .

فرددت مدام دي فونتانان حالمة :

ـ انها البراءة نفسها ، ولكنها تعرف .

ـ تعرف ؟

ـ تعرف ..

ـ كيف . اجوبتها ، بالعكس ..

فأجابت ببطء :

ـ نعم ، أجوبتها .. ولكني كنت بقربها .. وشعرت .. لا اعرف كيف أوضح .

وجلست ، ثم نهضت حالاً . كان وجهها معذباً ؛ وهتفت فجأة :

ـ انها تعرف ، انها تعرف ، الآن أنا متأكدة . وأشعر أيضاً انها تموت ولا تفشي سرها .

بعد رحيل انطوان ، وقبل ان تذهب مدام دي فونتانان لتسأل السيد كيلار مراقب المدرسة ، بناء على نصيحته ، استجابت لفضولها وفتحت دليل « كل باريس » :

ـ تيبو (اوسكار ماري) ـ فارس في جوقة الشرف ـ نائب قديم لمنطقة اور ـ نائب رئيس العصبة الاخلاقية لاستعمال الوسائط الكاملة لولادة اطفال اصحاء ـ مؤسس ومدير اعمال الوقاية الاجتماعية ـ خازن نقابة الاعمال الكاثوليكية في اسقفية باريس ـ ٤ مكرر ، شارع الجامعة (الدائرة السابعة).

٣

بعد مضي ساعتين على زيارة مدام دي فونتانان لمكتب المراقب ، وقد خرجت منها دون جواب ، ملتهبة الوجه ، لم تكن تعـــرف ممن تطلب المساعدة ، ففكرت بالمجيء الى السيد تيبو ، بينما اشارت عليها غريزة خفية بأن تتفادى ذلك . ولكنها صرفت النظر ، كما كانت تفعل احياناً ، مدفوعة بميل للمجازفة ، وبروح للتصميم كانت تمزجها بالشجاعة .

عند آل تيبو كانوا يعقدون مجلساً عائلياً حقيقياً . فقد اسرع الأب بينو

مبكراً الى شارع الجامعة ، متقدماً قليلاً على الأب فيكار السكرتير الخاص للمونسنيور رئيس أساقفة باريس ، والمدير الروحي للسيد تيبو وصديق كبير للبيت ، وقد أنبيء بواسطة الهاتف .

والسيد تيبو الجالس الى مكتبه يبدو كأنه برأس محكمة . وقد نام نوماً سيئاً ، وصبغته الآحية كانت اكثر بياضاً من المعتـــاد . والسيد شاسل ، سكرتيره ، وهو قزم ذو وبر رمادي ونظارات ، اتخذ مكاناً الى يساره . وانطوان ظل واقفاً ، مفكراً ، مستنداً الى المكتبة . والمدموازيل نفسها كانت قد دعيت الى الاجتماع مع انها ساعة الأعمال البيتية : الكتفان مغطيان بنسيج صوفي اسود ، وقد وقفت منحنية على حافة كرسيها ، منتبهـــة وصامتة ؛ وعصائبها الرمادية ملتصقة بجبهتها الصفراء ، وحدقتاها ، كحدقتي الغزالة ، لم ينقطعا عن الانتقال من كاهن الى آخر . وأُجلس هؤلاء السادة في كل ناحية من الموقد على كنبات ذات مساند عالية .

وبعد استعراض نتائج التحقيق الذي قام به انطوان شكا السيد تيبو من الوضعية . كان ينعم بالشعور باستحسان المحيطين به ، والكلمات التي وجدها ليرسم قلقه حركت قلبه . الا ان وجود معرّفه حدا به الى أن يعيد فحص ضميره : هل قام بجميع واجباته الأبوية حيال الولد البائس ؟ لم يكن يعرف بماذا يجيب . وانحرف تفكيره : لولا هذا الزنديق الصغير لما حدث شيء ! وزمجر ناهضاً :

ـ صعاليك مثل هـــذا الفونتانان ، اما كان يجب ان يسجنوا في بيوت خاصة ؟ وهل من المقبول ان يتعرض أولادنا لمثل هذه العدوى ؟

وكان يروح ويجيء وراء مكتبه ، ويداه وراء ظهره ، وجفونه مطبقة . وقد زاد مع حقده التفكير بالمؤتمر الذي فاته ، وان كان لن يتكلم فيه .

ــ مضى عليّ أكثر من عشرين سنة وانا أبذل نفسي في سبيل مشاكل جرائم الأولاد . عشرون سنة وانا أكافح بواسطة عصبات الوقاية ، والنشرات ،وتقارير إلى جميع المؤتمرات ! ـثم قال مديراً وجهه نحو الكهنة : ـ ألم انشىء فيمستعمرتي

المهتمة باصلاح السجناءفي كروي *Crouy* بيتاً خاصاً يخضع فيه الأولاد الفاسدون المنتمون إلى طبقة اجتماعية غير طبقة ابنائنا ، إلى معاملة يقظة بشكل خاص ؟ وبعد ، ان ما أقوله لا يصدق : ان هذا البيت فارغ بشكل دائم ! وهل علي ان اجبر الأهل على ان يسجنوا أبناءهم فيه ؟ اني فعلت كل شيء لأستميل وزارة المعارف العامة إلى ما قمنا به .

وانهى كلامه هازاً كتفيه ، وعاد إلى الجلوس على مقعده قائلا :

— وهل هؤلاء السادة التابعون إلى مدرسة بدون رب [1] يهتمون بالصحة العامة ؟..

في تلك اللحظة قدمت له الوصيفة بطاقة زيارة ، فسألها :

— هل هي هنا ؟

ثم التفت الى ولده دون ان ينتظر الجواب وقال :

— اذهب يا انطوان .

فقال انطوان بعد ان القى نظرة على البطاقة :

— تستطيع ان تعتذر عن استقبالها .

وكاد السيد تيبو يغضب ، ولكنه تمالك حالاً ووجه الكلام إلى الكاهنين :

— مدام دي فونتانان !.. ما العمل أيها السادة ؟ ألسنا ملزمين بالاحترام حيال امرأة مهما كانت ؟ وهذه ، أليست اماً قبل كل شيء ؟..

فتمتم السيد شاسل ،ولكن بصوت منخفض جداً كأنه يوجه الكلام إلى نفسه. ماذا ؟.. ام ؟..

وتابع السيد تيبو : ادخل هذه السيدة .

وحين ادخلت الوصيفة الزائرة ، نهض وانحنى بشكل احتفالي .

---

١ ـ عبارة اطلقها الا كليروس في فرنسا يوم فصل التعليم عن الكنيسة والغيت العلوم الدينية من المدارس الرسمية واستعيض عنها بعلم الاخلاق .

« المعرب »

لم تكن مدام دي فونتانان تتوقع وجود كثير من الناس . وشعرت على العتبة بتردد لم ينتبه اليه أحد ، ثم خطت نحو المدموازيل . وكانت هذه قد وثبت عن مقعدها وتفحصت البروتستانتية بعينين خائفتين ليس فيهما شيء من الحرارة ، يجعلانها تشبه ليس غزالة بل دجاجة . وتمتمت مدام دي فونتانان :

– مدام تيبو ، دون شك ؟

فأسرع انطوان وقال :

– كلا يا سيدتي . انها الآنسة دي ويز التي تعيش معنا منذ أربع عشرة سنة – منذ موت والدتي – والتي ربتنا ، أخي وأنا .

وقدم السيد تيبو الرجال . وقالت مدام دي فونتانان ، وهي مضطربة من النظرات المصوبة إليها ، ولكن دون ان تفقد شيئاً من طلاقة اللسان :

– عفواً لإزعاجك يا سيد . جئت لأرى إذا كان منذ هذا الصباح ... ان مصيبتنا متشابهة يا سيد . وقد فكرت ان من الأفضل ... ان نوحد جهودنا ، أليس كذلك ؟..

أضافت ذلك بنصف ابتسامة لطيفة وكئيبة . ولكن نظرتها اللطيفة التي كانت تتبع نظرة السيد تيبو لم تلاق سوى قناع أعمى .

عندئذ بحثت بعينيها عن انطوان ! ورغم المسافة الجافة التي وضعتها بينهما نهاية حديثها السابق ، فقد دفعتها بواعثها نحو هذا الوجه القاتم الصادق . وهو نفسه شعر عندما دخلت بوجود نوع من التحالف بينهما. وقد اقترب منها وقال:

– ومريضتنا الصغيرة يا سيدتي ، كيف حالها ؟..

فقطع السيد تيبو كلامه . وكانت حمّاه لا تفصح عن نفسها إلا بواسطة هزات الرأس ليبرز ذقنه . وادار نصفه الأعلى نحو مدام دي فونتانان ، وبدأ بنبرة معتادة :

– هل أنا بحاجة يا سيدتي لأقول لك انه ما من أحد يستطيع ان يفهم قلقك أكثر مني ؟ لقد كنت أقول لهؤلاء السادة انه لا يمكن التفكير بهؤلاء الأولاد المساكين دون ان ينقبض القلب . ومع ذلك فإني لا أتردد في القول يا سيدتي :

هل العمل المشترك مرجواً ؟.. بالتأكيد ، يجب العمل ، يجب إيجادهما ؛ ولكن أليس من الأفضل أن تكون ابحاثنا منفصلة ؟ أريد ان أقول : ألا يجب علينا ان نخشى قبل كل شيء عدم رصانة الصحفيين ؟.. لا تدهشي إذا كنت اكلمك بلغة رجل تضطره وضعيته إلى شيء من الحذر حيال الصحافة ، وحيال الرأي العام .. فيما يتعلق بي ؟.. كلا ، بالتأكيد ، فأنا والحمد لله فوق نقيـــق الحزب الآخر . ولكن ألا يمكن ان يحاولوا من خلال شخصي ، واسمي ، ان يصلوا إلى الأعمال التي أمثلها ؟.. ثم اني افكر بولدي . أليس من واجبي ان اتجنب بأي ثمن ، وفي مغامرة دقيقة كهذه ، ان يلفظ اسم بجانب اسمنا ؟.. أليس واجبي الاول ان أعمل حتى لا يمكنهم ذات يوم من ان يجابهوه ببعض العلاقات ـ العرضية واعرف ذلك ـ ذات الطابع الضار ، إذا استطعت ان أقول عن حق ؟..

وختم متوجهاً بالكلام إلى الأب فيكار ، فاتحاً جفونه لحظة :

— ألستم من هذا الرأي يا سادة ؟

وشحب لون مدام دي فونتانان ، وتطلعت دورياً بالكهنة ، وبالمدموازيل وبأنطوان : فكانت تصطدم بوجوه صامتة ، وهتفت :

— أوه ، أرى يا سيدي ان ...

ولكن حنجرتها انقبضت ؟ وتابعت بجهد :

— أرى ان شكوك السيد كيلار .. ـ وصمتت من جديد . ـ هـذا السيد كيلار رجل بائس ، نعم بائس ، رجل بائس .

هكذا هتفت اخيراً بابتسامة مرة .

وظل وجه السيد تيبوا مستغلقاً ؛ وارتفعت يده المسترخية نحو الأب بينو كأنه يريد ان يتخذه شاهداً ويوليه حق الكلام . فارتمى الـكاهن في المعركة بسرور جروٍ بندوق :

— اننا نجيز لأنفسنا ان نجعلك تلاحظين يا سيدتي انـك رفضت تحقيقات السيد كيلار المؤلمة دون ان تعرفي ما يثقل على السيد ولدك من اعباء ..

بعد ان قاست مدام دي فونتانان الأب بينو بنظرها ، خاضعة دائماً لغريزتها

في الكائنات ، التفتت نحو الأب فيكار . وكانت النظرة التي يوجهها اليها ذات عذوبة تامة . ووجهه النائم الذي تمتد فيه بقية من شعر منتصبة كالفرشاة حول صلعته ، يشي ببلوغه الخمسين . وقد أسرع بالتدخل شاعراً بنـداء الهرطقة الصامت :

ـ الجميع هنا ياسيدتي يعلمون كم ان هذا الحديث مؤلم بالنسبة إليك . وثقتك بولدك مؤثرة للغاية ، ومحترمة للغاية ..

وأضاف وسبابته ترتفع ، بحركة مألوفة لديه ، حتى شفتيه دون ان ينقطع عن الكلام :

ـ ولكن مع ذلك ، فالوقائع يا سيدتي ، مع الأسف ..

وتناول الأب بينو الكلام بكثير من الرقة ، كما لو ان زميله ترك له الكلام :

ـ يجب ان نقولها يا سيدتي : الوقائع مرهقة .

فتمتمت مدام دي فونتانان وهي تلتفت :

ـ ارجوك يا سيد .

ولكن الكاهن لم يستطع ان يمسك نفسه فصاح وقد أسقط قبعته وسحب من حزامه دفتراً رمادي اللون ذا حافات حمراء :

ـ ومع ذلك ، فإليك مستند الاقناع . إلقِ عليه نظرة فقط يا سيدتي : ومهما كان من المؤلم ان تزيل من نفسك كل شك فاننا نعتبره ضرورياً ، وانك ستعلمين به .

وخطا خطوتين نحوها ليضطرها الى أخذ الدفتر ، ولكنها نهضت وقالت :

ـ لن اقرأ منه سطراً أيها السادة . النفاذ الى أسرار هذا الولد امام الناس، وبغيابه ، دون ان يستطيع الايضاح على الأقل ! اني لم أعوده على أن أعامله هكذا .

وظل الاب بينو واقفاً ، ماداً ذراعه وعلى شفتيه الرقيقتين ابتسامة مرغمة وقال أخيراً برنة هازئة :

ـ لن نلح .

ثم وضع الدفتر على المكتب، والتقط قبعته وعاد الى الجلوس . وشعر انطوان برغبة في أن يمسكه بكتفيه ويلقيه خارجاً . وتلاقت نظرته الواشية بنفوره بنظرة الأب فيكار وتوافقتا لحظة .

إلا أن مدام دي فونتانان غيرت موقفها : فقد كان على جبهتها المرتفعة تعبير تحد . وتقدمت نحو السيد تيبو الذي لم يترك مقعده :

ـ كل هذا بلا داع أيها السيد . لقد أتيت فقط اسألك ماذا نويت ان تفعل. فزوجي ليس في باريس الآن ، وأنا وحيدة لأتخذ قرارات . وأريد على الخصوص أن أقول لك : يبدو لي من المستحسن ان نلجأ الى الشرطة .

فأجاب السيد تيبو بحدة ، وقد جعله الغضب ينتصب واقفاً :

ـ الشرطة ؟ ولكن هل تفترضين يا سيدتي ان كل شرطة المقاطعات في هذه الساعة ليست على استعداد ؟ لقد تلفنت بنفسي هذا الصباح الى رئيس مكتب مدير البوليس لاتخاذ جميع الاحتياطات بأكبر قدر من الفطنة .. وأرسلت برقية الى مختارية ميزون ـ لافيت في حالة تفكير الهاربين بالاختباء في منطقة يعرفها واحد منهما . وقد أُنذرت شركات الخطوط الحديدية ، ومخافر الحدود ، ومرافىء الابحار ولكن يا سيدتي ـ باستثناء الفضيحة التي أريد تجنبها بأي ثمن ـ أليس من الأفضل ، لإصلاح هذين التافهين ، أن يأتونا بهما ، والقيود في أيديهما ، بين اثنين من رجال الدرك ؟ لا لشيء الا ليذكروهما انه لا يزال يوجد في بلادنا البائسة مظهر عدالة لمساندة السلطة الأبوية ؟

فحيت مدام دي فونتانان ، دون أن تجيب ، وسارت نحو الباب . فتمالك السيد تيبو نفسه وقال :

ـ على الأقل ، تأكدي يا سيدتي اننا اذا تلقينا أقل خبر فسيذهب ولدي حالاً ليحمله اليك .

فحنت رأسها قليلاً ثم خرجت يرافقها انطوان ويتبعها السيد تيبو .

وعندما اختفت ضحك الاب بينو قائلاً :

ـ البروتستانتية !

ولم يستطع الأب فيكار ان يكتم حركة توبيخ :
ـ ماذا ؟ البروتستانتية ؟
هكذا تلجلج السيد شاس وهو يرجع القهقرى كما لو أنه وضع رجله في بركة القديس برتلمي[1].

٤

عادت مدام دي فونتانان الى منزلها . وكانت جني مسترخية في سريرها ؛ فرفعت وجهها المحموم وسألت أمها بنظرة وأطبقت عينيها .
ـ خذي بوس فالضجة تؤذيني .
وبلغت مدام دي فونتانان غرفتها ، وقد أصيبت بدوار ، وجلست دون أن تخلع قفازيها . هل كانت الحمّى تترصدها هي أيضاً ؟.. يجب أن تكون هادئة ، وقوية ، وواثقة بنفسها .. وانحنت جبهتها لتصلي . وحين نهضت كان لفعاليتها هدف : ان تتصل بزوجها وتستدعيه .
واجتازت الدهليز ، وترددت أمام باب مقفل ، وفتحته . كانت الغرفة رطبة غير مسكونة ؛ يعبق فيها أريج نبات رعي الحمام *Verveine* والليمون ، ورائحة زينة نصف متبخرة . فنحّت الستائر . وكان هناك مكتب يشغل منتصف الغرفة ؛ وغبار دقيق يغطي القرطاس ؛ لم يكن يوجد أية ورقة ، ولا أي عنوان ، ولا أي أثر . وكانت المفاتيح في الاقفال . ولم يكن الساكن هنا على شيء من الحذر . وسحبت درج المكتب : رزمة رسائل وبعض الصور ، ومروحة ، وقفاز من الحرير الاسود في احدى الزوايا .. وفجأة تصلبت يدها على المنضدة . فقد داهمتها ذكرى ، وأفلت منها انتباهها ، واستقرت نظرتها في البعيد .. كان ذلك منذ سنتين ، حين كانت تمر في إحدى أمسيات الصيف على

---

١ ـ اشارة الى مذبحة البروتستانت في عيد القديس برتلمي، وفي أيام شارل التاسع ، بأمر من كاترين دي مدسيس وعائلة دي غيز . وذلك في ليل ١٣ آب ١٥٧٢ . «المعرب»

الارصفة بالقطار الكهربائي ، ظنت انها رأت ـ وكانت قد وقفت ـ وعرفت جيروم ، زوجها ، بجانب امرأة . نعم ، كان منحنياً نحو امرأة شابة تبكي على أحد المقاعد ! ومنذ ذلك الوقت فإن مخيلتها الجافة العاملة حول هذه الرؤية التي استمرت ثانية واحدة ، كان يسرها أن تستعيد التفاصيل مئة مرة : ألم المرأة الوضيع ، حيث انقلبت قبعتها وسحبت بسرعة منديلاً كبيراً ابيض من تنورتها الداخلية ؛ وهيئة جيروم على الخصوص ! آه ! كم كانت متأكدة من انها عرفت ، بعد موقف زوجها ، جميع العواطف التي كانت تعتلج في نفسه ذلك المساء ! شيء من الرأفة دون شك لأنهـا تعرفه ضعيفاً سهل التأثر ؛ والانزعاج ايضاً لكونه موضوع هذه الفضيحة في نصف الشارع ؛ وأخيراً القساوة ! نعم ! في وقفته نصف المنحنية والتي لا استسلام فيها ، كانت واثقة من انها فاجأت الحساب الاناني للعاشق الذي عنده منه ما فيه الكفاية ، والذي كانت تغريه نزوات اخرى دون شك ، فعقد النية على الاستفادة من هذه الدموع ليعلن القطيعة حالاً ، بالرغم من شفقته ، وبالرغم من الخجل الخفي . كل هذا ظهر لها واضحاً في لحظة . وفي كل مرة يستولي عليها هذا الضيق فإن نفس الدوار كان يوهن قواها .

وتركت الغرفة بسرعة وأقفلت الباب بالمفتاح .

وخطرت لها فكرة واضحة : تلك الخادمة ، تلك الصغيرة ماريبت التي اضطر إلى طردها منذ ستة أشهر .. كانت مدام دي فونتانان تعرف عنوان عملها الجديد . فكظمت اشمئزازها وتوجهت اليها دون ان تزيد من ترددها .

كان المطبخ في الطابق الرابع وله درج للخدمة . والساعة ساعة غسل آنية المطبخ . وفتحت لها ماريبت : شقراء ، بشعر قصير ، وحدقتين بدون مقاومة ، طفلة . وكانت وحدها ؛ واحمر وجهها ولكن عينيها تألقتا .

ـ كم انا مسرورة برؤية السيدة ! والآنسة جني ، ألا تزال تكبر ؟..

وترددت مدام دي فونتانان . وكانت ابتسامتها مؤلمة .

ـ ماريبت .. اعطني عنوان زوجي .

فأصبحت الفتاة ارجوانية اللون ؟ وعيناها اللتان تصاعدت منها الدموع ظلتا مفتوحتين . العنوان ؟.. هزت رأسها لأنها لم تكن تعرف ؛ اي انهـا لا تعرف شيئاً : فالسيد لم يسكن في الفندق حيث ... ثم ان السيد تركها على الأثر .

وخفضت مدام دي فونتانان عينيها وتقهقرت نحو الباب لتنجو مما يمكن ان تسمعه ايضاً . وساد صمت قصير ؛ ولما كان ماء القدر يتفلت على الوجـاق متقلصاً فإن مدام دي فونتانان اتت بحركة آلية وتمتمت :

- ماؤك يغلي .

ثم اضافت وهي لا تزال تتقهقر :

- أأنت سعيدة هنا على الأقل يا ابنتي ؟..

فلم تجب مارييت ؛ ولكن حين التقت نظرتها بنظرة مدام دي فونتانان ، وقد رفعت رأسها ؛ رأت ان شيئاً حيوانياً ينبعث منها : كانت شفتاهـا المشقوقتان اللتان تشبهان شفتي ولد تكشفان عن الاسنان . وبعد تردد بدا غير منته للاثنتين قالت الصغيرة متلجلجة :

- لو تُسأل مدام دي بق-دوتراي .

ولم تسمعها مدام دي فونتانان وهي تبكي . فهبطت الدرج كأنها تهرب من حريق . لقد اوضح لها هذا الاسم فجأة مئة حادث مشابه لم تكد تُلاحَظ ، منسية بمقدار ، وفجأة اتخذت معنى .

ومرت مركبة فارغة ؛ فارتمت فيها لتعود إلى البيت بمزيد من السرعة . ولكن في لحظة اعطاء عنوانها ساورتها رغبة لا تقاوم . وظنت انها تلبي داعي العقل ، فصرخت :

- شارع مونسو .

وبعد ربع ساعة كانت تطرق باب ابنة عمها نويمي بق - ديتراي .

وكانت التي فتحت لها فتاة في الخـامسة عشرة ، شقراء وناضرة ، بعينين واسعتين مرحبتين .

ـ صباح الخير يا نيكول . هل والدتك هنا ؟
وشعرت بنظرة الفتاة المندهشة تثقل عليها :
ـ سأدعوها ، يا عمتي تيريز !

وظلت مدام دي فونتانان وحدها في الدهليز ، وكان قلبها ينبض بشدة فأسندت يدها إليه ولم تجرؤ على سحبها . ونظرت إلى ما حولها بهدوء . كان باب قاعة الاستقبال مفتوحاً ؛ والشمس تؤلق ألوان الطنافس والسجاد ؛ وكان للغرفة المظهر المهمل المرضي لبيت رجل عازب . وفكرت مدام دي فونتانان : « يقال ان طلاقها جعلها بدون مورد » . وذكرتها هذه الفكرة بأن زوجها لم يرسل إليها نقوداً منذ شهرين ، بحيث لا تدري كيف تعمل لمواجهة نفقات البيت : وساوتها الفكرة ان فخفخة نويمي هذه ربما كانت ...

ولم تعد نيكول . وساد الصمت في الشقة . ومدام دي فونتانان ، وقد إزداد ضيقها شيئاً فشيئاً ، دخلت إلى قاعة الاستقبال لتجلس . وكان البيانو مفتوحاً ، وعلى الاريكة مجلة ازياء مفتوحة ؛ وهناك سكاير على منضدة منخفضة ؛ وباقة من القرنفل الأحمر كانت تملأ كوباً . وقد ازداد قلقها منذ اللمحة الأولى . لماذا إذن ؟..

آه !.. ذلك « لأنه » كان هنا ، حاضراً في كل جزء !.. فهو الذي دفع البيانو منحرفاً إلى أمام النافذة ، كما في بيتها ! وهو دون شك الذي تركه مفتوحاً ؛ أو إذا لم يكن هو ، فلأجله كانت الموسيقى تعزف بدون ترتيب ! وهو الذي أراد هذه الاريكة الواسعة المنخفضة ، وتلك السكاير بمتناول اليد ! وهو الذي تراه هنا ، متمدداً بين الوسائد بهيئته المسترخية المعتنى بها ، وبالنظرة المرحة المترقرقة بين الاهداب ، ذراعه مرخى ، وبين أصابعه سيكارة .

وارتعشت من أثر انزلاق على الطنفسة : فقد ظهرت نويمي في مئزر ذي مخرمات ، وذراعها ملقى على كتف ابنتها . كانت امرأة في الخامسة والثلاثين ، سمراء ، كبيرة ، سمينة قليلا .

ـ صباح الخير يا تيريز ، عفواً ، فقد اصبت منذ هذا الصباح بصداع منعني

من الوقوف على رجلي . أسدلي الستائر يا نيكول .

وكان بريق عينيها وصبغتها يكذبها . وسرعة حركتها وشت بالاضطراب الذي سببته لها هذه الزيارة ، اضطراب اصبح قلقاً حين التفتت العمة تيريز نحو الطفلة وقالت بعذوبة :

— أنا بحاجة للتحدث مع والدتك يا صغيرتي ، أتريدين ان تتركينا لحظة ؟

فقالت نويمي :

— هيا ، اذهبي واشتغلي في غرفتك ، اذهبي !

ثم وجهت إلى ابنة عمها ضحكة متجاوزة الحد وقالت :

— هذا لا يحتمل . في هذا السن وتريد أن تأتي وتتدلل في غرفة الاستقبال ! هل جني هكذا ؟.. يجب أن أقول انني كنت كذلك . أتذكرين ؟.. وكان هذا يبعث والدتي على اليأس .

لقد جاءت مدام دي فونتانان لتحصل على العنوان الذي هي بحاجة إليه . ولكن منذ وصولها ، كان وجود جيروم مفروضاً عليها بقوة ، وكانت الإهانة جسيمة ، ومنظر نويمي ، وجمالها المتفتح المبتذل بدالها مهيناً فصممت على أمر غير صائب ، مستجيبة مرة أخرى لدافعها الداخلي . وقالت نويمي :

— ولكن ، اجلسي يا تيريز .

إلا ان تيريز تقدمت نحو ابنة عمها بدلاً من ان تجلس ومدت لها يدها ، ولم يكن هناك شيء مسرحي في حركتها ، فقد كانت عفوية ، وظلت وقورة ، وقالت دفعة واحدة :

— نويمي ... أعيدي إلي زوجي .

وجمدت ابتسامة مدام دي بتي دوتراي الترحيبية . وكانت مدام دي فونتانان لا تزال ممسكة بيدها :

— لا تجيبي بشيء . اني لا ألوم : انه هو دون شك ... أنا أعرف كيف هو ..

وقاطعت نفسها لحظة ، وأعوزها النفس. ولم تغتنم نويمي الفرصة لتدافع عن

نفسها . وكانت مدام دي فونتانان ممتنة من هذا السكوت ، لا لأنه اقرار ، بل لأنه يثبت انها ليست ساقطة إلى درجة احترازها حالاً من ضربة فجائية كهذه.

– أصغي إلي يا نويمي. لقد كبر أولادنا. فدانيال في الرابعة عشرة .والقدوة يمكن أن تكون سيئة ، والشر كثير العدوى ! وهذا يجب ألا يدوم ، أليس كذلك ؟.. وبعد قليل لن أكون وحدي أرى .. وأتعذب .

واصبح صوتها اللاهث متوسلاً :

– اعيديه إلينا الآن يا نويمي .

– ولكن يا تيريز ، أؤكد لك .. أنت مجنونة .

وكانت المرأة الشابة قد تمالكت نفسها، واصبحت عيناها غاضبتين وشفتاها متقلصتين :

– نعم ، صحيح ، أأنت مجنونة يا تيريز ؟.. وانا قد تركتك تتكلمين اثناء دهشتي ! انك تحلمين أو ان أحداً أدخل ذلك في رأسك ، انها أقاويل !.. أوضحي !

ودون ان تجيب مدام دي فونتانان شملت ابنة عمها بنظرة عميقة ، شبه رقيقة ، تبدو انها تقول : « يا للنفس المسكينة المتأخرة ! مهما كان الأمر فأنت أفضل من حياتك !» . ولكن هذه النظرة انزلقت فجأة حتى بروز الكتف ، حيث اللحم العاري ، النافر السمين ، يختلج تحت حلق المخرمات كحيوان علق في شبكة : ان الصورة التي انبجست أمام عينيها كانت من الوضوح بحيث اطبقت تينك العينين ، ومر على وجهها تعبير من الحقد ، ثم من الألم . وعندئذ قالت لتنتهي من ذلك ، كأن شجاعتها فارقتها :

– ربما كنت مخطئة .. اعطني عنوانه فقط . أو بالأحرى ، كلا ، فأنا لا اطلب ان تقولي لي أين هو ، ولكن اخبريه فقط ان من الواجب ان أراه .

– اخبره ؟.. وهل أعرف أين هو ؟.. – وكانت قد صبغها الاحمرار – ثم هل انتهت هذه التوبيخات المتواترة ؟.. ان جيروم يأتي لرؤيتي أحياناً !.. وبعد ؟.. فهذا لا يخبأ !.. بين ابناء العم ! ما اجمل هذا !.. – ثم اوحت إليها

غريزتها بالكلمات الجارحة ـ : سيكون مسروراً حين امرد عليه انك اتيت إلى هنا لتحدثني هذه الضجة .

وكانت مدام دي فونتانان قد تقهقرت :

ـ انت تتكلمين كفتاة صغيرة .

فأجابت نويمي بسرعة :

ـ آه !.. حسناً ، أتريدين أن أقول لك ؟.. حين تفقد المرأة زوجها فإن ذلك يكون بسبب خطأها . لو كان جيروم يجد في بيته ما يطلبه في الخارج لما كنت تركضين وراءه يا جميلتي .

« أيمكن أن يكون هذا صحيحاً ؟».

لم تستطع مدام دي فونتانان ان تمنع نفسها من التفكير بذلك . وكانت قد خارت قواها وشعرت بميل إلى الهرب ؛ ولكنها كانت خائفة من ان تجد نفسها وحيدة ، دون عنوان ، ودون اية وسيلة لاستدعاء جيروم . ولطفت نظرتها من جديد .

ـ إنسي يا نويمي ما قلته لك ، واصغي إلي . ان جني مريضة ، فهي محمومة منذ يومين . وأنا وحيدة . وانت ام ، ويجب ان تعرفي ما هو الإنتظار بقرب ولد بدأ به المرض ... ها قد مضت ثلاثة أسابيع دون ان يعود جيروم ولو مرة واحدة ! أين هو ؟.. ماذا يفعل ؟.. يجب ان يعلم ان ابنته مريضة . يجب ان يعود . قولي له ذلك .

فهزت نويمي رأسها بعناد شرس .

ـ اوه ! لا يمكن يا نويمي أن تكوني قد أصبحت شريرة بهذا الشكل ! اسمعي ، سأقول لك الباقي . جني تتألم ، وهذا صحيح ، وأنا أتعذب ، ولكن ليس هذا الاكثر خطورة ـ وازداد صوتها ضراعة ـ لقد تركني دانيال : لقد اختفى .

ـ اختفى؟ يجب البحث عنه ، ولا أستطيع البقاء وحيدة في لحظة كهذه... مع طفلة مريضة ، أليس كذلك ؟.. قولي له فقط يا نويمي أن يعود !

وظنت مدام دي فونتانان أن المرأة الشابة ستستجيب ؟ كانت نظرتها مشفقة ؛ ولكنها دارت نصف دورة وهتفت وهي ترفع ذراعها :

– يا إلهي : ماذا تريدين أن أفعل ما دمت قد قلت لك انني لا أستطيع أن أفعل شيئاً من أجلك !

ولما كانت مدام دي فونتانان قد سكتت وهي ثائرة ، فإنها التفتت ملتهبة الوجه وقالت :

– ألا تصدقينني يا تريز ؟.. كلا ؟ لا يهم ! فستعلمين كل شيء ! لقد خدعني مرة اخرى ، أتفهمين؟.. وقد سار لاأدري إلى أين– هرب مع اخرى !.. أتصدقينني الآن ؟

وشحب لون مدام دي فونتانان ، ورددت بصورة آلية :

– هرب ؟ ..

وكانت المرأة الشابة قد ارتمت على الاريكة واخذت تنتحب ، ورأسها بين الوسائد .

– آه !. لو كنت تعلمين كم عذبني ! كنت في أغلب الاحيان اصفح ، وقد ظن اني اصفح دائماً ! لقد وجه إلي أسوأ اهانة ! أمامي ، في بيتي ، اغوى فتاة ، طرحاً كانت هنا عندي ، خادمة صغيرة في التاسعة عشرة من عمرها ! لقد هربت منذ خمسة عشرة يوماً بأسمالها دون داع ! وهو ، كان ينتظرها تحت في عربة ! نعم – ثم صاحت وقد انتصبت واقفة – في شارعي ، على بابي ، في وضح النهار ، أمام جميع الناس ـ في سبيل خادمة ! أتصدقين ؟

وكانت مدام دي فونتانان قد استندت إلى البيانو لتستطيع ان تظل واقفة. كانت تتطلع بنويمي دون أن تراها . وكانت تمر أمام عينيها رؤى : تمثلت لها ماريت قبل بضعة أشهر ، الاشارات الصغيرة ، الحفيف في الدهليز ، الصعدات الخفية إلى الطابق السادس ، إلى اليوم الذي اضطرت فيه ان ترى وتطرد الصغيرة التي كانت مختنقة من اليأس وتطلب الصفح من السيدة ، وتمثلت لها على مقعد الرصيف تلك المرأة التي كانت تمسح عينيها ، والعاملة الصغيرة المرتدية السواد ،

ثم شاهدت أخيراً هنا، وفي مكان قريب جداً؛ نويمي، فالتفتت إلى جهة اخرى. ولكن نظرها عاد رغما عنها إلى جسد تلك الفتاة الجميلة الساقطة على عرض الأريكة، إلى ذلك الكتف العاري الذي تهزه الشهقات حيث اللحم ينفخ المخرمات. انها صورة تفرض نفسها بشكل لا يحتمل.

وكان صوت نويمي يأتيها متقطعاً:

ـ آه! انتهى الامر! انتهى الامر! بامكانه أن يعود، بامكانه أن يزحف على ركبتيه فلن القي عليه نظرة! اني أكرهه، اني احتقره. لقد فاجأته يكذب مئة مرة دون أي سبب، بدافع اللعب، اللذة الصرف، بدافع الغريزة! انه يكذب منذ أن يتكلم! انه كذاب!

ـ لست عادلة يا نويمي.

فنهضت المرأة الشابة بوثبة:

ـ أأنت تدافعين عنه؟.. أنت؟

ولكن مدام دي فونتانان كانت قد تمالكت نفسها، وقالت بنبرة اخرى:

ـ أليس لديك عنوان تلك الـ ....

ففكرت نويمي لحظة، ثم انحنت بشيء من الدالة:

ـ كلا، ولكن زوجة البواب، عدة مرات ....

فقاطعتها تيريز بإشارة، وبلغت الباب. وخبأت المرأة الشابة وجهها بين الوسائد بدافع امتلاك النفس، وتظاهرت بعدم رؤيتها وهي تذهب.

وفي الدهليز، حين كانت مدام دي فونتانان ترفع ستار المدخل، شعرت بذراعي نيكول، التي كان وجهها مبللاً بالدمع، يطوقانها. لم يكن لديها متسع من الوقت لتقول لها كلمة. وقد عانقتها الطفلة بشغف، وهربت.

ولم تكن زوجة البواب تطلب سوى ان تحدث:

ـ أنا، اعيد رسائلها الى بلادها الأصلية في بريتانية، الى بيروس ـ غيراك؛ وأهلها لا يزالون أحياء دون شك. اذا كان هذا يهمك.

أضافت ذلك وهي تفتح سجلاً قذراً.

قبل ان تعود مدام دي فونتانان الى بيتها دخلت الى مكتب البريد وأخذت ورقة برقية و كتبت .

«فكتورين لوغاد . ساحة الكنيسة ، بيروس ـ غيراك (كوت ـ دي ـ نور).

«تفضلي بابلاغ السيد دي فونتانان ان ولده دانيال قد اختفى منذ نهار الأحد » .

ثم طلبت بطاقة ـ رسالة و كتبت :

« القسيس غريغوري ،
الجمعية المسيحية للعلوم ،
٢ مكرر ، شارع بينو ،
نويي ـ سير ـ سين .

« عزيزي جيمس

« منذ يومين ذهب دانيال دون أن يقول الىأين ، ودون أن يزودنا بأخباره؛ لقد أضناني القلق . وفضلاً عن ذلك فان جني مريضة . حمّى شديدة لم يوضحها شيء بعد . ولا أعرف اين أجد جيروم لأخبره .

« انا وحيدة يا صديقي ، تعال الي .

«تيريز دي فونتانان»

٥

في غد اليوم الثاني ، نهار الاربعاء ، الساعة السادسة مساء ، جاء الى جادة الاوبسرفاتوار رجل كبير ، متخلع ، هزيل بشكل مخيف ، دون عمر محدد .

وقد أجابه البواب :

ـ من المحتمل قليـــلاً ان تستقبل السيدة . فالاطباء موجودون فوق ، والآنسة الصغيرة تموت .

وتسلق القسيس الدرج . وكان الباب على سطحه مفتوحاً . وهناك عدة معاطف رجالية تزحم الدهليز . ومرت ممرضة وهي تركض .

ـ انا القسيس غريغوري . ماذا جرى ؟ هل جني تتألم ؟..

فتطلعت الممرضة اليه وتمتمت :

ـ انها تموت .

ثم اختفت .

وارتجف كأنه ضرب على وجهه . وبدا له ان الجو قد قلت كثافته فجأة ، وضاق نفسه ، ودخل الى قاعة الاستقبال وفتح النافذتين .

ومضت عشر دقائق . وهناك رواح ومجيء في الرواق ، وأبواب تصطفق . وجلبة اصوات : وظهرت مدام دي فونتانان يتبعها رجلان مسنّان يرتديان السواد . ورأت غريغوري فاندفعت نحوه :

ـ جيمس ! أخيراً ! آه ! يا صديقي .. لا تتركني .

فدندن بسرعة :

ـ لقد عدت اليوم من لندن .

وسارت به ، تاركة الطبيبين يتشاوران . وفي الدهليز كان انطوان ، بالقميص ، يحك اظافره في طست تمسكه له الممرضة . وامسكت مدام دي فونتانان بيدي القسيس . كانت متغيرة الوجه ، وخداها ابيضان يبدوان مجردين من لحمها ، وفمها لا يكف عن الارتجاف .

ـ آه ! ابق معي يا جيمس ، لا تتركني وحيدة ! إن جني ...

وسُمع نحيب من داخل المنزل ، فلم تتم كلامها وأسرعت نحو الغرفة . واقترب القسيس من انطوان ، ولم يقل شيئاً ، ولكن نظرته القلقة كانت تسأل ، وهز انطوان رأسه قائلاً :

ـ انها تموت .

فقال غريغوري بنبرة لائمة :

ـ اوه ! لماذا تقول هكذا ؟

فقال انطوان مقطّعاً كلمته ، وهو يرفع يده الى جبهته

ـ (ميـ ـ نانـ ـ جيت) التهاب السحايا .

ثم أضاف بينه وبين نفسه : يا له من رجل غريب .

كان وجه غريغوري اصفر ذا زوايا ، وفتائل سوداء كامدة كأنها شعر ميت، كانت تتبعثر حول جبهة عمودية بشكل استثنائي . وعلى جانبي الانف ، الذي كان طويلاً ، ساقطاً ، محتقناً ، كانت العينان المتلبدتان تحت الحاجبين تلمعان كأنهما مزوّدتان بالفوسفور : كثيرتا السواد ، دون بياض تقريباً ، ورطبتان دائماً . تقومان بحركة مدهشـــة تجعلنا نفكر بعيون بعض القرود : فيهما فتور وقساوة . أما الأكثر شذوذاً فهو أسفل الوجه : ضحكة صامتة ، وفتحة فم لا تدل على أية عاطفة معروفة ، تجتذب من كل النواحي الذقن الخالية من الشعر ، والشبيهة بالرق ، وملصقة بالعظم .

وسأل القسيس : أكان ذلك فجائياً ؟

— بدأت الحمّى نهار الاحد . ولكن الاعراض لم تتأكد الا البارحة ، نهار الثلاثاء ، في الصباح . وانعقد مجلس أطباء على الأثر ، وعملنا كل شيء — ثم أصبحت نظرته مفكرة — وسنرى ما سوف يقول هؤلاء السادة .

وختم كلامه وقد تقلص وجهه : ولكني أرى ان الطفلة المسكينة تمو ...

فقاطعه القسيس بصوت اجش : لا تكمل .

وكانت عيناه مصوبتين نحو انطوان ، ولم يكن هياجهما يتناسب مع ضحكة الفم الغريبة . وكما لو ان الهواء أصبح غير صالح التنفس ، رفع يده العظمية الى طوقه وأبقاها متشنجة تحت ذقنه ، شبيهة بعنكبوت الكابوس .

وشمل انطوان القسيس بنظرة مهيبة وقال لنفسه : « عدم تناسق واضح ، وتلك الضحكة الداخلية ، تلك الكشرة غير المعبرة كضحكة مهووس ...»

وسأل غريغوري بكثير من المجاملة :

— ارجوك ، هل عاد دانيال ؟

— لا أخبار عنه .

فتمتم وقد غير صوته بشكل ناعم : يا للسيدة المسكينة !

في تلك اللحظة خرج الطبيبان من غرفة الاستقبال ، فتقدم انطوان .

— انها تموت .

هكذا خنخن الاكبر سناً وقد وضع يده على كتف انطوان الذي التفت حالاً الى القسيس . اما الممرضة التي كانت تمر فقد اقتربت وقالت بصوت منخفض :

— حقيقة يا دكتور ، أتعتقد أنها...

في هذه المرة أدار غريغوري ظهره حتى لا يسمع الكلمة . وأصبح شعوره بالاختناق لا يحتمل . وشاهد الدرج من الباب المفتوح قليلاً ، وببضع وثبات أصبح في أسفل ، واجتاز الشارع وأخذ يركض أمامه تحت الاشجار ، ضاحكاً ضحكته الجنونية ، مختلط الشعر ، ويداه كعنكبوت الحقل متصالبتان على صدره ، متنشقاً هواء المساء بملء رئتيه . وكان يدمدم : « يا للأطباء الملاعين! » كان مرتبطاً بعائلة فونتانان ارتباطه بعائلته . وحين هبط باريس منذ ست عشرة سنة ، دون فلس في جيبه ، وجد الحفاوة والمساندة لدى القسيس بيريبه والد تيريز . ولم ينسه قط . وفيما بعد ، أثناء مرض المحسن إليه ، ترك كل شيء ليبقى بجانب سريره . ومات القسيس الهرم ويده في يد ابنته واليد الأخرى في يد غريغوري الذي كان يدعوه ولده . وكانت هذه الذكرى مؤلمة جداً بالنسبة إليه في هذه اللحظة ، بحيث نكص على عقبيه وعاد بخطى كبيرة . ولم تكن عربة الاطباء واقفة أمام البيت . فصعد بسرعة .

كانت الأبواب قد ظلت مفتوحة قليلاً . وقاده النحيب الى الغرفة ، وقد أسدلت الستائر ، والظلام مليء باللهاث والانين . ومدام دي فونتانان والممرضة ومدبرة البيت منحنيات على السرير يحرسن بكثير من الغم الجسد الصغير الذي كان يتمدد ويتقلص كسمكة على العشب .

وظل غريغوري بضع لحظات صامتاً ، وذقنه في يده ، ووجهه متجهم . وأخيراً انحنى نحو مدام دي فونتانان وقال :

— سوف يقتلون صغيرتك !

فقالت متلجلجة وهي متعلقة بذراع جني الذي كان يفلت منها

دون انقطاع :

— ماذا ؟ يقتلونها ؟ كيف ؟

فأجاب بقوة :

— اذا لم تطرديهم فسيقتلون ابنتك .

— أطرد من ؟

— الجميع .

فتطلعت إليه ذاهلة ، هل سمعت جيداً ؟ كان وجه غريغوري الصفراوي ، القريب منها ، مخيفاً . وكان قد أخذ احدى يدي جني وناداها بصوت عذب كأنه غناء :

— جني ! جني ! يا أعز ما لدي ! اتعرفينني ؟ اتعرفينني ؟

فدارت الحدقتان الشاردتان المتطلعتان في السقف ببطء نحو القسيس . وعندئذ زاد من انحنائه ، وصب نظره عليها بكثير من الاصرار والعمق بحيث انقطعت الطفلة فجأة عن التأوه . وقال للنساء الثلاث :

— دعونا !

فلم تطعه أية واحدة منهن ، وقال دون ان يحرك رأسه ، وبسلطة لا تقاوم:

— اعطني يدها الأخرى . حسناً . والآن دعونا .

فابتعدن . وظل وحده منحنياً على السرير غارزاً في العينين المحتضرتين إرادته المغناطيسية . وظل الذراعان الذي كان يمسك بهما يضربان الهواء فترة طويلة ثم انخفضا . واستمر الساقان بالانتفاض ؟ وتمددا بدورهما . واخيراً خضعت العينان فأطبقتا . وغريغوري ، المنحني دائماً ، أشار إلى مدام دي فونتانان ان تقترب منه . ودمدم :

– أنظري !. لقد سكتت . انها أكثر هدوءاً . أطرديهم ، أقول أطردي « أولاد بعلزبول » هؤلاء ! فالضلال وحده هو المسيطر فيهم !. والضلال سيقتل طفلتك . »

وكان يضحك ضحكة صامتة ، ضحكة المتنبئين الذين يملكون الحقيقة

الأبدية وما بقي من العالم بنظرهم مؤلف من الاغبياء . وبدون ان ينقل نظرته المنصبّة على حدقتي جني ، خفض صوته وقال :

— يا امرأة ، يا امرأه ، الشر غير موجود ! وانت خلقتيه . انت التي منحته القوة السيئة لانك تخشينه ، لأنك قبلت بوجوده !. انظري : ما من أحد منهم هنا يأمل بشيء . وكلهم يقولون : « هي ... » وانت نفسك ، تفكرين ، وقد لفظت الآن تقريباً : « هي ... »! « أيها الأزلي ؟ ضع حارساً على فمي ، ضع حارساً على باب شفتي ! » أوه ! الشيء الصغير المسكين ، حين ظهرتْ لم يكن حولها سوى الفراغ ، سوى السلبي !

ثم هتف بيقين معدي بحيث تكهربت النسوة الثلاث :

— أنا أقول : انها ليست مريضة ! انها بكامل صحتها ! ولكن ليتركوني .

وباهتزازات مشعوذ فرّق الأصابع شيئاً فشيئاً ، ووثب وثبة صغيرة إلى الوراء تاركاً أعضاء الطفلة تتمدد طائعةً على السرير .

وقال مؤكداً بصوت موسيقى :

— جميلة هي الحياة ! جميلة هي كل مادة ! جميل هو الذكاء ، وجميل هو الحب !. كل صحة هي في المسيح ، والمسيح فينا !

والتفت نحو الوصيفة والممرضة اللتين كانتا قد تراجعتا إلى داخل الغرفة :

— ارجوكما ، اتركاني .

فقالت مدام دي فونتانان :

— اذهبا .

ولكن غريغوري كان قد انتصب بكل ارتفاعه ، وكان يلقي بذراعه الممدودة الحُرم على المنضدة حيث توجد زجاجات الادوية ، والأربطة ، ودلو الجليد المسحوق . وقال آمراً :

— خذن كل شيء .

واطاع النسوة . وحين أصبح وحيداً مع مدام دي فونتانان صاح بفرح :

— الآن ، افتحي النافذة ، افتحي ، افتحيها على مصراعيها يا عزيزتي .

وبدت النسمة العليلة التي كانت تحدث حفيفاً في أوراق أشجار الشارع انها جاءت تهاجم هواء الغرفه الفاسد ، فتأخذه من أسفل ، وتجعله يدور بشكل حلزوني ، وتطرده خارجاً ، ووصلت مداعبتها الى وجه المريضة المحموم فارتعشت . وهمست مدام دي فونتانان :

— سوف يؤذيها البرد .

فلم يجب بسوى ضحكة سعيدة . وقال اخيراً :

— صمتاً !. اقفلي النافذة ، نعم ، جيد جداً !. وانيري كل أضوائك يامدام دي فونتانان : يجب وجود النور حولها ، يجب وجود الفرح ! وقلوبنا ايضاً يجب وجود النور حولها ، وكثير من الفرح ! « الخالد هو نورنا ، الخالد هو فرحنا : من ماذا اخاف اذن ؟..»

وأضاف رافعاً يديه :

—انت وعدتَ ان اصل قبل الساعة الملعونة !

ثم قدم كرسياً إلى جانب السرير وقال :

— اجلسي . كوني هادئة ؟ هادئة جداً . احتفظي « بالرقيب الشخصي » . اسمعي فقط ما يوحي اليك المسيح . أقول لك : المسيح يريد ان تكون بصحة جيدة ! فلنرد معه ! لنستنجد بقوة الخير العظيمة . الروح هي كل شيء. والمادي عبد للروحي. منذ يومين والعزيزة المسكينة بدون وقاية من التأثير السلبي اوه!. كل هؤلاء الرجال والنساء يبعثون فيَّ النفور : انهم لا يفكرون إلا بالسوء ، ولا يثيرون شيئاً آخر سوى المعاكس . ويعتقدون ان كل شيء قد انتهى حين يفرغ يقينهم الصغير المسكين الهزيل !

وعاد الصراخ . وعادت جني تنتفض من جديد . وفجأة قلبت رأسها ، وانفرجت شفتاها قليلا كأنها تريد أن تسلم النسمة الأخيرة . وكانت مدام دي فونتانان قد ارتمت على السرير مغطية الصغيرة بجسدها ، صارخة في وجهها :

— لا أريد ! لا أريد !

فسار القسيس نحوها كأنها جعلها مسؤولة عن الأزمة :

ـ خوف ؟.. أليس عندك ايمان إذن ؟.. أمام الله لا يوجد خوف . الخوف جسدي فقط. ضعي الكائن الجسدي جانباً فليس هو حقيقتك. لقد قال مرقس: « كل ما تطلبونه أثناء الصلاة ، آمنوا قبلاً أنكم تلقيتم هذا الشيء ، وعندئذ سوف تحصلون على تتمته . » اتركي . صلي !

فركعت مدام دي فونتانان ، وردد هو بنبرة حارقة :

ـ صلي ! صلي أولاً لأجلك أيتها النفس الضعيفة ! ليعد الرب اليك أولاً الثقة والسلام ! ففي ثقتك الكلية تجد الطفلة الخلاص ! استحضري روح الله ! اني أضم قلبي اليك : ولنصل .

واستجم لحظة وبدأ الصلاة . لم تكن في أول الأمر سوى تمتمة : كان واقفاً ، ضاماً رجليه ، مصالباً ذراعيه ، ورأسه مرتفع نحو السماء ، والجفون مطبقة ؟ وكانت فتائل شعره المعقوفة حول جبهته تكلل بلهب أسود . وشيئاً فشيئاً أصبحت الكلمات مفهومة ، والحشرجة الموقعة للطفلة كانت كمصاحبة أرغن لتضرعه .

ـ أيها القادر ، أيتها النسمة المنعشة ! انت ساكن في كل مكان ، في كل أصغر قطعة من مخلوقاتك. وأنا أدعوك من أعماق قلبي . إملأ بسلامك هذا البيت المبتلي ! ابعد عن هذا السرير كل شيء ليس هو فكرة حياة ! الشر موجود في ضعفنا فقط . آه ! يا رب ، اطرد «السلبي» منا . أنت وحدك الحكمة اللامتناهية ، وما تفعله بنا يكون وفقاً للقانون . ولهذا فإن تلك المرأة تكل اليك أمر ابنتها في دهليز الموت . انها تودعها ارادتك ، وتتركها ، وتهملها ! واذا لزم انتزاع الطفلة من أمها ، فهي ترضى بذلك ، هي ترضى بذلك !

فقالت مدام دي فونتانان متلجلجة :

ـ أوه !. اسكت !. كلا ، كلا يا جيمس .

وبدون أن يتقدم غريغوري خطوة اسقط يداً حديدية على كتفها وقال :

ـ أيتها المرأة القليلة الايمان ، أهذا أنت ؟. انت التي نفخت فيك روح الاله أكثر من مرة ..

ـ آه ! يا جيمس . لقد تعذبت كثيراً ياجيمس منذ ثلاثة أيام، لا أستطيع.

فقال وهو يتراجع :

اني انظر إليها . ليست هي ، ولا أعرفها أبداً ! لقد تركت الشرير يدخل إلى تفكيرها ، في معبد الله ! صلي أيتها السيدة المسكينة ، صلي !

ان جسد الصغيرة ، وقد غضنته هزات عصبية ، كان يثب تحت الأغطية ؛ وانفتحت العينان ؛ وحدقت النظرة المتجاوزة الحد في أضواء الغرفة بالتتابع : ولم يعرها غريفوار أي انتباه ، وحضنت مدام دي فونتانان الابنة بذراعيها ، وحاولت السيطرة على ارتجافاتها . وكان القسيس يرتل :

ـ ايتها القوة العظمى ! ايتها الحقيقة ! لقد قلت : « من اراد ان يتبعني فلينكر نفسه » . إذا لزم ان تنفصل الام عن ولدها فهي ترضى ! انها راضية !

ـ كلا ، يا جيمس ، كلا .

فانحنى القسيس .

ـ تنازلي ! فالتنازل كالخميرة : كما تعمل الخميرة بالطحين كذلك يعمل التنازل بالفكرة السيئة ويرفع الخير ! ـ ثم نهض وقال : ـ اذن خذ ابنتها يارب ان أردت ، خذ . انها تتنازل ، انها تترك ! واذا كنت بحاجة الى ولدها .

ـ كلا ، كلا .

ـ ... إذا كنت بحاجة لأخذ ولدها أيضاً فلينتزع منها ولايعود الى الظهور أبداً على عتبة بيت الأم .

ـ دانيال .. كلا .

ـ يا رب ، انها تسلم ولدها الى حكمتك ، وبملء رضاها ! وإذا لزم ان يزول الزوج أيضاً فليزل .

فأعولت وهي تزحف على ركبتيها :

ـ ليس جيروم .

فقال القسيس بهوس متزايد :

ـ ليكن كذلك ! ليكن دون جدال ، وبإرادتك يا منبع النور ! يامنبع

الخير ! ايها الروح .

ووقف وقفة قصيرة ثم قال دون ان ينظر إليها :

— هل قمت بالتضحية ؟

— الشفقة يا جيمس ، لا استطيع ..

— صلي .

ومضت بضع دقائق .

— هل قمت بالتضحية ، التضحية الكاملة !

فلم تجب وهبطت على قدم السرير .

ومضى ما يقرب من ساعة . وظلت المريضة ساكتة ؟ ورأسها فقط ، رأسها الأحمر المنتفخ ، كان ينوس يميناً وشمالاً ؛ وكان تنفسها خشناً ؟ وكان لعينيها اللتين لم تطبقهما تعبير حنون .

وفجأة ، ودون ان تتحرك مدام دي فونتانان ، ارتجف القسيس كما لو انها نادته باسمه ، وجاء يركع إلى جانبها . فانتصبت ؟ وكانت قسماتها اقل تمدداً ! وتأملت طويلاً الوجه الصغير الازرق على الوسادة ، وابعدت ذراعيها وقالت :

— يا رب . لتكن مشيئتك وليس مشيئتي .

ولم يتحرك غريغوري . لم يكن يشك في ان هذا الكلام سيقال في وقته . وكانت عيناه مطبقتين ؛ وكان يطلب رحمة الله بكل إرادته .

وتوالت الساعات . وبين لحظة واخرى كان يظن ان الصغيرة ستفقد قواها الأخيرة ، وكان كل ما بقي لها من الحياة يبدو مهتزاً مع نظراتها . وفي لحظات اخرى ، كانت التشنجات تهز الجسد ، عندئذ كان غريغوري يأخذ احدى يدي جني في يديه ويقول بضراعة :

— سنحصد ! سنحصد ! ولكن يجب ان نصلي . لنصلّ .

ونهض حوالي الساعة الخامسة وأسبل على الطفلة غطاء كان قد انزلق على الأرض ، وفتح النافذة . وهجم هواء الليل البارد على الغرفة . ومدام دي فونتانان لا تزال راكعة ولم تقم بحركة لتمسك القسيس .

وصعد إلى الشرفة. وكان الفجر لا يزال متردداً، والسماء تحتفظ بلون معدني؟ والشارع متجوف كخندق في الظلام . ولكن الافق كان يشحب على حديقة اللوكسمبورغ ، والابخرة تدور في الشارع وتغلف باقات الذرى السوداء بالقطن المندوف. ووتّر غريغوري ذراعيه لئلا يرتجف، وانعقدت قبضتاه على الحاجز . وطراوة الصباح يهدهدها هواء خفيف بللت جبهته الرطبة ووجهه الذي ابلاه السهر والصلاة . وكانت السطوح قد اصبحت زرقاء ، والنوافذ الخارجية تبدو جلية على حجر البيوت الداخن .

وأدار القسيس وجهه نحو المشرق . أعماق مظلمة من الليل ، وبساط واسع من النور كان يصعد نحوه ، ونور وردي شع في السماء كلها . واستيقظت الطبيعة بأكملها ؛ وكانت مليارات من الذرات الفرحة تتلألأ في الهواء الصباحي .وفجأة، نفخت صدره نسمة جديدة ، ونفذت اليه قوة فوق قوة البشر ، ورفعتـه ، وكبّرته بشكل مفرط . ووعى في لحظة مسؤوليات لا حدود لها : تفكيره يقود الكون : يستطيع ان يفعل كل شيء . يستطيع ان يصيح بتلك الشجرة : اهتزي ! فتهتز ؟ وبتلك الطفلة : انهضي ! فتبعث حية . يمد ذراعه ، ويطيل حركته ، فتختلج فجـأة أوراق أشجار الشارع : يتفلت سرب من العصافير من الشجرة التي عند قدميه ويزقزق بنشوة .

عندئذ اقترب من السرير ، ووضع يده على شعر الام الراكعـة . وهتف :

— هللويا ، يا عزيزتي ! لقد تم التنظيف الكلي !

وتقدم نحو جني :

— لقد ُطردتْ الظلمات ! اعطني يديك يا قلبي الحلو .

والطفلة التي لم تكن تفهم الكلام منذ يومين قدمت يديها .

— انظري إلي !

فتطلعت اليه العينان الشاردتان اللتان تبدوان انهما لا تنظران .

— سينقذك من الموت ، وسوف تكون حيوانات الارض بسلام معك . انت بصحة كاملة أيها الشيء الصغير ! لا يوجد ظلمات أبداً ! الحمد لله ! صلي .

واستعاد نظر الطفلة تعبيراً واعياً : وقد حركت شفتيها ، وبدا حقيقة انها تبذل جهداً لتصلي .

– والآن يا حبيبتي اطبقي جفونك . بهدوء ...حسناً... نامي ، ياحبيبتي . ليس عندك ما يعاكسك . يجب أن تنامي من الفرح .

وبعد بضع دقائق ، وللمرة الاولى منذ خمسين ساعة ، نامت جني . وانغمس رأسها الجامدباسترخاء في المخدة، وكان ظل الأهداب يمتد على الخدين، واخرجت الشفتان نفساً منتظماً . لقد نجت .

٦

لقد كان دفتراً مدرسياً ذا قماش رمادي اللـون ، اختير للرواح والمجيء بين جاك ودانيال دون أن يلفت انتباه الاستاذ . وكانت الصفحات الاولى ملوثـة بكتابات مثل :

« ما هي تواريخ بيير التقي ؟ »

« هل تكتب *Rapsodie* أو *Rhapsodie* ؟ »

« كيف تترجم كلمة *Eripuit* ؟ »

وصفحات أخرى ملأى بملاحظات وتصليحات يجب أن تكون متعلقـة بقصائد جاك المكتوبة على أوراق منفصلة .

وبعد ذلك مراسلة متصلة بين الطالبين . والرسالة الاولى ، الطويلة قليـلاً كانت من جاك :

« باريس ، مدرسة اميو ، الصف الثالث أ ، تحت العين المتشككة للاستاذ ك ، ك ، الملقب بوبر الخنزير ، نهار الاثنين ، اليوم السابـع عشر من اذار ، في الساعة الثالثة والدقيقة الواحدة والثلاثين ، والثانية الخامسة عشرة .

هـل حالتك النفسية هي اللامبالاة ، وحب اللذات الجسدية ، أو الحب ؟ اني أميل إلى الحالة الثالثة التي تلائم طبيعتك أكثر من الآخريات .

أما أنا فكلما درست عواطفي أرى ان الانسان **هو بهيمة** .

وان الحب وحده يستطيع النهوض به . انها صرخة قلبي المجروح وهو لا يخدعني ! وبدونك يا أعز صديق لن أكون سوى تلميذ كسول ، سوى أبله . وإذا كنت اهتز للمثل الأعلى ، فإني مدين لك بذلك .

لن أنسى أبداً تلك اللحظات ، النادرة جداً مع الأسف ! والقصيرة جداً حيث كان الواحد منا للآخر بكامله . انت حبي الوحيد ! ولن يكون لي سواك أبداً لأن الف ذكرى غرام منك سوف تهاجمني حالا . وداعاً ، لقد انتابتني الحمّى ، وصدغاي يخفقان ، وعينان تضطربان . لن يفصلنا شيء أبداً ، أليس كذلك ؟ أوه ! متى ، نصبح أحراراً ، متى نستطيع العيش معاً ، ونقوم برحلة معاً ؟ سأعبد البلاد الأجنبية ! نجمع معاً انطباعات خالدة ، ومعاً نحوّلها إلى شعر وهي لا تزال طازجة !

لا أحب الانتظار . أكتب إلي بأسرع ما يمكن . أريد أن تجيبني قبل الساعة الرابعة إذا كنت تحبني كما أحبك !

قلبي يعانق قلبك كما كان بترون [1] يعانق حبيبته الالهية اونيس .

الى اللقاء يا روحي ».

– ج –

وقد أجاب دانيال على هذه الرسالة على الصفحة التالية :

« اشعر اني أود ان اعيش وحيداً تحت سماء اخرى ، والرباط الوحيد الذي يجمع بين روحينا ، يجعلني مهما كان الامر أعرف كل ما يطرأ عليك . ويبدو لي ان الايام لا تمر على محبتنا القلبية .

ويستحيل علي قول مقدار السرور الذي سببته لي رسالتك . ألم تكن صديقي ، أو لم تصبح لي اكثر من صديق ؟ نصفي الحقيقي ؟ ألم اساهم في تكوين

---

١ بترون *Pétrone* : كاتب وشاعر لاتيني عاش في بلاط نيرون واتهم بمؤامرة في بيزون ، وقطع شريانه عام ٦٥ .

نفسك كما ساهمت في تكوين نفسي ؟ يا إلهي ، لكم اشعر بصدق وقوة ذلك وانا اكتب إليك ! انا احيا ! وكل شيء يحيا فيّ ، الجســـد ، والروح ، والقلب ، والمخيلة ، بفضل حبك الذي لا أرتاب به أبداً يا صديقي الحقيقي الوحيد ».

ـ د ـ

« ملاحظة : لقد اقنعت امي لتبيع لي دراجتي التي اصبحت قديمة » .

ـ د ـ

ورسالة اخرى من جاك :

« اوه ، يا حبيبي !

كيــف تستطيع ان تكون تارة مرحاً وطوراً كئيباً ؟ فأنا ، في أكثر مرحي جنوناً ، اكون احياناً فريسة ذكرى مؤلمة . كلا ، ابداً ، اني اشعر بها ، ولن اعرف ان اكون مرحاً وتافهاً ! سينتصب امامي دائماً طيف مثل أعلى صعب المنال !

آه ! احياناً أدرك الانجذاب الروحي لأولئك الراهبات الشاحبات ذوات الوجه المصاب بفقر الدم ، واللواتي يقضين حياتهن خارج هـــذا العالم الكثير الواقعية ! انه الحصول على أجنحة لتحطيمها ، مع الأسف ، على حواجز سجن! أنا وحيد في كونٍ معاد ؛ وابي المحبوب لا يفهمني . ومع اني لست هرماً ، فكم ورائي من أغراس مكسرة ، ومن ندى اصبح مطراً ، وكم من لذات لم تشبع ، ومن يأس مر !

سامحــني يا حبي لكوني حزيناً في هذه اللحظة . انا في طريق التكوين دون شك : دماغي يغلي ، وقلبي ايضاً (وبشكل اشد اذا امكن ذلك) . لنظل متحدين . وسنتجنب المهالك معاً ، وكذلك هـــذا الاعصار الذي يسمونه اللذات .

كل شيء اختفى في يدي ، ولكن تبقى لي اللذة في ان انذر نفسي لك ، اوه ، انت الذي اختاره قلبي ! » .

«ملاحظة : انهي هذه الرسالة على عجل بسبب قطعة الاستظهار التي لا أعرف منها اول كلمة .

اوه يا حبي ، لو لم احصل عليك لقتلت نفسي » .

- ج -

وقد أجاب دانيال على الأثر :

« أتتألم يا صديقي ؟

لماذا ، وانت لا تزال صغيراً ، يا صديقي العزيز جداً ، انت الذي لاتزال صغيراً ، لماذا تلعن الحياة ؟ تدنيس للقدسيات ! اتقول ان نفسك مقيدة بالأرض ؟ اشتغل ! آمل ! أحب ! اقرأ !

كيف أخفف عنك العذاب الذي يرهق نفسك ؟ وأي دواء لصرخات خمود الهمة تلك ؟ كلا يا صديقي . ان المثل الأعلى غير متناقض مع الطبيعة الانسانية . كلا ، ليس ذلك فقط خيالاً صبيانياً خلال حلم الشاعر ! والمثل الأعلى في نظري (هذا صعب شرحه) ، ولكن في نظري هو مزج الكبير بأصغر الأشياء الأرضية ، هو ان تجعل كل ما تعمله كبيراً ، انه النمو الكامل لكل ما وضعته النسمة الخالقة فينا كخصائص إلهية . اتفهمني ؟ هذا هو المثل الأعلى كما هو موجود في أعماق قلبي .

واخيراً ، اذا كنت تصدق صديقاً مخلصاً حتى الموت ، عاش كثيراً لانه حلم كثيراً وتعذب كثيراً ، اذا كنت تصدق صديقك الذي لا يريد سوى سعادتك ، فيجب ان تردد بانك لا تعيش لأجل اولئك الذين لا يستطيعون فهمك ، ولا لأجل العالم الخارجي الذي يحتقرك ، ايها الولد المسكين ، بل لاجل أحد الناس (أنا) الذي لا ينقطع عن التفكير بك ، ويشعر مثلك ومعك في جميع الاشياء !

آه ! لتكن حلاوة علاقتنا الممتازة بلسماً مقدساً على جرحك ياصديقي !» .

- د -

وكان جاك قد كتب على الهامش دون ان ينتظر :

« عفواً ، يا حبي الأعز ! انه خطأ طبعي العنيف ، المبالغ ، الجامح ! اني انتقل من خمود الهمة الاكثر دكنة الى الآمال الاكثر تفاهة : حق الاملاق ، وفي اللحظة التـــالية أُجتذب حق الأوج ! الا احب اذن شيئاً بعد ذلك ؟ (إذ لم تكن انت !) (وفني !!!..) هذا هو قدري ! اقبل هذا الاقرار .

احبك لشرف نفسك ، ولحساسيتك التي تشبه حساسية الزهرة ، وللجدية التي تضعها في كل افكارك ، وفي كل أعمالك ، وحق في اندفاعات الحب . ان كل حنانك ، كل قلقك ، اعانيه مثلك في الوقت نفسه ! لنشكر العناية لاننا تحاببنا ، ولان قلوبنا التي اتلفتها الوحدة استطاعت ان تتحد في حضنة لا تنحلّ .

لا تتركني ابداً !

ولنتذكر إلى الأبد ان للواحد منا في الآخر ، مادة الشغف لحبنا » .

– ج –

صفحتان طويلتان من دانيال : كتابة عالية ورصينة :

هذا الاثنين ٧ نيسان

« يا صديقي ،

غداً ابلغ الرابعة عشرة . في السنة الماضية كنتُ اتمتم : اربـــع عشرة سنة .. ـ كما في حلم جميل لا يمكن بلوغه . الوقت يمضي ونحن نذبـــل . وفي الداخل لم يتغير شيء . نحن انفسنا دائماً . ما من شيء تغير ، سوى انني اشعر بخمود الهمة وانني شخت .

البارحة مساءً ، وانا أنام ، أخذت كتاباً لموسيه[1] *Musset* . في المرة الأخيرة ، ومنذ الابيات الأولى ، كنت ارتعش . واحياناً كانت الدموع تتفلت من عيني . والبارحة ، اثناء ساعات الأرق الطويلة ، تحمست وما شعرت بحدوث شيء . وكنت أجد الجمل مقطعة جيداً ، ومتناسقة .. يا لهمن تدنيس للقدسيات ! واخيراً استيقظتْ فيّ العاطفة الشعرية ، مع سيل من الدموع العذبة ، واخيراً تأثرت .

١ ـ الفريد دي موسيه الشاعر الفرنسي المعروف .

آه ! بشرط الا يجف قلبي ! اني أخشى ان تقسّي الحياة قلبي وحواسي . لقد شخت . والأفكار الكبرى لله ، والروح، والحب، لا تخفق الآن في صدري كالسابق . والشك القارض يفترسني أحياناً . يا للأسف ! لماذا لا نعيش بكل قوة نفسنا بدلاً من ان نشغل العقل ؟ « اننا نفكر كثيراً ! » واني لأحسد قوة الشباب التي تندفع إلى الخطر دون ان ترى شيئاً ، دون تفكير ! أريد ان أستطيع التضحية بنفسي ، وانا مطبق العينين ، في سبيل فكرة سامية ، في سبيل امرأة مثالية ، دون دنس ، بدلاً من ان أظل دائماً منطوياً على نفسي ! آه ! هذا فظيع ، هذه المطامح بدون نتيجة .

تهنئني على « جديتي » . انها شفائي ، بالعكس ، انها قدري الملعون ! انا لست كالنحلة التي تجني وتذهب لتمتص الرحيق منزهرة ، ثم من زهرة اخرى. اني كالخنفساء السوداء التي تحبس نفسها في حضن وردة واحدة وتعيش فيها الى ان تطبق تويجاتها عليها ، وحين تختنق من هذه الحضنة السامية تموت بين ذراعي الزهرة التي اختارتها .

ان تعلقي بـك كثير الاخلاص يا صديقي ! أنت الوردة النضرة التيتفتحت لأجلي على هذه الأرض الحزينة . أدفن حزني الأسود في أعماق تجويف قلبك الصديق !» .

« ملاحظة : سيصبح بامكانك ان تكتب إلي إلى البيت دون خوف اثنـــاء عطلة عيد الفصح . أمي تحترم جميع رسائلي . (ومع ذلك لا لزوم لاشياء غير عادية !) .

انهيت رواية « النكبـة » لزولا واستطيع إعارتها لك . لا ازال متـأثراً منها ومرتعشاً . انها جمال من القوة والعمق . وقد بدأتبـ ورتر (١) *Werther* . آه !.. يا صديقيّ ، اخيراً هذا هو كتاب الكتب ! واخذت ايضاً « هي وهو »

---

١ ـ قصة « آلام ورتر » لغوت الشاعر الالماني العظيم . « المعرب »

لـ جيب GEP ، ولكني سأقرأ ورتر أولاً » .

ـ د ـ

وأرسل اليه جاك هذه الأسطر القاسية :

« بمناسبة بلوغ صديقي السنة الرابعة عشرة من سنه :

يوجد في الكون رجل يقاسي في النهار آلاماً فائقة الوصف ، وفي الليل لا يستطيع النوم ، يشعر بفراغ رهيب في قلبه لا تستطيع اللذة ان تملأه ، وفي رأسه غليان جميع خصائصه ، وإثناء المسرات ، وبين جميع المدعوين المرحين يشعر فجأة بالوحدة ذات الاجنحة القاتمة تحوم على قلبه ، ويوجد في الكون رجل لا يأمل بشيء ولا يخشى شيئاً ، يكره الحياة ولا يملك القوة لتركها : ان هذا الرجل هو **الذي لا يؤمن بالله** .

ملاحظة : احتفظ بهذه . وستقرأها حين تصاب بالتلف وستهدأ عبثاً في الظلمات ».

ـ ج ـ

وفي أعلى صفحة سأل دانيال :

ـ هل اشتغلت اثناء العطلة ؟

واجاب جاك :

ـ « انهيت قصيدة من نوع قصيدتي « هارموديوس وأريستوجيتون » تبدأ بطريقة لبقة :

ايف سيزار ! هذه هي الغالية ذات العينين الزرقاوين .
لأجلك ، الرقصة المحبوبة لوطنها المفقود !
مثل لوتس الأنهر تحت طيران البجع الثلجي .
قامتها تلتوي في ارتعاشة ..
ايها الامبراطور ! وسيوفها الثقيلة تقدح شرراً ..
انظر ! انها رقصة من بلادها !

الخ... الخ... وتنتهي هكذا :

ولكنك تشحبين يا سيزار ! واأسفاه ! ثلاث مرات واأسفاه !
لقد عضّت ظبات السيوف نحرها !
ونجا من القطع .. عيناها مطبقتان .
وها هي دامية .
الرقصة العارية في الامسيات السابحة بنور القمر !
أمام النار المتأججة المضيئة التي تختلج على ضفة البحيرة .
ها قد انتهى رقص
المحاربة الشقراء في وليمة سيزار !

وقد دعوتها « التقدمة الارجوانية » ولدي رقص اعاني يلائمها واريد اهداءها إلى لوي فولر الإلهية لترقصها في الأولمبيا . اتعتقد انها تفعل ذلك ؟

« منذ عدة ايام عزمت عزماً لا يتزعزع على ان أعود إلى الشعر المنتظم وإلى قافية الكلاسيكيين الكبار . (وبالاجمال ، اظن انني كنت احتقرهم لأن هذا اكثر صعوبة) . وقد بدأت بقصيدة مغنّاة *Ode* ذات ابيات مقفّاة ، حول الشهيد ، كنت حدثتك عنها ، وإليك أولها :

إلى الأب المحترم بربوير اللعازري
الذي استشهد في الصين في ٢٠ تشرين الثاني ١٨٣٩ وطُوّب في كانون الثاني ١٨٨٩ :

سلاماً أيها الكاهن القديس الذي استشهاده المؤثر
جعل العالم المرتعب يرتعش اشمئزازاً !
اسمح لاشعاري ان تنشدك على قيثارتي ،
يا بطل مسيحيتنا .

ولكن منذ البارحة مساء ، أعتقد أن دعوتي الحقيقية ستكون في كتابة قصص قصيرة وروايات إذا كان لي صبر على ذلك ، وليس في الشعر . وأنا أشتغل بموضوع عظيم . اسمع :

« فتاة شابة ، ابنة فنان كبير ، ولدت في زاوية مشغل ، وهي نفسها فنانة

(يعني من نوع خفيف قليلاً ، ولكنها تجعل مثلها الأعلى ليس في حياة العائلة ، بل في التعبير عن الجمال) . أحبها شاب عاطفي ولكنه بورجوازي ، استهـواه جمالها الوحشي . ولكنهما لم يلبثا أن تباغضا بشدة وافترقا ، هـو لحياة عائلية طاهرة مع ريفية صغيرة ، وهي ، وقد كدرهـا الحب ، تنغمس في الفسق (أو تكرس عبقريتها لله ، لا أعرف بعد) » . هذه هي فكرتي: فما رأيك ياصديقي؟

آه ! كما ترى ، عدم عمل أي شيء اصطناعي ، وأن يتبع المرء طبيعته ، وحين يشعر أنه وُلد لكي يبتكر ، فإنه يعتبر أن لديه أخطر المهام وأجملهـا في هذا العالم ، واجباً كبيراً يجب القيام به . نعم ! أن يكون المرء صادقاً ، حاذقاً بكل شيء ، وبشكل دائم ! آه ! لكم تلاحقني هـــذه الفكرة بضراوة ! الف مرة ظننت أنني اشاهد في نفسي زيف الفنانين الزائفين،والعبقريات الزائفة التي تحدث عنها موبسّان[1] في قصته « على الماء » . كان قلبي يهتاج من التقزز . أوه يا عزيزي ، لكم اشكر الله الذي اعطانيك ، وكم يحتاج احدنا الآخر الى الابد لنعرف أنفسنا جيداً ولا ننخدع بعبقريتنا الحقيقية ابداً .

اعبـدك واشد على يدك بشغف ، كهذا الصباح ، هل تعلم ؟ وبكل كياني الذي هو لك ، بكامله وبلذة !

احـذر ، فان ك.ك ينظر الينا نظرة مريبـــة . لايستطيع ان يدرك ان هناك افكاراً نبيلة يرسلها المرء الى صديقه بينما يكون هو متتعتعاً بقراءة صلواته ! » .

– ج –

ومن جاك ايضاً هذه الرسالة المكتوبة بسرعة ، وغير مقروءة تقريباً :

« صديقي الحبيب !

قلبي كثير الامتلاء ، انه يفيض ! وأسكب ما استطيع من امواجه المزبدة على الورقة .

اني مـولود للألم ، والحب ، والامل ، وها اني آمل وأحب وأتألم ! ان

---

١ ـ غي دي موبسان : كاتب روائي فرنسي شهير . « المعرب »

حكاية حياتي قائمة في سطرين : ان ماجعلني اعيش هو الحب ، وليس لي سوى حب واحد : انت !

كنت منذ سنوات طفولتي بحاجة إلى إفراغ غليان قلبي هذا في قلب واحد يفهمني في كل شيء . كم كتبت من رسائل في السابق إلى شخص وهمي كان يبدو لي كأخ ! واأسفاه ! كان قلبي يتكلم ، أو بالأحرى يكتب إلى قلبي بنشوة . ثم ، فجأة ، أراد الله ان يتكوّن هذا المثل الأعلى لحماً ، وتجسد فيك ، أوه ! ياحبيبي ! كيف بدأ هذا ؟ ما من أحد يعلم : من حلقة إلى حلقة ، يضيع المرء في متاهة من الأفكار دون ان يجد الاصل . ولكن هل بالامكان ان يحلم المرء بما هو اكثر عاطفة وسمواً؟ اني ابحث عبثاً عن مقارنات. كل شيء يبهت أمام سرنا الكبير ! انه شمس تدفىء وتنير حياتنا . ولكن كل هذا لا يمكن كتابته ! الكتابة ، انها تشبه صورة فوتوغرافية لزهرة .

ولكن يكفي !

ربما تكون بحاجة إلى نجدة ، إلى تعزية ، إلى أمل ، واني أرسل اليك ، ليس كلمات حبية ، بل تلك الشكايات لقلب اناني لا يعيش إلا لنفسه . عفواً يا غرامي ! لا استطيع ان اكتب اليك غير ذلك . اني اجتاز أزمة وقلبي اكثر جفافاً من أرض وهدةٍ صخرية. ارتياب بكل شيء وبنفسي ، أليس أنت الضرر الأكثر شراسة ؟

احتقرني ، لا تكتب إلي ! أحب غيري ! فلست جديراً بعطية نفسك !
يا لسخرية القدر المشؤوم التي تدفعني إلى اين ؟ اين ؟ العدم !
اكتب إلي فلو لم تكن لي لقتلت نفسي .
لا تنقطع عني يا عزيزي ! » .

– ج –

وكان الأب بينو قد ادرج في نهاية الدفتر بطاقة عثر عليها الاستاذ عشية الهرب .

وكانت الكتابة بخط جاك : خربشة شنيعة بالقلم الرصاصي :

« إلى الناس الذين يتهمون بجبن ودون براهين ، إلى هؤلاء ، العار !
« العار والبؤس !
« هذه المكيدة يسيرها فضول دنيء! كانوا يريدون بعثرة صداقتنا وطريقتهم شائنة .
« لا وجود للإحراج الجبان ! الوقوف في وجه العاصفة ! وإلا الموت !
« ان حبنا فوق النمائم والتهديدات .
« لنثبت ذلك .
لك مدى الحياة » .

– ج –

٧

كانا قد وصلا إلى مرسيليا مساء الأحد ، بعد منتصف الليل . وكانت الحماسة قد فترت . وكانا قد ناما منطويين على المقعد الخشبي في عربة القطار المضاءة بشكل سيء، والدخول إلى المحطة ، وقرقعة الصفائح الدائرة، ايقظاهما مرتجفين ، فنزلا إلى الرصيف بعيون طارفة ، صامتين قلقين ، صاحيين من السكرة .

وكان يجب ان يناما . ومقابل المحطة ، تحت كرة بيضاء تحمل آرمة «فندق» كان المدير يرصد الزبائن . ودانيال ، وهو الأكثر رباطة جأش بينهما ، طلب سريرين لقضاء الليل . والقى الرجل بعض الاسئلة ، لانه حذر مبدئياً ، (كان كل شيء مهيأ : في محطة باريس نسي والدهما طرداً وتأخر عن الرحيل، وسوف يصل غداً دون شك في أول قطار) . وصفر صاحب الفندق صفيراً خفيفاً والقى على الولدين نظرة سيئة . واخيراً فتح سجلاً :

ــ سجلا اسميكما .

ووجه الكلام إلى دانيال لأنه يبدو الأكبر سناً ــ يبدو في السادسة عشرة ــ

ولأن تميز قسماته على الخصوص ، وشخصه كله ، يوحيان بعض المراعاة . وكان قد خلع قبعته عند دخوله إلى الفندق ، لا بدافع الخجل ، بل كان لديه طريقة في خلع قبعته وإسقاط ذراعه تبدو انها تقول : « لم اخلع قبعتي خصوصاً لاجلكم ، بل لانني اتمسك بعادات الأدب » . وكان شعره الأسود المفروق بترتيب يشكل طرفاً مميزاً في وسط الجبهة التي كانت كثيرة البياض ؛ والوجه المستطيل ينتهي بذقن ذات رسم ثابت ، هو إرادي وهادىء معاً ، دون شيء من العنف . ونظراته خضعت ، دون ضعف أو ثرثرة، لفحص صاحب الفندق، وكتب على السجل دون تردد : جورج وموريس لوغران .

— الغرفة هنا بسبعة فرنكات ، والدفع مقدماً دائماً . ويصل أول قطار في الساعة الخامسة والنصف ، سوف أدق الباب عليكما .

ولم يجرؤا على القول انهما كانا ميتين من الجوع .

كان أثاث الغرفة مؤلفاً من سريرين ، وكرسي وطست . وعند دخولهما بعث نفس الارتباك فيهما الاضطراب : ان يخلعا ملابسهما الواحد أمام الآخر .. وتبددت كل رغبة بالنوم . ولكي يؤخرا اللحظة المؤلمة جلسا على سريريهما ليعملا حساباتهما : وبعد الجمع ارتفعت مدخراتهما إلى مئة وثمانية وثمانين فرنكاً اقتسماها . وسحب جاك ، وهو يفرغ جيوبه ، خنجراً كورسكياً صغيراً ، وأوكارينا [1] ، وترجمة لدانتي بخمسة وعشرين سنتيماً .. واخيراً ، لوحاً من الشوكولا ذاب نصفه ، واعطى نصف ما بقي لدانيال . ثم انهما ظلا دون ان يعرفا ماذ يفعلان . ولكي يربح دانيال الوقت حل شريط حذائه ، وفعل جاك مثله . واخيراً عزم دانيال على امر :إذ نفخ الشمعة قائلاً :«إذن اطفىء النور.. اسعدت مساءً » . وناما بسرعة ، صامتين .

وفي الصباح ُهز بابهما قبل الساعة الخامسة ، فارتديا ملابسهما كالاشباح دون

---

١ - اوكارينا *Ocarina* : آلة موسيقية هوائية صغيرة من فخار أو من معـدن ، بيضوية الشكل لها فم وفيها عدة ثقوب .

اي ضوء سوى الفجر الشاحب . وقد جعلهما الخوف من التحدث اليهما يرفضان القهوة التي اعدها صاحب الفندق ، وبلغا محـــل بيع المأكولات في المحطة ، مرتعشين ، على الطوى .

وعند الظهر كانا قد طافا مرسيليا مــن جميع جهاتها . وعادت اليهما الجرأة مع النهار والحرية ، وكان جاك قد اشترى دفتراً صغيراً ليكتب انطباعاته ، وكان يقف بين وقت وآخر ، ملهم العين ، ليكتب ملاحظات . واشتريا خبزاً ولحم خنزير ، وبلغا المرفأ ، وجلسا على لفافة من الحبال امام البواخر الكبيرة الساكنة والمراكب الشراعية المهتزة .

وانهصهما بحار لينشر حباله . وجازف جاك سائلاً :

– الى اين تذهب هذه المراكب ؟

– هذا يتوقف . اي مركب منها ؟..

– ذلك الكبير .

– الى مدغسقر .

– صحيح ؟ وهل سنراه يبحر ؟..

– كلا ، فهذا لا يبحر الا يوم الخميس . ولكن اذا أردت ان تشاهد عملية إبحار فيجب ان تأتي في الساعة الخامسة من هذا المساء : فهذا ، « لافاييت » يذهب الى تونس .

وحصلا على ما أرادا من معلومات. وقال دانيال ملاحظاً :

– ان تونس ليست الجزائر ..

– انها افريقيا على كل حال .

قال جاك ذلك منتزعاً لقمة من الخبز . وكان مقعياً على عقبيه فوق كومة من الأغطية المعدة لحفظ البضائع من المطر ، بشعره الامغر ، القاسي ، المشعث ، المغروس كالاعشاب على جبهتـــه المنخفضة ، ورأسه العظمي ذي الاذنين المنفصلتين ، وعنقه الهزيل ، وانفه الصغير السيء التكوين الذي كان يغضنه دون انقطاع . وكانت هيئته كسنجاب يقضم اثمار الزان .

وتوقف دانيال عن الاكل :

ـ قل اذن .. لو كتبت لهم من هنا قبل ان ...

فقاطعته نظرة الصغير الذي صرخ وفمه ملآن :

ـ أمجنون انت ؟ ليقبضوا علينا عند الوصول ؟

وتطلع الى صديقه بغضب . ففي ذلك الوجه الكريه ، المبقّع ببقع من النخالة ، كان في العينين الزرقاوين ، الصغيرتين ، المكسرتين ، العنيدتين حياة مؤثرة ، وكانت نظراتها متغيرة الى درجة انها لا تُفهم ، احياناً جدية ، ثم شيطانية ، وتارة عذبة ، وناعمة ايضاً وفجأة تصبح رديئة ، شرسة تقريباً ؛ وأحياناً مبللة بالدموع ولكنها في أغلب الأحيان جافة ، مضطرمة ، كأنها لا تستطيع ان ترق ابداً .

وكان دانيال على وشك الاجابة ، ولكنه صمت . وكان وجهه المصالح يعرض نفسه لغضب جاك دون دفاع ، وأخذ يبتسم كأنه يعتذر . وكانت لديه طريقة خاصة بالابتسام : كان فمه الصغير ذو الشفتين المخاطتين يرتفع فجأة نحو اليسار كاشفاً الاسنان ، وعلى قسماته الجدية يضع المرح الطارىء وهماً جذاباً .

لماذا لا يتمرد ذلك الغلام الكبير المفكر على سلطة ذلك الصبي ؟ ألم تمنحه تربيته ، والحرية التي كان يتمتع بها ، الحق الذي لا يقبل الجدل على جاك ، بصفته الأكبر سناً ؟ ودون ان نذكر ان دانيال كان تلميذاً ممتازاً وجاك كسولاً في المدرسة حيث التقيا . وكان عقل دانيال النير متقدماً على ما يطلب منه من جهد . اما جاك ، فبالعكس ، كان يشتغل بشكل سيء ، وبالاحرى لا يشتغل ابداً . ألأن الذكاء ينقصه ؟ كلا . ولكن من سوء الحظ كان ذكاؤه يندفع الى جهة اخرى غير جهة الدرس . فهناك شيطان داخلي كان يوحي اليه دائماً مئة حماقة يقوم بها ؟ ولم يكن يعرف ان يقاوم اي ميل ؛ ومع ذلك فقد كان يبدو غير مسؤول ويرضي اهواء شيطانه فقط . اما ما بقي ان نقوله فهو الاكثر غرابة : مع انه كان الاخير في صفه ، في كل شيء ، فان رفاقه ، وحتى

أساتذته ، لم يكونوا يستطيعون الكف عن العمل لصالحـــه : وبين أولئك الاولاد ، حيث الشخصية تتأرجح بين العادة والنظام ، والى جانب هؤلاء الاساتذة الذين ابلى السن والرقابة طاقتهم الحيوية ، فان ذلك الكسول ذا الوجه المقيت ولكنه ذو فورات من الصراحة والإرادة ، والذي يبدو عائشاً في دنيا من الوهم خلقها لنفسه فقط ، والذي لا يتردد في الاندفاع في المغامرات الأكثر صعوبة دون ان يخشى الاخطار ابداً ، ذلك المسخ الصغير كان يثير الرعب ، ولكنه كان يفرض اعتباراً لاواعياً . وكان دانيال من الاوائل الذين تعرضوا لجاذبية هذه الطبيعة الاكثر تعقيداً منه ، ولكنها غنية جداً ما انفكت تدهشه وتعلمه ؛ ومع ذلك فقد كان لديه هو أيضاً شيء من النشاط ، وذلك الميل نفسه إلى الحرية والتمرد . أما جاك ، وهو تلميذ نصف داخلي في مدرسة كاثوليكية ، ومولود في عائلة تشغل فيها الشعائر الدينية مكاناً كبيراً ، فكان يحاول اثارة انتباه هذا البروتستانتي الذي يتوقع من خلاله عالماً مناقضاً لعالمه ، أولاً لأجل التملص مرة اخرى من الحواجز المحيطة به . ولكن ببضعة اسابيع ، وبسرعة النار ، اسبحت رفقتهما شغفاً مانعاً ، حيث وجد كل منهما أخيراً الدواء لعزلة أخلاقية كانا كلاهما يتألمان منها دون ان يعرفا . انه حب طاهر ، حب صوفي كان شباباهما فيه يتحدان في نفس الاندفاعة نحو المستقبل ، والاشتراك في جميع العواطف المفرطة والمتناقضة التي تجتاح نفسيهما في سن الرابعة عشرة ، منذ الشغف بدود الحرير والالفباءات المرقمة حتى وساوس ضميريهما الاكثر سرية ، وحتى ذلك الذوق المسكر الذي يثيره فيهما كل يوم يعيشانه .

كانت ابتسامة دانيال الصامتة قد هدأت جاك الآخذ في قضم خبزه . كان أسفل وجهه عادياً ـ فك آل تيبو ـ ، بفم مشقوق كثيراً ذي شفتين مشققتين ، فم قبيح ولكنه معبر ، متسلط ، شهواني .

لقد رفع رأسه وقال مؤكداً :

ـ سترى ، انا اعلم ، ان الحياة سهلة في تونس ، انهم يشغلون في حقول الارز كل من يتقدم للعمل ، ويمضغون التنبول *Bétel* ، وهو لذيذ ... وهم يدفعون

حالاً ويطعمون التمور ، وليمون يوسف افندي (المندرين) ، والجوافة .
فقال دانيال مجازفاً :
ــ وسنكتب اليهم من هناك .
فقال جاك مصححاً هازاً جبهته الشقراء :
ــ ربما . ولكن حين نستقر جيداً ويرون اننا نستطيع الاستغناء عنهم .
وصمتا . ودانيال الذي لم يكن يأكل اخذ يتأمل امامه الهياكل الكبيرة السوداء وحركة العمال على البلاط المضاء بالشمس ، ولمعان الأفق من خلال تشابك الصواري : كان يناضل ويساعده المشهد لئلا يفكر بأمه . وكان المهم أن يبحرا منذ هذا المساء على المركب «لافاييت» .
ودلهما غلام مقهى على مكتب شركة المساجري . وكانت لائحة الاثمان معلقة . وانحنى دانيال على نافذة التذاكر وقال :
ــ أيها السيد ، لقد أرسلني أبي لآخذ مكانين في الدرجة الثالثة الى تونس .
ــ ابوك ؟
قال الهرم ذلك وهو مستمر في عمله . ولم يكن يبدو منه سوى جزة شعر رمادية تطفو على الاوراق . وظل يكتب فترة طويلة ، حتى وهن قلب الولدين . وقال أخيراً دون أن يرفع انفه :
ــ حسناً ، قل له ان يأتي بنفسه الى هنا مع اوراقه ، أسمعت ؟
وشعرا ان الناس الموجودين في المكتب يتفحصونهما ، فهربا دون ان يجيبا . وكان جاك مهتاجاً وقد ادخل يديه الى أعماق جيوبه . وكانت مخيلته تقترح عليه عشر حيل مختلفة : ينخرطان في الخدمة كنوتيين ؛ او يسافران كالطرود في صناديق مسمرة مع مؤونتهما ، او يستأجران زورقاً ويذهبان بمراحل قصيرة على طول الشواطىء حتى جبل طارق ، حتى مراكش ، ويتوقفان مساءً في المرافىء ليعزفا بالأوكارينا ويجمعا الصدقات على شرفة الفنادق .
كان دانيال يفكر ؛ وقد سمع التحذير الخفي من جديد . وكان قد سمعه قبلاً عدة مرات منذ الرحيل . ولكنه لم يستطع التملص هذه المرة ، ويجب الاهتمام

به : كان في داخله صوت مستاء يلوم . وقال مقترحاً :

– وإذا بقينا مختبئين في مرسيليا ؟

فأجاب جاك هازاً كتفيه :

– سيعثرون على أثرنا قبل يومين . وهم يبحثون عنا اليوم في كل مكان ، وبامكانك التأكد من ذلك .

كان دانيال يتخيل هناك امه القلقة التي ترهق جني بالأسئلة ، ثم تذهب وتسأل المراقب ماذا حل بولدها . فقال :

– اسمع .

كان تنفسه ضيقاً ؛ وقد لمح مقعداً ، فجلسا عليه ، ثم قال بشجاعة :

– انها لحظة التفكير . وبعد ، الا يكونون قد عوقبوا بما فيه الكفاية حين يبحثون طوال يومين او ثلاثة ؟

فضم جاك قبضتيه وصاح :

– كلا ، كلا وكلا ! انسيت كل شيء ؟

كان جسده العصبي متوتراً ، ولم يكن جالساً على المقعد بل مستنداً إليه كقطعة خشب . وكانت عيناه تتألقان بالحقد ضد المدرسة ، والرئيس ، والمعهد ، والرقيب ، ووالده ، والمجتمع ، والظلم العام ، وصاح ، وقد اصبح متوحشاً :

– لن يصدقونا ابداً .. فقـــد سرقوا دفترنا الرمادي ! وهم لا يفهمون ، ولا يستطيعون ان يفهموا ! لو رأيت الرئيس كيف كان يحاول ان يحملني على الاعتراف ! متكلفاً الحلم .. انت خليق بكل شيء لأنك بروتستانتي !

وتحولت نظرته بدافع الحياء ، وخفض دانيال بصره ، واستولى عليه ألم طاغ لفكرة ان امه يمكن أن يساورها الشك المقيت . وتمتم :

– اتظن انهم سيسردون القصة على امي ؟

ولكن جاك لم يكن يسمع ، وتابع :

– كلا ، كلا وكلا . هل تعلم ما جرى الاتفاق عليه ؟ لم يتغير شيء ! كفى اضطهادات ! الى اللقاء ! فحين نظهر بالاعمال من نحن ، واننا لسنا بحاجة إليهم ،

فسترى كيف يحترموننا ! ليس هناك سوى حل واحد : الاغتراب ، وتحصيل المعيشة بدونهم . هذا كل شيء . وعندئذ ، نعم . نكتب إليهم ونخبرهم أين نحن ، ونضع شروطنا ، ونصرح بأننا نريد ان نظل أصدقاء ، ونكون احراراً لأن ما بيننا هو في الحياة وفي المات .

وصمت ، وامتلك نفسه ، وتابع بنبرة مركزة :

— او اقتل نفسي ، كما قلت لك .

فألقى دانيال عليه نظرة خائفة . كان الوجه الصغير الشاحب المبذور ببقع صفراء ثابتاً ، بدون تبجح .

— اقسم لك ، انني مصمم على ألا أقع في ايديهم ! وقد أدليت ببراهيني قبلاً . الهرب ، أو هذا .

قال ذلك ، مظهراً تحت صدرته قبضة الخنجر الكورسكي الذي أخذه صباح الأحد من غرفة اخيه . وأكمل وهو يسحب من جيبه زجاجة صغيرة ملفوفة بورقة :

— او الأفضل هذه ... اذا رفضت الآن ان تبحر معي فإن الأمر لن يطول . هوب — وأتى بحركة لابتلاع محتويات الزجاجة — وأسقط ميتاً .

فتمتم دانيال : ما هذا ؟

فقال جاك دون ان يخفض عينيه : صبغة اليود .

فقال دانيال متوسلاً : اعطنيها يا تيبو .

لقد شعر بالشفقة والاعجاب رغم رعبه ؛ كان يخضع لسحر جاك غير العادي ، ثم ها هي المغامرة تستولي عليه من جديد . ولكن جاك كان قد أعاد الزجاجة الى جيبه . وقال بنظرة قاتمة :

— لنمشِ ، ان تفكيرنا يسوء ونحن جالسان .

في الساعة الرابعة عادا الى الرصيف . كان الهرج والمرج شديداً حول «لافاييت» : صف لا ينقطع من العمال حاملين الصناديق على اكتافهم كنمالٍ تجرّ بيوضها ، ويمرّون على العبّارات . وسار الولدان في نفس الطريق ، وجاك في

المقدمة . وعلى الجسر المغسول حديثاً بحارة يحركون رافعة فوق ثقب فاغرٍ فاه كان يبتلع المشحونات في قعر السفينة . وهناك رجل ربعة ، ذو أنف أعقف ولحية كنعلة الحصان ، اسود الشعر ، وردي الجلد أملسه ، كان يدير العمل ، بسترة زرقاء وشريط ذهبي على الكم .

وفي اللحظة الأخيرة توارى جاك . وقال دانيال رافعاً قبعته ببطء :

ـــ هل انت القبطان ؟

فضحك الآخر وقال : لماذا ؟

ـــ انا مع اخي يا سيدي ، وقد اتينا نطلب منك ...

وقبل ان ينهي دانيال كلامه شعر انه يسير على غير الطريق الصحيح ، وانهما ضاعا ، فأكمل : ان نذهب معكم الى تونس .

ـــ هكذا ؟ وحدكما ؟

قال الرجل ذلك محركاً حاجبيه . وكان في تعبير عينه الدامية شيء جريء ، مجنون قليلاً ، يرمي الى أبعد من كلامه . ولم يكن لدى دانيال من مخرج سوى الاستمرار في الأكاذيب المناسبة :

ـــ أتينا الى مرسيليا لملاقاة والدنا ، ولكنهم عرضوا عليه وظيفة في تونس ، في أحد حقول الأرز و... وكتب إلينا ان نلحق به . ولدينا ما ندفعه لكم اجرة الرحلة .

أضاف ذلك غير خاضع لإلهامه الذي يدرك ان هذا الطلب ليس اقل غباوة من سواه .

ـــ حسناً ، ولكن عند من تسكنون هنا ؟

ـــ عند ... ليس عند احد فقد جئنا رأساً من المحطة .

ـــ الا تعرفون أحداً في مرسيليا ؟

ـــ ك ... كلا .

ـــ وتريدان الابحار هذا المساء اذن ؟

فكاد دانيال يجيب بالنفي ويهرب . ولكنه دندن بسرعة :

– نعم يا سيدي .

فقال الرجل ضاحكاً :

– حسناً يا حامقيّ . ان حظكما عظيم لعدم سقوطكما على الرجل العجوز ، لأنه لا يحب السخرية ، ولكان قبض عليكما وقادكما الى مفوضية الشرطة لإيضاح كل ذلك ... دون أن نحسب ان ذلك هو الشيء الوحيد الواجب عمله مع مزحات كهذه .

وصرخ فجأة ، ممسكاً بدانيال من كمه :

– هيه ، شارلو . اقبض على الصغير ، أما أنا ف ...

وكان جاك قد رأى الحركة ووثب وثبة عنيفة من فوق الصناديق ، متفادياً بصدمة من صدره ذراع شارلو الممدود ، وبلغ العبّارة بثلاث وثبات ، وانزلق كالقرد بين الحمالين ، وقفز الى الرصيف واندفع شمالاً . ولكن دانيـــال ؟ والتفت : لقد افلت دانيال ايضاً . فقد رآه جاك بدوره يدفع صف النمال ، ويتدحرج على السلالم ، ويثب الى الرصيف وينعطف الى اليمين ، بينما كان القبطان المزعوم منحنياً على مؤخر السفينة ينظر إليهما يهربان وهو يضحك . عندئذ واصل جاك ركضه ؟ سيجدان بعضهما البعض فيما بعد ؟ أما الآن فيجب الاختفاء بين الجمهور والابتعاد عن المرفأ بقدر الامكان .

لقد وقف بعد ربع ساعة ، وهو على آخر رمق ، وحيد في شارع مقفر في إحدى الضواحي . لقد شعر اولاً بسرور خبيث متخيلاً ان دانيال يمكن ان يكون قد ُقبض عليه ، انه جزاء وفاق : ألم يكن الخطأ خطأه باخفاق خطتهما؟ كان يكرهه وكان على وشك بلوغ الحقول والهرب وحده دون ان يهتم به . واشترى سكاير وأخذ يدخن . وبعد دورة كبيرة خلال حي جديد انتهى بالعودة الى ناحية المرفأ . كانت «لافاييت» لا تزال جامدة . ورأى من بعيد ان طبقات سطح السفينة الثلاث كانت محملة بوجوه يزحم بعضها بعضاً ، والسفينة متهيئة للاقلاع . فصر جاك بأسنانه ودار على عقبيه .

واخذ عندئذ يبحث عن دانيال ليصرف غضبه إلى أحدٍ ما . فدخـــل

الشوارع ، وخرج إلى الكانيبيير *Canebiére* ، واندس لحظة بين الجموع، وعاد أدراجه . وكان حر عاصفةٍ خانق ينيخ على المدينة . وسبح جاك بالعرق . كيف يلتقي بدانيال بين جميع هؤلاء الناس ؟ واصبحت رغبته في إيجاد رفيقه ملحّةً شيئاً فشيئاً بقدر يأسه من الوصول اليه . وشفتاه الجافتـان من السكاير والحمّى اصبحتا محرقتين ، وبدون ان يخشى ملاحظة أحد ، وبدون ان يكترث بهزيم الرعد البعيد ، أخذ يركض ، هنا وهناك ، وآلمته عيناه لكثرة البحث . وتغير منظر المدينة فجأة : فبدأ النور صاعداً من بلاط الشوارع ، وواجهات المنازل تتقطع بوضوح على سماء بنفسجية اللون ، وكانت الزوبعة تقترب ، وبدأت قطرات كبيرة من المطر تنفصم على الرصيف بشكل نجمة . وهزيم رعد عنيف قريب جعله يرتجف . فمشى تحت مثلث في مقدم بناء ذي أعمدة ، وفتح مدخل كنيسة أمامه ، وغاب فيه .

ورنت خطاه تحت القباب ، وبلغت انفه رائحة معروفة . وشعر حالاً بتعزية وامان : لم يكن وحده ، فقد كان يحيط به وجود فائق للطبيعة . ولكن رعباً شديداً اجتاحه في نفس اللحظة : لم يعد يفكر بالله منذ رحيله ، وفجأة شعر بالنظرة غير المنظورة تحوم عليه ، وتنفذ وتعكس النوايا الأكثر سرية ! وشعر انه مذنب كبير لوث وجوده المكان المقدس ، وان باستطاعة الرب ان يصعقه من أعالي السماء . وكان المطر يسيل على السطوح ، وبروق فجائية تؤلق زجاج صدر الكنيسة ، والرعد يلعلع بقصف متكرر ، ويدور حول الولد في ظلام القباب كأنه يبحث عن مذنب . وكان جاك راكعاً على مصلّى ، ويبدو صغيراً جداً ، وقد حنى رأسه وتمم بسرعة بشيء من« أبانا » وشيء من «السلام عليك يا مريم » .

وأخيراً تباعد ما بين الواحدة والأخرى من زمجرات الرعد ، وهبط من الزجاجيات ألقٌ بلا تغيير ، وابتعدت الزوبعة ، ومضى الخطر الآني . وشعر بأنه استعمل الغش ولم يُقبض عليه . وجلس ، وكان يحتفظ في أعماقه بشعوره بجالة ذنبه . ولكن الكبرياء الماكرة لكونه نجا من العدالة ، مهما كان خجلاً ، لم

تكن دون عذوبة . وهبط المساء . ماذا ينتظر هنا ؟ كان هـــادئاً ، متخدراً يرمق بقية شمعة المعبد المتذبذبة بشعور مبهم من النقص والعجز ، كما لو ان الكنيسة زالت محبتها . وجاء قندلفت يقفل الأبواب . فهرب كاللص دون شيء من نهاية الصلاة ، دون ركوع : كان يعلم انه لن يحصل على عفو الله .

وجاءت ريح رطبة فجففت الارصفة . وكان المتنزهون قلائل . اين يمكن لدانيال ان يكون ؟ لقد خيل لجاك انه اصيب بشر ، فامتلأت عيناه بالدموع التي شوشت طريقه فكبحها واسرع الخطى . لو يشاهد دانيال فجأة يجتاز الطريق ويأتي اليه لأغمي عليه من المحبة .

ودقت الساعة الثامنة في قبة أجراس أكول *Accoules* ، وأضيئت النوافذ ، وشعر بالجوع فاشترى خبزاً وتابع السير أمامه ، جاراً يأسه ، غير مفكر بتفحص المارة .

وبعد ساعتين ، وقد انهكه التعب ، شاهد مقعداً تحت الأشجار في نهاية جادة مقفرة ، فجلس . وكان الماء يقطر من اشجار الدلب .

وهزت كتفه يد خشنة . هل نام ؟ انه أحد حراس الامن : فظن انه يموت ، واصطك ساقاه .

— عد إلى بيتك ، وبسرعة .

وهرب جاك . لم يكن يفكر بدانيال ، لم يكن يفكر بشيء ، وكانت رجلاه تؤلمانه ، وكانت يتجنب الشرطة . وعاد نحو المرفأ . ودقت ساعة منتصف الليل . وهبت الريح ، وكانت نيران ذات ألوان تتأرجح على الماء اثنتين اثنتين . وكان الرصيف مقفراً . وكاد ساقاه يصطدمان بمتسول كان يشخر وهو نائم بين رزمتي بضاعة . وعندئذ شعر برغبة لا تقاوم ، هي اشد قوة من خوفه ، بان يتمدد حالاً ، ولا يهم في أي مكان ، وان ينام . فخطا بضع خطوات ، ورفع زاوية غطاء بضائع كبير وسقط بين الصناديق ذات الخشب المبلل ، ونام .

وكذلك كان دانيال يهيم باحثاً عن جاك .

كان يطوف في جوار المحطة ، حول الفندق حيث ناما ، وبالقرب من مكتب شركة المساجري : على غير طائل . وهبط إلى الارصفة . كان مكان « لافاييت » فارغاً ، والمرفأ لا حياة فيه : لقد أعادت الزوبعة المتلكئين إلى بيوتهم .

وعاد من المدينة منخفض الرأس . وقد انهمر وابل المطر على كتفيه واشترى شيئاً من المؤونة لجاك وله ، وجاء يجلس إلى طاولة في المقهى حيث توقف في الصباح . وكانت زوبعة من المياه قد سقطت على الحي ، ورفعت الستائر عن جميع النوافذ ، وكان غلمان المقهى يلفّون خيام السطوح العريضة ومناشفهم على رؤوسهم . والقطارات الكهربائية تسير دون نفخ بالبوق ، قاذفة في السماء الرصاصية شرر هوائياتها ، والماء الشبيه بصدمات محراث يسيل من ناحيتي الخطوط الحديدية . وكانت رجلا دانيال مغمستين بالماء وصدغاه ثقيلين . ماذا حل بجاك ؟ كان ألمه على فقده اقل من ألمه وهو يتخيل قلق الصغير وشقاء وحدته . وكان يخيل إليه انه سيراه يظهر هناك ، في زاوية ذلك المخبز تماماً ، واخذ يترقب ، كان يشاهده مسبقاً في ملابسه المبللة ، جارّاً حذاءه في برك الماء ، شاحب الوجه وعيناه تروحان وتجيئان بيأس . عشرون مرة كاد يناديه: ولكنهم أولاد مجهولون يدخلون راكضين الى عند الخباز ويخرجون ، والخبز تحت ستراتهم .

ومضت ساعتان . وانقطع المطر ، وجاء الليل . ولم يجرؤ دانيال على الذهاب ؛ فقد كان يبدو له ان جاك سيظهر حين يغادر هو المكان . واخيراً سار في طريق المحطة . كانت الكرة البيضاء مضاءة فوق باب فندقهما . وكان الحي مناراً بشكل سيء ؛ هل يعرفان بعضهما البعض اذا تلاقيا في هذا الظلام ؟ وصرخ صوت : « امي ! » ورأى ولداً من سنّه يجتاز الشارع ويلحق بسيدة اخذت تقبله ؛ ومرا بقربه ، وقد فتحت السيدة مظلتها لتتقي مياه السطوح ، وقدم لها ولدها ذراعه ! وكانا يتحدثان ، واختفيا في الليل. وحضرت قاطرة . ولم يبق لدي دانيال من القوة ما يقاوم غمه .

آه ! لكم كان مخطئاً باتباع جاك ! كان يعرف ذلك جيداً ولم يكفّ عن

الشعور به منذ البدء ،منذ ذلك الموعد الصباحي في اللوكسمبورغ حيث تقررت مغامرتها الجنونية . كلا ، لم يستطع التخلص لحظة من هذا التأكيد ، من انه كان عليه ان يركض ويشرح لأمه كل شيء بدلاً من ان يهرب ، وهي ما كانت لتوجه اليه اللوم ، بل كانت حمته من الجميع ، وما كان حدث أي ضرر . لماذا خضع ؟ لقد ظل أمام نفسه كأنه أمام لغز .

واخذ يستعيد ما حدث صباح الأحد في الدهليز . لقد سمعته جني حين عاد إلى البيت ، وركضت . كان على الطبق غلاف اصفر عليه شارة المعهد ، انه يتضمن طرده دون شك ، فخبأه تحت غطاء الطاولة . اما جني الصامتة فقد صوبت إليه عينيها النافذتين ، وادركت حدوث مأساة ، فتبعته إلى غرفته ، ورأته يأخذ محفظته التي يضع فيها مدّخراته ، فارتمت عليه وضمته بين ذراعيها وقبلته ، وضيقت نفسه : « ماذا حدث ؟ ماذا تفعل ؟ » فاعترف عندئذ انه راحل ، وانه اتهم خطأ ، بحادثة في المعهد حيث اعتصب الاساتذة كلهم ضده ، وان من اللازم ان يختفي بضعة ايام . فصرخت : « وحدك ؟ » ـ « كلا مع رفيق . ـ « من؟ » ـ « تيبو . » ـ« خذني ! » فجذبها نحوه واجلسها على ركبتيه كالسابق واجابها بصوت منخفض : « وامي ؟ » فبكت . فقال لها : « لا تخافي ، ولا تصدقي ما سيقال لك . سأكتب بعد بضعة ايام ، وسأعود. ولكن اقسمي انك لن تقولي ابداً ، لا لأمي ولا لأي شخص ، ابداً ابداً ، باني عدت إلى البيت ، وانك رأيتني . وانك تعرفين اني ذاهب ». فأشارت إشارة مباغتة من رأسها . ثم أراد ان يعانقها ولكنها هربت إلى غرفتها وهي تنتحب نحيباً ابح ، صرخة يأس لا تزال تمزق اذنه . واسرع الخطى .

وبما أنه كان يسير أمامه دون أن ينظر في طريقه ، فقد وجد نفسه على مسافة بعيدة عن مرسيليا ، في الضاحية . كان البلاط لزجاً ، والمصابيح نادرة . وفي كل ناحية ، في الظّلام ، كانت تنفتح ثقوب سوداء ، وأبواب ساحات ، وأروقة نتنة . وفرقة اطفال تصيح دون انقطاع في داخل المنازل ، وفونوغراف يعوي في حانة حقيرة. فعاد أدراجه ومشى طويلاً في الاتجاه الآخر. وأخيراً شاهد نار

قرص : كانت المحطة قريبة . وسقط من التعب . وكانت ميناء الساعة المتألقة تسجل الساعة الواحدة . لا يزال الليل طويلاً : ما العمل ؟ بحث عن زاوية يستعيد أنفاسه فيها . وكان قنديل غاز يزفر على مدخل درب فارغ ؛ واجتاز المساحة المضاءة وتلبد في الظلام . وكان حائط كبير لمصنع ينتصب إلى اليسار ، فأسند ظهره إليه وأطبق عينيه .

وأيقظه صوت امرأة ، وهو يرتجف :

— أين تسكن ؟ لن تنام هنا كما أعتقد .

وقادته إلى النور . ولم يكن يعرف ما يقول .

— أؤكد أن والدك قد وبخك ، ألا تجرؤ على العودة إلى البيت ؟

كان الصوت عذباً . فقبل الكذب ، ورفع قبعته وأجاب بأدب :

- نعم يا سيدتي .

فأخذت تضحك

— نعم يا سيدتي ! مهما كان الأمر يجب أن تعود إلى البيت . فقد عرفت ذلك قبلك . وما دمت ستعود ذات يوم فما فائدة الانتظار ؟ كلما انتظرت يزداد الأمر تنكيداً .

ولما ظل صامتاً سألته خافضة صوتها ،بلهجة مهتمة ،أنيسة ،مشاركة في الذنب :

— أتخاف أن تُضرب ؟

ولم يجب . فقالت :

— يا لها من ظاهرة ! انه مصر على تفضيل قضاء الليل هنا ! هيا ، تعال إلى بيتي . ليس عندي أحد ، سأضع لك فراشاً على الأرض . اني لا أستطيع أن أترك ولداً في الشارع .

لم تكن هيئتها هيئة لصة ، وشعر بتعزية عظيمة لأنه ليس وحيداً وأراد أن يقول : « شكراً يا سيدتي » ؟ ولكنه سكت وتبعها .

وبعد قليل دقت الجرس أمام باب منخفض . فلم يفتح الباب حالاً . كان الدهليز مفعماً برائحة الغسيل . واصطدم بالدرجات فقالت :

ـ أنا معتادة . هات يدك .

كانت يد السيدة داخل قفاز ورطبة . وقد تركها تقوده. والدرج أيضاً كان رطباً . وكان دانيال سعيداً لأنه ليس في الخارج . وصعدا طابقين أو ثلاثة ، ثم سحبت مفتاحها وفتحت باباً وأضاءت قنديلاً ، فشاهد غرفة غير مرتبة ، وسريراً شاحباً. فظل واقفاً طارفاً بعينيه في النور ، منهوكاً، شبه نائم. وبدون أن ترفع قبعتها سحبت عن السرير فراشاً أخذته إلى الغرفة الأخرى . والتفتت وأخذت تضحك :

ـ انه يسقط من النعاس ... هيا ، اخلع نعليك على الأقل .

فأطاع مرتخي اليدين . وعاد إليه ، كفكرة ثابتة، مشروع العودة في صباح الغد وفي الساعة الخامسة تماماً ، إلى مطعم المحطة ، آملاً أن تساور جاك نفس الفكرة ، وتمتم :

ـ يجب ايقاظي باكراً .

فقالت ضاحكة : نعم ، نعم .

وشعر أنها تساعده على سحب ربطة عنقه وخلع ملابسه ، وسقط على الفراش وغاب عن الصواب .

عندما فتح عينيه كان النهار قد طلع . فظن نفسه في باريس ، في غرفته ، ولكنه دهش من لون الأضواء من خلال الستائر ؛ وكان هناك صوت فتي يغني : عندئذ تذكر .

كان باب الغرفة المجاورة مفتوحاً ، وفتاة صغيرة منحنية على المغسلة تغسل وجهها بالماء . والتفتت ، فرأته متكئاً على مرفقه ، وأخذت تضحك .

ـ آه ! ها أنت قد استيقظت ، ليس الأمر مؤسفاً .

أهي سيدة البارحة ؟ بالقميص والتنورة الداخلية القصيرة، عارية الذراعين، عارية الساقين . وكانت هيئتها هيئة طفلة . ولم يكن قد لاحظ تحت القبعة أن شعرها مجزوز ، وهناك فتائل سمراء لوند ملقاة إلى الوراء بواسطة الفرشاة .

وأرهقته فجأة فكرة جاك فصاح :

– آه ! يا إلهي ! أنا الذي كنت أريد أن أكون في المطعم باكرا .

ولكن حرارة الغطاء الذي لفه حوله أثناء نومه كانت لا تزال تخدره ؛ ثم أنه لم يكن يجرؤ على النهوض إلا إذا كان الباب مقفلاً . في تلك اللحظة دخلت تحمل فنجاناً داخناً وقطعة خبز بالسمن .

– خذ كل هذا، ثم ارحل ! لست حريصة على إثارة المشاكل بيني وبين أبيك!

كان مضطرباً لأنه رؤي هكذا ، بالقميص ، وطوق عنقه مفتوح ؛ ولأنه رآها تقترب ، عارية العنق هي أيضاً ، عارية الكتفين ... وانحنت ، وأخذ الفنجان خافضاً جفونه ، وأخذ يأكل بهدوء . وكانت تروح وتجيء من غرفة إلى اخرى جارّةً خفها وهي تدندن . ولم يرفع عينيه عن فنجانه ؛ ولكن حين تمر بقربه كان يشاهد دون أن يريد ، وعلى مستواه ، الساقين العاريين الدقيقين ذوي العروق ، وتنزلق على الأرض الخشبية الشقراء الاعقاب المحمرّة التي لم تكن قد دخلت في الخفين . كان الخبز يخنقه . وكان بدون شجاعة على عتبة هذا اليوم الكبير المجهول . وفكر بكرسيه الفارغ على مائدة الافطار في بيته .

وفجأة ملأت الشمس الغرفة ، فأغلقت المرأة الشابة المصاريع ، وانفجر صوتها الطري في النور كلحن عصفور :

آه ! لو كان للحب جذور

لغرست منه في حديقتي !

وكان هذا كثيراً . الشعاع الشمسي وتلك اللامبالاة المرحة في نفس اللحظة التي كان يكافح فيها ضد يأسه . وتصاعدت الدموع إلى عينيه ، فصرخت بمرح ، رافعةً الفنجان الفارغ :

– هيا اسرع .

وانتبهت إلى بكائه ، فقالت :

– أحزين انتَ ؟

كان صوتها حنوناً كصوت اخت كبرى ، ولم يستطع ان يمسك بكاءه ، فجلست على حافة الفراش ، وأمرّت ذراعها حول عنقه بشكل امومي لتخفف

عنه ـ آخر حجة لجميع النساء ـ وأخذت رأسه وأسندته الى صدرها ، فلم يجرؤ على القيام بأية حركة ، وشعر برواح ومجيء العنق ورطوبته على طول وجهه ومن خلال القميص . لقد اعوزه التنفس .

ـ حيوان !

قالت ذلك متراجعة ومخبئة نصفها الأعلى بذراعها العاري .

ـ هل رؤية هذا أعادت إليك كل شيء ؟ أترون هذا العيب ، في مثل سنه ! كم عمرك ؟

فكذب دون ان يفكر بذلك ، كما كان يفعل منذ يومين ، وتمتم :

ـ ست عشرة سنة .

فرددت بدهشة :

ـ ستة عشرة سنة ، الآن ؟

وأخذت يده وتفحصتها لاهية ، وأبعدت الكم وكشفت الساعة . وتمتمت وهي تبتسم :

ـ ذلك لأن بشرة هذا الطفل بيضاء ، كفتاة .

وكانت قد رفعت معصم الولد وداعبته بخـــدها المنحني ، وانقطعت عن الابتسام ، وتنفست بمزيد من القوة وتركت اليد تسقط .

وقبل ان يفهم كانت قد فكت عرى تنورتها الداخلية ، وهمست وهي تندس تحت الأغطية :

ـ دفئني !

• • •

كان جاك قد نام نوماً سيئاً تحت غطاء البضائع الذي شدده المطر . وكان قد انساب من مخبئه قبل الفجر وأخذ يتمشى في النهار الطالع . وكان يفكر : « بالتأكيد لو كان دانيـــال حراً لخطرت له فكرة المجيء الى مطعم المحطة كالبارحة » . وقد قام هو بذلك قبل الساعة الخامسة . وفي الساعة السادسة لم يكن قد قرر الذهاب .

بماذا يفكر ؟ ما العمل ؟ لقد دلوه على السجن وهو مضطرب القلب ، وكاد لا يجرؤ على رفع عينيه الى البوابة المغلقة حيث قرأ :

بيت التوقيف

يمكن ان يكون دانيال هنا .. ودار حول الجدار الذي لا ينتهي ، وقام بدورة ليشاهد أعلى النوافذ المشبكة بالحديد ، واجتاحه الخوف ، فهرب .

وجال في المدينة كل فترة الصباح . والشمس حارة ، والغسيل الملون الذي يجفف على جميع النوافذ كان يزين الطرقات الشعبية كالبيارق ، وعلى عتبة الأبواب كان العجائز يتحدثن ويضحكن على انغـــام مشاجرة . وبين لحظة وأخرى ، كان منظر الشارع ، والحرية ، والمغامرة ، تبعث فيه نشوة سريعة الزوال ، ولكنه كان يفكر بدانيال . وكان يمسك بزجاجة صبغة اليود في جيبه بجماع يده : إذا لم يجد دانيال قبل هذا المساء فسوف يقتل نفسه ، وقد أقسم على ذلك رافعاً صوته قليلاً ليلزم نفسه بذلك بمزيد من القوة ؛ ولكنه ، في داخله ، كان يرتاب بشجاعته .

كان ذلك حوالي الساعة الحادية عشرة فقط ، وهو يمر للمرة المئة امام المقهى حيث دلـُّوهما البارحة على مكتب شركة المساجري . ــ آه ! انه هنا !

وأسرع جاك خلال الطاولات . وكان دانيال ممتلكاً نفسه اكثر منه ، فنهض قائلاً : اسكت ...

كانوا يلاحظونهما ، ومدا أيديهما . ودفع دانيال ، وخرجا وانعطفا إلى أول شارع عرض لهما . وعندئذ امسك جاك بذراع صديقه ، متعلقاً به ، حاضناً له، وفجأة اخذ ينتحب وجبهته على كتفه . اما دانيال فلم يكن يبكي ، بل استمر في التقدم وهو كثير الشحوب ، والنظرة القاسية متطلعة بعيداً إلى الأمام ، ضاماً إلى جانبه يد جاك قائلاً :

ــ نمت كاللص على الرصيف ، تحت غطاء بضائع . وأنت ؟

فاضطرب دانيال . كان يحترم صديقه وصداقته كثيراً : للمرة الأولى وجب ان يخفي شيئاً عن جاك ، وشيئاً اساسياً . وضخامة هـــذا السر بينهما خنقته . وكان على وشك الاستسلام وقول كل شيء ، ولكن كلا ، انه لا يستطيـع .وظل صامتاً مشدوهاً دون ان يستطيـع ابعاد ضغط كل ما حدث . وردد جاك :

– وانت ؟ اين قضيت الليل ؟

فأتى دانيال بحركة مبهمة وقال :

– على مقعد ، هناك .. ثم اني قد تهت .

وما ان تناولا فطورهما حتى اخذا يتناقشان . ان في بقائهما في مرسيليا عدم تبصر ، ورواحهما ومجيئهما لا يلبثان ان يصبحا موضع ريبة . وقال دانيال مفكراً بالعودة : وإذن ؟

فأجاب جاك :

– إذن لقد فكرت : يجب الذهاب حتى طولون ، فهي على بعد عشرين أو ثلاثين كيلومتراً من هنا ، هذه الجهة ، إلى اليسار ، متبعين الشاطىء . سنسير على الأقدام كأولاد يتنزهون . وهناك يوجد كثير من السفن ، وسنجد وسيلة للإبحار .

واثناء ما كان يتكلم ، فإن دانيال لم يستطع ان يترك بنظره الوجه العزيز الذي وجده ، بجلده المبقع بالنخالة ، واذنيه الشفافتين ، ونظرته الزرقـاء التي تمر فيها رؤى الاشياء التي كان يدعوها طولون ، والسفن ، والافق الواسـع . ومهما كانت رغبته في مقاسمة إصرار جاك ، فأن حسه السليم كان يجعله ارتيابياً: كان يعلم أنهما لن يبحرا ؛ ولكن رغم كل شيء ، لم يكن متأكـداً ، وفي بعض الفترات أيضاً كان يأمل أن يخطىء ، وأن يكذب الوهم البصيرة .

واشتريا طعاماً وسارا على الطريق . وهنـاك فتاتان نظرتا اليهما مبتسمتين . واحمر وجه دانيال ؛ لم تعد التنورات تحجب عنه سر الأجساد ... وكان جاك يصفر صفيراً خفيفاً ؟ فهو لم يلاحظ شيئاً . وشعر دانيال منذ ذلك الوقت أنه منفرد بسبب هذه التجربة التي عكرت دمه : لا يمكن لجاك أن يكون صديقه

بشكل تام : فهو ليس سوى ولد .

وأخيراً بلغا خلال الضواحي طريقهما الممتد على منحنيات الشاطىء كخط وردي . وهب من أمامهما هواء خفيف ذو مذاق ، يترك أثر طعم الملح . وكانا يسيران خطوة خطوة ، في الغبار الاشقر ، والاكتاف معرضة للشمس. وبجاورة البحر بعثت فيهما النشوة، فتركا الطريق ليركضا نحـــوه صارخين : « تالاسا ! تالاسا ! » رافعين الأيدي ليغمساها في الماء الازرق . ولكن المـــاء كان صعب المأخذ . وحين اقتربا من البحر فان الشاطىء لم يكن ينحني نحو المـاء بواسطة ذلك المنحدر من الرمل الناعم الذي تخيله طمعهما ، بل كان ينحرف عن نوع من المدخل الضيق العميق ، المتساوي العرض في كل مكان . حيث يفور البحر بين صخور عمودية . وتحتها ردم من الأحياء الصخرية كان يتقدم كبناء لتخفيف شدة الامواج ، وكرصف من الحجارة بناه عمالقة . والموجة التي كانت تصطدم بهـذا المنقار من الغرانيت ، المشقوق ، المحطـم ، العاجز ، كانت تمتد بمداراة على طول جنباته المصقولة ، سائلة اللعاب . وأمسك واحدهما بيد الآخر ، وانحنينا معاً ، ونسيا أنفسهما وهما يتأملان الماء المتموج المتلألىء تحت السماء . وكان في حماستهما الصامتة شيء من الرعب . وقال دانيال :

— انظر .

على بعد مئات الامتار زورق أبيض لامع بشكل لا يصدق ، كان ينزلق على صفحة البحر النيلي . وهيكله تحت خط العوم مدهون بالأخضر ، انها خضرة اعتدائية لنبتة فتية ، وضربات المجاذيف تدفع الزورق إلى الأمام بهزات سريعة متعاقبة كانت ترفع مقدمته خارج الماء ، وتكشف ، لدى كل وثبة ، الرونـق المبلل للهيكل الاخضر ، المباغت كالشرارة .

وتمتم جاك متلمساً دفتره الصغير في جيبه .

— آه ! لو كان بالمستطاع وصف كل هذا !

ثم هتف هازاً كتفيه :

— ولكن سترى ! ان إفريقيا أجمل من ذلك . تعال .

واندفع خلال الصخور باتجاه الطريق . وكان دانيال يركض بجانبه ؛ لقد تخلص قلبه لحظة من حمله ، متخففاً من كل حسرة ، راغباً بالمغامرة بشكل جنوني .

ووصلا إلى مكان تصعد الطريق فيه وتشكل زاوية قائمة لتأمين المواصلات بين أكوام من البيوت . وما كادا يبلغان هذا المنعطف حتى أوقفتهما قرقعة جهنمية : تشابك خيول ، وعجلات ، وبراميل ، كانت تقفز من ناحية إلى أخرى من الطريق ، وتتدحرج نحوهما بسرعة تسبب الدوار . وقبل ان يقوما بحركة ليهربا ، جاءت الكتلة الضخمة تتحطم على بعد خمسين متراً منهما ، على حاجز من القضبان الحديدية وتتطاير شظايا . كان الانحدار كثير السرعة : عجلة نقل كبيرة كانت تهبط محملةً حمولة كاملة لم تشد فراملها في الوقت المناسب ؛ وبكل ثقلها سحبت الجياد الاربعة التي كانت تجرها . وقد وقفت هذه الجياد على قوائمها الخلفية وانقلبت ، ودخل بعضها في بعض او سقطت على المنعطف ممتزجة بعضها ببعض ، قالبةً عليها جبل البراميل التي كان يسيل منها النبيذ . وهناك رجال جنّوا وكثرت حركاتهم فكانوا يركضون صارخين وراء تلك الكدسة من انوف البهائم الدامية ، والاكفال ، والحوافر التي كانت كلها تختلج في الغبار . وفجأة أمتزج صهيل الحيوانات ، وجلبة الجلاجل ، والرفسات الشديدة على الباب الحديدي ، وقرقعة السلاسل ، وصراخ السائقين بجرف ٍ أبح سيطر على كل شيء : انها حشرجة جواد على عريش العربة ، جواد رمادي اللون داسته جميع الجياد الأخرى ، وسجنت قوائمه تحته ، فتعبت رئتاه ، واختنق بلجامه . وهناك رجل يهز فأسه قد ارتمى في المعترك ؛ ورؤي وهو يعثر ، ويسقط ، وينهض ؛ كان يمسك الجواد الرمادي من اذنه ، ويضرب الطوق بفأسه ضربات شديدة ؛ ولكن الطوق كان من حديد ، وقد انثلم الفولاذ عليه ؛ ورؤي رجل ينتصب بوجه ٍ مجنون ويقذف الفأس على الجدار ، بينما اصبحت الحشرجة صفيراً ذا صوت ٍ حاد وكريه وازدادت سرعة ، وكانت دفقة من الدم تنبجس من منخره.

عندئذ شعر جاك بأن كل شيء يرتجّ : وحاول التمسك بكم دانيال ولكن

أصابعه كانت متصلبة ، وساقاه المرتخيان جعلاه يسقط على الأرض ، وأحاط به الناس واقتادوه إلى حديقة واجلسوه بالقرب من مضخة ، وسط الزهور ، ورشوا صدغيه بالماء الطازج . وكان دانيال شاحباً مثله .

وحين عادا إلى الطريق كانت القرية كلها مشغولة بالبراميل . وكانت الخيل قد نهضت . وجرح منها ثلاثة من أربعة ، بينها إثنان تحطمت قوائمها الأمامية وسقطا على ركبها . أما الرابع فقد مات : كان يضطجع في الحفرة التي سال إليها النبيذ ، ورأسه المخمور ملتصق بالارض ، واللسان خارج الفم ، والعينان الخضراوان نصف مطبقتين ، والقوائم ملتوية تحته كما لو انه يحاول ، وهو يموت، ان يصبح حمله سهلاً بقدر الامكان على الجزار. وجمود هذا الجسد الأشعر ، الملوث بالرمل والدم والنبيذ ، يتنافى مع لهاث الثلاثة الآخرين الذين يختلجون في اماكنهم ، متروكين في نصف الطريق .

وشاهدا أحد السائقين يقترب من الجثة . وعلى وجهه الملوح ، ذي الشعر الملتصق بسبب العرق ، امائر غضب تسمو بشيء من الرزانة ، كانت تشهد بمقدار عمق شعور سائق العربة هذا بالفاجعة . ولم يستطع جاك ان يحول عينيه عن هذا الرجل.فقد رآه يضع في زاوية الشفتين عقب سيكارة كان يمسكه بيده، ثم انحنى على الجواد الرمادي ، ورفع اللسان المتورم ، الأسود من الذباب ، وادخل السبابة في الفم وكشف الاسنان الصفراء . وظل بضع ثوان منحنياً ، لامساً اللثة الضاربة إلى اللون البنفسجي ، واخيراً انتصب ، وبحث عن نظرة صديقة ، فالتقى بنظرة الولدين . وبدون ان يمسح اصابعه الملوثة بالزبد الذي يلتصق الذباب به ، أخذ عقب السيكارة من بين شفتيه ، وقال هازاً كتفيه :

— هذا لم يبلغ السابعة من عمره .

ثم وجه الكلام إلى جاك .

— انه أجمل حيوان بين الاربعة ، وافضلهم في العمل ! اني اعطي اثنين من اصابعي ، خذ ، هذين الاثنين ، لاسترجاعه .

ثم ادار رأسه وابتسم بمرارة وبصق .

وعادا إلى السير دون نشاط ، منزعجين . وسأل جاك :

— هل اتيح لك ان ترى ميتاً ، ميتاً حقيقياً ، رجلا ميتاً ؟

— كلا .

— آه ! يا صديقي . انه أمر خارق للعادة ! اما انا ، فقد مضى وقت طويل وهذا يخب في رأسي . ففي نهار احد في ساعة التعليم المسيحي . ركضت اليه .

— أين هذا ؟

— في معرض الجثث المجهولة .

— أنت ؟ وحدك ؟

— تماماً . آه ! يا صديقي ! فالميت شديـد الشحوب ، ليس لديك فكرة ؛ انه كالشمع ، كالمعجون المستعمل للنسخ . وكان هناك اثنان . واحد كان كل وجهه مبضوعاً . أما الآخر فكان كالحي ، حتى ان جفونه لم تكن مطبقة . كأنه حي . ومع ذلك فهو ميت ، وهذا لا شك فيه ، منذ النظرة الأولى ، ولسبب لا أعلمه ... آه ! حين نصبح احراراً يجب ان أسير بك إلى معرض الجثث في يوم أحد .

لم يكن دانيال يصغي اليه . وكانا قد مرا تحت شرفة دارةٍ وكانت يد ولدٍ تنثر بعض الأشياء . جني .. كان يرى أمامه الوجه الناعم ، ونظرة جني الجافة حين صرخت : « ماذا تفعل ؟ » وحين تصاعدت الدموع إلى العينين الرماديتين المفتوحتين بشكل واسع . وقال بعد لحظة :

— ألست متحسراً لأن ليس لك اخت ؟

— اوه ! بالتأكيد . وخصوصاً اخت كبرى . لأن لي اختاً صغيرة تقريباً .

فتطلع اليه دانيال مندهشاً ، فقال موضحاً :

— ان المدموازيل تربي في البيت ابنة أخ لها صغيرة ، يتيمة ، عمرها عشر سنوات . جيز ... إنها تدعى جيزيل ولكن يقال جيز ... كانت اختاً صغيرة بالنسبة الي .

وتبللت عيناه فجأة ، وتابع دون ان يربط الافكار :

ـ أنت ، أنشئت بطريقة اخرى . اولاً ، انت تلميذ خارجي ، وتعيش كأنطوان ، حراً تقريباً . وصحيح انك ذا عقل .

لاحظ ذلك بنبرة حزينة ، فقال دانيال جاداً :

ـ وانت ، لا ؟

فقال جاك عابساً :

ـ اوه ! انا ! انا اعلم انني لا أحتمل . ولا يمكن ان يكون الأمر غير ذلك وهكذا ، فأنا اغضب احياناً ، ولا أعرف شيئاً ، واكسر ، وأضرب ، واصرخ من الرعب ، وسوف اصبح حرياً بالقاء نفسي من النافذة ، او اقتل احداً ! اقول لك ذلك لتعرف كل شيء . ـ اضاف ذلك ، وكان ظاهراً انه يشعر بمتعة كئيبة وهو يتهم نفسه ـ لا اعلم إذا كان ذلك عن خطأ مني ، او ماذا ؟ ويبدو لي انني لو عشت معك فلن اكون كذلك . ولكن هذا ليس اكيداً .

ثم اكمل بعد وقفة ، متطلعاً إلى بعيد :

ـ في البيت ، حين أعود مساءً ، لو تعرف كيف هم ! ان أبي لا يحملني على محمل الجد ابـــداً . وفي المدرسة فإن الكهنة يقولون له انني مسخ ، بداعي التملق ، وذلك ليظهروا انهم يجدون كثيراً من العذاب في تربية إبن السيد تيبو ذي الباع الطويل في الاسقفية ، أفهمت ؟ . ـ ثم اكد بحيوية مفاجئة ـ ان أبي طيب ، وانت تعلم ، طيب جداً ، وأؤكد لك . ولكني لا أعرف كيف اقول ... دائماً اعماله ، مهامه ، خطبه ، دائما الدين . والمدموازيل أيضاً : فمهما حدث من شر فلأن الله يعاقبني . اتفهم ؟ بعد الغداء يختلي والدي في مكتبه ، والمدموازيل تجعلني اتلو دروسي التي لا أعرفها ، في غرفة جيز ، بينما تكون تنـام الصغيرة . إنها لا تريدني ان ابقى وحيـــداً في غرفتي ! وقد فككوا براغي عاكس التيار الكهربائي حتى لا استطيـع ان ألمس الكهرباء .

فسأل دانيال : ولكن اخوك ؟

ـ انطوان ، نعم ، انه نموذج كيّس ولكنه لا يكون هناك ابداً ، اتفهم ؟ ثم ، اني افترض انه هو أيضاً لا يهتم بالبيت ، وهو لم يقل لي ذلك ... كان

كبيراً يوم ماتت والدتي ، لانه يكـــبرني بتسع سنوات ؛ وهكذا لم تستطع المدموازيل ان تنشب كلاّبُها فيه . بينما أنا ، فقد ربتني ، اتفهم ؟

وسكت دانيال . وردد جاك :

ـ أما أنت ، فليس الشيء نفسه . لقد عرفوا كيف يعاملونك ، وقد نشأت بطريقة اخرى. كما بصدد الكتب: فقد تركوك تقرأ كل شيء : المكتبة مفتوحة عندك . اما أنا فلم أعط ابداً سوى الكتب الحمراء والذهبية ذات الصور . من نوع جول فيرن ، بلاهات . حتى انهم لا يعرفون انني اكتب شعراً . وسوف يحدثون مشكلة بسبب ذلك،لانهم لا يفهمون.وربما وضعوني فيعلبة ليراقبوني عن كثب .

وساد صمت طويل . وانفصلت الطريق عن البحر وصعدت نحو غاب صغير من السنديان . وفجأة اقترب دانيال من جاك ولمس ذراعه وقال :

ـ اسمع .

واتخذ صوته المتغير رنةً منخفضة احتفالية :

ـ اني افكر بالمستقبل . وهل هناك من يعرف ؟ من الممكن ان ننفصل . وهناك شيء اردت طلبه منك منذ وقت طويل ، كرهن ، كالخاتم الأبـــدي لصداقتنا. عدني بانك تهدي اليّ أول كتاب شعري لك .. اوه ! دون ان تضع اسماً : بكل بساطة : « إلى صديقي » .ـ أتريد ؟

فقال جاك منتصباً . وقد شعر انه كبر :

ـ أقسم لك .

ووصلا إلى الغاب ، وتوقفا تحت الأشجار . وكان المغيب يشتعل فوق مرسيليا .

وكان جاك يشعر بتورم كعبيه فنزع حذاءه وتمدد على العشب. وكان دانيال ينظر إليه دون أن يفكر بشيء ؛ وفجأة لفت جاك عينيه عن ذينك القـدمين الصغيرين العاريين اللذين أحمر عقباهما ، وقال ماداً ذراعه :

ـ انظر ، منارة .

فارتجف دانيال . في البعيد ، على الشاطىء ، لمعان متواتر يلسع أعماق السماء التي كانت بلون الكبريت . ولم يجب دانيال .

وكان الهواء قد اشتد حين تابعا رحلتهما. وكانا قد عزما على النوم في الصحراء، في أحد الأدغال ، ولكن الليل ينذر بالجليد .

ومشيا نصف ساعة دون أن يتبادلا كلمة ،ووصلا أخيراً إلى أمام فندق دُهن حديثاً بالابيض وتُرى فيه الغرف الصغيرة منضدة فوق البحر . والغرفة المضاءة تبدو فارغة . فتشاورا . ورأتهما امـرأة يترددان على العتبة ففتحت الباب . ورفعت نحوهما قنديلها الزجاجي الذي كان الزيت يلمع فيه كالزمرد الأصفر . كانت قميئة ، مسنة ، ويتدلى من اذنيها قرطان ذهبيان على عنقهـا الذي يشبه عنق السلحفاة . وقال دانيال :

— هل عندك يا سيدتي غرفة بسريرين لهذه الليلة ؟

وقبل أن تستجوبه قال :

— نحن اخوان ذاهبان إلى والدنا في طولون . ولكننا سرنا متأخـرين من مرسيليا فلا نستطيع النوم في طولون هذا المساء .

فقالت المرأة الطيبة وهي تضحك :

— هيه ! أرى ذلك .

وكانت نظرتها فتية ، فرحة ، وتحرك يديها وهي تتكلم :

ـ على الاقدام حتى طولون ؟ انها حكايات تحكونها لي . أخيراً . لا يهم ! غرفة ، نعم ، فرنكان مدفوعان حالاً .

وحين اخرج دانيال حافظة نقوده قالت :

ـ الحساء على النار : أآتيكما بصحنين ؟

فقبلا . وكانت الغرفة عبارة عن طبقة في مطبخ (تتخيتة) ، وليس فيها سوى سرير وأحد شراشفه استعملت قبلاً . وباتفاق مشترك، وبدن أي ايضاح، نزعا نعليهما بنشاط واندسا تحت الغطاء ظهراً لظهر مرتدين ملابسهما . ولم يناما الا بعد مدة طويلة ، وكان القمر ينير النافذة . وفي المخزن المجاور جرذان كانت

تركض بضجة مسترخية . وشاهد جاك عنكبوتاً مخيفة تمشي على الجدار الشاحب وتختفي في الظلام ، فأقسم ان يسهر طول الليل . وكان دانيال يستعيد في فكره خطيئة الجسد ، وكانت مخيلته قد أغنت ذكرياته ، ولم يجرؤ على التحرك ، وكان سابحاً بالعرق ، لاهثاً من الفضول والتقزز واللذة .

وصباح الغد ـ وجاك لا يزال نائماً ـ كان دانيال على وشك النهوض ليتخلص من رؤاه حين سمع بلبلة في الفندق . لقد عاش طول الليل في وسواس مغامرته ، وكانت فكرته الأولى انهم سيجرّونه الى القضاء بسبب فسقه . وبالفعل ، فقد فتح الباب الذي لا مزلاج له : انه دركي جاءت به صاحبة الفندق . وعند دخوله اصطدمت جبهته بالعتبة العليا ونزع قبعته . وكانت العجوز توضح ، دائمة الضحك ، هازّة قرطيها :

ـ جاءا في الليل الفائت يكسوهما الغبار . انظر الى حذائيهما . وحكيا لي حكاية خرافية ، انهما يريدان الذهاب الى طولون سيراً على الاقدام . وما ادراني؟ وهذا ، الكبير ـ قالت ذلك مقدمة نحو دانيال ذراعها الذي توسوس فيه الاساور ـ اعطاني ورقة بمئة فرنك ليدفع اربع فرنكات وخمسين سنتيماً أجرة الغرفة والعشاء .

وكان الدركي يفرشي قبعته بهيئة متيقظة وقال مدمدماً :

ـ هيا ، قفا ! واعطياني اسميكما واسم عائلتكما . والحزب كله .

وتردد دانيال . ولكن جاك كان قد قفز من السرير ، باللباس الداخلي والجورب ، منتصباً كديك عراك . وكان يبدو مصمماً على هزيمة هذا الرجل الطويل الكبير ، وصرخ في وجهه :

ـ موريس لوغران . وهو ، جورج . انه أخي ! ووالدنا في طولون ولن تمنعنا من الذهاب للالتحاق به . اذهب !

بعد بضع ساعات دخلا الى مرسيليا في عربة تسير خبباً وعلى جانبيها دركيان ولص وضعت القيود بيديه . وفتحت بوابة سجن التوقيف العالية ثم اطبقت ببطء .

وقال لهما دركي وهو يفتح باب زنزانة :

ـ ادخلا الى هنا . واقلبا جيوبكما . اعطني هذا . ستبقيان معاً حتى العشاء، الوقت الذي نتحقق فيه من أقاويلكما .

ولكن قبل ساعة الطعام جاء أحد رؤساء الدرك ليأخذهما الى مكتب الضابط الملازم .

ـ لا فائدة من الانكار . فقد انكشف امركما . انهم يبحثون عنكما منذ نهار الأحد . أنتما من باريس : وانت ، الكبير ، تدعى فونتانان ! وأنت ، تيبو . أبناء عائلة وبركضون على الطرقات كصغار المجرمين .

وكان دانيال قد اتخذ هيئة متخوفة ، ولكنه كان يشعر بتعزية عميقة . فقد انتهى الأمر ! ان أمه الآن تعرفه حياً وتنتظره . سيطلب منها الصفح وهذا الصفح سيمحو كل شيء حتى ذلك الذي يفكر به بتأثر مضطرب في هـــذه اللحظة ، والذي لا يستطيع الاعتراف به لأحد .

وكان جاك يصر بأسنانه مفكراً بزجاجة اليـــود ، وبخنجره ، ويشنج قبضتيه بيأس في داخل جيوبه الفارغة . وكان يتأهب في رأسه عشرون مشروعاً للثأر والهرب . في تلك اللحظة أضاف الضابط :

ـ ان اهلكما في منتهى اليأس .

فحدجه جاك بنظرة مخيفة ، وفجأة تشنج وجهه ، وانهمرت دموعه . فقد كان يتخيل والده ، والمدموازيل ، وجيز الصغيرة .. لقد فاض قلبـــه بالرقة وتوبيخ الضمير . وقال الملازم :

ـ اذهبا الى النوم ، وغداً ندبر الأمر . اني أنتظر الأوامر .

٨

منذ يومين وجني مسترخية ، كثيرة الضعف ، ولكن بدون حمّى . ومدام دي فونتانان واقفة أمام النافذة تراقب ضوضاء الشارع : لقد ذهب انطوان

ليأتي بالمهاربين من مرسيليا ، ويجب أن يعود بهما هذا المساء ، وقد دقت الساعة التاسعة ، ويجب ان يكونوا هنا .

وارتجفت : ألم تقف عربة أمام البيت ؟

انها الآن على سطح الدرج ، ويداها على الدرابزين . وهرعت الكلبة وأخذت تنبح محتفلة بعودة الولد . وانحنت مدام دي فونتانان ، وفجأة ، وبالاختصار ، ها هو ! انها قبعته التي تخفي رفارفها وجهه ، وهذه حركة كتفيه في ملابسه . وهو يمشي في المقدمة يتبعه انطوان ممسكاً بيد أخيه .

ورفع دانيال عينيه وشاهد أمه ؛ وقنديل سطح الدرج الموجود فوقها جعل شعرها أبيض وغمس وجهها في الظلام. فخفض رأسه واستمر في الصعود متوقعاً أن تنزل نحوه ؛ ولم يتوصل إل رفع ساقيه ، وحين انكشف ، ولم يجرؤ على رفع رأسه ، وتوقف من التنفس ، وجد نفسه أمامها وجبهته على صدرها . لقد كان قلبه متألماً ، بدون سرور تقريباً : فطالما تاقت نفسه إلى هذه الدقيقة التي لم يكن حساساً بها ، وحين انفصل أخيراً لم يكن هناك أية دمعة على وجهه الذليل . ولكن جاك الذي اسند ظهره إلى جدار الدرج هو الذي انفجر باكياً.

وأمسكت مدام دي فونتانان وجه ولدها بيديها ، وجذبته إلى شفتيها . ولم توجه إليه أي لوم : قبلة طويلة . ولكن كل القلق النفسي الذي شعرت به في الاسبوع الرهيب جعل صوتها يرتجف حين سألت انطوان :

— هل تناول هذان الولدان المسكينان الطعام على الأقل ؟

وتمتم دانيال : جني ؟

— لقد نجت ، وهي في سريرها . ستراها فهي بانتظارك .

وحين أفلت دانيال واندفع إلى الشقة قالت :

— بهدوء يا صغيري ، احذر ، كان مرضها شديداً ، وانت تعلم .

ولم يستطع جاك ، من خلال دموعه التي جفت بسرعة ، أن يتمالك من إلقاء نظرة فضولية على ما حوله : إذن ، هذا هو بيت دانيال ، وهذا هو الدرج الذي يتسلقه كل يوم حين يعود من المدرسة ، والدهليز الذي يجتازه ، وهذه

هي التي يقول عنها « امي » بذلك اللطف الغريب في صوته . وسألت

– وانت يا جاك ، اتريد ان تقبّلني ؟

فقال انطوان مبتسماً :

– ولكن أجب .

ودفعه . ففتحت ذراعيها نصف فتحة ، وانزلق جـــاك بينهما ، ووقعت جبهته هناك في المكان الذي ترك فيه دانيال جبهته طويلاً . ولامست مدام دي فونتانان بأصابعها الرأس الصغير الامغر ، وهي تفكر ، ولفتت إلى الاخ الاكبر وجهها الذي يريد ان يبتسم ، وبما ان انطوان ظل على العتبة ويبـدو متعجلاً الذهاب ، فإنها مدت إليه يديها معاً من فوق الولد المتعلق بها ، بحركة واعيـة ملأى بالشكر وقالت :

– اذهبا يا صديقيّ . فوالدكما ينتظركما ايضاً .

وكان باب غرفة جني مفتوحاً .

ودانيال ، وقد طوى احدى ركبتيه ، ورأسه على الاغطية ، وضع شفتيه على يدي شقيقته اللتين امسكهما مجتمعتين في يديه . وكانت جني تبكي ، وكان ذراعاه الممدودان يسحبان بانحراف نصفها الأعلى خارج الوسائد ، وكان الجهد ظاهراً على قسماتها والهزال لم يترك تعبيراً إلا في العينين : نظرة لا تزال مريضة ، دائماً قاسية وعنيدة ، نظرة امرأة ، لغزية ، تبدو انها فقدت شبابهـا وطلاقتها لوقت طويل .

واقتربت مدام دي فونتانان ، وكادت تنحني وتضم الولدين بين ذراعيها . ولكن يجب ألا تتعب جني ، واجبرت دانيال على النهوض ومرافقتها إلى غرفتها.

كانت الغرفة مضاءة ببهجة . وكانت مدام دي فونتانان قد جهزت أمام الموقد طاولة الشاي : خبز محمص ، سمن ، عسل . وتحت منشفة كستناء ساخنة تغلي كما يحبها دانيال . وكان السماور يزفر ، والغرفة فاترة ، والجـو ملطّف ، واعتقد دانيال انه متعكر المزاج ، فرفض بيده الصحن الذي قدمته امه له ولكنها كانت تبدو ملحّة :

— ماذا إذن يا صغيري ؟ لن تحرمني من فنجان شاي معك هذا المساء .

فتطلع دانيال إليها . ماذا تغير فيها ؟ مع ذلك كانت تشرب شايها الساخن كما هو الأمر دائماً ، بجرعات صغيرة ، وهذا الوجه المعاكس للضوء والمبتسم في في بخار الشاي ، كان هو وجهها كل يوم ، مع انه اكثر تعباً دون شك ! آه ! هذه الابتسامة : وهذه النظرة الطويلة ... انه لا يستطيع احتمال عذوبة بهذه الكثرة : فخفض رأسه ، واخذ قطعة خبز محمص ، وتظاهر بقضمها بداعي المسايرة . وإزداد ابتسامها ، كانت سعيدة ولا تقول شيئاً ، وانفقت ما فاض من حنوها بمداعبة جبهة الكلبة الجاثمة في تجويف ثوبها .

ووضع الخبز ، وعيناه دائماً في الأرض ، وقال وقد شحب لونه :

— وفي المدرسة ، ماذا قالوا لك ؟

— قلت لهم ان ذلك ليس صحيحاً .

وارتخت جبهة دانيال اخيراً ، ورفع عينيه ، والتقى بنظرة امه : نظرة واثقة بالتأكيد ، ولكنها كانت تستجوب رغم كل شيء ، وتتمنى ان تكون متأكدة من ثقتها ، واجابت نظرة دانيال على هذا السؤال الصامت بالطريقة التي لا تقبل الشك . عندئذٍ اقتربت فهلت وقالت بصوت منخفض جداً :

— لماذا ، لماذا لم تأت وتقص علي كل شيء يا كبيري بدلاً من ان ..

ولكنها توقفت دون ان تكمل : لقد رنت حزمة مفاتيح في الغرفة الملاصقة . وظلت جامدة ، ملتفتة نحو الباب المشقوق . وحركت الكلبة ذيلها وانزلقت دون ان تنبح إلى أمام الزائر الصديق .

وظهر جيروم .

كان يبتسم .

وكان بدون معطف ولا قبعة ، وذو هيئة طبيعية جداً إلى درجة يظن معها انه مقيم هنا ، وانه خرج من غرفته . وألقى نظرة على دانيال ، ولكنه سار نحو زوجته وقبل اليد التي تركتها له معلقة . وكان يتضوع حوله عطر رعي الحمام *Verveine* والليمون .

— ها انذا يا صديقي ! ماذا جرى ؟ انا شديد الحزن حقيقة .

واقترب دانيال بوجه فرح . فقد كان معتاداً على محبة والده ، مع انه في طفولته ظل وقتاً طويلاً يظهر لأمه حباً مانعاً ، غيوراً ، والآن ايضاً يقبل برضى لامبالٍ ان يظل والده غائباً عن مودتها . وقال جيروم :

— انت هنا إذن ، ما هذا الذي حدثوني عنه ؟

وأمسك ولده من ذقنه ونظر اليه عابساً ، ثم قبّله .

وكانت مدام دي فونتانان قد ظلت واقفة . وكانت قد قالت : « ساطرده عندما يعود » . ان حقدها لم تهدأ حدته وكذلك عزمها ، ولكنه اخذها على حين غفلة وفرض نفسه بطريقة تحبط تدبيرها . لم تستطع ان تحول نظرها عنه ! ولم تعترف كم كانت مضطربة من حضوره ، وكم لا تزال حساسة بسحر نظرته الرقيق ، وابتسامته ، وحركاته : لقد كان رجل حياتها . وخطرت لها فكرة النقود فتعلقت بها لتعتذر عن جمود موقفها ؟ فقد انفقت في الصباح آخر مدخراتها ، ولم تكن تستطيع الانتظار ، وجيروم كان يعرف ذلك ، وهو دون شك يحمل إليها نقود الشهر .

ولم يعرف دانيال كيف يجيب ، فالتفت نحو والدته ، وعندئذ فاجأ على الوجه الامومي الطاهر شيئاً لا يعرفه ، شيئاً خاصاً ، حبيباً بحيث ادار رأسه شاعراً بالحياء . لقد فقد في مرسيليا حتى براءة النظرة .

وقال جيروم بابتسامة عابرة جعلت اسنانه تلمع :

— هل يجب ان أوبخه يا صديقي ؟

فلم تجب حالاً . وأخيراً قذفته بنبرة تظهر فيها رغبة الثأر :

— لقد اشرفت جني على الموت ...

فترك ولده وخطا خطوة نحوها ، وبدا الذعر على وجهه بحيث رضيت حالاً أن تغفر له كل شيء لتمحو ذلك الألم الذي كانت تتمنى في بادىء الأمر ان تسببه له ، وقالت :

— لقد نجت ، اطمئن .

وأجبرت نفسها على الابتسام لتسرع في طمأنته . وهذه الابتسامة ، بالفعل، كانت معاهدة وقتية . وكانت شاعرة بذلك ، فكل شيء يتآمر ضد جدارتها . وأضافت ، ملاحظة أن يدي جيروم ترتجفان :

ـ اذهب وشاهدها . ولكن لا توقظها .

ومرت بضع دقائق . ومدام دي فونتانان جالسة . وعاد جيروم على رؤوس أصابعه وأغلق الباب باعتناء . وكان وجهه يتألق بالحنو ، ولكن القلق تبدد ، وضحك من جديد وطرف بعينه :

ـ لو ترينها وهي نائمة ! فقد وضعت يدها على خدها من ناحية ـ وكانت أصابعه ترسم في الهواء الشكل الظريف للطفلة النائمة ـ لقد هزلت ، ولكن ربما كان هذا أفضل ، فهي لم تزدد إلا جمالاً ، ألا تجدين ذلك ؟

فلم تجب . وتطلع إليها متردداً ، ثم هتف :

ـ ولكنك يا تيريز قد أصبحت بيضاء .

فنهضت وأسرعت الى الموقد . لقد كان هذا صحيحاً : يومان كانا كافيين ليصبح شعرها ، الفضي سابقاً والذي لا يزال أشقر ، أبيض على صدغيها وحول جبهتها . وأخيراً أدرك دانيال ما بدا له مختلفاً منذ وصوله ، مستغلقاً . وفحصت مدام دي فونتانان نفسها غير عارفة بماذا تفكر ، وغير مستطيعة الدفاع عن نفسها بجسرة ، وفي المرآة ، شاهدت جيروم الذي كان وراءها : كان يبتسم لها . وقد خففت هذه الابتسامة عنها دون أن تنتبه . كان يبدو لاهياً ، ولامس بيده خصلة شعر زال لونها كانت تخفق في النور .

ـ لا شيء يلائمك أفضل من ذلك يا صديقتي ، وما من شيء يشي بصورة أفضل ـ كيف أقول ؟ بشباب نظرتك .

فقالت كأنها تعتذر ، ولكن على الخصوص لتغطي سروراً خفياً :

ـ آه ! يا جيروم ، لقد قضيت أياماً وليالي مفرطة في القساوة .. ونهار الأربعاء بذلت جميع المحاولات ، ولم اجرؤ على الأمل بشيء .. كنت وحدي . وانتابني خوف عظيم .

فهتف باندفاع :

ــ أنا حزين يا صديقتي المسكينة . كان بامكاني المجيء بسهولة ، فقد كنت في ليون لأجل القضية التي تعرفينها ــ قال ذلك بكثير من الاطمئنان مما جعلها تبحث في ذاكرتها ــ وقد نسيت ان عنواني ليس معك . ومع ذلك فلم أذهب الا لأربع وعشرين ساعة : حتى اني خسرت الاستفادة من بطاقة العودة .

في تلك اللحظة تذكر انه لم يترك نقوداً مع تيريز منذ وقت طويل . لم يكن يستطيع ان يقبض شيئاً قبل ثلاثة أسابيع . وحسب ما كان في جيبه ، ولم يستطع ان يتلك نفسه من رسم كشرة ، ولكنه فسرها حالاً :

ــ كل ذلك ليس في سبيل شيء ذي أهمية ، فليس هناك صفقة جدية . وكنت آمل حتى آخر يوم ، وعدت خائباً . ان أصحاب المصارف الكبار في ليون هم مضجرون في الأعمال ، كثيرو الحذر .

وانطلق في حكاية عن رحلته . وابتكر اسهابات دون أي اضطراب ، كأنه قاص يلهو . وكان دانيال يصغي إليه : للمرة الأولى كان يشعر أمام أبيه بنوع من الخجل . وبدون سبب ، بدون أي رابط ظاهر ، فكر بذلك الرجل الذي حدثته عنه المرأة هناك ، « صديقها » كما كانت تقول ، رجل متزوج ، رجل أعمال ، يأتي غالباً بعد الظهر كما أوضحت لأنه لا يخرج في المساء أبداً « دون زوجته الحقيقية » . ووجه أمه التي كانت تصغي إليه هي أيضاً ، بدا له في هذه الدقيقة لا يُسبر غوره . وتلاقت نظراتهما . ماذا قرأت الام في عيني ولدها ؟ هل تغلغلت كثيراً في تقدمها بين الأفكار التي لم يكن دانيال قد صاغها بنفسه ؟ وقالت بعجلة فيها شيء من الاستياء :

ــ هيا ، اذهب إلى النوم يا صغيري . انت منهوك من التعب .

فأطاع . ولكن في اللحظة التي انحنى فيها ليقبلها تراءت له المرأة المسكينة المتروكة من الجميع حين كانت جني مشرفة على الموت . بسبب خطأه ! وقد طغى حنوها على الألم الذي سببه لها . فاحتضنها وتمتم في إذنها :

ــ سامحيني .

كانت تنتظر هذه الكلمة منذ عودته، ولكنه لو لفظها قبلاً لما شعرت بالسعادة التي تذوقتها. وشعر دانيال بذلك فحقد على والده. وشعرت مدام دي فونتانان أيضاً ؛ ولكنها حقدت على ولدها لأنه لم يتكلم حين كانت لاتزال له وحـــده .

وتقدم جيروم نحو الطبق ، نصف بدافع الشيطنة ، ونصف بدافع البطنة ، وقام بجردة لمحتوياته مع كشرة لاهية .

— لمن إذن كل هذه الحلويات ؟

كانت طريقته في الضحك كثيرة التصنـع ؛ وكان يلقي رأسه إلى الوراء ، مما جعل حدقتيه تجريان في زاوية العين . وكرر ثلاث آهات متتالية : آه ! آه! آه ! وسحب كرسياً صغيراً إلى جانب الطاولة واستولى على ابريـــق الشاي . فقالت مدام دي فونتانان وهي تشعل السماور :

— لا تشرب هذا الشاي فهو فاتر .

وحين اعترض قالت دون أن تبتسم : دعني أعمل .

كانا وحيدين . واقتربت لتراقب الاناء الذي يُغلى المـاء فيه وتنشقت تلك الرائحة المزة من الليمون ونبات رعي الحمام، المتصاعدة منه . ورفع رأسه نحوها مبتسماً نصف ابتسامة ، وكانت أمائره رقيقة أخاذة : كان يمسك قطعة خبزه باليد كالتلميذ ، وأحاط بالذراع الحر جسد زوجته بجرأة تدل على خبرة غرامية طويلة . وتخلصت مدام دي فونتانان فجأة : كانت خائفة من ضعفها ، وحين سحب ذراعه عادت تتم صنع الشاي ، ثم ابتعدت من جديد .

لقد ظلت وقورة حزينة؛ كان أشد حقدها قساوة يخضع أمام هذا اللاشعور. وكانت تتفحصه خلسة في المرآة . صبغته الكهربائية اللون، وعيناه اللوزيتان، وانحناء قامته ، وحتى التصنع الغريب قليلاً في زيه كانت كلهـا تكسب تخنثه شيئاً شرقياً . وتذكرت انها كتبت في مذكراتها أيام الخطبة : « حبيبي جميـل كأمير هندي . » كانت تنظر إليه ، وبعيني ذلك الزمان دائماً . كان جالساً باعوجاج على المقعد المنخفض ماداً ساقيه نحو النار . وبأطراف أصابعـــه ذات الأظافر المصقولة كان يغمس قطع خبزه المحمص بالزبدة، الواحدة بعد الأخرى،

ثم يذهّبها بالعسل ويحني نصفه الأعلى فوق الصحن ويقضم الخبز بأسنان جميلة . وعندما انتهى شرب شايه بجرعة واحدة ، ونهض برشاقة راقص ، وجاء يتمدد على الكنبة ، حتى كأن شيئاً لم يحدث ، وانه يعيش هنا كالسابق . وكان يداعب بوس التي قفزت على ركبتيه . وبنصره الأيمن يحمل خاتما عريضاً من اليشب ورثه عن والدته ، وحجرا ثميناً قديما يرتفع فيه خيـال ابيض لغانيميد ***Ganymède*** كالحليب على أسود عميق ؛ وطول الاستعمال رقق الحلقة ، فينزلق الخاتم عنـد كل انتقال لليد من طرف إلى آخر بين عقدتي الاصبع . وكانت تراقب كل حركاته .

— اتسمحين يا صديقي أن أولع سيكارة ؟

كان لذيذاً ولا يمكن اصلاحه . وله طريقة خاصة في لفظ كلمة «صديقتي» تاركاً الحرف الأخير يتلاشى على حافة الشفاه كالقبلة . ولمعت علبة السكاير الفضية بين أصابعه . وكانت تعرف فرقعتها الجافة ، وتلك العادة المضحكة في ضرب السيكارة على ظاهر كفه قبل ان يضعها تحت الشاربين . وكذلك تعرف اليدين الطويلتين المعروقتين اللتين يحمل منهما فجأة عود الثقاب صدفتين شفافتين بلون اللهب .

وبذلت جهدها في ترتيب طاولة الشاي بهدوء . لقد أضناها هذا الأسبوع . وأدركت في هذه اللحظة انها بحاجة الى كل شجاعتها . وجلست ، ولم تكن تعرف كيف تفكر ، وتسمع إلهام الروح بشكل سيء . ألم يضعها الله بجانب هذا الخاطىء الذي يظل ، حتى في فسقه ، قريباً من الطيبة لتستطيع ذات يوم أن تناصره في تقدمه التدريجي نحو الخير ؟ كلا : ان الواجب الآني هو ان تقي العائلة والأولاد . واستقام تفكيرها شيئا فشيئا . وكان مما يعزيها انها شعرت بنفسها اكثر صلابة مما تظن . والحكم الذي أقرته في أعماق ضميرها المنار بالصلاة في غياب جيروم ظل قطعيا .

كان جيروم يتأملها منذ فترة بانتباه حالم ، ثم اتخذت نظرتـه تعبير صدق شديد . كانت تعرف هذه الابتسامة الحائرة ، وتلك العين المحترزة ؟ وكانت تشعر بالخوف لأنه إذا كان صحيحا انها صلّت في كل لحظة ، ورغما عنها تقريبا ،

طلاسم هذا الوجه ذي النزوات ، فان حدسها كان ينتهي دائماً بصدم نقطة فاصلة تغوص بصيرتها وراءها في رمل متحرك ، وغالباً ما كانت تسأل نفسها : « وفي أعماق نفسه ، ما هو ؟ » .

وبدأ جيروم ، بشيء من الكآبة الوقحة :

– نعم ، أنا أدرك جيداً . انك تقاضينني بصرامة يا تيريز . اوه ! انا افهمك ، افهمك جيداً . ولو كان الأمر يتعلق بأحد غيري لقاضيته كما تفعلين ، ولكنت فكرت : هذا بائس . نعم ، بائس – لكن لدينا شجاعة الكلمات على الاقل . آه ! كيف اشرح لك كل ذلك ؟

– ما الفائدة ، ما الفائدة ...

هكذا قاطعت المرأة المسكينة . وكان وجهها الذي لا يعرف المداجاة يتوسل .

وكان قد انقلب في داخل الكنبة وهو يدخن ، وتشابك ساقيه يكشف حتى كعب قدمه الذي كان يؤرجحه بتثاقل .

– تأكدي انني لن أناقش . والوقائع هنا تدينني ، ومع ذلك يا تيريز فمن الممكن أن يكون لكل هذا تفسيرات أخرى غير التي تبدو للعيان .

وابتسم بحزن . كان يحب ان يسيء استخدام العقل في تبرير أخطائه ويستنجد ببراهين ذات تسلسل أخلاقي ، وربما كان يرضي بذلك ما بقي في نفسه من البروتستانتية . وتابع :

– في الغالب يكون للعمل السيء دوافع أخرى غير الدوافع السيئة . ويبدو الأمر انه بحث عن ارضاء عنيف لغريزة ، وفي الواقع ، في بعض الأحيان ، وفي أغلب الأحيان أيضاً ، يخضع المرء لعاطفة تكون صالحة في ذاتها – كالشفقة مثلاً . وهكذا نسبب الألم لكائن نحبه . وفي بعض الأحيان ، لأننا نشعر بالشفقة على كائن آخر ، زالت حظوته ، وذي وضع متدنٍّ ، نظن ان قليلاً من الانتباه يكفي لإنقاذه .

وتراءت لها على الرصيف تلك العاملة الصغيرة التي كانت تبكي . وخطرت لها

ذكريات أخرى ، ماربيت ، نويمي ... كانت عينها محدقة بذهاب وإياب الحذاء اللامع حيث ينار ضوء القنديل وينطفىء دورياً . وتذكرت يوم كانت لا تزال زوجة شابة ، وجبات الطعام التي كان يتناولها خارجاً بحجة الأعمال الطارئة والاضطرارية التي لم يكن يعود منها إلا مع الفجر ، ليغلق غرفته على نفسه وينام حتى المساء . وجميع الرسائل المغفلة التي كانت تقرؤها ثم تمزقها وتحرقها وتدوسها دون أن تتوصل الى تخفيف وطأة قوة السم ! لقد رأت جيروم يفسق مع خادماتها ، ويتملق صديقاتها واحدة واحدة . وجعل حولها فراغاً . وتذكرت التوبيخات التي كانت تجازف بها في بادىء الأمر ، والمشاهد الحذرة التي كانت تتكلم فيها باخلاص وتساهل ولا تجد أمامها سوى كائن تسيطر عليه نزواته ، مغلق ، هارب ، يكابر في الملموس بغضب بوريتاني[1] ، ثم يقسم على الأثر ، مبتسماً كالولد ، انه لن يعود الى ذلك ابداً . وتابع :

ـ هكذا ، ترين ، اني أسأت التصرف معك . وأنا ... نعم ، نعم ، يجب ألا نخاف من الكلام . مع هذا فإني أحبك يا تيريز من كل قلبي وأحترمك وأرثي لك . ولا شيء آخر ، أبداً ، وأقسم على ذلك ، ولا مرة ، ولا دقيقة ، ما من شيء كان يشبه هذا الحب ، الوحيد المتغلغلة جذوره في أعماقي ! آه ! حياتي بشعة ولا أدافع عنها ، وأنا أخجل منها . ولكن حقيقة يا صديقتي ، صدقيني انك ترتكبين ظلماً ، انت الملأى بالانصاف ، بقاضاتي فقط على ما أفعل . أنا . أنا لست بالضبط رجل اخطائي ... اني أعبر بشكل سيء وأشعر انك لاتصغين الي ... كل هذا ألف مرة اكثر تعقيدا بحيث لا أستطيع قوله ولن أتوصل الى استشفافه الا شيئاً فشيئاً .

وسكت ، منحني الرأس ، وعيناه تنظران الى بعيد كأنه أنهك بهذا الجهد الذي لا طائل تحته ليبلغ الحقيقة الخاصة لحياته ولو لحظة . ثم رفع رأسه ، وشعرت مدام دي فونتانان بملامسة نظرة جيروم لوجهها ، خفيفة في الظاهر ،

---

١ ـ البوريتانية : احدى الشيع البروتستانتية .

ولكنها تملك فضيلة استلفات أنظار الغير عند مرورها ، وتتلقفها بسرعة إذا صح القول ، وتبقيها لحظة ملتصقة بها قبـــل أن تستطيع الانفصال عنها : بالطريقة التي يجتذب فيها المغناطيس حديدة ثقيلة ، ويرفعها ويتركها . ومرة أخرى أيضاً تلاقت عيونهما وتفارقت . وفكرت : « وأنت أيضاً ، الن تكون أفضل من حياتك ! » .

الا أنها هزت كتفيها . وتمتم :

ــ لم تصدقيني .

فسعت لتتخذ لهجة منفصلة :

ــ اوه ! أريد أن أصدقك ، وقد صدقتك سابقاً في أغلب الأحيان، ولكن ليس لهذا أي أهمية . مذنب أم لا ، مسؤول أم لا يا جيروم ، فالشر قد وقع . والشر يقع في جميع الأيام . ــ والشر سيقع أيضاً ــ . وهذا يجب الايدوم . أخيرا ، لننفصل ، لننفصل نهائياً .

لقد فكرت كثيرا بذلك منذ أربعة أيام ، بحيث لفظت هـــذه الكلمات بنشوفة لم يخطئها جيروم . ورأت ذهوله وألمه فأسرعت بالمتابعة :

ــ اليوم ، يوجد الأولاد . وما داموا صغارا فلن يفهموا . كنت وحيدة ، وأنا ... ــ ولكن الحيـــاء أمسكها في اللحظة التي كانت ستلفظ فيها كلمة «أتعذب» . ــ الألم الذي سببته لي يا جيروم لم يصبني بمفردي في ... محبتي : انه يدخل معك الى هنا ، انه في هواء بيتنا ، في الهواء الذي يتنشقه أولادي . لن أحتمله . انظر ما فعل دانيال هذا الأسبوع ، ليسامحه الله كما سامحته عن الجرح الذي سببه لي ! انه يأسف لذلك من قلبه الذي ظل مستقيما . ــ وشع في نظرتها ألق من الكبرياء ومن التحدي تقريباً ــ ولكني متأكدة ان قدوتك ساعدته على فعل الشر . وهل كان يذهب بهذه السهولة دون أن يهتم بقلقي لو لم يكن يراك تختفي دون انقطاع ... لأجل أعمالك ؟

ونهضت وخطت خطوة مترددة نحو الموقد ، وشاهدت شعرهـا الأبيض ، وانحنت قليلاً باتجاه زوجها دون أن تنظر إليه .

– لقد فكرت جيداً يا جيروم . وتألمت كثيراً هذا الاسبوع ، وصلّيت ، وفكرت. لم افكر بتوجيه أي لوم إليك . ومع ذلك لم تبق لدي قوة هذا المساء، فقد أُنهكت . واني أطلب منك فقط أن تواجـه الحقيقة : وسوف تعترف انني على حق وان ليس هناك حل آخر ممكن . والحياة المشتركة . ما بقي لـــنا من حياة مشتركة ، هذا القليل الذي يبقى لنا ، فهو كثير أيضاً يا جيروم .

وتصلبت ، ووضعت كلتا يديها على الرخامة ، مميزة كل كلمة بحركة من نصفها الأعلى ومن يديها ، وقالت بوضوح :

– لا أريد .

فلم يجب جيروم ، ولكن قبل أن تتمكن من الابتعاد زحف حتى قدميهـا ووضع خده على خصرها كولد يريد أن يغتصب الصفح ، وقال متلجلجاً :

– وهل باستطاعتي الانفصال عنك ؟ وهل أستطيـع العيش بدون صفاري ؟ اني ألهب دماغي .

وشعرت برغبة بالابتسام لما وضع من الصبيانية في التمثيل الذي قام به وهو يشير إلى صدغه. وأمسك بمعصم تيريز المتدلي على طول تنورتها وغمره بالقبلات. فانتزعت يدها وداعبت جبهته بأطراف أصابعها، بحركة غير منتبهة وتعبة بدت امومية ، وكانت تبرهن عن انفصالها الذي لا دواء له . وخدع بذلك وزفـــع رأسه ، ولكنه أدرك من النظر إلى وجهها كم كان مخدوعاً . وكانت قد ابتعدت حالاً ومدت ذراعها نحو ساعة سفر كانت على طاولة الليل ، وقالت :

– الساعة الثانية ! لقد تأخر الوقت جداً . أرجوك ... غداً .

وألقى نظره على ميناء الساعة ومنها على السرير الكبير المهيأ الذي تضطجع عليه الوسادة الوحيدة . وفي هذه اللحظة أضافت :

– ستجد مشقة في ايجاد عربة .

فأتى بحركة مبهمة مندهشة ؛ لم يكن عازماً أبداً على الخروج هـذا المساء . ألم يكن في بيته ؟ غرفته دائماً مجهزة ، كانت تنتظره . وليس عليـه الا اجتياز الرواق . كم مرة عاد ليلاً بعد غياب أربعة أو خمسة أيام ؟ كانوا يرونه يظهر عند

تناول طعام الافطار بالبيجاما ، حالقاً ذقنه ، مازحاً ، ضاحكاً بصوت مرتفع ليتغلب عند ولديه على ذلك الحذر الصامت من الخداع الذي لم يكن يفسَّر . وكانت مدام دي فونتانان تعرف كل ذلك . وأخذت تتابع على قسماته خط تفكيره المنحني ؟ ولكنها لم تتساهل وفتحت الباب المطل على الدهليز . فمر ، خجلاً في سره ، ولكنه احتفظ بهيئة صديق نال إجازة .

وبينما كان يرتدي معطفه فكر أنها بدون نقود . وبدون تردد وضع بعض الاوراق النقدية التي بقيت في جيبه ، مع القول أنه ليس لديه أية وسيلة للحصول على مدد آخر . ولكن تفكيره بأن هذه الالهية يمكن أن تبدل شيئاً في رحيله وانها بعد أن تتلقى هذه النقود ربما لا تساورها الحرية في أن تصرفه بكثير من الخشونة ، ان هذه الفكرة قد نكدت عليه رقته؛ يضاف إلى ذلك أيضاً الخوف من إمكان ارتياب تيريز بالحساب . وقال فقط :

— يا صديقي ، لا يزال لدي الكثير مما أقوله لك .

فأجابت بسرعة ، مفكرة بعزمها على الانفصال ، ثم بالمبلغ المقرر :

- غداً يا جيروم . سأستقبلك غداً ، إذا أتيت . وسنتحدث .

وعندئذ عزم على الذهاب بلطف ، فأمسك بأطراف اصابعها ووضع شفتيه عليها . وكانت بينهما لحظة تردد . ولكنها سحبت يدها وفتحت باب الدرج .

— لا بأس . إلى اللقاء يا صديقي ... إلى الغد .

وشاهدته للمرة الأخيرة ، رافعاً قبعته ، هابطاً الدرجات الأولى ، ورأسه منحنٍ نحوها ، وهو يبتسم .

وأغلق الباب . وظلت مدام دي فونتانان وحدها ، وجبهتها مستندة إلى أطار النافذة ؛ والاصطفاق الشديد للباب الكبير بعث الرعشة في البيت النائم كله . وأمامها قفاز فاتح اللون كان ملقى على السجادة . فأمسكته دون ان تفكر ، وضمته إلى فمها ، وتنشقت رائحته ، باحثة خلال عفونة الجلد والدخان عن عطر لطيف كانت تعرفه جيداً . وحين شاهدت حركتها في المرآة احمّرت وألقت القفاز وادارت عاكس التيار بحدة ، متخلصة من نفسها بالظلام ،

وركضت حتى غرفة الأولاد متلمسة الحائط ، لتستمع فترة طويلة إلى تنفسهم النـائم .

٩

كان انطوان وجاك قد صعدا إلى عربتهما . ولم يكن الجواد يتقدم ويبدو ، بحوافره ، انه يلعب بالصناجات على طريقة ماك آدم . كانت الشوارع مظلمة . وكانت رائحة غطاء عفنٍ تتبخر في ظلام العربة . وكان جاك يبكي . فالتعب دون شك ، ثم عناق تلك السيدة ذات الابتسامة الامومية ، أسلماه أخـيراً لتوبيخ الضمير : بماذا يجيب والده ؟ وشعر بوهن قواه ، وظهر ما استتر من سره فجاء يسند شقاءه إلى كتف الأخ الذي أحاطه بذراعيه . انها المرة الأولى التي لم يحل خجلهما بينهما .

واراد انطوان ان يتكلم ، ولكنه لم يتوصل إلى التجرد من كل احـترام انساني ، وكان لصوته بساطة مرغمين ، قاسية قليلاً :

– هيا يا صديقي ، هيا ... لقد انتهى الأمر ... ما فائدة وضعـك في هذه الحالة ؟..

وسكت ، واكتفى بان يبقى حاضناً النصف الأعلى من جسد الصغـير . ولكن فضوله كان يعمل ، فقال بكثير من العذوبة :

– ما الذي أصابك ؟ ماذا جرى ؟ هل هو الذي اقتادك ؟

– أوه ! كلا . انه لم يكن يريد . ولكن انا ، انا وحدي .

– ولكن لماذا ؟

لا جواب . وتابع انطوان بحمق :

– انت تعلم اني أعرف ذلك . العلاقات في المدرسة . بامكانك ان تعترف لي بكثير من الأمور ، لي انا ، وانا أعرف ما الخبر . والانسان يقاد .

فنفخ جاك دون ان يترك كتف أخيه :

– انه صديقي ، هذا كل شيء .

فجازف الآخر :

ـ ولكن ماذا ... تفعلان معاً ؟

ـ نتحدث . وهو يؤاسيني .

ولم يجرؤ انطوان على السير ابعد من ذلك . « يؤاسيني » . ان لهجة جاك عصرت قلبه . وكاد يقول : « إذن أنت بائس جداً يا صغيري ؟ » حين اضاف بجرأة :

ـ ثم إذا اردت ان تعرف كل شيء : فهو يصلح اشعاري .

فأجاب انطوان :

ـ آه ! هكذا ! حسن جداً . هذا يسرني كثيراً ، انا مسرور كما ترى بأن تكون شاعراً .

فقال الولد : صحيح ؟

ـ نعم . مسرور جدا . وكنت أعرف ذلك قبلا . وقد قرأت قصائد لك، وكنت احياناً أجدها ملقاة على الأرض . ولم اكلمك عنها . ومع ذلك فنحن لم نكن نتحدث معاً ، ولا أدري لماذا . ولكن يوجد فيها ما يسرني كثيرا : فعلاً أنت ذو موهبة ويجب الاستفادة منها .

فزاد جاك من انحنائه وتمتم :

ـ لكم أحب هذا. واني أعطي كل شيء في سبيل الاشعار الجميلة التي احبها. وفونتانان يعيرني كتباً .ـ قل ، ألن تقول لأحد ؟ـ انه هو الذي جعلني اقرأ لابراد [1] ، وسيللي بريدوم ، ولامارتين ، وفكتور هيجو ، وموسيه ... آه ! موسيه ! قل :

يا نجمة المساء الشاحبة ، ايتها الرسولة البعيدة ،
التي تخرج جبهتها متألقة من أقنعة المغيب ...

وهذا :

هًا قد مر وقت طويل على تلك التي نمت معها

---

١ ـ ريشار دي لابراد : شاعر فرنسي ولد في مونبريزون (١٨١٢ ـ ١٨٨٣) مؤلف (قصائد انجيلية) ذات الهام رومانتيكي . وكان عضواً في المجمع العلمي الفرنسي .

وتركت فراشي إلى فراشك إيها السيد
ولا نزال ممتزجين واحدنا بالآخر ،
هي نصف حية وانا نصف ميت ...
و « مصلوب » لامارتين ، اتعرفه ؟ قل :
انت الذي جمعتُ على فمه المحتضر
بين نفسه الاخير ووداعه الأخير .
هذا جميل ، ها ، انه سائل ! في كل مرة يجعلني هذا مريضاً .
ثم فاض قلبه ، فتابع :
— في البيت لا يفهمون شيئاً ، وانا متأكد من انهم سوف يتهمونني بالبلاهة لو عرفوا انني انظم اشعارا . انت لست مثلهم .ـ وشد ذراع انطوان إلى صدره ـ وكنت اعتقد ذلك منذ وقت طويل . إلا انك لم تكن تقول شيئاً ، ثم انك لست هنا في اغلب الاحيان .. آه ! أنا مسرور ، لو تعلم ! واشعر الآن انه سيكون لي صديقان بدلاً من واحد .
فتلا انطوان مبتسماً :
ايف سيزار ، ها هي الغاليّة ذات العينين الزرقاوين ..
فابتعد جاك وقال : اقرأت الدفتر ؟
— ولكن اسمع ...
— وابي ؟
هكذا صرخ الصغير بلهجة محزنة جعلت انطوان يقول متلجلجاً :
— لا أعلم . ربما قرأ شيئاً منه .
ولم يستطع ان يكمل ، فقد ارتمى الولد داخل العربة وتدحرج علىالوسادة ، ورأسه بين ذراعيه :
— هذه نذالة ! والاب الرئيس واشٍ ، قذر ! سأقولها له ، سأصرخ فيه أثناء الدرس ، سأبصق في وجهه ! بامكانهم طردي من المدرسة ، فلا يهمني سأهرب أيضاً ! وسأقتل نفسي !

وكان يفحص برجله . ولم يجرؤ انطوان على ان ينبس بكلمة . وفجأة، سكت الولد من تلقاء نفسه ، وتلبد في الزاوية وسد اذنيه ، وكانت اسنانه تصطك . وكان صمته مقلقاً اكثر من غضبه . ومن حسن الحظ فإن العربة هبطت شارع سان ـ بير ، لقد وصلا .

وخرج جاك اولاً ، وانطوان لم تفارق عيناه أخاه وهو يدفع اجرة العربة، خائفاً من ان يعاود الهرب في الليل بدون تبصر . ولكن الولد بــدا محطماً ؛ ووجهه ، وجـه ابن الشارع، المضنى من السفر ، التالف من الغم ، كان جافا ، وعيناه منخفضتان . وقال انطوان :

ــ اقرع الجرس . اتريد ؟

فلم يجب جاك ولم يتحرك . وادخله انطوان فأطــاع منقاداً ، حتى انه لم يفكر بفضول الام فرولان ، البوابة . كان مسحوقاً بعجزه الواضح . ورفعه المصعد كالعصافة ليلقيه تحت المقرعة الابوية. كان من جميع النواحي، وبدون أية مقاومة ممكنة ، سجين العائلة والشرطة والمجتمع .

إلا انه حين وجد سطح درجه من جديد ، حــين عرف الثريا المضاءة في الدهليز كما يحدث في الامسيات التي يقيم فيها والده حفلات عشاء، شعر بعذوبة، رغم كل شيء ، لإحساسه بتلك العادات القديمة من حوله تحيط به ، وحين رأى المدموازيل آتية تعرج نحوه من داخل غرفة الزائرين ، وهي اكثر صغراً واكثر اهتزازاً من أي وقت مضى، شعر بالرغبة في إلقاء نفسه ، دون أي حقد تقريباً، بين هذين الذراعين من الصوف الاسود اللذين انفرجا لأجله . لقد امسكت بــه والتهمته بالمداعبات ، بينما كان صوتها العاثر يرتل بلحن وحيد حاد :

ـ يا لها من خطيئة ! العديم القلب ! إذن كنت تريد ان تميتنا من الغم ؟ يا لهــا من خطيئة يا ربي ! أليس لك قلب ؟

وامتلأت عيناها اللتان تشبهان عيني اللاما بالدمع .

ولكن باب المكتب فتح على مصراعيه وظهر الاب في فرجة الباب . لقد شاهد جاك منذ اللمحة الاولى ولم يستطع اخفاء تأثره . إلا انه وقف واطبق

جفونه ، لقد بدا انه ينتظر الابن المذنب ليسرع ويركع كما في لوحة غروز [1] *Greuse* الموجودة في قاعة الاستقبال .

ولم يجرؤ الولد . لأن المكتب ايضاً كان مضاءً كما يضاء للحفلات . وظهرت الخادمتان في باب المكتب. وكان السيد تيبو يرتدي معطفاً مع انها ساعة درّاعة المساء : ان كثيراً من الاشياء غير المألوفة شلت حركة الولد فتخلص من حضنة المدموازيل وتقهقر ، وظل واقفاً ، خافضاً رأسه ، منتظراً ما لا يعرف ، شاعراً بالرغبة بالبكاء لكثرة ما تكدس من الرقة في قلبه ، وفي ان ينفجر ضاحكاً ايضاً.

ولكن أول كلمة للسيد تيبو تبدو انها تعني طرده من العائلة . فموقف جاك بحضور شهود لاشى في لحظة كل ميل إلى التساهل . ولكي يذل المتمرد ، تظاهر بالتجرد التام وقال موجهاً الكلام إلى انطوان وحده :

— آه ! ها انت اتيت . لقد بدأت ادهش . هل جرى كل شيء عادياً هناك ؟

وعلى الجواب الإيجابي لأنطوان الذي جاء يشد على اليد الرخوة التي قدمها له والده ، قال :

— اشكرك يا عزيزي لتوفيرك علي مسعى ... مسعى مخزياً جدا .

وتردد بضع ثوان ، وهو لا يزال يأمل باندفاعة من المذنب ! والتفت نحو الخادمتين ، ثم نحو الولد الذي كان يتظاهر بالنظر إلى السجادة . عندئذ قرر الغضب وقال :

— سنرى منذ الغد الاحتياطات الواجب اتخاذها لكي لا تتجدد امثال هذه الفضائح ابدا .

وحين خطت المدموازيل نحو جاك لتدفعه إلى ذراعي والده ـ حركة ادركها جاك دون ان يرفع عينيه وكان ينتظرها كآخر حظ له بالنجاة ـ مدّ السيد

---

١ ـ جان بابتيست غروز : ولد في تورنو (سون ـ أي ـ واز) ١٧٢٥ ـ ١٨٠٥ .اشتهر في رسم المشاهد العائلية .

تيبو ذراعه واوقف المدموازيل آمرا :

ـ دعيه ! دعيه ! هذا تافه . قلب من حجر . هل يستحق المتاعب التي مررنا بها بسببه ؟

ووجه الكلام من جديد إلى انطوان الذي كان يبحث عن فرصة ليتدخل :

ـ يا عزيزي انطوان ، أدّ لنا خدمة باهتمامك هذه الليلة ايضاً بهذا الشقي . وأعدك اننا سنخلصك منه في الغد .

وكان تردد : فقد اقترب انطوان من والده . ورفع جاك جبهتـــه بخجل . ولكن السيد تيبو تابع كلامه بنبرة لا جواب لها :

ـ هيا ، اتسمعني يا انطوان ؟ خذه إلى غرفته . لقد دامت هذه الفضيحة كثيرا .

ومنذ ان اختفى انطوان في الرواق آخذاً جاك امامه ، وحيث الخادمات توارين بمحاذاة الجدار كما على طريق وتد الاعدام ،فإن السيد تيبو عــــاد إلى مكتبه ، مطبق العينين دائماً ، وأغلق الباب وراءه .

لم يكن عليه الا أن يجتاز الغرفة ليدخل الى غرفة نومه . انها غرفة أهله كما رآها منذ بدء طفولته في فسطاط المصنع الوالدي بالقرب من روان ، وكما ورثها وجاء بها الى باريس حين جاء يدرس الحقـــوق : خزانة الاكاجو ذات الأدراج ، والكنبات من طراز فولتير ، والستائر الزرقاء ، والسرير الذي مات عليه أبوه وأمه ، الواحد بعد الآخر ، معلق أمام المصلّى الذي طرزت وشيه مدام تيبو ، والمسيح الذي وضعه بنفسه بين أيديها المضمومة ، في فسحة بضعة أشهر فصلت موتها .

وهناك ، وقد أصبح بمفرده ، عاد هو نفســـه ، الرجل الكبير المستدير الكتفين ؛ وظهر على وجهه قناع من التعب ، واتخذت قسماته تعبيراً بسيطاً جعله يشبه صوره وهو طفل . واقترب من المصلّى وركع باستسلام ، ويداه المنتفختان تصالبتا بطريقة سريعة ، معتادة : ان لجميع حركاته هنا شيئاً سهلاً ، سرياً ، منفرداً . ورفع وجهه الجامد ؛ وذهبت نظرته الراشحة تحت أهدابه رأساً نحو

المصلوب . وقدم لله إخفاقه ، ذلك البرهان الجديد ، ومن أعماق قلبه الخالي من كل شعور جديد أخذ يصلي كأب ، لأجل الصغير الضال . وأخذ سبحته من تحت المسند الجانبي ، بين الكتب الدينية ، سبحة مناولته الأولى التي تجري حبّاتها بعد أربعين سنة من الصقل، من تلقاء نفسها بين أصابعه. وكان قد أطبق عينيه ، ولكنه احتفظ بجبهته متلعة نحو المسيح . ما من أحد رأى في الحيــــاة تلك الابتسامة الداخلية ، وذلك الوجه المجرد السعيد . وتمتمة شفتيه جعلت خداه يرجفان . وهزة رأسه التي يحدثها في فترات منتظمة ليخرج عنقه خارج الطوق تبدو انها تؤرجح المبخرة على قدم العرش الإلهي .

في الغد كان جاك وحيداً ، جالساً على سريره الشاحب . لم يكن يعرف ماذا سيحل به في ذلك الصباح من يوم السبت ، الذي ليس يوم عطلة ، بالعكس ، فقد قضاه هنا ، في غرفته . كان يفكر بالمدرسة ، بصف التاريخ ، بدانيال . وكان يسمع جلبة الصباح التي لم تكن مألوفة لديه وتبدو له عدائية ، المكنسة على الطنافس ، والأبواب التي تصر بسبب مجرى الهواء . لم يكن خامد النشاط: كان بالأحرى متحمساً ؛ ولكن جموده ، وذلك التهديد الغامض الذي يحوم في البيت سببا له قلقاً لا يحتمل . وكان يبحث كخلاص عن فرصة تفانٍ ، عن تضحية بطولية ومستحيلة تتيح له أن يستنفد دفعة واحدة ذلك الفيض من المحبة التي تخنقه . وبين فترة وأخرى فان الشفقة التي كانت لديه على نفسه ، كانت تجعله يرفع رأسه ويتذوق دقيقة من اللذة الفاسدة ، المصنوعة من حب غير معترف به ، ومن الحقد والكبرياء .

وحرك أحدهم زر القفل . انها جيزيل . فقـــد غسلوا لها شعرها وكانت ضفائرها السوداء تجف على كتفيها ؛ وكانت بالقميص والبنطلون ، وعنقها ، وذراعاها ، وساقاها كلها سمراء ، وهيئتها كجزائري صغير في سروالها المنتفخ، وبعينيها الجميلتين كعيني كلب ، وشفتيها الناضرتين ، وشعرها المشعث .

وقال جاك دون لطف : ماذا تريدين ؟

فقالت وهي تنظر إليه : جئت لأراك .

لقد جعلتها سنواتها العشر تدرك أشياء كثيرة هذا الأسبوع . أخيرا عاد جاك . ولكن لم تعد الأمور الى نصابها ما دامت عمتها ، وهي تسرح لها شعرها ، قد دعيت لمقابلة السيد تيبو ، وتركتها هناك وشعرها في الهواء بعد أن نالت منها وعدا بأن تكون عاقلة . وسأل :

– من قرع الجرس ؟

– السيد الرئيس .

فعبس جاك وصعد إلى السرير على جانبه ، فتمتمت :

– مسكين يا جاك .

هذه المودة أحسنت إليه كثيراً ، ولكي يشكرها ، أجلسها على ركبتيه وقبلها . ولكن اذنه كانت تسترق السمع ، وهمس وهو يدفعها نحو الرواق :

– اهربي ، فقد أتوا .

لم يتسع الوقت له للوثوب عن السرير وفتح كتاب القواعد. فقد ارتفع صوت الأب فيكار وراء الباب :

– صباح الخير يا صغيرتي . هل جاكو هنا ؟

ودخل ، ووقف على العتبة ، وخفض جاك عينيه . واقترب الأب الرئيس وقرص اذنه ، وقال :

– هذا جميل .

ولكن مظهر الولد العنيد جعله يغير طريقته . كان يتصرف مع جاك دائماً بحذر . فقد كان يشعر حيال هذه النعجة الضالة في أغلب الأحيان بحب رقيق خاص ، ممزوج بالفضول والاعتبار ؛ كان يميز جيدا أية قوةٍ تكمن هناك .

وجلس وجاء بالولد إلى أمامه . وقال مع أنه يعرف الأمر حق المعرفة :

– هل طلبت الصفح من والدك على الأقل ؟

وحقد جاك عليه بسبب هذه المداجاة؛ ورفع إليه نظرا هادئاً وأتى بإشارة تفيد النفي . وساد صمت قصير . وتابع الكاهن بصوت حزين ، متردد قليلاً :

ـ لا أخفي عليك يا ولدي أن كل ذلك سبب لي الكثير من الغـــم . وحتى الآن ، وبالرغم من طيشك ، كنت دائماً آخذ جانب الدفاع عنك عند والدك . وكنت أقول له : « أن الجاكو قلباً طيباً ، وهناك وسيلة ، فلنصبر » . ولكني اليوم لا أعرف ماذا أقول ، وأكثر من ذلك ، لا أعرف بماذا افكر . فقد علمت عنك أشياء ما كنت اجرؤ على الظن بها أبدا، أبدا . وسنعود إلى ذلك، وكنت أقول لنفسي : « سيكون لديه الوقت الكافي للتفكير ؛ سيعود إلينا تائبـــاً ، وليس هناك خطأ لا يمكن التكفير عنه بتوبة نصوح . » وبـدلاً من ذلك ، فها أنت بوجهك الرديء لا تبدي حركة أسف ، ولا دمعة . لقد خمـــدت شجاعة والدك المسكينهذه المرة: وقد أغمي. انه يتساءلإلى أية درجة من فسادالاخلاق قد انحدرت ، إذا كان قلبك قد جف تماماً . ولعمري فاني لأتساءل أيضاً .

كان جاك يشنج قبضتيه في داخـــل جيوبه ويضغط ذقنه على صدره لئلا ينبجس أي بكاء من حنجرته ، ولكي لا تشي به أية عضلة في وجهه . هو وحده كان يعرف كم يتعذب لأنه لم يطلب الصفح، وأية دموع لذيذة كان يسكبها لو أنه استُقبل كدانيال ! كلا ! ما دام الأمر هكذا فلن يدع احداً يعرف ما يشعر به حيـــال والده ، تلك المحبة الحيوانية ، المجبولة بالكراهية ، والتي تبدو انها زادت تأججاً منذ عدمت مساندة اي أمل بالمبادلة !

وكان الأب الرئيس صامتاً ، ووداعة قسماته جعلت صمته اكـــثر ثقلاً . ثم نظر الى بعيد دون ديباجة اخرى ، وبدأ بصوت مرتل :

(كان لرجل ولدان . وقد جمع اصغرهما كل ما لديه وذهب الىمنطقة غريبة وبعيدة . وهناك بعثر امواله عائشاً في الفوضى . وبعد ان انفق كل شيء عاد إلى نفسه وقال : « سأنهض واسير نحو ابي وسأقول له : « يا أبي ، لقد اخطأت بحق السماء ولست جديرا ، بنظرك ، أن أكون ولداً لك » . ونهض عندئذ وسار نحو والده . وفيما كان لايزال بعيدا شاهده والده وأخذته الرأفة وركض نحوه وضمه بين ذراعيه وقبله . ولكن الابن قال له : « يا أبي لقد أخطأت بحق السماء وفي نظرك لست جديرا بان ادعى ابناً لك ... ») .

في تلك اللحظة اصبح ألم جاك أكثر قوة من إرادته ، فانخرط في البـــكاء .
وغيّر الأب الرئيس لهجته :
– كنت أعلم انك لست فاسدا حتى أعماق قلبك يا بني . وقد تلوت هذا الصباح قداساً لأجلك . لا بأس ، اذهب كالابن الضال ، وسر الى والدك وسوف تأخذه الرأفة . وسيقول هو أيضاً : « لنفرح لأن ولدي هذا كان ضالاً ، ولكنه اهتدى ! » .
عندئذ تذكر جاك أن ثريا الدهليز كانت مضاءة لدى عودته ، وأن السيد تيبو كان محتفظاً بمعطفه . وزادت من رقة قلبه فكرة وجود تجهيزات لحفلة .
وقال الكاهن مداعباً الرأس الصغير الأمغر :
– أريد أن أقول لك شيئاً آخر أيضاً . لقد صمم والدك على أمر خطير في قضيتك ...
وتردد وهو يختار كلماته ، ويمر بيده جيئة وذهاباً على الأذنين المنفصلتين المنطويتين على طول الخد ثم تنتصبان كالنوابض وتصبحان محرقتين ؛ أما جاك فلم يجرؤ على الحركة .
– ... انه تصميم وافقت عليه .
قال الأب الرئيس ذلك واضعاً سبابته على شفتيه ، باحثا باصرار عن نظر الصغير :
– يريد ارسالك ، لبعض الوقت ، إلى مكان بعيد عنا .
فصرخ جاك بصوت مخنوق :
– إلى أين ؟
– سيقول لك ذلك يا بني . ولكن مهما كان تفكيرك أولاً ، فيجب أن تقبل هذه العقوبة بقلب نادم كتدبير اتخذ لصالحك . وربما يكون في البدء قاسياً أحياناً أن تجد نفسك ساعات بكاملها منفردا تجاه نفسك : تذكر في تلك اللحظات أنه لا يوجد عزلة للمسيحي الصالح ، وان الله لا يترك اولئك الذين يضعون ثقتهم به . هيا . قبلني . وتعال واطلب الصفح من والدك .

بعد بضع لحظات عاد جاك إلى غرفته ، ووجهه متورم من الدموع، ونظرته نارية . وتقدم نحو المرآة وتصفح نفسه بضراوة حتى أعماق عينيه ، كأنه بحاجة إلى صورة كائن حي ليصيح فيه ببغضه وكراهيته . ولكنه سمع وقع خطوات في الرواق؛ وليس في قفل بابه مفتاح ؛ فكوّم متراساً من الكراسي وراءالباب، ثم أسرع إلى طاولته وكتب بضعة أسطر بالقلم الرصاصي ، ووضع الورقة في غلاف ، وكتب العنوان ، وألصق الطابع، ونهض. كان كالضائع . لمن يوكل هذه الرسالة ؟ لا يوجد حوله سوى اعداء ! وفتح النافذة قليلاً . كان الصباح رمادي اللون ؛ والشارع مقفر . ولكن هناك سيدة هرمة وولد كانا آتيين على مهل . فأسقط جاك الرسالة التي أخذت تدور وتدور واستقرت على الرصيف ، وتقهقر بسرعة . وحين جازف من جديد بمد رأسه إلى الخارج كانت الرسالة قداختفت : والسيدة والولد ابتعدا .

وعندئذ ، وقد خارت قواه ، زفر زفرة حيوان في قفص ، ووثب إلى سريره ، سانداً قدميه إلى الخشب ، وأعضاؤه تهتز من الغضب العاجز ، عاضاً الوسادة ليخنق صراخه، وكان قد ظل لديه ما يكفي من الوعي ليحرم الآخرين من منظر يأسه .

وفي المساء تلقى دانيال البطاقة التالية :

« يا صديقي .

يا حبي الوحيد ، ورقة وجمال حياتي !

اكتب اليك هذه الرسالة كوصية .

لقد فصلوني عنك ، فصلوني عن كل شيء . يريدون وضعي في مكان لاأجرؤ على أن أقول لك ما هو ، ولا أجرؤ على أن أقول لك أين ! اني أخجل عن أبي !

أشعر بأنني لن أراك أبداً ، أنت يا وحيدي ، أنت الوحيد الذي يستطيع أن يجعلني صالحاً .

وداعاً يا صديقي ، وداعاً .

إذا جعلوني تعيساً شريراً فسأنتحر . وستقول لهم عندئــذ انني قتلت نفسي عمداً بسببهم ! ومع هذا فقد كنت أحبهم !

ولكن تفكيري الأخير ، على عتبة المجهول موجه اليك يا صديقي .

وداعاً » .

من تموز ١٩٢٠ – آذار ١٩٢١

الاصلاحية

١

منذ ذلك النهار من السنة الماضية ، حين جاء انطوان بالطالبين الهاربين ، لم يعد إلى بيت مدام دي فونتانان أبداً ، ولكن الوصيفة عرفته ، وأدخلته دون تكليف مع أن الساعة هي التاسعة مساء .

كانت مدام دي فونتانان في غرفتها ، وولداها بقربها ، جالسة أمام الموقد ، مستقيمة الجسم تحت القنديل ، وكانت تقرأ كتاباً بصوت مرتفع ، وكانت جني ، المتلبدة في كرسي ، تفتل ضفيرتها ، وعيناها محدقتان بالنار ، وكانت تستمع ، ودانيال منتحٍ جانباً ، متصالب الساقين ، وعلى ركبته لوح من كرتون يتم عليه رسماً أولياً لأمه بالقلم الفحمي . وشعر انطوان على العتبة حيث وقف لحظة ، كم كان مجيئه في غير وقته ، ولكن لم يعد هناك مجال للعودة .

كان استقبال مدام دي فونتانان بارداً قليلاً ! وقد بدت مندهشة بشكل خاص ، فتركت الولدين هناك وقادت انطوان إلى قاعة الاستقبال . وما ان أدركت سبب مجيئه حتى نهضت لتأتي بولدها .

كان دانيال يبدو آنذاك أنه في السابعة عشرة ، مع أنه في الخامسة عشرة ، وهناك ظل شاربٍ يشي بخط الفم . وكان انطوان خجلاً ، ينظر إلى الشاب

أمامه بهيئة ساخطة قليلاً تبدو انها تقول : « أنا ، كما تعلم ، أسير إلى الهدف دون مواربة » . وكما في السابق ، فان غريزة خفية جعلته يبالغ قليلاً بهذا المسلك من الصراحة منذ أن يجد نفسه أمام مدام دي فونتانان ، وقال :

– لقد أتيت لأجلك . أن لقاءنا البارحة جعلني افكر .

وبدا دانيال مندهشاً وتابع انطوان :

– نعم ، اننا لم نكد نتبادل بعض الكلمات . وكنتَ متعجلاً ، وأنا أيضاً ، ولكن بدالي ... ولا أعرف كيف أقول ... ثم ، لم تسألني أي خبر عن جاك : فاستنتجت انه يكتب إليك ، أليس كذلك ؟ حتى اني أرتاب في أنه يكتب اليك أشياء ، أشياء لا أعرفها وأنا بحاجة لمعرفتها . كلا ، انتظر ، اصغ إلي . ان جاك ترك باريس منذ حزيران الماضي ؛ ونكاد نصبح في نيسان ؛ أي انه قد مضى عليه تسعة أشهر هناك . لم أره ، ولم يكتب إلي، ولكن أبي يراه في الغالب : ويقول لي ان جاك بصحة جيدة ، وهو يدرس ، وان البعد والنظام قد أحدثا مفعولاً ممتازاً . هل هو مخدوع ؟ أيخدعونه ؟ منذ لقائنا البارحة وأنا قلق . وقد جاءتني فكرة أنه ربما كان تعساً هناك حيث هو ، وبما أنني لا أعرف شيئاً فلا أستطيع اسداء المساعدة له ؛ وهذه الفكرة أصبحت غير محتملة بالنسبة إلي . عندئذ فكرت بالمجيء اليك ، بصراحة . اني أتوجه إلى حبك له . والامر لا يتعلق بإفشاء مسارات . ولكن يجب أن يكون كتب اليك عما يجري هناك ، وانت الوحيد الذي يستطيع أن يجعلني مطمئناً – أو يجعلني أتدخل .

كان دانيال يصغي، غير متأثر . وكانت حركته الاولى رفض هذا الحديث . وأبقى رأسه مرفوعاً وأثبت على انطوان نظرته التي جعلها الاضطراب قاسية ، ثم التفت نحو أمه متحيراً . وكانت تتأمله راغبة في معرفة ما سوف يفعل . وطال الانتظار . وأخيراً ابتسمت ، وقالت ، بحركة مقحامة من يدها :

– قل الحقيقة يا كبيري . لا يندم المرء أبداً على عدم الكذب .

عندئذ عزم دانيال على الكلام ، وبنفس الحركة . نعم ، كان يتلقى بين وقت وآخر رسائل من تيبو ، رسائل تقصر مرة بعد مرة ، وتقل تفاصيلها مرة بعد

مرة . وكان دانيال يعلم ان رفيقه تلميذ داخلي عند استاذ في الارياف ، ولكن أين ؟ كانت الطوابع تلصق على رسائله في عربة بريـــد ، على شبكة خطوط حديدية في الشمال . نوع من مدرسة يعدون فيها التلامذة للبكالوريا بسرعة .

وبذل انطوان جهده لئلا يبدو ذهوله . بأي غمٍ كان جـاك يخفي الحقيقة عن أخلص أصدقائه ! لماذا ؟ بدافع الخجل ؟ أنه دون شك نفس السبب الذي كان يدفع السيد تيبو إلى أن يخفي عن أعين الناس مستعمرة كـروي *Krouy* الاصلاحية ، حيث كان يسجن ولده ، ويحولها الى « مؤسسة دينية على ضفة نهر الواز » . لقد اجتاز فجأة عقل انطوان ذلك الشك القائل بأن هذه الرسائل قد أمليت على اخيه . من الممكن انهم يحكمون هذا الصغير بالارهاب . وتـذكر حملة قامت بها صحيفة ثورية في بوفيه ، واتهامات رهيبة وجهت ضـــد « اعمال الوقاية الاجتماعية » : اكاذيب قاضاها السيد تيبو أثناء دعوى تشنيع ربحها على طول الخط ؛ ولكن اخيراً ؟

بالحقيقة لم يكن انطوان يعتمد إلا على نفسه ، وسأل :

ــ الا تريد ان تريني احدى هذه الرسائل ؟

وحين رأى دانيال وقد احمر وجهه اعتذر بابتسامة متأخرة قائلاً :

ــ رسالة واحدة لأرى . لا يهم اي واحدة .

فنهض دانيال وخرج من الغرفة بدون ان يجيب ، وبـدون ان يستشير امه بعينيه. وبقي انطوان وحيداً مع مدام دي فونتانان ، فأحس ثانية بالانطباعات التي شعر بها في السابق : حيرة ، فضول ، اجتذاب. كانت تنظر امامها وتبدو غير مفكرة بشيء . ولكن وجودها كان كافياً لحث حياة انطوان الداخلية وبصيرته . كان في الهواء حول هـذه المرأة قابلية خـــاصة للنقل ، وفي تلك اللحظة ، ودون ان يستطيع الذهول عنها ، شعر انطوان بشيء من اللوم ينتقل منها ، ولم يكنْ مخطئاً ابداً . ودون ان تلوم انطوان بوضوح ، ولا السيدتيبو ، ما دامت تجهل مصير جـاك ، بل متذكرة زيارتها الوحيدة الى شارع الجامعة ، فقد كانت تشعر ان ما حدث هناك في الغـالب لم يكن حسناً . وقـــد ادرك

انطوان ذلك وربما استصوبه . وبالتأكيد ، اذا اتيح لأحد ان ينتقد والده لصاح معترضاً ؛ ولكن في هذه اللحظة ، وفي دخيلة نفسه ، كان مع مدام دي فونتانان ضد السيد تيبو . وفي السنة الماضية ـ ولم ينس ذلك ـ حيث اجتاز للمرة الاولى ذلك الجو الذي يسبح فيه آل فونتانان ، فان الهواء العائلي ، عند عودته ، ظل مدة طويلة غير صالح للتنفس .

وعاد دانيال ، وناول انطوان غلافاً ذا مظهر حقير ، وقال :

— هذه هي الرسالة الأولى ، والأكثر طولاً .

ثم جلس .

« عزيزي فونتانان .

اكتب إليك من بيتي الجديد . لا تحاول أنت ان تكتب إلي لأن هذا ممنوع تماماً هنا . وفيما عدا ذلك فكل شيء على ما يرام . استاذي جيد وهو لطيف معي ، وانا اشتغل كثيراً . ولدي جماعة من الرفاق كلهم لطفاء ايضاً . ومع ذلك فأبي وأخي يأتيان لرؤيتي نهار الأحد . ها أنت ترى انني على خير حال . أرجوك يا عزيزي دانيال ، باسم صداقتنا ، ألا تحكم على أبي بقسوة ، فأنت لا تستطيع ان تفهم كل شيء . أنا أعلم انه طيب جداً ، وحسناً فعل بإبعادي عن باريس حيث كنت أضيع وقتي في المدرسة . وانا نفسي مقتنع الآن وانا مسرور. لن أعطيك عنواني لكي أكون واثقاً من عدم كتابتك إلي ، لأن هذا هنا مخيف بالنسبة إلي .

سأكتب إليك ايضاً حين استطيع يا عزيزي دانيال» .

ـ جاك ـ

قرأ انطوان هذه البطاقة مرتين . ولو لم يكن يعرف خط أخيه من بعض العلامات لارتاب في ان تكون هذه الرسالة من جاك . وكان عنوان الغلاف بخط يد أخرى : خط فلاح ، مرتخ ، متردد ، قذر . والشكل والمحتوى حيّراه بالتساوي . لماذا هذه الاكاذيب ؟ «رفاقي» ! ان جاك يعيش في صومعة في ذلك « البيت الخاص » الشهير الذي أوجده السيد تيبو في إصلاحية كروي لأبناء

العائلات ، والذي كان فارغاً بصورة دائمة ! ولم يكن يتكلم مع أي كائن حي إلا الخادم المكلف بحمل طعامه أو بأخذه إلى النزهة ، وإلى استاذه الذي يأتي من كومبيانيه ليلقنه درسين أو ثلاثة بالاسبوع . « أبي واخي يأتيان لرؤيتي » ! ان السيد تيبو يذهب رسمياً إلى كروي في أول اثنين من كل شهر ليرأس فيها مجلس الإدارة ، وفي ذلك النهار ، فعلاً ، وقبل العودة ، يقابل ولده لبضع لحظات في قاعة الحادثة . أما انطوان فقد أظهر كثيراً من الرغبة في الذهاب لزيارة أخيه في اثناء العطلة ، ولكن السيد تيبو عارض ذلك ، وكان يقول : « المهم في نظام أخيك هو انتظام العزلة » .

كان يدير الورقة بين أصابعه ، ومرفقاه على ركبتيه . لقد فقد الراحة منذ وقت طويل . وشعر فجأة ان الدنيا اسودت في عينيه ، وانه وحيد ، بحيث أصبح على وشك الاعتراف بكل شيء لهذه المرأة المستنيرة التي وضعتها صدفة جميلة في طريقه . ورفع عينيه نحوها : يداها على تنورتها ، ووجهها مفكر ، وكانت تبدو انها تنتظر ، ونظرتها ثاقبة . وتمتمت وهي تبتسم نصف ابتسامة :

— لو نستطيع مساعدتك بشيء .

كان بياض شعرها الخفيف قد جعل هذه الابتسامة ، وكل ذلك الوجه ، اكثر شباباً .

إلا انه تردد في لحظة الاستسلام . وكان دانيال يتأمله بهيئته المنصفة. وخاف انطوان ان يظهر بمظهر المتردد ، واكثر من ذلك ، أن يعطي السيدة دي فونتانان صورة زائفة عن الرجل العزوم الذي كانه . ولكنه تحاشى أفضل سبب : ألاّ يفشي السر الذي حرص جاك على اخفائه . وبدون ان يزيد من تردده ، ومحاذراً من نفسه ، نهض ليذهب ، ويده ممتدة ، مكسباً وجهه تلك الهيئة المشؤومة التي اتخذها مختاراً والتي تبدو انها تقول للجميع : « لا تسألوني . لقد أدركتم ما في نفسي . ونحن نفهم بعضنا بعضاً . وداعاً » .

في الخارج أخذ يسير امامه . وكان يردد لنفسه : « شيء من الدم البارد . شيء من العزم » . ان خمساً أو ست سنوات من الدراسات العلمية كانت تضطره إلى تحكيم عقله مع مظهر من المنطق : « ان جاك لا يشكو . إذن فجاك ليس بائساً » . وبالضبط كان يفكر بعكس ذلك . وتذكر بالحاح تلك المعركة الصحفية التي اشتجرت في السابق ضد الاصلاحية ؛ وتذكر على الخصوص مقالاً بعنوان « سجن الأولاد » وصف فيه بدقة الشقاء المادي والمعنوي للقاصرين السيئي التغذية، السيئي الإقامة ، المتعرضين للعقوبات الجسدية ، المتروكين في أغلب الاحيان لشراسة الحراس . وأفلتت منه حركة تهديد : مهما كلف الامر سوف ينتشل الولد المسكين من هناك ! انه دور جميل يلعبه ! ولكن كيف ؟ يخبر والده ، ويناقشه ، هذا مفروغ منه : بالفعل ، انطوان يتمرد على والده ، وعلى العمل الذي أسسه وأداره . هذه الحركة من التمرد البنوي كانت جديدة عليه ، وقد شعر منها أولاً ببعض القلق ، ثم بالكبرياء . وتذكر ما حدث في السنة الماضية ، غداة عودة جاك ، فمنذ الساعة الأولى دعا السيد تيبو انطوان إلى مكتبه ، حيث جاء الأب الرئيس فيكار . وكان السيد تيبو يصيح : « هذا التافه ! يجب سحق إرادته ! » وكان يفتح أمامه يده الكبيرة الشعراء ويطبقها ببطء ، جاعلاً المفاصل تفرقع . ثم قال بابتسامة راضية : « اعتقد اني أمسكت بالحل » . وبعد وقفة ، رفع اخيراً جفونه وقذف هذه الكلمة : « كروي » فصاح انطوان : « جاك في الاصلاحية ؟ » وكانت المناقشة حامية ، وكان السيد تيبو يردد مفرقعاً مفاصل أصابعه : « يجب سحق إرادته » . وكان الأب الرئيس متردداً . وعندئذ عرض السيد تيبو النظام الخاص الذي سيخضع جاك له ، والذي كان يبدو ، لدى سماعه ، محسناً وابوياً . ثم ختم بصوت مليء ، مشيراً إلى الفواصل : « هكذا ، يوضع في معزل عن الميول الضارة، ويتطهر منغرائزه الرديئة بالوحدة*، ويتذوق العمل ، وسوف يبلغ السادسة عشرة من سنه ، واريد ان آمل انه سيستطيع حينئذ ، دون خطر ، ان يستعيد الحياة العائلية إلى جانبنا » . ووافق الأب الرئيس قائلاً : « العزلة تنتج علاجات رائعة » .

أما انطوان ، وقد زعزعته حجج السيد تيبو ، واستصواب الكاهن ، فانتهى إلى التفكير انهما على حق . وهذا الرضا لا يغفره اليوم لنفسه ولا لوالده .

كان يمشي بسرعة دون ان ينظر إلى طريقه . والتفت أمام أسد بلفور ثم عاود سيره بخطى كبيرة ، مولعاً سيكارة بعد سيكارة ، وقاذفاً دخانها في ريح المساء . كان يجب ان يضرب ضربة مستقيمة : السير إلى كروي ، والظهور بمظهر المحب للقضاء العادل ...

ودنت منه امرأة ، ودست له بضع كلمات بصوت رقيق . فلم يجب بشيء وتابع هبوطه شارع سان ميشال . وكان يردد : « كمحب للقضاء العادل،و كشف النقاب عن خداع المديرين وقساوة حراس السجناء ، واحداث فضيحة ، والعودة بالصغير ! » .

ولكن اندفاعه قُطع . فقد كان عقله يتبع أثراً مزدوجاً : لقد انبجست نزوة على هامش المشروع الكبير . فاجتاز السين : كان يعرف جيداً إلى أين يقوده شروده . ولماذا لا ؟ ألم يكن مهتاج الأعصاب كثيراً ليعود الى البيت وينام ؟ وتنشق الهواء ، ومد صدره ، وابتسم . وكان يفكر : « ان يكون المرء قوياً ، أن يكون رجلاً » . وبينما كان يدخل فرحاً في الزقاق المظلم رفعته من جديد نفحة كريمة : فقد بدا له عزمه ، بالاختصار ساطعاً ، منتصراً ؛ وعلى أهبة تنفيذ أحد المقصدين اللذين كانا منذ ربع ساعة يتنازعان انتباهه ، بدا له الآخر فجأة شبه محقق ؛ وقد قال موضحاً في اللحظة التي دفع فيها ، بحركة مألوفة ، الباب الزجاجي :

– غداً ، السبت ، يستحيل ان اترك المستشفى . ولكن الأحد . الأحد صباحاً سأكون في الاصلاحية .

٢

ان قطار الصباح السريع لا يتوقف في كروي ، وقد اضطر انطوان الى النزول في فينيت *Venette* ، آخر محطة قبل كومبيانيه . ووثب من القطار

بحيوية متناهية . وطوال الرحلة ، ورغم الامتحان الذي عليه أن يجتازه في الاسبوع التالي ، لم يركز تفكيره على كتب الطب التي حملها معه . فقد اقتربت الساعة الحاسمة . كانت مخيلته منذ يومين تمثل له بكثير من الوضوح اتمام هذه الحرب الصليبية حيث كان يفكر أن يضع نهاية لسجن جاك ولم يكن يفكر أبداً باكتساب مودته .

كان هناك كيلومتران يجب اجتيازهما على طريق جميلة مسطحة اكسبتها الشمس بهجة . للمرة الاولى من السنة ، بعد أسابيع ممطرة ، بدا الربيع انه يقدم نفسه اخيراً في الاريج الطازج لذلك الصباح من آذار . كان انطوان يتطلع بنشوة على جانبي الطريق ، الى الحقول الممهدة بالمسلفة ، المخضوضرة ، وتحت سماء الأفق الصافية حيث تجتذب أبخرة خفيفة ، الى كروم نهر الواز تشع بالنور . وانتابه الضعف لحظة حيث تمنى ان يكون مخطئاً ؛ ان كثيراً من الهدوء يحيط به ، وكثيراً من النقاء ، فهل يكون هذا اطار سجن أولاد ؟

كان عليه ان يجتاز قرية كروي كلها قبل ان يصل الى المستعمرة الاصلاحية وفجأة ، تلقى صدمة عند منعطف آخر البيوت : لقد عرف من بعيد ، البناء الكبير المغطى بالقرميد ، وصفوف نوافذه المشبكة ، ومِزْوَلته التي تلمع في الشمس ،دون أن يكون قد رآه قبلاً ،منفرداً كمقبرةجديدةفي حزامها منالجدران المجصصة ، وفي وسط سهل طباشيري عارٍ من كل نبات . وقد يظن انه سجن لو لم يكن الخط الدال على محبة البشر ، والمحفور في الحجر فوق الطابق الاول ، منفصلاً بحروف ذهبية :

مؤسسة اوسكار تيبو

ودخل في الممر الفارغ من الشجر والموصل الى الاصلاحية . وكانت النوافذ الصغيرة ترى من بعيد مجيء الزائر . واقترب من البوابة وسحب الجرس الذي رن في الصمت الخاص بيوم الاحد . وفتح مصراع الباب . ونبح كلب اشقر مربوط الى وجاره مهتاجاً . ونفذ انطوان الى الباحة : حديقة ، أو بالاحرى ، أرض خضراء محاطة بالحصى وتستدير امام البناية الرئيسية . وشعر ان هناك من

يلاحظه ولم يشاهد أي كائن حي ، الا الكلب الذي لم ينقطع عن النباح وهو يشد سلسلته . والى يسار المدخل ترتفع كنيسة صغيرة يعلوها صليب حجري ؛ والى اليمين بناء منخفض يقرأ عليه : «الادارة» . وقد سار نحو هذا البناء . وانفتح الباب المغلق عندما بلغ سطح الدرج . والكلب لا يزال ينبح . ودخل . دهليز مبلط ، مدهون بالمغرة ومجهز بكراسي جديدة كقاعة محادثة في دير . وكانت الغرفة دافئة . وهناك تمثال نصفي للسيد تيبو بالحجم الطبيعي ، ولكنه يأخذ نسباً عملاقة على هذا الجدار المنخفض ، ويزين المصراع الاعين ، ومصلوب متواضع من الخشب الاسود ، مزين بالبقس ، حاول أن يجعل له مثيلا على الجدار المقابل . وظل انطوان واقفاً وقفة دفاعية . آه ! كلا ، لم يكن مخطئاً ! فكل شيء يُشعر بعفونة السجن .

وأخيراً فتحت كوة في الجدار الداخلي : أمرّ منها ناظر رأسه . فألقى اليه انطوان بطاقته مع بطاقة أبيه ، وطلب بنبرة جافة ان يكلم المدير .

ومضى ما يقرب من خمس دقائق .

وثارت حفيظة انطوان واستعد الى دخول البيت مسبقاً حين انزلقت خطوة خفيفة في الرواق : شاب بنظارات ، يرتدي فانيلا هافانا ، اشقر ، مستدير ، كان يركض نحوه قافزاً على خفيه بوجه متألق ، واليدان ممدودتان .

— صباح الخير يا دكتور ! يا للمفاجأة الطيبة ! سينتشي أخوك فرحاً ! اني أعرفك جيداً ، فالسيد المؤسس غالباً ما يتحدث عن ولده الكبير الطبيب . ومع ذلك فهناك سمة العائلة ظاهرة ـ قال ذلك ضاحكاً ـ وأوكد لك . ولكن ادخل الى مكتبي ، ارجوك . وعفواً . انا فاييسم *Faîsme* المدير .

ودفع انطوان نحو غرفة الادارة ، جارّاً رجليه ، وهو يتبعه عن قرب ، والذراعان مرفوعان ، واليدان مفتوحتان ، كأنه يخاف أن يخطو انطوان خطوة خاطئة وأنه يريد ان يلتقطه طائراً .

واضطر انطوان الى الجلوس ، وأخذ مكانه على مكتبه ، وسأل بصوته العذب :

– هل السيد المؤسس بصحة جيدة ؟ انه لا يشيخ ، وهو غير عادي ! إني آسف لعدم استطاعته مرافقتك .

كان انطوان يتفحص الأماكن بنظرة حذرة ، وكان يتأمل بدون مجاملة ذلك الوجه الصيني الاشقر وتلك النظارات الذهبية التي يوجد وراءها عينان صغيرتان ملجومتان كانتا تتحركان دون انقطاع بتعبير مرح . انه غير متهيء لهذا الاستقبال السريع ، ومحتار جداً لأنه وجد تحت المظهر الباسم لشاب بالبيجاما مدير السجن الذي كان يتخيله بقسمات متجهمة لدركي بالثياب المدنية ، أو رئيس مدرسة ، وكان بحاجة الى جهد ليستعيد رباطة جأشه .

وهتف السيد فاييسم فجأة :

– بالتأكيد ! ذلك لأنك أتيت أثناء القداس الكبير تماماً . كل أولادنا في الكنيسة ؛ وأخوك أيضاً . ما العمل ؟ – واستشار ساعته – عشرون دقيقة أيضاً ، وربما نصف ساعة إذا كان متناولو القربان كثيرين . وهذا ممكن . كان على السيد المؤسس أن يقول لك : ان لدينا زبدة المحسنين ، كاهن شاب ذاهب، ذو مهارة لا مثيل لها ! لقد تبدلت العواطف الدينية للمؤسسة منذ وجوده هنا. ولكن يالها من خسارة ! ما العمل ؟

ونهض انطوان دون لطف . فقد ظل هدف تحقيقه ماثلاً في ذهنه ، وقال ناظراً الى الشاب :

– ما دامت أماكنكم الآن خالية من سكانها فهل تكون زيارة المستعمرة عملاً غير رصين ؟ أنا فضولي لرؤية الاشياء عن قرب ؛ وقد سمعتهم يتكلمون عنها في أغلب الاحيان منذ طفولتي .

فقال الآخر مباغَتاً :

– صحيح ؟ لا شيء أسهل من ذلك .

قال هذا ولكنه لم يتحرك عن مقعده . كان يبتسم ، وبدا حالماً لحظة دون أن يكف عن الابتسام .

– أوه ! انت تعلم ان البناء ليس فيه ما يشوق . انه ثكنة صغيرة لا أكثر

ولا أقل ، ومع ذلك فأنت تعرفه اكثر مني .

وظل انطوان واقفاً . وصرح :

– كلا . هذا يشوقني .

وبما أن المدير كان يتفحصه بعينيه الصغيرتين المغضنتين بشكل لاهٍ قليل التصديق فقد تابع مصرّاً :

– أؤكد لك .

– حسناً يا دكتور ، بكل طيبة خاطر . الوقت الذي ارتدي فيه سترة وحذاء ، وأكون تحت امرك .

واختفى . وسمع انطوان دقة جرس صغير ، ثم جرس كبير في الباحة ، دق خمس مرات ، ففكر : « آه ! آه ! انه ينذر بالخطر ، فالعدو في البيت ! » ولم يستطع ان يظل جالساً . واقترب من النافذة ولكن الزجاج كان غير مصقول وقال لنفسه : «هدوءاً ، افتح عينك ، وتأكد . اعمل . انه شغلي» .

وأخيراً عاد السيد فاييسم . وهبطا .

وقال المدير مقدماً بفخفخة : ساحة الشرف .

وابتسم متساهلاً . ثم أسرع الى الكلب الذي عاد إلى النباح، ورشقه برفسة عنيفة في خاصرته جعلت الحيوان يدخل الى جحره .

– هل لديك إلمام بالبستنة ؟ ولكن هذا مؤكد ، فالطبيب ذو علاقة بالنبات . بالتأكيد ـ ووقف ملاطفاً في وسط الحديقة ـ أشر علي ، كيف أخفي هذه القطعة من الحائط ، باللبلاب ؟ ذلك يحتاج الى سنوات .

وسار به انطوان ، دون أن يجيب ، نحو المبنى الرئيسي . وطافا الطابق الأرضي . وكان انطوان يمشي في المقدمة ، ممتد العين ، فاتحاً أقل باب مغلق ولم يفته شيء . كانت الجدران بيضاء في قسمها الأعلى ، ومطلية بالزفت الاسود على علو مترين من الارض . وكانت جميع النوافذ كنافذة المدير ، ذات زجاج غير مصقول ، ومقوّاة بشبكة من القضبان الحديدية . وأراد انطوان أن يفتح إحداها ولكن ذلك يحتاج إلى مفتاح خاص ؛ وقد أخرج المدير الأداة من جيبه

وفتح النافذة ، ولاحظ انطوان مهارة يديه الصغيرتين الصفراوين السمينتين . وأرسل نظره البوليسي الى الباحة الداخلية ، وكانت مقفرة : ساحة كبيرة مستطيلة من طين مداس ومجفف ، خالية من الأشجار ، ومحصورة بين جدران عالية شائكة بقطع آنية مكسرة .

وكان السيد فاييسم يشرح ، ببشاشة ، الغاية من استعمال الأبنية : غرف درس ، مشاغل نجارة وحدادة وكهرباء ، الخ ... وكانت الغرف صغيرة ونظيفة . وفي قاعات الطعام انهى غلمان الخدمة مسح الطاولات الخشبية البيضاء ، وتصاعدت رائحة حموضة من البالوعات الكائنة في الزوايا .

– كل تلميذ يأتي في نهاية الطعام إلى هنا ويغسل قصعته وطاسته وملعقته . لا سكاكين ولا شوكات ابداً .

وتطلع إليه انطوان دون ان يفهم . أما هو فقد أضاف طارفاً بعينيه :

– لا شيء مروس .

وفي الطابق الاول تتابعت قاعات درس أخرى ، ومشاغل أخرى ، وتجهيزات « للدوش » لا تستعمل في أغلب الاحيان ولكن المدير كان يبدو فخوراً بها . وكان يروح ويجيء بمرح من غرفة إلى أخرى ، وذراعاه منفصلان ، ويداه إلى الامام ، وفيما هو يتكلم ، وبحركة آلية ، كان يدفع منضدة عمل حتى الجدار ، ويلتقط مسماراً عن الأرض ، ويقفل صنبوراً بإحكام ، ويرتب كل ما لا يكون في مكانه .

وفي الطابق الثاني تنفتح قاعات النوم . وكانت على نوعين . ومعظمها يحتوي على عشرة اسرّة مصفوفة تحت أغطية رمادية . وكانت مع رفوف الصرر تشبه غرفاً عسكرية صغيرة بدون نوع من القفص الحديدي ، المجهزة بقضبان حديدية دقيقة ، ويشغل وسط الغرفة . وسأل انطوان :

– اتسجنون أحداً داخله ؟

فرفع السيد فاييسم ذراعه بطريقة خائفة هزلية ثم أخذ يضحك .

– ولكن كلا . هنا ينام الناظر كما ترى : يقع سريره في الوسط تماماً ، على

مسافة متساوية عن الجوانب الداخلية ، فيرى كل شيء ، ويسمع كل شيء ، ولا يخشى شيئاً. ومع هذا فلديه جرس انذار تمر أسلاكه تحت الأرض الخشبية.

وقاعات نوم أخرى مؤلفة من حجرات صغيرة بجانب بعضها البعض ، مبنية ، مقفلة بشبكات من القضبان الحديدية ككراسي معرض الوحوش . وكان السيد فاييسم قد وقف على العتبة . وكانت ابتسامته تأخذ احياناً تعبيراً صاحياً ، مفكراً تكسب لحظة وجهه النضر كآبة بعض تماثيل بوذا . وقال موضحاً :

ـ آه ، يا دكتور . هنا تلامذتنا الخيفون ! اولئك الذين جاؤنا متأخرين ليجري اصلاحهم بشكل جدي : انهم ليسوا زبدة ما عندنا ، إذ يوجد بينهم بعض الفاسدين ، أليس صحيحاً ؟ ونحن مضطرون إلى عزلهم ليلاً .

وادنى انطوان وجهه من إحدى الشبكات الحديدية ، فميز في الظلام حصيراً بالياً ، وجدراناً عليها رسوم فاحشة وخطوط . فاتى بحركة تقهقر . وقال المدير متأوهاً وهو يجذبه :

ـ لا تنظر ، هذا محزن . انت ترى انه الممر المركزي الذي يروح الناظر ويجيء فيه طوال الليل. هنا الناظر لا ينام ابداً. ولا تطفأ الكهرباء. وبالرغم من ان الأبواب مرتجة جيداً من هؤلاء الطائشين الصغار فانهم جديرون بعمل سيء ... تماماً .

وهز رأسه واخذ يضحك فجأة ، كابحاً عينيه : واختفى كل تعبير حزين ، وختم بسذاجة ، هازاً كتفيه .

ـ يُرى بينهم من جميع الأنواع .

وكان انطوان مهتماً جداً بما رآه ليفكر بجميع الاسئلة التي كان قد أعدها. ومع ذلك فقد قال :

ـ كيف تعاقبونهم ؟ اني أرغب ايضاً ان أرى سجونكم .

فتراجع السيد فاييسم خطوة ، وفتح عينيه المستديرتين ، وضرب بيديه ضرباً خفيفاً :

– السجون ! ولكن اتعتقد نفسك يا دكتور في لاروكيت ! كلا ، كلا ، لا يوجد سجون هنا والحمدلله ! فقوانيننا تمنعها علينا ، وانت تعرف جيداً ان السيد المؤسس لا يرضى بها مطلقاً .

ودهش انطوان ، واحتمل سخرية العينين الصغيرتين المتغضنتين اللتين كانت أهدابها ترف وراء النظارات . وبدأ يشعر بحيرة كبيرة من الشخص الارتيابي الذي جاء يلعب عليه . وما من شيء مما رآه يحدو به إلى مساندة هذا الدور . حتى انه تساءل ، بشيء من الاضطراب ، إذا لم يكن المدير قد كشف عدم الثقة الذي اجتذبه إلى كروي ؛ ولكن كان من الصعب ان يعرف ذلك مـا دامت سلامة نية السيد فاييسم تبدو حقيقية رغم بروق الخبث التي تسيل بــين لحظة واخرى من زوايا جفونه .

وكف المدير عن الضحك ، واقترب من انطوان ووضع يده على ذراعه :

– كنت تريد المزاح، أليس صحيحاً؟ فأنت تعرف اكثر مني نتيجة الصرامة المفرطة : التمرد ، أو ما هو اسوأ ايضاً ، المراءاة ... والسيد المؤسس لفظ حول هذا الموضوع كلمات جميلة في مؤتمر باريس، سنة المعرض ...

وكان قد خفض صوته وتطلع إلى الشاب بتعاطف خاص ، كما لو ان انطوان وهو نفسه يؤلفان نخبة ، جديرة وحدها بمناقشة هذه المسائل التربوية دون الوقوع في اخطاء سفلة الناس.وشعر انطوان انه أطري فازداد انطباعه المتلطف.

– عندنا في الساحة ، كما في الثكنات ، بناء صغير عمدّه المهندس المعماري على الخريطة باسم « أماكن تأديبية » .

– ؟..

– ... ولكننا نضع فيها مؤونتنا من الفحم والبطاطا . ما فائدة السجون ! اننا نحصل على ما نريد بالاقناع .

فقال انطوان : حقيقة ؟

فابتسم المدير ابتسامة ناعمة ، ووضع من جديد يده على ساعـــد انطوان وقال معترفاً :

— لنتفاهم . ان ما ادعوه الاقناع ، وأحب ان أخبرك حالاً ، هو الحرمان من بعض الأطعمة . فصغارنا بطنون جداً . وهذا يعود الى سنهم ، أليس صحيحاً؟ ان للخبز الحاف يا دكتور فضائل مقنعة لا شك فيها مطلقاً . . . ولكن يجب معرفة استعمالها : من الأساسي ألاّ نعزل الولد الذي يراد اقناعه . وها انت ترى كم نحن بعيدون عن العزل في السجن ! كلا ، ففي إحدى زوايا قاعة الطعام يجب أن نجعله يأكل كسرته من الخبز البائت ، في ساعة أفضل وجبة ، وجبة الظهر ، مع رائحة الطعام المتبّل الذي يتصاعد منه البخار ، ومع رؤية الآخرين يشبعون . هذا لا يمكن مقاومته ! أليس صحيحاً ؟ في هذا السن يهزل الجسم بسرعة ! خمسة عشر يوماً ، ثلاثة أسابيع ، ليس أكثر : اني آتي دائماً عندما يعيا أكثرهم جوحاً . — وختم مدوراً عينيه — الاقناع ! أبداً ، اني لا أعاقب بغير ذلك ! ولم أرفع يدي أبداً على أحد من هؤلاء الصغار الذين أوكل أمرهم إلي .

وكان وجهه يشع بالفخر والرقة . وكانت هيئته كمن يحبهم حقيقة ، أولئك الاشقياء ، حتى أولئك الذين كانوا يوقعونه في الارتباك .

وهبطا الطوابق . وسحب السيد فاييسم ساعته .

— لكي انهي ، دعني اقدم لك مشهداً موجباً للعبرة . وسوف تقص ذلك على السيد المؤسس . وأنا متأكد من انه سيكون مسروراً .

واجتازا الحديقة ، ودخلا الى الكنيسة . وقدم السيد فاييسم الماء المقدس . ورأى انطوان من الخلف ما يقارب الستين ولداً ببلوزات قصيرة ، مصفوفين بخط مستقيم ، راكعين على البلاط ، جامدين . وأربعة مراقبين بشوارب ، ولباس أزرق مطرز بالأحمر ، كانوا يروحون ويجيئون دون أن يرفعوا عيونهم عن الأولاد . والكاهن على المذبح يقوم بخدمته ولدان ، وكان ينهي مهمته .

وقال انطوان هامساً : أين جاك ؟

فأشار المدير الى المنصة التي كانا تحتها ، وبلغ الباب على رؤوس أصابعه . وقال السيد فاييسم حين أصبحا خارجاً :

أن لأخيك مكانه فوق دائماً. وهو وحده فيه، يعني مع الغلام المكلف بخدمته. وبهذه المناسبة تستطيع أن تخبر السيد والدك اننا وضعنا بجانب جاك الخادم الجديد الذي كلمناه عنه . وقد مر ثمانية أيام على ذلك . والآخر، الأب ليون كان كبير السن نوعاً، ومن الأفضل وضعه في مراقبة مشغل . أما الجديد فهو شاب من اللورين ! آه ! انه زبدة الناس الفضلاء : خرج من الجيش وكان تابعاً لكولونيل ؛ ولدينا عنه معلومات تامة . وهذا سيخفف الضجر عن أخيك أثناء النزهات ، أليس صحيحاً ؟ ولكن ، اني اثرثر ، وها هم يخرجون .

وأخذ الكلب ينبح مهتاجاً، فأسكته السيد فاييسم، وثبت نظارتيه، ووقف في منتصف ساحة الشرف .

وكان باب الكنيسة قد فتح على مصراعيه . والاولاد ، ثلاثة ثلاثة ، والمراقبون على جانبي الصف يسيرون بخطى موقعة ، كما في عرض عسكري . كانوا عراة الرؤوس وينتعلون أحذية نعالها من حبال ، تكسب مشيتهم الخطوة المتلبدة لمجتمعات الجمباز ، وكانت البلوزات نظيفة ، مشدودة إلى القامة بحزام جلدي تلمع بكلته في الشمس . وكان الأكبر سناً بينهم يبلغون السابعة عشرة أو الثامنة عشرة ، والأصغر عشر أو احدى عشرة سنة . ومعظمهم ذوو صبغة شاحبة ، والعيون منخفضة ، والسحنة هادئة دون شباب . ولكن انطوان الذي كان يتفحصهم بكل انتباهه لم يفاجىء أية نظرة مريبة ، ولا ابتسامة رديئة ، ولا تعبير مداج : هؤلاء الأولاد لا تبدو سحنتهم انهم « مخيفون » ، وأضطر انطوان إلى الاعتراف لنفسه انهم لا يبدون كشهداء .

وحين اختفى الصف الصغير في الثكنة حيث طن الدرج الخشبي طويلاً ، التفت نحو السيد فاييسم الذي بدا أنه يسأله ، وقال مؤكداً :

— إدارة ممتازة .

ولم يجب الشاب ، ولكنه كان يدير بهدوء يديه السمينتين الواحدة بالاخرى كأنه يغسلها بالصابون ، ووراء نظارتيه كانت عيناه اللامعتان بالكبرياء تقولان شكراً .

عندئذ فقط ، وحين أصبحت الساحة مقفرة ، ظهر جاك على درجـــات الكنيسة الشامسة .

أكان هو ؟ لقد تغير جداً وكبر جداً ، بحيث كان انطوان ينظر إليه دون أن يعرفه تقريباً . لم يكن يرتدي ملابس الاصلاحية ، بل بزة جوخ ، وقبعة من اللباد ، ومعطف ملقى على الكتفين، وكان يتبعه غلام في العشرين من سنه، ربعة، أشقر ، ولم يكن يرتدي ملابس المراقبين . وهبطا الدرج . ولم يبد هذا ولا ذاك انهما رأيا انطوان والمدير . وكان جاك يمشي باطمئنان، وعيناه محدقتان بالارض. وعلى بعد بضعة أمتار فقط من السيد فاييسم ، رفع رأسه ووقف ، واتخذ هيئة مندهشة ، وخلع قبعته حالاً . وكانت حركته طبيعية تماماً ؛ إلا أن انطـوان ساوره الشك بأن هذه الدهشة مصطنعة . ولكن وجه جاك ظل هادئاً . ومع أنه مبتسم ، لم يدل على أي سرور حقيقي . وتقدم انطوان ماداً يـده ، وهو أيضاً تظاهر بالفرح .

وهتف المدير :

ــ انها مفاجأة سعيدة أليس كذلك ؟ ولكني أريد أن اوبخك . عليك أن ترتدي معطفك وتزرره حين تكون في الكنيسة ، والمنصة باردة وسوف تصاب بأذى .

كان جاك قد لفت وجهه عن أخيه حين سمع السيد فاييسم يوجه الكلام إليه وتطلع في وجه المدير باحترام قلق كما لو أنه كان يحاول أن يفهم جميع المعاني التي يمكن لكلامه أن يحتويها . ثم ارتدى معطفه حالاً دون أن يجيب .

وتمتم انطوان :

ــ لقد كبرت كثيراً ، أنت تعلم ....

وتفحص أخاه بذهول محاولاً أن يحلل ذلك التغير الكامل في المظهر والهيئة والسحنة ، والذي كان يشل اندفاعه . واقترح المدير :

ــ أتريد أن تبقى قليلاً في الخارج ؟ الطقس جميل . وسوف يقودك جاك إلى منزله بعد قيامكما معاً ببعض الدورات في الحديقة .

وتردد انطوان . واستفهم من أخيه بالعينين :

ــ أتريد ؟

ولم يظهر جاك انه سمع . فافترض انطوان أنه غير مهتم بالبقاء هنا تحت نوافذ الاصلاحية . وقال :

ــ كلا ، سنكون أفضل في .... غرفتك ، اليس كذلك ؟

فهتف المدير :

ــ كما يحلو لك ، ولكن قبلا اريد أن اريك شيئاً . يجب ان ترى جميع تلامذتنا . تعال معنا يا جاك .

وتبع جاك السيد فاييسم الذي كان منفصل الذراعين ، ضاحكاً كتلميذ مازح ، وكان يدفع انطوان نحو سقيفة إلى جانب جدار المدخل . كان الأمر يتعلق بدزينة من جحور الارانب . وكان السيد فاييسم شغوفاً بتربية الدواجن. وأخذ يشرح بنشوة :

ــ هؤلاء ولدوا نهار الاثنين . والآن ، انظر ، فقد فتح هؤلاء المحبوبون عيونهم ! من هنا . هؤلاء ذكوري . انظر هذا يا دكتور .

قال ذلك مدخلاً ذراعه في قفص وسحب بالاذنين واحداً كبيراً فضياً من فصيلة شامبانيه كان يسترخي منتفضاً انتفاضات فجائية :

ــ هذا مخيف كما ترون .

لم يكن يضع في ذلك أي مكر ، وكان يضحك ضحكته البريئة . وفكر انطوان بغرف النوم فوق وحجورها المشبكة بالحديد .

والتفت السيد فاييسم . وكان يبتسم ابتسامة غير مفهومة :

ــ لقد ثرثرت ، وارى جيداً انك تصغي إلي بدافع التهذيب الصرف ، أليس صحيحاً ؟ سأسير بك حتى غرفة جاك واتركك . سر يا جاك ودلنا على الطريق . .

وسار جاك في المقدمة . ولحق به انطوان ووضع يداً على كتفه . وبذل جهداً ليتصور في ذهنه ثانية الكائن الصغير ، الضعيف الصحة ، العصبي ، الدائب

على رجليه ، والذي التقطه في مرسيليا السنة الماضية .

— انت الآن كبير مثلي .

وصعدت يده من الكتف حتى النقرة الشبيهة بعنق عصفور هزيـل . لقد كانت جميع الأعضاء تبدو انهـا طالت حتى الهشاشة : المعصمان المتدان كانا يتجاوزان الكمين ، والبنطلون يكاد يكشف الكعبين ، وكان في المشية تصلّب ، وخرق ، وفي الوقت نفسه مرونة وشباب جديدان تماماً .

كانت الشقة المخصصة للقاصرين الخصوصيين تشكل ملحقاً لبناية الإدارة ؛ ولا يمكن الدخول إليها إلا من المكاتب . خمس غرف متشابهة تفتح على رواق مدهون بالمغرة . واوضح السيد فاييسم ان جاك هو « الخصوصي » الوحيد ، والغرف الأخرى بدون استعمال ، والغلام المكلف بخدمة جاك كان ينـام في واحدة منها بينما تستعمل الأخريات لوضع كل شيء .

— وهذه زنزانة سجيننا .

قال المدير ذلك ضارباً بطرف أصبعه السمين جاك الذي نظر إليه مشدوهاً ، ثم حادَ ليدعه يدخل .

وقام انطوان بتفتيش الغرفة بدقة . انها تشبه غرفة فندق ، متواضعة ولكنها مرتبة جيداً . وكانت جدرانها مغطاة باوراق ذات زهور ، ومنـارة بشكل كاف ، بالرغم من ان ذلك كان من مكان مرتفع ، من كوتين مجهزتين بزجاج غير مصقول ، وبشبكتين من القضبان الحديدية ، وكانت هذه النوافذ واقعة تحت السقف . ومع ان الغرفة مرتفعة فقد كانت النافذتان ترتفعان أكثر من ثلاثـة أمتار عن الأرض . والشمس لا تصل إليها . ولكن الغرفة كانت دافئة ومحمّاة ايضاً بواسطة ناقل الحرارة المستعمل في الإدارة . والأثاث مؤلف من خزانة من خشب الصنوبر ، وكرسيين قعدتها متشابكة ، ومنضدة سوداء صفت عليهـا الكتب والمعاجم للمعركة . والسرير الصغير ، المربع ، المتحد كبليـار ، يظهر الشراشف التي لم تستعمل بعد . والطست موضـوع على نسيج نظيف ، وعدة مناشف نظيفة كانت تتدلى من المشجب .

هذه اللمحة الدقيقة بعثت الاضطراب في نوايا انطوان . كل ما رآه منذ ساعة كان مناقضاً تماماً لما كان يتوقعه . ان جاك يعيش معزولاً تماماً عن القاصرين الآخرين ، ويعامل بمراعاة ودودة ! والمدير غلام شجاع، اكثر تساهلاً مما يكون عليه حارس سجن ، وجميع المعلومات المعطاة من السيد تيبو كانت صحيحة . ومهما كان انطوان مكابراً فقد اضطر إلى التخلي عن شكوكه واحداً واحداً .

وفاجأ نظرة المدير الموجهة إليه ، فقال ملتفتاً نحو جاك :

– بالحقيقة ، انك تقيم خير إقامة .

فلم يجب هذا . وخلع معطفه وقبعته اللذين أخذهما الخادم من يديه وراح يعلقهما على المشجب . وردد المدير :

– يقول لك أخوك انك مقيم خير إقامة .

فالتفت جاك بسرعة ، وكان ذا هيئة متأدبة ، مهذبة لم يكن أخوه قد رآه فيها ابداً .

– نعم يا سيدي المدير ، على خير ما يرام .

فقال الآخر مبتسماً :

– يجب ألا نبالغ . هذا بسيط جداً ، اننا نحرص فقط على ان يكون كل شيء نظيفاً . ومع ذلك فيجب ان يوجه الثناء إلى ارتير – أضاف ذلك متوجهاً إلى الغلام – إليك هذا السرير ، فكأنه رُتّب لإجراء تفتيش ...

وتألق وجه ارتير . وانطوان الذي كان ينظر إليه لم يستطع ان يمنع نفسه من الإشارة إليه بمودة . كان ذا رأس مستدير ، وقسمات رخوة ، وعينين شاحبتين ، وشيء من الاخلاص والبشاشة في الابتسامة وفي النظرة . وكان قد بقي بقرب الباب يعقف شاربيه ، ويبدو بدون لون تقريباً لأن صبغته أصبحت شهباء . وكان انطوان يقول لنفسه :

– هذا هو السجان الذي كنت اتخيله قبلاً في ظلام قبو ، مجهزاً بقنديل لا يظهر نوره ، وبسلسلة مفاتيح .

وضحك من نفسه رغماً عنه ، واقترب من الكتب وتفحصها بمرح . وسأل

بينما تأخرت ابتسامة ساخرة على وجهه :

– سالوست [1] ؟ لقد احرزت تقدماً في اللاتينية .

وكان السيد فاييسم هو الذي اجاب ، متظاهراً بالتردد وطارفاً بعينه نحو جاك

– ربما اخطىء ان اقول ذلك امامه . ومع ذلك فيجب الاعتراف بان استاذه مسرور من اجتهاده .

ثم تابع بجد وذهب الى اللوح الاسود المعلق بالحائط وأصلح وضعه وهو يقول .

– اننا نشتغل ساعاتنا الثمان باليوم . ولكن هذا لايمنعنا من أن نقوم كل يوم، مهما كان الطقس – ويحرص السيد والدك على ذلك كثيراً – بالسير مقدار ساعتين، مع ارتير . إن للاثنين سيقاناً جيدة ، وأتركهما حرين في ان ينوعا الطرق . اما مع ليون الهرم فقد كان الامر يختلف . وأعتقد انهما لم يكونا يقطعان كثيراً من الطرق ، ومقابل ذلك ، كانا يقطفان الزهور على طول السياج . اليس صحيحاً ؟ ويجب ان أقول لك ان الاب ليون كان في شبابه غلام صيدلي وهو يعرف كثيراً من النباتات بأسمائها اللاتينية .وكان مفيداً جداً . ولكني افضل ان اراهما يقومان بجولات طويلة في الحقول ، وهذا افضل للصحة .

وكان انطوان قد التفت عدة مرات نحو اخيه بينما كان السيد فاييسم يتكلم . وكان يبدو ان جاك يسمع وهو في حلم ، وانه بين لحظة واخرى ، يضطر الى بذل الجهد لينتبه ، وعندئذ تنفرج شفتاه عن تعبير قلق مبهم ، وكانت اهدابه ترتجف .

وهتف السيد فاييسم وهو يتراجع نحو الباب بحركات صغيرة مألوفة :

– اني اثرثر ، مع ان جاك قد مضى عليه وقت طويل دون ان يرى اخاه الكبير ... – وسأل – : اتأخذ قطار الحادية عشرة ؟

---

١ – سالوست *Salluste* : مؤرخ لاتيني ولد في اميتارن (٨٦ – ٣٥ قبل المسيح) .

لم يكن انطوان قد فكر بذلك . ولكن نبرة السيد فاييسم كانت تتضمن ان هذا لا يحتمل الشك،وكان انطوان غير قادر علىمقاومة هذا الطلب للهرب، ورغم كل شيء فان كآبة المكان ولامبالاة جاك اخمدتا شجاعته ؛ لم يكن قد حدد ذلك منذ الآن ؟ لم يعد لديه شيء يعمله هنا . وقال :

– نعم . مع الاسف اني مضطر الى العودة باكراً ، لأجل زيارة تفتيشية ...

– لا تأسف على ذلك . انه القطار الوحيد قبل قطار المساء . الى الملتقى .

وظل الاخوان وحيدين . وكانت لحظة قلق قصيرة . وقال جاك وهو يستعد للجلوس على السرير : خذ الكرسي .

ولكنه غيّر رأيه بعد ان رأى الكرسي الثاني ، وقدمه لأنطوان مردداً بنبرة طبيعية : « خذ الكرسي » كأنه يقول : « اجلس » وجلس هو .

ولم يتفلت شيء من ملاحظة انطوان فسأل وقد ساوره الشك :

– اليس عندك ، عادة ، سوى كرسي واحد ؟

– نعم ، ولكن ارتير اعارنا كرسيه ، كالايام التي يكون لدي دروس فيها .

ولم يلح انطوان وقال ملاحظاً ، بعد ان القى نظرة جديدة حوله :

– بالحقيقة ليس بالمسكن السيء .

ثم اشار الى الشراشف النظيفة والمناشف :

– هل يبدلون البياضات في اغلب الاحيان

– نهار الاحد .

كان انطوان يتكلم بتلك النبرة المقتضبة المرحة العادية لديه ، ولكنها في تلك الغرفة الرنانة وامام موقف جاك السلبي ، بدت انها لاذعة شبه هجومية . وقال :

– تصور . كنت اخاف ، ولا ادري لماذا،ان لا تعامل معاملة حسنة هنا..

فتأمله جاك بدهشة وابتسم . ولم يحول انطوان عينه عن اخيه .

– اذن ، والامر بيننا ، الا تشكو من شيء ؟
– ابداً .
الا تريد ان اغتنم فرصة زيارتي للحصول على شيء من المدير ؟
– ماذا اذن ؟
– لا ادري انا : إبحث
وبدأ جاك مفكراً وابتسم من جديد ، وهز رأسه :
– ولكن كلا ، ها انت ترى ان كل شيء على ما يرام .
لم يكن صوته اقل تغيراً من السابق : صوت رجل ، حار وخشن ، رنان ، مع انه بهيم وغير منتظر في جسم اليافع هذا . وكان انطوان ينظر اليه .
– كم انت متغير ... ومع ذلك فلا يمكن القول انك تغيرت . انت لست نفسك ابداً ، ولا بشيء .
ولم يحول نظره عن جاك ، محاولا ان يجد في تلك السحنة الجديدة القسمات السابقة . لقد كان نفس الشعر الامغر ، الاكثر دكنة ، المائل الى اللون الاسمر ، ولكنه قاس دائماً ومنخفض المنبت . وكان نفس الانف الدقيق السيء التكوين ، ونفس الشفاه المشققة التي يظللها زغب دقيق جداً واشقر ؛ ونفس الفك الغليظ ، المـــوسع ؛ ونفس الاذنين المنفصلتين اللتين تبدوان انهما تشدان الفم وتجعلانه ممطوطاً . ولكن هـــذا لم يكن يشبه ولد البارحة في شيء . وفكر : « حتى المزاج نفسه قد تغير ؛ هو ، الكثير الحركة ، المعذب دائماً ، والآن هذا الوجه المسطح ، النائم ... هو الكثير العصبية يصبح الآن لمفاوي المزاج » .
– انهض قليلاً .
ورضي جاك بالفحص بابتسامة مجاملة لم تكن تنير نظرتـــه . فقد كان على حدقتيه شيء كالبخار . وتحسس انطوان ذراعيه وساقيه .
– ذلك لأنك كبرت ! ألا تشعر بالتعب لهذا النمو السريـع ؟
فهز الآخر رأسه . وابقاه انطوان أمامه ممسكاً بمعصميه . ولاحظ شحوب البشرة التي جعلت عليها بقـــع النمش مشتلاً داكناً ، وكذلك الدائرة الخفيفة

المحفورة تحت الجفنين الاسفلين .

– ليست الصبغة جيدة .

قال ذلك بشيء من الجدية ؛ وعبس ، وكان على وشك ان يقول شيئاً آخر ، وسكت . وفجأة ذكرته سحنة جاك الخاضعة ، غير المعبرة ، بالشك الذي ساوره حين ظهر جاك في الساحة . وقال بدون مقدمات :

– هل انذروك بانني انتظرك بعد القداس ؟

وكان جاك يتأمله دون ان يفهم . وألح انطوان :

– حين خرجت من الكنيسة ، هل كنت تعلم اني هنا ؟

فابتسم بدهشة ساذجة وقال :

– ولكن كلا ، كيف ؟

فتراجع انطوان وتمتم :

– ظننت ذلك ... هل استطيع التدخين ؟

قال ذلك ليغير الحديث . وتطلع جاك إليه بقلق . وحين قدم انطوان إليه علبة سكايره أجاب وقد تكدر وجهه :

– كلا .. ليس انا .

لم يكن انطوان يعرف ماذا يقول . وكما هي العادة دائماً حين يراد إطالة الحديث مع محدث لا يجيب إلا بالجهد ، فقد بذل جهده في إلقاء الاسئلة ،وبدأ :

– إذن ، أحقيقة لست بحاجة إلى شيء ؟ هل لديك كل ما يلزمك ؟

ـ ولكن نعم .

ـ اتنام جيداً . هل لديك أغطية كاملة ؟

ـ أوه ! نعم ، حتى اني أشعر بكثير من الدفء .

ـ واستاذك ؟ هل هو لطيف معك !

ـ جداً . »

ـ ألا يضجرك ان تعمل وحدك دائماً ؟

ـ كلا .

ـ والسهرات ؟
ـ انام بعد تناول العشاء ، في الساعة الثامنة .
ـ وتنهض ؟
ـ في الساعة السادسة والنصف عندما يقرع الجرس .
ـ أيأتي الكاهن المرشد احياناً لرؤيتك ؟
ـ نعم .
ـ هل هو جيد ؟
ورفع جاك إلى انطوان نظره المقنّع ولم يفهم السؤال ، ولم يجب .
ـ والمدير ، هل يأتي ايضاً !
ـ نعم ، في اغلب الأحيان .
ـ يبدو لطيفاً . هل هو محبوب ؟
ـ لا أدري ... نعم ، بالتأكيد .
ـ ألا تلتقي أبداً ... بالآخرين ؟
ـ أبداً .

كان جاك الذي احتفظ بعينيه منخفضتين يرتعش ارتعاشاً خفيفاً لدى كل سؤال ، كأنه يبذل جهداً ليقفز هكذا من موضوع إلى آخر . وسأل انطوان بنبرة عادية :

ـ والشعر ؟ ألا تزال تنظم الاشعار ؟
ـ أوه ! كلا .
ـ لماذا ؟

فهز جاك رأسه ثم ابتسم ابتسامة وديعة لم تختف حالاً . ولم تكن ابتسامته تختلف لو ان انطوان سأله : « ألا تزال تلعب لعبة العجلات ؟ » .

عندئذ صمم انطوان ، وقد كاد ينضب معينه ، ان يتكلم عن دانيال . ولم يكن جاك ينتظر ذلك : فقد اصطبغ خداه قليلاً بالاحمرار ، وأجاب :

ـ كيف تريد أن أعرف أخباره ؟ فهنا لا نتلقى رسائل .

فتابع انطوان :

ـ ولكن انت ، ألم تكتب اليه ؟

وأبقى اخاه تحت نظره . وابتسم الآخر نفس الابتسامة السابقة حين تكلم انطوان عن الشعر . وهز كتفيه بهدوء

ـ كل هذا ، حكاية قديمة ، لا تحدثني عنها .

ماذا يقصد بذلك ؟ لو أجاب : « كلا ، لم أكتب إليه أبداً» لفاجأه انطوان وأزعجه ، وبسرور خفي لأن جمود اخيه بدأ يزعجه . ولكن جاك تجنب السؤال بمهارة بنبرة ثابتة وكئيبة شلّت انطوان . وفي اللحظة ذاتها لاحظ أن نظر جاك كان ينصب وراءه من ناحية الباب ، وفي حالة الحدة المنعكسة التي وجد نفسه فيها فان كل شكوكه أجتاحته من جديد . كان هذا الباب مزججاً لكي يستطاع من الخارج مراقبة ما يجري في الغرفة ، وفوق الباب يوجد كوة مشبكة بالحديد دون زجاج تتيح سماع ما يقال في الداخل .

وقال انطوان بحدة ، ولكنه خفض صوته :

ـ هل هناك أحد في الرواق ؟

فتطلع اليه جاك كأنه أصبح مجنوناً :

ـ كيف ، في الرواق ؟ نعم ، أحياناً ... لماذا ؟ شاهدت مرور الأب ليون .

في تلك اللحظة طرق الباب : لقد جاء الاب ليون يتعرف على الأخ الاكبر. وجلس بدالـّة على زاوية الطاولة .

ـ ايه ، آمل ان تراه بهيئة حسنة . ألم يكبر منذ الخريف ؟

وكان يضحك . ووجهه وجه متذمر هرم ذي شاربين متهدلين ، وضحكته كرجل بشوش كانت تحقن وجنتيه وتغطيها بعروق حمراء صغيرة تتشعب حتى بياض عينيه ، وتشوش نظرته التي يكون تعبيرها في أغلب الأحيان أبوياً ، ولكنه ماكر . وقال موضحاً وهو يؤرجح كتفيه :

ـ لقد وضعوني في المشاغل . انا الذي كنت معتاداً تماماً على السيد جاك !

أخيراً ـ قال ذلك وهو ذاهب ـ يجب الا يظهر المرء الاستياء من حياته .. سلامي للسيد تيبو ، دون ان آمرك ؛ من الاب ليون ، وهو يعرفني جيداً ، هيـــا !

وقال انطوان بعد ان خرج :

ـ يا له من هرم شجاع !

وأراد وصل ما انقطع من الحديث فقال :

ـ استطيـع أن أوصل اليه رسالة منك إذا أردت .

وبما أن جاك لم يفهم ، أضاف :

ـ ألست راغباً في كتابة كلمة الى فونتانان ؟

وحاول أن يرصد على قسماته الهادئة علامة تأثر ، وتذكير للماضي ؛ عبثاً . فقد كان الشاب يهز رأسه دون ان يبتسم هذه المرة :

ـ كلا ، شكراً . ليس عندي ما أقوله له . انها حكاية قديمة .

واقتصر انطوان على ذلك . وقد كان تعباً ، ومع هذا فقد مضى الوقت ؛ وسحب ساعته :

ـ الساعة العاشرة والنصف : علي ان اذهب في مدى خمس دقائق .

وبدا جاك مضطرباً فجأة ، راغباً في قول شيء . فسأل أخاه عن صحته ، وعن ساعة القطار ، وعن امتحاناته . وحين نهض انطوان دهش من اللهجة التي تأوه بها جاك :

ـ الآن ؟ انتظر قليلاً .

وفكر انطوان ان الولد كان مخدوعاً ببرودته ، وان هذه الزيارة ربما سببت له من السرور اكثر مما بدا عليه . وتمتم بحمق :

ـ أأنت مسرور لأنني جئت ؟

وبد جاك غائباً ، قلقاً ؛ وارتجف ، وشده ، وأجاب بابتسامة مهذبة :

ـ ولكن نعم ، سررت جداً ، اشكرك .

ـ حسناً ، سأحاول ان اعود . إلى اللقاء .

قال انطوان ذلك متكدراً . ونظر مرة أخرى إلى اخيه الأصفر في وجهه، وقد استيقظت كل فطنته ؛ واهتزت رقة قلبه وقال :

ـ غالباً ما افكر بك يا صغيري . وأخشى دائماً ألا تكون سعيداً هنا .

كانا قريبين من الباب . وأخذ انطوان يده وقال :

ـ سوف تقول لي ، اليس كذلك ؟

وبدا جاك بهيئة قلقة . وانحنى كأنه يريد ان ان يفضي اليه بشيء. واخيراً صمم بسرعة :

ـ عليك ان تعطي شيئاً لأرتير ، للغلام . انه لطيف جداً .

ولما رأى انطوان متردداً لأن هذا ممنوع ، قال : اتريد ؟

فقال انطوان : ولكن ألا يسبب ذلك مشاكل ؟

ـ كلا ، كلا . قل له بلطف وانت ذاهب : الى اللقاء ، ثم دس في يده قليلاً من البخشيش . اتريد ؟

وكان ذا هيئة متوسلة تقريباً .

ـ بالتأكيد . وانت ، اجب، الست راغباً بشيء؟ اجب... ألست تعساً ؟

فأجاب جاك باختلاف طفيف في المزاج : ولكن كلا .

ثم خفض صوته وقال : كم ستعطيه ؟

ـ لا ادري . كم ؟ عشرة فرنكات ، هل تكفي ؟ اتريد عشرين فرنكاً ؟

فقال جاك بنوع من الفرح المشوش :

ـ اوه ! نعم . عشرون فرنكاً . شكراً يا انطوان .

وشد بقوة على اليد التي مدها اخوه اليه .

وكان الغلام ماراً في الرواق حين خرج انطوان من الغرفة . وقبل البخشيش دون تردد . ووجهه الصريح الذي لا يزال على شيء من الصبيانية قد احمر من الفرح . وقاد انطوان الى مكتب المدير .

وقال المدير متحققاً :

ـ الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة والاربعون . كل وقتك معك ، ولكن

يجب الذهاب ،

واجتاز الدهليز حيث التمثال النصفي للسيد تيبو يجلس على عرشه . وتأمله انطوان الآن بدون سخرية. وأدرك ما هناك من شرعي في الفخر الذي يستخرجه والده من هذا العمل الذي أوجد بكامله بفضله ؛ وشعر بشيء من الفخر من جراء ذلك .

ورافقه السيد فاييسم حتى المدخل ، وكلفه بنقل احتراماته للسيد المؤسس ؛ ولم ينقطع عن الضحك وهو يتكلم ، مغضناً عينيه خلف نظارته الذهبية ، وكان يمسك يد انطوان بدالة بين يديه الناعمتين السمينتين كيدي امرأة. وتملص انطوان أخيراً . وظل الرجل البسيط القلب على الطريق عاري الرأس في الشمس ، وذراعاه مرفوعان ، ضاحكاً دائماً ، هازاً رأسه علامة الصداقة .

كان انطوان يقول لنفسه وهو يسير :

— لقد ركبت رأسي كإحدى العاملات الظهريات [1] . فهذه المؤسسة تدار جيداً . وبعد ، فجاك ليس تعساً فيها .

وفكر فجأة :

— والاكثر حمقاً من كل ذلك هو انني اضعت وقتي مقلداً عمل قاضي التحقيق ، بدلاً من ان اتحدث مع جاك كصديق .

ولم يكن بعيداً عن الاعتقاد ان اخاه رآه يذهب دون ان يأسف ، وفكر بملل : « لقد بدا لامبالياً جداً » .

وكان يأسف رغم كل شيء لأنه لم يضع كثيراً من الحرارة وهـــو يقوم بالمقدمات الأولى .

وكان انطوان يعيش دون عشيقة ، ويكتفي باللقاءات التي تقدمها له الصدفة ، ولكن قلبه ، ابن الرابعة والعشرين ، كان يثقل عليه احيانـــاً : كان يحب ان

---

١ ـ بالفرنسية *Midinette* : وهو اسم يطلق في باريس على عاملات الخياطة والأزياء اللواتي يخرجن من المشغل عند الظهر . - المعرب -

يحيط كائناً ضعيفاً بالشفقة ، ويساعد احداً ما بسند من قوته . وكانت محبتــه للصغير تزداد بقدر ابتعاده عنه . والآن متى يراه ؟ انه يعود ادراجه لأجــل لا شيء .

كان يسير منخفض الجبهة بسبب الشمس . وحين رفع رأسه وجد انه اخطأ الطريق . ودله بعض الأولاد على طريق مختصر خلال الحقول . فأسرع الخطى وقال لنفسه : « ماذا افعل لو فاتني القطار ؟ » وتخيل عودته إلى الاصلاحية . سوف يقضي نهاره إلى جانب جاك ، ويسرد عليه مخاوفه الوهمية ، ورحلتــه خفية عن الأب ؛ وسوف يبدو واثقاً ، رقيقاً ؛ ويذكر الصغير بحادث العربـة اثناء العودة من مرسيليا ، وكيف شعر في ذلـــك المساء ان بامكانهما ان يصبحا صديقين حقيقيين . والرغبة في ان يفوته القطار اصبحت لا تقهر بحيث خفف سيره غير عارف ما يقرر . وفجاة سمع صفير القاطرة . وكان يتصاعد دخـان كالريش في أعلى قبعة ، على يساره ، فوق باقــة من الأشجار ؛ ودون ان يفكر كثيراً ، اخذ يركض . وشاهد المحطة . وكانت تذكرته في جيبه وليس إلا ان يثب إلى عربة ، على الا تكون عربة تسير في جهة معاكسة . كان يتنشق الهواء بملء رئتيه ، والمرفقان على الجسم ، والراس الى الوراء ، واللحية في الهــواء . كان فخوراً بعضلاته ، واثقاً من الوصول .

ولكنه عمل حسابه دون ان يدخل انحدار الخط بالحساب . فلبلوغ المحطة كانت الطريق تغير اتجاهها فجأة وتمر من تحت جسر صغير . وزاد من سرعته الى الحد الاقصى ، وطلع خارج الجسر حين كان القطار الذي في المحطة يهتز . لقد فاته بمسافة تقرب من مئه متر .

وكان له من كبريائه ما يجعله لا يرضى بفشله ، مع انه يفضل هذا الفشل . وقد قال لنفسه في مدى ثانية واحدة : « ما يزال بامكاني الوثوب الى إحدى العربات لواردت . ولكني لا استطيع الاختيار وإلا لذهبت دون ان أرى جاك ثانية » . وتوقف راضياً عن نفسه .

ان ما تخيله منذ قليل اصبح حقيقة في الحال : تناول طعام الغداء في الفندق،

والعودة الى الاصلاحية ، وتكريس النهار لأخيه .

٣

كانت الساعة اقل من الواحدة حين كان انطوان امام مؤسسة تيبو . وخرج السيد فاييسم ، ودهش بحيث ظل منذهلاً عدة ثوان ، وعيناه ترقصان وراء نطارتيه . فروى له انطوان حادث السوء الذي وقع له . وعندئذ فقط انفجر السيد فاييسم ضاحكاً وعاد ثرثاراً .

وعرض انطوان ان ينزه جاك كل فترة ما بعد الظهر ، فقال المدير مرتبكاً:

ــ سابرستي ! وأنظمتنا ؟

ولكن انطوان ألح إلى ان ربح القضية .

ــ سنوضح الامر للسيد المؤسس . انا ذاهب لآتي بجاك .

فقال انطوان : سأرافقك .

وأسقط في يده : لقد وصلا في وقت غير مناسب . وما كاد يدخل في الرواق حتى شاهد اخاه مقعياً بمنظـــر حسن في الخلوة التي تسميها الادارة « *Les vatères* » والتي كان بابها مفتوحاً على مصراعيه بواسطة ارتير الذي كان يدخن غليونه ، مسنداً ظهره الى احد المصراعين .

واسرع انطوان بالدخول الى الغرفة . وكان المدير يفرك يديه ويبدو كثير السرور وهتف :

ــ أرأيت ؟ ان الاولاد الذين علينا ان نحرسهم هم محروسون حتى هنا .

وجاء جاك . وكان انطوان ينتظر ان يراه مضطرباً ، ولكنه كان يزرر ثيابه بهدوء ، وقسماته لا توضح شيئاً ، حتى ولا الدهشة لرؤية انطوان مرة ثانية. وأوضح السيد فاييسم انه يسمح لجاك بالخروج مع اخيه حتى الساعة السادسة . وكان جاك يتطلع في وجهه كأنه يحاول ان يفهم جيداً ، ولكنه لم يفه بكلمة . وتابع السيد فاييسم بصوته الزامر :

ــ وفوق ذلك فأنا ذاهب ، عفواً . اجتماع مجلسي البلدي . لأنني مختار .

قال ذلك من الباب وهو يضحك ، كما لو انها آخر مزحة . اما انطوان فقد ابتسم فعلاً .

كان جاك يرتدي ملابسه متمهلاً . وبمجاملة لاحظها انطوان ، كان ارتير يلبسه ثيابه ؛ حتى انه كان يريد ان يمسح له الحذاء ؛ وتركه جاك يفعل ذلك .

كانت الغرفة قد فقدت منظرها المعتنى به جداً والذي ادهش انطوان في الصباح . وبحث عن السبب . كان طبق الافطار باقياً على الطاولة: صحن وسخ، وطاسة فارغة ، وكسرات خبز . واختفت البياضات النظيفة : كانت ممسحة قاسية ومبقعة تتدلى من علاقة المناشف ؛ وتحت الطست قطعة قماش مشمع ، مهترئة وقذرة ؛ والشراشف البيضاء حل مكانها شراشف خشنة ، بالية ، لم تغسل . واستيقظت شكوكه فجأة . ولكنه لم يلق اي سؤال .

وحين أصبح الاثنان على الطريق قال انطوان بمرح :

– إلى أين نذهب ؟ ألا تعرف كومبيانيه ؟ هناك أكثر من ثلاثة كيلومترات بقليل ، بطريق ضفة نهر الواز . أيلائمك ذلك ؟

فقبل جاك . وبدا انه حريص على ألا يعاكس أخاه بشيء .

وادخل انطوان ذراعه تحت ذراع أخيه وسار . وقال وهو ينظر إلى جاك ضاحكاً :

– ما قولك بقضية المناشف ؟

فردد الآخر الذي لم يفهم شيئاً : قضية المناشف ؟

– نعم ، هذا الصباح عندما كانوا يطوفون بي المؤسسة ، كان لديهم الوقت الكافي ليضعوا عندك شراشف بيضاء جميلة ، ومناشف جميلة جديدة . ولكن شاء سوء الحظ ان أعود حين لم يكونوا ينتظروني ، و ...

وتوقف جاك ، وعلى ثغره نصف ابتسامة مرغمة ؛ وانتهى إلى القول بصوته الرصين الذي كان يرتجف قليلاً :

– يبدو انك تريد بكل قواك ان تجد كل ما يحدث في المؤسسة سيئاً .

وصمت ، واخذ يمشي ، ثم تابع على الأثر تقريباً، ويجهد ، كأنه يشعر بضجر

لا حدود له في التبسط بموضوع لا طائل تحته :

– ان ذلك أبسط مما تتوهم . فهم يبدلون البياضات في الأحد الأول والثالث من كل شهر . وأرتير ، المهتم بي منذ عشرة أيام فقط ، كان قد غير الشراشف والمناشف نهار الأحد الماضي . وظن انه يفعل حسناً بان يقوم بذلك هذا الصباح لأنه يوم أحد . ولكن قيل له في خزانة البياضات انه اخطأ . وجعلوه يعيد البياضات النظيفة . إذ لا حقّ لي فيها قبل الاسبوع القادم .

وسكت من جديد واخذ يتطلع إلى الحقول .

وبدأت النزهة بشكل سيء . وسعى انطوان حالاً إلى تغيير الحديث ، ولكن الأسف على حماقته لازمه ولم يسمح له باستعمال النبرة البسيطة البشوش التي يريدها . وكان جاك يجيب بنعم أو بلا حين تكون عبارة انطوان استفهامية ؛ ولكن دون أقل اهتمام . واخيراً قال بغتة :

– أرجوك يا انطوان ألا تكلم المدير بقضية البياضات : لأن هذا يسبب التوبيخ لأرتير لأجل لا شيء .

– مفهوم .

وأضاف جاك : ولا لوالدي .

– ولكن لا لأحد . كن مطمئناً . حتى اني لم أعد أفكر بذلك ابداً . أريد ان أقول لك الحقيقة : تصور انني كنت وضعت في رأسي ، ولا أدري لماذا ، ان كل شيء يجري بشكل سيء هنا ، وبأنك لست سعيداً ...

والتفت جاك قليلاً وفحص أخاه بشكل جدي . وتابع انطوان :

– لقد قضيت فترة الصباح في البحث ، وادركت اخيراً اني كنت مخطئاً . عندئذ تظاهرت بان القطار قد فاتني . لم اكن أريد الرحيل دون ان يتاح لي وقت اتحدث فيه قليلاً معك ، افهمت ؟

ولم يجب جاك . هل كان مرمى هذا الحديث مقبولاً عنده ؟ لم يكن انطوان متأكداً ؛ كان يخاف ان يخطىء الطريق ، وسكت .

ومنحدر الطريق الهابط نحو ضفة النهر جعل مشيتهما ناشطة . وبلغا ساعداً

من النهر يجري في قناة . وهناك جسر حديدي صغير يجتاز سداً ، وثلاثةزوارق كبيرة فارغة كانت تعوم بكل ارتفاع هيكلها الأسمر على الماء شبه الراكـــد .
وسأل انطوان بمرح :
ـ اتحب القيام برحلة في زورق ؟ وتنزلق بهدوء على الأقنية بـين أشجار الحور ، مع الوقوف على السدود ، وضبـــاب الصباح ، والمساء ، عند مغيب الشمس . تدخن سيكارتك في المقدمة دون ان تفكر بشيء ، والقدمان متدليان يتأرجحان فوق الماء .. ألا تزال ترسم ؟
في هذه المرة ارتجف جاك بوضوح وتأكد انطوان من رؤية احمرار وجهه .
وسأل بصوت غير واثق : لماذا ؟
فاجاب انطوان قلقاً :
ـ لا لشيء . لأن هنا رسمـــاً يبعث العمل به على التسلية ، هذه الزوارق الثلاثة ، والسد ، والجسر .
واتسع الدرب الذي تسحب فيه الزوارق واصبح طريقاً . ووصلا إلى ساعد الواز الكبير حيث المجرى الملآن كان يجري نحوهما . وقال انطوان :
ـ هذه كومبيانيه .
ووقف ، ووضع يده على جبهته اتقاء للشمس . وعرف في السماء البعيدة ، فوق الأوراق الخضراء ، رؤوس البرج التي تشبه الحزمـــة ، وبرج أجراس الكنيسة المستدير ؛ وكان على وشك تسميتها حين القى نظرة على أخيه بجانبــه ويده كحافة الخوذة على عينيه ، ويبدو كأنه يبحث في الافق . ورأى ان جاك يتطلع في التراب عند قدميه ؛ ويبدو انــه ينتظر مسير انطوان ، وما يفعله ، دون ان يقول شيئاً .
ويبدو ان كومبيانيه كانت كلها في الخارج هذا الأحد . واختلط انطوان وجاك بالجمهور . وكأن هناك مجلساً للقرعة العسكرية ، لان جماعات من الشبان بملابس الأحد كانوا يشترون من الباعة المتجولين أمواجاً من الشرائـــط المثلثة الألوان . متماسكي الأيدي ، سادّين الارصفة ، متمايلين وهم يغنون اناشيد الثكنة .

وفي المنتزه العمومي ، بين الفتيات بالاثواب الزاهية ، والجنود المتفلتين من الحي، كان هناك عائلات تتلاقى وتتبادل التحية .

وكان جاك المندهش المتصامم يتأمل جميع هؤلاء الناس بمزاج يزداد تعكره. وقال متوسلاً :

ـ هيا الى مكان آخر يا انطوان .

وفي منتصف المنتزه العمومي سارا في شارع وعر الجوانب ، يعلو صعوداً . وهو داكن صامت . وكان الوصول الى ساحة القصر يبهر النظر . وكان جاك يطرف بعينيه . ووقفا وجلسا تحت اشجار بشكل مربعات لم تكن تعطي ظلاً بعد .

وقال جاك واضعاً يده على ركبتي انطوان : اسمع .

كانت اجراس سان جاك تهتز لصلاة العصر ؛ ويبدو ان اهتزازها وضوء الشمس شيء واحد .

وتخيل انطوان ان الولد يتعرض خفية لنشوة هذا الاحد الاول من فصل الربيع . فجازف قائلاً :

ـ بماذا تفكر يا صديقي ؟

ولكن جاك نهض بدلاً من ان يجيب، وسارا صامتين نحو الحديقة .

ولم يعر جاك اي انتباه لعظمة المناظر الطبيعية . وبدا على الخصوص انه يهرب من الاماكن المأهولة . وكان يجتذبه الهدوء المسيطر حول القصر وعلى الشرفات ذات الدرابزين . وكان انطوان يتبعه ، متحدثاً عما رأى . وهناك اشجار بقس مشذبة مقطوعة على خضرة الارض ، وحمائم برية واقفة على اكتاف التماثيل . ولم يكن يحصل إلا على اجوبة مراوغة .

وسأل جاك فجأة : هل تحدثت اليه ؟

ـ من ؟

ـ فونتانان .

ـ ولكن نعم . فقد التقيت به في الحي اللاتيني . وانت تعلم انه الآن تلميذ

خارجي في مدرسة لويس الكبير .

ـ آه !

هكذا لفظ الآخر . ولكنه اضاف بصوت مرتجف كان يذكّر للمرة الاولى بنبرة التهديد التي كان يستعملها غالباً في السابق .

ـ الم تقل له اين انا ؟

ـ انه لم يسألني . لماذا ؟ الا تريد ان يعرف ؟

ـ كلا

ـ لماذا ؟

ـ لأن . .

ـ سبب وجيه . ولكن اما عندك غيره ؟

وتأمله جاك بغباوة ؛ لم يدرك ان انطوان كان يمزح . ولم تتلاشى غضونه ، واخذ يمشي . واضاف فجأة :

ـ وجيز ؟ هل تعلم ؟

ـ اين انت ؟ كلا . لا اعتقد . ولكن المرء لا يكون واثقاً من شيء مع الاولاد .

وتعلق بهذا الموضوع الذي علق طعمه جاك نفسه ، وتابع :

ـ في بعض الايام تبدو كفتاة كبيرة ، فتسمع كل ما يقال ، بعينيها الجميلتين المفتوحتين جيداً . ثم في ايام اخرى لا تكون سوى طفلة . أتصدق ان المدموازيل بحثت عنها مساء البارحة في كل مكان ، وهي تلعب بالدمية تحت المنضدة الموجودة في الدهليز ؟ ستبلغ الحادية عشرة عما قريب .

وهبطا نحو أرض غرس فيها نبات على شكل فراشة . ووقف جاك في أسفل الدرج بالقرب من تمثال لأبي الهول من رخام وردي مرقش، وأخذ يداعب جبهته المصقولة التي كانت تلمع في الشمس . هل كان يفكر بجيز ؟ بالمدموازيل ؟ هل تراءت له فجأة المنضدة القديمة الموجودة في الدهليز بغطائها ذي الشراريب ،

والطبق الفضي الذي توضع عليه البطاقات ؟ كان انطوان يظن ذلك . وتابع بمرح :

— لا أدري من أين تأتي بما لديها من أفكار ! والبيت ليس مرحاً بنظر طفل ! والمدموازيل تحبها جداً ولكنك تعرف كيف هي : انها تخاف من كل شيء ، وتمنعها من كل شيء ، ولا تتركها ثانية لوحدها .

وأخذ يضحك وينظر إلى أخيه ليشاركه بالبهجة ما دام يشعر ان هذه التفاصيل عن الحياة العائلية كانت كنزهما الأخوي . ولم يكن لها معنى إلا بنظرهما ، ولم تنقطع أبداً عن أن تكوّن لهما شيئاً وحيداً لايمكن استبداله : ذكريات الطفولة . ولكن جاك ابتسم ابتسامة مقتضبة مرغمة . وتابع انطوان:

— وكذلك وجبات الطعام ليس فيها ما يستغرب ، وأؤكد لك . فأبي لا يقول شيئاً ، أو انه يعيد على المدموازيل خطابات تقليده مناصبه ويسرد بالتفصيل كيفية استعماله لنهاره . وبالمناسبة ، فالترشيح للمجمع يسير سيراً حسناً .

— آه !

لقد لطّف قسمات جاك شيء من الرقة . وفكر لحظة وابتسم قائلاً :

— عسى أن يكون خيراً .

وتابع انطوان :

— جميع الاصدقاء يتحركون . والأب الرئيس مدهش ، فهو ذو علاقات بالأكاديميات الأربع .. والانتخاب يجري في مدى ثلاثة اسابيع .

ولم يكن يضحك ، وتمتم :

— لا اهمية لذلك ، ولكن مهما كان الأمر فعضو في المجمع شيء ذو قيمة . وابي ربح ذلك عن جدارة ، ألا ترى ذلك ؟

— اوه ، نعم ! — وقال عفوياً : — أبي طيب السريرة كما تعلم .

وتوقف ، واحمر وجهه ، وأراد اضافة شيء ، ولم يجزم بالأمر . وقال انطوان بحيوية :

— اني انتظر جلوس ابي براحة تحت قبته ليحدث انقلاباً . انا بالحقيقة

متضايق في الغرفة الموجودة في طرف البيت ، ولا اعرف اين اضع كتبي . أتعلم انهم اسكنوا جيز في غرفتك القديمة ؟ اريد ان اقنع ابي باستئجار المنزل الصغير في الطابق الارضي، منزل الشيخ الجميل؛ سينتقل منه في الخامس عشر منالشهر. ثلاث غرف : سيكون لدي مكتب حقيقي للعمل حيث استطيع استقبال زبائن ، ونوع من المختبر أيضاً أقيمه في المطبخ .

وخجل فجأة منعرض حياته الحرة ورغبته في الرفاهية على حبيس؛ وأدرك انه تحدث عن غرفة جاك كأن هذا لن يعود إليها ابداً . وسكت . واستعاد جاك هيئته اللامبالية .

وقال انطوان مستهدفاً ايجاد ألهية :

ــ والآن ، لو نذهب لنأكل قليلا ، أتريد ؟ يجب أن تكون قد جعت .

وكان قد فقد كل أمل باقرار معاشرة أخوية بينه وبين جاك . ودخلا إلى المدينة ، وكانت الشوارع الملأى بالناس تدوي كقفران النحل . وشنت غارة على دكاكين الحلوى . ووقف جاك على الرصيف جامداً أمام الطبقات الخمس من الحلويات المطلية بالسكر ، السائلة بالزبدة . وقدبدا له هذا المنظر خانقاً . وقال انطوان مبتسماً :

ــ ايه ، ادخل !

كانت يدا جاك ترتجفان وهما تاخذان الصحن الذي قدمه جاك إليه وجلسا في داخل الدكان أمام هرم من الحلوى الممتازة . وكانت نسمات من الفانيليا والعجين الساخن تأتي من باب الخدمة المفتوح قليلا . وجاك مكوم على كرسيه دون أية كلمة ، والعينان محتقنتان كأنه على وشك البكاء ، وكان يأكل بسرعة ، متوقفاً بعد كل قطعة حلوى ، منتظراً ان يقوم انطوان بتقديم الطعام له ، ثم يعود إلى الأكل . وسكب انطوان كأسين من البورتو . وأمسك جاك بالكأس بين أصابعه الدائمة الارتجاف ؛ وغمس شفتيه به ، فاحترق من النبيذ المحتوي على كحول ، وسعل . وكان انطوان يشرب بجرعات صغيرة دون أن يظهر الاهتمام بأخيه . وتجرأ جاك وأخذ جرعة ، وتركها تسقط في جسمه

ككرة من النار ، ثم اخرى ، ثم كل محتويات الكأس حتى الثمالة . وحين ملأ له انطوان الكأس مرة اخرى تظاهر بعدم رؤية ذلك وقام ، متأخراً ، بحركة ليمنعـــه .

حين خرجا من الدكان كانت الشمس قد مالت الى الزوال . وهبطت الحرارة . ولكن جاك لم يكن يشعر بالطراوة . كان خداه محترقين ، وفي كل جسده احساس بأنه في رفاهية مصطنعة ، شبه مؤلمة . وقال انطوان :

– لا يزال امامنا ثلاثة كيلومترات نقطعها . يجب ان نعود .

وكان جاك على وشك البكاء . وأطبق قبضتيه في داخل جيوبه ، وشد فكيه ، وخفض رأسه . وكان انطوان ينظر اليه خلسة ، فلاحظ تغييراً في قسماته بعث فيه الخوف . وسأل :

– هل أتعبتك هذه النزهة الطويلة ؟

وبدت نبرة هذا الصوت لجاك ذات رقة جديدة ؛ ولما كان غير قادر على التفوه بكلمة فانه لفت نحو أخيه وجهه المتشنج ، وامتلأت عيناه بالدموع هذه المرة . وذهل انطوان فتبعه صامتاً . وحين هبطا المدينة واجتازا الجسر وأصبحا على الدرب المخصص لسحب الزوارق ، اقترب من أخيـــه وأخذ ذراعه وقال مبتسماً :

– ألا تأسف على نزهتك المعتادة ؟

فلم يجب جاك بشيء . ولكن هذه اللفتات ، وذلك الصوت المحب ، وتلك النسمات من الحرية التي كانت تبعث فيه النشوة منذ ساعات ، وشراب البورتو ، وتلك النهاية لفترة ما بعد الظهر الكثيرة العذوبة ، الكثيرة الكآبة ... جعلت التأثر ينهك قواه فجأة : فانفجر بالنحيب . واحاطه انطوان بذراعه ، وأسنده وأجلسه مستنداً اليه على المنحدر . ولم يكن يفكر ان يكتشف في حياة جاك اسراراً قاتمة ، ولكنه كان يشعر بالانفراج لرؤية ذوبان هذه اللامبالاة التي كان يصطدم بها منذ الصباح .

كانا وحدهما على الضفة المقفرة ، وحدهما مع الماء الهارب تحت سماء ضبابية

حيث ينطفىء المغيب ؛ وأمامهما قارب يهدهده المجرى ويرضرض القصب اليابس بطرف سلسلته .

كان أمامهما طريق يجب اجتيازه ، ولا يستطيعان البقاء هنـاك . وأراد انطوان ان يجبر الولد على رفع رأسه فقال :

— بماذا تفكر ؟ ما الذي يبكيك ؟

وزاد جاك من التصاقه به . وحاول انطوان أن يتذكر كلمات حركت هذه الأزمة من الدموع .

— هل تفكيرك بنزهتك المعتادة هو الذي أبكاك ؟

— نعم .

لقد اعترف الولد لكي يجيب بشيء . وألحّ الآخر :

— لماذا ؟ أين تتنزه نهار الأحد اذن ؟

لا جواب .

— ألا تحب الخروج مع ارتير ؟

— كلا .

— لماذا لم تقل ذلك ؟ اذا كنت تأسف على الأب ليون الهرم فان الحصول عليه سهل .

فقاطع جاك بعنف غير متوقع :

— اوه ! كلا .

وكان قد انتصب وأبدى وجهاً من الحقد كثير الدلالة وغير منتظر ، بحيث دهش انطوان منه .

ولما كان جاك لا يستطيع البقاء جامداً فقد نهض وجر أخاه بخطى كبيرة ، ولم يقل شيئاً ؛ اما انطوان ، فبعد انتظار بضع دقائق ، وخوفاً من ارتكاب حماقة ، وهو الراغب قبل كل شيء بتوسيع هذا الجـرح كما كان يفكر ، فقد تابع بعزم :

— اذن لم تكن تحب الخروج ايضاً مع الأب ليون ؟

واستمر جاك في السير وعيناه مفتوحتان ، والأسنان تصران دون أن يلفظ كلمة . وجازف انطوان قائلاً :

– ومع ذلك فالأب ليون يبدو لطيفاً معك .

لا جواب .

كان يخاف ان يعود جاك إلى الانطواء على نفسه من جديد . وأراد الامساك بذراعه ، ولكن الولد تملّص وأسرع الخطى . وتبعه انطوان مرتبكاً ، غير عارف كيف يحوز على ثقته ، حين انتحب جاك فجأة ، وأخذ يبكي دون أن يدير رأسه بعد أن خفف سيره :

– لا تقل ذلك يا انطوان ، لا تقله لأحد .. لم أكن أتنزه أبدا مع الاب ليون . أبداً تقريباً .

وسكت . وفتح انطوان فمه ليسأل ، فأنذرته الغريزة بأن عليه ألا يحدث صوتاً . وبالفعل ، فان صوت جاك المتردد قليلاً ، الأبح ، تابع :

– في الايام الاولى ، نعم... لقد بدأ في النزهة يقص علي أشياء . وكان يعيرني كتباً – لم أكن اعتقد أن هذا موجود ! وبعد ، فقد اقترح علي ارسال رسائل إذا كنت اريد ... في تلك الفترة كتبت إلى دانيال . وكنت اكذب عليك : لقد كتبت . ولكن لم يكن معي نقود للطوابع . عندئذ ، انت لا تدري ... رأى انني أعرف شيئاً من الرسم .. أتدرك ... هو الذي كان يقول لي كيف يجب ان أفعل ... ومقابل ذلك دفع ثمن الطوابع لرسالة دانيال . ولكنه في المساء كان يُري الرسوم للمراقبين ، وكان الجميع يريدون غيرها ، معقدة أكثر فأكثر .. وعندئذ ، ومنذ تلك اللحظة لم يعد الاب ليون قلقاً ، وانقطع عن اصطحابي إلى النزهة . وبدلاً من السير بي إلى الحقول ، كان يجعلني أدور حول المؤسسة لأجتاز القرية ... وكان الأولاد يركضون خلفنا ... وكنا نسير في الزقاق لندخل الفندق من الساحة الداخلية . ويذهب هو ليشرب ويلعب الورق ، ويفعل ما لا أدري ؛ وطوال الوقت الذي يقضيه هناك كان يخبئني ... في مغسل فارغ للثياب ... ومقفل بالمفتاح .. طوال ساعتين .

— ولكن لماذا ؟

— لا أدري ، أنت تعلم . كان اصحاب الفندق يخافون . وذات يوم كان هناك غسيل يجفف في المغسل ، وعندئذ وضعوني في رواق . وقالت المرأة ... قالت ...

وانخرط في البكاء .

— ماذا قالت ؟

— قالت : « لا يعرف المرء ماذا يفعل مع هذه البذور ... »

فردد انطوان منحنياً : هذه البذور ...

— هذه البذور ... بذور السارقين .

انهى الولد أخيراً ، وأخذ ينتحب بشدة .

وكان انطوان يصغي ؛ وفضوله في هذه اللحظة لمعرفة المزيد كان أكثر قوة من شفقته . فقال :

— وبعد ؟ إحكِ .

فتوقف جاك وراح يتعلق بذراع أخيه الأكبر . وصرخ :

— انطوان ، انطوان . اقسم لي بأنك لن تقول شيئاً ! اقسم لي . لو ارتاب ابي بشيء فانه ... ابي يحبني في دخيلته ، فانه سيكون تعساً . ليس الخطأ منه إذا كان لا يعرف الامور مثلنا ... — وفجأة — آه ! انت يا انطوان ... لا تتركني يا انطوان ، لا تتركني .

— ولكن كلا يا صغيري ، ولكن كلا . ثق بي ، أنا هنا ... لن أقول شيئاً سأفعل كل ما تريد . ولكن قل الحقيقة .

ولما كان جاك غير عازم على الاكمال ، فقد قال له :

— أكان يضربك ؟

— من ؟

— الأب ليون .

— اوه ، كلا .

ودهش لعدم استطاعته الامتناع عن الابتسام بين دموعه
ــ ألا يضربونك ؟
ــ اوه ! كلا .
ــ صحيح ؟ لا أحد أبداً ؟
ــ ولكن كلا . لا أحد .
ــ إذن ؟
صمت .
ــ والجديد ، ارتير ؟ أليس حسناً ؟
فهز جاك رأسه .
ــ ولكن ماذا ؟ هل يذهب هو ايضاً إلى المقهى ؟
ــ كلا .
ــ آه ! اتتنزه معه ؟
ــ نعم .
اذن . ماذا تشكو منه ؟ هل هو قاس معك ؟
ــ كلا .
ــ إذن ماذا ؟ ألا يعجبك ؟
ــ كلا .
ــ لأي سبب ؟
ــ لأن ...
وتردد انطوان ثم تابع أخيراً :
ــ ولكن ، يا للشيطان ، لماذا لا يعجبك ؟ لماذا لا تذهب وتشرح كل ذلك للمدير ؟

كان جاك يّشد جسده المحموم إلى جسد انطوان ، وقال متوسلا :
ــ كلا ، كلا يا انطوان . لقد أقسمت لي . أنت تعلم ، لقد أقسمت لي انك لن تقول شيئاً ! لا شيء ، لا شيء لأي كان .

ـ ولكن نعم . سأفعل كما تريد ، اني أسألك فقط . لمـــاذا لم تشك الأب ليون إلى المدير ؟

فهز جاك رأسه دون ان يفتح اسنانه . وقال انطوان موحياً :

ـ ربما كنت تفترض ان المدير يعرف كل شيء ، وانه يتساهل معه ؟

ـ أوه ، كلا .

ـ ما رأيك بالمدير ؟

ـ لا شيء .

ـ اتعتقد انه يسيء معاملة الأولاد الآخرين ؟

ـ كلا ، لماذا ؟

ـ هيئته تدل على اللطف ؛ ولكني لا أعرف شيئاً : والأب ليون ايضاً تدل هيئته على انه رجل طيب : هل سمعت أشياء تقال ضد المدير ؟

ـ كلا .

ـ هل المراقبون يخشونه ؟ والأب ليون ، وارتير هل يخافانه ؟

ـ نعم ، قليلاً .

ـ لماذا ؟

ـ لا أدري . لأنه المدير .

ـ ولكن أنت ؟ معك ، هل لاحظت أشياء ؟

ـ أية أشياء ؟

ـ حين يأتي لرؤيتك كيف يكون معك !

ـ لا أدري .

ـ ألا تجرؤ على التحدث إليه بحرية ؟

ـ كلا .

ـ ولكن لو كنت قلت له ان الأب ليون يذهب إلى المقهى بدلاً من النزهة ، وانهم يحتجزونك في المغسل ، ماذا تعتقد انه كان يفعل ؟

فأجاب جاك برعب :

ـ كان يطرد الأب ليون .
ـ إذن ، ما الذي كان يمسكك عن الكلام ؟
ـ ولكن هكذا ياانطوان !

وكان انطوان قد استنفذ جهده في كشف هذا الاشتراك بالذنب المعقد الذي كان يشعر ان أخاه سجينه . وسأل :

ـ ألا تريد ان تقول لي ما الذي أمسكك ؟ أو ايضاً ، أذت نفسك ألا تعرف شيئاً ؟

فتمتم جاك خافضاً رأسه :

ـ هناك ... رسوم اجبروني على توقيعها .

وتردد ، وسكت ، ثم قال فجأة :

ـ ولكن ليس هذا فقط .. لا يمكن قول شيء للسيد فاييسم لانه المدير ، أتفهم ؟

كانت اللهجة تعبة ولكنها صادقة . ولم يلحّ انطوان ؛ كان يحذر من نفسه ، ويعلم ان لديه ميلاً ليعرف الكثير ، وبسرعة . وقال :

ـ على الأقل ، هل تدرس جيداً ؟

وكانا قد وصلا إلى مرأى السد بالقرب من الزوارق ، حيث النوافذ الصغيرة كانت مضاءة . واستمر جاك في السير ، وعيناه في الأرض . وردد انطوان :

ـ إذن ، والدرس ايضاً لا يسير سيراً حسناً ؟

فأشار جاك نفيا دون ان يرفع رأسه .

ـ ومع ذلك فالمدير يؤكد ان استاذك مسرور منك .
ـ لأن الاستاذ قال له ذلك .
ـ ولكن لماذا يقول ذلك لو لم يكن صحيحاً ؟

وبدا جاك انه يتابع هذه الاسئلة بجهد ، وقال باسترخاء :

ـ أنت تعلم ، انه هو الاستاذ . وهو هرم لا يطلب إلا ان اشتغل . وهو يأتي إلى هناك لأنه قيل له ان يأتي ، هذا كل شيء . ويعرف جيداً ان احداً لن

يتحقق من ذلك . وهو ايضاً يحب ألا يكون لديه فروض ليصلحها . كان يبقى ساعة ، ونتحدث ، وهو لطيف جداً معي . يحدثني عن كومبيانيه ، وعن تلامذته ، وعن كل شيء ... وهو ليس سعيداً ابداً .. يحدثني عن ابنته المصابة بامراض في بطنها ، وانه يتشاجر مع زوجته .. لأنه تزوج من جديد ، وعن ولده معاون الضابط الذي انزلت رتبته بسبب استدانته من امينة صندوق ... انه يتظاهر بالانكباب على الدفاتر والدروس ، ولكن الصحيح انـــه لا يفعل شيئــاً .

وصمت . ولم يجد انطوان ما يجيب به . وشعر بالخجل تقريباً أمام هذا الولد الذي قاسى هذه التجربة في الحياة .. ومع ذلك فلم يكن لديه ما يسأله . وكان الولد قد عاد إلى الكلام من تلقاء نفسه ، وبصوت رتيب ومنخفض ، دون ان يستطاع فهم تآلف أفكاره في هذا التشوش ، ولا حتى ما يدفعه فجأة إلى هذه الاستفاضة بعد ذلك التحفظ العنيد .

ــ انت تعلم ان الماء يحمر لونه بسبب الفيضان .. وقد تركته لهم ، اتفهم ؟ وكان الأب ليون قد طلب ذلك مني في البدء ؛ وانا لم أكن اهتم ، لأنني احب ماء الوعاء اكثر منه .. اما ما يزعجني فهو انهم يطوفون في الرواق كل الوقت . وخطواتهم لا تُسمع بسبب احذيتهم النسيجية . وكانوا احياناً يخيفونني . كلا ، لا لأنني اخاف ، بل على الخصوص لأنني لا استطيع ان آتي بحركة دون ان يروني ، ودون ان يسمعوني .. دائماً وحـــدي وبالحقيقة لست وحدي ابداً كما ترى ، لا في النزهة ، ولا في أي مكان ! وليس هذا بشيء ، واعلم ذلك ، ولكن ليس لديك فكرة عن التأثير الذي يحدثه ذلك مع طول المدة ، كأنك على وشك ان تصاب بأذى .. وهناك أيام كنت أريد فيها الاختباء تحت السرير لأبكي ، ولكن لأبكي « دون ان يروني» ، اتفهم؟ أما مجيئك هذا الصباح : فقد اخبروني في الكنيسة ، وارسل المدير امين سره ليتفقد هيئتي ، وجـــيء لي بمعطفي ، وكذلك قبعتي ، لأني كنت عاري الرأس .. أوه ! لا تعتقد انهم فعلوا ذلك ليخدعوك يا انطوان .. كلا ، ابداً : انها العادة . وهكذا ، نهار الاثنين ، أول

يوم اثنين في الشهر ، حين يأتي ابي لحضور المجلس ، يفعلون دائماً اشياء كهـذه ، تفاهات ، ليكون والدي مسروراً .. وكذلك البياضات : ان ما رأيته هذا الصباح بياضات بيضاء موجودة دائماً في خزانتي لترتيب الغرفة إذا جاء أحد.. اوه ! ولا يعني ذلك انهم يتركونني ببياضات قذرة ، كلا ، فهم يبدلونها في اغلب الاحيان ، وحتى لو طلبت منشفة نظيفة زيادة على ما عندي لأعطوني إياهـا . ولكنها العادة ، لكي يستلفت ذلك النظر حين يدخل المرء .

انا مخطيء بسردي عليك كل هذا يا انطوان ، وستعتقد ايضاً بوجود اشياء ليست موجودة . اؤكد لك انني لا اشكو من شيء ، وان النظام سهل جـداً معي ، وانهم لا يفعلون شيئاً لا استلطفه ، بالعكس . ولكن هذه السهولةذاتها، اتفهم ؟ ثم لا شيء هناك اعمله ! فأنا مربوط هناك طول النهـار ، ولا شيء ، لا شيء اعمله ابداً ! وفي اول الأمر بدت لي الساعات طويلة ، طويلة ، ليس لديك فكرة عن طولها ؛ ثم كسرت البرغي الذي ادير ساعتي بواسطته ، ومنذ ذلك الوقت صار ذلك افضل ، واعتدت عليه شيئاً فشيئاً . ولكني لا اعرف كيف اقول ، كأني انام في اعماق نفسي ، في الأعماق .. ولا اتألم بالحقيقة مـا دمت كأنني كنت نائماً . وهذا متعب مهما كان الأمر اتفهم .

وصمت لحظة ، وتابع بصوت مهتز ، وقد زاد تردده :

ـ ثم اني لا أستطيع ان اقول لك كل شيء يا انطوان .. ولكنك تعرف جيداً .. فحين يكون المرء وحيداً هكذا ينتهي الى أن يصبح لديه كدسة من الأفكار التي يجب ألا تكون . وخصوصاً ان ... حكايات الأب ليون ، وأنت تعلم .. والرسوم .. حسناً ، في الأساس هي ألهية الى حد ما ، أتفهم ؟ وقد صنعت منها مقدماً .. وفي الليل أعيد التفكير بها .. وانا اعرف عدم لزوم ذلك .. ولكن ، وانا وحدي ، اتفهم ؟ دائماً وحدي .. اوه! انا مخطيء بقول ذلك .. وأشعر اني سآسف عليه..ولكني تعب جداً هذا المساء . ولا استطيع ان امتلك نفسي .

واخذ فجأة يبكي بشدة .

كان يشعر باضطراب نفسي غريب ؛ ويخيل اليه انه يكذب رغماً عنه ، وانه كلما اكثر من محاولة قول الحقيقة يقل توصله اليها . الا ان لا شيء مما سرده كان غير صحيح! ولكن بالنبرة ، وبزيادة اضطرابه ، وباختيار ما أقرّ به ، كان يشعر انه يعرض من حياته صورة محرّفة قليلاً ـ وانه لم يستطع ان يفعل غير ذلك .

ولم يتقدما ابداً ؛ فقد ظل امامها نصف المرحلة يجب اجتيازه . والساعة بلغت الخامسة والنصف ، والنهار لا يزال منيراً : وكان بخار يتصاعد من النهر وينتشر على الحقول ويغطيها .

وكان انطوان ، وهو يسند الصغير الذي يتعثر ، يفكر بكل قواه ، لا بما عليه ان يفعله ؛ فقد كان مصمماً : انتزاع الولد من هنا ! ولكنه كان يبحث عن وسيلة للحصول على موافقته . ولم يكن ذلك سهلاً . وعند الكلمات الاولى تعلق جاك بذراعه منتحباً ، مذكراً إياه بأنه اقسم ألا يقول لأحد ، وألا يفعل شيئاً.

ـ ولكن كلا يا صغيري ، لقد اقسمت على ذلك ، ولن افعل شيئاً ضد إرادتك . فقط ، اصغ إلي . هذه الوحدة الاخلاقية ، هذا الكسل ، وهذه الفوضى ! انا الذي كنت اظن هذا الصباح انك سعيد !

ـ ولكنني سعيد .

لقد امّحى كل ما كان يشكو منه في لحظة : انه لا يعيش سوى النواحي الجيدة من عزلته ، البطالة ، غياب المراقبة ، ابتعاد اهله .

ـ سعيد؟ لو كنت سعيداً لكان في ذلك ما يخجل ! انت ! كلا يا صغيري ، كلا ، لا استطيع الاعتقاد انك ترضى ان تتعفن في الداخل . انك تـــذل ، وتحمق ؛ لقد دام هذا طويلاً . وقد وعدتك باني لا افعل شيئاً الا بموافقتك ، وسأفي بوعدي . كن مطمئناً ؛ ولكن فكر ، لنواجه الامور ببرود ، انت وانا ، كصديقين ... ألسنا صديقين الآن ؟

ـ نعم .

ـ اتثق بي ؟

ـ نعم .

اذن ؟ مم تخاف ؟

ـ لا اريد العودة الى باريس .

ـ ولكن لنر يا صغيري ، بعد اللوحة التي رسمتها لي عن حياتك هنا فـــان حياة العائلة لا يمكن ان تكون اسوأ .

ـ اوه ! بلى .

امام هذه الصرخة صمت انطوان مرهقاً.

وازدادت حيرته . وكان يردد « اسم الله » دون ان يستطيع التفكير بشيء . واستعجلها الوقت . وكان يخيل اليه انه يمشي في الظلمات . وفجأة تمزق القناع ، وأمسك بالحل ! وفي هنيهة تجهزت الخطة في رأسه . وضحك ، وهتف :

ــ اصغ الي يا جاك . لا تقاطعني ! او بالاحرى أجب : لو ُوجدنا في الدنيا وحدنا ، انت وانا ، الا تريد المجيء الى جانبي وتعيش معي ؟

ولم يفهم الولد حالاً . واخيراً قال :

ــ آه ! يا انطوان . كيف تريد ؟ فهناك ابي .

كان الوالد ينتصب معترضاً المستقبل . وساورتها فكرة : « كيف يترتب كل شيء ، وفجأة...»وخجل انطوانمن فكرته الخاصة منذ ان فاجأ انعكاس نظرة اخيه ؛ فلفت عينه . وقال جاك :

ــ آه ! بالتأكيد . لو استطعت ان اكون معك ، معك وحدك ، فسوف اصبح انساناً آخر ! ولكنت درست ،وسوف ادرس ، وربما اصبحت شاعراً... شاعراً حقيقياً .

فأوقفه انطوان باشارة :

ــ اسمع : عاهدتك بأن لا يهتم احد بك سوايفهل ترضى بالخروج من هنا ؟

ــ نعم .

قالها بدافع المودة ورضي حتى لا يعاكس اخاه .

ـ ولكن اتتعهد بأن تتركني انظم حياتك ودروسك ، واراقبك بكل شيء

كأنك ولدي ؟
ـ نعم .
ـ حسناً .

قال انطوان ذلك وسكت ، كان يفكر . كانت رغباته آمرة دائما فـلا يشك ابداً بتنفيذها ؛ وبالفعل فقد قاد الى النهاية حتى الآن كل ما اراده بعناد وتصلب . والتفت نحو اخيه الصغير وابتسم ، وقال دون ان يكف عن الابتسام ، ولكن بصوت حازم :

ـ اني لا احلم . واعرف بماذا أتعهد . قبـل خمسة عشر يوماً ، اتسمعني ؟ قبل خمسة عشر يوماً ، وثق بذلك ، ستعود الى بيتك بشجاعة دون ان يبدو عليك شيء . قبل خمسة عشرة يوماً ، واقسم لك ، ستصبح حراً .

وجاك ، بدون ان يسمع جيداً ، التصق بانطوان وبشهية فجائية للحنو ؛ وكان يريد ان يجثم بقربه ويظل هناك طويلاً دون ان يتحرك ، في دفء جسده الاخوي .

وردد انطوان : ثق بي .

وشعر هو نفسه بالانتعاش ، وكأنه قد اصبح نبيلاً ؛ وشعر بالسرور لوجوده الآن فرحاً قوياً . وقارن حياته بحياة جاك : « شخص مسكين تحدث له دائماً امور لا تحدث لأحد » وكان يريد ان يقول : « امور لم تحدث لي ابداً » . كان يرثي له ، ولكنه كان يشعر على الخصوص بمتعة شديدة جداً لكونه انطوان ، ذلك الانطوان المتزن ، المنظم جيداً ليكون سعيداً ، ليصبح رجلا عظيماً ، طبيباً كبيراً ! كان راغبا في زيادة سرعة سيره ، وان يصفر بمرح ، ولكن جاك كان يجر ساقه ،ويبدو منهوكاً . ومع ذلك فقد وصلا الى كروي . وتمتم ايضاً مرة اخرى ضاغطاً على ذراع جاك تحت ذراعه : ثق بي .

كان السيد فاييسم يدخن سيكارة امام المدخل . وقد رآهما من بعيد فأخذ يقفز نحوهما .

ـ حسناً . آمل ! يا لها من نزهة ! يبدو لي انكما رأيتما كومبيانيه . ـ وكان

يضحك على هواه ويرفع ذراعيه ـ على ضفاف الماء ؟ آه ! يا له من طريق جميل! ويا لها من بلاد جميلة ، بلادنا ، اليس صحيحاً ؟ ـ وسحب ساعته ـ لا لا أوجه اليك امراً يا دكتور ، ولكن اذا اردت الا يفوتك قطارك من جديد ...

فقال انطوان : اني ذاهب .

والتفت نحو أخيه وقال بصوت متأثر : إلى اللقاء يا جاك .

وهبط الليل. وشاهد على نور خفيف وجهاً مستسلماً وجفوناً مسبلة، ونظرة نحو الأرض . وكرر : إلى اللقاء .

كان ارتير ينتظر في الباحة . واراد جاك ان يستأذن المدير ، ولكن السيد فاييسم ادار له ظهره : ودفع هو نفسه ، ككل مساء ، مصاريع البوابة . وخلال نباح الكلب سمع جاك صوت ارتير :

ـ ايه ، الا تأتي ؟

فتبعه . وبلغ حجرته وقد خف ما به . كان كرسي انطوان هناك بقرب المنضدة . وكانت محبة اخيه الأكبر لا تزال تشمله . وارتدى ثياب الشغل ، وكان جسده تعباً ولكن الدماغ نشيط ؛ لقد كان فيه ، عدا جاك كل الأيام، كائن آخر غير مادي ، ولد اليوم ، وكان يتطلع إلى الآخر الذي يسيطر عليه وهو يعمل .

لم يستطع ان يظل جالساً فاخذ يدور في الغرفة . لقد ابقته واقفاً عاطفة جديدة وقوية : الوعي بالقوة . وكان قد اقترب من الباب ، وبقي هناك ، جبهته على الزجاج ، والعين محدقة بقنديل الرواق المقفر . وكان جو ناقل الحرارة الخانق يزيد من تعبه . كان شبه نائم . وفجأة انتصب ظل من ناحية الزجاج الاخرى ، وفتح الباب المقفل : كان ارتير يحمل الطعام .

ـ هيا ، اسرع ايها الوغد الصغير !

وقبل ان يبدأ جاك بالعدس اخذ عن الطبق قطعة الجبن وطاسة الماء الاحمر اللون . وقال الغلام : اهذا لي ؟

وابتسم ، واخذ قطعة الجبن واخذ يأكلها بالقرب من الخزانة لئلا يروه من

الباب . انها الساعة التي ياتي فيها السيد فاييسم منتعلاً الخف ، قبل عشائـه ، ليقوم بدورة في الرواق. وفي اغلب الأحيان لايفطنون لزيارته إلا بعد مروره، وذلك من رائحة سيكاره المقرفة التي تنفذ من شبكة الكوة .

واكل جاك خبزه غامساً كسرات كبيرة في ماء العدس الاسود. وحين انتهى قال ارتير : والآن إلى السرير .

ـ ولكن الساعة لم تبلغ الثامنة .

ـ هيا اسرع . انه نهار الأحد والرفاق ينتظرونني .

فلم يجب جاك بشيء واخذ في خلع ملابسه . وكان ارتير ينظر اليه ويداه في جيوبه . لقد كان في هذا الوجه الوحشي قليلاً وفي هذا الجسم الربعة لحمّال اشقر ، شيء عذب . وقال متمثلاً :

ـ الاخ . انه رجل ساذج يعرف ان يعيش .

واتى بحركة ادخل فيها قطعةً في جيبه ، وابتسم ، واخذ الطبق فارغـاً وخرج . وحين عاد كان جاك في سريره .

ـ انمت الآن ؟

ودفع الغلام بطرف اصابعه الحذاء تحت منضدة الزينة .

ـ قل اذن ، الا تستطيع ان ترتب امتعتك قليلاً قبل ان تنام ؟

واقترب من السرير قائلاً : اتسمع ايها الخبيث الصغير ؟

ثم اسند يديه الاثنتين الى كتفي جاك وضحك بشكل غريب . وشوهت ابتسامة مؤلمة وجه الولد شيئاً فشيئاً .

ـ ألا تخبىء شيئاً تحت المخدة على الأقل ؟ ألا يوجد شمعة؟ ألا يوجد كتاب؟

ومديده تحت الشراشف . ولكن الولد تخلص بحركة لم يكن ارتير يتوقعها ولا يستطيع ردها ، وارتمى إلى الوراء وظهره للجدار . وكانت عيناه مليئتين بالحقد . وقال الآخر :

ـ اوه ، اوه ! انك سريع الغيظ هذا المساء .. ـ اني استطيع أن أتكلم. وانت تعلم ...

كان يتكلم بصوت منخفض ويراقب بعينيه باب الرواق . ثم بدون أن يلقي انتباهاً لجاك أولع القنديل الذي يظل مضاءً طوال الليل لأجل المراقبة وأقفل عاكس التيار بالمفتاح العمومي ، وخرج وهو يصفر صفيراً خفيفاً .

وسمع جاك المفتاح يدور مرتين في القفل ، وابتعد الرجل جارّاً على البلاط نعليه المنسوجين من الحبال . وعندئذ عاد إلى وسط السرير ، ومدد ساقيه وظل مستلقياً على ظهره . كانت أسنانه تصر . وفارقته رباطة الجأش . وتذكر نهاره واعترافاته ، واجتاحته رجفة غضب أعقبها خمود همة مزقه : لقد تخيل باريس، وانطوان ، والبيت ، والمشاجرات ، والشغل ، والرقابة العائلية ... آه ! لقد اقترف الغلطة التي لا يمكن اصلاحها . وأسلم نفســـه لأعدائه : « ولكن ماذا يريدون مني ، ماذا يريدون كلهم مني ؟ » وسالت دموعه ، وتعلق بالفكرة القائلة ان مشروع انطوان الغامض لن يتحقق ، وان السيد تيبو سوف يعارضه . وكان والده يبدو له كمنقذ . نعم ، كل ذلك سيخفق ، وسوف ينتهون إلى تركه براحة ، إلى تركه هنا . وهنا ، هي الوحدة ، والخدر ،والسعادة في السلام .

كان نور السريج يدور على السقف ، ويدور فوق رأسه .

هنا السلام ، والسعادة .

٤

في ضوء الدرج الخفيف التقى انطوان بسكرتير والده ، السيد شاسل، الذي كان ينزلق بمحاذاة الجدار كالجرذ ، وحين رآه وقف مشدوه العين .

— آه ! اهذا انت ؟

لقد اخذ عن معلمه هذه الطريقة في توجيه الكلام ، وقال هامساً :

— خبر سيء! انتكتل الجامعيين جعل ترشيح عميد كلية الآداب في المقدمة : خمسة عشر صوتاً خسارة على الأقل ؛ ومع اصوات الحقوقيين يبلغ العدد خمسة وعشرين . ماذا ؟ هذا ما يدعونه نحساً . سيوضح لك الرئيس الأمر .

وكان يسعل سعالاً خفيفاً دون انقطاع بداعي الخجل ، ويعتقد نفسه ضحية

نزلة صدرية . وكان طول النهار يمصّ حبوباً من الكوم *Gomme* . وتابع حين رأى ان انطوان لا يجيب :

– اني ذاهب ، فأمي تقلق عليّ .

وسحب ساعته ، واصغى إليها قبل ان ينظر إلى الوقت ، ورفع طوق عنقه ، واختفى .

منذ سبع سنوات وهذا الرجل الصغير ذو النظارات هو المساعد اليومي للسيد تيبو . إلا ان انطوان لم تزدد معرفته به عن أول يوم . كان يتكلم قليلاً ، بصوت منخفض ، ولا يشرح سوى افكار منتشرة ، مكدساً المترادفات . وكان يبدو شديد الدقة ، يهتم بأقل العادات . ويعيش مع أمه التي يبدو انه يسرع إلى خدمتها بشكل مؤثر . وكان حذاءه يصر دائماً . واسمه الأول جول . ولكن السيد تيبو ، بداعي اعتباره لنفسه ، كان يدعو سكرتيره « السيد شاسل » . أما انطوان وجاك فقد اطلقا عليه اسم « كرة الكوم » أو « المضجر » .

دخل انطوان رأساً إلى مكتب والده الذي كان يرتب أوراقه قبل انيذهب إلى السرير .

ـ آه ! أهذا انت ؟ اخبار سيئة .

فقاطعه انطوان :

ـ نعم ، فقد حدثني السيد شاسل .

وسحب السيد تيبو ذقنه خارج طوقه بحركة جافة . لم يكن يحب ان يُعرف ما كان يستعد لقوله . وانطوان في تلك اللحظة لم يكن يهتم بذلك ؛ كان يفكر بما جاء يعمل ، ويشعر ان الشلل يستولي عليه إلا انه وعى ذلك في الوقت المناسب وقال مهاجماً :

ـ وانا ايضاً احمل إليك اخباراً سيئة جداً : ان جاك لا يستطيع البقاء في كروي .

ثم استعاد نفسه وتابع دفعة واحدة :

ـ اني آتٍ من هناك . وقد رأيته ، وجعلتـــه يعترف . واكتشفت اشياء محزنة . وجئت لأكلمك . من اللازم اخراجه من هناك بأسرع ما يمكن .

وظل السيد تيبو جامداً بضع ثوان ، ولم تُدرك دهشته إلا في صوته .

ـ انت ؟ في كروي ؟ انت ؟ متى ؟ لماذا ؟ دون ان تخبرني ، هــل انت مجنون ؟ اوضح .

ومع ان انطوان خفف عن نفسه لاجتيازه الحاجز من اول وثبة ، إلا انــه كان منحرف المزاج وغير قادر على الكلام . وساد صمت خانق . وكان السيد تيبو قد فتح عينيه ، إلا انهما انطبقتا بهدوء كأنه مرغم . وعندئذ جلس ووضع قبضتيه على المكتبة ، وقال مطرّقاً كل مقطع باحتفال :

ـ أوضح يا عزيزي . اقلت انك كنت في كروي ؟ متى ؟

ـ اليوم .

ـ كيف ؟ مع من ؟

ـ وحدي .

ـ هل . هل استقبلوك ؟

ـ بالطبع .

ـ هل .. تركوك ترى اخاك ؟

ـ قضيت النهار كله معه . وحدي معه .

كان لأنطوان طريقة مثيرة في إرنان آخر عباراته التي كانت تسوط غضب السيد تيبو ، ولكنها تنبئه ان هناك مجالاً ليكون متحفظاً . وصرح هذا كأنه تثبت من عمر انطوان من رنة صوته :

ـ لست ولداً . وعليك ان تدرك عدم اللياقة في إقدامك على خطوة كهذه بدون علمي . هل كان لديك سبب خاص للذهاب إلى كروي دون ان تقول لي؟ هل كتب اخوكَ إليك ؟ هل دعاك ؟

ـ كلا . لقد ساورتني الشكوك فجأة .

ـ شكوك ؟ حول ماذا ؟

ـ ولكن حول كل شيء . حول النظام ... حول تأثير النظام الخاضع له جاك منذ تسعة اشهر .

ـ بالحقيقة يا عزيزي ، لقد .. لقد فاجأتني .

وكان يتردد ويختار عبارات موزونة تناقضها يداه الكبيرتان المطبقتان وهزات رأسه إلى الأمام .

ـ عدم الثقة هذا ، هل هو بشأن والدك ؟

ـ كل الناس يمكن ان يخطئوا . والبرهان !

ـ البرهان ؟

ـ اسمع يا ابي ، لا فائدة من الغضب . اعتقد اننا كلانا نريد الشيء نفسه : خير جاك . وحين تعلم في أية حالة من الانحطاط وجدته فستقرر قبلي ان جاك يجب ان يترك الاصلاحية بأسرع وقت .

ـ هذا ، كلا .

وبذل انطوان جهده لئلا يسمع ضحكة السيد تيبو .

ـ بلى يا ابي .

ـ قلت لك : لا !

ـ حين تعرف يا ابي ..

ـ هل تعتبرني أبله ؟ هل تفترض انني كنت انتظر معلوماتك لأعرف ما يجري في كروي ، وانا أجري ، منذ عشر سنوات ، تفتيشاً عاماً في جميع الاشهر يتبعه تقرير ؟ وحيث لا يقرر شيء قبل مناقشته اولاً في اجتماع مجلس الإدارة الذي انا رئيسه ؟

ـ ان ما رأيته هناك يا ابي ..

ـ كفى . لقد استطاع اخوك ان يلقي عليك جميع الاكاذيب التي ارادها؛ انه يحتال عليك ، اما معي فسيكون امر آخر .

ـ جاك لم يشك من شيء .

ـ حسناً ، إذن ؟

ـ بالعكس ، وهذا اخطر ما في الأمر : لقد قال انه مرتاح البال ، وقال ايضاً انه سعيد ، وانه راض هناك .

وحين اسمعه السيد تيبو ضحكة راضية قال انطوان بلهجة جارحة :

ـ ان للصغير المسكين ذكريات عن حياة العائلة تجعله يفضل سجنه .

ولم تصب الاهانة هدفها .

ـ حسناً . هذا جيد ، ونحن متفقان . ماذا تريد غير ذلك ؟

لم يكن انطوان متأكداً من الحصول على حرية جاك ليكشف للسيد تيبو كل ما عرفه من اعترافات الولد ؛ وعزم على الاقتصار على شكاوى عامة واخفاء الباقي . وبدأ بان القى على السيد تيبو نظرة منتبهة .

ـ اريد ان اقول لك الحقيقة يا ابي . كنت ارتاب بوجود حرمان ، ومعاملة سيئة ، وسجون هناك . نعم انا اعلم ان لا شيء من هذا له اساس لحسن الحظ ، ولكني تأكدت من وجود بؤس اخلاقي في حياة جاك اسوأ بمئة مرة . انهم يخدعونك حين يقولون لك ان العزلة تفيده . فالدواء اشد خطراً من الداء . وايامه تنقضي في بطالة مفسدة . واستاذه ، دعنا من الكلام عنه : الحقيقة ان جاك لا يفعل شيئاً. وبدا ظاهراً ان ذكاءه اصبح غير قادر على بذل اقل جهد. وإطالة أمد التجربة ، صدقني ، تعني تعريض المستقبل للخطر . لقد سقط في حالة من اللامبالاة ، واصبح من الضعف بحيث لو ظل عدة اشهر ايضاً في هذا الخمود لأصبح الوقت متأخراً في اعادة العافية اليه .

لم يرفع انطوان نظره عن والده ؛ وكان يبدو انه يرمي بكل ثقل نظرته على ذلك الوجه الجامد ليجري فيه ألق الرضا . والسيد تيبو المنكمش على نفسه كان يحتفظ بجمود ثقيل ! انه يبعث على التفكير بالحيوانات السميكة الجلد التي تبقى قوتها مخبأة ما دامت في حالة الراحة ؛ وكان له من الفيل الاذنان العريضتان المسطحتان ، والعين المحتالة ايضاً . وقد طمأنه دفاع انطوان . فقد حدثت في الماضي بعض الفضائح في المؤسسة ، بعض المراقبين الذين وجب تسريحهم دون افشاء اسباب طردهم . وكان السيد تيبو خائفاً للحظة ان تكون

افشاءات انطوان من هذا النوع ؛ وتنفس الصعداء ، وقال بهيئة مفرطة بالبساطة :

– أتعتقد انك اخبرتني شيئاً ؟ ان كل ما قلته يكسب كرم نفسك شرفاً يا عزيزي : ولكن اسمح لي ان اقول لك بكل وعي ان هذه القضايا عن الاصلاح معقدة جداً . وان الطاقات لا ترتجل في هذه المواد بين اليوم والغد . آمن بتجربتي وبتجربة ذوي الاختصاص . وتقول : ضعف وخمود . الحمدلله ! انت تعرف ما يساوي أخوك ؛ أتعتقد ان بالامكان سحق ارادة للعمل السيء كهذه دون اخضاعها أولاً ؟ باضعاف الولد الفاسد بمقدار ، نضعف غرائزه السيئة ، وعندئذ يمكن الوصول إلى نتيجة : ان التطبيق العملي هو الذي يعلمنا ذلك. وانظر : ألم يتغير أخوك ؟ انه لم يعد يغضب ؛ وهو خاضع للنظام ، مهذب مع من يقترب منه . وانت نفسك قلت انه توصل إلى محبة النظام ، وانتظام حياته الجديدة . هيه ! ولكن أليس هناك مجال للفخر بنتيجة كهذه ، وفي اقل من سنة ؟

كان يشد بين اصابعه المضمومة رأس لحيتـه ، وحين انتهى القى على ولده نظرة منحرفة . وكان اللسان الجهوري الصوت ، والإلقاء بجلال قد اكسبا اقل أقواله مظهراً من القوة ؛ وكان من عادة انطوان ان يتيح لوالده فرض سلطته عليه ، وان يضعف في دخيلة نفسه . ولكن السيد تيبو اقترف حماقة كبرياء :

– إلا اني اتساءل لماذا اهتم بالدفاع عن صلاح عقوبة لم تكن موضع بحث ولن تكون . اني افعل ما اعتقد ان من واجبي ان افعله ، بكامل الوعي ، وليس علي ان اقدم حساباً لأي كان ، واعتبر الامر منتهياً يا عزيزي .

– ليست هذه هي الوسيلة لإسكاتي يا ابي ! اني اكرر عليك ان جاك لا يستطيع البقاء في كروي .

فضحك السيد تيبو من جديد ضحكة صغيرة لاذعة . وبذل انطوان جهداً ليظل مالكاً نفسه وقال :

– كلا يا ابي . ان إبقاء جاك هناك جريمة . ان فيه قيمة يجب ألا ندعها تضيع . دعني أقول لك يا أبي : لقد كنت في الغالب مخطئاً حول طباعه : انه

يزعجك ، ولم تر ....

ــ ما هو الذي لا أراه . اننا لم نعش مرتاحين هنا إلا منذ رحيله . أصحيح هذا؟ حسناً، سننظر في أمر إعادته عندما يصلح. ومن الآن حتى ذلك الوقت...

وارتفعت قبضته كأنه سيسقطها بكل ثقلها ؛ ولكنه فتح يده ووضعها بهدوء مفتوحة على المكتب . وكظم غيظه . وانفجر غضب انطوان فقال :

ــ اتمهد لك بأن جاك لن يبقى في كروي يا ابي .

فقال السيد تيبو بنبرة هازئة :

ــ اوه ! اوه ! ألم تسرع في النسيان بانك لست السيد يا عزيزي ؟

ــ كلا . لم أنس ذلك . واني أسألك أيضاً : ماذا تنوي أن تفعل ؟

فتمتم السيد تيبو ببطء ، وابتسم ابتسامة باردة ، وفتح جفنيه لحظة :

ــ انا ؟ ليس في ذلك شك : أوبخ السيد فاييسم بشدة لأنه استقبلك دون اذن مني ، ومنعك الى الابد من دخول المستعمرة .

فشبك انطوان ذراعيه وقال :

ــ اذن ، نشراتك ومحاضراتك ! وكل أقوالك الجميلة ! في المؤتمرات ، نعم ! ولكن امام ذكاء يصاب بالتلف ، ذكاء ابن ، فليس له حساب : لا لزوم للتعقيدات ، العيش بهدوء وليحدث ما يحدث .

فصرخ السيد تيبو ووقف :

ــ دجال ! آه ! هذا كان يجب أن يحصل ! لقد كنت أراك تأتي منذ وقت طويل . بعض الكلمات تتفلت منك على المائدة ، «كتبك» ، «صحفك» .. برودتك في اتمام واجباتك .. لقد استقر كل شيء : اهمال المبادىء الدينية ، والفوضى الاخلاقية بعد ذلك ، والانتهاء بالتمرد .

فهز انطوان كتفيه وقال :

ــ يجب ألاّ نعقد الامور . ان الامر يتعلق بالصغير ، وهذا أمر معجل ، عدني يا أبي ان جاك ...

ــ إني امنعك من التحدث عنه بعد الآن . هل الامر واضح هذه المرة ؟

وتطلعا ببعضها البعض :

– اهذه هي كلمتك الاخيرة ؟

– اذهب .

فتمتم انطوان مع ضحكة ملأى بالتحدي :

– آه ، يا أبي . انت لا تعرفني . اقسم لك ان جاك سيخرج من هذا السجن! وان لا شيء ، لا شيء يوقفني .

فمشى الرجل الكبير بعنف مباغت نحو ولده وهو مضموم الفك :

– اذهب .

وكان انطوان قد فتح الباب ، والتفت على العتبة ليقذف بصوت بهيم :

– لا شيء ! ولو اضطررت الى ان اقود بنفسي معركة جديدة في«صحفي».

٥

وفي الغد ، وفي ساعة مبكرة ، كان انطوان الذي لم تغمض عيناه ينتظر في سكرستيا الاسقفية انتهاء الاب فيكار من قداسه . يجب أن يعرف الكاهن بكل شيء ويستطيع التدخل . ولم يكن لجاك حظ آخر .

كان الحديث طويلاً . وكان الكاهن قد اجلس الشاب قريباً منه ، كما في عملية اعتراف . وكان يصغي اليه بجميع حواسه ، نصفه الاعلى إلى الوراء ، والرأس منحن على الكتف الايسر حسب عادته . ولم يقاطعه مرة . اما وجهه الذي لا لون له ، ذو الانف الطويل ، فلم يكن معبراً ابداً . ولكن بين لحظة وأخرى كان يلقي على انطوان نظرة عذبة ، ملحّة ، تحاول فهم ما وراء الكلام . ومع ان اختلاطه بأنطوان كان أقل من اختلاطه باعضاء العائلة الآخرين ، فقد كان يظهر له اعتباراً خاصاً ؛ والمؤثر في ذلك هو انه كان متأثراً بالسيد تيبو الذي كان زهوه حساساً جداً بنجاحات انطوان ، وكان يسر بإطراء ولده .

لم يحاول انطوان ان يقنع الكاهن ببراهين ماهرة ؛ بل سرد عليه القصة المفصلة للنهار الذي قضاه في كروي والذي انتهى بالمشادة مع والده ، حيث

لامه الكاهن بسببها دون ان يقول كلمة ، بل بحركة باليدين ذات دلالة ، اذ أبقاهما مرفوعتين على علو الصدر ـ يدا حبر . وسقط معصماهما المستديران باسترخاء ، وبدون ان يغيرا مكانهما انتعشا فجأة كأن الطبيعة احتفظت لهما بخاصة التعبير هذه ، ورفضت هذه الخاصة للوجه . وختم انطوان كلامه :

ــ ان مصير جاك الآن بين يديك يا سيدي الأب ، فأنت وحدك تستطيع ان تقود والدي الى الصواب .

ولم يجب الكاهن ، ولفت نحو انطوان نظراً كثير العبوس ، كثير الذهول ، بحيث لم يعرف الشاب بماذا يفكر . وعندئذ شعر بضعفه ، وبالصعوبات التي لا يمكن التغلب عليها لما شرع به . وقال الاب بلطف : وبعد ؟

ــ وبعد ؟

ــ افترض ان أباك استدعى جاك الى باريس ، ماذا سيفعل به بعد ذلك ؟

فاضطرب انطوان . لقد كان لديه مشروعه ، ولكنه لم يكن يعرف كيف يعرضه ، ما دام يبدو من الصعب قبول الكاهن بالمبدأ : ترك البيت العائلي ، والسكن مع جاك في الطابق الأرضي من منزلهما ؛ وإنقاذ الولد نهائياً تقريباً من السلطة الأبوية ؛ وأن يقوم هو وحده بتربيته ، ومراقبة عمله ، والسهر على سلوك أخيه الصغير . هذه المرة لم يستطع الكاهن أن يمنع نفسه من الابتسام ، ولكن ابتسامته كانت دون سخرية :

ــ بهذا ستقوم بأعباء مهمة ثقيلة جداً يا صديقي .

فقال انطوان بحرارة :

ــ آه ! انا مقتنع تمام الاقتناع ان هذا الصغير بحاجة الى حرية كبيرة جداً ! وانه لن ينمو أبداً في حالة الضغط ! إهزأ مني يا سيدي الاب ولكنني أظل مقتنعاً انني لو كنت حقيقة وحدي مهتماً به .

ولم يحصل من الكاهن إلا على هزة رأس جديدة متبوعة باحدى نظراته الثابتة النافذة التي تبدو انها آتية من مكان بعيد جداً وتنفذ مقدماً . وذهب بائساً : فبعد رفض أبيه العنيف ، فان استقبال الكاهن المتراخي لم يترك له أي

أمل . وكان سيصاب بالدهشة لو علم ان الكاهن صمم على الذهاب في اليوم نفسه الى السيد تيبو .

لم يكن عليه أن يزعج نفسه .

فحين عاد إلى البيت كما كان يفعل كل صباح بعد القداس ، ليشرب فنجاناً من الحليب البارد في الشقة التي يشغلها مع أخته على بعد خطوتين من الاسقفية ، شاهد السيد تيبو الذي كان ينتظره في قاعة الطعام . وكان الرجل الكبير مسترخياً على كرسي ، ويداه على فخذيه ، ولا يزال كاظماً غيظه . ووصول الأب جعله ينهض . وقال :

ـ ها انت أتيت . اتفاجئك زيارتي ؟

فأجاب الكاهن :

ـ ليس بقدر ما تفترض .

بين لحظة واخرى كانت ابتسامة خفية ، أو ألق مـا كر من النظرة يضيء وجهه الهادىء . وأضاف وهو يقترب من الطاسة التي تنتظره على الطاولة :

ـ ان شرطتي مكونة بشكل جيد : فأنا على عـلم بكل شيء . أتسمح ؟

ـ على علم ؟ هل رأيت قبلاً ؟

كان الاب يشرب حليبه بجرعات صغيرة :

ـ عرفت منذالبارحة حالة استيه *Astier* من الدوقة . ولكني لم أعلم بتراجع خصمك سوى البارحة .

ـ حالة أستيه ! هل ؟ لا أفهم . لا أعرف شيئاً .

فقال الكاهن :

ـ غير ممكن . هل احتـُفظ لي بلذة إبلاغك الخبر السار ؟ ـوسكت لحظةـ حسناً ، ان الأب الهرم أستيه قد تعرض لهجوم رابع: لقد ضاع الرجل المسكين هذه المرة . وعندئذ، فالعميد ليس بالأبله، وسينسحب ويتركك وحدك مرشحاً للعلوم الأخلاقية .

فتمتم السيد تيبو :

ـ العميد ... ينسحب ؟ ولكن لماذا ؟

ـ لأنه فكر ان عميداً لكلية الآداب سيكون أفضل في مكانه في التسجيلات، وانه يفضل انتظار مقعد لا ينازعه عليه أحد بضعة أسابيع على المجازفة بحظه ضدك.

ـ أمتأكد انت من ذلك ؟

ـ هذا شيء رسمي . فقد التقيت بالسكرتير الدائم في اجتماع للمجمع الكاثوليكي ، البارحة مساءً . وجاء العميد يحمل بنفسه كتاب التنازل . انه ترشيح دام أقل من أربع وعشرين ساعة !

ـ ولكن ، إذن ...

دندن السيد تيبو بسرعة ، وقد بهرته المفاجأة والفرح ، فخطا بضع خطوات كيفما اتفق ، وذراعاه وراء ظهره ، ثم جاء إلى الكاهن وكاد يمسك بكتفيه ، ولكنه أخذ يده فقط .

ـ آه ! يا عزيزي الرئيس ، لن أنسى أبداً . شكراً . شكراً .

لقد دخل إلى نفسه من السرور ما طغا على كل شيء ؛ وحاد غضبه عن الطريق إلى درجة انه اضطر إلى الاستعانة بذاكرته ليجيب حين قاده الكاهن بدون ان ينتبه إلى مكتب عمله وسأله بنبرة طبيعية جداً :

ـ اذن ما الذي اتى بك في مثل هذه الساعة المبكرة يا صديقي العزيز ؟

عندئذ تذكر انطوان ، واستعاد حدته دفعة واحدة . لقد جاء يطلب نصيحته في السلوك الواجب اتخاذه حيال ولده البكر الذي تغير كثيراً في هذه الاوقات الاخيرة ، ويُحَس بانه يعمل بروح من الشك والتمرد . هل هو مستمر في اتمام واجباته الدينية ؟ هل يحضر قداس يوم الاحد ؟ ان ظهوره يقل اكثر فأكثر على مائدة العائلة بحجة مرضاه ، وحين يظهر على المائدة تكون هيئته غير ما كانت في السابق : يقف بوجه والده ، ويسمح لنفسه بحريات في الرأي خارقة للعادة . ان المناقشة اثناء الانتخابات البلدية الاخيرة اتخذت عدة مرات اتجاهاً عنيفاً بحيث اضطر الى فرض الصمت عليه كأنه ولد . وبالاختصار ، اذا أريد إبقاء انطوان في الطريق القويم فمن الضروري اتخاذ ترتيبات جديدة

بصدده ، بحيث بدت مساندة ، وربما تدخل ، الاب فيكار لاغنى عنها . وحكى السيد تيبو ، كمثل ، عن العمل المخالف للنظام ، والذي جعل من انطوان مذنباً بذهابه الى كروي ، وعن الاوهام الرعناء التي حملها من هناك ، والمشهد الذي لا يوصف الذي عقب ذلك . وفي كل مرة ، فان الاعتبار الذي يكنـّه لانطوان، والذي ازداد دون معرفته بواسطة هذه الاستقلالية التي يلومه عليها ، ظل محسوساً من خلال كلامه ؛ وقد لاحظه الكاهن .

كان جالساً باسترخاء على مكتبه ، ويعطي بين وقت وآخر اشارات استحسانية صغيرة بيديه المرفوعتين على جانبي قطعة النسيج المتدلية من عنقه . ولكن ما ان اصبح الامر يتعلق بجاك حتى رفع رأسه وتضاعف انتباهه . وبسلسلة من الاسئلة الماهرة التي لا يُدرك الرباط بينها تأكد بواسطة الاب من جميع المعلومات التي حملها اليه الابن

ــ ولكن .. ولكن .. ولكن ..

قال ذلك كأنه يحدث نفسه . وجمع افكاره لحظة . وكان السيد تيبو ينتظر مندهشاً . وأخيراً تناول الكاهن الكلام بعزم :

ــ ان ما جئتني به عن موقف انطوان لا يشغلني مثلك يا صديقي العزيز . وكان يجب أن تنتظر ذلك . فالتأثير الأول للدراسات العلمية على ذكاء مولع بالنظر الى الأشياء وهاوٍ للاستقصاء ، هو تحرك الكبرياء وزعزعة الايمان ؛ قليل من العلم يبعد عن الله ؛ والكثير يقود اليه . لا تخف . ان انطوان في السن الذي يسرع المرء فيه من طرف إلى آخر . لقد أحسنت صنعاً بإعلامي : وسأعمل بنوع ان أراه كثيراً وأتحدث معه . كل هذا ليس بالأمر الخطير ، فاصبر : انه سيعود إلينا . ولكن ما أخبرتني عن حياة جاك زاد من قلقي . كنت بعيداً عن الافتراض بأن عزلته ستكون قاسية إلى هذا الحد ! انها حياة سجين تلك التي يحياها هناك ! ولا أستطيع الاعتقاد انها دون خطر . اني أعترف يا صديقي العزيز بأنني مضطرب جداً بسببه . فهل فكرت في ذلك ؟

فابتسم السيد تيبو وقال :

ـ بموجب ضميري يا عزيزي الرئيس ، سأقول ما أجبت به انطوان البارحة : هل تفترض انه ليس لدينا تجربة في هذه الأمور أفضل من أي شخص ؟

فقال الكاهن دون أية حدة :

ـ لا أنكر ذلك . ولكن الاولاد الذين اعتدتم على رعايتهم لا يحتاجون كلهم المداراة التي يحتاجها المزاج الخاص لولدك . ونظامهم يختلف ، إذا كنت فهمت جيداً ، لأنهم يعيشون معاً ، ولهم ساعات تنفس ، ويتمرنون على أشغال يدوية . وكنت ، كما تذكر ، ميّالاً إلى إنزال عقوبة قاسية بجاك ، وتلك الصورة لعقوبة العزلة بدت لي حسنة لحمله على التفكير ، وعلى اصلاح نفسه . ولكن ، يا للشيطان ، لم أفكر مطلقاً بأن ذلك سيكون سجناً حقيقياً ، ولا انه سيفرض لوقت طويل . فكّر بذلك ! منذ تسعة أشهر ، ولد لا يكاد يبلغ الخامسة عشرة ، وحيد في زنزانة ، تحت مراقبة حارس غير متعلم ، ولا تملك عن شرفه سوى معلومات رسميـــة . انه يتلقى بعض الدروس ، ليكن ؛ ولكن ذلك الأستاذ من كومبيانيه ، والذي يخصص له ثلاث أو أربع ساعات بالأسبوع كله ، ما قيمته ؟ لا تعرف شيئاً عنه . ومن ناحية أخرى تحتج بتجربتك . فاسمح لي بالتذكير انني عشت اثنتي عشرة سنة مع الطلاب وانني لا أجهل أبداً ما هو غلام في الخامسة عشرة من سنه . ان حالة التلف الجسدي ، وخصوصاً الأخلاقي ، التي يمكن أن ينحدر إليها هذا الصغير المسكين ، تبعث على الارتعاش ، دون أن يبدو ذلك لعينيك !

فأجاب السيد تيبو :

ـ انت أيضاً ؟

وأضاف بضحكة صغيرة جافة :

ـ كنت أظنك ذا روح أكثر متانة . ومع ذلك فالأمر الآن لايتعلق بجاك.

فقاطعه الكاهن دون أن يرفع صوته :

ـ في نظري ، لا يمكن للأمر ان يتعلق بشيء آخر . اني أعتبر ، بعد الذي عرفته ، ان الصحة الجسدية والأخلاقية لهذا الولد تتعرض لأشد الأخطار .

وبدا مفكراً ثم قال بسرعة :
ــ وانه يجب ألا يبقى يوماً واحداً هناك حيث هو .
فقال الآخر : ماذا ؟
وساد صمت . لقد كانت المرة الثانية التي يُضرب فيها السيد تيبو على النقطة الحساسة . واجتاحه الغضب ولكنه ملك نفسه ، وقال محيياً وهو يقف :
ــ سنتكلم في ذلك .
فقال الآخر بحيوية غير منتظرة :
ــ عفواً ، عفواً ان أقل ما يمكن قوله هو انك تصرفت بعدم تبصر .. مذنب تماماً .
كان له أسلوبه الثابت العذب في مد صوته على بعض الكلمات دون أن ينتمش وجهه ، وفي إيقاف سبابته في الوقت نفسه أمام شفتيه كأنه يقول : انتبه : وهذا ما فعله حين ردد : « مذنب تماماً » . ثم قال بعد وقفة :
ــ المقصود اصلاح الأذى في أقرب وقت ممكن .
فصرخ السيد تيبو الذي لم يستطع امتلاك نفسه هذه المرة :
ــ ماذا ؟ ماذا تريد مني ؟
وأدار نحو الكاهن انفاً هجومياً وقال :
ــ أأقطع دون سبب علاجاً اعطى نتائج ممتازة فيما مضى ؟ أأعيد ذلك الشقي إلى بيتي لأكون من جديد تحت رحمة جنونه ؟ شكراً !
وشنج قبضتيه الى درجة فرقعة مفاصلها . وفكه المضموم جعل له صوتاً أبح :
ــ أقول بكل ضمير مرتاح : كلا ، كلا ، كلا !
وبحركة هادئة من يديه بدا الكاهن انه يقول : كما تشاء .
وكان السيد تيبو قد نهض بوثبة . وكان مصير جاك قد تقرر مرة أخرى . وقال :
ــ أيها الأب العزيز . أرى انه ليس لدي ما أتحدث عنه جدياً معك هذا

الصباح ، وأنا ذاهب . ولكن دعني أقول لك انك ركبت المخيلة كأنطوان لا أكثر ولا أقل . فهل تدل هيئتي على أبٍ خالٍ من العواطف الطبيعية ؟ ألم أفعل كل شيء لأوصل هذا الولد إلى الخير بواسطة المحبة ، والتساهل ، والمثل الصالح ، وتأثير الحياة العائلية ؟ ألم أحتمل منه طوال سنوات كل ما يستطيع والد احتماله من ولده ؟ أتنكر ان كل حسناتي ظلت دون نتيجة ؟ من حسن الحظ انني أدركت في الوقت المناسب ان واجبي كان شيئاً آخر ، ومهما بدا لي مؤلماً ، فإني لم أتردد في العقاب . وقد استصوبت رأيي آنذاك . وكان الله قد منحني بعض التجربة. وكنت دائماً افكر أن العناية الإلهية ، بإيحائها إلي فكرة تأسيس ذلك البيت الخاص في كروي، أتاحت لي تهيئة الدواء لشخص سيء. ألم أعرف أن أتقبل هذه التجربة بشجاعة ؟ وهل يتصرف كثير من الآباء مثلي ؟ وهل لدي ما ألوم نفسي عليه ؟ ان ضميري مرتاح بحمد الله .

قال ذلك مؤكداً ، بينما كان احتجاج مبهم يخفي صوته قليلاً :

ـ أتمنى لجميع الآباء أن يكون ضميرهم مرتاحاً مثلي ! وهنا ، فأنا ذاهب .

وفتح الباب: وظهرت ابتسامة كافية على وجهه ، واتخذت لهجته لحناً ساخراً لم يكن دون طعم ويُشعر برائحة الحقل النورماندي . وقال :

ـ من حسن الحظ ان رأسي أكثر متانة من رؤوسكم جميعاً .

واجتاز الدهليز يتبعه الكاهن صامتاً . وحين اصبح على سطح الدرج قال بخلوص نية :

ـ هيا ، إلى اللقاء يا عزيزي .

والتفت ليصافح باليد حين بدأ الكاهن بصوت مفكر ، وفجأة ، بدون استهلال :

ـ صعد رجلان إلى الهيكل للصلاة . أحدهما كان فريسياً والآخر عشاراً. فالفريسي ظل واقفاً وتلا هذه الصلاة في نفسه : « يا إلهي ، أشكرك لأنني لست كبقية الرجال . أصوم مرتين بالاسبوع واوزع عشر اموالي على الفقراء ». أما العشار ، من ناحيته ، فقد انتحى جانباً ولم يجرؤ على رفع عينيه نحو السماء ،

ولكنه كان يضرب على صدره قائلاً: «ارحمني ياإلهي لأنني لست سوى خاطىء».

وفتح السيد تيبو جفونه فرأى مرشده واقفاً في ظلام الدهليز رافعاً سبابته إلى شفتيه :

« اؤكد لكم ان هـــذا سينال البراءة وليس الآخر : لأن من يرتفع يذل، ومن يذل يرتفع » .

وتلقى الرجل الكبير الصدمة دون ان يحرك حاجبيه؛ وظل جامداً وعيناه مطبقتان . وحين طال السكوت جازف بنظرة ثانية ؛ كان الكاهن قــد دفع المصراع دون ضجة ، ووجد السيد تيبو نفسه وحيداً أمام الباب المغلق ، فهـز كتفيه ودار على نفسه وذهب . ولكنه وقف في منتصف الطابق . كانت يـده تشد على الدرابزين ، وكان تنفسه قصيراً ؛ ومد ذقنه إلى الأمام كحصان يتعجل الكمامة ، وتمتم : كلا . وعاد إلى بيته دون ان يزيد من تردده .

وسعى جاهداً طول النهار لينسى ما جرى . ولكنه في فترة ما بعدالظهر ، وحين تأخر السيد شاسل في اعطائه ملفاً كان بحاجة إليه ، أحسّ بفورة فجائية بذل جهداً لكبحها . كان انطوان في الخدمة في المستشفى. وكان العشاء صامتاً. وبدون أن ينتظر انتهاء جيزيل من طعامهـا ، طوى السيد تيبو منشفته وسار إلى مكتبه . ودقت الساعة الثامنة ، فقال مفكراً وهو يجلس ، عازماً على ألا يفعل شيئاً :

ـ لا يزال لدي الوقت الكافي لأعود هذا المساء إلى هناك . وسوف يحدثني عن جاك من جديد . وقد قلت كلا يعني كلا .

وتساءل للمرة المئة :

ـ ولكن ما الذي أراد أن يقوله بحكايته عن الفريسي ؟

وفجأة ، أخذت شفته السفلى ترتجف . كان السيد تيبو يخشى الموت دائماً . فانتصب واقفاً ، ومن فوق البرونز الذي يزحم الموقد ، بحث عن صورتـــه في المرآة . لقد فقدت قسماته تلك الطمأنينة الراضية التي قولبت وجهه شيئاً فشيئاً،

والتي لم يكن يتخلى عنها أبداً ، لا في العزلة ولا في الصلاة . وهزته رعشة ، وسقط على مقعده منخفض الكتفين . واخذ يتصور نفسه على فراش الموت ويتساءل برعب اذ كان سيمثل امامه فارغ اليدين . كان يتعلق بشكل يائس بآراء الناس فيه . وكان يردد : « ومع ذلك ، فانا رجل خير ؟ » ولكن النبرة ظلت استفهامية ؛ انه لا يستطيع الاكتفاء بالكلمات حيث فحص النفس يهبط الى وحدات لم تنر أبداً بعد . وكان منحنياً على حياته ، وقبضتاه متشنجتان على ذراعي مقعده ، فلم يكتشف فيها عملاً كان نقياً . وانبعثت من غيابة النسيان تذكارات واخِزَة . وهناك احدها ، وهو اكثر إيلاماً من التذكارات الاخرى كلها ، هاجمه بدقة كثيرة العنف بحيث اخذ جبهته بين يديه . وشعر السيد تيبو بالخجل ربما للمرة الاولى في حياته . لقد عرف أخيراً هذا التقزز المتناهي من من النفس ، والذي لا يحتمل بحيث ان أية تضحية لا تبدو غالية الثمن ، بشرط أن يكون فيها اعادة اعتبار ، وان يشتري العفو الالهي ، وان يعيد السلام إلى النفس الحزينة ، والامل بالسلامة الأبدية . آه ! ايجاد الله من جديد .. ولكن أولاً ايجاد اعتبار الكاهن المنتدب عن الله . نعم .. لن يعيش ساعة واحدة بعد في هذه العزلة الملعونة ، وتحت وطأة هذا التبكيت ..

وهدأه الهواء الطلق ، فأخذ عربة ليصل بسرعة . وجاء الأب فيكار يفتح له ؛ ووجهه المضاء بالقنديل الذي رفعه ليتعرف إلى الزائر كان عادم التأثر وقال السيد تيبو : هذا أنا .

ومد يده بصورة آلية ، وصمت وسار نحو غرفة الشغل ، وصرح دفعة واحدة حين جلس :

— لم أرجع لإعادة الحديث عن جاك .

وبما ان يدي الكاهن رسمتا حركة تميل إلى المصالحة قال :

— صدقني . يجب ألا نعود إلى ذلك . لقد سرت في الطريق الخطأ . ومع ذلك ، إذ قال لك قلبك أن تسير إلى كروي فسر وتأكد ، وسترى اني على

حق . — ثم قال بمزيج من العنف وسلامة النية — اغفر لي مزاجي السيء هـذا الصباح . انت تعرفني . أنا حاد ... وأنا لا .... ولكني في اعمـاقي ... ذلك لأنك كنت قاسياً مع ذلك الفريسي ، وأنت تعلم ، كنت قاسياً جداً . لي الحق بالاعتراض . وها قد مضت ثلاثون سنة وأنا اعطي وقتي كله وقواي كلها للاعمال الكاثوليكية ، والأفضل من ذلك ، القسم الأكبر من دخلي . فهل أفعل كل ذلك لأسمع كاهناً ، صديقاً ، يقول لي انني ... انني لا .... كلا ، إعترف بأن هـذا ليس عدلاً !

ونظر الكاهن إلى التائب ، وبدا أنه يقول : « ان الكبرياء تتفجر في أقـل كلماتك رغماً عنك » . وتوقف طويلاً ، وتابـع السيد تيبو بنبرة مضطربه :

— يا عزيزي الرئيس . اني أقبل بـأنني لم أكن... جـبناً ، نعم ، اني اقتنع : في اغلب الاحيان أكون... ولكنها طبيعتي إذا صح القول ... ألا تعرف كيف أنا ؟ — كان يتسول شيئاً من التساهل — آه ! ان طريـق الخلاص صعب . انت الوحيد القادر على إقالة عثرتي وهدايتي ... لقد كبرت ، وأنا أخاف ...

هكذا تمم فجأة ، وتأثر الكاهن من تبدل هذا الصوت . وشعر ان من الواجب ألا يطيل سكوته ، فأدنى مقعده وقال :

— أنا الذي أتردد الان ... ومع ذلك يا صديقي العزيز ، ماذا أقـول زيادة على ذلك بعد ان دخل الكلام المقدس مسبقاً ؟ — وجمع افكاره لحظة — اني اعلم ان الله اعطاك مركزاً صعباً . وبعملك في سبيله اكتسبت السلطة على الرجـال وحصلت على الشرف . ويجب ذلك ؛ ولكن كيف لا يمتزج مجده قليلاً بمجدك ؟ وكيف لا تخضع لميلك الى تفضيل مجدك على مجده تدريجياً ؟ اني اعلم جيدا ...

كان السيد تيبو قد فتح عينيه ولم يطبقهما ؛ وكانت لنظراتـه الشاحبة تعبير خائف ، وفي الوقت نفسه طفولي وبريء . وتابـع الاب :

— ولكن مع ذلك . « في سبيل مجد الرب الأعظم [١] » . هذا وحده المهم ،

---

١ ـ عبارة لاتينية في الاصل .

وكل ما بقي فهو غير صالح. وانت يا عزيزي من عرق الأقوياء، يعني المتكبرين. وانا اعلم كم من المزعج إبقاء هذه القوة المتكبرة في الطريق القويم ! وكم من الصعب ألا يعيش المرء لنفسه ، وان لا ينسى الله ، حتى عندما يكون منشغلاً بأعمال الخير ! وألا يكون بين اولئك الذين قال عنهم ربنا بكآبة ذات يوم : « هذا الشعب يمجدني بشفتيه ، ولكن القلب بعيد جداً عني ».

فقال السيد تيبو بحماسة دون ان يخفض رأسه :

— آه ! هذا مخيف... انا الوحيد الذي اعرف الى اية درجة هو مخيف !

وشعر بسكينة لذيذة في خشوعه . وشعر بشكل مبهم انه يستطيع بذلك استمالة الكاهن ثانية دون ان يخضع لشيء حول قضية الاصلاحية . وكانت هناك قوة تدفعه لأن يزيد من مفاجأة الكاهن بعمق ايمانه ، وبعرض اريحية غير منتظرة : اغتصاب اعتباره ولا يهم بأي ثمن . وقال فجأة ، وكان لنظرته ، لفترة ، ذلك لتعبير المشؤوم الذي تتخذه عادة نظرة انطوان :

— ايها الاب الرئيس ! اذا لم اكن حتى الآن سوى متكبر بائس ، الم يقدم لي الله اليوم فرصة للاصلاح ؟

وتردد ، وبدا انه يصارع نفسه . كان يصارع بالفعل . ورآه الكاهن يرسم بابهامه اشارة صليب مربعة على صدرته ، مكان القلب . وتابع :

— اريد ان اقول هذا الترشيح ، افهمت ؟ فيه حقيقة تضحية ، وتضحية كبرياء ، ما دمت قد اخبرتني هذا الصباح ان الانتخاب مؤكد . حسناً ، فإني .... لا يزال يوجد هنا شيء من الصلف : اليس علي ان اصمت ، وان اقوم بذلك دون اتكلم عنه معك ؟ ولكن لا يهم . حسناً ايها الاب الرئيس : اني اقسم ان اسحب غدا ، والى الابد ، ترشيحي للمجمع .

فأتى الكاهن باشارة من يده لم يرها السيد تيبو لانه كان يلتفت نحو المصلوب المعلق في الجدار . وتمتم :

— يا الهي ! اشفق علي لأنني لست سوى خاطىء .

ووضع في هذه الحركة بقية من عجرفة لا يرتاب هو نفسه بها ؛ ان للكبرياء

جذورا ، بحيث انه في أحر ندامة يتذوق خشوعه بمتعة مدهشة من الكبرياء . وشمله الاب الرئيس بنظرة ثاقبة : الى اية درجة يمكن لهذا الرجل ان يكون صادقاً ؟ الا ان وجه السيد تيبو في تلك الدقيقة كان يتألق بالزهد والافراط في التعبد الى درجة ان انتفاخاته وغضونه لم تعد تُرى ، والى درجة انه كان لوجه هذا الهرم طهارة وجه طفل . واضطرب الكاهن من ذلك وشعر بخجل من السرور الحقير الذي انتابه في الصباح وهـــو يخزي العشّار الكبير . وانقلبت الادوار . واخذ يراجـــع حياته الخاصة . فهل ترك تلامذته بمثل تلك السرعة واكتسب في الاسقفية هذا المركز بقرب الشمس ، لمجد الله وحده ؟ الم يكن يستخلص كل يوم مسرةً شخصية محرمة وهو يمارس نعومة الدبلوماسي الـــتي وضعها في خدمة الكنيسة ؟

ــ هل تعتقد ضميرياً ان الله سيعفو عني ؟

هذا الصوت القلق ذكر الاب فيكار بوظيفته كمرشد روحي .فضم يديه تحت ذقنه ، وحنى رأسه وابتسم بجهد ، وقال :

ــ لقد تركتك تسير حتى النهاية . وتركتك تشرب الكأس. وانا متأكد ان الرحمة الإلهية ستهتم بك في هذه الساعة. ولكن ــ وأضاف رافعاً سبابته ــ النية تكفي ، وواجبك الحقيقي ليس في السير في التضحية حتى النهاية . لا تعترض. هذا انا ، معرّفك ، الذي يحلك من تعهدك . بالحقيقة ، ان تنازلك سوف يكون اقل فائدة لمجد الله من انتخابك. ان لوضعك العائلي والمالي متطلبات لا تستطيع تجاهلها. ولقب عضو المجمع هذا سيمنحك سلطة جديدة بين كبار الجمهوريين من اقصى اليمين الذين هم خلاص بلادنا. ونعتبر ذلك ضرورياً للقضية الصالحة . وقد عرفت في كل وقت ان تضع حياتك تحت وصاية الكنيسة . حسناً ، دعها مرة اخرى تدلك على الطريق ، بواسطتي. ان الله يرفض تضحيتك يا صديقي العزيز: مهما كان ذلك قاسياً فاقبل به . « المجد لله ! المجد لله في أعالي السموات، والسلام على الارض للرجال ذوي الارادة الطيبة ! » .

كان الكاهن ، وهو يتكلم ، يرى قسمات السيد تيبو تتجمع وتستعيد توازنها

القديم شيئاً فشيئاً. وعندما انتهى، كان الرجل الكبير قد اسبل جفونه من جديد، ولم يكن ممكناً قراءة ما يجول في نفسه . والكاهن ، بإعادته هذا المقعد إليه ، وهو قبلة نظره طوال عشرين سنة، رد إليه الحياة. ولكنه كان لايزال مسترخياً بسبب الجهد العظيم الذي بذله حيال طبيعته ، ويجتاحه شكران فوق طاقة البشر . وكان للاثنين نفس التفكير : بدأ الكاهن ، حانياً جبهته ، بتلاوة صلاة أعمال الرحمة بصوت منخفض . وحين رفع رأسه كان السيد تيبو قد ركع على ركبتيه ؛ ووجهه ، كوجه الأعمى ، المرفوع نحو السماء ، كان متألقاً من الفرح ، وهناك لجلجة كانت تحرك شفتيه المبللتين ، وعلى المكتب يداه الشعراوان ، المتنفختان كأن الزنابير قد لسعتها ، قد اشتبكت أصابعها بحمية مؤثرة . لماذا أصبح هذا المشهد الموجب القدوة فجأة لا يحتمل في عيني الكاهن ؟ إلى درجة انه لم يستطع امتلاك نفسه من ان يمد ذراعه ليصطدم بالتائب ؟ إلا أنه أصلح حركته حالاً ووضع يده بمودة على كتفي السيد تيبو الذي نهض بتثاقل .

عندئذ قال الكاهن بتلك العذوبة الصلبة الخاصة به :

ـ لم يُقل كل شيء بعد . عليك ان تتخذ قراراً بموضوع جاك .

فانتصب السيد تيبو بكل جسمه . وجلس الكاهن وقال :

ـ لا تكن كأولئك الذين يعتقدون انهم ابرأوا ذمتهم لأنهم واجهوا واجباً صعباً ، وأهملوا الواجب الآني ، القريب جداً منهم . حتى لو كانت التجربة التي اخضعت لها هذا الولد ليست ضارة بقدر ما أخشى ، فلا تطل امدها . فكر بالخادم الذي لم يستثمر الموهبة التي عهد سيده بها اليه . هيا يا صديقي ، لاتذهب من هنا قبل ان تعي مسؤوليتك كاملة .

وظل السيد تيبو واقفاً يهز رأسه ، ولكن هيئته لم تكن الهيئة المكابرة نفسها . ونهض الكاهن وتمتم :

ـ الصعوبة في ان لا يبدو الأمر خضوعاً لأنطوان .

ورأى انه أصاب القصد . وخطا بضع خطوات وقال فجأة بنبرة طليقة :

ـ أتدري ما افعل لو كنت مكانك يا صديقي العزيز ؟ كنت أقول له :

«أتريد ان يترك اخوك الاصلاحية ؟ نعم ؟ أتتكفل دائماً به ؟ حسناً. اني آخذك بكلمتك . اذهب بطلبه : ولكن حافظ عليه . لقد اردت ان يعود: فاهتم به.

ولم يحرك السيد تيبو ساكناً ، وتابع الكاهن :

ـ وكنت اذهب الى أبعد من ذلك . كنت أقول له : لا اريد جاك في البيت : رتب نفسك كما يحلو لك . كنت دائماً تعتقد باننا لا نعرف كيف نعامله ، حسناً . جرب انت اذن ! ضع له اخاه على ذراعه ، ودعهما يسكنان معاً في احدى النواحي ـ قريباً من بيتك طبعاً لكي يستطيعا تناول الطعام معك ؛ ولكن اترك لأنطوان قيادة اخيه الكاملة . لا تعاود الصراخ يا صديقي العزيز ـ اضاف ذلك مع ان السيد تيبو لم يأت بحركة ـ انتظر ، دعني انهي كلامي : ففكرتي ليست خيالية كما تبدو .

وعاد إلى مكتبه وجلس ، ومرفقاه على الطاولة ، وقال :

ـ تابعني جيداً :

أولاً : هناك ما يؤكد تماماً ان جاك سيحتمل سلطة اخيه افضل من احتماله سلطتك . ولست بعيداً عن الظن انه ، بتمتعه بقدر كبير من الحرية ، سيكف عن ان تكون لديه روح المقاومة وخرق النظام التي عرفناها لديه في السابق .

ثانياً : اما بالنسبة لأنطوان، فان رصانته تعطيك كل الضمانات . وإذا ارتبط بالكلام فأنا مقتنع انه لن يرفض هذه الوسيلة لانقاذ أخيه . أما فيما يتعلق بميوله المكدرة التي رثينا لها هذا الصباح ، فان سبباً صغيراً يمكن أن يكون ذا نتائج كبيرة : وأعتبر انك بفرضك عليه هذا العبء النفسي سوف تعطيه افضل قوة ادبية موازية ، وسوف تعيده دون شك الى مفهوم اقل فوضوية في المجتمع والأخلاق والدين .

ثالثاً : ان سلطتك الابوية التي تبقى هكذا بمعزل عن الاحتكاكات اليومية التي تبليها وتبعثرها، تحتفظ بكل نفوذها لتمارس من عل على ولديك تلك القيادة العامة التي هي من نصيبها ، و .. كيف اقول ؟ فائدتها الرئيسية .

وأخيراً ـ وقد أصبحت النبرة مسارّة ـ اعترف لك ان من المرغوب فيه

في لحظة انتخابك اما ان يكون جاك قد ترك كروي ، وان لا يبقى اي مجال لهذه القضية . فالشهرة تجتذب جميع انواع المقابلات والتحقيقات ؛ وستصبح عرضة لعدم تبصر الصحافة.. انا اعلم ان هذه اعتبارات ثانوية، ولكن اخيراً ...

وافلت السيد تيبو نظرة تشي بالقلق . وبدون ان يعترف لنفسه ، فان اخلاء سبيل السجين يحرر ضميره . وليس في ترتيب الكاهن سوى الفوائد لأنه ينقذ حب الذات عنده حيال انطوان ، ويعيد الى جاك وضعية نظامية دون أن يكون على السيد تيبو الاهتمام بالولد . وانتهى الى القول :

ــ لو كنت متأكداً من ان هذا الشقي لا يجلب الينا فضائح جديدة اذا افلت مرة اخرى .

ونجحت القضية هذه المرة .

وتعهد الكاهن بممارسة رقابة رصينة على حياة الولدين ، في الاشهر الاولى على الاقل . ثم قبل أن يأتي في الغد لتناول الطعام في شارع الجامعة ويشترك بالحديث الذي يريد الأب ان يجريه مع ولده البكر .

ونهض السيد تيبو ليذهب . وسار بنفس خفيفة متجددة . الا انه حين ضغط على يدي معرّفه بحميّة ، ساوره شك جديد فقال بشكل مشفق :

ــ ليسامحني الله لكوني كما انا .

فشمله الآخر بنظرة سعيدة وتمتم :

ــ « من منكم ، وعنده مئة نعجة ، اذا اضاع واحدة لايترك التسع والتسعين الأخرى في القفر ، ولا يذهب للبحث عن تلك التي أضاعها، إلى ان يجدها ؟».ــ ورفع اصبعه بابتسامة هاربة : ــ « اقول لكم ان في السماء كثيراً من الفرح للخاطىء الذي يندم ...»

٦

ذات صباح ، والساعة لا تكاد تبلغ التاسعة ، فان حارسة المنزل في شارع الاوبسرفاتوار طلبت السيدة دي فونتانان . فهناك تحت «شخص» يرغب

في رؤيتها ، ولكنه لا يريد الصعود الى الشقة ، ولا اعطاء اسمه .

– شخص ؟ امرأة ؟

– فتاة صغيرة .

وأتت مدام دي فونتانان بحركة تراجع . انها احدى مغامرات جيروم دون شك . تهديد بالتشهير .

وأضافت حارسة المنزل : صغيرة جداً ! طفلة !

– انا آتية .

انها بالفعل طفلة كانت تستقر في ظل المسكن . وأخيراً رفعت رأسها .

– نيكول ؟

هتفت مدام دي فونتانان وقد عرفت ابنة نويمي بتي – ديتراي . كانت نيكول تكاد تلقي بنفسها بين ذراعي عمتها ولكنها اوقفت هذا الاندفاع . وكانت صبغتها رمادية ، والوجه مشوش . لم تكن تبكي : كانت تبقي عينيها مفتوحتين جداً ، وحاجبيها مرفوعين . وتبدو غاضبة ، حازمة ، ومالكة نفسها تماماً .

– اريد ان اكلمك يا عمتي .

– تعالي .

– ليس فوق .

– لماذا ؟

– كلا ، ليس فوق .

– ولكن لماذا ؟ انا وحدي – وادركت ان نيكول تتردد – دانيال في المدرسة وجني في درس البيانو : اقول لك انني وحدي حتى موعد الغداء . هيا ، تعالي .

وتبعتها نيكول دون كلام . وأدخلتها مدام دي فونتانان إلى غرفتها . ولم تستطع اخفاء حذرها فقالت :

– ما الأمر ؟ من ارسلك ؟ من أين أتيت ؟

وكانت نيكول تنظر اليها دون أن تخفض عينيها ؛ واهدابها تطرف .

ـ لقد هربت .

ـ آه !

قالت مدام دي فونتانان معبرة عن الألم . الا انها شعرت بتعزية وقالت :

ـ وهل اتيت الى هنا ؟

فأتت نيكول بإشارة من كتفيها كأنها تقـــول : إلى اين اذهب ! ليس لي احد .

ـ اجلسي يا عزيزتي . تبدين تعبة . ألست جائعة ؟

ـ قليلاً .

وابتسمت لتعتذر .

ـ ولكن لماذا لم تقولي ذلك ؟

هتفت مدام دي فونتانان وهي تقود نيكول إلى غرفة الطعام . وحين رأت كيف كانت الصغيرة تقضم خبزها المدهون بالزبدة سحبت من خزانة الطعام بقية لحم بارد ومربيات . وكانت نيكول تأكل دون ان تقول شيئاً ، خجلة من شهيتها ، غير قادرة على اخفائها . وكان الدم يصعد إلى خديها . وشربت فنجانين من الشاي بدون انقطاع . وسألتها مدام دي فونتانان وكان وجهها مضطرباً اكثر من وجه الطفلة :

ـ منذ متى لم تأكلي ؟ اتشعرين بالبرد ؟

ـ كلا .

ـ ولكن بلى . فأنت ترتعشين .

وأتت نيكول بحركة تدل على فراغ صبر . كانت حاقدة لعدم قدرتها على إخفاء ضعفها .

ـ لقد سافرت الليل بطوله ، وهذا ما سبّب اصابتي بالبرد .

ـ سافرت ؟ من اين انت آتية إذن ؟

ـ من بروكسل .

ـ من بروكسل ، يا إلهي ! وحدك !
فقالت الفتاة : نعم .
كانت لهجتها كافية للدلالة على صلابة عزمها . واخذت مدام دي فونتانان يدها :
ـ انت متجمدة من البرد . تعالي إلى غرفتي . أتريدين ان تنامي ؟ ستشرحين لي فيما بعد .
ـ كلا ، كلا ، حالاً ، ما دمنا وحدنا . ومع ذلك فلست نعسانة ، أؤكد لك ، دعيني .
كان الوقت في أوائل نيسان . فأشعلت مدام دي فونتانان النار ، ولفّت الهاربة بشال وأجلستها قسراً قرب الموقد . وكانت الطفلة تمانع ثم استسلمت ، منزعجة ، بعينين لامعتين ثابتتين تأبيان ان ترقّا . وتطلعت إلى الساعة ، كانت متعجلة لتتكلم ، اما الآن ، وقد جلست ، فلم تعد عازمة على الكلام . وكانت عمتها تتجنب النظر إليها لكي لا تزيد من اضطرابها . وقضت بضع دقائق ، ولم تبدأ نيكول . فقالت مدام دي فونتانان عندئذ :
ـ مهما كنت فاعلة يا عزيزتي فما من احد هنا يسألك شيئاً . احتفظي بسرك إذا أردت . أنا راضية لأنك فكرت بالمجيء إلينا . وانت هنا كولد من البيت .
وانتصبت نيكول . فهل هناك ارتياب بارتكابها خطأ مؤلماً تعترف به ؟ وبسبب الحركة التي قامت بها انزلق الشال عن كتفيها وكشف عن جذع مليء بالصحة ، يتناقض مع وجهها الهزيل ومع الشباب المتناهي في قسماتها . وقالت بنظرة ملتهبة :
ـ بالعكس ، اريد ان اقول كل شيء . ـ وبدأت حالاً بنوع من النشوفة المثيرة : ـ يا عمتي .. في اليوم الذي اتيت فيه الى شارع مونسو .
ـ آه !
آهة اخرجتها مدام دي فونتانان واتخذ وجهها من جديد تعبير ألم . وأكملت نيكول بكثير من السرعة ، طارقة بجفونها :

ـ ... لقد سمعت كل شيء .

وساد صمت .

ـ كنت اعرف ذلك يا عزيزتي .

وخنقت الصغيرة بكاءها ووضعت وجهها بين يديها كما لو أن دموعها انهمرت. ولكنها رفعت رأسها حالاً ؛ كانت عيناها جافتين وشفتاها مضمومتين ، الأمر الذي بدل تعبيرها العادي وحتى رنة صوتها .

ـ لا تحكمي «عليها» بالشر يا عمتي تيريز ! «انها» بائسة جداً ، وأنت تعلمين .. ألا تصدقينني ؟

فأجابت مدام دي فونتانان : بلى .

كان هناك سؤال يحرق شفتيها ؛ فتطلعت إلى الفتاة بهدوء لا يمكن أن يخدع أحداً :

ـ هل هناك ايضاً .. عمك جيروم ؟

ـ نعم .

وأضافت بعد وقفة ، رافعة جفونها :

ـ انه هو نفسه الذي أشار علي بالنجاة بنفسي والمجيء إلى هنا .

ـ هو ؟

ـ كلا ، يعني .. كان يأتي كل صباح اثناء هذه الأيام الثمانية ، ويعطيني بعض النقود لكي أستطيع العيش لأني بقيت هناك لوحدي . وأول البارحة قال لي : « إذا كان باستطاعة احدى النفوس المحسنة ان تأخذك إلى عندها فستكونين أفضل من هنا » . وقال : «احدى النفوس المحسنة» ولكن تفكيري اتجه حالاً إليك يا عمتي تيريز . وانا متأكدة انه هو أيضاً كان يفكر بذلك . ألا تصدقين؟

فتمتمت مدام دي فونتانان : ربما .

وشعرت فجأة بعاطفة من السعادة كادت تبتسم على أثرها ، وأسرعت بالقول :

ـ ولكن ، كيف كنت وحيدة ؟ اين كنت إذن ؟

في بيتنا .

– في بروكسل ؟

– نعم .

– لم أكن أعلم ان والدتك كانت تقيم في بروكسل .

– اضطررنا إلى ذلك في أواخر تشرين الثاني . كان كل شيء محجوزاً عليه في شارع مونسو . ووالدتي لا حظّ لها . دائماً متاعب ، ومباشرون يطالبون بالنقود . ولكن الديَن دُفع الآن وتستطيع العودة .

فرفعت مدام دي فونتانان عينيها ، وأرادت أن تسأل : «من الذي دفع ؟» وكان نظرها يلقي السؤال بوضوح بحيث قرأت الجواب على شفتي الطفلة . ومن جديد لم تستطع امتلاك نفسها .

– و ... وهل ذهب في تشرين الثاني معها ؟

فلم تجب نيكول . وكان صوت العمة تيريز يرتجف بشكل مؤلم جداً . وقالت أخيراً بجهد :

– يا عمتي ، يجب ألا تحقدي علي . لا أريد أن اخفي عنك شيئاً . ولكن من الصعب شرح كل شيء ، هكذا ، مرة واحدة . هل تعرفين السيد ارفيلد ؟

– كلا ، من هو ؟

– عازف كمان كبير من باريس كان يعطيني دروساً . اوه ! فنان كبير ، كبير ، يعزف في الحفلات .

– وبعد ؟

– كان يسكن باريس ، ولكنه بلجيكي . ولهذا سار بنا إلى بلجيكا حين اردنا الهرب . فلديه بيت يملكه في بروكسل ، حيث نزلنا .

– معه ؟

– نعم .

وكانت قد فهمت السؤال ولم تتهرب . وتبدو انها تشعر بسرور وحشي حين تتغلب على كل كتمان . ولكنها لم تجرؤ على قول شيء آخر وصمتت .

وقالت مدام دي فونتانان بعد وقفة طويلة :

ـ ولكن اين كنت في تلك الأيام الأخيرة ، حين كنت وحيدة والعم جيروم يأتي لرؤيتك ؟

ـ هناك .

ـ عند ذلك السيد ؟

ـ نعم .

ـ وكان عمك يأتي إلى هناك ؟

ـ بالتأكيد .

فتابعت مدام دي فونتانان دون أن تكف عن عذوبتها :

ـ ولكن كيف أصبحت وحدك ؟

ـ لأن السيد راوول كان يقوم بجولة آنذاك في لوسرن وجنيف .

ـ من هو راوول هذا ؟

ـ السيد ارفيلد .

ـ ووالدتك تركتك وحيدة في بروكسل لتذهب معه إلى سويسرا ؟

وأتت الطفلة بحركة بائسة جداً بحيث احمر وجه مدام دي فونتانان وتمتمت :

ـ اسألك الصفح يا عزيزتي . لن نتكلم عن كل هذا . انك أتيت ، وحسناً فعلت . ابقي معنا .

ولكن نيكول هزت رأسها بعنف :

ـ كلا ، كلا ، لقد انتهى هذا تقريباً .

وتنفست تنفساً عميقاً وقالت دفعة واحدة :

ـ اسمعي يا عمتي . ان السيد ارفيلد في سويسرا . ولكن بدون امي . فقد حصل لها على عقد في مسرح بروكسل لتغني دوراً في اوبريت ، بسبب صوتها الذي جعلها تمرنه ، حتى انها نالت نجاحاً كبيراً في الصحف ، ومعي في جيبي قصاصات منها تستطيعين رؤيتها ،

وتوقفت غير عارفة أين صارت وتابعت بنظرة غريبة :

ـ عندئذ جاء العم جيروم لأن السيد راوول ذهب إلى سويسرا ، ولكن متأخراً . فحين وصل لم تكن امي هناك . وذات مساء قبّلتني .. كلا .ـ قالت ذلك خافضة صوتها وعابسة بشدة ـ لقد ضربتني تقريباً لأنها لم تكن تعرف ماذا تفعل بي.ـ ورفعت رأسها وأرغمت نفسها على الابتسامـ اوه! الحقيقة انها لم تكن تحقد علي ، بالعكس . ـ واختنقت ابتسامتها في حنجرتها ـ كانت بائسة جداً يا عمتي تيريز ، ولا تستطيعين ان تعلمي : كان يجب ان تذهب لأن هناك من ينتظرها تحت ، وكانت تعلم ان العم جيروم سوف يأتي لأنه جاء قبلاً عدة مرات لرؤيتنا ، حتى انه كان يعزف الموسيقى مع السيد راوول ؛ ولكنه قال في المرة الأخيرة انه لن يرجع ما دام السيد ارفيلد هناك . اذن قالت لي امي قبل ذهابها ان أخبر العم جيروم بانها ذهبت لوقت طويل ، وانها تركتني ، وان يهتم بي . وانا متأكدة انه سيقوم بذلك ولكني لم اجرؤ على القول له حين رأيته يأتي . كان غاضباً ، وخفت ان يذهب لملاحقتهم ؛ عندئذ كذبت عليه عمداً ؛ وقلت له ان أمي ستعود غداً ؛ وكنت اقول له في جميع الايام اني انتظرها . أما هو فبحث عنها في كل مكان ، وكان يظنها لا تزال في بروكسل . اما انا ، فقد كان ذلك كثيراً ، ولم اشأ أن أبقى ؛ أولاً لأني اكره خادم السيد راوول ـ وارتعشت ـ انه يا عمتي تيريز رجل ذو عيون .. اني اكرهه ! عندئذ عزمت فجأة ، في اليوم الذي حدثني فيه العم جيروم عن «احدى النفوس المحسنة» . وصباح البارحة ، عندما اعطاني بعض النقود ، خرجت لئلا يمسك بي الخادم ، واختبأت في الكنائس حتى المساء ، وأخذت القطار الليلي .

كانت تتكلم بسرعة ، منخفضة الجبهة . وحين رفعت رأسها كان وجه مدام دي فونتانان الحلو يعبر عن هيجان ، عن صرامة ، بحيث ضمت نيكول يديها وقالت :

ـ لا تسيئي الحكم على والدتي يا عمتي تيريز . اؤكد لك ان شيئاً من كل هذا لم يكن بسبب خطأها . فأنا لم آكن دائماً لطيفة ، وكنت مصدر ازعاج لها ، وهذا مفهوم ! ولكني كبيرة الآن ، ولا أستطيع العيش هكذا . كلا ،

لا أستطيع ابداً . ـ قالت ذلك وقد ضمت شفتيها ـ اريد ان اشتغل وأربح عيشي ، ولا اكون عالة على احد . ولهذا اتيت يا عمتي تيريز . ليس لي سواك . كيف تريدين ان افعل ؟ ساعديني بضعة ايام فقط يا عمتي تيريز ، انت وحدك تستطيعين مساعدتي .

كانت مدام دي فونتانان متاثرة جداً فلم تستطع الاجابة . هل كانت تعتقد ان هذه الفتاة ستصبح عزيزة عليها ذات يوم بهذا الشكل ؟ كانت تتأملها بحنو تتذوق حلاوته هي نفسها وقد هدأ من آلامها . ربما كانت أقل جمالاً من السابق ؛ فالفم مشوه ببعض بثور الحمّى ؛ ولكن عيناها ! عينان بلون رمادي أزرق فاتح ، متسعتان مستديرتان كثيراً ... أي صدق وأي شجاعة في صفائهما !

وحين استطاعت الإبتسام قالت وهي تنحني :

ـ لقد فهمتك يا عزيزي وأحترم عزمك ، وأعدك بالمساعدة . ولكنك ستبقين هنا في الوقت الحاضر ، إلى جانبنا ، فانت بحاجة إلى الراحة .

قالت : « الراحة » ونظرتها كانت تقول : « العطف » ولم تسه نيكول عن ذلك ولكنها كانت لا تزال ترفض ان تلين :

ـ اريد ان أشتغل ، ولا اريد ان أكون عبئاً .

ـ وإذا عادت والدتك لتبحث عنك ؟

فاضطربت النظرة الشفافة واتخذت فجأة قساوة لا تصدق ، وقالت بصوت ابح : هذا ، أبداً .

ولم تبدُ مدام دي فونتانان انها سمعت . وقالت فقط :

ــ أنا ، سوف احتفظ بك معنا بكل طيبة خاطر ... دائماً .

ونهضت الفتاة وبدت مترنحة ، وفجأة اسرعت تضع رأسها على ركبتي عمتها. وداعبت مدام دي فونتانان خد الطفلة وكانت تفكر ببعض الأسئلة التي يجب أن تتطرق إليها ، وجاذفت قائلة :

ــ لقد رأيت يا ابنتي أشياء كثيرة ما كان يجب ان تريها وانت في هذا السن. وأرادت نيكول ان تنهض ولكنها منعتها . لم تكن تريد ان ترى الطفلة

احمرار وجهها ، فأبقت جبهة الصغيرة على ركبتها وأخذت تلهو بلفّ خصلة من الشعر الأشقر حول اصبعها باحثة عن كلماتها :

– لقد عرفت كثيراً من الامور ... امور يجب ان تظل سرية ... أتفهمينني؟

وأمالت عينيها على عيني نيكول اللتين كان فيهما ألق سريع :

– اوه ! كوني متأكدة يا عمتي تيريز ... لا أحد ؟ انهم لن يفهموا شيئاً وسوف يتهمون امي .

كانت ترغب في اخفاء سلوك امها كما كانت مدام دي فونتانان تحرص على اخفاء سلوك جيروم عن اولاده . انها شراكة في الذنب غير منتظرة توطدت فجأة حين رفعت نيكول وجهها المنتعش ، بعد ان فكرت :

– اسمعي ياعمتي تيريز. إليك ما يجب ان يقال لهم: ان امي مضطرة إلى العمل لتعيش ، وانها وجدت عملاً في الخارج . في انكلترا مثلاً ... وهو عمل يمنعها من اصطحابي ... وظيفة معلمة . أتريدين . وأضافت بابتسامة طفل – : وبما ان امي ذهبت ، فليس هناك ما يدهش في ان أكون حزينة . أليس كذلك ؟

٧

ان الهرم الجميل في الطابق الارضي نقل اثاثه في الخامس عشر من نيسان . وفي صباح اليوم السادس عشر ، فان الآنسة دي ويز يتبعها خادمتان ، ومدام فرولان ، وحارسة المنزل ، وعامل ، جاءت تتملك بيت العازب . كان الهرم الجميل لا يتمتع بسمعة طيبة في البناية ، والمدموازيل ، وهي تضم إلى صدرها معطفها الصوفي ، كانت تنتظر فتح جميع النوافذ لتجتاز العتبة. وعندئذ دخلت إلى الغرفة الداخلية وقامت بدورة في الغرف راكضةً قصيرة الخطى. ثم نظمت أمر التنظيف وهي نصف مطمئنة لعري الجدران البريء ، كأن الامر لا يعدو تلاوة العزائم .

والانسة العجوز ، مع دهشة انطوان قبلت دون اعتراض تقريباً بفكرة سكن الاخوين خارج المنزل الوالدي مع ان مشروعاً كهذا يبعث الاضطراب في تقاليدها المنزلية ويقلب مفهومها عن العائلة والتربية ؛ وفسر انطوان موقف

المدموازيل بالسرور الذي حملته إليها عودة جاك وبالاحترام الذي تكنّه لقرارات السيد تيبو ، خصوصاً إذا نالت استحسان الأب فيكار . ولكن الحقيقة ، فان لنشاط المدموازيل سبباً آخر : التعزية التي كانت تشعر بها لرؤية انطوان يغادر الشقة . فمنذ ان آوت جيز ، كانت الآنسة المسكينة تعيش في رعب العدوى . ألم تبق جيز في الربيع مسجونة في غرفتها طوال ستة أسابيع ، غير متجرئة على تركها تتنشق الهواء خارجاً إلا على الشرفة ، ومؤخرة رحيل العائلة كلها إلى ميزون – لافيت لأن الصغيرة ليزبيت فرولان ، ابنة أخ حارسة المنزل ، كانت قد التقطت السعال الديكي وانه كان من الضروري المرور أمام المنزل للخروج من البيت ؟ وغني عن القول ان انطوان ، مع عفونة المستشفى ، وحقائبه وكتبه ، كان يبدو لها خطراً دائماً . كانت تتوسل إليه ألا يحمل جيز على ركبتيه ، وإذا ألقى سهواً ، وهو عائد ، معطفه على كرسي في الدهليز بدلاً من ان يحمله إلى غرفته ، أو إذا وصل متأخراً وجلس إلى المائدة دون ان يذهب ويغسل يديه ، مع انها تعلم انه لا يرتدي معطفاً عندما يعتني بمرضاه ، ولا يترك المستشفى دون ان يمر على المغسلة ، فانها لا تأكل أبداً لأن مخاوفها تضغط عليها . وبعد الانتهاء تأخذ جيز إلى غرفتها لتعاقبها بغسل ضد العفونة في حنجرتها وفي أنفها . وسكن انطوان في الطابق الارضي يعني خلق منطقة واقية مؤلفة من طابقين بين جيزيل وبينه ، وتخفيف مخاطر العدوى اليومية بقدر الامكان . إذن فقد بذلت عناية خاصة لتنظيم محجر للموبوء . وفي مدى ثلاثة أيام ُحكّ المنزل وُغسل ، وُفرش ، وُجهز بالستائر والمفروشات . وأصبح باستطاعة جاك ان يأتي .

وما ان كانت تفكر به حتى تتصاعد فعاليتها ؛ أو انها تكف لحظة عن عملها ، محدقة بعينيها الذابلتين بالوجه العزيز الذي استشفته . وشفقتها على جيز لم تفقد جاك حقه . كانت تحبه منذ ولادته ، وتحبه أبعد من ذلك أيضاً ما دامت قد أحبت وربت قبله تلك الام التي لم يعرفها ، والتي حلت هي محلها منذ المهد . فبين هذين الذراعين المتباعدين خطا جاك خطوته الاولى ذات مساء وهو يترنح على طنفسة في الرواق ؛ وتلا ذلك أربع عشرة سنة كانت ترتعش

لأجله كما ترتعش الآن لأجل جيزيل . كثير من الحب وعدم فهمٍ كلي . ان هذا الولد الذي لم يغب عن عينها أبداً تقريباً ظل لغزاً بالنسبة إليها . وفي بعض الايام كانت تيأس من تربية مسخ ، وتبكي مفكرة بطفولة مدام تيبو التي كانت عذبة كالمسيح . ولم تكن تتساءل من اين أتيح لجاك ان يأخذ عنفه ، ولم تكن تتهم سوى الشيطان . ولكن في أيام اخرى ، فان إحدى تلك الحركات غير المنتظرة ، المباغتة ، المتجاوزة الحد ، والتي كان ينفتح معها فجأة قلب الولد ، كانت ترقق قلبها وتجعلها تبكي أيضاً ، ولكن من الفرح . ولم تكن معتادة أبداً على غيابه . ولم تفهم شيئاً عن رحيله ؛ ولكنها كانت تريد لعودته ان تكون عيداً وان تحتوي هذه الغرفة الجديدة كل ما كان يحبه . واضطر انطوان إلى الاعتراض مقدماً لانها زحمت سلفاً جميع خزائن الجدران بجميع الدمى التي كانت في السابق ، وأنزلت من غرفتها تلك الكنبة التي تحبها . والتي كانت تأتي دائماً وتجلس عليها حين تكون حردة ؛ وبناء على نصيحة انطوان ابدلت سرير جاك القديم باريكة ـ سرير جديدة ، تطوى في النهار فتكسب الغرفة وقار غرفة عمل .

كانت جيزيل متروكة منذ يومين ، محبوسة في غرفتها مع فروض عليها ان تعملها . لم تكن تستطيع تركيز انتباهها على دفاترها . وكانت تموت من الرغبة لرؤية ما يجري تحت . هي تعلم ان جاك سيعود ، وان هذا الاستعداد كله بسببه . ولكي تهدىء اعصابها كانت تدور في غرفتها .

وفي الصباح الثالث اصبح العذاب لا يحتمل والميل قوياً جداً بحيث انها عند الظهر ، وقد رأت ان عمتها لم تصعد ، هربت بدون ان تزيد من تفكيرها وهبطت الدرج اربعاً اربعاً . وكان انطوان عائداً انذاك . فانفجرت ضاحكة . لقد كان يملك الموهبة في ان يثير عندها ، منذ ان ينظر اليها بطريقة رابطة الجأش ، جافة ، ضحكات مجنونة لا تقاوَم تطول بقدر احتفاظ انطوان بهيئته الجدية ، وتجعلهما يتعرضان لتوبيخ المدموازيل . ولكن هنا كانا وحيدين ، واغتنما فرصة ذلك .

وقال لها اخيراً وهو يمسك بمعصمها :

– لماذا تضحكين ؟

كانت تنتفض بقصد التملص وتستمر في ضحكها على احسن ما يكون . ثم توقفت فجأة :

– يجب ان اصلح نفسي من الضحك هكذ ، فأنت تعلم انني بدون ذلك لا استطيع ان اتزوج .

– اذن تريدين الزواج ؟

فقالت رافعة نحوه عينيها الشبيهتين بعني كلب : نعم .

ونظر الى جسدها الصغير السمين البرّي وفكر للمرة الاولى ان هذه الطفلة بنت الحادية عشر سوف تصبح امرأة وتتزوج . فترك معصمها .

– الى اين كنت تركضين وحدك ، عارية الرأس ، دون شال ؟ سيتناولون طعام الغداء .

فقالت وهي تتغنج قليلاً :

– اني ابحث عن عمي . لدي عملية حساب لا افهمها .

واحمر وجهها ، واشارت باصبعها في ظلام الدرج الى باب « الفارسونييرة » الغامض الذي يرشح منه شعاع نور . وكانت عيناها تلمعان .

– اتودين الدخول الى هناك ؟

فقالت « نعم » محركة شفتيها الحمراوين دون ان تلفظ صوتاً .

– ستنالين التوبيخ.

فترددت والقت عليه نظرة جريئة لترى اذا كان يمزح . واخيراً صرحت :

– ولكن كلا ! اولاً هذه ليست خطيئة !

فابتسم انطوان ؛ اذن هكذا كانت المدموازيل تميز الخير من الشر . وتساءل عن قيمة تأثير المدموازيل الهرمة على الطفلة ؛ وألقى نظرة على جيز فطمأنته : كانت غرسة سالمة تنمو في اي مكان؛ وستتفلت من جميع الوصايات

ولم ترفع جيزيل نظرها عن الباب المفتوح . وقال انطوان :

– حسناً : ادخلي .

فكتمت صرخة فرح وانزلقت الى الداخل كالفأرة .

كانت المدموازيل وحدها . متسلقة على الاريكة ـ السرير ومنتصبة على رؤوس اصابعها لتعلق على الحائط المسيح الذي اعطته لجاك عند مناولته الاولى، والذي يجب ان يستمر في وقاية نوم ولدها . وكانت مرحة ، سعيدة ، فتية ، تغني بصوت منخفض وهي تشتغل . وعرفت خطوة انطوان في غرفة الزائرين وظنت انه نسي الساعة . واثناء ذلك كانت جيزيل قدطافت الغرف الاخرى. ولما كانت غير قادرة على استيعاب فرحها فقد اخذت ترقص مصفقة بيديها .

وتمتمت المدموزيل وهي تقفز الى الارض :

ـ ايها الاله الطيب !

وشاهدت في المرآة الشعر العائم في هواء النوافذ المفتوحة ، وابنة اخيها القافزة في مكانها كالجدي صائحة بملء صوتها :

ـ تحيا مجاري الهواء ! تحيا مجاري الهواء !

انها لا تفهم وما حاولت ان تفهم . ولم تخطر ببالها فكرة مجيء الابنة الى هنا بدافع العصيان. فقد كانت معتادة منذ ست وستين سنةعلى الانحناء لألعاب القضاء والقدر . ولكنها بلمحة عين فكت معطفها وانقضت على الطفلة ولفتها بغطاء الرأس ، وجرتها دون كلمة لوم ، واصعدتها الطابقين بأسرع مما هبطتهما الصغيرة . ولم تستعد انفاسها الا بعـــد ان أنامت جيزيل تحت غطاء وجعلتها تشرب طاسة من المنقوع المغلي .

ويجب القول ان مخاوفها لم تكن مفتقرة كلياً الى اساس . فأم جيزيل ، وهي من مدغسقر، تزوجها القومندان دي‌ويز في تاماتاف‌حيث كان مع‌الحامية . وماتت‌بالسل الرئوي‌بعد ولادة الطفلة بأقل من سنة ؛ وبعد سنتين مات‌القومندان نفسه بمرض بطيء لم يحدد جيداً . وقد ظُن انه انتقل إليه من زوجته . ومنذ أن أعادتها المدموازيل من مدغسقر ، لأنها القريبة الوحيدة لليتيمة ، وأخذتهـا على عاتقها ، فان تهديد هذه الوراثة لم يفارقها ، مع ان الطفلة لم تصب أبداً بأي رشح مقلق ، وبنيتها المتينة قد اعتُرف بها وتأكدت دوريـاً من جميع الأطباء

والاختصاصيين الذين كانوا يفحصونها كل سنة .

كان التصويت للمجمع يجب أن يجري في مدى خمسة عشر يوماً ، وبدا السيد تيبو متعجلاً عودة جاك . وقد جرى الاتفاق ان يكلف السيد فاييسم بالاتيان به إلى باريس نهار الاحد التالي .

وفي السهرة ، مساء السبت ، ترك انطوان المستشفى في الساعة السابعة وتناول عشاءه في مطعم مجاور حتى لا يأكل مع العائلة . ومنذ الساعة الثامنة دخل إلى بيته الجديد وحيداً فرحاً . كان عليه أن ينام فيه هذا المساء لأول مرة . وشعر بفرح حين أدار مفتاحه في قفله ، واغلق بابه وراءه ، وأنار الكهرباء في كل مكان وبدأ نزهة خلال مملكته بخطوات قصيرة . لقد احتفظ لنفسه بالجهة المطلة على الشارع : غرفتان كبيرتان وغرفة صغيرة . الاولى قليلة الأثاث : بعض المقاعد المتباعدة حول طاولة مستديرة ؛ وهذه يجب أن تكون غرفة انتظار حين يضطر إلى استقبال أحد الزبائن . والثانية ، وهي الكبرى ، انزل إليها المفروشات التي يملكها في شقة والده ، منضدته العريضة للشغل ، ومكتبته ، ومقعدين من الجلد ، وجميع الأشياء التي تشهد على حياته المجتهدة . وفي الغرفة الصغيرة التي تحتوي على طاولة زينة ومكان لتعليق الثياب ، وضع سريراً .

وكانت كتبه منضدة على الارض في الغرفة الملاصقة ، بالقرب من الصناديق غير المفتوحة . وهناك ناقل حرارة يعطي حرارة هادئة ، واللمبات الجديدة تلقي نورها القوي على كل شيء . وكان أمام انطوان أمسية طويلة للتملك ، إذ يجب في بضع ساعات ان يفتح الصناديق ويرتب ويستعد لفصل حياته من الآن فصاعداً . وفوق ، انتهت ، الوليمة دون شك : وجيز كانت تنام على صحنها . والسيد تيبو يعظ باسهاب . لكم يشعر انطوان بالاطمئنان ، وكم بدت له وحدته سائغة ! كانت مرآة المدخنة تعكس صورة نصف جسمه . وقد اقترب منها بشيء من الاعجاب بالنفس . وكان له اسلوب خاص في النظر إلى نفسه في المرآة ، مربعاً كتفيه ، ضاماً فكيه ، متطلعاً إلى نفسه ، مع نظرة قاسية كان يغمسها في عيني خياله . وكان يريد ان يتجاهل نصفه الأعلى الكثير الطول ، ساقيه

القصيرين ، وذراعيه الدقيقين ، وعدم تناسب رأس كثير القوة على ذلك الجسد شبه الركيك ، واللحيه تزيد من حجمه . وكان معجباً بنفسه ويشعر أنه قوي نشيط ذو مشية عريضة . وكان يحب تعبير وجهه المقطب : لأن حلقة تشكلت على خط الحاجبين لكثرة ما غضن جبهته كما لو انه بحاجة إلى تركيز كل انتباهه على كل لحظة من حياته ؛ ونظرته ، المدمجة في الظلام ، اتخذت بريقاً عنيداً كان يعجبه كعلامة ظاهرة على الحيوية .

– لنبدأ بالكتب .

قال ذلك وهو يخلع سترته ويفتح بجذل مصراعي المكتبة الفارغة .

– لنر .. دفاتر الدروس تحت .. والمعاجم بمتناول اليد .. علم العلاج .. حسناً .. ترا لا لا ! مهما كان الأمر فها أنا توصلت إلى نهاياتي . الطابق الارضي ، جاك .. من كان يظن ، منذ ثلاثة أسابيع فقط ؟« هذا الشخص يتحلّى بارادةٍ لا تُقهر » .

قال ذلك بنبرة زامرة ، كأنه يقلد صوت شخص آخر . « ثابتة لا تقهر ! » وقذف نظرة لاهية باتجاه المرآة ، ودار على رجل واحدة فكاد يفقد التوازن مع كدسة النشرات التي كان يمسكها تحت ذقنه .

– هولا ، بهدوء ! حسناً هذه الرفوف التي استعادت الحياة .. والآن إلى الاوراق التي لا فائدة منها .. لنؤجل الكرتون في المحفظة كما كان ، إلى هذا المساء .. ولكن سيلزمنا اللجوء فيما بعد إلى التعليقات والملاحظات .. بدأت تتكون عندي كمية محترمة .. اختيار تصنيف منطقي وواضح مع فهرس يومي ، كما هو الأمر عند فيليب .. فهرس على بطاقات .. جميع الاطباء الكبار في اماكن أخرى ..

وبخطوة خفيفة شبه راقصة أقبل وأدبر مرات عديدة من الغرفة الملاصقة إلى محفظة الكرتون. وفجأه ضحك ضحكة صبيانية ، غير منتظرة ، واعلن : « الدكتور انطوان تيبو » . ثم توقف هنيهة ورفع رأسه . « الدكتور تيبو .. تيبو ، انتم تعرفون جيداً الاختصاصي بالاطفال » . وخطا جانباً خطوة قصيرة

خفية ، مصحوبة بتحية مقتضبة وعاد بوقار إلى رواحه ومجيئه .

– لننتقل إلى الصندوق الخيزراني .. في سنتين أنال المدالية الذهبية ؛ رئيس معاينة .. ومسابقات المستشفيات .. اقطن هنا إذن لثلاث أو اربع سنوات ليس اكثر . وعندئذ سيلزمني شقة مناسبة ، كشقة رئيس ـ واستعاد صوته الزامر ـ « ان تيبو هو أحد أصغر اطبائنا سناً في المستشفيات .. الذراع الايمن لفيليب .. » اني على استعداد للتخصص حالاً في أمراض الاطفال .. حين افكر بلويزيه في طولون .. البلهاء ..

– البـ ... لـ .. ـهاء .

ردد ذلك دون ان يبدو انه يفكر بما قاله . كان ذراعاه محملـين بالاشياء الأكثر تنوعاً . وكان يبحث بعين حائرة عن مكان ملائم لكل شيء منها .

– لو أراد جاك ان يصبح طبيباً فسأساعده واقود خطاه .. طبيبان من آل تيبوا .. ولماذا لا ؟ انها مهنة لآل تيبو ! قاسية ، ولكن أي مسرّات حين يكون المرء على شيء من تذوق الكفاح ، على شيء من الكبرياء ! وأي جهود للانتباه ، والذاكرة ، والإرادة ! ولن يوصل ابداً إلى النهاية ! وثم حين أصـــل ! طبيب كبير كفيليب مثلاً .. والقدرة على اتخاذ تلك الهيئة الهادئة المطمئنة .. الكثيرة البشاشة ، ولكن بعيدة .. السيد الاستاذ .. آه ! ان تكون ذا أهمية ، وان تدعى للاستشارة من قبل الزملاء الذين يغارون منك اكثر من غيرهم !

أما انا فقد اخترت أصعب فروع التخصص : الأطفال . انهم لا يعرفون ان يتكلموا ، وحين يتكلمون يخدعونك . هنا ، اكون وحيداً حقيقـةً في مجابهة الألم والعثور عليه .. ومن حسن الحظ فإن الاشعة .. فالطبيب الكامل اليوم يجب ان يكون عالماً بالتصوير بالأشعة ، ويجري ذلك بنفسه . بعد نيلي شهادة الدكتوراه ، فترة تدرج بالاشعة . وفيما بعد، مشغل للاشعة إلى جانب مكتبي .. مع ممرضة .. أوّ بالاحرى مساعد ، ببلوزة .. أيام الاستشارة ، كل حالة جدية نوعاً ، هوب ، كليشه ..

« ان ما يجعلني اثق بتيبو هو انه يبدأ دائماً بالفحص بواسطة الاشعة »

وابتسم لرنة صوته وطرف بعينيه نحو المرآة ، وقال مفكراً مع ابتسامة وقحـة :

ـ حسناً ، نعم ، اني أعرف الكبرياء جيداً . ويقول الأب فيكار : « كبرياء آل تيبو » . وابي ، هو .. ليكن . ولكن انا ، حسناً ، نعم ، الكبرياء. ولماذا لا ؟ الكبرياء هي رافعتي ، رافعة كل قواي . اني استعملها . ولي كل الحـق . أليس المقصود قبل كل شيء ان يستعمل المرء قواه ؟ وما هي قواي ؟ ـ وكشفت ابتسامة عن أسنانه ـ اني أعرفها جيداً . أولاً اني أفهم بسرعة واحفظ ؛ وهذا يبقى . وبعد ذلك خاصة الشغل . « ان تيبو يشتغل كالثور ! » لا بأس ؛ دعهم يقولون ! كلهم يريدون ان يفعلوا مثلي . وثم ، ماذا ايضاً ؟ طاقة . هذه نعم . « طاقة غير عادية » ـ لفظ ذلك ببطء باحثاً عن نفسه في المرآة من جديد ـ انها كفاعل القوة ، كبطارية مشحونة جيداً ، دائماً على استعداد ، تتيح لي أي جهدٍ كان . ولكن ما قيمة كل هذه القوى بدون رافعةٍ لأستعملها بواسطتها يا سيدي الـكاهن ؟

وكان يمسك بيده محفظة مسطحة من النيكل كانت تلمع تحت نور المصباح القريب من السقف ، ولم يكن يعرف أين يضعهـا ! وانتهى بان وضعها فوق المكتبة . وقال بصوت مليء ، بتلك اللهجة الساخرة ، النورماندية ، التي يستعملها والده احياناً :

ـ لا بأس . وترا لا لا ، ولتعش الكبرياء ياسيدي الكاهن !

وافرغ الصندوق . واخذ من داخله أطارين صغيرين من القطيفة نظر إليهما لاهياً . انهما صورتا جده لأمه ، وامه : شيخ جميل واقف بالرداء الرسمي ، ويده على طاولة مستديرة مثقلة بالكتب ؛ وامرأة فتية ، ذات قسمات ناعمة ، ونظرة لا معنى لها ، أو بالأحرى هادئة ، مع كورساج مفتوح بشكل مربع وقرطين متهدلين ساقطين على الكتف . وكان من عادته ان يبقي هذه الصورة لأمه تحت نظره ، وهكذا كان يعيد النظر إليها مع ان هذه الصورة يعود تاريخها إلى أيام خطوبة مدام تيبو ، ولم يسبق له ان عرف أمه بزينة الرأس هذه . كان في

التاسعة من عمره عند ولادة جاك، عندما ماتت. وكان يتذكر، بشكل افضل، جده كوتيربيه الاقتصادي، صديق ما كاهون [١]، والذي كاد يصبح حاكماً لمنطقة السين عند سقوط السيد تيير [٢]، الذي كان عميداً للمجمع لبضع سنوات، وحيث انطوان لم ينس ابداً الوجه المحبوب، وربطات العنق من الموسلين الابيض ولا علبة الامواس السبع ذات القبضة اللؤلؤية في غمدها المصنوع من جلد سمك الليا *Raie* .

ووضع الاطارين على المدخنة بين عينات من الصخور والمتحجرات. وبقي عليه ترتيب المكتب المزدحم بأشياء متنوعة واوراق لا فائدة منها. فانصرف إلى ذلك بمرح. وتبدلت الغرفة بلمحة عين. وحين انتهى أجال حوله نظراً راضياً. وفكر بكسل: « أما البياضات والملابس فمن عمل الأم فرولان ». (ولكي يتملص دون تحفظ من وصاية المدموازيل توصل إلى ان تقوم حارسة المنزل وحدها باعمال البيت وخدمة الطابق الأرضي). واخذ سيكارة وتمدد على كنبة من الجلد. كان من النادر ان يخصص لنفسه امسية كاملة، دون مهمة معينة؛ وقد وجد نفسه قلقاً تقريباً. فالساعة لم تكن متقدمة؛ ماذا يفعل؟ أيظل هنا يحلم وهو يدخن؟ كان عليه ان يكتب بضع رسائل، ولكن لا بأس!

وفكر فجأة وهو ينهض: « كنت أريد ان أرى في هيمون *Hémon* ماذا قال عن داء السكري عند الأطفال ». واخذ كتاباً كبيراً مجلداً وتصفحه على ركبتيه. « نعم.. كان علي ان اعرف ذلك، انه بديهي – قال ذلك عابساً – لقد اخطأت.. لولا فيليب لمات ذلك الولد المسكين بسبب غلطتي. يعني، بسبب غلطتي، كلا؛ ولكن مهما كان الامر ».. واطبق الكتاب والقاه على الطاولة.

« كم ان الرئيس جاف في هذه الحالة! انه مزهو، غيور من وضعيته! » ان

---

١ – ما كاهون: ثاني رئيس للجمهورية الفرنسية الثالثة عام ١٨٧٣ .

٢ – تيير *Thiers* : أول رئيس للجمهورية الفرنسية الثالثة عام ١٨٧١ .

النظام الذي فرضته لا يمكن إلا ان يزيد حالته خطورة يا تيبو المسكين !» أمام تلامذة الطب والممرضات هذا الصباح » .

وادخل يديه في جيوبه وخطا بضع خطوات .

ـ كان علي ان اجيبه . كان علي ان اجيبه : « أولاً ، إذا كنت تقوم انت بواجبك ! » تماماً . يجيبني : « ياسيد تيبو ، اعتقد ان من وجهة النظر هذه ، لا أحد .. » ولكنني افحمه : « عفوا ! لو كنت تصل صباحاً في الساعة المعينة ، ولو كنت معها تنتظر نهاية الاستشارة بدلاً من ان تهرب في الساعة الحادية عشرة والنصف لتعتني بزبائنك الذين يدفعون الاجرة ، لما كنت بحاجة لأقوم بعملك ، انا ، ولما خشيت ان اخطىء ! » أمام كل الناس ! سيعاديني خمسة عشر يوماً ، ولكن لا يهمني . في النهاية !

واتخذ وجهه فجأة تعبيراً من سوء الخلق . وهز كتفيه ، وبدأ في تدوير الساعة دون ان يفكر بذلك ، ولكنه ارتعش ، وأعاد سترته ، وجاء يجلس في المكان الذي تركه . وتلاشى سروره الآني ؛ وبقي له تأثير برد في القلب . وتمتم بابتسامة حقود : « الابله » وصالب ساقيه بعصبية واولع سيكارة جديدة . ولكن ، وهو يقول : « الابله » ، كان يفكر بسلامة العين ، وبالتجربة ، وبغريزة الدكتور فيليب المدهشة ؛ وفي تلك اللحظة بدت له عبقرية الرئيس تشكل مجموعاً ساحقاً . وتساءل وهو يشعر بالاختناق :

ـ وانا ، انا ؟ هل سأعرف كيف أرى مثله بوضوح ؟ تلك البصيرة شبه المعصومة والتي تصنع وحدها الاطباء الكبار . هل انا ..؟ نعم ، الذاكرة ، الاجتهاد ، المثابرة .. ولكن هل لدي شيء آخر ، انا غير صفات المرؤوس هذه ؟ ليست هي المرة الأولى التي اصطدم فيها أمام تشخيص مرض .. بسيط ـ نعم « انه تشخيص مرض سهل جداً ، وبالاجمال ، حالة كلاسيكية معينة بوضوح .. آه !ـ قال ذلك ماداً ذراعه فجأة ـ هذا لن يأتي لوحده : الشغل ، الاكتساب ، الاكتساب ! ـ وشحب لونه وفكر ـ : « وغداً جاك ، غداً مساءً سيكون جاك هنا . في الغرفة الموجودة هناك . وانا ، فاني .. فأني .. »

ونهض بوثبة . وفجأة بدا له المشروع الذي وضعه للعيش مع اخيه تحت مظهره الحقيقي : جنون لا يرتق فتقه ! لم يكن يفكر بالمسؤولية التي قبل بها ؛ لم يكن يفكر بسوى القيد الذي سوف يشل مشيئته من الآن فصاعداً مهما عمل . لم يكن يفهم باي ضلال استطاع ان يأخذ هذا الانقاذ على عاتقه . هل كان لديه وقت يضيعه . هل كان لديه ساعة فقط في الاسبوع ليحيد عن هدفه ؟ أبله ! انه هو الذي ربط هذا الحجر إلى عنقه ! وليس من وسيلة للتراجع !

واجتاز آلياً الرواق ، وفتح باب الغرفة المعدّة لجاك وظل على العتبة منذهلاً محاولاً النظر في الغرفة المظلمة . وخمدت شجاعته : « إلى أين يهرب ليصبح مطمئناً ، واسم الرب ؟ ليشتغل حتى لا يكون لديه ما يفكر به سوى نفسه ! دائماً تسليات ! العائلة ، الاصدقاء ، جاك ! الجميع يتآمرون على منعي من الشغل ليجعلوني اخفق في حياتي ! » وصعد الدم إلى رأسه ، وجفّت حنجرته ، فسار إلى المطبخ وشرب قدحين من الماء المثلوج وعاد إلى مكتبه .

كان بدون شجاعة وبدأ يخلع ملابسه . انه غريب في هذه الغرفة التي لم يعتد عليها بعد ، والتي اتخذت فيها الأشياء المستعملة هيئة غير عادية . وفجأة ، بدا له كل شيء عدائياً .

وظل ساعة حتى استلقى في الفراش ، وبقي مدة اطول حتى نام . لم يكن معتاداً على ضجة الشارع القريبة ؛ وكل مار ترن مشيته على الرصيف كان يجعله يرتعش . وكان يفكر بلا شيء : اصلاح ساعته المنبهة ؛ والصعوبة التي لاقاها في الليلة الماضية ، وهو عائد من سهرة عند فيليب ، في إيجاد عربة .. وبين لحظة واخرى كانت تعاوده فكرة رجوع جاك بتغلغل واخز . وعاد بيأس إلى سريره الضيق .

وكان يفكر بغضب : « وبعد ، فان لي حياتي اعيشها ! ليتملصوا ! سأجعله يقيم هنا ما دام هذا مقرراً . سأنظم عمله ، ليكن . وبعد ، افعل ماتريد ! لقد رضيت ان أهتم به ، نعم ، ولكن قف هناك ! على ان لا يمنعني هذا من الوصول ! ان لي حياتي أعيشها ! وكل الباقي ..

لم يبق أثر من محبته للولد هذا المساء . وتذكر زيارته لكروي . ورأى اخاه هزيلاً ، ابلته الوحدة ؛ من يدري ، ربما سل ؟ إذا كان هذا صحيحاً فسيجعل والده يقرر ارسال جاك إلى مصح ممتاز ! في الاوفرنيـــه *Auvergne* أو في البيرنيه ، والارجح في سويسرا ؛ وهو ، انطوان ، سوف يظل وحيداً ، حراً بوقته ، حراً بالشغل على هواه .. حتى انه فاجأ نفسه يفكر : « سآخذ غرفته ، واجعل منها غرفة نومي » .

٨

في الغد ، عندما استيقظ انطوان ، وجد نفسه في حالة نفسية معاكسة ، وقد مر على المستشفى اثناء فترة الصباح، وتطلع إلى ساعته مرة بعد مرة بفراغ صبر فرح ؛ وقد تأخر عليه الذهاب لتلقي أخيه من يدي السيد فاييسم . وكان في المحطة قبل الساعة المعينة ، وفيما كان يمشي المئة خطوة ، أخذ يتذكر ثانية ما قرر قوله للسيد فاييسم حول المؤسسة . ولكن ما ان اصبح القطار بجـــانب الرصيف وشاهد خيال جاك في صف المسافرين وكذلـك نظارتي المدير ، حتى نسي الأقوال التي كان قد أعدها وركض لملاقاة الآتيين .

كان للسيد فاييسم وجه مشرق وبدا انه وجد في انطوان صديقـه الأعز ؛ وكان مرتدياً باعتناء ، وفي يديه قفاز شفاف ، وقد حلق ذقنه حديثـاً بحيث اضطر إلى رش وجهه بالبودرة لاطفاء نار الشفرة . وكان يبدو مستعداً لمرافقة الاخوين إلىبيتهما وان يضغط عليهما لقبول شيء على شرفة المقهى. إلا انانطوان أسرع في الانفصال منادياً سيارة اجرة . ورفع السيد فاييسم نفسه صرة امتعة جاك إلى المقعد . وحين أخذت العربة بالسير ، مع خطر سحق طرف حذائـه المدهون ، أدخل ايضاً نصفه الأعلى من باب العربـــة ليشد بحرارة على أيدي الشابين وتحميل انطوان تحياته المتواضعة إلى السيد المؤسس .

وكان جاك يبكي .

لم يكن قد قال كلمة بعد ولا أتى بحركة للإجابة على استقبال أخيه القلبي ،

ولكن هذا الوهن كان يزيد من شفقة انطوان ومن العواطف الجديدة التي كانت تملأ قلبه . ولو ان احداً خطر بباله ان يذكّره بحقده في السهرة لكان انكره ولأكد بقلب طيب انه لم ينقطع ابداً عن الشعور بان عودة الولد جعلت اخيراً هدفاً لحياته التي كانت حتى الآن فارغة عقيمة بشكل يائس .

وحين أدخل أخاه إلى شقتهما وأغلق الباب وراءهما ، كانت نفسه في عيد ، كمحب يجري لعشيقته الاولى تشريفات مسكنٍ معدٍّ لها وحدها . وقد فكر في ذلك وسخر من نفسه ؛ ولكن كان قليلاً مايهمه ان يكون مضحكاً ؛ فقد كان يشعر انه سعيد وطيب . ومع انه كان يرقب ، دون نجاح ، ألقا من الرضا على وجه أخيه ، فانه لم يشك لحظة في نجاحه بالمهمة التي شرع بها .

كانت المدموازيل قد زارت غرفة جاك في اللحظة الأخيرة : اشعلت النار لتكون الغرفة احسن حفاوة ، واعدت في مكان منظور صحناً من الحلوى باللوز المرشوش بالسكر المعطر بالفانيليا ، وهي حلوى يختص بها الحي ، وكان جاك في السابق يفضلها . وعلى طاولة الليل ، وضعت في قدحٍ باقةً صغيرة من البنفسج تتفلت منها عصابة من الورق المقصوص ، رسمت جيزيل عليها بحروف متعددة الألوان هذه العبارة :

إلى جاكو

ولكن جاكو لم يلاحظ أي شيء من هذه الاستعدادات. لأنه ما كاديدخل، وبينما كان انطوان يخلع معطفه ، حتى جلس بقرب الباب وقبعته بين أصابعه . فصاح انطوان :

ــ تعال إذن وقم بدورة كما يفعل صاحب الملك .

فانضم إليه الولد غير مسرع ، وألقى نظرة لاهية على الغرفة الاخرى وعاد إلى الجلوس . لقد بدأ منتظراً وخائفاً . فاقترح انطوان :

ــ أتريد أن نصعد « لرؤيتهم ؟ »

وعرف من ارتعاش جاك انه لم يكن يفكر بشيء آخر منذ وصوله .

واصبحت هيئته شاحبة ، وخفض عينيه ، ولكنه نهض على الأثر كما لو أنه كان في الوقت نفسه مرتعباً لاقتراب اللحظة المشؤومة ومتعجلاً الانتهاء منها .

وأضاف انطوان ليشجعه :

ـ حسناً ، هيا . لن نفعل شيئاً سوى ان ندخل ونخرج .

وكان السيد تيبو ينتظرهما في مكتبه . وكان ذا مزاج رائق : فالسماء جميلة والربيع قريب . وفي الصباح، وقد حضر قداس الرعية الكبير في مقعد العمل، شاقه ان يردد ان عضواً جديداً في المجمع سوف يجلس دون شك في نفس المكان، نهار الأحد القادم . وجاء إلى امام ولديه وقبل الصغير . وكان جاك ينتحب . ورأى السيد تيبو في هذه الدموع برهاناً على تبكيت ضميره ، وعلى مقاصده الطيبة ؛ وتأثر أكثر مما كان يريد ان يظهر عليه . واجلس الولد على احدى الكنبات ذات السند العالي التي تحيط بالموقد ، وبقي واقفاً ويداه وراء ظهره ، ذاهباً آيباً ، نافخاً كعادته ، ولفظ لوماً مقتضباً ، ودوداً وقاسياً معاً ، مذكراً تحت أية شروط كان من سعادة جاك ان يعود إلى البيت الوالدي ، طالباً منه أن يظهر لأنطوان من الاعتبار والخضوع بقدر ما يظهره له .

وقصر امد اختتام الكلام زائر غير منتظر : انه أحد زملاء المستقبل ، وقد سرح السيدتيبو ولديهحرصاً منهعلىألا يدعه يشعر بالبرد في قاعةالاستقبال . إلا انه سار معهما حتى باب مكتبه . وحين رفع الستار بيد ، ووضع الاخرى على رأس الولد التائب ، وشعر جاك بالاصابع الابوية تداعب شعره وتربت على نقرته بدالة جديدة عليه بحيث لم يستطع أن يكتم تأثره ، فالتفت وأمسكباليد الكبيرة اللدنة ليحملها إلى شفتيه ، إلا ان السيد تيبو فوجىء بذلك ، وفتح عيناً غير راضية ، وسحب يده بشيء من القلق . وقال مدمدماً ساحباً عنقه خارج الطوق عدة مرات متتابعة :

ــ هيا .. هيا ..

ان رقة القلب المصطنعة تلك لم تكن بنظره دلالة على شيء حسن .

ووجدا المدموازيل تلبس جيزيل ملابسها لصلاة الغروب . ولكنها عندما

رأت دخول هذا الغلام الكبير الشاحب ذي العينين المحمرتين ، بـدلاً من ذلك الشيطان الصغير الطائش الذي كانت تنتظره ، ضمت يـــديها ، وانزلق من بين أصابعها الشريط الذي كانت تعقده في شعر الابنة . وتأثرت إلى درجة انهـــا لم تجرؤ على تقبيله أولاً . وقالت أخيراً وقد هرعت إليه :

ـــ يا لله ! أهذا انت ؟

وضمته إلى برنسها ، ثم رجعت إلى الوراء تنظر إليه وعيناها اللامعتـــان تلتهمان وجهه دون أن تتوصل إلى ايجاد القسمات التي أحبتها فيه .

أما جيز ، وهي أكثر خيبة أمل ، وأكثر تخوفاً ، فقـــد كانت تنظر إلى الطنفسة عاضةً على شفتيها لئلا تنفجر ضاحكة . وكانت هي التي حصلت على أول ابتسامة من جاك . وقد قال وهو يسير نحوها :

ـــ ألم تعرفيني ؟

وكسر الجليد . فارتمت بين ذراعيه ثم أخذت تقفز كالجدي دون ان تترك اليد التي أمسكت بها . ولكنها لم تجرؤ على قول شيء هذا النهار ، حتى سؤاله إذا كان قد رأى زهورها .

وهبطوا جميعاً. وجيزيل لم تترك يد جاك والتصقت صامتة به ، بلذة حيوان صغير . وانفصلا في أسفل الدرج . ولكنها التفتت تحت القبو وارسلت إليه عبر الباب الزجاجي قبلة كبيرة بيديها الاثنتين . ولم يرها .

وحين أصبحا وحيدين في بيتهما، أدرك انطوان من النظرة الاولى التي القاها نحو جاك ان أخاه يشعربتعزية حارة لأنه رأى أهله، وان هناك تحسناً فيحالته .

ـــ أتعتقد اننا سنكون على خير حال هنا نحن الاثنين ؟ اجب !

ـــ نعم .

ـــ حسناً . اجلس ، واستقر : خذ هذه الكنبة الكبيرة ، وسترى كم نحن بخير هنا . انا ذاهب لاعداد الشاي . أأنت جائع ؟ اذهب وهـات لنا حلوى

ـــ كلا ، شكراً .

ـــ ولكني اريدها أنا .

لم يكن يفسد مزاج انطوان شيء . فقد اكتشف هذا المجتهد الدائب المنعزل أخيراً حلاوة الحب ، والحماية ، والاقتسام . كان يضحك دون سبب . وهناك نشوة سعيدة جعلته يفصح عن دخيلة نفسه بشكل لم يكنه فيما مضى .

ـ سيكارة ؟ كلا ؟ انت تنظر إلي .. ألا تدخن ؟ انت تنظر إلي كل الوقت كما لو .. كما لو اني كنت أنصب لك شركا ! لنر يا صديقي ، قليلاً من التساهل ، يا للشيطان ، قليلاً من الثقة ؛ أنت لست في الاصلاحية ! ألا تزال تحذر مني ؟ قل .

ـ ولكن كلا .

ـ ماذا إذن ؟ أكنت خائفاً من ان أخدعك ومن ان أعيدك ولا تكون حراً كما كنت تامل .

ـ ك .. كلا .

ـ مم تخاف . أتاسف على شيء .

ـ كلا .

ـ إذن . ماذا يجري وراء هذه الجبهة العنيدة . ها .

وجاء إلى الولد واصبح على وشك الانحناء ليصل إليه ويعانقه ؟ ولكنه لم يفعل . ورفع جاك نحو انطوان عيناً عابسة ؛ ورأى ان الآخر ينتظر جواباً فقال :

ـ ولماذا تسألني كل هذا ؟

وبعد ارتعاشة خفيفة أضاف بصوت منخفض جداً :

ـ وما فائدة ذلك ؟

ـ وساد صمت قصير . وشمل انطوان أخاه بنظرة مشفقة ، حيث شعر جاك بالرغبة بالبكاء من جديد .

وأكد انطوان بلهجة كئيبة :

ـ أنت كالمريض يا صغيري . ولكن هذا سيزول . ثق بذلك . فقط دعني أعتني .. وأحب ، ـ أضاف ذلك بخجل دون أن ينظر إلى الولد ـ إننا لانعرف

بعضنا البعض جيداً بعد . فكر إذن ، تسع سنوات فارق السن ، إنها مهواة بيننا، وقد كنت ولداً. كنت في الحادية عشرة عندما بلغت العشرين ؛ ولم يكن بإمكاننا أن نشترك في شيء . أما الآن فالأمر ليس كذلك أبداً . حتى إني لا أعرف إذا كنت قد أحببتك في السابق : لم أكن أفكر بذلك . ها أنت ترى أنني صريح . ولكني أشعر جيداً أن هذا قد تغير أيضاً .. أنا مسرور جداً ، ومتأثر جداً أيضاً برؤيتك هنا ، بالقرب مني . ستصبح الحياة أكثر سهولة على اثنين ، وأفضل. ألا تصدّق ؟ أنت ترى انني حين أرجع من المستشفى ، فإنني واثق من أنني سأسرع بالعودة إلى بيتنا وسأجدك هنا، جالساً إلى مكتبك وقد اشتغلت بنشاط ، أليس كذلك ؟ وفي المساء تنزل باكراً ويجلس كل منا من ناحيته تحت القنديل ، وتبقى الأبواب مفتوحة لنرى بعضنا البعض ونشعر أننا جيران .. أو أيضاً في بعض الأمسيات نثرثر ، نثرثر معاً كصديقين ، دون أن نستطيع التصميم على النوم .. مابك ؟ .. أتبكي ؟

واقترب من جاك وجلس على ذراع كنبته ، وأخذ يده بعد تردد . وظل جاك مديراً وجهه المليء بالدمع ، ولكنه أبقى يد انطوان في يده ، وبعد دقيقة طويلة شد عليها بحمّى حتى كاد يسحقها . وهتف أخيراً بصوت مختنق :

ـ انطوان ! انطوان ! لو تعلم كل ما جرى في نفسي منذ سنة .

وأخذ ينتحب بقوة بحيث احترس انطوان من توجيه الأسئلة إليه . وكان قد ألقى ذراعه حول كتفي جاك وأبقى أخاه الصغير مضموماً إليه بحنو . وذات مرة ، في السابق ، أثناء مكاشفتهما لأول مرة ، في ظلام العربة ، كان قد عرف تلك الهنيهة من الشفقة المسكرة ، وذلك الفيض المفاجىء في القوة ، والإرادة لاثنين . وفي غالب الأحيان منذ ذلك الوقت ، كانت تراوده فكرة ، وقد اتخذت هذا المساء بروزاً غريباً . ونهض ، وأخذ يذرع الغرفة . وبدأ قائلاً بحمية خاصة :

ـ اسمع . لا أدري لماذا أكلمك عن هذا منذ اليوم . ومع ذلك فأمامنا الفرصة للعودة إليه . ها أنت ترى أنني أفكر بذلك ؛ بأننا اخوان . وهذا

يبدو أنه لا يدل على شيء ، ومع ذلك فهو أمر جديد بالنسبة إلي ، وكثير الخطورة . اخوان ! ليس نفس الدم فقط ، بل نفس الجذور منذ بدء الأجيال . تماماً نفس دفقة النسغ ، نفس الاندفاع ! نحن لسنا فردين فقط ، انطوان وجاك : نحن اثنين من آل تيبو ، نحن آل تيبو . هل تفهم ما أريد أن أقول ؟ إن ما هو مخيف ، فهو أن تجد في نفسك هذا الاندفاع ، هذا الاندفاع نفسه ، اندفاع آل تيبو . أتفهم ! فنحن ، آل تيبو ، لسنا كبقية النـــاس . حتى إني أعتقد أن فينا شيئاً أكثر من الآخرين بسبب هذا : لأننا من آل تيبو . وأنا في كل مكان مررت فيه ، في المدرسة ، في الجامعة ، في المستشفى ، في كل مكان ، كنت أشعر أنني واحد من آل تيبو ، كائن على حدة ، ولا أجرؤ على القول أنه أكثر سمواً ، إلا أن الأمر كذلك. ولماذا لا ؟.. ! نعم، أكثر سمواً ، مسلح بقوة لا يملكها الآخرون . وأنت ، فكر بذلك . ألم تكن تشعر في المدرسة ، رغم التلميذ الكسول الذي كنته ، بذلك الاندفاع الداخلي الذي كان يجعلك تتخطى الآخرين جميعهم ، **بالقوة**؟

فقال جاك الذي كف عن البكاء : نعم .

كان يتطلع في وجه أخيه باهتمام شديد ، واتخذت هيئته بغتة تعبـــير ذكاء ونضج مَنَحَهُ عشر سنوات زيادة على عمره . وتابع انطوان :

ـ تأكدت ذلك منذ وقت طويل . يجب أن يكون فينا تركيب استثنائي من الكبرياء ، والعنف والعنـــاد ، ولا أعرف كيف أقول . وهكذا ، فإني أفكر بالأب .. ولكنك لا تعرفه جيداً .. مع ذلك فهو أيضاً شيء آخر !

وتابع بعد وقفة ، وجاء يجلس قبالة جاك ، منحني الجـذع ، واليدان على الركبتين ، كما كان يفعل السيد تيبو .

ـــ ان ما أردت قوله فقط اليوم لك ، هو ان تلك القوة الخفية كانت تظهر دون انقطاع في حياتي، لا أعرف كيف أقول، على شكل موجة ،على شكل تلك الامواج التي في الاعماق والتي ترفعك حين تسبـح ، وتحملك ، وتجعلك تقطع مساحة واسعة بوثبة كبيرة ! سترى ! هذا مدهش. ولكن يجب معرفة الاستفادة

منها . لا شيء مستحيل ، لا شيء صعب حين تكون لديك هذه القوة . وهي لدينا ، أنت وانا . اتفهم ؟ وهكذا انا.. ولكني لا أقول لك ذلك لأجل نفسي. لنتحدث عنك . وهذه هي اللحظة التي يجب ان تقاس فيها تلك القوة فيك ، وان تُعرف ، وان تستخدمها . والوقت المضاع ستستعيده دفعة واحدة إذا أردت ، الإرادة ! لا يستطيع جميع الناس ان يريدوا ، (ولم يمض وقت طويل على معرفتي ذلك) انا ، استطيع ان أريد . وانت أيضاً تستطيع ان تريد ، فآل تيبو يستطيعون ان يريدوا ، ولهذا السبب فان آل تيبو يستطيعون الشروع بكل شيء . تخطي الآخرين ! وفرض النفس . هذا ما يلزم . يجب على هذه القوة المخبأة في عرق ان تفضي اخيراً إلى شيء . وشجرة آل تيبو يجب ان تتفتح فينا : تفتح سلالة . اتفهم هذا ؟ اتفهم هذا يا جاك ؟

كانت عينا جاك متعلقتين دائماً بعيني انطوان ، بانتباه مؤلم . وصاح :

— ولكن نعم ، افهم !

وكانت عيناه الصافيتان تلمعان ؛ وفي صوته يهتز نوع من الهيـاج . وكان له ثنية غريبة في زاوية شفتيه : حتى ليظن انه يحقد على أخيه لأنـه شوش نفسه بتلك النسمة غير المنتظرة . واحس برعشة سريعة ، ثم استرخى وجهه ، وبدا عليه تعب متناهٍ ، وقال فجأة :

— آه ! دعني .

وأسقط جبهته بين يديه .

وسكت انطوان ، وتفحص أخاه. لكم شحب وهزل منذ خمسة عشر يوماً! وشعره الامغر المجزوز منمدة قريبة كان يشي بحجم الجمجمة الشاذ ويجعل انفصال الاذنين وهشاشة النقرة أكثر ظهوراً . ولاحظ انطوان بشرة الصدغين الشفافة ، وذبول الصبغة ، والدائرة الزرقاء حول العين وقال فجأة :

— أأصلحت نفسك ؟

— من ماذا ؟

تمتم جاك . واضطرب صفاء نظرته ، واحمر وجهه ، ولكنه احتفظ بتعبير

دهشة كان تصنعاً .

ولم يجب انطوان .

وتقدمت الساعة . فتطلع في ساعته ونهض ؛ كان عليه ان يقوم بزيارته التفتيشية حوالي الساعة الخامسة. وتردد في اعلام أخيه انه سيتركه لوحده حتى وقت الغداء . ولكن جاك بدا مسروراً من ذهابه بعكس ما كان ينتظر .

وفعلاً ، شعر بهدوء ثائره حين بقي وحده . وخطرت له فكرة الطواف في الشقة ، ولكن قلقاً غامضاً اجتاحه في الغرفة الملاصقة ، وامام الباب المقفل ، فعاد إلى غرفته واقفل الباب على نفسه . انه لم ير غرفته إلا لماماً . لقد شاهد اخيراً باقة البنفسج ، والشريط . وتشابكت جميع تفاصيل النهار في ذاكرته ، استقبال الأب ، وحديث انطوان . واستلقى على الكنبة وعاد إلى البكاء ، دون أي يأس : كلا ، كان يبكي من الانهاك على الخصوص ، وايضاً بسبب الغرفة ، والبنفسج ، وتلك اليد التي وضعها والده على رأسه ، واعتناءات انطوان، وتلك الحياة الجديدة المجهولة ؛ كان يبكي لانهم يظهرون من جميع النواحي انهم يريدون ان يحبوه ؛ ولانهم سيهتمون به منذ الآن ، ويكلمونه ، ويبتسمون له ؛ ولأن عليه ان يجيب الجميع ، ولأن كل شيء انتهى بنظره ليكون مطمئناً .

٩

لكي يخرج انطوان من موضوع إلى آخر ارجأ دخول جاك إلى مدرسة ثانوية إلى شهر تشرين الاول . وقد أعد مع رفاق قدماء يعملون في الجامعة منهاجاً للدروس الملخصة هدفه إعادة تربية ذكاء الولد بصورة تدريجية. واقتسم المهمة ثلاثة اساتذة مختلفين . وكانوا كلهم شباناً ، اصدقاء . وكان التلميذ المستمع يشتغل في ساعاته وفقاً لقوة انتباهه . وسر انطوان لتأكده ان عزلة الاصلاحية لم تسبب لقوى أخيه العقلية كثيراً من الضرر بقدر ما كان يخشى : لقد نضج عقله في بعض النواحي بشكل غريب في العزلة ؛ وبعد انطلاق بطيء أصبح التقدم سريعاً أكثر مماجرؤ انطوان على ان يأمل به. واستفاد جاك من الاستقلال

الذي منح له ، دون أن يسيء استعماله . ومع ذلك فان انطوان ، دون انيقول أمام والده ، وبموافقة الأب فيكار الضمنية ، لم يكن يتهيب مخاطر الحرية . وكان عالماً بأن طبيعة جاك غنية ، وان بالامكان ربح الشيء الكثير إذا تركه ينمو على هواه وفي اتجاهه الخاص .

في الأيام الاولى كان الولد يشعر بنفور شديد من الخروج من البيت . فقد كان الشارع يسبب له الدوار . واضطر انطوان ان يحاول إيجاد رحلات له يقوم بها ليضطره إلى تنشق الهواء . وهكذا عاد جاك إلى التعرف على حيه القديم . حتى انه أخذ يتذوق هذه النزهات ؛ وكان الفصل جميلاً ؛ وأحب أن يتبع الارصفة حتى نوتردام ، أو ان يهيم على وجهه في التويلري . حتى انه جازف ذات يوم بالدخول إلىمتحف اللوفر؛ ولكنه وجد فيه الهواء خانقاً مليئاً بالغبار، وترتيب اللوحات كثير الرتابة بحيث هرب بسرعة ولم يعد إليه .

واثناء تناول الطعام كان يظل صامتاً ؛ كان يصغي إلى والده. إلا انالرجل الكبير كان كثير التسلط ذا صحبة خشنة ، بحيث ان جميع الكائنات المجبرة على العيش في بيته كانت تختبىء صامتة وراء قناع . والمدموازيل نفسها ، بالرغم من اعجابها الورع ، كانت تخفي وجهها الحقيقي دائماً . وكان السيد تيبو يتمتع بهذا الصمت الامتثالي الذي يترك المجرى حراً لحاجته في فرض أحكامه ، وكان يمزج هذه الحاجة بالاستحسان العام ، بشكل ساذج . وكان متحفظاً جداً حيال جاك ، وامينا لتعهداته ، فلم يكن يسأله ابداً عن استعمال وقته .

وكانت هناك نقطة بدا السيد تيبو فيها صعب المراس : لقد منع منعاً باتاً جميعاً العلاقات مع آل فونتانان . وزيادة في الاطمئنان فقد قرر ألا يظهر جاك هذه السنة في ميزون ـ لافيت حيث كان السيد تيبو يذهب في كل فصل ربيع مع المدموازيل ، وحيث آل فونتانان يملكون ايضاً عقاراً صغيراً على حاشية الغابة . وكان من المتفق عليه ان يظل جاك هذا الصيف في باريس مثل انطوان.

وكان المنع من رؤية آل فونتانان موضوع حديث جدي بين انطوان وأخيه. وكانت أول صرخة لجاك هي التمرد : فقد كان يشعر ان الظلم الماضي لن يمحى

ما دام هذا الشك محفوظاً ضد صديقه . انه رد فعل عنيف لم يكدر انطوان : فقد كان له بمثابة برهان على ان جاك ، جاك الحقيقي قد ولد ثانية . ولكن حين مضت هذه الحركة الاولى من الغضب ، انكبّ على ارجاع أخيـــه إلى جادة العقل . ومع ذلك فلم يجد صعوبة كبيرة في ان ينال منه وعداً بألا يحاول رؤية دانيال . وفي الواقع ، فان جاك لم يكن حريصاً على ذلك بقدر ما يفكرون . كان لا يزال كثير الوحشية فلا يتمنى احتكاكات أخرى ، وصداقته الخالصة مع أخيه كانت تكفيه ؛ يضاف إلى ذلك ان انطوان كان يسعى ليعيش معـــه برفقة بسيطة ، دون أي شيء يمكن ان يشير إلى فارق السن بينهما ، وبدون السلطة المعطاة له .

في الايام الاولى من حزيران ، وكان جاك عائداً ، رأى حشداً كبيراً تحت الباب الكبير : فقد اصيبت الأم فرولان بنوبة وكانت تضطجع بالعرض في منزلها . واستعادت حواسها في السهرة . ولكن الذراع والساق من الجهة اليمنى لا يتحركان .

وبعد بضعة أيام من ذلك ، وذات صباح ، وكان انطوان على وشك الخروج، رن الجرس ، وظهرت في اطار الباب فتاة بثوب وردي ومريلة سوداء ، وكانت محمرة الوجه بابتسامة جريئة .

— أتيت لأجل تدبير البيت .. ألا تعرفني يا سيد انطوان؟ ليزبيت فرولان..

كانت تتكلم لهجة الالزاس وهي أكـــثر ركاكة على شفتيها كطفلة . وكان انطوان يتذكر جيداً « يتيمة الام فرولان » التي كانت تعيش في السابـق وهي تحجل في فناء الدار . وأوضحت انها جاءت من ستراسبورغ للاعتناء بعمتهـا ، ولتنوب عنها في عملها ؛ وبدون أن تضيـع الوقت بدأت بأعمال البيت .

وهكذا كانت تعود كل يوم . وكانت تحمل الطبق وتحضر فطـور الشابين . وكان انطوان يمازحها حول احمرارها الفجائي ويسألها عن الحياة الألمانية . انها في التاسعة عشرة من عمرها؛ وحين تركت البناية منذ ست سنوات كانت تسكن

عند عمها الذي يدير في ستراسبورغ « فندق – مطعم » في حي المحطة . وما دام انطوان موجوداً هناك فان جاك كان يتدخل قليلاً في الحديث . ولكن ما ان يشعر بنفسه وحيداً مع ليزبيت حتى يتجنبها .

إلا انها كانت تحمل طعام الفطور إلى غرفة جاك في الايام التي تكون فيها نوبة انطوان في المستشفى . وعندئذ كان يسألها عن اخبار العمة ؛ ولم تكن ليزبيت تمن عليه بأي تفصيل : الام فرولان تتماثل للشفاء ، ولكن ببطء ؛ وتصبح شهيتها أفضل بين يوم وآخر . وكانت ليزبيت تحترم التغذية ، وهي صغيرة ، بدينة ، وكانت مرونة جسدها تشي بحبها للرقص ، واللعب ، والغناء . وحين تضحك كانت تنظر إلى جاك دون أقل ارتباك . وجه ظريف كيّس ، الانف قصير . وشفتان ناهزتان منتفختان قليلاً ، وعينان من بورسلين ، وحول الجبهة شعر لم يكن اشقر ولكن بلون القنب .

كانت ليزبيت في كل يوم تزيد من مدة ثرثرتها . واعتاد خجل جاك على ذلك . وكان يصغي إليها بانتباه جدي . وكانت له طريقة في الاصغاء جعلته في كل وقت موضع أسرار : أسرار الخدم ، ورفاق التلمذة ، والأساتذة أحياناً . وكانت ليزبيت تتكلم معه بحرية أكثر من انطوان ، ولكنها مع الكبير تبدو أكثر طفولة .

ولاحظت ذات صباح ان جاك يقلب صفحات قاموس ألماني فأضاعت القليل الذي بقي لها من التحفظ . كانت تريد ان ترى ماذا يترجم ، وقد رق قلبها أمام اغنية مؤثرة لغوته *Goethe* كانت تعرفها عن ظاهر قلب و كانت تغنيها أيضاً .

ليستمر النهر دائماً في جريانه .
ولكنني ابداً لن أكون سعيداً . (١)

و كان الشعر الالماني يدير رأسها . فدندنت عدة اغنيات وفسرت الابيات الاولى منها . وما كانت تجده الاجمل فهو دائماً صبياني وحزين :

---

١ – بالالمانية في الاصل .

لو كنت عصفور سنونو صغيراً
آه ! كم كنت اطير نحوك !

انها كانت تفضل شيلر . وجمعت افكارها وتلت دفعة واحدة شذرةً تحبها بين الجميع ، ذلك المقطع من « ماري ستيوارت » حيث نالت الملكة الشابة السجينة الاذن بان تخطو بضع خطوات في حدائق سجنها ، وتندفع نحو الأرض الخضراء مبهورة من الشمس ، نشوى بالشباب . لم يفهم جاك جميع الكلمات ؛ وكانت تترجم بقدر ، ولكي تشرح ذلك الاندفاع نحو الحرية وجدت نبرات كثيرة البساطة بحيث شعر جاك ، وهو يفكر بكروي ، بان قلبه يسترخي . واخذيسرد مصائبه على دفعات، وبعد كثير منالكتمان. انه لا يزال يعيشوحيداً ويتكلم نادراً بحيث ان نبرة صوته كانت تسكره بسرعة . وانتعش ، وشوه الحقيقة كما يحلو له ، وادخل في قصته جميع أنواع التذكارات الادبية ، لأن أكثر شغله وضوحاً منذ شهرين ، يتألف من التهام روايات مكتبة انطوان . وكان يشعر جيداً ان هذا التبديل الرومانطيقي كان له على حاسة ليزبيت من التأثير ما لا يحدثه الواقع الحقير . وحين رأى الفتاة الجميلة تمسح عينيها ، بهيئة مينيون *Mignon* وهو يبكي وطنه ، تذوق لذة الفنان التي كانت لا تزال مجهولة لديه، وشعر بكثير من عرفان الجميل بحيث تساءل ، وهو يرتجف من الامل ، إذا لم يكن هذا حباً .

في غد ذلك النهار انتظرها بفراغ صبر . ربما كانت في ريبة ؛ وحملت إليه دفتراً مليئاً بالبطاقات المصورة والتوقيعات ، والزهور الجافة : كانت حياتها منذ ثلاث سنوات كفتاة هي كل حياتها . وكان جاك يرهقها بالاسئلة ، ويحب ان يصاب بالدهشة ، ويدهش من كل ما لا يعرفه . وكانت حكايات ليزبيت معينة ومحددة بتفاصيل أكيدة لا تسمح بالارتياب بصدقها ؛ ومع ذلك ، فحين كان خداها يتلونان وصوتها يصبح أكثر ضعفاً ، فانها تتخذ هيئة الابتكار والكذب التي ترى على الناس الذين يحاولون ان يرووا حلماً . كانت تفحص برجليها من السرور وهي تتحدث عن سهرات الشتاء في « تانزشول » حيث

يلتقي فتيان وفتيات الحي . ومعلم الرقص مسلح بكمان صغير جداً ، وهويتابع الراقصين مسجلاً الايقاع بينما السيدة تعزف آخر رقصات الفالس من فيينا على البيانو الآلي. وعند منتصف الليل كانوا يتناولون الطعام، ثم يغتسلون بالماء ليلاً ، كجماعات مرحة ، ويترافقون من بيت إلى بيت دون ان يستطيعوا الانفصال ما دام الثلج سهلاً على الخطو ، وما دامت السماء صافية والهواء حاد على الخدود . واحياناً يختلط جنود صفوف ضباط بالراقصين الاعتياديين. وأحدهم كان يدعى فريدي وآخر يدعى ويل *Will* . وترددت ليزبيت طويلاً لتدل في صورة جمهور باللباس الرسمي على الدمية الخشبية الكبيرة التي تحمل هـــذا الاسم « ويل » . وقالت وهي تنفض الصورة بقفا كمها :« آك ، انه كثير النبل ، كثير الفتور !» وكانت تضطر إلى الذهاب إلى بيته ، فقـــد كان هناك حكاية قيثارة ، وتوت شوكي ، وحليب رائب ، وكانت تتوقف ضاحكة ضحكة صغيرة غير منتظرة لم تكن تكملها. وتارة كانت تدعو ويل خطيبها ، وطوراً تتكلم عنه كانه ضاع بالنسبة إليها . وانتهى جاك إلى الفهم انه أرسل مع فرقة عسكرية بروسية بعد حادث غامض ومضحك كان ذكره يجعلها ترتعش من الرعب وتقهقه ضاحكة دورياً : لقد كان في الفندق غرفة في داخل رواق ، لأرضيتها الخشبية صرير ؛ ولكن هنا ، اصبح كل شيء غير مفهوم ؛ ويجب ان تكون الغرفـــة موجودة في نفس فندق فرولان ، وإلا لما استطـــاع العم الهرم ان يلاحق صف الضابط ليلاً في باحة الدار وان يلقيه في الشارع ، بالقميص والجورب . وكانت ليزبيت تضيف ، بدلاً من الشرح ، ان عمها كان يفكر بتزويجها لتقوم على إدارة البيت: وكانت تقول ايضاً انه كان ذا شفة كشفة الارنب، حيث كان يحرق من الصباح إلى المساء سيكاراً يشتم منه رائحة السناج ؛ وتنقطع عن الابتسام دون تأخير وتأخذ بالبكاء .

كان جاك جالساً إلى طاولته . وكان الدفتر مفتوحاً أمامـــه . وليزبيت جالسة على ذراع الكنبة ، وكانت حين تنحني يتنشق انفاسها ، وشعرها الاجعد يلامس اذنه. لم يكن يشعر بأي اضطراب في الحواس. فقد عرف فساد الاخلاق

قبلاً، ولكن عالماً آخر يغريه الآن، ويعتقد انه اكتشفه في نفسه، وانه استخرجه من رواية انكليزية قرئت حديثاً: الحب الطاهر، عاطفة من الكمال السعيد والطهارة.

ولم تنقطع مخيلته طول النهار عن إعداد مقابلة الغد في أدق تفاصيلها: وكان مقتنعاً انه ما من شيء يزعجها في الصباح؛ وقد أجلس ليزبيت على الكنبة، إلى اليمين؛ وكانت تحني رأسها إلى الامام، وهو واقف، يرى نقرتها تحت الشعر النابت، في تجويف فستانها؛ ولم تكن تجرؤ على رفع عينيها؛ وكان منحنياً: «لا أريد ان ترحلي ثانية .. » عندئذ فقط رفعت رأسها بنظرة مستفهمة، أما هو فكان جوابه قبلة على جبهتها، قبلة الخطوبة. «بعد خمس سنوات سيصبح عمري عشرين سنة. وسأقول لوالدي: «لست ولداً» وإذا قالوا لي: «ولكنها ابنة أخ حارسة المنزل» فاني .. » ـ واتى بحركة تهديد ـ عروسة! عروسة! انت عروسي!» وبدت له غرفته صغيرة جداً على هذا السرور الكثير. فخرج. وكان الهواء حاراً. وكان يتحرك بلذة في النور. «عروسة! انها عروسي!».

ونام نوماً عميقاً في الغد بحيث لم يسمعها وهي تدق الجرس، وقفز من السرير عارفاً ضحكتها في غرفة انطوان. وحين انضم إليهما كان انطوان قد تناول فطوره. وأمسك ليزبيت بكتفيها بملء يديه، وهو على اهبة الخروج وقال مهدداً:

ـ اتسمعين؟ إذا تركتها تتناول القهوة بعد فسيكون لك حساب معي.

وكانت ليزبيت تضحك ضحكتها الخاصة. وترفض التصديق ان قهوة جيدة بالحليب على الطريقة الالمانية، محلاة جيداً بالسكر، تشرب وهي ساخنة، يمكن ان تسبب ضرراً للام فرولان.

وظلا وحدهما. وكانت قد وضعت على الطبق قطعاً من الحلوى ملفوفة، ومرشوشة باليانسون، صنعتها البارحة وفقاً لطلبه. وكانت تنظر إليه باحترام وهو يتناول طعامه. وكان حاقداً على نفسه لانه جائع. ما من شيء من كل هذا كان متوقعاً؛ لم يكن يعرف في أي مكان يوصل الواقع بالمشهد الذي كان قد أعده بدقة مفرطة. ولزيادة المصيبة رن الجرس. لقد كانت مفاجأة: دخلت

الام فرولان وهي تعرج عرجاً خفيفاً ؛ لم تكن سليمة تماماً ولكنها تتحسن ، تتحسن كثيراً وجاءت تلقي تحية الصباح على جاك . ووجب بعد ذلك ان تساعدها ليزبيت على بلوغ مسكنها ، وإجلاسها في كنبتها . ومضى الوقت . ولم تعد ليزبيت . وجاك لا يستطيع ابداً احتمال معاكسة الظروف ، فكان يروح ويجيء فريسةً لمعاكسةٍ شبيهة بغضبه في السابق . كان يشد على فكيه ويدخل قبضتيه في جيوبه . وبدأ يحقد عليها .

وحين ظهرت اخيراً كان فمه جافاً وعينه سيئة ؛ وكان الانتظار قد أثار أعصابه بحيث اخذت يداه ترتجفان . وتظاهر بانــــه يشتغل . فأنجزت ترتيب الغرفة وقالت له إلى اللقاء ، وتركها تذهب وهو منحن على كتبه والمـــوت في نفسه . ولكن حين أصبح وحده ، انقلب إلى الوراء وابتسم ابتسامة مُرة بحيث اقترب من المرآة ليتمتع بها بشكل محسوس . وللمرة العشرين مثلت له مخيلته المشهد المناسب : ليزبيت جالسة ، وهو واقف ، النقرة .. شعر بتقزز ، ووضع يديه أمام عينيه وارتمى على الكنبة ليبكي ، ولكن الدموع لم تأت ، ولم يكن يشعر بسوى الاضطراب والحقد .

وحين دخلت في اليوم التالي كانت ذات هيئة حزينة اعتبرها جاك لومـــاً وجعلت حقده يذوب . في الواقع ، تلقت رسالة سيئة من ستراسبورغ : عمها يطلبها، والفندق مليء ، وقد رضي فرولان ان يصبرا اسبوعاً آخر وليس أكثر. وكانت تفكر بأن تري الرسالة لجاك ؛ ولكنه جاء نحوها بنظرة كثيرة الخجل والرقة منعتها من قول شيء محزن . وجلسا على الكنبة ، تماماً في المكان الذي صمم ان تجلس فيه ، وبقي واقفاً في المكان الذي كان قد تخيل نفسه فيـــه . وخفضت رأسها ، ورأى تحت خصلة من الشعر الاجعد النقرة الهاربة في فتحة الفستان ، وانحنى كالتمثال المتحرك حين انتصبت – متأخرة قليلاً . فتطلعت إليه بدهشة ، وابتسمت ، وجذبته إلى جانبها على الكنبة ، وألصقت وجهها بوجهه دون تردد ، وصدغها على صدغه ، وخدها الحار على طول خده .

– ياعزيزي ..

فكاد يغمى عليه من العذوبة واغمض عينيه . وشعر باصابـــع ليزبيت التي كانت اطرافها منخوسة بالابر تداعب خده الحر، وتنساب إلى طوقه ، وانحلّت العروة . وشعر برعشة لذيذة . واليـد الصغيرة المغناطيسية انزلقت بين القميص والبشرة ، وراحت تجثم على نصفه الأعلى . عندئذ جازف هـــو أيضاً باصبعين اصطدما بدبوس ذهبي ففتحت بنفسها طوق فستانها لتساعده . وأمسك أنفاسه. لقد لامست يده لحماً مجهولاً . واتت بحركة كأنها دغدغت ، وشعر فجأة بكتلة النهد تسيل في تجويف يده . واحمر وجهه ، وقبلها ببلاهة . وردت إليـه قبلته حالاً وبحرارة وبملء فمها؛ وظل كذلك مضطرباً متقززاً قليلاً بسبب الرطوبة التي تركها له ذلك الرضاب الغريب بعد حرارة القبلة . وكانت قد أعادت وضـــع وجهها على وجهه ولم تأت بحركة ؛ وشعر بأهدابها ترف على صدغه .

منذ ذلك الوقت ، كانت الضحكة اليومية . وكانت قـــد سحبت دبوسها الذهبي حتى الغرفة الملاصقة وغرزته في الباب منذ دخولها. وكان الاثنان يجلسان على الكنبة ، الخد على الخد ، واليدان في الدفء ، ويظلان صامتين . أو انهـــا كانت تبدأ بأغنية المانية تسيل دموعها . وأثناء فترة طـــويلة كانا يؤرجحان صدغيهما المتلاحقين على ايقاع ويمزجان انفاسهما دون رغبة بلذة أخـرى ، وإذا كانت أصابع جاك تتحرك قليلاً تحت القميص . وإذا نقـل رأسه قليلاً ليلامس بشفتيه خد ليزبيت ، فانها كانت تثبت عليه عينيها اللتين تبدوان كأنهما تطلبان أن يكون لطيفاً معها ، وكانت تتنهد :

ــ كن فاتراً ...

وفي كل مرة يكونان في مكانهما فان الأيدي تبقى عاقلة . وباتفاق ضمني كانت ليزبيت وجاك يتجنبان الحركات الجديدة . وكان عناقهما كله في تلـــك الضمة الصبور المستمرة لوجهيهما ، وأيضاً ، عند كل تنفس ، في تلك المداعبة التي توفرها للاصابع تلك الاختلاجة الفاترة للصدرين . وبالنسبة لليزبيت التي كانت تبـدو تعبة في معظم الأحيان ، فانها كانت تبعد دون جهد كل إثارة للحواس : كانت بقرب جاك تنتشي بالطهارة والشعر. أما هو فلم يكن بحاجة لإبعاد محاولة أكثر

وضوحاً : فتلك المداعبات الطاهرة كانت تجد نهايتها في ذاتهـا ؛ والفكرة التي يمكن ان تكون تمهيداً لنشاطات اخرى لم تكن تخطر له ببال . وأحياناً ، إذا سبب له فتور هذا الجسد النسائي اضطراباً جسمانياً فإن ذلك يحـدث دون ان يشعر به تقريباً : سوف يموت من التقزز والخجل لفكرة ان ليزبيت يمكـن ان تلحظ ذلك .. ليس هناك اشتهاء غير طاهر يستولي عليه حين يكون بقربهـا . لقد كان الانفصال تاما بين روحه وجسده . فالروح للحبيبة والجسد يعيش حياته المنفردة في عالم آخر ، في عالم ظلامي لا تنفذ إليه ليزبيت . وإذا حـدث له في بعض الأمسيات ألا يجد النوم ، وان يلقي بنفسه خـارج الاغطية ، وان ينزع قميصه أمام المرآة ، وان يقبل ذراعيه ويلامس جسده بغباوة جنونية ، فـان هذا يحدث دائماً وهو وحده ، بعيداً عنها ؛ ان صورة ليزبيت لم تكن تأتي أبداً لتنضم إلى الموكب العادي لما يخطر بباله .

أما فيما يتعلق بليزبيت فان موعد الرحيل قد اقترب ؛ يجب ان تترك باريس نهار الأحد القادم بقطار الليل . ولم تكن تملك الشجاعة لتخبر جاك .

ونهار الأحد ذاك ، ساعة الغداء ، عرف انطوان ان أخاه في غرفته ، فدخل هو إلى غرفته ، وكانت ليزبيت تنتظر . فارتمت على كتفه باكية . وسألها بابتسامة غريبة : وبعد ؟

فأشارت ان لا .

– وتذهبين الآن ؟

– نعم .

فأتى بحركة تدل على فراغ الصبر . وقالت :

– انها غلطته أيضاً . فهو لم يفكر بذلك .

– لقد وعدت بأن تفكري بذلك عنه .

فتطلعت إليه . وكانت تحتقره قليلاً . فهـو لم يكن يستطيع الادراك ان جاك بالنسبة إليها « ليس الشيء نفسه » . ولكن انطوان كان جميلاً ، وتحب هيئته المشؤومة ، وتغفر له كونه كالآخرين .

وكانت قد شبكت دبوسها الذهبي في الستار وخلعت مــــلابسها بهيئة ٍ لاهية مفكرة بالرحلة. وحين أخذها انطوان بين ذراعيه ضحكت ضحكة غيرمنتظمة ضاعت في حنجرتها : « يا حبيبي ... كن فاتراً في مسائنا الأخير » .

وظل انطوان غائباً طوال السهرة . ونحو الساعة الحادية عشرة سمعه جــاك يعود ويبلغ غرفته دون احداث ضجة . فذهب لينام ولم يناده .

وعند دخوله في سريره اصطدمت ركبته بشيء صلب : صرة ، مفاجأة ! انها بعض فطائر الحلوى باليانسون في ورقة قصدير مطلية بالسكر المــــذاب . وورقة صغيرة بلون بنفسجي زاه ٍ مطوية في منديل حريري عليه الحرفينالاولين من اسم جاك :

إلى حبيبي !

لم تكن قد كتبت إليه شيئاً بعد . وكان ذلك كأنها اتت في المساء تنحنيعلى وسادته . وكان يضحك من السرور وهو يفض الغلاف :

« يا سيد جاك .

حين تتسلم هذه الرسالة أكون قد صرت بعيدة .. »

وتشوشت السطور ، وتغطت جبهته بالعرق .

« ... سوف أكون بعيدة لانني سآخذ في هذا المساء قطار الساعة الثانيــة والعشرين والدقيقة الواحدة والعشرين في محطة الشرق إلى ستراسبورغ .. »

ـــ انطوان !

صرخة مؤثرة جداً بحيث ركض انطوان معتقداً ان أخاه جريح .

كان جاك جالساً على سريره ، متباعد الذراعين ، مفتوح الشفتين قليلاً ، والعينان متوسلتان : حتى ليظن انه يموت وان انطوان وحده يستطيـع انقاذه. وكانت الرسالة ملقاة على الشرشف . فقرأها انطوان دون دهشة : لقد أوصل ليزبيت إلى القطار . وانحنى على أخيه ولكن الآخر أوقفه :

– اسكت ، اسكت ، لا تستطيع ان تعرف يا انطوان ، لا تستطيع ان تفهم .

كان يستعمل نفس الكلمات التي تستعملها ليزبيت ، واتخذ وجهه هيئة مصدوم ، ونظره إزداد تحديقاً . رزانة تذكرنا بالطفل القديم . وفجأة انتفخ صدره ، واخذت شفتاه ترتجفان . وكما لو انه كان يحاول الالتجاء من أحد ، والتفت ، وارتمى على الوسادة منتحباً . وظل أحد ذراعيه إلى الوراء ، ولمس انطوان تلك اليد المتشنجة التي اختطفت يده حالاً وضمتها بحنو . لم يكن يعرف ماذا يقول ؛ كان يتطلع إلى ظهر أخيه المنحني الذي كان يهزه البكاء . ومرة أخرى ، اكتشف تلك النار المخبأة تحت الرماد والمستعدة دائماً للاشتعال وقاس مقدار بطلان ادعاءاته التربوية .

وفي الغد كان جاك لا يزال نائماً أو انه يتظاهر بالنوم حين ترك انطوان البيت. وتلاقيا فوق ، على المائدة العائلية . كانت قسمات جاك متعبة ، وهناك ثنية احتقارية على زوايا الشفاه ، وتلك الهيئة للاولاد الذين يشمخون بانوفهم لاعتقادهم انهم غير معترف بهم . واثناء الوليمة كان نظره يتجنب نظر انطوان . انه لا يريد ان يكون موضوع شكوى . وفهم انطوان . وبالنتيجة فانه لم يحرص ابداً على التكلم عن ليزبيت . واستعادت حياتهما مجراها كما لو ان شيئاً لم يحدث .

١٠

ذات مساء قبل العشاء ، دهش انطوان لوجود غلاف في بريده باسمه يتضمن رسالة مختومة بعنوان أخيه . لم يعرف الخط . وكان جاك هناك فلم يشأ ان يظهر بمظهر المتردد ، وقال : « هذه لك » .

واقترب جاك بحيوية واحمر وجهه . وكان انطوان يتصفح لائحة كتب فألقى إليه الغلاف دون ان ينظر إليه . وحين رفع رأسه رأى أن جاك وضع الرسالة في جيبه . وتلاقت عيونهما ؛ وكانت عينا جاك مهاجمتين . وقال :

– لماذا تنظر إلي هكذا ؟ ان لي ملء الحق بتلقي رسالة .

فتأمل انطوان أخاه دون ان يقول شيئاً ، وأدار له ظهره وترك الغرفة .

واثناء الغداء تحدث مع السيد تيبو دون ان يكلم جاك . وهبطا معاً ككل مساء ، ولكنهما لم يتبادلا أي كلام . وذهب انطوان إلى غرفته، ولم يكد يجلس إلى طاولته حتى دخل جاك دون ان يقرع الباب ، وتقدم بهيئة مثيرة ، والقى الرسالة المنشورة على المكتب :

— ما دمت تراقب رسائلي !

فطوى انطوان الرسالة دون انيقرأها ومد يده بها إلى أخيه. ولما لمياخذها هذا ، فتح أصابعه وسقطت الرسالة على الطنفسة . فالتقطها جاك ووضعها في جيبه وقال ضاحكاً :

— إذن ، لا لزوم لمعاداتي .

فهز انطوان كتفيه . وتابع جاك رافعاً صوته فجأة :

— ثم ان عندي الكثير إذا أردت ان تعرف ! انا لست ولداً . اني أريد . ولي ملء الحق ـ وأهاجته نظرة انطوان المنتبهة الهادئة فصرخ : ـ قلت لك ان عندي الكثير .

— الكثير من ماذا ؟

— من كل شيء .

وكان وجهه قد فقد كل تنوع في اللون : العين ثابتة وغاضبة ، والاذنان منفصلتان ، والفم مفتوح قليلاً . وكل هذا كان يكسبه هيئة رعناء ؛ واصبح كثير الاحمرار .

— مع ذلك فان هذه الرسالة وصلت إلى هنا خطأً ! فقد كنت طلبت ان يكتب إلي إلى شباك البريد ! هناك على الأقل اتلقى الرسائل التي أريد دون ان اقدم حساباً لأيٍ كان .

وكان انطوان لا يزال يتفحصه دون يجيب . وقد أفاده هذا الصمت وغطى على ارتباكه ! لم يسبق للولد ان كلمه بمثل هذه اللهجة .

— أولاً أريد ان أرى فونتانان ، أسمعت ؟ لن يمنعني أحد !

وكان ذلك قبساً من نور : خط الدفتر الرمادي ! كان جاك يراسل فونتانان رغم وعده . وهي ، مدام دي فونتانان ، هل كانت على علمٍ بذلك ! وهل كانت تسمح بهذه المراسلة الخفية ؟

للمرة الأولى رأى انطوان نفسه مجبراً على القيام بأعباء دور الأهل ، ولم يكن الزمن بعيداً حين كان يقف أمام السيد تيبو الموقف الذي يقفه جاك أمامه في هذه اللحظة . ان مظهر الامور قد تغير . وسأل عابساً :

— اكتبت إذن إلى دانيال ؟

فواجهه جاك باشارة إيجابية .

— ودون ان تحدثني عن ذلك ؟

فقال الآخر : وبعد ؟

وكاد انطوان ينهض ليصفع الوقح . وضم قبضتيه . انه يخشى ان يُفسد تحوّلُ هذه المشادة ما يحرص على عدم افساده. فقال بنبرة تظهر خمود النشاط :

— اذهب . فأنت لا تعرف ما تقول هذا المساء .

فصرخ جاك ضارباً برجليه :

— اقول .. اقول انني اكتفيت . لست ولداً . وأريد ان اعاشر من يروق لي . لقد اكتفيت من العيش هكذا . أريد ان أرى فونتانان . لأن فونتانان صديقي . ولأجل ذلك كتبت إليه . اني أعرف ما أفعل . وقد ضربت له موعداً . بامكانك ان تقول لـ .. لمن تريد . لقد اكتفيت ، اكتفيت ، اكتفيت !

وفحص برجليه ، ولم يبق فيه سوى الحق والتمرد .

أما ما لم يقله ، ما لا يستطيع انطوان ان يحزره ، فهو ان الولد المسكين ، بعد رحيل ليزبيت ، شعر بقلبه فارغاً وثقيلاً بحيث خضع لحاجة ائتمان كائن شاب على سر شبابه ، واكثر من ذلك : كان يتقاسم مع دانيال هذا العبء الذي كان يخنقه . وفي حماسته المنفردة ، كان قد عاش مسبقاً ساعات الصداقة الكلية ، حيث سيتوسل إلى صديقه ان يحب النصف من ليزبيت ، وإلى ليزبيت ان تدع دانيال يأخذ على عاتقه ذلك النصف من الحب .

وقال انطوان الذي كان يتظاهر بعدم التأثر ويتذوق تفوقه :

– قلت لك ان تذهب وسنتحدث عن كل ذلك حين يعود عقلك إليك

فعوى جاك الذي أثارت حفيظته هذه البرودة :

– جبان ! بيدق !

وذهب مطبقاً الباب وراءه بشدة .

ونهض انطوان ليقفل الباب بالمفتاح وارتمى على كنبته وقد شحب لونه من الغضب .

– بيدق ! الأبله . بيدق ! سيدفع ثمن ذلك غالياً . إذا ظن انه يستطيع السماح لنفسه ، فهو مخطىء ! لقد ضاعت امسيتي ، فأنا غير قادر على العمل الآن. أية حماقة ارتكبتها ! ولأجل هذا الأبله الصغير. بيدق ! فعلت ذلك لأجلهم.. الأبله هو انا : اني افسد لأجله جزءاً من وقتي ، من عملي . ولكن انتهى كل شيء. ان لي حياتي ، وامتحاناتي . وليس هذا الأبله الصغير هو الذي ...

لم يكن يستطيع البقاء في مكان واخذ يذرع الغرفة . وتخيل نفسه فجأة أمام مدام دي فونتانان ، واتخذت قسماته تعبيراً صلباً متيقظاً : « لقد فعلت ما استطعت يا سيدتي . جربت اللطف ، المحبة . تركت له اكبر قدر من الحرية . وها هو . صدقيني ياسيدتي . هناك طبائع لا نستطيع معها شيئاً . وليس للمجتمع سوى وسيلة واحدة لضمانته ولمنعه من الفساد . وليست بدون سبب دعيت الاصلاحيات : « أعمال الوقاية الاجتماعية » .

وشعر بحركة كقضم الجرذان فالتفت . انها ورقة ادخلت من تحت الباب المغلق : « ارجو الصفح لأجل كلمة بيدق. لست في حالة غضب . دعني اعود».

فابتسم انطوان رغماً عنه . وانتابته فجأة اندفاعة عطف ، وبدون زيادة تفكير ، ذهب نحو الباب وفتحه . كان جاك ينتظر وذراعاه يلوحان . وكان لا يزال مهتاجاًبحيث خفض رأسه وعض على شفتيه لئلا ينفجر ضاحكاً. واتخذ انطوان هيئة ثائرة ، مباعدة ؛ وعاد إلى الجلوس . وقال بنشوفة :

– لدي ما أعمله. لقد جعلتني اخسر الكثير من وقتي هذا المساء. ماذا تريد؟

– أريد رؤية دانيال .

وساد صمت قصير . وبدأ انطوان :

– أنت تعلم جيداً ان ابي يعارض ذلك . وقــد بذلت جهدي لأشرح لك السبب . اتذكر ؟ وفي ذلك النهار كان المتفق عليه بيننا ان تقبل هذه الحالة وان لا تقوم بأية محاولة لإعادة العلاقات مع آل فونتانان. وقد وثقت بكلامك. وها أنت ترى النتيجة . لقد خدعتني ، ونقضت الميثاق في أول فرصة . والآن، قد انتهى كل شيء : لم أعد اثق بك أبداً .

فأخذ جاك يبكي .

– لا تقل هذا يا انطوان . هذا ليس صحيحاً . لا تستطيع ان تعلم . صحيح اني اخطأت . وما كان علي ان اكتب قبل ان اكلمك . ولكن حدث ذلك لأنه كان هناك شيء آخر كنت مجبراً على قوله ولم استطع . – وتمتم – : ليزبيت .

فقاطعه انطوان حالاً .

– الأمر لا يتعلق بهذا .

وذلك ليتجنب اقراراً يزعجه اكثر من أخيه . وقال ليضطر جاك إلى تغيير الموضوع :

– اني ارضى بمحاولة تجربة جديدة واخيرة : ستعدني ..

– كلا يا انطوان ، لا استطيع ان أعدك بعدم رؤية دانيال . بل انت الذي ستعدني بان تدعني أراه . اصغ إلي يا انطوان ولا تغضب . اقسم لك أمام الله انني لن اخفي عنك شيئاً . ولكني أريد رؤية دانيال ولا أريد أن أراه دون ان تعلم . وهو ايضاً كذلك . فقد كتبت إليه ان يجيبني على شباك البريد ، فلم يشأ . اسمع ماذا كتب إلي ! « لماذا شباك البريد ؟ ليس لدينا شيء نخفيه . وكان أخوك دائماً من جانبنا . إذن فسأوجه هذه الكلمة إليه ليعطيك إياها » . وفي النهاية رفض الموعد الذي اقترحته عليه خلف البانتيون : « لقد حدثت والدتي عن ذلك . ان ابسط شيء هو ان تأتي لقضاء نهار الاحد في البيت . ان والدتي تحبكما كثيراً ، أنت واخوك ، وكلفتني ان أدعوكما » . ها انت ترى انه مخلص.

وابي لا يعرف ذلك . فهو يحكم عليه دون ان يعرف شيئاً عنه ؛ لا أريد ان أحقد كثيراً عليه . أما انت يا انطوان ، فشيء آخر . انت تعرف دانيال وتفهمه ، ورأيت أمه ، وليس لديك أي سبب لتكون مثل ابي . يجب ان تكون مسروراً لأن لي مثل هذه الصداقة . وقد مضى علي وقت طويل وانا وحدي ! عفواً ، لا أقول ذلك لأجلك ، وانت تعرف جيداً . ولكن انت شيء ودانيال شيء آخر . فأنت لديك اصدقاء من سنك . وتعرف جيداً ما يعني ان يكون للانسان صديق حقيقي .

– لعمري ، كلا ...

هكذا كان يفكر انطوان وهو يلاحظ التعبير السعيد الحنون الذي اتخذه وجه جاك منذ ان لفظ كلمة « صديق » . وشعر فجأة بالرغبة في الذهاب إلى أخيه وتقبيله . ولكن نظرة جاك كان فيها شيء لا يمكن تبديله وميال إلى العراك وكان جارحاً لكبرياء انطوان ، إلا أنه كان قليل الميل إلى الاصطدام بهذا العناد وتحطيمه. مع ان حيوية جاك كانت تفرض عليه ذلك. ولم يجب بشيء، ومد ساقيه وأخذ يفكر . وكان يقول لنفسه : « في الواقع ، يجب علي ، أنا ذو التفكير الواسع ، ان اقتنع ان عمل والدي مستحيل . ففونتانان هذا لا يمكن ان يكون له على جاره سوى تأثير جيد. محيط كامل. سوف يساعدني في مهمتي. نعم ، بالتأكيد ، « فهي » ستساعدني ، وسوف ترى بوضوح أكثر مني ؛ وسوف تفرض نفوذها بسرعة على الصغير ؛ انها امرأة من الطراز الأول . ولكن لو عرف ابي بذلك ... حسناً ... فأنا لست ولداً . من الذي أخذ على عاتقه مسؤولية جاك ؟ أنا . إذن لي الحق بالحكم النهائي . وأعتبر ان دفاع والدي ، إذا أخذناه بحرفيته ، هو مستحيل وغير عادل : اني أتخطاه ، هذا كل شيء . أولاً سيصبح جاك أكثر تعلقاً بي . وسيفكر : « ان انطوان ليس كأبي » . ثم اني متأكد ان الأم ... » وتخيل نفسه مرة اخرى أمام مدام دي فونتانان التي كانت تبتسم : « سيدتي ، لقد حرصت على ان احضر لكم اخي بنفسي » .

ونهض ، وخطا بضع خطوات وجاء يقف أمام جاك الذي ظل جامداً ،

وإرادته متوترة ، مصممة بضراوة على محاربة اعتراض انطوان والتغلب عليه

— اني مضطر أن أقول لك ، ما دمت اجبرتني ، ان نيتي ، رغم أوامر أبي ، كانت دائماً في ان أدعك ترى آل فونتانان . حتى اني كنت أنوي ان أسير بك إلى هناك ، ولكني أردت الانتظار حتى تصبح في حالة نفسية جيدة : وكنت أنوي الانتظار حتى العودة إلى المدرسة . ورسالتك إلى دانيال عجلت الامور . ليكن . اني آخذ على عاتقي كل شيء . وابي لن يعرف شيئاً ولا الأب الرئيس . سنذهب نهار الأحد إذا أردت .

وأضاف بعد وقفة وبنبرة لوم محبة :

— لاحظ كم تحتقر نفسك ، وكم انت مخطىء لأنك لم تولني أفضل ثقة . لقد رددت عليك عشرين مرة يا صغيري : صراحة كاملة بيننا ، ثقة متبادلة ، وإلا فاخفاق ما كنا نأمل به .

وتمتم جاك : الأحد ؟

وكان كثير الدهشة لربحه القضية دون نضال. وكان يشعر انه مخدوعاً بمكيدة لم يكن يتبينها . ثم شعر بالخجل من هذا الشك : بالحقيقة ان انطوان هو أفضل صديق له . يا لها من خسارة لكونه كبر بالسن ! ولكن ماذا ، الأحد القريب ؟ ولكن لم هذه العجلة ؟ أصبح الآن يتساءل إذا كان صحيحاً أنه يرغب برؤية صديقه .

١١

كان دانيال هذا الاحد يرسم بالقرب من والدته عندما أخذت الكلبة الصغيرة تنبح . وقرع الجرس . ووضعت مدام دي فونتانان كتابها ، فقال دانيال وهو يتقدمها نحو الباب : دعي ذلك يا امي .

لقد اضطروا بسبب المال إلى صرف الوصيفة ، ثم الطاهية في الشهر الماضي ؛ وكانت نيكول وجني تساعدان في أعمال المنزل .

ومدام دي فونتانان التي كانت ترهف السمع ابتسمت عندما عرفت صوت القس غريغوري ، وخطت بضع خطوات لملاقاته . وكان قد أمسك دانيال من

كتفيه ونظر إليه بضحكة بجاء :

— كيف ؟ ألست في الخارج للقيام بنزهة جيدة أيها الولد في هـذا الطقس الجميل ؟ إذن لا يوجد عندهؤلاء الفرنسيين لا زورق، ولا لعبة الكرة والصولجان (الكريكيت) ولا رياضة ؟

كان بريق عينيه السوداوين الصغيرتين ، اللتين كانت حدقتهما تمـلأ انفراج الجفنين دون ان تدع البياض يظهر ، من المتعب مقاومته عن قرب ، بحيث ادار دانيال رأسه بابتسامة قلقة . وقالت مدام دي فونتانان :

— لا توبخه . انه ينتظر زيارة رفيق . . أتعرف آل تيبو ؟

فبحث القس في ذاكرته مكشراً ؛ وفجأة ، وبحيوية شيطانية ، فرك يديـه الجافتين الواحدة بالاخرى وبقوة ، بحيث كان يخيل ان الشرر يتطـاير منهما . وانشق فمه عن ضحكة غريبة صامتة . وقال أخيراً :

— اوه ! نعم . الطبيب الملتحي ؟ جيد ، شاب شجاع . أتذكرين أي وجه مندهش حين أتى ليرى شيئنا الصغير المحبوب الذي بعث حياً ؟ كان يريـد أن يقيس البعث بميزان الحرارة ! الزميل المسكين ! ولكن أين هي عزيزتنا ؟ هل هي سجينة غرفتها أيضاً في هذه الشمس الرائعة ؟ (١)

— كلا ، اطمئن . ان جني في الخارج مع ابنة خالها . لم يكادا يصبران على تناول الافطار . وهما تجربان آلة تصوير .. تلقتها جني بمناسبة عيدها .

وقدم دانيال مقعداً للقس ، ورفع رأسه ونظر إلى أمه التي اضطرب صوتها وهي تدلي بهذه التفاصيل . وسأل غريغوري وهو يجلس :

— ماذا بشأن نيكول هذه ؟ اما من شيء جديد ؟

فأشارت مدام دي فونتانان بالنفي . لم تكن راغبة في طرق هذا الموضوع أمام ولدها الذي تطلع نحو القس عند ذكر اسم نيكول .

وقال القس فجأة وهو يلتفت نحو دانيال :

---

١ ـ في كلام القس كثير من الكلمات الانكليزية . وقد ترجمناها دون الاشارة الى ذلك .

— ولكن قل لي أيها الولد . متى يأتي صديقك الملتحي ليزعجنا ؟
— لا أدري . ربما حوالي الساعة الثالثة .
ونهض غريغوري ليستخرج من صدرته الكهنوتيـــة ساعة فضية عريضة كالطاسة ، وصاح :
— جيد جداً . أمامك ساعة تقريباً أيها الغلام الكسول ! إلق عنك سترتك واذهب حالاً ، واركض حول لوكسمبورغ لتربح امتيازاً بالركض على القدمين، هيـا !
فتبادل الشاب نظرة مع امه ونهض .
— حسناً ، حسناً . اني اتركك ، أيها الغلام المحتال !
قال ذلك بخبث متمتماً مهدداً بقبضته .
ولكن ما أن اصبح وحيـــداً مع مدام فونتانان حتى اتخذ وجهه الاجرد تعبيراً يدل على الطيبة واصبحت نظرته مداعبة . وقال :
— الآن ، اتى الوقت الذي ارغب فيه بالتحدث إلى قلبك فقط يا عزيزتي .
وجمع افكاره كأنه يصلي ، ثم أتى بحركة عصبية ، وأدخل أصابعه في فتائله السوداء ، وأخذ كرسياً وجلس منفرج الساقـين . وأعلن وهو يرى مدام دي فونتانان يشحب لونها :
— لقد رأيته . وجئت من قبله . إنه يأسف . كم هو بائس !
ولم يفارقها بنظره ؛ وكان يبدو ، وهو يشملها بنظره الفرح بشكل عنيد ، انه يريد تهدئة الألم الذي حمله اليها .
— هل هو في باريس ؟
تمتمت بذلك دون أن تفكر بما قالت ، لأنها تعلم أن جيروم قد جاء بنفسه أول البارحة ، في عيد ميلاد جني ، ليضع لابنته آلة التصوير تلك عند زوجة البواب . بحيث لم يرتكب ذنب الاحتفال بميلاد أولاده بعد . وتابعت بصوت ساهٍ دون ان يتوصل تعبير وجهها إلى الاستقرار : « هـــل رأيته ؟ » . منذ شهور وهي تفكر به بطريقة مستمرة ، مسهبة بحيث اجتاحها حذر خاص منذ

أن اصبح هو موضوع الحديث .

وردد القس بالحاح :

– انه بائس ! انه منهك بتوبيخ الضمير . ومخلوقته التي تستحق الشفقة لا تزال مغنية . ولكنه متقزز فعلاً ، فهو لا يريد ابداً ان يراها . ويقول انه لا يستطيع حقيقةً ان يعيش بدون زوجته ، وبدون اولاده . واعتقد ان هذا صحيح . انه يطلب عفوك ؛ ويعد بكل شيء ليظل زوجاً لك ؛ يرجوك وان تبعدي إرادة الطلاق . ووجهه ، وقد نفذت اليه ، هو الآن وجه منصف : فهو في الواقع رجل مستقيم وصالح .

وسكتت واخذت تنظر أمامها بغموض. وخداها المليئان ، والذقن السمينة قليلاً ، والفم المسترخي الحساس كانت كلها توحي بكثير من الوداعة بحيث ظن غريغوري انها غفرت . وتابع :

– يقول انكما ستذهبان هذا الشهر إلى المحكمة لأجل المصالحة . وان الاجراءات الحقيقية للطلاق ستبدأ بعد ذلك . انه يستعطف لأنه بالحقيقة قد تغير بشكل كلي . ويقول ان دخيلته بخلاف مظهره ، وافضل مما نعتقد . وانا ايضاً افكر بذلك . وهو يرغب الآن بالعمل إذا وجد عملاً . وسيعيش هنا معك إذا أردت ، في طريق مجدد ومرمّم .

ورأى الفم يتشنج ورجفةً حركت أسفل الوجه . وهزت كتفيها فجأة وقالت :

– كلا .

كانت اللهجة قاطعة ، والنظرة مؤلمة ومتعالية . وبدا عزمها ثابتاً لا يمكن الرجوع عنه ، فقلب غريغوري رأسه ، واغمض عينيه وظل صامتاً فترةطويلة. وقال اخيراً بصوت يختلف كثيراً ، بعيدٍ وبدون حرارة :

– انظري . سأسرد عليك حكاية لا تعرفينها ، أتريدين ؟ انها حكاية رجل يحب كائناً آخر . قلت اسمعي . كان عريساً لا يزال شاباً لفتاة فقيرة كثيرة الطيبة ، كثيرة الجمال ، محبوبة حقيقة من الرب الذي يحبه هو ايضاً .

وأصبحت نظرته ثقيلة فقال : .. بكل روحه .

ثم بدا انه يبذل جهداً ويبحث اين صار وتابع بسرعة :

ـ وعندئذ ، بعد الزواج ، هذا ما حدث : شعر هذا الرجل ان زوجته لم تكن تحبه وحده فقط ، بل تحب رجلاً آخر كان صديقاً لهما ويأتي إلى البيت بمثابة اخ للاثنين . واصطحب الزوج المسكين آنذاك زوجته في رحلة طويلة ليساعدها على النسيان ، ولكنه أدرك انها سوف تحب دائماً الرجل الآخر الصديق ، وليس هو ابداً : وبدأ الجحيم بينهما . وكان يرى زوجته متألماً وهي تخونه في جسدها ، ثم في قلبها ، واخيراً في نفسها لأنها اصبحت ظالمة ورديئة . نعم . ـ قال ذلك بوقار : ـ كان هذا الأمر مخيفاً في الواقع : لقد اصبحت رديئة بسبب الحب المعاكس ، وهو ايضاً اصبح رديئاً ، لأن السلبي كان حولهما . إذن ماذا تظنين ان هذا الرجل قد فعل ؟ كان يصلي ، وكان يفكر : « اني أحب كائناً وعلي ان اتجنب الاذى لهذا الكائن » . وبكل سرور دعا زوجته وصديقه إلى غرفته الخاصة ، أمام الانجيل ، وقال ! « كونا متزوجين بشكل احتفالي أمام الله ، بواسطتي انا نفسي » . وبكى الثلاثة . ولكنه قال بعد ذلك: « لا تخافا :انا سأرحل ، ولن أعود ابداً لأفسد سعادتكما » .

ووضع غريغوري يده أمام عينيه ، ولفظ بصوت منخفض :

ـ آه ! يا عزيزتي . يا لها من مكافأة من الله تلك الذكرى لتضحية كاملة كهذه ! ـ ثم رفع جبهته ـ وقد فعل كما قال : ترك لهما كل ماله لأنه كان كثير الغنى ، وهي فقيرة كأيوب البائس ، وذهب بعيداً ، إلى الناحية الأخرى من العالم ، وانا اعلم انه لا يزال وحيداً منذ سبع عشرة سنة ، دون مال ، يربح معيشته بتعبه ، كما استطيع انا ان افعل ، كممرض بسيط تلميذ في « جمعية العلوم المسيحية » .

وكانت مدام دي فونتانان تتفحصه بتأثر. وقال بحدة :

ـ انتظري ، سأقول لك النهاية الآن .

كان وجهه مجتذباً من جميع النواحي . ومن مسند الكرسي حيث كان يسند

مرفقه ، فان أصابعه التي تشبه أصابع الهيكل العظمي ، تشابكت فجأة ، وقال :

— المسكين ، كان يعتقد انه ترك لهما السعادة وراءه ، وانه حمل معه جميع الاشياء الرديئة ، ولكن هنا سر الله : ان الشر هو الذي ظل معهما. لقد ضحكا منه ، وخانا الروح . وقبلا تضحيته باكيين ولكنهما كانا ساخرين في قلبيهما . كان يتقولان عليه الاكاذيب بين الطبقة المتوسطة . ونشرا رسائل منه . وتظاهرا ضده بسبب معروفه الوهمي ، حتى انهما قالا انه ترك زوجته دون أي فلس ليمتلك امرأة أخرى في أوروبا . لقد قالا اشياء . نعم ! ودفعا ثمن حكم بالطلاق ضده .

وخفض جفنيه لحظة ، وأصدر نوعاً من النقيق الأبح ، ونهض ، وأعاد كرسيه باعتناء إلى المكان الذي أخذه منه . . وامحّى كل أثر للألم عن وجهه ، وتابع وهو ينحني نحو مدام دي فونتانان الجامدة :

— وبعد ، فهذا هو الحب . وكان الصفح ضرورياً جداً بحيث لو أتت ، في اللحظة ذاتها ، تلك المرأة العزيزة الخائنة فجأة إلي لتقول : « جيمس ، اني أعود الآن إلى تحت سقف بيتك . ستكون من جديد خادمي المُداس . وسأضحك منك أيضاً حينما اريد » . فسوف أقول لها : « تعالي وخذي كل هذا القليل الذي لدي . اني اشكر الله لعودتك . وسوف أقوم بجهد عظيم لأكون حقيقة صالحاً أمام عينيك ، ولتصبحي انت ايضاً صالحة : لأن الشر غير موجود » . نعم ، بالحقيقة يا عزيزتي ، لو جاءت زوجتي دولي *Dolly* ذات يوم إلى جانبي لتطلب ملجأ ، فإليك ما أفعل معها : لن أقول : « لقد سامحتك يا دولي » ، بل أقول فقط : « المسيح يرعاك » ! وهكذا فأقوالي لن تعود إلي فارغة ؛ لأن الخير هو السلطة الوحيدة القادرة على ايقاف السلبي » ! — وصمت وصالب ذراعيه ، وأخذ ذقنه المقرفة بملء يده . وبصوتٍ مغنّى لواعظ بروتستانتي : — « انت ، عليك ان تعملي يا مدام دي فونتانان لأنك تحبين هذا الكائن بكل حبك ، والحب هو العدالة. وقد قال المسيح : «إذا لم تكن عدالتكم سوى عدالة الكاتب الاعتيادي

والفريسي ، فلن تدخلوا ملكوت السماء » .
وهزت المرأة المسكينة رأسها ، وتمتمت :
ــ انت لا تعرفه ياجيمس. فالهواء حوله فاسد . انه يحمل الشر إلى كل مكان. وسوف يهدم سعادتنا من جديد . سوف ينقل العدوى إلى الأولاد .
ــ حين لمس المسيح جرح الابرص بيده ، فليست يد المسيح هي التي أصبحت موبوءة ، ولكن الابرص هو الذي نظف .
ــ تقول انني احبه . كلا ، ليس هذا صحيحاً ! فأنا اعرفه الآن جيداً . وأعرف قيمة وعوده . لقد كنت كثيرة الصفح في أغلب الأحيان .
ــ حين سأل بطرس المسيح كم يجب على الأخ ان يسامح أخاه . « أيجب حتى السبع مرات » . عندئذ أجاب المسيح : « ما هذا حتى سبع مرات . اما أنا فأقول حتى سبعين مرة سبع مرات » .
ــ اقول لك انك لا تعرفه يا جيمس .
ــ من إذن يستطيع ان يفكر : « اني اعرف اخي » ؟ فقد قال المسيح : « اني لا اقاضي احداً » . وانا ، غريغوري ، اقول : ان من يحيا حياة الخطيئة دون ان يكون مضطرباً او بائساً في قلبه ، فذلك لأنه لا يزال بعيداً عن ساعة الحقيقة ؛ اما القريب من ساعة الحقيقة فهو الذي يبكي لأن حياته في الخطيئة . اقول لك انه يتحسر ، وقد كان له وجه حكيم .
ــ أنت لا تعرف كل شيء يا جيمس. سله ماذا فعل حين اضطرت تلك المرأة الى الهرب إلى بلجيكا لتتخلص من الدائنين الذين دأبوا يلاحقونها . كانت قد ذهبت مع آخر ؛ وقد ترك كل شيء ليتبعها ورضي بكل ما يشوه سمعته . وقد شغل طوال شهرين وظيفة مراقب في المسرح الذي كانت تغني فيه ! اقول لك ان هذا عار . وكانت مستمرة في العيش مع عازف الكمان ، ورضي بكل شيء ، وكان يتناول عشاءه عندهما ، ويأتي ليعزف الموسيقى مع العشيق وعشيقته . وجه الحكيم ! انت لا تفهمه . انه اليوم في باريس ، تائب ، ويقول انه ترك تلك المرأة التي لا يريد ان يراها . لماذا اذن يدفع ديونها اذا لم يكن للتعلق بها من

جديد ؟ ذلك لأنه يدفع لدائني نويمي واحداً أثر واحد . نعم . إليك لماذا هو في باريس ! ومع أي مال ؟ مالي ، مال أولادي . وها قد مضى ثلاثة أسابيع ، أتعرف ماذا صنع ؟ لقد رهن عقارنا في ميزون – لافيت ليدفع خمسة وعشرين ألف فرنك لأحد دائني نويمي الذي فرغ صبره .

وخفضت جبهتها ؛ ولم تقل كل شيء . وتذكرت تلك الدعوة إلى الاجتماع عند الكاتب العدل والتي ذهبت إليها دون حذر ، فوجدت جيروم على الباب ؛ كان ينتظرها لأنه بحاجة إلى وكالتها لأجل الرهن ، لأن العقار كان ملكاً لها ، هي ، بالوراثة . وكان يتوسل إليها محتجاً انه بدون أي فلس ، مدفوع إلى الانتحار ؛ وقلب جيوبه على الرصيف. واستسلمت دون نضال تقريباً. ورافقته إلى الكاتب العدل لكي يكف عن مضايقتها هكذا في وسط الشارع ، وأيضاً لأنها كانت هي نفسها بحاجة إلى المال وقد وعدها بان يقتطع من المبلغ بعض الأوراق النقدية بألف فرنك كانت بحاجة إليها لتعيش ستة أشهر ، بانتظارتنظيم الحسابات بعد الطلاق .

– اكرر عليك انك لا تعرفه يا جيمس . هل أقسم لك بأن كل شيء تغير ، وانه راغب في العيش معنا ؟ ولو اخبرتك انه قبل البارحة ، حين أتى يضع هديته لعيد ميلاد جني تحت ، ترك على بعد مئة متر من بابنا عربة ... لم يأت فيها وحده !

وارتعشت ، واستعادت في ذهنها فجأة ، على مقعد رصيف التويلري ، جيروم وتلك العاملة الصغيرة المرتدية الأسود ، والتي كانت تبكي . عندئذ نهضت وصرحت :

– هذا هو الرجل كما هو . لقد بطل عنده كل حس اخلاقي إلى هذه الدرجة ، بحيث ترافقه عشيقة التقى بها في اليوم الذي ذهب ليتمنى عيداً سعيداً لابنته ! وتقول انني لا أزال احبه . كلا ، ليس هذا صحيحاً .

وكانت قد انتصبت . وبدت في هذه اللحظة انها تكرهه حقيقة . وتأملها غريغوري بقساوة وقال :

ـ أنت لست في صلب الحقيقة ، حق بالتفكير . هـل علينا أن نقابل الشر بالشر ؟ الروح هي كل شيء . والمادي عبد للروحي . وقد قال المسيح ـ وقطع كلامه نباح بوس فدمدم مكشراً : ها قد أتى دكتورك الملعون الملتحي .

وأسرع يأخذ كرسيه ويجلس .

وفتح الباب فعلاً . انه انطوان يتبعه جاك ودانيال .

لقد دخل بخطوته الجريئة وقد رضي بنتائج هذه الزيارة . كان نور النوافذ المفتوحة يضربه في وجهه ؛ وشعره ولحيته يشكلان كتلة قاتمـــة ؛ وكان جميع ألق النهار يتركز على مثلث الجبهة الابيض الذي يكسبه شعاع العبقرية ؛ ومـع انه ذو قامة متوسطة فقد بدا كبيراً للحظة . ورأتــه مدام دي فونتانان آتياً ، فامتدت كل جاذبيتها المستيقظة . وبينما كان ينحني أمامها وهي تأخذ بيــده ، عرف غريغوري ، وكان مشمئزاً لوجوده هناك . أما القسيس فقد أشار إليه من مكانه بحركة من رأسه فيها بعض التعجرف .

وكان جاك ، وهو منزوٍ في ناحيته ، يتفحص الرجـل العجيب بفضول . وغريغوري منفرج الساقين على مقعده ، والذقن على ذراعيه المتصالبين ، والانف احمر ، والفم يكشر ابتسامة غير مفهومة ، كان يتأمـل الشابين بسذاجة . وفي تلك اللحظة اقتربت مدام دي فونتانان من جاك ، وتعبير عينيها كثير المودة ، بحيث تذكر المساء يوم أبقته بين ذراعيها وهو يبكي . وكانت هـي نفسها تفكر بذلك لانها هتفت :

ـ لقد كبر كثيراً بحيث لن أجرؤ ...

وبما أنه قالت ذلك وقبلته ، فقد أخذت تضحك بدون اي شيء من الدلال وقالت :

ـ صحيح انني ام ؟ وانت كأخ لدانيال ...

ولكنها رأت ان غريغوري قد نهض وانه استعد للذهاب فقالت :

ـ لن تذهب يا جيمس .

فقال : الآن يجب ان أذهب .

وشد بقوة على يدي الاخوين وسار نحوها ، فقالت له مدام دي فونتانان وهي ترافقه خارج الغرفة :

– كلمة اخرى أيضاً . أجبني بصراحة بعد الذي أخبرتك به عنه ، أتعتقد ان جيروم جدير باستعادة مكانه بيننا ؟ – واستجوبته بعينيها – زن جوابك يا جيمس . فإذا قلت لي : « اصفحي » فسأصفح .

فصمت ؛ وكان نظره ووجه يفصحان عن تلك الشفقة العامة التي يتلذذ بها اولئك الذين يعتقدون انهم يملكون الحقيقة . وظن انه رأى ألقاً من الأمل يمر في عيني مدام دي فونتانان . انه لم يكن ذلك الصفح الذي يرغبه المسيح منها . فأدار رأسه وأسمع ضحكة رفضية .

عندئذ أمسكت بذراعه ، وأظهرت انها تصرفه بمحبة .

– أشكرك يا جيمس . وقل له : كلا .

لم يكن يسمعها . وكان يصلي من اجلها . وتمتم وهو يبتعدون ان ينظر إليها :

– ليسيطر المسيح على قلبك .

وحين عادت إلى قاعة الاستقبال حيث كان انطوان ينظر حوله ويفكر بزيارته الاولى، فان مدام دي فونتانان اضطرت إلىبذل الجهد لكبح اضطرابها. وهتفت مغتصبة الترحيب :

– كم هو لطيف ان ترافق أخاك . أجلس هنا – ودلت انطوان على مقعد بقربها – سنفعل خيراً اليوم بالا نعتمد على الصغار لمرافقتنا .

وبالفعل ، فان دانيال أدخل ذراعه تحت ذراع جاك وسار به نحو الغرفة . لقد اصبحا الآن بنفس القامة ، ودانيال لم يكن ينتظر أن يرى صديقه متغيراً هكذا ؛ وكانت صداقته وطيدة ، ورغبته في المسارّة اكثر إلحاحاً . وما ان اصبحا وحيدين حتى انتعش وجهه واتخذ تعبيراً غامضاً .

– انبئك أولاً : ستراها : انها ابنة خالي تسكن معنا . انها .. إلهية !

هل فاجأ قلقاً في هيئة جاك ؟ هل اضطرب بسبب وسواس متأخر ؟ وقال بابتسامة محبوبة ، وكان يحتفظ حتى في صداقته بمجاملة احتفالية :

ولكن لنتحدث عنك . منذ سنة . فكـّر إذن !

وبما ان جاك كان صامتاً ، فقد تابع منحنياً :

ــ أوه ! لا شيء حتى الآن . ولكني آمل .

كان جاك منزعجاً من إلحاح النظرة ، ومن رنة الصوت . وادرك اخيراً ان دانيال لم يكن كالسابق ، ولكن لم يعرف بماذا. فقسماته ظلت هي نفسها ؛وربما بيضوية الوجه قد استطالت ، ولكن للفم دائماً نفس الاعوجاج المعقد الذي ظهر بشكلٍ افضل في شريط الشاري ؛ واحتفظ بالطريقـــة نفسها في الابتسام من ناحية واحدة ، الابتسام الذي يشوش فجأة ترتيب الخطوط ويكشف الاسنان العليا من ناحية الشمال ؛ وربما كانت تتألق عيناه ببريق اقل صفاء ؛ وربما كان حاجباه يلبيان بشكل زائد ذلك الامتداد نحو الصدغين ، حيث يكسب النظر عذوبة غير ثابتة ؛ وربما ايضاً يجعلنا نشعر في صوته وفي تصرفاته بنوع من السيرة الطليقة التي لم يكن مسموحاً بها قبلا .

كان جاك يتفحص دانيال دون ان يفكر باجابته ، وربما بسبب تلك البلادة الوقحة التي تزعجه وتغريه في الوقت نفسه ، شعر فجأة انه محمول نحو صديقه بعودة تلك المودة المحمومة التي كان يشعر بها في المدرسة ؛ وجالت الدموع في عينيـه .

وهتف دانيال الذي لم يكن يثبت في مكان،ثم جلس ليرغم نفسه على الانتباه:

ــ حسناً . لنر ، منذ سنة ؟ إحكِ !

كانت هيئته تظهر المودة الصحيحة ؛ إلا ان جاك كان يشعر بتأثيرٍ شلّ حركته . ومع ذلك فقد بدأ يتحدث عن اقامته في الاصلاحية . وعـــاد إلى الانغماس ، دون ان يريد ، في نفس « الكليشيات » الادبيـة التي جرّبها على ليزبيت ؛ وكان يمنعه نوع من الخجل ان يتحدث بلا تصنع عما كانت حياته هناك كل يوم . .

ــ ولكن لماذا كتبت قليلاً ؟

فتجنب جاك ذكر السبب الحقيقي ، ليضع والده بمعزل عن كل نقد سيء

القصد ، الأمر الذي لم يكن يمنعه ، فيما يتعلق به ، ان يستقبح السيد تيبو في كل شيء . واوضح بعد وقفة ، لا لشيء سوى ان يكسب وجهه تعبير ذهول :

— الوحدة ، كما تعلم ، تغيّر . يصبح المرء غير مبالٍ بشيء . وهناك ايضاً خوف مبهم لا يفارقك . ويقام ببعض الحركات ولكن دون تفكير بشيء . ومع المدة الطويلة لا يعود المرء يعرف ايضاً إذا كان موجوداً . وينتهي بالموت هناك .. أو يصبح مجنوناً .

أضاف ذلك متطلعاً أمامه بنظرة مستفهمة . وارتجف ارتجافة خفيفة ، وبدّل النبرة وروى زيارة انطوان إلى كروي .

كان دانيال يصغي إليه دون ان يقاطعه . ولكن ما ان رأى اعتراف جاك قد انتهى حتى انتعشت قسماته ، وقال :

— حتى اني لم اذكر لك اسمها . نيكول . اتحب ؟

— كثيراً .

قال جاك وقد فكر لأول مرة باسم ليزبيت :

— أرى انه أسم يناسبها . سترى . ليست جميلة، وجميلة إذا أردت. ولكنها اكثر من جميلة : ناضرة ، ملأى بالحياة ، وعينان — وتردد — انها شهية ، اتفهم ؟

وتجنب جاك نظرته . هو ايضاً تمنى ان يتحدث بقلب مفتوح عن غرامه ، وقد جاء لأجل ذلك . ولكن ، منذ اعترافات دانيال الأولى شعر باضطراب في النفس . والآن ايضاً ، كان يستمع منخفض العينين ، مع شعور بالمضايقة ، وربما الخجل .

وردد دانيال كاتماً جذله بشكل سيء :

— هذا الصباح كانت امي وجني قد خرجتا باكراً . عندئذ اصبحنا وحدنا نتناول الشاي ، نيكول وانا ، وحدنا في الشقة . لم تكن قد ارتدت ملابسها بعد . وكان الامر لذيذاً . تبعتها إلى غرفة جني حيث تنام . وعندئذ ياعزيزي ، تلك الغرفة ، وسرير الفتاة ذاك .. اخذتها لحظة بين ذراعي . كانت تنتفض . ولكنها كانت تضحك . وكانت ذات جسم مرن بحيث نجت واقفلت علىنفسها

في غرفة والدتي . ولم تشأ ان تفتح الباب ابداً. . انها حماقة ان أقص عليك ذلك .

قال ذلك وهو ينهض . واراد ان يبتسم ولكن شفتيه ظلتا متشنجتين .

وسأله جاك : اتريد الزواج منها ؟

— انا ؟

وشعر جاك بانطباع مؤلم كأنه مسح اهانة ، واصبح صديقه غريباً عنه بين دقيقة واخرى . وشمله دانيال بنظرة فضولية ، ساخرة قليلاً ، انتهت بفقدان حرارته . وسأل دانيال وهو يقترب !

— ولكن انت ؟ وفقاً لرسالتك فأنت ايضاً قد ..

فهز جاك رأسه ، وعيناه لا تزالان منخفضتين . كان يبدو انه يقول : « كلا ، لقد انتهى الامر ، لن تعرف شيئاً مني » . ومع ذلك فان دانيال نهض دون ان ينتظر جواباً . وتناهت إليهما ضجة أصوات فتية .

— ستروي لي فيما بعد . ها هم . تعال .

والقى نظرة على المرآة ، ورفع رأسه ، واندفع في الرواق .

ونادت مدام دي فونتانان :

— يا أولادي .. إذا أردتم تناول الطعام .

وكان الشاي قد أعد في قاعة الطعام .

وشاهد جاك من الباب ، وهو واجف القلب ، فتاتين بقرب المائدة . وكانتا لا تزالان تحتفظان بقبعتيهما ، وقفازيهما ، وصبغتهما المنتعشة من النزهة . وجاءت جني إلى امام دانيال وتعلقت بذراعه . ولم يظهر عليه انه يحذر منها ، ودفع جاك نحو نيكول ، واجرى التعارف بسهولة فكهة . وشعر جاك بفضول نيكول ينزلق عليه ، وبثقل نظرة جني الفاحصة ؛ فأدار عينه نحو مدام دي فونتانان التي كانت تقف بالقرب من انطوان في باب قاعة الاستقبال تكمل حديثاً بدىء به . وقالت وهيّ تبتسم بكآبة :

— ... افهام الاولاد انه لا يوجد اثمن من الحياة ، وانها قصيرة بشكل لا يصدق .

لقد مضى وقت طويل على جاك دون ان يجد نفسه وسط اشخاص غرباء ، وقد استهواه هذا المشهد إلى درجة انه انتزع منه كل خجل . وبدت له جني صغيرة ، كثيرة القبح ، بقدر ما كان لدى نيكول من الاناقة الطبيعية والبريق . كانت في تلك اللحظة تتحدث مع دانيال وتضحك . ولم يميز جاك كلامها . وكانت ترفع حاجبيها دون انقطاع علامة الدهشة والفرح . وعيناها ، بلون رمادي ضارب الى الزرقة ، قليلتا العمق ، متباعدتان ، ربما كثيرتا الاستدارة ، ولكنهما لامعتان ومرحتان ، تحتفظان بتجديد دائم للحياة على وجهها الأبيض والاشقر اللحيم الذي كانت تثقله ضفيرة كثيفة ، ملفوفة كالتاج حول رأسها . كانت لها طريقة في البقاء منحنية قليلاً الى الامام تكسبها دائماً هيئة الإسراع نحو صديق ، وتقديم رشاقة ابتسامتها الحيوانية لكل آت . وعاد جاك رغماً عنه ، وهو يتفحصها الى كلمة دانيال التي كدرته جداً : « شهية » ... وشعرت ان هناك من يتفحصها ففقدت حالاً ما فيها من طبيعي بأن بالغت به .

ذلك لأن جاك لم يكن يهتم ابداً باخفاء الفائدة التي توحيها الكائنات اليه ؛ كانت له سذاجة الولد الذي يتأمل ، مشدوهاً ؛ ووجهه يصبح ثابتاً ، ونظره لا حرارة فيه . وفي السابق ، قبل عودته من كروي ، لم يكن هكذا ؛ كان يدفع الناس برفقه بكثير من اللامبالاة ، لانه لم يكن يعرف احداً. والآن حيث يكون ، في مخزن ، في الشارع فان نظرته تتلقف المارة . الا أنه لم يكن يحلل ما يكتشفه فيهم ، ولكن تفكيره كان يعمل دون علمه ؛ لأنه كان يكفيه ان يفاجىء احدى الخصائص في الهيئة او الموقف ليصبح هؤلاء المجهولون الذين التقاهم صدفة ، اشخاصاً خصوصيين في مخيلته يعزو إليهم ميزات ذاتية .

وانتزعته مدام دي فونتانان من أحلامه بأن وضعت يدها على ذراعه ، وقالت له :

– تعال كلّ بجانبي . زرني الآن زيارة قصيرة ـ وقدمت اليه فنجاناً وصحناً ـ انا مسرورة جداً لرؤيتك هنا. جني يا صغيرتي ، قدمي الينا الحلوى. لقد سرد عليّ اخوك الحياة التي تعيشانها في الشقة الصغيرة. وانا مسرورة جداً!

اخوان يتفاهمان كصديقين حقيقيين ، هذا هو الشيء البديع ! ان دانيال وجني يتفاهمان جيداً ، هما ايضاً . وهذا فرحي الأكبر . هذا يجعلك تبتسم يا كبيري ـ قالت ذلك لدانيال الذي كان يقترب مع انطوان ـ يجب دائماً ان يسخر من امه الهرمة . قبّلني عقاباً لك ، وامام الجميع .

كان دانيال يضحك . وربما كان منزعجاً . ولكنه انحنى ولامس بشفتيه صدغ امه . كانت اقل حركاته مشبعة بالكياسة .

وكانت جني في الناحية الاخرى من المائدة تتابع المشهد ؛ وابتسمت ابتسامة ناعمة فتنت انطوان . ولم تقاوم المجيء من جديد لتتعلق بذراع دانيال. وفكر انطوان : « هذه واحدة اخرى ايضاً تعطي اكثر مما تأخذ » وكانت نظرة المرأة في ذلك الوجه الطفولي قد اقلقته منذ زيارته الاولى . وقد لاحظ حركة الكتفين الجميلة التي كانت تتفلت منها بين وقت وآخر لترفع صدرها الناهد خارج المشد ، ثم تتركه يعود الى مكانه بهدوء . لم تكن تشبه امها في شيء ؛ ولا دانيال. ولم يكن في ذلك ما يدهش: كانت تبدو مولودة لحياة تختلف عن الآخرين.

كانت مدام دي فونتانان تشرب الشاي بجرعات صغيرة ، مبقيةً الفنجان قريباً من وجهها الضاحك ، ومن خلال البخار كانت تقوم باشارات صغيرة من الصداقة لجاك . وكانت نظرتها ، من شدة الضوء والرقة ، تعطي انطباع نور ، وحرارة ، وشعرها الأبيض يتوج ، كتاجٍ مدهش ، جبهتها الفتية المكشوفة بشكل واسع . وكانت عينا جاك تذهب من الأم الى الابن ، كان يحبهما كلاهما في تلك الدقيقة بكثير من القوة بحيث كان يتمنى بحرارة ان يظهر ذلك ؛ لأنه كان يشعر اكثر من غيره بالحاجة لأن لا يبقى مجهولاً . ورغبته الحارة في معرفة الكائنات كانت تصل إلى هذا الحد : الى حد الرغبة في اذابة حياته في حياتها .

وارتفع امام النافذة جدال بين نيكول وجني ، فجاء دانيال يدلي بدلوه فيه .. لقد انحنى الثلاثة على آلة التصوير ليتأكدوا اذا كان قد بقي فيها فيلم للتصوير. وهتف دانيال فجأة بذلك الصوت الحار الذي لم يكن يملكه في السابق مثبتاً على نيكول نظره المداعب المتعجرف :

– لكي أكون مسروراً . نعم ! أبقين كما انتن هناك ، بالقبعات ؛ وصديقي تيبو بجانبكن .

ونادى بصوت منخفض :

– جاك ! أرجوك ، أريد ان أصوركم معاً .

فانضم جاك إليهما . واقتادهم دانيال بالقوة إلى قاعة الاستقبال حيث النور افضل ، كما قال .

وكانت مدام دي فونتانان وانطوان قد تأخرا في قاعة الطعام .

وختم انطوان الحديث بهذا الكلام العنيف الذي يبدو له انه يكسب حديثه لهجة الصراحة .

– اني احرص على ألا تكوني مخطئة حول هذه الزيارة . لو كان يعلم بوجود جاك هنا ، وانني انا الذي اتيت به ، فاني اعتقد انه يخلص أخي من نفوذي ، ولبدأ كل شيء من جديد .

فتمتمت مدام دي فونتانان بنبرة ابتسم لها انطوان :

– يا للرجل المسكين !

– اترثين له ؟

– لأنه لم يعرف ان يستحق ثقة ولدين امثالكما .

– ليس الخطأ منه ، وكذلك ليس مني . فابي هو ما يستحق ان يدعى رجلاً سامياً ومحترماً . اني احترمه ، ولكن ماذا تريدين ؟ اننا لا نفكر ابداً نفس التفكير حول نقطة واحدة ، وانا لا اقول الشيء نفسه فقط ، بل أقول بطريقة مماثلة . ومهما كان الموضوع فاننا لا نتمكن ابداً من اتخاذ وجهة نظر واحـــدة .

– لم يتلقّ الجميع النور بعد .

فقال انطوان بحدة :

– إذا كنت تفكرين بالدين فان والدي مفرط في تدينه .

فهزت مدام دي فونتانان رأسها :

ـ كان بولس الرسول من الرأي القائل بان ليس الذين يسمعون الناموس هم العادلون أمام الله ، بل اولئك الذين يطبقونه .

كانت تشعر حيال السيد تيبو ، الذي تعتقد انها ترثي له من كل قلبها ، بنفور غريزي عنيف . والمنع الذي كان موضوعه ولدها وبيتها ، بدا لها كثير الظلم ومعللاً بأخس الأسباب . وتذكرت باشمئزاز منظر الرجل الكبير ، ولم تغفر له ارتيابه بذاك الذي تقيم له أعظم وزن : تربيتها الاخلاقية ، وبروتستانتيتها . وكانت راضية عن انطوان لأنه نقض الحكم الوالدي . وسألت بخوف مبهم مفاجىء :

ـ وانت ، هل ظللت تمارس واجباتك الدينية ؟

فأشار بالنفي . وكانت سعيدة لأن وجهها تألق . وقال موضحاً :

ـ بالحقيقة انني مارست واجباتي الدينية متأخراً .

وكان يبدو له ان وجود مدام دي فونتانان جعله اكثر جلاء ؛ واكثر ثرثرة بالتأكيد ، ذلك لأن لها طريقة بالاصغاء تستميل القلوب وتكسب محدثيها قيمة وتشجعهم على الارتفاع ، لأجلها ، فوق مستواهم العادي .

ـ لقد اتبعت الروتين دون تقوى حقيقية . وكان الله بالنسبة إلي نوعاً من مدير مدرسة ثانوية لا يغرب عنه شيء ، وان من الحكمة ارضاءه بواسطة بعض الحركات وشيء من النظام ؛ كنت اطيع ، ولكني لم أكن أجد الضجر في ذلك وكنت تلميذاً ممتازاً بكل شيء ؛ وبالدين أيضاً . فكيف أضعت الايمان ؟ لا أعرف شيئاً عن ذلك . وحين خطر ببالي ـ منذ أربع أو خمس سنوات ـ كنت قد بلغت درجة من الثقافة العلمية لم تترك للمعتقدات الدينية سوى مكان قليل . ان اختباري ـ قال ذلك بشيء من الفخر ، والصحيح انه كان يوضح بذلك أفكاراً ارتجلها دون ان يكون لديه فرصة أو عطلة ليحلل نفسه بشكل لطيف ـ اني لا أقول ان العلم يوضح كل شيء ، ولكنه يحقق ؛ وأنا ، يكفيني هذا . و « كيف » تشوقني بما فيه الكفاية لأقلع دون أسف عن البحث العبث عن « اللماذا » . ـ وأضاف بسرعة خافضاً صوته ـ : بين هذين النظامين لا يوجد

سوى فرق درجة تقريباً . — وابتسم كأنه يعتذر ، وتابع : — أما الاخلاق فلا تشغلني أبداً . أأصدمك بذلك ؟ أنت ترين اني أحب عملي ، واحب الحياة ، وأنا نشيط ، عامل ، وأعتقد انني برهنت ان هذه الفعالية هي بنفسها قاعدة للسلوك. وعلى كل حال، فانني حتى الآن لم أجد نفسي متردداً فيما يجب ان أقوم به.

ولم تجب مدام دي فونتانان بشيء . لم تحقد على انطوان لاعترافه بأنه يختلف كثيراً عنها ، ولكنها في دخيلة نفسها كانت تزيد من شكرها لله لأنه حاضر في قلبها باستمرار . كانت تستمد من هذا الحضور ثقة فائضة وفرحة كانت تشع حقيقة فيها : إلى درجة انها ، وقد آذتها الحوادث ، وكانت أكثر شقاء من كثير من الذين يقربونها ، كانت تملك ذلك الامتياز الذي يجعلها مصدر شجاعة وتوازن وسعادة لكل فرد . وقد اختبر انطوان ذلك في هذه اللحظة ؛ انه لم يلاق بين المحيطين بوالده شخصاً أوحى إليه هذا الاحترام المشدد وكان الجو حوله مثيراً للحماسة إلى هذه الدرجة لكثرة صفاته. وقد رغب ان يتقدم خطوة اخرى نحوها ولو على حساب الحقيقة . وقال مؤكداً ، مع انه لم يفكر مطلقاً بالبروتستانت قبل ان يعرف آل فونتانان :

— لقد اجتذبتني البروتستانتية دائماً . واصلاحكم هو الثورة على الصعيد الديني . ويوجد في مذهبكم مبادىء التحرر ...

كانت تصغي إليه بتعاطف يتعاظم . وبدا لها فتياً ، محتدماً ، فروسياً . وكانت تعجب بهيئته الحيه وثنية جبهته المنتبهة، وحين رفع رأسه شعرت بسرور طفولي في ان تكتشف في قسماته احدى الخصائص التي تضاف إلى ميزة نظرته المفكرة . كان جفنه الأعلى كثير الضيق بحيث يختفي تقريباً تحت قوس الحاجب حين يفتح عينيه كثيراً ، إلى درجة ان الاهداب تضاعف الحاجبين تقريباً وتمتزج معها . وكانت تفكر : « من يملك جبهة كهذه لا يمكن ان يكون منحطاً » ، وعندئذ اجتازتها هذه الفكرة : بأن انطوان يجسد الرجل الجدير بأن يُحَب وكانت لا تزال متأثرة من شعورها بالحقد على زوجها . « ربط حياتها بكائن من

هذه الطينة ... » انها المرة الاولى التي تقارن فيها جيروم بغيره ؛ والمرة الاولى على الخصوص التي تلامسها فيها حسرة واضحة ، وشك بأن احداً يمكن ان يجلب لها السعادة. ولم يكن ذلك سوى اندفاعة عاطفية ، خفية ، بعثت فيها الاضطراب دفعة واحدة حتى الاعماق ، ولكنها شعرت بالخجل منها حالاً ، بحيث سيطرت عليها بينما تلاشت بشكل أبطأ تلك المرارة التي خلقتها الندامة ، وربما الحسرة ، وراءها .

ودخول جني وجاك انهى تحرير مخيلتها . وقد دعتهما إلى جانبها من بعيد بحركة مرحبة خوفاً من ان يظنا نفسيهما ثقيلين. ولكن منذ اللمحة الاولى حدست بأن شيئاً قد حدث بينهما .

وهذا ما كان فعلاً .

فما ان اخذ دانيال صورة نيكول وجاك حتى طلب ان يتأكد حالاً من نجاحه. وكان في الصباح قد وعد جني وابنة خاله ان يعلمها كيفية تظهير الصورة. وكانا قد أعدا اللازم في غرفة غير مستعملة لتعليق الثياب تقع في نهاية الرواق، وكان دانيال يستعملها قبلاً كغرفة سوداء . وهذه الغرفة ضيقة بحيث لا تتسع لأكثر من اثنين . وكذلك فقد تصرف دانيال بنوع ان تدخلها نيكول اولاً ؛ وعندئذ اندفع نحو جني واسند يداً محمومة إلى كتفها وهمس في اذنيها :

رافقي تيبو .

فألقت عليه نظرة ذكية لائمة ، ولكنها رضيت ، إما لأن سلطة اخيها ذات تأثير عليها ، وإما لأن طريقته في الطلب منها كانت لا تقاوم ، سواء اكان بالصوت ، ام بوقاحة النظرة ، ام بفراغ الصبر الظاهر على قسماته ، بحيث تخضع دون ان تؤجل رغبته .

وكان جاك اثناء هذا المشهد القصير قد ظل الى الوراء ، امام واجهة زجاجية في قاعة الاستقبال . ولحقت به جني . ولكي تتأكد من انه لم ير شيئاً من حيلة دانيال قالت له بجرد :

وانت ، هل سبق لك ان اخذت صوراً ؟

ـ كلا .

فأدركت من الاضطراب الخفيف للجواب أنه لم يكن عليها أن تطرح السؤال، وتذكرت انه سُجن وقتاً طويلاً في نوع من السجن . وقد تابعت لتقول شيئاً بدافع توارد الافكار :

ـ انك لم تر دانيال منذ وقت طويل ، أليس كذلك !

فخفض عينيه وقال :

ـ كلا ، منذ وقت طويل جداً . منذ .. أكثر من سنة .

ومر ظل على وجه جني . فمحاولتها الثانية لم تكن سعيدة أكثر من الاولى: كانت تبدو انها تريد تذكير جاك بالهرب إلى مرسيليا . لا يهم . انها تحقد عليه دائماً لأجل هذه المأساة ؛ وهو بنظرها يحمل المسؤولية كلها . وكانت تكرهه منذ وقت طويل دون ان تعرفه . وحين شاهدته في هذا المساء، عند بدء تناول الطعام ، تذكرت رغماً عنها الأذى الذي سببه لهم، ومنذ الفحص الأول لم يعجبها بدون أي تحفظ . أولاً حكمت عليه بالقبح ، وحتى بأنه زقاقي ، بسبب رأسه الكبير ذي القسمات المشوهة ، وفكه وشفتيه المفلعتين ، واذنيه ، وشعره الامغر الذي كان ينتصب كالسنابل على الجبهة. انها بالحقيقة لم تكن تغفر لدانيال ارتباطه برفيق كهذا ، وفي غيرتها ، سرّت تقريباً لتأكدها من ان الكائن الوحيد الذي تجرأ على مزاحمتها على قسم من المحبة الأخوية يملك هذه الجاذبية القليلة جداً..

كانت قد اخذت الكلبة الصغيرة على ركبتيها وصارت تداعبها لاهية . وابقى جاك عينيه مصوبتين نحو الارض ، مفكراً هو ايضاً بهربه ، ثم بالمساء الذي اجتاز فيه لأول مرة عتبة هذا البيت .

وسألته اخيراً لتقطع الصمت :

ـ هل وجدته تغير كثيراً ؟

ـ فقال : كلا .

وعاد عن رأيه فجأة وقال : ومع ذلك ، بلى .

ولاحظت هذا التردد . وسرّت لانه صادق ؛ واصبحت للحظة أقل نفوراً

منه . هل فطن جاك لهذا العفو الهارب ؟ لقد كف عن التفكير بدانيال . وكان ينظر إلى جني ويلقي اسئلة على نفسه حولها. لم يكن يعرف ان يوضح ما يستشفه من طبيعتها ؛ ومع ذلك ، تحت هذا الوجه ، المعبر المغلق معاً ، وفي اعماق هاتين الحدقتين الحيتين اللتين لا تفصحان عن سرهما ، توصل إلى ادراك التقلب العصبي واختلاج الحساسية الدائم . وجاءته فكرة معرفتها بصورة افضل ، والنفاذ إلى ذلك القلب المغلق ، وان يصبح تقريباً الصديق لهذه الطفلة ، ويحبها . وحلم بها دقيقة : كانت دقيقة من الغبطة . وكان قد نسي كل شيء ، وشقاء الماضي . ولم يعد له ممكناً ان يكون بائساً . كانت نظرته تروح وتجيء حول الغرفة وتلامس جني بمزيج من الاهتمام والخجل كان يمنعه من ان يلاحظ كم كانت هيئــــة الفتاة متحفظة ودفاعية . وفجأة ، وبانقلاب مشؤوم لتفكيره ،ظهرت له ليزبيت : شيء صغير ، مألوف ، عائلي ، لا شيء تقريباً ، يتزوج ليزبيت ؟ لقد ظهرت له لأول مرة صبيانية هذا الافتراض . إذن ؟ وفجأة انحفر فراغ في حياته ، فراغ رهيب يجب ان يملأه بأي ثمن-لتملأه جني بشكل طبيعي-ولكن ..

ــ ... في مدرسة ؟

فارتجف . انها تكلمه .

ــ عفواً ؟

ــ هل أنت في مدرسة ؟

فقال مضطرباً :

ــ بعد . انا متأخر جداً . اني اتلقى دروساً على اساتذة ، من أصدقـــاء أخي . ــ واضاف بدون ان يفكر بالشر : ــ وانت ؟

فشعرت بالاهانة لأنه سمح لنفسه باستجوابها ، وفضلاً عن ذلك نظرته الدالة على الصداقة . فأجابت بنبرة جافة :

ــ كلا ، اني لا أذهب إلى المدرسة ؛ انا ادرس مع معلمة .

فقال كلمة مشؤومة :

ــ نعم . بالنسبة لفتاة ، فهذا لا أهمية له .

فعاندت :

– ليس هذا رأي امي ولا رأي دانيال .

ونظرت إلى وجهه بعينين تبدو فيهما العداوة صريحة . وفطن لحماقته، واراد ان يكسب ما خسره بقول شيء محبب :

– الفتاة تعرف دائماً ما تحتاجه بشكل كاف .

وادرك انه عرض نفسه للخطر ؛ ولم يكن سيداً لأفكاره ولا لأقواله، وشعر بأن الاصلاحية صنعت منه أبله . فاحمر وجهه ، ثم ان تلك النفحة من الحرارة التي صعدت إلى وجهه اصابته فجأة بالدوار. ولم يجد مخرجاً آخر إلا في الغضب، فبحث عن مرمى ليثأر فلم يجده . وفقد كل حس سليم ، وقذف بتلك اللهجة من السخرية العامية التي يستعملها والده في غالب الاحيان :

– ان الشيء الرئيسي لا يجري تعليمه في المدارس : ان يكون المرء ذا خلق حميـــد .

فملكت نفسها إلى درجة انها لم تهز كتفيها . وبما ان بوس جــاءت تتثاءب بجلبة ، فأنها قالت بصوت يرتجف من الغضب :

– أوه ! الشنيعة ! السيئة التربية !

ورددت مرة أخرى بالحاح منتصر :

– أوه ! السيئة التربية !

ثم وضعت العلبة على الارض ونهضت ، واتكأت بمرفقيها على الشرفــة . وقضت خمس دقائق طوال في صمت لا يحتمل . ولم يتحرك جاك عن مقعده ، وقد ضاق نفسه . وكان صوت مدام دي فونتانان يتناوب في غرفة الطعام مــع صوت انطوان . وأدارت جني ظهرها له ، واخذت تدندن تمارين البيـــانو ، ورجلها تضرب الايقاع بوقاحة . آه ! ستقص كل ذلك على أخيها لكي ينقطع عن معاشرة هذا القليل الادب ! كانت تبغضه ورأته خلسة احمر وقوراً ، وتضاعفت رباطة جأشه . فبحثت عما تستطيع ابتكاره لتزيد من جرحه .

– تعالي يابوس .. انا ذاهبة .

وتركت الشرفة ، ومرت امامه كأنه غير موجود وسارت دون عجل نحو قاعة الطعام .

وخاف جاك ، ببقائه هناك ، ألا يعرف كيف يذهب . فتبعها، ولكن دون أن يرافقها .

وغيّر لطف مدام دي فونتانان شعوره إلى كآبة . وقالت لأبنتها :

ـ إذن ، لقد تركـكما أخوك ؟

فصاحت جني بوجه هارب :

ـ لقد طلبت من دانيال تظهير الافلام حالاً . اوه ! لن يستمر طويلاً .

وكانت تتجنب نظرات جاك ، مرتابة بألا يكون ابله . انها شراكة بالذنب لا إرادية تزيد من خطورة عداوتها . وحكم عليها انها كاذبة واستنكر مجاملتها بتغطية سلوك اخيها . وادركت حكمه ووجدت نفسها مجروحة في كبريائها .

وابتسمت مدام دي فونتانان لها واشارت اليها بالجلوس . وقال انطوان مؤكداً :

ـ ان مريضتي الصغيرة كبرت جداً .

ولم يقل جاك شيئاً وكان يتطلع الى الأرض . وغرق في اليأس . لن يعود أبداً كما كان في السابق . وشعر انه مريض ، مريض حتى أعماق النفس، ضعيف وشرس معاً ، تسيره محرضاته ، لعبة قدر حقود . وسألته مدام دي فونتانان :

ـ أأنت موسيقي؟

لم تظهر هيئته انه فهم ما قالت . وامتلأت عيناه بالدموع ؛ وانحنى بحدة . وتظاهر بعقد شريط حذائه. وسمع انطوان يجيب عنه. وصارت اذناه تطنـّان. وتمنى الموت . هل كانت جني تنظر اليه ؟

مضى أكثر من ربع ساعة على دخول دانيال ونيكول إلى الغرفة السوداء .

وأسرع دانيال بدفع المزلاج ونشر الافلام خارج الآلة . وقال :

ـ لا تلمسي الباب ، فأقل خيط من النور يطمس الشريط كله .

ونيكول ، وقد أعماها الظلام اولاً ، شاهدت بعد قليل ظلالاً متوهجة

بقربها كانت تتحرك في هالة القنديل الحمراء ؛ وميزت شيئاً فشيئاً يدي شبح ، طويلتين ، دقيقتين مقطوعتين من المعصم ، كانتا تؤرجحان طستاً صغيراً . ولم تكن ترى شيئاً آخر من دانيال سوى تينك القطعتين المتحركتين ؛ ولكن المكان المظلم كان كثير الضيق بحيث كانت تشعر بكل من حركتيهما كأنهما تلامسانها . وحبسا أنفاسهما ، مفكراً كل منهما ، وبملازمة مشؤومة ، بقبلة الصباح في الغرفة. وتمتمت :

— هل يُرى أي شيء ؟

فلم يشأ أن يجيب حالاً : كان يتذوق القلق النفسي اللذيذ الذي أحدثه هذا الصمت ؛ والتفت نحو نيكول دون ان يتخذ أي حذر ، ومد منخريه ليتنشق الهواء المحيط بها . وقال مقطعاً كلامه :

— كلا ، بعد .

وسار صمت جديد . ثم ان الطست الذي لم تحول نيكول نظرها عنه أصبح جامداً : وابتعدت اليدان من اللهب عن القنديل . وكانت لحظة لا تنتهي . وفجأة شعرت انها احتُضنت ، فلم تصب بأية دهشة ، وكانت متعزية تقريباً لأنها تخلصت من الانتظار ، ولكنها ارجعت نصفها الأعلى إلى الوراء ، وإلى اليمين وإلى اليسار ، لتهرب من فم دانيال الذي كانت تتمناه وتخشاه معاً . وأخيراً التقى وجهاهما . وصدمت جبهة دانيال المشتعلة شيئاً مطاطاً ، زالقاً وبارداً : الضفيرة التي تحملهانيكول ملفوفة حول الرأس ؛ ولم يستطع ان يكبح ارتعاشه ، وحركة تقهقر خفيفة ، واغتنمت فرصة ذلك لتبعد شفتيها عنه ، مدة الوقت الذي نادت فيه :

— جني ! ...

فخنق الصرخة بيده . وكان واقفاً مستنداً بكل جسده على جسد نيكول وقد حشره بالباب . وكان يتمتم بين أسنانه المضمومة كأنه مصاب بالهذيان :

— اسكتي ، دعيني ... يا نيكول ... يا عزيزتي المعبودة . اصغي إلي .

وقل دفاعها فظن انها استسلمت . وكانت قد مدت ذراعها وراءها باحثة

عن المزلاج ، وفجأة فتح المصراع ، واجتاحت الظلام موجة من النور . فتركها وأعاد إقفال الباب ولكنها شاهدت وجهه ! وجه متغير جـداً ! قناع صيني ، ازرق ضارب إلى السواد ، مع صفائح وردية اللون حول عينيه ، يمدهما نحـو الصدغين ، وحدقتان راجعتان إلى الوراء ، خاليتان من التعبير ، وفمه الذي كان رقيقاً اصبح الآن منتفخاً ، ناقصاً ، مفتوحاً قليلا ... جيروم ! لم يكن له أي شبه بأبيه . وفي هذا الضوء الفجائي ، كان جيروم هو الذي رأته !

وقال أخيراً بصوت صافر :

– تهانيّ .. لقد تلفت لفافة الفيلم كلها .

فقالت برصانة :

– اريد أن أبقى . فعندي ما أقوله لك . ولكن افتح الباب .

- كلا ، ان جني ستأتي .

فترددت ، ثم قالت :

– اذن اقسم لي انك لا تمسني .

وشعر برغبة في الانقضاض عليها وكمّ فمها بقبضته ، وتمزيق ثوبهـا من أعلى، وفي الوقت نفسه شعر أنه غـُلب على أمره . فقال :

– اقسم لك .

– حسناً . اصغ إلي اذن يا دانيال . لقد .. تركتك تسير بعيداً ، بعيـداً جداً . وقد أخطأت هذا الصباح . ولكني هذه المرة أقول كلا . لم أهـرب لأصل إلى هنا .

لفظت هذه الكلمات الأخيرة بسرعة ، ولنفسهـا فقط . ثم تابعت لدانيال :

– اني أعهد اليك بسري : لقد هربت من عند والدتي. اوه! ليس هناك مـا يقال ضدها: انها فقطبائسة.. مسيرة، ولا أستطيـعأن أقـوللك أكثر منذلك.

وتوقفت. وظلت صورة جيروم أمام عينيها. سوف يصنع الابن بها ماتعتقد ان جيروم صنعه بأمها . وتابعت بسرعة ، لأن صمت دانيال كان يخيفها !

- انت لا تعرفني جيداً . ومع ذلك فهي غلطتي . وأعرف ذلـك جيداً .

لم أكن معك كما أنا على حقيقتي .. مع جني ، نعم . أما معك ، فقد تركت نفسي أسير . وظننت أنت .. ولكن في أعماقي ، كلا. ليس هذا. انني لا اريد حياة.. حياة تبتدىء هكذا . فهل لهذا تجشمت عناء المجيء لأبقي بجانب امرأة كالعمة تيريز ؟ كلا، اريد .. ستسخر مني ، ولكن لا فرق عندي : اريد ان أستطيع فيما بعد استحقاق احترام رجل سوف يحبني حقيقة ، والى الابد. رجل رصين أخيراً..

– ولكني رصين ..

جازف دانيال ، بابتسامة تستحق الشفقة أدركتها من رنة صوته . وشعرت حالاً بزوال كل خطر ، فقالت بمرح تقريباً :

– اوه ، كلا . لا تغضب مما أقوله لك يا دانيال : أنت لا تحبني .

– اوه !

– ولكن كلا ، فلست أنا التي تحب ، بل شيئاً آخر. وأنا أيضاً لا .. اريد ان أكون صريحة : أعتقد انني لن أستطيع أبداً ان احب رجلاً مثلك .

– مثلي ؟

– اريد ان أقول : رجلاً كبقية الرجال .. اريد ان .. احب ، نعم ، فيما بعد ، ولكنه سوف يكون عندئذ واحداً من .. أخيراً ، واحداً طاهراً ، يأتيني بشكل آخر .. وبشيء آخر .. لا أعرف كيف أشرح لك . اخيراً ، رجل يختلف عنك كل الاختلاف .

– شكراً .

وخمدت رغبته ، ولم يعد يفكر إلا بأن يتجنب الظهور بمظهر المضحك ، وتابعت :

– هيا ، السلام ؛ ولن نفكر بذلك .

وفتحت الباب . وتركها هذه المرة تفتحه ، وقالت : « صديقان » ؟ وهي تمد له يدها . فلم يجب . وكان ينظر إلى أسنانها ، وعينيها ، وبشرتها ، وذلك الوجه المعروض الذي كانت تقدمه كثمرة . وابتسم ابتسامة مغتصبة وطرفت جفونه . وأخذت يده وشدت عليها. وتمتمت بصوت ناعم ، وقد رفعت حاجبيها بشكل مضحك :

– لا تفسد حياتي . فلفافة من الأفلام تكفي اليوم .

ورضي ان يضحك . ولم تكن تطلب منه أكثر من ذلك . وشعرت بشيء من الكآبة ، ولكن بالاجمال كانت فخورة بانتصارها وبالرأي الذي سيكوّنه عنها فيما بعد .

وصاحت جني حين ظهرا في قاعة الطعام : وبعد ؟

فقال دانيال بنشوفة : اخفاق .

وجاك ، بدافع الغضب ، شعر بالسرور . وابتسمت نيكول ابتسامة خبيثة ورددت : اخفاق تام .

ولكنها رأت جني تدير وجهها المتشنج ، وفيض من الدمع يعكر نظرتها ، فركضت إليها وعانقتها .

وكف جاك عن التفكير في نفسه منذ دخول صديقه. لم يكن يستطيع ابعاد انتباهه عن دانيال . وكان لوجه دانيال تعبير جديد منظره يؤلم : تناقض بين أسفل الوجه وأعلاه ، وعدم توافق بين النظرة المبرقعة ، المهمومة ، الهاربة ، والابتسامة الوقحة التي ترفع الشفة وتبعد القسمات إلى الشمال .

وتلاقت نظراتهما . وعبس دانيال قليلاً وبدل مكانه . وهذا الحذر زاد جرح جاك عمقاً أكثر مما عداه . منذ وصوله لم ينقطع دانيال عن خداعه . وقد وعى ذلك أخيراً . ليس بينهما دقيقة من الاتصال الحقيقي : حتى انه لم يستطع ان يكشف لصديقه اسم ليزبيت ! وظن لحظة انه يتألم من زوال الوهم هذا ، وكان يتألم على الخصوص ، وفي الواقع ، ولكن بدون ان يلقي بالاً ، لأنه تجرأ للمرة الاولى ان يأخذ عن حبه رأياً هو موضع نقد، وان يجد نفسه صفر اليدين من هذا الحب. ولم يكن يعيش إلا في الحاضر ككل الاولاد لأن الماضي يتلاشى سريعاً في غيابة النسيان ، والمستقبل لا يوقظ فيه سوى فراغ الصبر . وقد اصر الحاضر على أن يحصل اليوم على طعم من المرارة لا يحتمل ؛ وانتهت فترة ما بعد الظهر في خمول لا حدود له . وحين أشار إليه انطوان ان يستعد للرحيل كان لذلك تأثير تعزية عليه .

وشاهد دانيال حركة انطوان . فأسرع للانضمام إلى جاك وقال :
— لن تذهبا بهذه السرعة .
— ولكن بلى .
فأجاب بصوت أكثر انخفاضاً :
— الآن ؟ ولكننا لم نرَ بعضنا البعض إلا قليلاً .
وهو أيضاً لم يجنِ من يومه سوى خيبة الأمل ، وأضاف اليها توبيخ ضميره حيال جاك ؛ الأمر الذي زاد من غمه تجاه صداقتهما .
— سامحني .
قال ذلك فجأة وهو يدفع جاك إلى فرجة النافذة بهيئة متصنعة كثيرة الطيبة بحيث نسي جاك كل غمومه وشعر من جديد انه مرفوع بواسطة إندفاعة من حنوه الماضي. وقال دانيال بصوت ملحاح :
— اليوم ، لم يكن على ما يرام . متى أراك ثانيةً ؟ : يجب أن أراك بمفردك ، ولوقت طويل . لم نعرف بعضنا البعض جيداً . وليس هذا غير عادي ، سنة بكاملها ، فكر إذن !
وتساءل فجأة عما تؤول إليه هذه الصداقة التي لم يغذِّها شيء منذ وقت طويل سوى إخلاص صوفي اثبت هشاشته . آه ! يجب ألا تُترك لتتلاشى ! وقد بدا له جاك ولداً ، ولكن مودته نحوه ظلت بكاملها ، من يدري ؟ ربما أكثر حدة مما يشعر به الأخ الأكبر .
وفي اللحظة ذاتها كانت مدام دي فونتانان تقول لانطوان :
— اننا نبقى كل أيام الآحاد في البيت ، ولن نترك باريس قبل توزيع الجوائز
ـ وتألقت عيناها وهمست دون أن تخفي كبرياءها : ـ لأن لدانيال جائزة .
ثم أضافت ، بعد أن تأكدت أن ولدها يدير ظهره لها ولا يستطيع سماعها:
ـ تعال أريد أن أريك كنوزي .
واندفعت بمرح نحو غرفتها ؛ ورافقها انطوان . وفي درج خزانتها كان موضوعاً بالصف ما يقرب من العشرين تاجاً من الأكاليل الكرتونية المدهونة ،

وأقفلت الخزانة من الأثر ، وأخذت تضحك ، منزعجة قليلاً لاسترسالها في هذه الصبيانيات وقالت :

— لا تقل عن ذلك لدانيال ، فهو لا يعرف إني احتفظ بها .

وعادا صامتين حتى الدهليز . ونادى انطوان :

— هيا يا جاك .

وقالت مدام دي فونتانان وهي تمد يديها لجاك :

— هذا النهار ليس في الحساب .

وكانت تتطلع إليه بإلحاح ، حتى ليخيل انها أدركت كل شيء .

— أنت هنا عند أصدقاء يا صغيري جاك : أهلاً بك في كل مرة تريد المجيء والأخ الكبير أيضاً ، وهذا غني عن القول .

قالت ذلك وهي تلتفت نحو انطوان بحركة ظريفة .

وبحث جاك بعينيه عن جني ؛ ولكنها اختفت مع ابنة خالها . فانحنى على الكلبة الصغيرة ووضع قبلة على جبهتها الملساء .

وعادت مدام دي فونتانان إلى غرفة الطعام لترتب الطاولة . ودانيال الذي كان يتبعها بدون انتباه ، جـــاء يسند ظهره إلى إطار الباب وأولع سيكارة بصمت . كان يفكر بما قالته نيكول له : لماذا أخفي عنه أن ابنة خاله هربت من بيتها وجاءت تبحث عن ملجأ عندهم ؟ ملجأ ضد ماذا ؟

وكانت مدام دي فونتانان تروح وتجيء بتلـــك السهولة في الحركات والتي تحتفظ لها بمشية امرأة شابة . وكانت تفكر بحديث انطوان وبكل ما اخبرها عن نفسه ، وعن دروسه ، ومشاريعه في المستقبل ، وعن والده . وقالت لنفسها : « قلب سامٍ ويا لها من جبهة جميلة ..» وبحثت عن نعت وأضافت باندفاعـــة مرحة : « مائلة إلى التأمل » . وعندئذ تذكرت الفكرة التي خالجتها : ألم ترتكب الخطيئة بالذهن هي أيضاً ولمدة ثانيـــة ؟ وعادت أقوال غريفوري إلى ذاكرتها . وفجأة ، وبدون سبب واضح ، شعرت بفرح شديد ، بحيث وضعت

الصحن الممسكة به لتمر بأصابعها على وجهها ، ولتلامس ، كما بدا لهـــا ، ذلك السرور على قسماتها . وجاءت إلى ولدها ، مندهشة ، ووضعت يديها على كتفيه بمرح ، وتطلعت اليه حتى اعماق عينيه ، وقبلته دون ان تقول شيئاً . وفجأة تركت الغرفة ، وسارت رأساً إلى مكتبها ، وكتبت بخطها الضخم الصبياني ، المضطرب قليلاً :

« عزيزي جيمس .

« كنت امامك كثيرة الكبرياء . من منا له الحق بالإدانة ؟ اشكر الله الذي أثارني مرة أخرى . قل لجيروم انني اقلعت عن طلب الطلاق . قل له ... » .

وكانت الكلمات ترقص خلال دموعها .

١٢

بعد بضعة أيام استيقظ انطوان مع الفجر ، بضربات على مصراعي النافذة . أن لاقط الخرق لم يستطع فتح الباب الكبـــير ؛ وسمع الجرس يدق في المنزل وارتاب بحدوث حادث .

وبالفعل فان الأم فرولان قد ماتت : لقد طرحتها أرضاً نوبة أخيرة عند رجل سريرها .

وجاء جاك كمن يرتاح البارحة على فراشه . والفم مفتوح يكشف عن اسنان صفراء . كان هذا يذكره بشيء رهيب : آه ! نعم . جثة الجواد الاشهب على طريق طولون ... وفجأة جاءته الفكرة بان ليزبيت ربما كانت ذاهبة في رحلة.

ومضى يومان فلم تأت . ولن تأتي . لا بأس . لم يكن يوضح عواطفه . حتى انه بعد زيارته لشارع الاوبسرفاتوار ، استمر في نظم قصيدة يمجد فيها الحبيبة ويشكو بسبب نفيها ولكنه حقيقةً لم يكن يتمنى ان يراها .

إلا انه كان يمّر عشر مرات بالنهار امام منزلها ، وفي كل مرة كان يلقي نظرة قلقة إلى الداخل ، وفي كل مرة كان يعود مطمئناً ، ولكنه غير راض .

ومساء الدفن ، وقد عاد إلى البيت بعد ان تناول عشاءه وحده في المطعم

الصغير الذي يتناول هو وانطوان طعامهما فيه منذ رحيل السيد تيبو إلى ميزون ـ لافيت ، فان الشيء الاول الذي استرعى نظره هو محفظـــة متروكة على باب المنزل. فاجتاحته رجفة ، وتغطت جبهته بالعرق. وفي النور الذي كانت تحدثه الشموع حول التابوت ، كان خيال ولد راكعاً تحت أقنعة الحداد . فدخل دون تردد . ورفعت الراهبتان نحوه نظراً لامبالياً ، ولكن ليزبيت لم تلتفت . وكان المساء عاصفاً ، ورائحة ساخنة محلاة بالسكر كانت تملأ الغرفة ، وزهور تذبل على التابوت. وظل جاك واقفاً ، متأسفاً لدخوله ، كان هذا الجهاز المأتمي يسبب له اضطراباً نفسياً لا يمكن دفعه. ولم يكن يفكر بليزبيت ، بل كان يبحث عن فرصة للهرب . ونهضت إحدى الراهبات لتقطع فتيل الشموع ، فاغتنم الفرصة ليهرب .

هل عرفت ليزبيت بوجوده وعرفت خطاه ؟ انها لحقت به قبل ان يبلغ باب الشقة . وكان جاك ملتفتاً وسمع خطوها . وظلا بضع ثوان الواحد أمام الآخر في زاوية الدرج المظلمة . كانت تبكي تحت قناعها المسدل دون ان ترى اليـد التي كان جاك يمدها إليها . وكان بوده ان يبكي هو ايضاً ، بسبب الموقف ، ولكنه لم يكن يشعر بشيء سوى قليل من الضجر والخجل .

وقعقع باب فوق ، فخاف جاك ان يفاجئهما أحد هناك وسحب مفاتيحه . ولكن الاضطراب ، والظلام منعاه من إيجاد القفل . فقالت موعزة :

ـــ ربما لم يكن هذا هو المفتاح الصالح .

فأصابته هزة من رنة هذا الصوت الضعيفة . واخيراً فتح الباب ؛ وترددت؛ كانت خطوة المستأجر تهبط الطوابق . وهمس جاك ليجعلها تحزم أمرها :

ـ انطوان يقوم الآن بنوبته في المستشفى .

وشعر انه احمرّ . واجتازت العتبة دون ان يبدو عليها القلق .

وحين أعاد اغلاق الباب واشعل النور رأى انهـا ذهبت رأساً إلى غرفتهما وجلست على الكنبة ، بنفس حركاتها السابقة . وشاهد عندئذ ، من خـــلال النسيج الدقيق ، جفونها المتورمة . ووجهها المتبشع نوعاً ، ولكن الحزن قد

غيره . ولاحظ ان أحد أصابعها محاط بقماش. ولم يجرؤ على الجلوس ! ولم يستطع ان يبعد عن ذهنه الظروف المحزنة لهذه العودة . وقالت :

— الطقس ثقيل . وسوف يحدث زوبعة .

وغيرت مكانها قليلاً على المقعد وبدت انها تدعو جاك ليأخذ المكان الذي افسحته له بجانبها : مكانه . فجلس ؛ وحالاً ، وبدون أية كلمة ، وبدون ان تنزع نقابها بل نحّته فقط من جهة جاك ، ووضعت كما في السابق وجهها ملتصقاً بوجهه . كان الاحتكاك بهذا الوجه المبلل كريهاً لديه . ونقاب النسيج الدقيق خرجت منه عفونة صباغ ، برنيق . ولم يكن يعرف ماذا يفعل ، وماذا يقول وأراد ان يأخذ يدها ، فأطلقت صرخة .

— أأنت مجروحة ؟

فقالت متأوهة : آه ! انه ... انه داحوس .

وامتزج كل شيء في هذه الآهة : ألمها ، حزنها ، وموج حنوها الذي لا مخرج له . وحلّت ضمادها سهواً ، وحين ظهر الاصبع ، تالفاً ، أزرق ضارباً إلى السواد ، والظفر منتزع بسبب الدمل ، توقف تنفس جاك . وأصابها الدوار لحظة كما لو انها عرّت مكاناً خفياً من جسدها بشكل فجائي . إلا ان حرارة هذا الجسد القريب جداً نفذت إليه من خلال الملابس . ولفتت نحوه عينيها كالخزف المطلي واللتين تبدوان كأنهما تتوسلان دائماً ألا يلحق بها أذى . عندئذ شعر ، رغم اشمئزازه ، بالرغبة في تقبيل اليد المريضة ليشفيها .

ولكنها نهضت ولـفت العصابة بحزن حول اصبعها وقالت ؟

— يجب ان أعود .

وكانت تبدو تعبة جداً بحيث قال مقترحاً :

— دعيني اصنع لك فنجاناً من الشاي . اتريدين ؟

فألقت عليه نظرة غريبة ، وابتسمت بعد ذلك .

— أريد جيداً . اريد ان اصلي هناك صلاة قصيرة وأعود .

واسرع بتسخين الماء وتحضير الشاي وحمله إلى غرفته . ولم تكن ليزبيت قد

عادت . فجلس .

كان الآن يرغب في ان تعود. وكان يشعر باضطراب لم يحاول تفسيره. لماذا لم تعد؟ لم يجرؤ على مناداتها ومزاحمتها على الام فرولان. ولكن ماذا تنتظر لتعود؟ كان الوقت يمر. وكان في كل لحظة يذهب ويجس أبريق الشاي . وحين اصبح بارداً لم يبق هناك عذر للنهوض وظل جامداً . وآذته عيناه لكثرة ما نظر إلى القنديل . وفراغ الصبر اصابه بالحمى. وكانت اعصابه تنبض لدى ألق البرق الظاهر من خلال شقوق مصاريع النافذة . ألن تعود ابداً ؟ وشعر انه متخدر ، بائس حتى الموت .

قرقعة خفية . بوم ! انه الشاي ينفجر ! وخيراً فعل ! والشاي يتساقط كالمطر ويسوط النوافذ الخارجية . وليزبيت مبللة ، والماء يسيل على خديها ، على غطائها الدقيق الذي زالت صبغته واصبح شاحباً ، شاحباً وشفافاً كغطاء رأس عروس .

وارتجف جاك : لقد جاءت تجلس وتسند وجهها إلى وجهه من جديد .

ــ اكنت نائماً يا حبيبي ؟

ــ لم تكن قد خاطبته بعد بصيغة المفرد . وكانت قد نزعت نقابها ، وفي حالة نصف إغفاء ، وجد من جديد الوجه الحقيقي لليزبيت ، رغم العينين الذابلتين والفم الهزيل . واتت بحركة مرهقة من كتفيها وقالت :

ــ الآن ، سيزوجني عمي .

وحنت رأسها . هل كانت تبكي ؟ كانت لهجتها باكية ولكنها خاضعة ؛ ومن يدري إذا كانت لا تشعر بشيء من الفضول حيال هذا المستقبل الجديد ؟

ولم يسر جاك بعيداً في تحليله . كان يريد ان تكون تعيسة لانه كان في هذه اللحظة يتذوق لذةً وهو يرثي لها.واحاطها بذراعيه ، وضمها بقوة متزايدة، وكان يبدو انه يريد اذابتها فيه . وبحثت عن فمه الذي تركه لها بجشع . لم يكن قد عرف فوّرة كهذه في كل كيانه . ومما لا شك فيه انها كانت قد حلّت عرى ثوبها مسبقاً لأن ثديها العاري الحار اصبح حالاً في تجويف يده ، ودون ان يبحث عنه تقريباً .

وعندئذ التفتت لكي تستطيع يد جاك ان تروح وتجيء على جسدها بسهولة اكثر ، ويشعر بها حرة تحت ثوبها . وتمتمت :

— لنصلِّ معاً لأجل الام فرولان .

ولم يشعر بأية رغبة بالابتسام . ولم يكن بعيداً عن الظن انه يصلي ما دام هناك حمية في مداعباته .

وفجأة تخلصت بنوع من الانين ؛ فظن انه صدم اصبعها المريض ، او انها تريد الهرب . ولكنها لم تخط سوى خطوة واحدة لتطفىء النور وتعود اليه . وسمع كلمة « حبيبي » في إذنه ، ثم شعر بفم ينزلق ويبحث مرة أخرى عن فمه ، واصابع محمومة تجوس خلال ثيابه ...

وايقظه هزيم رعد جديد ؛ وكان المطر يزفر على بلاط الساحة . ليزبيت .. اين كانت ؟ ليل اسود . كان جاك وحده على الكنبة المختلة الترتيب . وعزم على النهوض والذهاب للبحث عنها ، حتى انه اتى بحركة للاتكاء على مرفقه ؛ ولكنه لم يستطع مقاومة نعاسه ، وسقط على الوسائد .

وحين فتح عينيه اخيراً كان النهار قد تقدم . وشاهد أولاً ابريق الشاي على الطاولة ؛ ثم سترته على الارض ، مكومة . عندئذ تذكر ؛ ونهض ، واجتاحته رغبة لا تقاوم في خلع ما بقي من ثيابه ، وان يغسل أعضائه الرطبة بالماء. وبدت طراوة الحمام له كالعبادة . واخذ يروح ويجيء في الغرفة وهو لا يزال مبللاً ، مقوساً حقويه ، لامساً ساقيه العصبيين وبشرته الطريئة ، مع نسيان كلي لما يمكن ان تذكره هذه العبادة الراضية لعريه بما هو مخجل . وقدمت له المرآة صورته الرشيقة ، وللمرة الاولى منذ وقت طويل ، تأمل خصائص جسده دون اي اضطراب. وكان يهز كتفيه لذكرى غواياته ويتبع ذلك بابتسامة متسامحة . وفكـّر : « حماقات ولد » ؟ كان هذا الفصل يبدو له مغلقاً بصورة نهائية ، كما لو ان قوى ظلت مجهولة وقتاً طويلاً ، ومنحرفة طويلاً ، وجدت اخيراً وظيفتها الحقيقية . ودون ان يفكر بوضوح بما جرى هذه الليلة ، حتى بدون ان يفكر

بليزبيت ، شعر بقلبه فرحاً ، والروح والجسد متطهران. ولم يكن ذلك لشعوره باكتشاف شيء ما ، بل بالاحرى لأنه استعاد حالة توازن قديمة : كناقه يبتهج ولكنه لا يدهش من شيء لعودة صحته .

وذهب إلى الدهليز وهو لا يزال عارياً وفتح باب الدخول قليلاً . وظن انه ميّز ليزبيت في ظلام المنزل راكعة تحت قناعها كما كانت مساء البارحة . ورجال على السلالم يجللون الباب الكبير بالسواد . فتذكر ان موعد الدفن في الساعة التاسعة ، وارتدى ثيابه مسرعاً كأنه ذاهب إلى حفلة. لقد كان كل عمل سروراً هذا الصباح .

وكان قد انتهى من ترتيب غرفته حين عاد السيد تيبو خصيصاً من ميزون ـ لافيت ليأخذه .

وتبع الموكب إلى جانب والده . واختبأ في الكنيسة بين الآخرين ، بين كل هؤلاء الناس الذين لم يكونوا يعرفون شيئاً ، وشد على يد ليزبيت دون تأثير كبير ، بنوع من عاطفة التفوق المألوف .

كان المنزل فارغاً طول النهار . وكان جاك ينتظر بين لحظة واخرى عودة ليزبيت ، دون ان يوضح بشكل واع الرغبة الكامنة تحت فراغ الصبر هذا .

وفي الساعة الرابعة دق الجرس فركض يفتح : استاذه في اللاتينية ! لقد نسي ان لديه مراجعة هذا النهار .

كا يتابع بذهول تفسير هوراس حين دق الجرس من جديد . هذه المرة كانت هي . وشاهدت ، وهي على العتبة ، باب الغرفة مفتوحاً وظهر الاستاذ منحنياً على الطاولة . وظلا تجاه بعضهما البعض بضع لحظات يتساءلان بالعيون . لم يشكّ جاك في انها جاءت تودعه ، وانها ستسافر في قطار الساعة السادسة . لم تجرؤ على قول شيء ، وشعرت برعشة خفيفة ، وطرفت بجفونها ، ورفعت اصبعها المريض حتى فمها ، ثم قذفته عن قرب بقبلة مقتضبة ، كما لو ان القطار سيذهب بها إلى الابد ، وهربت .

واستعاد المراجع العبارة المقطوعة :

(١) *purpura quâ utuntur* تساوي *purpurarum usus*

وكان جاك يبتسم كأنه شعر بالفرق . وكان يفكر بان ليزبيت سوف تعود اليه حالاً ، وكان يتخيل في ظلام الرواق وجهها تحت النقاب المرفوع ، وتلك القبلة التي كأنها انتزعت من شفتيها لأجله ، باصبعها الملفوف بالقماش .

وقال الاستاذ :

ــ استمر .

١٩٢١

١ ـ العبارة اللاتينية مبنية على الجناس اللفظي وتفقد قيمتها في الترجمة .

الفصل الجميل

١

كان الأخوان يسيران على محازاة حاجز لوكسمبورغ ، وقد دقت الساعة الخامسة والنصف في ساعة مجلس الشيوخ . وقال انطوان الذي اتعبته منذ لحظة خطوات جاك المسرعة :

– أأنت مهتاج الاعصاب ؟ يا له من حر ! ان هذا سينتهي بعاصفة .

وخفف جاك سيره ورفع قبعته التي كانت تشد على صدغيه .

– مهتاج ؟ كلا . ابداً ، بالعكس . ألا تصدقني ؟ حتى انني مندهش من هدوئي . فقد مضت ليلتان نمت فيهما نوماً عميقاً إلى درجة انني كنت في الصباح عاجزاً عن المشي . اني هادىء جداً ، وأؤكد لك . بامكانك ان توفر عليك هذا الركض : فلديك أعمال كثيرة أخرى . يضاف الى ذلك ان دانيال سيكون هناك . نعم ، اتظن ؟ لقد عاد من كابور عمداً هذا الصباح . وقد تلفن اليوم ليعرف ساعة اعلان النتيجة . آه ! انه لطيف جداً في هذه الأمور ... وباتنكور ايضاً يجب ان يأتي. وها انت ترى انني لن أكون وحدي .ـ وسحب ساعته ـ اخيراً ، في مدى نصف ساعة .

وكان انطوان يفكر : « ذلك لأنه متوتر الاعصاب . وانا ايضاً قليلاً ، ومع ذلك ما دام فافري يؤكد انه على اللائحة ..» وابعد كل افتراض للاخفاق

كما كان يفعل مع نفسه دائماً . وألقى على اخيه الصغير نظرة ابوية ، واخذ يترنم مطبق الفم : « في قلبي .. في قلبي ... آه ! لا استطيع التخلص من هذه النغمة التي كانت تغنيها أولغا الصغيرة هذا الصباح . انها من دوبارك كما اعتقد . بشرط ألا تنسى ان تذكـّر بيلان بعملية البزل . في قلبي نا ــ نا ــ نا » .

وكان جاك يتساءل : « وإذا قبلت ، فهل سأكون حقيقة سعيداً هناك ؟» ثم قال مفكراً بأنطوان وبوالده : « ليس أكثر منهما » .

وقال مدفوعاً بذكرى :

ــ أنت تعلم ، في المرة الأخيرة التي تناولت فيها عشائي في ميزون ــ لافيت كنت قد أنهيت الامتحانات الشفهية . وكانت اعصابي متوترة . وعندئذ قذفني أبي ، على المائدة ، وبهيئته التي نعرفها بهذه العبارة : « وماذا سنفعل بك اذا لم تُقبل ؟ » .

وقاطع نفسه ، فقد اعترضه تذكار آخر . وفكر : « كم أنا متوتر الاعصاب هذا المساء ! » وابتسم ، وامسك بذراع أخيه :

ــ كلا يا انطوان. ليس هذا هو الخارق للعادة. انه الغد. غد ذلك المساء .. يجب ان اروي لك مهما كلف الامر .. كان ابي قد كلفني ، منذ اصبحت حراً ، ان اذهب بالنيابة عنه إلى دفن السيد كريسبان . اتذكر ؟ وهناك حدث أمر كان غير مفهوم. وجدت نفسي في المقدمة، وكانت تمطر، فدخلت إلى الكنيسة ويجب القول انني كنت منزعجاً جداً لإضاعة صباحيتي، ولكن مهما كان الامر، فسترى ان هذا لا يوضح .. اذن ، دخلت ، وجلست في صف فارغ . وجاء كاهن وجلس بجانبي . لاحظ ان عدداً كبيراً من المقاعد ظل فارغاً ، ومع ذلك فقد جاء هذا الكاهن والتصق بجانبي تماماً . انه شاب ، تلميذ مدرسة اكليركية بالتأكيد . حالق جيداً ، يُشعِر بالنظافة وبماء منظف الاسنان، ولكن بقفازين أسودين يثيران السخط ، وعلى الخصوص مظلة ، مظلة كبيرة ذات قبضة سوداء تفوح منها رائحة كلب مبلل . لا تضحك يا انطوان ، وسترى . لم استطع ان أفكر بسوى هذا الكاهن . كان يتابع القداس محركاً شفتيه، وانفه في كتابه.

حسناً ، حسناً . ولكن عند رفع القربان بعد الكلام الجوهري ، وبدلاً من ان يستعمل مسند الركوع الذي كان أمامه ـ سوف أفهم هذا فيما بعد . ـ كلا ، ها هو يركع على الارض ، ويسجد على البلاط . أما انا فبالعكس ، لقد ظللت واقفاً . وعندئذٍ شاهدني حين نهض ، والتقى نظره بنظري ، وربما وجد شيئاً اعتدائياً في موقفي . وفاجأت على وجهه عتاباً لاذعاً مع انزلاق الحدقتين تحت الجفون ـ شيئاً من الجدارة الزائفة ، شيئاً يثير السخط ! بحيث انني .. مـــاذا اصابني ؟ لم افهم من ذلك شيئاً . وسحبت من جيبي بطاقة زيارة وكتبت عليها بالعرض ، ومددت البطاقة اليه . (ليس هذا صحيحاً ؛ لقد تخيل جاك فقط في هذه اللحظة ان باستطاعته القيام بهذه الحركة . لماذا كان يكذب ؟) فرفع انفه ، وتردد ؛ فاضطررت .. نعم .. اضطررت ان اضع له البطاقة في يده ! فالقى عليها نظرة ، وتطلع إلي بذهول ، ثم وضع قبعته تحت ابطه ، وامسك رداءه الصوفي بهدوء ورحل .. نعم .. كما لو ان بجاره مساً من الشيطان .. وانا ايضاً لم استطع البقاء هناك . وكدت اختنق من الغضب . فذهبت دون ان انتظر انصراف الناس .

ـ ولكن ما الذي كتبته على البطاقة ؟

ـ آه ! نعم ، البطاقة ؛ انها بلاهة . اكاد لا أجرؤ على قوله . لقد كتبت : « انا لا أؤمن ! » نقطة تعجب وتحتها خط ! على بطاقة زيارة .. فهل هـــذه بلاهة ؟ « لا أؤمن » ! ـ واستدارت عيناه واستقرتا ـ أولاً هل بالامكان تأكيد ذلك ؟

وصمت لحظة يتبع بعينيه شاباً بثياب الحداد وزيٍ لا عيب فيه ، كان يجتاز مفترق مديسيس . وتابع ، مضطرب الصوت كأنه يرغم نفسه على إقرار مؤلم ؟

ـ هذه حماقة . اتدري بماذا فكرت طوال دقيقة ؟ كنت أقول لنفسي انك إذا مت ، انت يا انطوان ، فاني أريد ان أرتدي بزة كاملة سوداء معتنى بها كبزة ذلك الشاب الذي يسير هناك . حتى اني تمنيت موتك طوال لحظة ، بفارغ صبر .. ألا تعتقد انني سأنتهي في سجن مظلم ؟

فهز انطوان كتفيه ، وتابع جاك :

ــ ربما كان هذا مؤسفاً . سوف أحاول تحليل نفسي حتى الدرجة الأخيرة من الجنون . اسمع . كنت افكر بكتابة تاريخ رجل ذكي جداً اصبح مجنوناً . وتصبح جميع أعماله مغايرة للصواب . ومع ذلك فهو لا يتحرك إلا بعد تفكير دقيق ، وسوف يتصرف حسب رأيه ، بمنطق صعب . اتفهم ؟ وسوف اضع نفسي في مركز ذكائه و ..

وكان انطوان صامتاً . انه موقف آخر اختاره وأصبح مألوفاً لديه . ولكن سكوته كان كثير الانتباه بحيث ان تفكير الغير لا يصاب بالشلل عنده بل يجد ما يثيره . وقال جاك متأوهاً :

ــ آه ! لو كان لدي فقط الوقت الكافي لأشتغل ، ولأجرّب اشياء . دائماً هذه الامتحانات . وها قد مضت عشرون سنة . هذا مخيف !

وفكر وهو يرفع يده إلى نقرته ، حيث كان احتكاك الطوق يهيج رأس الدمل : « وهذا المسمار الجديد الذي ينبت رغم صبغة اليود » . ثم تابع :

ــ قل يا انطوان . في سن العشرين لم تكن ولداً ، انت . اني اذكر جيداً . ولكن انا لم اتغير . واشعر في أعماقي انني اليوم كما كنت منذ عشر سنوات . ألا ترى ذلك ؟

ــ كلا .

وكان انطوان يفكر :

ــ ان ما قاله صحيح . هذا الشعور بالاستمرار ، أو بالاحرى هذا الاستمرار بالشعور .. السيد الهرم الذي قال : « انا ، أحب ان العب بوثبة الخروف .. » نفس الاقدام ، نفس الايدي ، نفس الرجل . وهكذا انا ، في ليلة خوفي في كوتيريه ، ذلك المغص ؛ ولم اجرؤ على الخروج من غرفتي . لقد كان هو ، هو بالضبط . الدكتور تيبو .. رئيس مركز عيادتنا .. رجل ذو قيمة ..

اضاف ذلك برضا كما لو انه كان يسمع أحد تلامذة الطب عنده يتحدث عنه .

وسأل جاك : أأزعجتك ؟

وخلع قبعته ومسح جبهته :

– لماذا ؟

– أرى ذلك جيداً . فأنت لا تكاد تجيبني ، وتصغي إلي كمريض مصاب بالحمّى .

– ابداً .

وفكر انطوان متخيلاً الوجه المتألم لطفل جيء به إليه هـذا الصباح إلى المستشفى :« إذا لم يكفِ غسل الاذن لإسقاط الحرارة...في قلبي نا–نا–نا–نا ».

وتابع جاك :

– لقد وضعت في رأسك اني متوتر الأعصاب . واكرر انك مخطىء . أريد ان اعترف لك بشيء يا انطوان : هناك لحظات حيث .. نعم ، حيث اتمنى فيها ألا أقبَل .

– لماذا هذا ؟

– للتخلص .

– التخلص ؟ من ماذا ؟

– من كل شيء ، من التشابك ! منك ، منهم ، منكم كلكم .

وبدلاً من ان يقول انطوان ! « انت تهذي » – وهو ما كان يفكر به – التفت إلى أخيه وتأمله بعين فاحصة . وتابع جاك :

– قطع الجسور والذهاب ! أوه ! نعم . الذهاب وحدي ، ولا يهم إلى أين ! وهناك سوف أكون مرتاح البال ، سوف اشتغل .

كان يعلم انه لن يذهب : لقد كان مستسلماً لحلمه بكثير من الحمية . وصمت . ولكنه تابع على الأثر ، بابتسامة مؤلمة :

– ومن هناك ، نعم ، ربما ، ولكن من هناك فقط سوف استطيع الصفح عنهم . »

فتوقف انطوان :

– ألا تزال تفكر بهم ؟

ـ بمن ؟

ـ تقول : الصفح عنهم . عن من ؟ تصفح عن ماذا ؟ الاصلاحية ؟

فنظر إليه جاك نظرة رديئة ، وهز كتفيه وعاد إلى سيره . كان الأمر يتعلق باقامته في كروي ! ولكن ما فائدة الايضاح ؟ فانطوان لا يستطيع ان يفهم .

ومع ذلك ، فماذا يقابل فكرة الصفح هذه ؟ لم يكن جاك نفسه يعرف بالضبط ، مع انه اصطدم دون انقطاع بهذا التناوب : الصفح ، أو بالعكس ، إهاجة الحقد ؛ القبول ، الانضمام، ان يكون بجموعة دواليب بين بجموعة دواليب أخرى؛أو ايضاً، بالعكس، إثارة قوى التخريب التي تتحرك فيه والهجوم بكل حقده ضد. . ـ لم يكن يعرف ان يقول ضد ماذا ـ ضد الحياة الجاهزة، والاخلاق، والعائلة ، والمجتمع ! حقد قديم يعود تاريخه إلى طفولته ؛ عاطفة مبهمة لأنه كان كائناً مجهولاً ، توجه إليه بعض العنايات ، وفاته الجنس البشري كله . نعم ، بالتأكيد ، لو استطاع الهرب لوجد اخيراً ذلك التوازن الداخلي الذي كان يتهم الآخرين انهم جعلوه مستحيلاً عليه . وردد :

ـ وهناك سوف اشتغل .

ـ هناك ، أين ؟

ـ آه ! أنت ترى ، أنت ، تسألني أين ! لا تستطيع أن تفهم يا انطوان ! انت ، كنت تشعر دائماً انك على وفاق مع الباقين . وكنت دائماً تحب الطريق الذي اتبعته .

وفكر فجأة بأخيه البكر كأن من النادر أن يُسمح له بذلك. فألفاه راضياً ومجتهداً . طاقة ، ليكن ، ولكن ذكاء ؟ ذكاء عالم بالحيوانات ! هذا الذكاء اختباري بحيث كان يجد في الدراسة العلمية تمدده الكامل ! ذكاء كان قد بنى فلسفة على المعرفة الوحيدة للفعالية واكتفى بها ! والأمر الذي كان اكثر خطورة، ذكاء كان يعري الأشياء دائماً من قيمتها الخفية، من كل ما كان ، من ناحية إجمالية هو المعنى الحقيقي ، وجمال الكون !

وأكد بحدة : انا لست مثلك.

وابتعد قليلاً عن أخيه ليمشي وحده صامتاً ، على حافـــة الرصيف ، وقال لنفسه :

– إني اختنق هنا . كل ما فعلوه لي مكروه ومميت ! اساتذتي ! رفاقي ! غرامياتهم ! كتبهم المفضلة ! الكتاب المعاصرون ! آه ! لو أن احـــداً في العالم يستطيع الشك بماهيتي . وما أريد أن افعل ! كلا ، ما من أحـد لديه فكرة حتى ولا دانيال .

وخفت حدته . ولم يسمع بماذا أجابه انطوان . وكان يفكر : « نسيان كل ما كتب قبلاً . الخروج عن الخطوط ! التطلع في النفس وقول كل شيء ! لم يجرؤ احد بعد على قول كل شيء . أحد ما ، اخيراً : انا » .

وكانت الحرارة قـــد جعلت صعود شارع سوفلو متعباً . فخففا سيرهما . واستمر انطوان في الكلام وجاك في السكوت . وكان هذا يلاحظه ويبتسم داخلياً : « في دخيلة نفسي لا أستطيع ابداً مناقشة انطوان . أو انني سأجابه وأغضب ؛ او أظل هادئاً امام الحجج التي يصفها بترتيب ، وأسكت . كما في هذه اللحظة . بشيء من المداهنة . لأنني اعلم جيداً ان انطوان يحسب هـــذا السكوت رضا . وليس هذا صحيحاً . أبعد من ذلك ! اني اتشبث بأفكاري . ولا يهمني إذا كانت مشوشة بنظر الآخرين . اني واثق من قيمتها . ولن يتعلق الأمر بسوى معرفة إثبات هذه القيمة . اليوم الذي اريد فيه الاهتمام بذلك ! حجج ، يوجد منها دائماً . وانطوان نفسه ، يسير ، ويسير . ولا يتساءل ابداً إذا كان هناك شيء آخر صوابي في ما افكر فيه . ومهما كان الأمر ، ذلك الذي اشعر به وحدي . – ومرة أخرى تأججت الرغبة بالرحيل . – ترك كل شيء دفعة واحدة : سيكون رائعاً . « غرف متروكة ! روائع الرحيل ! » . – وابتسم من جديد ولفته نحو انطوان نظراً ماكراً وتلا : – « ايتها العائلات ، اني اكرهك ! بيوت مقفلة ، ابواب مغلقة » .

– ممن هذا ؟

فقال جاك منقطعاً عن الابتسام ، وقد زاد فجأة من سرعة خطاه

ـ آه ! انه من كتاب هو سبب كل شيء ! كتاب وجد فيه دانيال جميع الأعذار .. وأسوأ من ذلك : تمجيد لـ ... لجميع وقاحاته ! كتاب يعرفه غيباً الآن . وأنا ، فقد . ـ الا انه اضاف بصوت مرتجف : ـ كلا ، كلا ، لا استطيع ان اقول اني اكرهه ؛ ولكن ، كما ترى يا انطوان ، فهو كتاب يحرق الايــدي اثناء قراءته . ولم أشأ ابداً ان أكون وحدي معـــه لانني اعتقد انه رهيب .

ـ وتابع بمجاملة لاإرادية : ـ « غرف متروكة ، روائع الرحيل » .

ثم صمت ، وغيّر النبرة فجأة ، وأضاف بصوت ابح ، سريـع :

ـ اقول هذا: الرحيل! ولكن فات الوقت. اني بالحقيقة لا استطيـع الرحيل.

فأجاب انطوان :

ـ تقول دائماً « الرحيل » كما يقال « الاغتراب » والواضح ان هــــذا معقد قليلاً . ولكن السياحة ، لماذا لا ؟ لو قبلتَ فسيجد ابي من الطبيعي ان تذهب للقيام بسياحة أثناء الصيف .

فهز جاك رأسه قائلاً : فات الوقت .

ماذا كان يقصد بذلك ؟

ـ ومع هذا الن تذهب لتمضية شهري العطلة في ميزون ـ لافيت بــــين ابي والمدموازيل ؟

ـ بلى .

واتى بحركة مراوغة ، ولما كانا قد اجتازا ساحة البانتيون ودخلا في شارع أولم، فأنه دل باصبعه على ارهاط من الناس كانوا يقفون امام مدرسة دار المعلمين. وأظلم وجهه. وقال انطوان لنفسه : « يالها من طبيعة غريبة ! » . وهي ملاحظة كان غالباً ما يبديها ، بتسامح ، وبفخر لاواعٍ . ومع انه كان يرتعب مما هــو غير متوقع ، وان جاك يحيره دون انقطاع ، فانه كان يبــذل الجهد دائماً ليفهم اخاه . وعقل انطوان العامل كان ينصرف إلى رياضـــة عقلية لا تنتهي حول احاديث غير متلاحمة كان هذا يفلتها، وكانت تسليه، وتتيح له التعمق في طباع

اخيه الصغير . وفي الواقع ، فإن انطوان ما يكاد يعتقد انه توصل إلى ذروة تحقيق نفساني حتى يأتي تصريح جديد ، لجاك ليقلب بوجه عام صقالة افكاره : كان يلزم السير من جديد ، ونحو نهايات متعاكسة في أغلب الاحيان . مع ان كل محادثة لانطوان مع اخيه كانت تتألف من ارتجال احكام متتابعة ومتناقضة يبدو له آخرها دائماً نهائياً .

ووصلا الى امام واجهة المدرسة الخشنة . والتفت انطوان نحو جاك وشمله بنظرة نافذة وقال لنفسه : « حين نسبر اغوار الاشياء نرى ان لهذا الصغير ميلاً لحياة العائلة اكثر مما يتصور هو نفسه » .

وكان الباب مفتوحاً والباحة ملأى بالناس .

وعلى مدخل الرواق كان دانيال دي فونتانان يتحدث مع شاب اشقر . وكان جاك يفكر : « لو شاهدنا دانيال اولاً ، فاني اكون مقبولاً » . ولكن فونتانان وباتنكور التفتا معاً لدى نداء انطوان .

وسأل دانيال : ألست متوتر الأعصاب أكثر من اللازم .

— لست متوتر الاعصاب ابداً .

وقال جاك لنفسه : « اذا لفظ اسم جني اكون مقبولاً » .

وصرح انطوان :

— لا شيء اسوأ من ذلك الربع ساعة قبل تعليق النتيجة .

فاعترض دانيال باسماً :

— اتعتقد ذلك ؟ هناك دائماً شيء من اللذة في الانتظار .

وبدافع الشيطنة كان يسعى في اغلب الاحيان لمعاكسة انطوان ويدعوه « دكتور » ، وكان الكبير الرصين يفكّهه .

وهز انطوان كتفيه ، وسأل أخاه :

— أتسمعه ؟ فيما يتعلق بي فاني قاسيت أربعة عشر أو خمسة عشر انتظاراً من هذا النوع ؛ ولم استطع الاعتياد على ذلك أبداً . الا اني كنت الاحظ ان اولئك الذين يبدون في هذه اللحظات ثابتي الجنان يكونون دائماً من المتوسطين

الضعفاء .

– لا يعرف جميع الناس ان يتذوقوا فراغ الصبر .

قال دانيال ذلك ، وقد اصبحت عينه المنكدة حين ينظر إلى الدكتور مداعبة حين يلتفت إلى جاك .

وكان انطوان يتابع فكرته . وقال :

– اني اكلمك جدّياً. ان الاقوياء يختنقون في الارتياب . والشجاعة الحقيقية ليست في انتظار الحادث بهدوء ، بل في الركض إلى أمامه للتعرف عليه اكثر ما يمكن ولقبوله . اليس كذلك يا جاك ؟

فأجاب جاك الذي لم يسمع شيئاً :

– كلا ، انا من رأي دانيال .

وبما ان دانيال قد استمر في التحدث إلى انطوان ، فانه تدخل ، شاعراً انه كان يغش :

– ألا تزال امك واختك في ميزون ـ لافيت ؟

فلم يسمع دانيال ؛ وأصر جاك على التفكير : « أنا مرفوض في الامتحان ». واكتشف كم ان ثقته بنجاحه لا تتزعزع . « سيكون أبي مسروراً » . وكان يبتسم مقدماً ؛ وقدم ابتسامته الى باتنكور :

– اشكرك لمجيئك يا سيمون .

كان الآخر يتأمله بظرافة ، غير قادر على اخفاء ذلك الاعجاب الحار الذي وقفه على صديق دانيال ، ذلك الاعجاب الذي لم يكن جاك يقبله دون ملل لأنه كان يستحيل عليه ان يجيبه بصداقة من نفس العنوان .

في تلك اللحظة انقطعت الجلبة في الباحة . وظهر مستطيل من الورق الابيض وراء زجّاج نافذة في الطابق الارضي . وشعر جاك بشكل غامض ان امواجاً متلاطمة انتزعته من الارض وحملته نحو الورقة التي تعلن مشيئة القدر .

وكانت اذناه تطنّان . وقال انطوان :

ـ مقبول ، الثالث .

ورن الصوت لحظة في اذنه . كان صوتاً حاراً ، حياً ؛ ولكنه لم يـدرك معنى الكلمات الا حين لفت رأسه بخجل وشاهد وجه أخيه المتهلل . عندئذ نقل قبعته بيد رخوة ؛ وسال العرق على جبهته . وكان دانيال وباتنكور قـد عادا إليه بعد ان دارا حول الجمهور . وكان دانيال ينظر إليه. وجاك ،جاحظ العين ، يرى مجيء دانيال ، حيث الشفة العليا المرفوعة كانت تكشف الاسنان دون ان يكون في قسماته أقل نية في الابتسام .

وارتفعت تمتمة فملأت الباحة . وعادت الحياة سيرتها الاولى . وتنفس جاك تنفساً عميقاً . ودار الدم من جديد في أعضائه . وفجأة ، تخيل فخاً ، شركاً، وفكر : « لقد قبض علي » . وسالت أفكار اخرى . وعاد ليعيش بضع ثوان في امتحانه الشفهي باليونانية . في اللحظة التي ارتكب فيه غلطته تماماً. وتراءى له اخضرار الطنفسة ، واصبع الاستاذ ، مسحوقة على الشويفور [1] ، مع ظفرها الساقط كنحاتة الظلف .

ـ من هو الاول ؟

ولم يسمع الاسم الذي لفظه باتنكور . « لو انني فهمت كلمات : ملجـأ ، خورس .. حراس الخورس المنزلي .. لكنت الاول » . وبعد ذلك انهمك عدة مرات في تجديد إنشاء سلسلة الافكار التي قادته إلى هذه المناقضة التي لا تغتفر للمعنى الحقيقي.

وقال دانيال وهو يربت على كتف انطوان الذي ابتسم اخيراً :

ـ هيه يا دكتور ، ارنا هيئة راضية .

كان السرور عند انطوان يرافقه دائماً ضبط النفس لأن رصانة موقفه ترفض كل منفذ لاظهار السرور . أما دانيال فبالعكس ، فهو يـترك المجرى حراً

---

١ ـ شويفور *Les choéphores* : اسم كان الاغريق القدماء يطلقونه على حملة القرابين او الكفارات المخصصة للموتى .

لسروره . وبسرور شبه شهواني كان يتفحص اصدقاءه وجيرانه ، وخصوصاً النساء الآتيات إلى هناك ، من امهات واخوات ، حيث كانت رقة قلبه تبدو في تلك اللحظة دون خجل في أقل نبرة ، في أقل حركة .

واستشار انطوان ساعته والتفت نحو جاك :

— وبعد ، هل لديك شيء آخر تعمله هنا ؟

فارتجف جاك ، وقال مغتماً : انا ؟ كلا .

لقد انتبه إلى انه ساعة اعلان النتائج دون شك ، ودون ان يفكر بذلك ، فقأ من جديد بثراً في شفته كان يشوهه منذ ثمانية أيام . وقال انطوان :

— إذن لنذهب . لدي زيارة أقوم بها قبل موعد الطعام .

وحين خرجوا من الباحة رأوا فافري الذي كان يسرع لاستقاء الاخبار ، وقد قال منتصراً :

— اترون ؟ لقد قيل ان مسابقة اللغة الفرنسة كانت ممتازة .

لقد خرج من دار المعلمين منذ سنة . وحصل على نيابة احتياطية في سان لويس ليتجنب الريف ؛ وكان يعطي دروساً خصوصية في ساعات حريته ، في النهار ، بطريقة تجعله قادراً على ان يعيش حياة باريس ليلاً . وكان يكره حياة الأستذة ، ويحلم بالصحافة ويميل سراً إلى السياسة .

وتذكر جاك ان فافري يعرف جيداً فاحص اللغة اليونانية ؛ ومرة أخرى تخيل الطنفسة الخضراء والاصبع . وشعر انه احمرّ خجلاً . لم يكن قد فكر بعد انه مقبول ؛ ولم يشعر بأي احساس بالخلاص بل شعور بالتعب فقط، تقطعه غضبات فجائية منذ ان يتذكر اجوبته المناقضة للصواب وتؤلوله .

وامسك دانيال وباتنكور من ذراعه بمرح وسارا بــه بخطوة راقصة نحو البانتيون . وتبعهم انطوان مع فافري .

وقال فافريْ موضحاً ، متكلماً بصوت مرتفع ، وضاحكاً بلطف :

— ان منبّهي يدق في الساعة السادسة والنصف ، في طاسة تقف متوازنة على قدح . فأتذمر ، وافتح عيناً ، وأشعل النور ؛ ثم اضع الابرة على الساعة

السابعة واعود إلى النوم ، ضاماً القنبلة إلى صدري. وبعد ذلك تهز البيت والحي هزة أرضية . واغضب ولكني لا أطيع . وأجيز لنفسي البقاء خمس ، ثم حتى عشر ، ثم حتى خمس عشرة ؛ وبما ان ربع الساعة قد مضى عليه دقيقتان ، فاني أجيز لنفسي حتى العشرين لأن من اللازم انتظار رقم بلا كسور . واخيراً اسحب نفسي من السرير . كل شيء جاهز على ثلاثة مقاعد ، كجهاز رجال الاطفاء . وفي الساعة السابعة والدقيقة الثامنة والعشرين أكون في الشارع . لا يبقى لدي وقت ابداً لتناول فطوري ولا لأغسل وجهي . لدي أربع دقائق لبلوغ المترو. وفي الساعة الثامنة اعتلي المنبر ويبدأ تلقيم المعلومات . وها انت ترى أي ساعة ينتهي . ويجب ان أذهب لأستحم ، وارتدي ملابسي ، واتناول طعامي ، وارى الاصدقاء . فمتى تريد ان اشتغل ؟

كان انطوان يستمع ذاهلاً . وكان يبحث بعينيه عن عربة . وقال :

— اتتناول عشاءك معي يا جاك ؟

فأجاب دانيال بسرعة :

— جاك يتناول عشاءه معنا .

فصاح جاك :

— كلا ، كلا ، هذا المساء سأتناول عشائي مع انطوان — وفكر ساخطاً — هل يريدون ان يتركوني براحة بال في النهاية ؟ أولاً يجب ان اضع اليود على ثؤلولي .

واقترح فافري : لنتعش معاً .

— اين ؟

— لا يهم . عند باكميل *Packmell* .

فاعترض جاك :

— كلا ، ليسَ هذا المساء . انا تعب .

فتمتم دانيال مدخلاً ذراعه تحت ذراع جاك :

— انت تزعجنا . تعال يا دكتور لتجدنا عند باكميل .

وكان انطوان قد أوقف سيارة اجرة . والتفت ، فرأوه يتردد لحظة :

– ما هو با كميل هذا ؟

فأكد فافري حينما اتفق ؟

– لا شيء مما تفترض .

وسأل انطوان دانيال بعينيه . فقال هذا :

– با كميل ؟ صعب التعريف اليس كذلك يا صغيري بات ؟ ليس فيه شيء من العلب الليلية التقليدية . بنسيون عائلات تقريباً . بار ، نعم ، إذا شئت من الخامسة إلى الثامنة . ولكن في الساعة الثامنة يذهب السابحون ولا يبقى سوى أبناء البلد . فتقرّب الطاولات بعضها من بعض ، ويجري تناول العشاء على سماط كبير قنوع ، حول الأم با كميل . اوركسترا جيدة . فتيات جميلات . مـاذا يلزمك اكثر من ذلك ؟ إذن ، هل هذا مناسب ؟ اتذهب إلى عند با كميل ؟

كان انطوان قليلاً ما يخرج في المساء . وكانت نهاراته قاسية وهو بحاجة إلى امسياته ليُعدّ مسابقته عن المستشفيات ، ولكنه في هذا النهار كان يشعر برغبة قليلة لدراسة الدم : وغداً الاحـد ، ونهار الاثنين شغل . وكان يمنح نفسه بين وقت وآخر إجازة ليلة السبت لسد جوعه . وكان با كميل يغريه . فتيات جميلات . .

وقال بلهجة زاهدة قدر المستطاع ؟

ـ إذا حرصتم على ذلك . ولكن اين يقع ؟

ـ شارع مونسيني . سننتظرك حتى الساعة الثامنة والنصف .

فصاح انطوان وقد أطبق باب السيارة :

ـ سأكون هناك قبل ذلك .

ولم يقاوم جاك ، فأن قبول أخيه غيّر عزمه ، ثم انه كان يشعر دائماً بلذة خفية في خضوعه لنزوات دانيال .

وسأل باتنكور : انتزل سيراً على الأقدام ؟

فقال فافري وهو يلامس ذقنه :

ـ أنا سأثب إلى المترو . الوقت اللازم لتغيير ملابسي وألحق بكم

كان بخار زوبعة يثقل على باريس في أواخر تموز،حيث يصبح الهواء في المساء كثيفاً ورمادياً دون ان يستطاع التفريق إذا كان هذا ضباباً أو بخاراً .

وكان أمامهم نصف ساعة من السير قبل الوصول إلى عند باكميل . واقترب باتنكور من جاك ، وقال دون سخرية :

ـ ها انت ذاهب إلى المجد .

واتى جاك بحركة ملل ، وابتسم دانيال . ومع ان باتنكور يكبره بخمس سنوات فان دانيال يعتبره ولداً ، وكان يحتمله تماماً بسبب ذاك الذي يثير جاك : سذاجته التي لا ينضب معينها. وتذكر الوقت الذي كانوا يتسلون فيه بالتوسل إلى باتنكور ليتلو عليهم شيئاً ، وكان هذا يتقدم إلى أمام الموقد ويبدأ :

« أوه يا كورسيكا ! أوه أيها الشعر السبط ! كم كانت فرنسا جميلة تحت سماء مسّيدور ! » .

وذلك دون ان يرتاب بالقهقهة التي تنطلق من عقالها منذ الكلمة الثالثة .

في ذلك الوقت كان سيمون دي باتنكور ، قد جاء حديثاً من مدينة في الشمال حيث كان والده كولونيل ، يرتدي سترة سوداء مزررة كان قد صنعها ليتابع دروس اللاهوت في باريس بلباقه . إذن فقسّ المستقبل كان غالباً ما يأتي إلى بيت مدام دي فونتانان التي جعلت من واجبها ان تجتذبه إلى بيتها لأن الكولونيلة دي باتنكور كانت إحدى صديقات طفولتها .

ـ اني اشعر حقيقة برعب من حيكم اللاتيني .

قال في تلك اللحظة لاهوتي المستقبل الذي يعيش الآن في حي النجمة ، ويرتدي بزة فاتحة . وقد اختلف مع أهله بسبب زواج غير مصيب كان يستعد لإتمامه ، ويقضي نهاراته في تصنيف صور مختومة حديثة جداً في مكتبة لود فيكسون باجرة اربعماية فرنك بالشهر ، حيث وجد له دانيال عملاً .

ورفع جاك رأسه وأجال عينيه فيما حوله، وسقط نظره على بائعة ورد هرمة

مقعية وراء سلتها ؛ وكان قد شاهدها قبلاً وهو يمر مع انطوان ؛ ولكن بعين مهمومة لم تكن تستسلم آنذاك لأي توسل . وبتذكره تلك الصعـــدة في شارع سوفلو شعر فجأة بان شيئاً ينقصه ، كما يحدث حين يفقد المرء شيئاً مألوفاً ، الخاتم الذي يحمله دائماً في اصبعه . والقلق النفسي الذي كان يسكنه منذ أسابيع ، والذي كان منذ ساعة يضيق عليه لدى كل خطوة ، قد اختفى تاركاً فراغاً شبه مؤلم . وللمرة الاولى منذ اعـلان النتيجة ، احتك بنجاحه ، ولكن ليشعر انه طائش ومحطـّم كما يكون بعد سقطة .

وسأل باتنكور دانيال :

— هل أخذت حمامات بحر ؟

فالتفت جاك ، وقد رقـّت نظرته ، وقال :

- هذا صحيح . تقول انك عدت بسببي ! هل لهوت هناك ؟

فأجاب دانيال : أكثر مما كنت اتوقع .

فابتسم جاك بمرارة وقال : ككل مرة .

وتبادلا نظرة امتدت فيها مناقشات حامية .

كان جاك قد وقف على دانيال مودة صارمة تختلف جداً عن صداقة المجاملة التي يظهرها دانيال له . وكان هذا يقول له بعض الاحيان : « انت اكثر تطلباً لي منك لنفسك . وأنت لم تأخذ ابداً قسطك من الحياة التي أحياها » . فأجاب جاك : « كلا ، اني ارضى بحياتك ؛ اما ما لا استطيع قبوله فهو الموقف الذي اتخذته حيال الحياة » .

موضوع مخاصمات يعود تاريخه إلى بعيد .

ودانيال ، ما إن نال البكالوريا ، حتى رفض اتباع أي طـــريق مرسوم . وأبوه الغائب لم يكن يهتم به أبداً . وامه كانت تتركه حراً في اختيار طريقه ؛ كانت تحترم كلّ إرادة قوية ، تساندها ثقة غامضة عندما يتعلق الامر بأولادهـا وبالمستقبل بوجه عام ، وكانت ترغب قبل كل شيء أن يكون ولدها حراً وليس واجباً عليه أن يربح بعض المال لتحسين وضعية ذويه . إلا ان دانيال كانيفكر

في ذلك . لقد ظل سنتين متتاليتين يتألم سراً لعدم قدرته على مساعدة امــه ، وكان يتحين الفرصة التي تتيح له التوفيق بين نظام التزاماتـه وبين ضرورات اخرى لا تقاوم كانت تسيطر عليه . وساوس لم يستطع جاك نفسه النفاذ إلى مركباتها. – ذلك اننا إذا نظرنا إلى الطريقة المتكاسلة التي يشتغل دانيال بموجبها في الرسم ، وحده دون أي دليل سوى غريزته ، وسوى نزوته كما يبـدو ، لا يصور إلا بالجهد ، ويرسم أكثر نوعاً ، مختلياً نهاراً بكامله أحياناً مع نماذج ليغطي نصف دفتر من الرسوم بالخطوط ، ثم يبقى عدة أسابيع دون أن يلمس قلمـاً رصاصياً – فلا يحدث أي شك في الفكرة الرائعة التي يكونها عن نفسه وعـن مستقبله . كبرياء صامتة ، نقية من كل صلف : كان ينتظر اليوم الذي يجد فيه كل ما في نفسه من سمـو طريقته في التعبير ، بواسطة تسلسل القوانين الحتمية ؛ وكان متأكداً ان مصيره هو مصير فنان ذي عظمة اولى . متى ، وبأي طـرق سوف يبلغ هذه القمم ؟ لم يكن يعرف شيئاً من ذلك ، ويتصرف كأنـه لا يهتم بها ، ويصرح بضرورة الاستسلام للحياة . وقد استسلم لها . وليس بدون توبيخ ضمير ، ولكن هذه العودات القلقة نحو اخلاق امه لم يكن لها سوى وقت ، ولم تكن لتوقفه أبداً بحزم على منحدره . وكان قد كتب قبلاً إلى جاك ، وكان عمره آنذاك ثماني عشرة سنة : « في أسوأ أزمات الوساوس التي عكـرت صفو هاتين السنتين الاخيرتين ، أقسم لك انني لم أتوصل أبـداً إلى أن اخجل حقيقةً من نفسي . وأفضل من ذلك : في ساعـات الشك تلك حيث كنت ألوم نفسي على سلوكي ، كنت أشعر في الواقع بالاشمئزاز من نفسي أقل مما كنت أشعر بـه بعد ذلك وأنا أتذكر ذلك الرفض الصبياني وذلك الاجبار ، منـذ ان كانت الحياة تذهب بهذا الاشمئزاز من جديد » .

وبعد ان كتب هذه الرسالة بقليل سافر بقطار الضاحية مــع ذلك الذي اطلقوا عليه فيما بعد اسم « رجل العربة » ، والذي ما شك أبـداً بالدوي الذي أحدثه هذا اللقاء القصير على فتوة الشابين .

وكان دانيال قد عاد من فرساي حيث قضى فترة ما بعد الظهر من أحد أيام

تشرين الاول تحت ظلال الحديقة . وقد وثب إلى القطار في الدقيقة الاخيرة . وشاءت الصدف أن يكون الرجل المسن الذي جلس قبالته غير مجهول منه تماماً: فقد التقى به أثناء النهار في غابات تريانون الكبرى ؛ ونظر إليه ، ولاحظه ؛ وكان مسروراً لاستطاعته أن يتفحصه على مهل . وكان السائح يبدو عن قرب أكثر شباباً : ومع ان شعره أبيض ، فهو لا يكاد يبلغ الخمسين ؛ لحية كثيرة البياض وقصيرة ترسم خطاً تحت وجه بيضوي يعبر ترتيبه بشدة عن حلاوته . والصبغة ، والمشية ، واليدان ، والتفصيل والقماش الفاتح للملابس ، ورباط العنق النادر ، وخصوصاً تلك النظرة الزرقاء ، المحتدمة الحية التي تطوف على جميع الاشياء ، كانت كلها لفتى يافع . وتجليد الكتاب الذي كان يتصفحه باصبع معتاد كان لدناً كتجليد دليل ولا يحمل أي عنوان . وقد نهض بين سوريسن وسان كلود ، وبلغ الرواق وانحنى ليتأمل منظر باريس حيث كان المغيب يتأجج ذهباً. ثم جاء يستند إلى الزجاج الذي كان دانيال يجلس قبالته ؛ ورأى الشاب اليدين اللتين تحملان الكتاب السري على ارتفاع وجهه ، تفصلها سماكة الزجاج فقط : يدان طليقتان ، متراخيتان وعصبيتان معاً يوقظان فكرة عن الروحانية . وبحركة قاما بها ، فتح الكتاب واستطاع دانيال ان يقرأ على الصفحة التي التصقت بالزجاج بعض الكلمات :

« ناتا نائيل ، سأعلمك الحمية ..

حياة واجفة مشوشة ..

وجود مؤثر ، يا ناتا نائيل ، خير من الطمأنينة .. »

وتزحزح الكتاب . وكان لدى دانيال من الوقت أيضاً ما يحل به رموز العنوان الذي كان يركض في أعلى الصفحة : « قوت الارض [1] » .

ودخل قلقاً في نفس النهار إلى عند عدة بائعي كتب . كان الكتاب مجهولاً لديهم . فهل سيحتفظ رجل العربة بسره ؟ « وجود مؤثر يا ناتا نائيل خير من

---

١ ـ كتاب معروف لأندريه جيد صدر عن منشورات عويدات .

الطمأنينة .. » وفي صباح الغد أسرع يتفحص لوائح الكتب تحت أروقة الأوديون وبعد بضع ساعات أغلق الباب على نفسه والكتاب في جيبه .

لقد قرأه دفعة واحدة . وقضى فترة ما بعد الظهر هناك وخرج في المساء . لم يكن قد عرف حتى كهذه بعد وحماسة مجيدة مثلها : كان يسير امامه بخطى كبيرة كالفاتح . وجاء الليل . فتبع الأرصفة ، وأصبح بعيداً جـداً عن بيته . فتعشى كعكة وعاد إلى البيت. وكان الكتاب ينتظر على الطاولة ، ودار دانيال حوله دون أن يجرؤ على فتحه ، ونام ، ولكنه لم يجد الغفو . عندئــذ خضع ، والتف بمعطف ، وعاد إلى القراءة ببطء منذ البدء . كان يشعر جيداً ان الساعة احتفالية ، وان شغلاً ، إنباتاً غامضاً يجري اعداده في لباب ضميره . وعندما انهى الصفحة الأخيرة للمرة الثانية عند الفجر ، واحس انه اصبح يلقي على الحياة نظرة جديدة .

« وضعت يدي بجرأة على كل شيء واعتقدت ان لي حقوقاً على كل موضوع من مواضيع رغباتي .

هناك مكسب في الرغبات ، ومكسب في اشباع الرغبات ـ لانها بذلك تزيد » .

تلك العادة الغريبة في التقييم الاخلاقي التي اعتادها بواسطة التربية ، ادرك انه تخلص منها دفعة واحدة . وكلمة « خطأ » غيّرت معناها .

« يجب ان نعمل دون ان نحكم على العمل اذا كان صالحاً أو رديئاً . ونحب دون ان نهتم اذا كان هذا خيراً أو شراً » .

ان العواطف التي لم يكن حتى الآن يستسلم اليها إلا ضد إرادته قد انعتقت فجأة واحتلت المركز الأول بسرور ؛ وفي تلك الليــلة ، وفي بضع ساعات ، انقلب سلّم القيم الذي كان يعتقد منذ طفولته انه غير قابل للتقلب . وكان اليوم التالي كغد المهادة . وبقدر ما كان يتنازل عن كل ما يتمسك به كأكيد لا ريب فيه ، فان سكينة رائعة ولدت بين القوى التي كانت تجزئه حتى الآن .

ولم يتحدث دانيال لأحد عن هذا الاكتشاف ، إلا لجاك ، وبعد وقت طويل

من حدوثه . وكان هذا أحد أسرار صداقتهما . وكانا يفكران به كأنه سر ديني تقريباً ولا يشيران اليه إلا بكلمات مغطاة . ومــع ذلك ، ورغم جهود دانيال ، فان جاك تخلص بعناد من عدوى هذه الحمية : فرفضه ان يروي عطشه من هذا الينبوع المسكر بدا له انه يقاوم نفسه ، وانه ظل اكثر قوة ، واحتفظ بنفسه سالماً ؛ ولكنه كان يشعر جيداً ان دانيال وجد هناك نظامه ، « غذاءه » : وكانت الغيرة واليأس موجودين في مقاومة جاك .

وقال باتنكور :

ـ أتعدُّ لودفيكسون بين عجائب الطبيعة ؟

فقال دانيال موضحاً :

ـ ان لودفيكسون يا عزيزي بات ..

إلا ان جاك هز كتفيه وترك اصدقاءه يتقدمونه قليلاً .

ان لودفيكسون هذا الذي استُقبل دانيال عنده عدة أيام ، والذي كان يعد في العواصم التي أسس فيها فروعه واحداً من اكبر وقحي تجــار الفن في أوروبا ، كان منذ وقت طويل موضوع خلاف بين الشابين . فجــاك لم يكن يستصوب ابداً ان يساهم دانيال ، من قريب أو بعيد ، ولو لأجل العيش ، في المشاريع التي يقوم بها هذا التاجر . ولكن لا جاك ولا أحد يستطيع التبجح بأنه حوّل دانيال عن مغامرة أغرته حقيقةً . والحال ان ذكاء لودفيكسون ، تلك الفعالية التي لا ترتاح والتي دفعها إلى درجة انه جعل من الأرق عادة، وذلك الاحتقار للفخفخة ، وإلى حدٍ ما ذلك الاحتقار للمال عند نابابٍ منتشٍ فقط بالخطر والنجاح ، وقدرة صانع الأعمال هذا الذي ايقظ وجوده فكرة مشعال ملتهب ، تهزه الرياح ، داخن ولكنه مبهر ، كل هذا كان يغري دانيال كثيراً ، وإذا كان قد رضي ان يعمل لأجل هذا اللص فذلك بدافع الفضول أكثر منــه بدافع الحاجة .

وكان جاك يتذكر اليوم الذي تقابل فيه دانيال ولودفيكسون لأول مرة : عرفان ، مجتمعان يتواجهان . في ذلك الصباح كان موجوداً في المرسم الذي كان

دانيال يتقاسمه آنذاك مع عدة رفاق من ذوي الدخل القليل مثله . وقد دخل لودفيكسون دون ان يطرق الباب ، واجاب بابتسامة على غضب دانيال ، ثم بدون مقدمات ، وبدون ان يقدم نفسه أو يجلس ، سحب من جيبه محفظة بسلوك عامل محفوظات يلقي حافظة نقوده إلى أحد الخدم . وقدم « لمن يدعى فونتانان بين هؤلاء السادة » راتباً شهرياً قدره ستماية فرنك ، ابتداءً من ذلك النهار ولثلاث سنوات متتالية بشرط ان تكون الرسوم الدراسية التي يرسمها دانيال اثناء هذه المدة ملكاً خالصاً له ، أي للودفيكسون صاحب رواق لودفيكسون ومدير مؤسسات لودفيكسون وشركاه الفنية . رسوم دراسية يتعهد دانيال بتأريخها وتوقيعها باسمه . ودانيال الذي كان يشتغل قليلاً ، والذي لم يكن قد عرض أو باع أقل رسم تخطيطي ، لم يستطع ان يوضح كيف استطاع لودفيكسون ان يكوّن عن موهبته رأياً حسناً ليعلل عرضاً كهذا . ومع ذلك فقد رضي بصيانة استقلال انتاجه ؛ وكان يعلم جيداً انه إذا رضي بمواقيت هذه الصفقة فانه لا يقبل بنقود لودفيكسون إلا بأن يعطيه كل شهر عدداً من الرسوم تعادل على الأقل المبلغ المتفق عليه : لقد كوّن لنفسه عقيدة بان يشتغل دون مضايقة ، وفي الفرح . وبمداهنة باردة ، فطلب إذن من لودفيكسون انيذهب ، أمام رفاقه المنذهلين ، ودون ان يفسح للزائر مجالاً للتعرف عليهم ، فجعله يتراجع ، وبكثير من السرعة ، نحو سطح الدرج .

ولم تقف الامور عند هذا الحد . فقد عاد لودفيكسون ، وبدا أكثر تحفظاً ، وبعد بضعة أشهر انعقدت علاقات أعمال حقيقية بين التاجر ودانيال اللاهي . وكان لودفيكسون قد أصدر مجلة فاخرة بثلاث لغات تعالج الفنون التشكيلية ؛ ورجا دانيال ان يشرف على اختيار المواد الفرنسية . (لقد أعجبه طبع الشاب منذ اليوم الاول ولم تخف عليه سلامة ذوقه) . ولم يكن العمل مضجراً ؛ وكان دانيال يستعمل فيه أوقات فراغه ، ثم تولى فعلاً إدارة القسم الفرنسي في المجلة .

ولودفيكسون الذي كان ينفق على نفسه بلا حساب ، كان من مبدئه ان يعيّن القليل من المساعدين ، ولكنه يختارهم بعناية ويترك لهم اكبر قدر ممكن

من الابتكار ويكافىء جهدهم بسخاء : ودانيال ، دون ان يطلب منه ، كان يتناول نفس الراتب الذي يتناوله المديران الآخران ، الانكليزي والالماني . كان يجب ان يعيش ودانيال كان يفضل عملاً غريباً تماماً عن حياته كفنان . وبعد ، فان بعضاً من رسومه التي نظم لها لودفيكسون معرضاً خاصاً ، كان يطلبها جامعو اللوحات . وهذه الفوائد التي استخرجها من علاقاته مع تاجر اللوحات اتاحت له ، ليس فقط المساهمة في راحة والدته واخته ، بل ان يعيش العيشة السهلة التي كان يحبها دون ان يلزم نفسه بأية مهمة موجبة ودون ان يتخلى عن اوقات الفراغ الضرورية لعمله الحقيقي .

لحق جاك برفاقه عند اجتياز بولفار سان جرمان . وكان دانيال يقول :

— ... المفاجأة الفائقة الوصف هي التقديم هناك لمدام لودفيكسون الارملة!

فقال جاك ليتدخل في الحديث :

— لم تكن الفكرة تساورني أن يكون لصاحبك لودفيكسون ام .

فقال دانيال :

— ولا أنا . وأي أم ! تصور .. كان يلزم عمل رسم تخطيطي . وقد صنعت عدة رسوم ولكن ليس على الطبيعة : وفي ذلك لن يعزيني شيء . تصور مومياء أعيد نفخها ثانية بواسطة مهرجين للقيام بنمرة سيرك ! يهودية مصرية هرمة ، مئوية على الأقل ، مشوهة بالشحم وداء المفاصل ، يشتم منها رائحة البصل المقلي، تضع في يديها قفازين لا أصابع لها ، تخاطب الخدم بصيغة المفرد ، وتدعوولدها « بامبينو » وتعيش بفتات الخبز المغمس بالنبيذ الأحمر وتقدم التبغ لكل آت ..

وسأل باتنكور : للتدخين ؟

— كلا ، للسعوط . انه يعطر مسحوقاً أسود على حلية من الألماس جعلها لودفيكسون على المدخل ولا أدري لماذا .. — وتردد لاهياً بالفكرة التي خطرت له ، وأضاف : — كما يشعل قنديل التدمير !

وابتسم جاك فقد كان ذا تسامح لا ينفذ أمام جيشان ذهن دانيال .

– ماذا كان يريد الحصول عليه منك بكشفه لك هذا السر العائلي الكريه ؟
– انت لا تؤمن بكلامه : أن لديه مشاريع جديدة . فهو الأول من نوعه .
– انه الأول من نوعه لأنه كثير الغنى . ولو كان فقيراً لما كان سوى ..
فقاطعه دانيال :
– دعه إذا أردت . اني أحبه . ومشروعه ليس بالأحمق : مجموعة من المقالات في موضوع واحد : « الملعون بالصورة » . ويصير قوياً بنشره مجموعات ملأى بصور مقلدة طبق الأصل ، باثمان خارقة للعادة ..
وكف جاك عن الاصغاء ؛ وشعر أنه متألم ، حزين ، لماذا ؟ هل هو التعب واضطراب النهار ؟ هل هو الضجر لأنه اقتيد هـذا المساء بينما كان يرغب أن يكون وحده ؟ هل هو احتكاك الطوق بالعنق ؟
ودخل باتنكور بين الصديقين .
كان يبحث عن فرصة ليطلب إليهما فيها أن يكونا شاهدي زواجه . ومنذ أشهر لم يكن يفكر نهاراً وليلاً إلا بهذا الحادث ، بحمى من الرغبة أتلفت مزاجه اللمفاوي . وأخيراً بلغ هدفه . فالمهلة الشرعية المتوقعة لاعتراض أهله قد انتهت ، وحدد تاريخ الزواج في هذا الصباح : في ظرف اسبوعين ..
وصعد الدم إلى وجهه لهذه الفكرة ، وأدار رأسه ليخفي احمراره ، ونزع قبعته وجفف جبهته .
وصاح دانيال :
– لا تتحرك . هذا لا يصدق . انك بوجهك الجانبي تشبه الجدي !
وبالفعل ، فإن باتنكور كان ذا أنف طويـل متصل بالشفة ، ومنخرين معقوفين ، وعين مستديرة ، وفي ذلك المساء ، فان خصلة شعر بلون خيوط القنب جعلها العرق تنعقف على الصدغ بشكل قرن صغير مروس .
وأعاد باتنكور قبعته بحزن وترك نظره يشرد إلى ما وراء ساحة كاروزيل نحو حديقة التويلري حيث كان الغبار يبدو محمراً .
وفكر دانيال :

– يا للجدي الثاغي المسكين ! من كان يظن انه أهل لهـذا الحب الكبير ؟ ها هو يتنكر لكل مبادئه ويختلف مع أهله لأجل تلك المرأة .. أرملة ، تكبره بأربع عشرة سنة .. أرملة خالعة العذار .. شهية ولكنها خالعة العذار .

وابتسم ابتسامة خفيفة . وتذكر فترة ما بعد الظهر في أول خريف ألحّ فيه سيمون كثيراً ليقدمه إلى الارملة الحسناء وما نتج عن ذلك في الاسبوع التالي. لقد أبرأ ذمته على الأقل بأن فعل كل شيء لتحويل باتنكور عن ارتكاب هـذا الجنون ولكنه اصطدم بشهية عمياء ؛ ربما انه كان يحترم الحب أين التقاه ، فقـد اكتفى بتجنب السيدة ومتابعة حوادث هذه المغامرة الزواجية من بعيد .

وقال باتنكور في هذه اللحظة ، وقد خاب أمله من سخرية دانيال فحاول التعويض بالقرب من جاك :

– انك تبدو رابحاً مستاءً .

فقال دانيال ملحاً :

– ألا تفهم إذن أنه كان يأمل أن ُيرفض ؟

ودهش من النظرة المفكرة التي قذفه جاك بها ! واقترب من صديقه ووضع يده على كتفه وتمتم مبتسماً : « .. لأن قيمة كل شيء تختلف » .

وكان ذلك كافياً ليتذكر جاك المقطع بكامله الذي كان دانيال ُيسَرُّ بترديده في اغلب الأحيان :

« الويل لك إذ تقول ان سعادتك ميتة لأنك لم تكن تحلم بأن تكون سعادتك شبيهة بذلك .. ان حلم الغد هو سرور – ولكن سرور الغد شيء آخر. – ومن حسن الحظ ان لا شيء يشبه الحلم الذي حـدث لأن قيمة كل شيء تختلف » .

فابتسم جاك وقال : اعطني سيكارة .

ولكي يسر دانيال فإنه كان يحاول ان يهز خموده. « حلم الغد هو سرور ..» وبالفعل ، فقد ظن انه شعر بسرور لا يدرك يحوم حوله .. غـداً ؟ يستيقظ ، يشاهد من النافذة المفتوحة الشمس على رؤوس الأشجار ! غداً ، ميزون لافيت وطراوة حديقته الوارفة الظلال .

٢

في ذلك الشارع الميت من حي الاوبرا ، كانت بعض العربات تقف بمحاذاة الرصيف ، وتلفت وحدها الأنظار إلى واجهة حانة بدون آرمة ، ذات ستائر مسدلة . ودفع احد الخدم الباب الدائر امامهم . وتنحّى دانيال ، كأنه في بيته ليفسح مجال المرور لجاك وباتنكور .

ولدى ظهور دانيال حيته بعض النداءات الرصينة . كانوا يدعونه « النبي » وقليل من رواد المكان يعرفونه باسمه الحقيقي . ومع ذلك فقد كان هناك قليل من الناس . ووراء البار ، التجويف الذي يقوم فيه ، بشكل لولبي ، الدرج الصغير الابيض ذو الشبكات الذهبية ، الشبيه بخشبيات الجدران ، والذي يفضي إلى (أنترسول [١]) مدام باكميل؛ كان هناك بيانو ، وكمان ، وفيولونسيل تعزف فالس الفصل . وقد ُقدمت المناضد إلى أمام المقاعد ذات العوارض الخشبية الشهباء ، وبعض الازواج يرقصون رقصة البوستون على الطنفسة الارجوانية وعلى نور نهار منتهٍ لا تزال تلطفه الستائر المؤلفة من الإبريم . وفي السقف كانت المراوح تدوي دون تمهل ، مؤرجحةً البلور المتدلي من الثريات وسعوف النباتات الخضراء ، رافعة حول ازواج الراقصين ذيول شالات الموسلين .

وجاك الذي ينتشي دائماً بجو مكان جديد لأول وهلة ترك دانيال يسير به نحو منضدة يمكن منها رؤية القاعتين المتجاورتين . وكان باتنكور يرقص ، وقد استأثرت به جماعة من النساء الشابات الجالسات في الغرفة الداخلية . وقال دانيال :

— يجب دائماً ان ُتسحَب من اذنك . اما الآن وقد أصبحت هنا فانا واثق انك ستلهو . إعترف بان هذا البار هو ألوف وولد طيب .

وقال جاك فجأة :

---

١ ـ انترسول *entresol* : طبقة صغيرة بين الطبقة السفلى والطبقة الاولى في بناية .

— اطلب لي كوكتيل . وانت تعلم : ذاك الذي فيه حليب وكشمش وقشر ليمون .

وكانت تقوم على الخدمة فتيات بملابس بيضاء كانوا يسمونهن « ممرضات » .

وقال دانيال الذي بدل مكانه وجاء يجلس الى جانب جاك :

— اتريد ان اقدم لك بعض الرواد من بعيـــد ؟ أولاً تلك ، ذات الملابس الزرقاء : إنها صاحبة المكان . يقال « الأم باكميل » مع انها لا تزال شقراء مرغوبة كما ترى . ولكن نعم ! تظل طوال السهرة تروح وتجيء بتلك الابتسامة بين زبائنها من الشابات : هيئتها تشبه خيّاطة ذات شهرة توالي إظهار عارضات ازيائها . — وأشار إلى رجل اسمر القى عليه تحية الصباح ، ويتحدث الآن مع تلك الضخمة الشديدة الشحوب ، تلك التي كانت ترقص مع باتنكور منذ لحظة — كلا ، اكثر قرباً منا ، بولا ، تلك الشقراء الصغيرة التي تشبه ملاكاً ، ملاك فاسد الاخلاق قليلاً . ولكن قليلاً جداً .. انظر انها الآن تشرب السم المدهش بافراط : يجب ان يكون من شراب الكيراساو الاخضر .. إذن ذلك الشخص الذي يحدثها واقفاً ، انه الرسام نيفولسكي ، ثمرة لذيذة ، كاذب غشاش ، ومع هـــذا فهو فروسي كفارس من حاشية الملك . في كل مرة يتأخر عن موعد يقول انه كان في مبارزة ، وبعد ذلك يقنع نفسه بهذا الامر . وهو يستدين من جميع الناس وليس معه اي فلس ، ولكن بما ان الموهبة لا تنقصه ، فانه يدفع حسابه لوحات ؛ وللتبسيط ، اتعرف ما هي فكرته ؟ يذهب في الصيف إلى الحقول ويرسم طريقاً على عصابة من القماش بطول خمسين متراً ؛ طريق حقيقية ، مع أشجار وعربات وراكبي دراجات ، ومغيب الشمس ؛ وفي الشتاء يبيع طريقه قطعاً ، وفقاً لرأس الدائن والمبلغ المدين به . ويزعم انه روسي ، وانه يملك ما لا ادري من الوف «النفوس» . وعندئذ وبحكم الطبيعة ، اثناء الحرب الروسية اليابانية ، فان جميع الناس كانوا يسخرون منه لبقائه في مونمارتر بمارس وطنية المقاهي . اتدري ماذا فعل ؟ لقد ذهب . واختفى طوال سنة . ولم يرجع الا بعد الاستيلاء على بورت ارثر . وحمل معه كدسة من الصور عن الحرب ؛ وكان دائماً يملأ جيوبه منها ، ويقول :

«اترى يا عزيزي هذه المدفعية القوية؟ وفي الوراء، اترى تلك الصخرة الكبيرة ؟ وخلف الصخرة، اترى انبوب البندقية الذي لا يكاد يتجاوزها؟ حسناً يا عزيزي، هذا أنا » . الا انه كان يحمل ايضاً عدة صناديق أبحاث : وطوال السنتين اللتين تلتا دفع جميع ديونه مناظر من صقلية ... وقد اشتمّ اني كنت اتحدث عنه ، فسر ، ونفش ريشه .

وجاك المستند الى مرفقه لم يجب بشيء ، وكان له في لحظات كهذه وجه بليد : الشفاه مفتوحة قليلاً ، والعين قاتمة ، ونظرة حيوان نائم متذمر . وكان وهو يصغي إلى صديقه يتفحص الثنائي المؤلف من نيفولسكي وبولا الصبية . كانت تمسك بيدها احمر الشفاه ، وتدوّر فمها ، وتضع عليه القلم الأحمر ، وتجعله يدور بحركة صغيرة كأنها تثقب ثقباً ؛ وحين رآها الرسام جعل محفظة المرأة تدور حول أصبعه . ولم يكن بينهما سوى رفقة بار ـ وهذا أكيد ـ ومع ذلك فكانت تلمس يديه وركبته وتصلح ربطة عنقه ؛ وأحياناً ينحني نحوها ليقص عليها شيئاً ، فتدفعه بمرح واضعةً على وجهه يدها الصغيرة الشاحبة مسطحة .. وكان جاك مضطرباً .

وغير بعيد عنها ، امرأة سمراء، وحيدة ، متكومة في آخر المقعد . وكانت تلتف بمعطفها من الساتان الاسود ، متأثرة بالبرد ، وتلتهم بولا بعينيها دون ان تفطن هذه لها .

وكان جاك يجيل نظره الثقيل في كل هؤلاء الناس . هل كان يلاحظ أم يكتشف؟ فأولئك الذين كان ينظر اليهم بعض الوقت عزا إليهم عواطف معقدة . إلا انه لم يكن يحاول تحليل ما اعتقد انه رآه ؛ ولم يكن قادراً على التعبير عن حدسه بكلمات ؛ وكان المشهد قد أثار اهتمامه كثيراً فلا يستطيع ان يجزىء نفسه ويسجل أي شيء كان . ولكن الاتصال هكذا ـ وهمياً ام حقيقياً ـ بكائنات أخرى ، جعله يشعر بلذة لا مثيل لها . وسأل :

ـ وتلك الكبيرة التي تتحدث إلى صاحب البار ؟

– تلك التي ترتدي الازرق كالطاووس مع عقد ذي أهـداب تتدلى حتى الركبتين ؟

– نعم . كم تبدو شرسة .

– انها ماري جوزف. وهي جميلة، باسم امبراطورة . وحكاية لآلئها مسلية .

واستمر دانيال مبتسماً :

– اتسمعني ؟ كانت عشيقة ريفيل ، ابن العطار . ولريفيل هـــذا زوجة شرعية كانت تخونه مع جوس صاحب المصرف . اتسمعني ؟

– ولكن نعم . أسمعك جيداً .

– ذلك لانك تبدو نائماً . وذات يوم فان جوس الذي كان كثير الغنى اراد ان يقدم لآلىء لمدام ريفيل ، عشيقته . كيف يجب ان يعمل لـــكي لا يرتاب ريفيل ؟ ان جوس ليس غبياً : فقد ابتكر حكاية حفلة لمصلحة البنات التائبات، وحمل إلى ريفيل،الزوج، عشر بطاقات بعشرين فلساً وجعله يربح العقد المخصص لزوجته . وهنا تعقد كل شيء : كتب ريفيـل إلى جوس يشكره ، ولكن في « ملاحظة » رجاه ألا يفوه بكلمة عن اليانصيب أمام مدام ريفيل ، لأنه أرسل اللآلىء إلى ماري جوزف ، عشيقته.. انتظر إذن : أن اجمل شيء هو النهاية .. غضب جوس الذي لم يبق في رأسه سوى فكرة واحدة : استرجاع عقده ، أو على الأقل الحصول على المرأة التي تحمله . وبعد ثلاثة أشهر ، ترك مدام ريفيل ليسرق ماري جوزف من الصديق ريفيل ، مبادلاً هكذا المرأة التي لا لآلىء لها بالعشيقة ذات العقد . وريفيل الشجاع الذي نسي تماماً ان العقد لم يكلفه سوى عشر قطع بعشرين فلساً كان يطعن أمام كل من يريد الاستماع ، بفظاظة البغايا اللواتي لا يسبر غورهن .. صباح الخير ياويرف *Werff* .

قال ذلك وهو يشد على يد غلام جميل دخل حديثاً وكانوا يهتفون لهمن طرف القاعة الآخر صارخين « المشمشة » . وسأل جاك الذي مد يــــده إلى ويرف بدون لطف :

– انت تعرفه ، أليس كذلك ؟

وقال دانيال منحنياً ليقبل يد بولا صديقة الرسام الروسي المصابة بفقر الدم ، اثناء مرورها :

– صباح الخير يا اجمل الجميلات . اسمحي لي ان أقدم لك صديقي تيبو .

وكان جاك قد نهض . وأجالت المرأة الشابة فيه نظراً مريضاً واوقفته طويلاً على دانيال ؛ وبدت مترددة في قول شيء ، ومضت . وقال جاك : اتأتي غالباً إلى هنا ؟

– كلا ، اخيراً ، نعم ، عدة مرات بالاسبوع . عادة . ثم اني بشكل عام اتعب بسرعة من المكان ، ومن نفس الناس ؛ احب ان أشعر ان الحياة تجري..

وفكر جاك فجأة : « لقد قُبلت » . وانتفخ صدره . وهنـــاك فكرة اجتازت دماغه .

– اتعرف أي ساعة يقفل تلغراف ميزون – لافيت ؟

– انه مقفل . ولكن لو أرسلت برقية هذا المساء فسيتلقاها والدك غداً ، في الساعة الاولى .

فأشار جاك إلى الخادم :

– هات ما اكتب به .

واخذ يكتب البرقية بيد محمومة . وهذا الملل المتأخر في اعلان نجاحه كان منه ، بحيث ان دانيال ابتسم وانحنى على كتفه ؛ ولكنه نهض بسرعة ، مندهشاً وقلقاً على الخصوص بسبب عدم رصانته الاضطراري : فبدلاً من عنوان السيد تيبو قرأ : مدام دي فونتانان . طريق الغاب . ميزون – لافيت .

وحدثت حركة فضول حول زبونة هرمة دخلت مصحوبة بفتاة جميلة سمراء كانت هيئتها المنتبهة ، مع انها تخلو من الخجل ، تبعث على الافتراض انها جاءت إلى هنا للمرة الأولى .

وقال دانيال بصوت منخفض :

– إليك ما هو جديد .

وابتسم «ويرف» الذي كان ماراً وقال :

ـ ألم تكن تعلم ؟ الام جوجو تقذف واحدة جديدة .
فقال دانيال ، مقرراً بعد وقفة :
ـ الصغيرة حسنة جداً .

والتفت جاك . كانت فاتنة فعلاً : عينان صافيتان ، وخدان خاليان من المساحيق ، بهيئة تدل على انها ليست من البيت . وكانت ترتدي ثوباً مقصباً زاهراً قليلاً ، دون زينة ، دون حلية . وزال رونق اللواتي هن أصغر منها بقربها .

وكان دانيال قد عاد إلى مكانه بالقرب من جاك وقال :

ـ يجب ان ترى الام جوجو عن قرب . اني اعرفها جيداً ؛ فهي نموذج خاص ، وتتمتع الآن بنوع من المركز الاجتماعي : تسكن شقة جميلة ؛ ولها يومها ؛ وتقيم سهرات ؛ وتحمي المبتدئات . أما ما عندها من خاص فهي لم تشأ ابداً ان تكون امرأة تعيش على حساب رجل : فقد كانت بغياً صغيرة شجاعة. ولم تحاول ابداً ان ترفع رتبتها . وعاشت ثلاثين سنة تحمل بطاقة ، وتتسكع على الرصيف بين المادلين وشارع درووو *Drouot* . ولكنها كانت تقسم حياتها إلى قسمين : من التاسعة صباحاً حتى الخامسة مساء كانت تدعى مدام باربان ، وتعيش عيشة بورجوازية صغيرة في (انترسول) في شارع ريشيه ، متوقفة عن العمل ، مع خادمة ، نفس هموم البورجوازيين الصغار : دفتر نفقات ، وبيان بأسعار البورصة لتراقب استثمار أموالها ، وهموم بيتية ، وعلاقات عائلية ، وابناء أخ باربان ، وابناء أخت باربان ، واعياد ميلاد ، ومرة بالسنة عصرونية أولاد حول شجرة الميلاد . اني لا ابتكر شيئاً . وفي الساعة الخامسة ، في جميع الامسيات ، وفي جميع الاوقات ، تترك صدرتها القطنية لترتدي ثوباً انيقاً وتذهب دون ادنى اشمئزاز لتقوم بعملها ، انها ليست مدام باربان ، بل الصبية جوجو ، دائماً مرّحة ، صاحبة ضمير ، لا تتعب ابداً ، معروفة ومقدّرة في جميع فنادق الشوارع المفروشة .

لم يرفع جاك عينيه عن الام جوجو . كان لها وجه شجاع لخوري في الريف،

ذات حيوية ضاحكة ، ذكية ايضاً ، وتحمل قبعة صياد بالصنارة على شعر قصير ابيض .

وردد مفكراً :

ـ دون أي تقزز ...

فأجاب دانيال : ولكن طبعاً .

والقى على جاك نظرة ماكرة ، اعتدائية قليلاً وتمتم بيتين من الشعر لويتمان :

« انتم ، حيث البغاء بديع على الارصفة ، أو مخالف للحشمة في غرفكم .

« من انا لأقول لنفسي انني أقل فحشاً منكم ؟» .

كان دانيال يعرف جيداً انه يصطدم بحياء جاك . وكان يفعل ذلك عمداً ، وانزعج لرؤية جاك مكتفياً بحياة طاهرة طوال أشهر كاملة ، وبكثير من السهولة ـ ربما كرد فعل ضد خلاعة صديقه ـ وكان لدى دانيال من السذاجة ما جعله يخشى ذلك ، وكان يعلم ان جاك أحياناً يهتم قليلاً بالخمود الخامل لمزاج كان يبدو في الماضي كثير التطلب . وقد بحثت هذه القضية الدقيقة مرة واحدة بينهما بشكل سطحي ، في ذلك الشتاء ، وفي مساء عادا فيه من المسرح وتبعا معاً الجمع الغفير العاشق في الشوارع الكبرى . ودهش دانيال من لامبالاة رفيقه . وقد أجاب جاك : « ومع ذلك فأنا متين . وفي مجلس القرعة العسكرية تأكدت انني كنت بين الأكثر قوة » . وتذكر دانيال الاضطراب الخفيف الذي هز صوته .

وتحول عن هذه الذكرى بواسطة فافري الذي شاهده من بعيد ملتفتاً نحوهم؛ وبمشية طليقة مدروسة أعاد القبعة والعصا والقفازين إلى العاملة المختصة بغرفة الملابس . وتوجه بالكلام إلى جاك ضاحكاً :

ــ الم يصلْ اخوك ؟

كان فافري يلبس في المساء طوقاً يزرر على القميص، مرتفعاً قليلاً ، وملابس جديدة يبدو انه استعارها . وكان يدفع الى الامام ذقنه المحلوقة حديثاً ، بهيئة

جوع شديد تجعله يقول لويرف : « ان دار المعلمين تذهب لافتتاح بابل » .
وفكر جاك : « لقد قبلت » . وشعر برغبة في الذهاب على الطريقة الانكليزية - بدون وداع - ليأخذ القطار منذ هذا المساء الى ميزون . وقد شله التفكير بانطوان الذي وعد باللحاق به ، والذي سيصل بين دقيقة واخرى . وقال لنفسه : « كلا ولكن غداً ، في ساعة مبكرة ». وشعر انه سابح في جو فاتر : الشمس الصباحية تجتذب ندى الشوارع ... وتلاشى باكميل .
وايقظه من خموله الضوء الباهر المنبعث من جميع الثريات معاً. وفكر ايضاً: « لقد قبلت » كأنه يريد ان يشير الى احتكاكه بالواقع . وبحث بعينيه عن صديقه وشاهده في احدى الزوايا يتحدث بصوت منخفض مع الام جوجو . وكان دانيال جالساً بانحراف على كرسي ، وحيوية كلامه تفيد حركة رأسه اللطيفة ، وذكاء وجهه ، ونظرته ، وابتسامته ، واناقة يديه اللتين ابقاهما مرتفعتين قليلاً ؛ يدان ، وابتسامة ، ونظرة كانت تتكلم اكثر من شفتيه . ولم يكن جاك يتعب من تأمله . وكان يفكر بدون ان يوضح تفكيره : « ما اجمل ان يستطيع كائن فتي وحي ان يتمتع كلياً بالدقيقة الحاضرة ! وان يكون طبيعياً جداً في لعبه ! ولا يعرف اني انظر اليه ؛ ولا يفكر بذلك ؛ ولا يتوقع اية مراقبة . مفاجأة كائن لا يعرف ان هناك من يراه ، كائن في سر طبيعته ! ايوجد حقيقة اناس يستطيعون في مكان عام نسيان كل ما يحيط بهم ؟ انه يتكلم ، وهو منصرف بكليته الى ما يقوله ، لست طبيعياً ابداً . ولن استطيع ابداً الانهماك الى هذه الدرجة - اذا لم يكن ذلك في غرفة مقفلة وبمنجى من جميع الانظار . وايضاً ! » وفكر لحظة : « دانيال ليس مراقباً بشكل خاص . ولهذا لا يشغله المشهد مثلي ؛ يستطيع ان يظل هو نفسه » . وفكر من جديد : « واختتم ناهضا : اما انا « فان العالم الخارجي يلتهمني » .
وكانت الام جوجو تقول في اللحظة نفسها لدانيال الذي كان لنظرته بريق غاضب بحيث اخذت تضحك :
- كلا ايها النبي الجميل ، لا لزوم للالحاح : هذه الطفلة ليست لك . الا ترى

ذلك ! « اجلس ايها الصغير ، نزوة وتمضي » .

(بعض المضجرات امثال : « ولد»ليكن ياتميمتي» او :«هذا لا يهم احداً »، او ايضاً : « كل هذا لا شيء ما دامت الصحة جيدة . » - كانت بعض عباراتها المعتادة الخرقاء التي تتنوع وفقاً للفصول ، والتي كان رواد المكان يرسلونها في كل مناسبة مع ابتسامات اناس مطلعين على الاسرار) .

وقال دانيال بتعبير عنيد :

- كيف عرفتها ؟

- كلا ، ايها الجميل ، اقول انها ليست لك . فهي صبية خارقة للعادة ، فتاة طيبة ، لؤلؤة .

- قولي كيف عرفتها ؟

- اتتركها براحة بال ؟

- ولكن نعم .

- حسناً . حين أصبت بالتهاب الغشاء الجنبي ، أتـذكر ذلك ؟ عرفتُ ، وجاءت دون أن تطلب شيئاً من احد . سجّلْ جيداً انني لم أكـن أعرفها ؛ وكنت ساعدتها مرة أو مرتين ، ولكن بالجهد (حيث يجب ان أقول لك أن هذه الصغيرة كانت ذات هموم كبيرة : حكاية جدية ، رجل اجتماعي كما فهمت ، كانت تحبه ، وطفل - لن يقال شيء عن هذا ، مفهوم ؟ طفل مات على الأثر - بحيث لا يمكن أن نكلمها عــن الطفل دون أن تنخرط بالبكاء) . إذن ، حين أصبت بالتهاب الغشاء الجنبي جاءت تسكن عندي ، كأخت صالحة ، واعتنت بي أكثر مما لو كانت ابنتي ، ليلاً ونهاراً ، لأكثر من ستة أسابيع ؛ كانت تضع لي مئات المحاجم (كاسات هواء) في الأربع والعشرين ساعـة ؛ نعم يا صغيري ؛ لقد أنقذت حياتي ، وهذا بسيط جداً ؛ ولم تكن تنفق شيئاً . لؤلؤة . عندئذ أقسمت أن انقذها . انها صغيرة ولا تعرف شيئاً آخر سوى عشقها الموقت . وأنا بذلت جهدي لأجعلها ترحل ؛ ولكن أنت تعلم ، ما يدعى الرحيل ! (ولأجل ذلك تستطيع مساعدتي ، وسأشرح لك كيف) . وها قد مضت ثلاثـة أشهر

دون أن أتركها . أولاً لقد وجب أن نجد لها اسماً . كانت تـدعى فكتورين ، فكتورين لوغاد . لوغاد بكلمتين ، هذا يلائمها . ولكن فكتورين، فهذا جنون. وقد وجدت لها اسم رينيت . لا بأس به ، ها ؟ وهكذا أعطاها كولان درساً في الإلقاء ؟ وكانت ذات لهجة بريتونية تضحك الجميع ، وبقي لها منها ما يلزم، شيء قليل أجنبي ، مز ، انكليزي – بديع . وفي مدة خمسة عشرة يوماً تعلمت الرقص : فهي خفيفة كالريشة ، وفضلاً عن ذلك ليست حمقاء . تغني جيـداً ، صوت حار ، ليس فيها شيء من الرعاع . اني أعبد هذا . أخيراً ها هي مجهزة ، وسأنزلها إلى الماء هذا المساء وليس المطلوب سوى أن تنفخ الريح في الأشرعة . كلا ، كن رزيناً . انك تماماً بهذا تستطيع مساعدتي . وقد تحدثت عنهـــا إلى لودفيكسون الذي هو كالنار الراقصة منذ أن تركته برتا . ووعدني بالمجيء اليوم لملاقاة الفتاة . قل له فقط انها تعجبك وسيتحمس كثيراً . انت تفهم ان واحداً مثل لودفيكسون هو ما يلزم تماماً لهذه الفتاة . ليس لديها سوى فكرة واحدة، هي أن تجمع مبلغاً صغيراً لتعود إلى بريتانيا . ماذا تريد ؟ هذ هو ذوقهـــا ! والبريتونيات كلهن هكذا . بيت صغير في ساحة البيع بالمزاد ، وقلنسوة بيضاء ومواكب : بريتانية ، ماذا ! انها لا تطلب البيرو ، وتستطيع الوصول إليهـا بسرعة مع النظام والنصائح. وأريد بعد الهدايا ان تضع إلى الشمال عشرين ورقة نقد سوف أوظفها لها ، وأعرف الآن كيف يكون ذلك . هــــل سمعت أنت بمناجم الذهب ؟

وصاحت أصوات صاخبة : إلى المائدة .

وانضم دانيال إلى جاك .

– ألم يصل أخوك ؟ هيا نأخذ أمكنتنا .

كان هناك نوع من التموج حول المائدة الطويلة حيث وضعت لوازم مائـدة لعشرين شخصاً .•وسعى دانيال ليكون جاك إلى شمال رينيت ، ولم تكن الام جوجو تتركها ، وقد دفعتها بقدر الامكان إلى الناحية اليمنى .ولكن في اللحظة التي جلس فيها الجميع في أماكنهم ذهب جاك ليجلس فدفعه دانيال قائلاً :

ـ بادلني .

وبدون أن ينتظر أمسك ذراعه بقسوة ليبعده بحيث شعر جاك بـأصابع دانيال تتشنج على معصمه ، واضطر أن يتمالك لئلا يصرخ . ولكن دانيـال لم يفكر بالاعتذار ، وقال :

ـ أيتها الأم جوجو ، أعتقد أن من اللياقة أن تقدميني إلى جارتي .

ـ آه ! أنت !

تذمرت العجوز التي اكتشفت مناورة دانيال . ثم توجهـــت بالكلام إلى الجالسين حول المائدة :

ـ اقدم اليكم جميعاً الآنسة رينيت ـ وبنبرة مهددة ـ تحت حمايتي

وقالت عدة أصوات :

ـ قدمينا ! قدمينا !

فتأوهت الام جوجو قائلة : ها هي المكائد .

ونهضت مرغمة ، ونزعت قبعتها وألقتها إلى إحدى « المرضات » التي تقوم بالخدمة . وبدأت مشيرة إلى دانيال :

ـ النبي . انسان جميل .

فقالت الصغيرة بلطف : صباح الخير يا سيد .

فأخذ دانيال يدها وقبلها .

ـ استمري .

فتابعت الام جوجو مادةً ذراعها نحو جاك :

ـ صديقه ، ولا أدري كيف .

فقالت رينيت : صباح الخير يا سيد .

ـ وبعد هذا : بولا ، سيلفيا ، مدام دولوريس وولد مجهول : ابن الاعجوبة. ويرف الملقب بالمشمشة . غابي . لاغورد . .

فقاطعها صوت ضاحك :

ـ شكراً . أفضّل اسم آبائي : فافري يا آنسة ، واحد من أكثر المتلهفين

حمية عليك .

وقال صوت هازىء : أيها الولد ، كن تميمتي .

وتابعت الام جوجو دون أن تسمع :

- ليلي وهارمونيكا ، أو اللامنفصلتان . الكولونيل . مود الجميلة . وسيد لا أعرفه مع سيدتين أعرفهما جيداً ولكني نسيت اسميهما . مكان فارغ . ومكان آخر أيضاً . باتنكور الملقب ببات الصغير . ماري جوزف ولآلئها . مدام باكميل . - ثم انحنت باحترام - والام جوجو في النهاية .

وكانت رينيت تردد بنبرة فضية مبتسمة دون اقل انزعاج :

- صباح الخير يا سيد . - صباح الخير يا آنسة . - صباح الخير يا سيد .

- صباح الخير .

ولاحظ فافري :

- يجب ألا تدعى الآنسة رينيت ، بل الآنسة صباح الخير !

فقالت الصغيرة : اريد ذلك .

- تحية للآنسة صباح الخير !

وكانت تضحك وتبدو مفتتنة بالضجة التي أحدثت على شرفها .

واقترحت مدام باكميل : الآن ، الثريدة .

ودفع جاك دانيال بمرفقه وهو يريه الدائرة الحمراء حول معصمه :

- ماذا أصابك ؟

فألقى عليه الآخر نظرة لاهية عارية من كل ندم ، نظرة محتدمة ، وحشية قليلاً ، وقال خافضاً صوته :

- أنا ذلك الذي يرغب العاشق في تعذيبه [1] .

وحنى جاك رأسه ليشاهد رينيت التي كانت تلتفت نحوه ، والتقى بعينيها : كانتا خضراوين ، نافرتين مبللتين كالمحار .

---

١ - بالانكليزية في الأصل.

وتابع دانيال :

ـ هل تنجذب الأرض ؟ أليست كل مادة معذبة بجاذبية كل مادة ؟ هكذا جسدي ، بكل اولئك الذين أعرفهم وألتقي بهم [١] .

وعبس جاك . لم تكن هي الفرصة الاولى التي تتاح له ليحضر واحدة من تلك الانفصالات العاطفية التي تقذف بدانيال نحو لذته دون ان يكون الوقوف في طريقه ممكناً . وفي كل مرة ، كانت صداقة جاك تعود الى الوراء رغماً عنه . هناك أمر مسلٍ يحيد بتفكيره عن الطريق : لقد خطر بباله ان داخل انف دانيال مفروش بوبر كثير السواد يجمل منخريه يشبهان ثقوب قنـــاع ؛ وبحث بعينيه عن يدي النبي ، عن هاتين اليدين الجميلتين الممتدتين اللتين يركض عليهما أيضاً نفس الوبر الأسود . ففكر : « رجل مغطى بالشعر [٢] » . وشعر برغبة كبيرة بالابتسام .

ولكن دانيال انحنى من جديد وقال دون أن يغيــير النبرة ، كأنه ينهي تلاوة ويتمان :

ـ املأ كأس جارتك يا عزيزي . [٣]

وقال واحد من الجهة الاخرى من المائدة لاثغاً :

ـ لائحة الطعام غير مقروءة هذا المساء يا مدام باكميل .

وقال فافري آمراً : سيكون لمدام باكميل صفر مضاعف .

واجابت الشقراء الجميلة بفلسفة :

ـ « كل هذا لا شيء ما دامت الصحة جيدة » .

ووجد جاك نفسه بالقرب من بولا ، الملاك الفـــاسد ، ذي الجسد الكثير الشحوب. ثم كانت هناك فتاة ذات جذع سمين،لم تكن تتكلم وتمسح شفتيها بعد

---

١ ـ بالانكليزية في الأصل .
٢ ـ باللاتينية في الاصل .
٣ ـ بالانكليزية في الاصل .

كل ملعقة . وفي مكان اكثر بعداً ، قبالة جاك تقريباً ، الى جانب تلك المرأة السمراء التي اكلت التجاعيد وجهها ، والتي اطلقت عليها الام جوجو اسم مدام دولوريس ، ولد بين السابعة والثامنة من عمره يرتدي رداء اسود يـــدل على الفقر ، ويتبع بعينيه الصافيتين حركات المدعوين ، وكان وجهه يتألق بوميض ابتسامة .

وسأل جاك جارته : الم يقدموا اليك الثريدة ؟

ـ لا آخذ منها ، شكراً .

وأبقت عينيها منخفضتين ، وحين رفعتهما كان ذلك باتجاه دانيال دائماً . لقد فعلت كل شيء لتجلس بقربه ؛ وفي اللحظة الاخيرة رأته يعطي كرسيه لجاك ؛ وقد اصبحت تحقد على جاك . من اين اتى هذا بوجهه الكتوم ودمّله في نقرته؟ كانت تكره ذوي اللون الأصهب ، وكان لهذا الاسمر مظهر أصهب ، دون ان تحسب انه كان يبدو عديم التهذيب بجبهته المشوشبة والاذنين المنفصلتين وذلك الفك .

ـ ايه ، ماذا تنتظر لتضع المنشفة ؟

قالت مدام دولوريس ذلك بصوت مرتفع وهي تهز الغـلام الصغـــير ليعقد بشكل افضل حول عنقه قطعة القماش المصنوعة بشكل اسطوانة والتي كانت طياتها تغطي نصفه .

وصاح فافري الذي كان يتناقش مع ماري جوزف :

ـ حين تعترف امرأة بعمرها فذلك لأنها ليست كبيرة . واقول لك انها دخلت الى المعهد الموسيقي في حدود السن وذلك منذ خمس واربعين سنة تماماً ، بشهادة ميلاد تخص اختها الصغرى التي تصغرها بسنتين . وهذا يعني اذن ...

فقذفت الام جوجو قولها على جانبي المائدة :

ـ هذا لا يعني احداً !

ولاحظ ويرف الذي استعد في السابق للدخول الى مدرسة السنترال :

ـ ان فافري هو واحد من تلك الارواح الطيبة التي لا تستطيع ابداً ان

تتدخل في حديث دون ان تذكر اولاً ان تسارع الثقالة هو ٩،٨٠م في باريس .

وقد أطلق عليه لقب « المشمشة » بسبب بشرته التي ذهّبتها الرياضة في الهواء الطلق ولوثتها ببقع نخالة (نمش) . ومع ذلك فهو ذكر رائع ، ذو كتفين متموجين ، مع خدين قويين وشفتين منتفختين ؛ وفي المساء ، فان مزاج عضلاته الرائق بسبب تمارين النهار كان يلمع في عينيه الزرقاوين وعلى خديه المصقولين .

وقال أحدهم :

ـ لا يعرف أحد سبب موته .

فأجاب صوت ساخر : وهل تعرف بماذا كان يعيش ؟

وقالت مدام دولوريس للولد :

ـ هيا ، اسرع . انت تعلم انه يوجد هنا حلويات بعد الطعام . ولن تنال منها شيئاً .

فسأل الصغير وهو يدير نحوها نظره المشع : لماذا ؟

ـ لن تنال منها شيئاً إذا أردت أنا ذلك . اطع . واسرع .

وفطنت لانتباه جاك ورشقته بابتسامة مجاملة وقالت :

ـ انه صعب كما ترى . وهو يخاف من كل ما لا يعرفه . الحمام المشوي ، ستُعطى منه ! في أغلب الاحيان يأكل شحم الخنزير بالملفوف أكثر من الحمام ، بالتأكيد ! لقد كان دائماً مدللاً جداً . موضع عناية وحب رقيق كجميع الاولاد الوحيدين . وخصوصاً لأن أمه ظلت مريضة وقتاً طويلاً ! نعم ، نعم ـ قالت ذلك واضعة يدها على الرأس المكور المجزوز الشعر حديثاً ـ ولد مدلل . هذا شنيع جداً . ولكن مع عمته فلن يكون الامر متشابهاً . أيريد السيد أنيحتفظ بقرطيه كفتاة صغيرة ؟ آه ! ولكن هذا قد انتهى ، نزوات ، عيوب ، هيا ، كل ؛ ان السيد ينظر إليك ، اسرع ـ وكانت سعيدة لأن هناك من يصغي إليها. فابتسمت من جديد لجاك وبولا وصرحت بنبرة راضية :ـ انه يتيم صغير . فقَدَ أمه هذا الاسبوع . امرأة كانت متزوجة من أخي. ماتت بداء الصدر فيقريتها، في اللورين . ـ يا للصغير المسكين . لا يزال محظوظاً لأني قبلت ان آخذه على

عاتقي : ليس له أحد في أية جهة ؛ ليس له سواي . ولكن سيكون لدى مصاعب .

وكان الغلام قد كف عن الاكل ؛ واخذ ينظر إلى عمته . هل كان يفهم ؟ وسأل بنبرة غريبة :

ـ هل التي ماتت هي أمي ؟

ـ لا تشغل نفسك بهذا ، وكل .

ـ لم يعد لدي رغبة .

وتابعت مدام دولوريس :

ـ ها أنت ترى كيف هو ! نعم ، هناك : انها أمك التي ماتت . والآن أطع ، وكل . أو انك لن تنال البوظة .

في هذه اللحظة التفتت بولا وتلاقت نظراتها بنظرات جاك ، وظن انه قرأ فيها تعبير اضطراب النفس الذي يشعر هو نفسه به . كانت ذات عنق دقيق ، متحرك وشاحب ، أكثر شحوباً من خديها . ومظهرها النحيف يدعو إلى مراعاة رقيقة . وكان جاك ينظر إلى هذا العنق وتلك البشرة الناعمة التي لا يكاد الزغب يظهر عليها ، ويشعر بطعم عذب على شفتيه . وبحث عن شيء يقوله فلم يجد شيئاً ، وابتسم . وتفحصته خلسة فبدا لها أقل قبحاً . ولكن قرحة فجائية في القلب جعلتها تشحب : فوضعت يديها على حافة الطاولة وقلبت رأسها إلى الوراء عاضةً على لسانها لئلا تفقد الوعي .

ورآها جاك . كانت هيئتها كعصفور جاء يموت هناك على السماط . وتمتم :

ـ ماذا إذن ؟

وشاهد بين الجفون المطبقة بياض العينين منقلباً . وبذلت جهداً وتمتمت دون ان تتحرك :

ـ قل لا شيءٌ .

كانت حنجرته منعقدة ولم يستطع المناداة . ومع ذلك فما من أحد أعارهما التفاتاً . ونظر إلى يدي بولا : الاصابع الساكنة ، الشفافة كشموع صغيرة ،

كانت ضاربة إلى السواد بحيث ان الأظافر تشكل فيها بقعاً بنفسجية اللون .

وكان فافري يوضح لجارته بهديل راض :

ـ ان منبهي يدق الساعة السادسة والنصف في طاسة متوازنة على قدح ...

وكانت بولا قد فتحت عينيها ، وخف شحوبها ؛ وادارت رأسها وابتسمت بضعف لتشكر جاك لانه صمت . ونفخت :

ـ لقد انتهى الامر . هذا يحدث على نوبات . وخزات في القلب .

واضافت بطرف شفتيها اللتين لا تزالان متشنجتين ، ليس بدون كآبة :

ـ اجلس يا صغيري ، عارض ويمضي .

وشعر برغبة في أخذها بين ذراعيه وحملها بعيداً عن هذا المكان الموبوء ، وفكر بتكريس نفسه لها ، لشفائها . آه ! لكم يشعر بالحب لكل كائن ضعيف يطلب أو يقبل فقط مساندة قوية .

كان على وشك الاعتراف لدانيال بهذا المشروع الخيالي . ولكن دانيال لم يكن يفكر بجاك ابداً .

كان دانيال يتحدث مع الأم جوجو ، ورينيت تفصل بينهما . وكان ذلك ذريعة ليلتفت نحو جارته ، وليكون اكثر قرباً من فتورها ، مع انه منذ أول الوليمة تجنب ، وفقاً لخطة ، ان يوجه إليها الكلام . وكان ظاهراً انه لا يفكر إلا بها . وفاجأت نظرته في عدة مناسبات : وفي كل مرة ، بدون ان تستطيع إيضاح السبب ، كانت هذه النظرة تبعث فيها عاطفة الابتعاد بدلاً من ان تستهويها ، وجاذبية هذا الوجه الرجالي ، مع انها كانت محسوسة ، كانت تثيرها .

وهناك مناقشة حامية كانت تبعث الحياة في طرف الطاولة الآخر . وصرخ « المشمشة » بفافري :

ـ يا له من أبله معجب بنفسه !

ووافق الآخر على ذلك :

ـ هيه ! قلت ذلك في أغلب الأحيان .

– بصوت منخفض دون شك .

وكان ضحك . واحتفظ ويرف بالغلبة ، وصرح رافعاً صوته عمدا :

– يا عزيزي فافري . اسمح لي أن أقول لك شيئاً : لقد تكلمت عن النساء كواحد لم يعرف أبداً .. أن يكلمهن !

ونظر دانيال إلى فافري الذي كان يضحك ، وظن أنه باغت نظرة من تلميذ دار المعلمين باتجاه رينيت ، كما لو ان المناقشة قد حدثت بسببها : نظرة جريئه ميّالة إلى الملاذ الجنسية ضاعفت فجأة من نفور دانيال من فافري . وكان يعرف عنه عدة حكايات تزيل حظوته . واستولت عليه رغبة ضارية بأن يرويها أمام رينيت . ولم يكن يقاوم أبداً هذه الانواع من الميول . فخفض صوته لكي لا يسمعه أحد سوى المرأتين ، وانحنى نحو الام جوجو بطريقة تضع رينيت ثالثة في الحديث وسأل بعدم اكتراث :

– هل تعرفين حكاية فافري والمرأة الزانية ؟

فهتفت العجوز مستهواة :

– كلا ، إحكِ . واعطني سيكارة ؛ فالعشاء لن ينتهي هذا المساء .

– في يوم جميل – كانت عشيقةً له منذ وقت طويل – جاءت إليه ومعها حقيبة ثياب وقالت : « لقد اكتفيت . اريد أن اعيش معك ، الخ .. » – – « ولكن زوجك » ؟ – « زوجي ؟ لقد كتبتُ إليه » : « عزيزي أوجين ، لقد وصلت إلى منعطف في حياتي ، الخ .. وانا بحاجة ، ولي الحق أن أسكب حبي في قلب صديق ، إلخ .. وقد وجدت هذا القلب . وأنا راحلة » .

– انه أمر يتعلق بالقلب . قل إذن !

– هذا شأنها . اسمعي الباقي . وأصيب فافري بالرعب . امرأة على ذراعه . والأسوأ ، امرأة مطلقة ، حرة ، ستطلب منه أن يتزوجها .. وعندئذ خطر له ما يسميه هو نفسُه فكرة عبقرية ، فكتب إلى الزوج : « ايها السيد ، لقدعرفت ان زوجتك تركت البيت الزوجي للحاق بي . تحياتي . فافري » .

فتمتمت رينيت :

ـ انها كياسة .

فأجاب دانيال بابتسامة شبه شريرة :

ـ ليس بمقدار ما تتصورين . وسترين . لقد اتخذ فافري الخبيث احتياطاته للمستقبل ؛ كان يعلم ان الزوج سوف يجعل من هذه الرسالة قضية أمام الحاكم ؛ ذلك لأن القانون يمنع على العاشق الزواج من شريكته بالذنب . وكان يقول حين يروي القصة : « جميل أن يعرف المرء القانون » .

وكانت رينيت تفكر ، وأخيراً فهمت وهتفت :

ـ اوه ! هذا عيب !

ودانيال الذي كان ينحني نحوها تلقى انفاسها على الوجه والشفتين . فتنشق طويلاً واضطر إلى إطباق عينيه تقريباً .

وسألت العجوز : هل تركها ؟

فلم يجب دانيال . ولفتت رينيت عينها نحوه . فأبقى جفونه منخفضة قليلاً لأنه كان يشعر انه قليلاً ما يستطيع اخفاء شدة رغبته . ورأت عن قرب بشرته الناصعة البياض ، وثنية فمه الشرسة ، وأهدابه المرتعشة ؛ وكما لو انها اختبرت أسرار هذا الوجه الخادعة منذ زمن طويل ، فإن شيئاً فيها ، لا يمكن مناقشته كالغريزة ، تمرد ضده فجأة .

ـ والمرأة ماذا جرى لها ؟

فاستعاد دانيال هدوءه ولكن صوته احتفظ برجة خفيفة وقال :

ـ يقال انها قتلت نفسها . أما هو فيؤكد انها اصيبت بالتدرن الرئـوي .

وحاول ان يضحك ، ووضع يده على جبهته .

كانت رينيت مستقيمة ، مستندة إلى مسند الكرسي لتبتعد بقدر الامـكان عن دانيال . لماذا هذه البلبلة في نفسها ؟ لقد حدث ذلك دفعة واحـدة بسبب هذا الوجه ، وتلك الابتسامة ، وتلك النظرة . كل ما في هذا الغلام الجميل كان يبدو لها بغيضاً : طريقته في الانحناء ، اناقة حركاته ، ويده على الخصوص ، يده الطويلة العصبية .. لم تكن تظن أبداً ان في نفسها هذا القدر من البغض المهيأ ،

الجاهز ضد مجهول .

وهتفت ماري جوزف ، مستشهدة بالطاولة كلها :

ـ إذن ، أيقال انني مغناجة ؟

فابتسم باتنكور بسذاجة :

ـ هل الخطأ مني ؟ ليس في اللغة الفرنسية سوى هذه العبارة لتدل على هذا الشيء الجذاب : نية الإرضاء .

وقالت مدام دولوريس بصوت كريه :

ـ يا لها من نظافة !

والتفت الجميع . ولكن كان المقصود الغلام الصغير الذي قلب ملعقة بوظة على سترته السوداء واخذته عمته إلى المغسلة .

واغتنم جاك فرصة غيابها ، وسأل بولا ، سعيداً بالاقتراب منها :

ـ اتعرفينها ؟

ـ قليلاً .

وكانت على وشك الصمت ، لم تكن ثرثارة وتشعر بالكآبة . ولكن جاك كان لطيفاً معها ، فتابعت :

ـ ليست امرأة شريرة ، كما تعلم . ثم انها غنية . فقد ظلت وقتاً طويلاً مع رجل كان يكتب للمسرح . وبعد ، فقد تزوجت صيدلياً ، ومات . وتقبض ايضاً مداخيل كبيرة من المستحدثات الخاصة بها . « كوريسيد دولوريس » ، اتعرف هذا ! كلا ! يجب ان تقول لها ، فمعها عينات دائماً في محفظتها. مدهش، وسترى . طريف . وعندها في بيتها دزينة من الهررة مجندة في كل مكان . وأسماك ، حوض كبير للاسماك في غرفة نومها . انها تعبد الحيوانات .

ـ ولكنها لا تحب الأولاد .

فهزت بولا رأسها واختتمت قائلة :

ـ انها امرأة هكذا .

وكانت تتنفس بصعوبة حينما تتكلم . وفطن جاك إلى ذلك . ومع هذا فقد

كان يحاول ان يطيل حديثها المنفرد . وتفكيره انها مصابة بمرض في القلب حمل إلى شفتيه هذه العبارات ببلاهة :

ـ « ان للقلب اسبابه التي لا يعرفها العقل » .

وظلت لحظة صامتة ، ثم اصلحت وهي تنقر باصابعها على الطاولة :

ـ « بينما العقل ليس له » . وبدون ذلك يصبح الشعر خطأً .

كان يرغبها رغم كل شيء . إلا انه أصبح أقل رغبة في تكريس حياته لها وفكر : « ما ان يدعني اي كائن اقرأ في نفسه ، مهما كان ذلك قليلاً ، فأنا مستعد لأحبه » . وتذكر النزهة التي ابدى فيها هذه الملاحظة لأول مرة : الصيف الماضي في غابات فيروفلاي ، مع رفاق لأنطوان وطالبة طب سويدية كانت تستند إلى ذراعه لتقص عليه ذكريات طفولة .

وفجأة انتبه إلى ان انطوان لم يأت . والساعة التاسعة والنصف . عندئذ اجتاحه ذلك الرعب العصبي ، ناسياً ما عدا ذلك ، وهز دانيال ذراعه :

ـ بالتأكيد لقد حدث شيء .

ـ شيء ؟

ـ لانطوان !

وقاموا عن المائدة . وكان جاك قد نهض ، ووقف دانيال محاولاً ألا يبتعد عن رينيت . وحاول ان يطمأنه :

ـ انت مجنون ! الاطباء .. يكفي وجود مريض ..

ولكن جاك اصبح بعيداً ، غير قادر على التفكير ، غير قادر على مقاومة شعور قلبه بالحادث المتوقع ، وركض حتى غرفة الملابس ، وبدون ان يودع أحداً ، وبدون اي تفكير ببولا ، اندفع خارجاً . وكان يردد برعب :

« انا الذي جلب الشر لأنطوان . انا .. انا .. لأحصل على بزة سوداء من طراز البزة التي رأيتها على مفترق مديسيس ! » .

وعزف الثلاثي الموسيقي الفالس . وكان بعض الازواج يرقصون في قاعة

البار . ودانيال رأى فافري يرفع ذقنه كأنه يتنشق الهواء ويثبت على رينيت نظره الطارف . وبخطوة رشيقة تقدمه :

ـ رقصة ؟

وكانت قد رأته يأتي وتفحصته بعداوة ، وتركته ينحني انحناءة خفيفة قبل ان تجيبه : كلا .

فأخفى دهشته وابتسم ، وقال مقلداً لهجتها :

ـ لماذا : كلا ؟

كان متأكداً من اقناعها بحيث قال : « هيّا » وخطا خطوة نحوها . حركة واثقة كانت كافية لتمردها : فقالت مشددة نبرتها :

ـ معك ، كلا .

ـ كلا ؟

ردد ذلك بينما كانت عينه السوداء تتحداها وتبدو انها تقول: « حينما اريد» واستدارت وشاهدت فافري الذي كان يتردد في الاقتراب ، وسارت نحوه كأنه دعاها ، واخذت ترقص دون اية كلمة .

كان لودفيكسون قد وصل ، بالسموكن ، ووقف بقرب البار ، وقبعة البحار على رأسه ، وكان يتحدث مع الام باكميل وماري جوزف التي يلامس لها العقد بدالـّة . وكان يتفحص القاعة دون ان يظهر ذلك ، بنظره النائم الذي كان يتحرك تحت جفونه التي تشبه جفون السلحفاة ، والذي كان بين لحظة واخرى يقع على شيء ، او على احد الناس ، كضربة عصا رصاصية .

وكانت الام جوجو تجول بين الراقصين باحثة عن رينيت ، الى ان ادركتها اخيراً ، ودفعتها بمرفقها قائلة

ـ بسرعة ، وكما قلت لك .

ودانيال الّذي كانت بولا حصرته في احدى الزوايا كان يصغي الى المرأة الشابة بابتسامة ذاهلة . لقد رأى الام جوجو تأتي بشكل طبيعي جداً وتختلط بجمهور ماري جوزف ، بينما رينيت ، وقد كفت عن الرقص ، ذهبت تجلس

وحيدة على طاولة بعيدة في القاعة الداخلية . وعلى اثر ذلك اجتاز لودفيكسون والام جوجو القاعتين للانضمام اليها . ولودفيكسون على الخصوص ، حين شعر ان هناك من ينظر اليه مشى موتراً نصفه الاعلى كحوذي من الطراز القديم ، لم يكن يجهل ان الطبيعة فجعته بردف حورية كان يتمايل يميناً وشمالا منذ ان اسرع الخطى واخذ يراقب نفسه . ومدت رينيت يدها اليه ، فأسند عليها شفتيه الضخمتين ، وفي الحركة التي قام بها ، شاهد دانيال جمجمته التي تكاد تخلو من الشعر ، والتي يلتصق عليها شعره الاسود الذي ازيل تجعيده بمهارة . ولاحظ : « طريقة في المشي رغم كل شيء . يوجد حمّال في هذا الكراكوز الشرقي ، ولكن يوجد ايضاً وزير كبير » .

وخلع لودفيكسون قفازيه دون عجل في نفس الوقت الذي كان يقدّر قيمة رينيت بعين خبير ، ثم جلس قبالتها، والام جوجو الى جانبه . وجيء لهم بما يشربون ، ودون ان يطلب لودفيكسون شيئاً ، كانت عاداته معروفة : لا يتناول الشمبانيا ابداً ، ولكنه يشرب نبيذ أستي *Asti* ، غير مزبد ولا مخضوض ، ولا طازج ايضاً . بل معتق قليلاً . وكان يقول : « فاتر كعصير ثمرة في الشمس » .

ودانيال ترك بولا واشعل سيكارة ، ودار في البار، وشد يديه ثم عاد ليجلس في القاعة الثانية . وكان لودفيكسون والام جوجو يديران ظهريها اليه؛ ولكنه وجد نفسه قبالة رينيت تماماً ، مع انه منفصل عنها بغرفة كاملة . وجرى حديث حول أكواب الأسي.وكانت رينيت تبتسم لكياسات لودفيكسون الذي كان منحنياً نحوها وبدا الافتتان عليه بشكل ظاهر ، وضاعف النفقات على شرفها . وحين رأت دانيال يراقبها بالغت في مرحها .

ومن الفتحة الموصلة بين الغرفتين كان يُرى رواح ومجيء الراقصين. ووراء منضدة البائع بلهاء صغيرة ذات خدين ورديين كانت تشبه لورانس ، وكانت متعمشقة على إحدى درجات الدرج الصغير الابيض ، وهناك أمسكت بكل يد جزءاً من الدرابزين ، ووقفت على رجلٍ ، مؤرجحة الاخرى ، رافعة حلقومها،

وكانت ترافق الاوركسترا عاوية ً بلازمة ٍ كان جميع الناس يعرفونها في هـــذا الصيف عن ظاهر قلب :

تيميلو ، لاميلو ، بان ، بان ، تيميلا !

وكان دانيال مستنداً على مرفقيه ، والسيكارة بين شفتيه ، وهو يحـــدق برينيت . لم يكن يبتسم ؛ كان ذا وجه جامد ، وشفتاه مقروحتان . وكانت المرأة الشابة تتساءل : « أين رأيته » ؟ وكانت تضحك بقوة وتحتاط لئلا تلتقي بعيني دانيال ، وقد توصلت إلى ذلك تدريجياً بسهولة ؛ وكقبرة تحوم على المرآة فإن انتباهها في أغلب الأحيان كان يتلقف بسرعة تلك النظرة اللاصقة : نظرة مقنّعة دون أن تكون مبهمة ، ويبـــدو وضوحها مضبوطاً على نقطة واقعة وراء رينيت ؛ نظرة ظلت حادة وعنيدة ؛ نظرة محرقـــة ، مكهربة ، كانت تنجح كل مرة ان تتحاشاها ، ولكن الجهد يزداد في كل مرة .

وفجأة شعر دانيال بشيء يتحرك عليه . كانت أعصابـــه متوترة بحيث لم يستطع منع نفسه من الارتعاش . كان ذلك بين وسائد المقعد حيث اليتيم الصغير كان ينام ملفوفاً بمعطف دولوريس الحريري ، واصبعه بقرب فمه ، ودموع لم تجف تماماً على حافة الاهداب .

وكانت الموسيقى قد صمتت . وعازف الكمان يجمع الصدقات من طاولة إلى أخرى . وحين اقترب من دانيال وضع هذا ورقة نقدية تحت المنشفة ، وتمتم :

— الرقصة التالية ، ربـع ساعة دون توقف.

وطرفت الجفون التي بلون الصدأ علامة الموافقة .

وشعر دانيال ان رينيت تراقبه . عندئذ رفع رأسه ، واستحوذ على نظرها. وأدرك الآن أنه أصبح السيد ، ومرة أو مرتان ، بـــداعي اللعب استسلم للذة الاستيلاء على تلك النظرة وتركها ، وذلك ليبرهن عن تملكه . ثم لم يعـــد يفارق نظرها ؟

وثمل لودفيكسون فضاعـــف من لطفه . إلا أن الانتباه الذي أعارته إياه رينيت كانمتصنعاً ولاهثاً أكثر فأكثر. وحينعزفالكمان رقصة فالسجديدة،

ومنذ أول حركة للقوس ، أدركت من الارتعاش التي أوصلها إليها وجه دانيال المتشنج ان حادثاً حاسماً سيحدث. وبالفعل، فان دانيال نهض بكثير من الهدوء، ودون أن يرفع نظره عن فريسته ، واجتاز القاعة وجاء إليها رأساً . وكان لديه من الوقت ما يقول لنفسه : « اني أقامر بمركزي عند لودفيكسون » ؛ وكان ذلك كضربة سوط انهالت على رغبته . وكانت رينيت تراه يقترب ، وعينه الثابتة تعبر عن شيء غير طبيعي بحيث ان لودفيكسون والام جوجو التفتامعاً. وظن لودفيكسون أن دانيال آت ليسلم عليه ، فقام بحركة ليستقبله على طاولته. أما دانيال فلم يبد أنه يعرفه ، وحنى رأسه وغمس نظرته في العينين الخضراوين اللتين كان يقرأ فيهما من القبول أكثر من الفزع. ووقفت خاضعة. فطوق خصرها دون أية كلمة ، وسار بها واختفى معها في القاعة حيث توجد الاوركسترا .

وظل لودفيكسون والام جوجو لحظة جامدين يتبعان الثنائي بعيونهما . ثم تطلعا إلى بعضهما البعض . وقالت متلجلجة :

ـ يا لها من جرأة !

وارتجف ذقنها المزدوج من التأثر والغضب .

ورفع لودفيكسون حاجبه ولم يجب . وكانت صبغته الكامدة تمنعه من الشحوب . ومد الى الكأس الموجود امامه يده الضخمة التي كانت اظافرها قاتمة كالعقيق ، وغمس شفتيه في شراب الأستي .

وكانت الام جوجو تتنفس كمن يركض . وقالت بضحكة جافة لامرأة تتأثر :

ـ انه غر ، ولن يشتغل لك بعد الآن كما افترض .

فبدا مندهشاً :

ـ السيد دي فونتانان ؟ ولماذا اذن ؟

وابتسم كسيد كبير لا يتدنى الى بعض الحقارات ، وادخل قفازيه في يديه مسيطراً تمام السيطرة على نفسه. ايمكن ان يتسلى حقيقة بالمغامرة؟ وسحب حافظة نقوده والقى ورقة نقدية على الطاولة ونهض وحيا الام جوجو بحركة مداهنة .

ثم بلغ قاعة الرقص وتوقف على العتبة لينتظر مرور الثنائي الراقص امامه . والتقي دانيال بنظرة النائم حيث يوجد شيء من الشراسة،والغيرة،والاعجاب، فرآه يسير حالاً نحو المخرج مجتازاً المقاعد،مختفياً في النطاق الزجاجي الذي بدا انه يتلقفه في جيشانه ليلقيه خارجاً .

وكان دانيال يرقص متمهلا ، وجسده جامد في الظاهر ، والرأس مستقيم ، مع نوع من الفتور المؤلف من التصلب والراحة ، ولا يرقص الا برؤوس رجليه اللتين لم تكونا تتركان الارض . ورينيت غير واعية ، سكرى ، غير قادرة ان تعرف اذا كانت غاضبة او منتشية ، تتجاوب مع اقل تموج من فارسها ، وتبدو انها لم ترقص ابداً إلا معه . وفي مدى عشر دقائق ظلا الاخيرين ، والازواج الآخرون ، وقد تعبوا منذ وقت طويل ، كانوا يؤلفون دائرة حولها . ومضت خمس دقائق جديدة ولا يزالان يرقصان . واخيراً ، بعد مرة اخيرة، توقفت الاوركسترا بهدوء .

لقد رقصا حتى الأنغام الأخيرة : هي نصف مغمى عليها على كتفه ؛ وهو ، رزين ، منخفض الجفون على نظرة محرقة جربها عليها بين وقت وآخر وجعلها ترتعش دورياً من الحقد ومن الرغبة .

وانفجر التصفيق .

وأعاد دانيال رينيت إلى طاولة لودفيكسون . وجلس بكل بساطة في المكان الفارغ ، وطلب كأساً رابعاً وملأه بالأستي ورفعه بمرح نحو الام جوجو ، وأفرغه ، وقال :

— بواه ! يا له من شراب !

وانفجرت رينيت بضحكة عصبية وامتلأت عيناها بالدموع .

وغمرت الام جوجو دانيال بنظرة مندهشة ، فقد تلاشى غضبها ، ونهضت وهزت كتفيها وتأوهت بشكل مضحك :

— « كل هذا لا شيء — ما دامت الصحة جيدة » .

بعد نصف ساعة خرجت رينيت ودانيال معاً من عند باكميل . وكانت قد

أمطرت . واقترح الشاب :

ـــ عربة ؟

فقالت رينيت : لنمش قليلاً أولاً .

كان في صوتها تغييرات رخوة لاحظها دانيال بسرور .

وظلت حالة الطقس عاصفة رغم المطر . وكانت الشوارع خالية ، مضاءة بشكل سيء . وكانا يسيران متمهلين أمامهما على الرصيف اللامع بالماء .

والتقى بهما جندي من المشاة كان يحيط خصر امرأتين بذراعيه ويلهو بأن يجعلهما تبدلان الخطى . « واحد ، اثنان » ! ورن ضحكهم طويلاً على واجهات البيوت الصامتة .

وكانت تنتظر ، وهي تترك البار ، أن يأتي حالاً ويدخل ذراعه تحت ذراعها . ولكن دانيال كان يتذوق الانتظار بشدة ويسر بتمديده حتى تهيج الأعصاب . وكانت هي التي اقتربت ، بعد برق بعيد .

ـــ العاصفة لم تنته . وستمطر .

فأجاب بنبرة مداعبة توضح جميع أنواع الأشياء :

ـــ هذا سيكون لذيذاً .

وكان هذا لطيفاً بالنسبة إليها بحيث أخجلها تحفّظ دانيال . وقالت :

ـــ أنت تعلم ، لن تراوحني الفكرة بأنني رأيتك قبلاً في مكان آخر .

فابتسم في الظلام ؛ وكان يعلم انها لا تلفظ سوى كلمات معدّة . وكان بعيداً عن الشك باعتقادها حقيقةً انها التقت به . وكان على وشك الاجابة بدافع صبياني : « وأنا أيضاً » ! وسيتحتم عليها إبداء تخمينات . ولكنه كان يلهو بأن يقلقها بصمته .

وقالت بعد صمت :

ـــ لماذا يدعونك النبي ؟

ـــ لأن اسمي دانيال .

ـــ دانيال ماذا ؟

فتردد . لم يكن يحب الاستسلام مهما كان ضئيلاً . إلا أن فضول رينيت كان مفتقراً إلى حيلة بحيث تردد في خلق اسم مستعار . قال :

ــ دانيال دي فونتانان .

فلم تجب ، ولكنها انتفضت . فظن انها عثرت ، وأراد ان يسندها ؛ فأتت بحركة لتتجنبه . وكان هذا كافياً ليبعث فيه الرغبة لمماكستها : فاقترب محاولاً ان يأخذ ذراعها ؛ وتجنبت ملامسته بوثبة جانبية ، وغيرت الاتجاه فجأة ، ودخلت في شارع معترض . ففكر انها تلعب واستعد للعب . ولكنها بدت حقيقة انها تهرب امامه : فقد زادت سرعة سيرها ، وبذل الجهد ليحتفظ بالمسافة دون ان يركض . كان يلهو ؛ فهذا السير السريع يشبه الصيد في ذلك الحي المقفر . الا انه تعب قليلاً ، وكانت على وشك الدخول في شارع مظلم . وبواسطة منعطف جعلهما يعودان أدراجهما ، فقد اراد ايقافها وحاول للمرة الثالثة الامساك بذراعها . الا انها تخلصت من جديد . فقال غاضباً :

ــ هذه رعونة . قفي الآن .

وهربت ، باحثة عن الظلام ، مبدلة الرصيف دون انقطاع كأنها تريد حقيقة ان يفقد اثرها ؛ وفجأة اخذت تركض. ولحق بها ببضع وثبات وحصرها في فرجة باب . وعندئذ اكتشف على وجهها امائر رعب لا يمكن ان يكون مصطنعاً .

ــ ما الامر ؟

فظلت متلبدة وهي تلهث في الزوايا الرطبة ، مثبتة عليه عينين شاردتين . ففكر لحظة ، ولم يفهم، ولكنه كان يرى جيداً ان شيئاً خطيراً حدث فيها . واراد اجتذابها نحوه فتخلصت بحركة كثيرة الخوف بحيث تمزقت ناحية من ثوبها .

وردد ، متراجعاً خطوة : ماذا حدث اذن ؟ اتخافينني ؟ اتشعرين بألم ؟

واستولت عليها رجفة عصبية فلم تستطع ان تلفظ كلمة ولم تنقطع عن التطلع اليه . وظل دون ان يفهم شيئاً ؛ الا انه احس بالشفقة ، فقال مقترحاً :

– أتفضلين ان اتركك ؟

فأتت باشارة ايجابية . وشعر انه اصبح على وشك ان يكون مضحكاً . وقال ، واضعاً كثيراً من العذوبة في صوته كأنه يحاول مؤانسة ولد ضائع :

– اصحيح هذا ؟ اتريدين ان اذهب ؟

فنفخت بعنف تقريباً : نعم .

بالحقيقة لم تكن تمثل مهزلة .

وشعر ان في الالحاح عدم كياسة . وكف عنها وعزم على التصرف بلطف فقال :

– حسناً ، ليكن . الا اني لا استطيع ان اتركك هنا . سنخطو بضع خطوات باحثين عن عربة وسأتركك . اتريدين ؟

وسارا صامتين نحو جادة الاوبرا حيث تُشاهد الاضواء . وقبل وصولهما التقيا بسيارة اجرة وقفت بمحاذاة الرصيف بناء على اشارة . وكانت رينيت محتفظة بعينيها منخفضتين باصرار . وفتح دانيال الباب . وعلى درجة السيارة عزمت على ان تدير رأسها نحوه ، وتطلعت في وجهه كما لو انها لا تستطيع امتلاك نفسها من تفحصه مرة اخرى . واجتهدت لتبتسم ، واجتهد ، وهو عاري الرأس ، ليحتفظ بهيئة الصديق الذي يستأذن بالذهاب . وحين تأكدت انه لن يحاول مرافقتها ، انفرجت اساريرها ، وأعطت السائق العنوان ، ثم التفتت نحو دانيال وتمتمت بلهجة اعتذار :

– عفواً . هذا المساء يجب ان تتركني يا سيد دانيال . وغداً سأوضح لك الامر .

فقال وهو ينحني :

– حسناً ، الى الغد ، ولكن اين ؟

فرددت بسذاجة :

– هذا صحيح ، اين ؟ عند مدام جوجو اذا اردت . نعم ، عند مدام جوجو . الساعة الثالثة .

ـ الى الساعة الثالثة .

ومد يده ، ومدت يدها ، ولامس بشفتيه اطراف الاصابع المغطاة بالقفاز . وأقلعت السيارة .

عندئذ فقط اتى دانيال بحركة غضب . وملك نفسه حين رأى النصف الاعلى للفتاة ينحني خارج العربة ويوقف السائق .

ولم يقم بسوى وثبة نحو باب السيارة ، وفتحت رينيت له ؛ كانت عيناها مفتوحتين في الظلام . ففهم ؛ وقفز الى جانبها . وحين احاطها بذراعيه سحقت شفتيها على شفتيه ، وشعر جيداً انها لم تكن تستسلم عن ضعف ولا عن خوف : كانت تقدم نفسها . وكانت تبكي ـ ربما من اليأس ـ وتتمتم بكلمات غير مفهومة :

ـ اريد ... اريد ...

واضطرب دانيال وهو يسمع :

ـ اريد ... طفلاً منك !

وسأل السائق :

ـ أهو العنوان نفسه ؟

٣

حين ترك انطوان جاك ورفاقه سار الى باسي حيث كان عنده مريض مصاب بذات الرئة يريد رؤيته ؛ ثم سار من هناك الى شارع الجامعة ، الى البيت الابوي ، حيث كان يتقاسم الطابق الارضي مع اخيه منذ خمس سنوات. وفي داخل العربة التي سارت به الى بيته ، والسيكار في فمه ، خطر بباله ان المريض الصغير يسير حقيقة في طريق التحسن ، وان نهاره كطبيب قد انتهى ، وانه في حالة نفسية ممتازة . وقال :

ـ اعترف انني لم اكن البارحة فخوراً . وعلى العموم ، حين ينقطع القيء

مطبوع . إذن ، وبعد ، إذا أراد أحد الذهاب ؟

فقال انطوان ملتفتاً : الذهاب ؟

ومن جديد ساوره شعور مؤلم انه أضاع الخيط .

– لن تبقى هناك ثلاثة أسابيع ! فهل هذا أمر يجب عمله؟ ها هي قد دخلت في عامها السابع والسبعين . وهناك مجال كبير للتأكد من أن الوقت لن يتسع لها لتنفق العشرة آلاف فرنك في البيت ! أليس صحيحاً ؟

فردد انطوان الذي لخص الحساب المحزن رغماً عنه :

– سبع وسبعون سنة !

لم يكن يفكر في الساعة . ولاحظ : « حين ينقل المرء انتباهه ليوجهه إلى الغير فإنه يكتشف حالة » . (بالرغم من عاداته المهنية فإن انتباهه كان مركزاً بشكل طبيعي جداً على نفسه ، بحيث كان يشعر بانتقال هذا الانتباه حين يحوله نحو الغير) . وقال لنفسه : « ان هذا الأبله هو بالتأكيد حالة ، الحالة شاسل ». وتذكر السنة الأولى التي عرف فيها الرجل الطيب القلب : بناء على توصية كهنة المدرسة أخذ السيد تيبو معه السيد شاسل في العطلة. بصفة معيد؛ثم عندالعودة، وقد أغرته دقته ، فألحقه بخدمته كأمين سر . « منذ ثماني عشرة سنة وأنا أرى هذا الرجل الصغير كل يوم تقريباً ، ولا أعرف شيئاً عنه » .

وتابع السيد شاسل دون أن ينظر إليه :

– ان امي امرأة مدهشة . في عائلتنا يا سيد انطوان لا يجب الظن ان المرء يقنع بالقليل أفضل من لا شيء . فأنا ، ربما نعم . ولكن امي ، كلا . فقدخلقت لتحيا الحياة الكبرى ، وليست هذه الحياة الصغيرة المطمئنة ! ولكنها لن تبقى هناك . ولن يعيدوا إلي المال . انهم يتخذون احتياطاتهم ، ويجعلونك توقع عند الدخـــول ، كورق البردي ، على ورقة ألصق عليها طابع ، تصريحاً حسب القانون ، كما يحدث لدى شرطتك . فقط ، انهم ليسوا كثيري البلاهة . فهم لا يكتبون إليك بعد سنة ؛ ولا يعيدون شيئاً . لا شيء ، لا شيء ، لاشيء — ثم تابع بهيئة ساخرة ، ودون أن يغير اللهجة : ـ ماذا فعل صديقك ؟ هل جـاء

فجأة ... « النبض جيد ، والبول جيد ، ولكن المريض يحتضر[1] ... »
وليس المقصود سو تجنب إلتهاب شغاف القلب ... الام لا تزال امرأة جميلة ..
وباريس ايضاً جميلة جداً هذا المساء .

كان اثناء مروره يلقي نظره على خضرة التروكاديرو ، وقد التفت ليتابع بعينيه زوجين كانا يدخلان في ممر غير ظاهر وبرج ايفل، وتماثيل الجسر ، والسين، كانت كلها وردية اللون . « في قلبي ... نا ــ تا ــ نا ... » وكان هدير المحرك يساند غناءه . وقال فجأة :

ــ « في قلبي ... ينام ! » نعم هكذا :« في قلبي ... ينام نا ــ تا ــ نا ــ نا». من المغضب الا يستطيع المرء ايجاد الظلام . من هو الذي يستطيع ان ينام في قلبي ؟ الخنزير الذي يغفو ؟

هكذا فكر وهو يبتسم ؛ وساقه تفكيره من جديد نحو مناظر السهرة المسلية عند باكميل . أهي مغامرة لطيفة ؟ وشعر بأنه سعيد بأن يعيش ، وكأن رغبة خفية تحمله. ورمى سيكارته . وصالب ساقيه وتنشق الهواء الذي أكسبته سرعة العربة مظهراً معتدل البرودة « بشرط ألا ينسى بيلان كاسات الهواء للصغير . سننقذه ، ذلك الغلام المسكين . ــ وبدون مداخلات . أريد أن أرى رأس لوازيل . اولئك الجراحون ! انهم ذوو شهرة ، ولكن ، طز ! بهالين[2]. وكما كان يقول الاب الهرم : «لو كان عندي ثلاثة أبناء لقلت لأقلهم موهبة : كن مولّداً » . ولأكثرهم رياضة : « خذ المبضع » . ولكن لأكثر الثلاثة ذكاءً: « كن طبيباً ، واعتن بكثير من المرضى واسْعَ لتراهم بشكل أكثر وضوحاً » . وشعر من جديد انه فرح ، فرح حتى في لباب قوته . وتمتم بصوت منخفض : « لقد أحسنتُ توجيه حياتي » .

وحين دخل إلى بيته ذكّره باب غرفة جاك المفتوح بأن أخاه قد ُقبل .

---

١ ـ باللاتينية في الاصل .

٢ ـ جمع بهلوان .

خمس سنوات من التيقظ وحسن التدبير أوصلت إلى هذا النجاح. وقال متأوهاً:
– لا أزال أذكر جيداً المساء الذي التقيت فيه بفافري في شارع المدارس . حيث خطرت لأول مرة فكرة توجيه جاك نحـــو دار المعلمين . كانت حديقة مونج *Monge* بيضاء من الثلج؛ وأقل حراً من اليوم. وتخيل مقدماً لذة الاغتسال بالماء البارد . وألقى ملابسه حوله بفراغ صبر طفل .

وخرج من (الدوش) متجـدداً . كان يفكر بباكميل ويصفر صفيراً خفيفاً من السرور . أما ما كان يدعوه «النساء» فلا يشغل من حياته سوى مركز ثانوي؛ وأما الحب العاطفي ، فلا شيء . كان يكتفي باللقاءات السهلة ؛ ويستخرج منها زهواً لأنها كانت « عملية » أكثر . ومع ذلك ، باستثناء بعض السهرات ، فإنـه كان يحترز من كل ذلك ، ليس بدافع النظام ولا بدافع اللامبالاة الجسدية ؛ بـل لأن « كل هذا » يشكل قسماً من طراز حياتي يختلف عن الطراز الذي صمم أن يختاره مرة وإلى الأبد . وكان يشعر ان هذه المزعجات هي ضعف ؛ أما هـو فقد كان « قوياً » .

ودق الجرس . نظرة نحو الساعة : عند الحاجة ، لا يزال لديه وقت لرؤية مريض قبل الالتحاق بالعصابة عند باكميل .

وصرخ من خلال الباب : من هناك ؟

– هذا أنا يا سيد انطوان .

وعرف صوت شاسل وفتح الباب . أثناء إقامة السيد تيبو في ميزون لافيت استمر أمين سره في عمله في شارع الجامعة .

وقال السيد شاسل آلياً : آه ! هذا انت .

واضطرب لرؤية انطوان بالملابس الداخلية فأدار رأسه متمتماً : « ماذا ؟ » بهيئة استفهامية . ثم أضاف حالاً ، رافعاً أصبعه كأنه اكتشف كلمة لغز :

– آه ! ترتدي ملابسك ، ألن ازعجك على الأقل ؟

فأسرع انطوان بالاعتراف :

– يجب أن أذهب بخلال خمس وعشرين دقيقة .

ـ هذا أكثر مما يلزم . انظر يا دكتور

ووضع قبعته . وانتزع نظارته وحملق بعينيه :

ـ ألا ترى شيئاً ؟

ـ أين هذا ؟

ـ في العين .

ـ أيها ؟

ـ هذه .

ـ لا تتحرك . لا أرى شيئاً ابداً . ربما لفحة هواء .

ـ آه ! نعم . بالتأكيد . شكراً . هذا لا شيء : لحة عين على الهواء .. لقد فتحت النافذتين . ـ وسعل وأعاد وضع نظارتيه ـ شكراً . ها أنذا قد اطمأنيت . لحة عين على الهواء . هذا يحدث غالباً ، هذا لا شيء ـ وأضاف بابتسامة صغيرة : ـ ها انت ترى انني لم ازعجك طويلاً .

ولكن بدلاً من ان يستعيد قبعته جلس على حافة كرسي . واخرج منديلاً ومسح جبهته .

وقال انطوان : الطقس حار .

فأجابه الآخر مغضناً جفونه بخبث :

ـ بالتأكيد ! طقس عاصف . ان من يستوجب الرثاء هم المضطرون للذهاب إلى هنا أو هناك ؛ اولئك الذين لديهم مساع يقومون بها .

وكان انطوان يربط شريط حذائه فرفع انفه :

ـ مساعٍ ؟

ـ في المكاتب . في مفوضيات الشرطة يختنقون من هذا الحر . إذن تؤجل إلى الغد .

ختم كلامه بذلك هازّاً رأسه . وظل انطوان وأنفه في الهواء . وقال السيد شاسل :

ـ بالمناسبة . منذ وقت طويل وانا أريد ان أوجه إليك هذا السؤال :

هل تعرف مأوى العمر الناضج ؟

— العمر الناضج ؟

— نعم . للشيوخ . لا يوجـــد اصحاب داء عضال . مأوى في بوان ـ دي ـ جور . انه كالهواء وليس هناك أفضل . وحين كنا هناك يا سيد انطوان حدث أمر أريد ان اسألك عنه ايضاً : ألم تجد ذات يوم قطعة نقدية منسية بمئة فلس ؟

— منسية ؟ في جيب ؟

— كلا .. في حديقة . في الشارع تقريباً .

كان انطوان واقفاً وبنطلونه في يده ، ينظر إلى السيد شاسل ويفكر : « منذ ان أكون مع هذا الحيوان أشعر بانني صرت أبله » . وبذل جهداً ليكون منتبهاً ، وصرح برصانة :

— لم أفهم سؤالك جيداً .

— لنر : هناك أناس يفقدون شيئاً ، مثلاً . وهناك اناس يمكن ان يجدوا هذا الشيء ، ولماذا لا ؟

— بالتأكيد .

— حسناً . انت مثلاً ، لو وجدت هذا الشيء صدفة ، ماذا تفعل به ؟

— ابحث عن صاحبه .

— أليس كذلك .. ولكن إذا لم يكن هناك أحد ؟

— أين ؟

— في الحديقة ، في الشارع مثلاً .

— إذن احمل الشيء إلى مفوضية الشرطة .

فلاحت ابتسامة في زاوية فم السيد شاسل :

— ولكن إذا كان هذا الشيء نقوداً ؟ آه ! آه ! قطعة بمئة فلس؟ نحن نعرف جيداً ماذا يصير بهذه القطعة عند هؤلاء الناس .

— أتفترض ان مفوض الشرطة يحتفظ بالقطعة النقدية لنفسه ؟

– بالتأكيد .

– ولكن كلا يا سيد شاسل . أولاً يوجد شكليات ، أوراق . إليك هذا الخبر . لقد وجدت مع أحد الأصدقاء ، ذات يوم في عربة ، دمية طفل جميلة جداً ، من العاج والفضة المذهبة . فأخذوا في مفوضية الشرطة اسم صديقي واسمي واسم الحوذي ، وعناوينا ، ورقم العربة ، وجعلونا نوقع على تصريح واعطونا وصلاً قانونياً . أيدهشك هذا ؟ وبعد سنة ، أنبىء صديقي بأن أحداً لم يأت ويطلب الدمية وان باستطاعته المجيء لأخذها .

– ليعمل ماذا ؟

– هذا هو القانون . إذا لم يتقدم أحد لطلب اللقية فإنها بعد سنة ويوم تعود إلى من وجدها بموجب الحق .

– سنة ويوم ! إلى من وجدها ؟

– تماماً .

فهز السيد شاسل كتفيه :

– دمية ، ممكن. ولكن لو كانت اللقية ورقة نقدية.. بخمسين فرنكاً مثلاً..

– سيكون الأمر نفسه .

– لا أعتقد يا سيد انطوان .

– وأنا متأكد يا سيد شاسل .

فحملق القزم ذو الوبر الأصهب ، الجاثم على كرسيه ، بالشاب من فوق نظارتيه . ثم حوّل عينيه ، وسعل في تجويف يده ، وقال :

– ولكن كلا . كنت أتكلم عن المأوى .

وبما أن انطوان كان يرتدي سترته ، فإنه قفز عن كرسيه ليساعده في إدخال الذراع في فتحة الكم وقال ملمحاً : « اجتياز المانش » ؛ واغتنم فرصة وجوده وراء انطوان فهمس في اذنه بسرعة :

– المخيف ، كما ترى ، هو انهم يطلبون تسعة ألاف فرنك . ومع النفقات الصغيرة ، احسب عشرة آلاف فرنك . وعشرة آلاف فرنك «مقدماً» : وهذا

ليأخذها ؟

- دمية العاج ؟ لعمري كلا .

فاتخذ السيد شاسل موقفاً حالماً :

- هذا صحيح فيما يتعلق بدمية العاج ... بينما مبلغ المال ! كل اولئك الذين يفقدون نقوداً في الشارع يركضون حالاً ليطلبوها في جميع مفوضيات شرطة باريس ! واؤكد ان هناك ايضاً من يذهبون ليطلبوا اكثر مما فقدوا . واي برهان ؟

فلم يجب انطوان . وكان السيد شابل يتفحصه بالحاح ؛ وردد ساخراً :

- واي برهان ؟ قل .

فقال انطوان غاضباً :

- اي برهان ؟ وجميع التفاصيل التي يجب تقديمها : كيف ضاع المال ، واذا كان اوراقاً او قطعاً نقدية ، واذا كان هناك ...

فقاطعه السيد شاسل بحدة :

- اوه ، كلا . ليس هذا ! لن يسألوهم اذا كانت اوراقاً او قطعاً معدنية ! تفاصيل ، ليكن ، اني اقبل . ولكن ليس هذا ، كلا .

وردد عدة مرات بهيئة ذاهلة : ليس هذا ! ليس هذا ..

والقى انطوان نظرة على الساعة :

- هذه المرة لا اطردك ، ولكن اصبح من اللازم ان اذهب .

فارتجف السيد شاسل . وانزلق على الارض .

- شكراً للاستشارة يا دكتور . اني عائد لأضع ضمادة ... شيئاً من القطن في الاذن ... ولن يكون هذا شيئاً .

لم يستطع انطوان ان يمتنع عن الابتسام لرؤية الرجل الصغير يخاطر بنفسه وهو يقفز على ارض الدهليز المطلية بالدهان . وكان السيد شاسل ينتعل دائماً حذاء يحدث صوتاً .. انه واحد من « مزعجات » حياته : فقد استشار جميع صانعي الاحذية ، واختبر جميع اشكال الاحذية ذات السوق ، والصغيرة ،

وجميع انواع النعال ، من جلد ولباد ، ومطاط ؛ واستشار اطباء الارجل ؛ وبناء على تحريض مدّللٍ يصنع النفائس ، عهد بقدميه لمبتكر حذاء مطاط ، يدعى « الصامت » ، مصنوع خصوصاً لخدم المائدة واهل البيت . ولكن عبثاً. عندئذ الف عادة المشي على رؤوس اصابعه : وكان برأسه الصغير ذي العينين المستديرتـــين وسترته المصنوعة من وبر الألباغا ***Alpaga*** حيث القسم المشقوق المتدلي منها يخفق وراءه ، يشبه عقعقاً ُقص جناحاه . وقال حين اصبح على الباب :

ـ حسناً ، لقد نسيت ! جميع المتاجر مقفلة . اما معك نقود ؟

ـ كم ؟

ـ الف فرنك

ـ بوه !

قال انطوان ذلـــك وذهب ليفتح درجاً : وقال السيد شاسل موضحاً :

ـ لا احب ابداً ان احمل واحدة من هذه القطع الكبيرة .بالضبط انت الذي كنت تكلمني عن المال المفقود ... لو كان بامكانك اعطائي عشر ورقات بمئة فرنك ؟ او عشرين من فئة الخمسين ؟ كلما كانت الصرة معقولة يقـــل الخطر نوعاً ما .

فصرح انطوان مستعداً لاغلاق الدرج :

ـ كلا ، ليس لدي سوى قطعتين بخمسماية .

فقال السيد شاسل وهو يتقدم :

ـ حسناً ، نعم . هذا يختلف مهما كان الأمر .

وناول انطوان الورقة النقدية التي اخذها من بطانة سترته واستعد ليدخل في البطانة القطعتين الاخريين حين رن جرس المدخل بصوت حاد بحيث ارتجف الرجلان ، وحيث قال السيد شاسل متلجلجاً ولم يكن قـــد انتهى من اخفاء نقوده :

ـ انتظر ، انتظر .

ولكن قسماته انفرجت حين عرف صوت بوابه الخاص الذي كان يصيح ضارباً الباب بقبضته :

— أليس السيد شاسل هنا ؟

فركض انطوان وفتح .

وصرخ الرجل وقد ضاق نفسه :

— هل هو هنا ؟ بسرعة ! حادث . لقد انهرست الصغيرة .

وسمع السيد شاسل . وترنح . وظهر انطوان في الوقت المناسب ليتلقاه ، ويمدده على الارض ، ويضرب وجهه بمنشفة رطبة . وفتح الهرم المسكين عينيه وحاول ان ينهض . وقال الرجل :

— آه ! يا سيد جول . تعال بسرعة . معي عربة .

وسأل انطوان دون ان يتساءل من يمكن ان تكون هذه الصغيرة :

— اماتت ؟

فتمتم الآخر : انها لم تبلغ الخامسة بعد .

واخذ انطوان عن الرف حقيبة الريف التي يبقيها دائماً مجهزة للحالات الطارئة ، وتذكر فجأة انه أعار جاره زجاجة صبغة اليود ، واندفع إلى غرفة أخيه صارخاً بالبواب :

— سر به وانتظرني . اني مرافقكم .

وحين وقفت العربة بالقرب من التويلري ، أمام البيت الذي كان يسكنه آل شاسل ، شارع الجزائر ، توصل انطوان بشكل سيء من خلال إيضاحات البواب غير المنظمة ، إلى كشف ما حدث . كان الأمر يتعلق بطفلة تأتي في جميع الايام إلى أمام السيد جول . فهل كانت تريد اجتياز شارع ريفولي ، وقد رأت ان السيد جول لم يأت هذا المساء ؟ ان عربة بثلاثة دواليب تستعمل لتسليم البضاعة قلبتها ومرت على جسدها . وبائعة الصحف التي اجتذبها تجمهر الناس عرفتها من ضفائرها واستطاعت إعطاء عنوانها . وقد حملت فاقدة الوعي إلى الشقة .

والسيد شاسل المنطوي في داخل العربة لم يكن يبكي . ولكن كل تفصيل

جديد كان ينتزع منه انتحابة مضطربة كان يخنقها بوضع قبضته على فمه .

وكان أمام الباب جمع من الناس قد تأخر فابتعد عند مـــرور السيد شاسل الذي اضطر رفيقاه الى مساندته حتى الطابق الأخير من الدرج . وكان هناك باب مفتوح قليلاً في نهاية رواق دخـــل فيه السيد شاسل مصطك الركبتين . وترك البواب انطوان يمر ، ووضع يده على ذراعه :

– زوجتي ليست حمقاء . فقد ذهبت تبحث عن الطبيب الصغير الذي يتناول طعامه في المطعم المجاور . وآمل أن تجده .

فاستصوب انطوان باشارة من رأسه ، وتبع السيد شاسل . واجتازا نوعاً من غرفة ثياب يشتم منها رائحة خزانة عفنة ، ثم غرفتين منخفضتين ، مبلطتين ، شبه مظلمتين ، حيث المظهر يبدو خانقاً رغم النوافذ المفتوحة على الساحة ؛ وفي الاخيرة دار انطوان حول طاولة مستديرة حيث لوازم طعام اربعة اشخاص كانت تنتظر على قماش مشمع اسود . وفتح السيد شاسل باباً ، ودخل غرفة مضاءة ، وهبط حالاً متمتماً :

– ديديت .. ديديت .

وصاح صوت صارم : جول !

لم ير انطوان اولاً سوى قنديل تمسكه بكلتا اليدين امرأة ترتدي مئزراً وردي اللون ، وشعرها اشقر ، والجبهة والصدر يلمعان في الضوء ؛ ثم ميز السرير الذي تنيره المرأة وتنحني عليه عدة ظلال . والضوء الغسقي الذي لا يزال يدخل من النافذة جاء يذوب في هالة القنديل ، وكانت الغرفة غارقة في شبه ظل حيث كل شيء يبدو غير حقيقي . وانطوان ساعد السيد شاسل على الجلوس ، وتقدم نحو السرير . هناك رجل شاب ذو نظارة ، منحن ، وقبعته لا تزال على رأسه ، كان يمزق بالمقص الثياب الدامية للضحية الصغيرة التي يُرى وجهها ملقى على الوسادة ، بين الشعر المتخثر ، وهناك عجوز راكعة كانت تساعد الطبيب .

وسأل انطوان : أتعيش ؟

فالتفت الطبيب ، وشاهده ، وتردد ومسح جبهته ، وأجـاب أخيراً دون

يقين : نعم .

فقال انطوان موضحاً :

— كنت مع السيد شاسل حين جاؤوا في طلبه . وجلبت معي ما يمكن أن يعطي الاعتناءات الاولى . — وأضاف بصوت منخفض : — الدكتور تيبو رئيس معاينة في مستشفي الأطفال المرضى .

فنهض الطبيب ، وأتى بحركة ليخلي المكان . فقال تيبو وقد تراجع خطوة :

— قم بعملك ، قم بعملك . كيف النبض ؟

فأجاب الآخر الذي عاد إلى عمله بسرعة :

— يكاد لا يُعَدّ .

ورفع انطوان عينيه نحو المرأة الشابة الشقراء ، والتقى بنظرها المضطرب . وقال مقترحاً :

— الأفضل يا سيدتي الاتصال هاتفياً بمركز اسعاف وحمل طفلتك حالاً إلى مستشفاي .

فقال صوت واضح : كلا .

عندئذ ميز انطوان ، وهو واقف على رأس السرير ، امرأة مسنّة — الجدة دون شك — كانت تتفحصه بحدقتيها الفلاحتين، الصافيتين كالماء: أنف مروّس، وقسمات متشددة ، مكومة في اوقيانوس من الشحم ، حيث الأمواج الأخيرة تشكل طيات العنق . وقالت بصوت مستسلم :

— اعلم جيداً اننا نبدو فقراء . ولكن مهما يكن الأمر فنحن نفضل البقاء لنموت في أغطيتنا . ان ديديت لن تذهب إلى المستشفى .

فقال انطوان ملحّاً : ولكن لماذا يا سيدتي ؟

فأزالت طيات عنقها ، ودفعت ذقنها إلى الأمام ، وقالت ببساطة ، وبلهجة كئيبة ولكن لا تنثني : ذوقنا هكذا .

وبحث انطوان بعينيه عن المرأة الشابة ؛ كانت تبعد الذباب المصرّ على الوقوف على وجهها المنير . وكانت تبدو انها ليست من هذا الرأي . وعندئذ

ساورته فكرة مناداة السيد شاسل. وكان الرجل الطيب القلب قد سقط راكعاً على قدم المقعد الذي أراد انطوان الجلوس عليه ، وادخل رأسه بين ذراعيه المطويين لكي لا يسمع شيئاً ، ولكي لا يرى شيئاً . والسيدة العجوز التي كانت تراقب جميع حركات انطوان ادركت مقصده فسبقته وقالت :

ـ أليس كذلك يا جول ؟

فارتجف السيد شاسل وقال : نعم يا امي .

وبدت راضية وتابعت بصوت امومي :

ـ لا تبق هنا يا جول . ستكون أفضل في غرفتك .

فرفع الهرم المسكين جبهته الشديدة الشحوب ؛ وكانت عيناه ترقصان وراء نظارتيه ، ولم يعترض بشيء ، ووقف ، وترك الغرفة على رأس قدميه .

وعض انطوان على شفتيه ، وفيما كان يتفحص مناسبة مناقشة ، خلع سترته وطوى كمي القميص فوق المرفقين ؛ ثم جاء يركع على حافة السرير . لم يكن يفكر ابداً تقريباً دون ان يبدأ العمل في الوقت نفسه لأنه كان غير خليق بوزن معطيات المشكلة طويلا ، وكان متعجلاً لاتخاذ موقف . وكان يهمه ألا يكون مخدوعاً أقل مما يهمه التدخل بسرعة وجرأة : لم يكن التفكير في نظره سوى واسطة لتحريك العمل ، ولو كان قبل الأوان .

وبمساعدة الدكتور والعجوز الاخرى التي كانت ترتجف ، انتهى من حل الاقمطة عن جسد الطفلة بحيث ظهر اخيراً عري البنت الصغيرة الكثيرة الشحوب ، شبه الربداء . وكانت العربة ذات الدواليب الثلاثة قد قلبت الطفلة بعنف متناه ، لانها كانت مغطاة بالكدمات ، وهناك خط داكن كان يخطط الفخذ منحرفاً ، من الخصر حتى الركبة .

وقال الزميل موضحاً :

ـ انه الأيمن .

وبالفعل ، فان القدم الأيمن كان ملتوياً ، مفتولاً إلى الداخل ، والساق الملوث بالدم كان يبدو مشوهاً واكثر قصراً .

وقال الطبيب : كسر في عظم الفخذ .

ولم يجب انطوان . كان يفكر . وفكّر : « ان صدمتها شديدة وهناك بالتأكيد شيء آخر ، ولكن ماذا ؟ »

وتلمس الرضفة ؛ ثم أصابعها وصعد ببطء على طول الفخذ ؛ وفجأة ؛ كان الدم يسيل من جرح دقيق جداً على الوجه الداخلي من الساق فوق الركبة ببضعة سنتيمترات ، وقال : آه !

وهتف الآخر : عظم الفخذ ؟

وكان انطوان قد نهض بسرعة . ففكرة اتخاذ القرار بمفرده أعطته الكثير من القوة. ان شعوره بقدرته يزداددائماً حين يكون موجوداً مع كائنات اخرى. وتساءل : « جراح ؟ كلا : انها لن تصل حية إلى المستشفى . إذن من ؟ أنا ؟ لماذا لا ؟ وما العمل بالطبيب الآخر ؟ »

وسأل الدكتور الذي أغاظه صمت انطوان :

— هل تجرب أن تربطها ؟

ولكن انطوان لم يكن يفكر بإجابته ، وفكر : « بالتأكيد ، وبدون الانتظار ثانية ؛ فربما يفوت الوقت ! » وألقى حوله نظرة حادة: « يربط . بماذا؟ لغز . ليس لدى الشقراء زنار ؛ والستائر بدون ربطة . نسيج مطاط ؟ آه ! لدي منه ! » وتخلص من صدرته بلمحة عين ، وفصّل حمالاته وقطعها بقوة وركع من جديد وصنع منها مضغطة عقدها مشدودة عند أصل الفخذ. وقال وهوينهض :

— حسناً دقيقتان للتنفس .

وكان العرق يسيل على طول خديه . وشعر بكل العيون مصوبة نحوه ، فقال بصوت مقتضب :

— ستموت اذا لم تجر العملية حالاً. لنجرب.

فابتعد الجميع عن السرير ، حتى المرأة التي كانت تمسك بالقنديل ، وحتى الطبيب الشاب المضطرب .

وشد انطوان فكيه . ونظرته المقطبة ، الشرسة بدت انها استدارت كلياً

الى الداخل . وفكّر : « لنر ، الهدوء . طاولة ؟ الطاولة المستديرة التي رأيتها وانا داخل » .

وصاح بالمرأة الشابة : « انيري علي » . واضاف موجهاً الكلام الى الطبيب : « وانت ، تعال» . وبخطوة سريعة دخل الى الغرفة المجاورة، وفكر : « حسناً، غرفة عمليات » . وبدورة يد نزع عنها لوازم المائدة ، وصنع كومة من الصحون . وقال لنفسه : « هذا لأجل قنديلي » . لقد استولى على المنزل كحقل مناورات . « والآن ، الصغيرة » . وعاد الى الغرفة ؛ وكان الطبيب والمرأة الشابة يتابعان كل حركاته ويسيران على خطاه . وأرى الطفلة للطبيب :

ــ اريد حملها . انها لا تزن شيئاً . اما انت فاسند ساقها .

وادخل ذراعه تحت ظهر الطفلة التي تأوهت آهة خفيفة ،وحملها الى الطاولة. ثم اخذ القنديل من يدي الشقراء ، ورفع حاجز النور ، ووضع القنديل على كومة الصحون . واتسع له الوقت ليفكر وهو يجيل نظرة حوله : « انني طراز مدهش » .وكان القنديل يشع كالأتون بين الظلمات المحمرة التي ينبجس منها الوجه الساطع للمرأة الشابة ونظارة الطبيب . ونور لا يرحــم كان يسقط على الجسد الصغير الذي كانت اعضاؤه تهتز بين لحظة واخرى . وكان الهواء محملاً بالذباب الذي كهربته العاصفة .وكان انطوان ينضح بالحرارة والقلق، ويتساءل : « اتعيش الى ان انتهي ؟ » ولكن قوة لم يكن يحللها قد رفعته . لم يكن أبــداً واثقاً من نفسه كهذه المرة .

وأخذ حقيبته ،وبعد أن أخذ منها زجاجة مخدر وضمادة اعطاها للطبيب ،قال :

ــ افتحها ناحيةً ، على خزانة الطعام . أرفع مكنة الخياطــة ، وافرغ كل ما فيها .

ثم التفت ، والزجاجة في يده ، وميز أشكالاً في فتحة الباب القاتمــة ؛ والعجوزان جامّدتان، واقفتان. واحداهما، الام شاسل، كانت عيناها الكبيرتان محملقتين كالبومة ؛ والاخرى تضغط على فمها يديها المضمومتين. وقال آمراً: اذهبا.

وحين دخلا في ظلام الغرفة متقهقرتين حيث كان السرير ، أشار إلى الجــزء

الآخر من الشقة : « كلا .. أكثر بعداً . من هنا ! » فأطاعتا ، واجتازتا الغرفة ، واختفتا دون كلمة .

وصرخ ، وقد فرغ صبره ، بالمـــرأة الشقراء التي كانت تستعد للحاق بها :

ـ ليس انت .

فرجعت . ونظر إليها لحظة : كانت ذات وجه جميل ؛ لحيمٍ قليلاً ، زاد الألم دون شك من نبله : تعبير عن الهدوء والنضج أعجبه . وفكر رغمـاً عنه : « يا للمرأة المسكينة ! ولكني بحاجة إليها » . وسأل :

ـ أأنت الام ؟

فهزت رأسها : كلا .

ـ آه ! أحسن .

وحين كان يتكلم بلل الضمادات ونشرها بمهارة على انف الطفلة . وقال وهو يعطي المرأة الزجاجة :

ـ حسناً ، قفي هنا ، وخذي هذه . وحين اشير إليك تعاودين وضعها .

وانتشرت رائحة المخدر في الغرفة.وأنـّت الصغيرة وتنفست بعمق وصمتت.

لحـة أخيرة : لقد اصبحت الأرض ممهدة : بقيت الصعوبات المهنية وحدها. وحلت الساعة الحاسمة ، وزال قلق انطوان كا بعامل السحر. فاقترب منخزانة أدوات المائدة حيث كان الطبيب قد انتهىمن وضع محتويات الحقيبة على منشفة. وقال لنفسه كأنه يحاول أن يسرق بضع دقائق أيضاً : « لنر : علبة الادوات ، حسناً ، المبضع ، الملاقط ، علبة الشاش ، القطن ، حسناً كحـول . كافيين . صبغة اليود . إلخ . « كل شيء موجود هنا . لنبدأ » . وشعر من جديد بسموه: نشوة فرحة بالعمل ؛ ثقة دون حدود : فعالية حيوية بلغت منتهاهـا ، وفضلاً عن ذلك ، حماسة لشعوره انه كبر .

ورفع رأسه ، وتطلع لحظة في عيني الطبيب الشاب ؛ وبدا انـــه يقول : « لديك شجاعة . القضية صعبة . لنقم كلانا بالعمل » !

ولم يحرك الآخر ساكناً . انـه يتبع الآن ، بانتباه مستَعبد ، جميع حركات

انطوان . كان يعلم جيداً ان العملية هي الحظ الوحيد ؛ ولو كان وحده لما تجرأ، ولكن مع انطوان ، فإن كل شيء بدا ممكناً .

وفكر انطوان : « الزميل الصغير ليس سيئاً . انه محظوظ . لنر . طست. باه ! ما الفائدة ؟ هذا جيد » . وأخذ صبغة اليود ومسح بهـــا الذراعين حتى المرفقين . وقال ، مقدماً الزجاجة للطبيب الذي كان يمسح زجـــاج نظارتيه بشكل محموم : جاء دورك .

وأضاء النافذة برق شديد متبوع برعدة عنيفة . وفكر انطـوان : « نفخ بالبوق قبل الأوان. لم أمسك المبضع بيدي بعد. والشقراء لم ترتعش . هذا يرخي الأعصاب وينعش . أنا متأكد ان درجة الحرارة ٣٥ تحت هذا السقف » .

و كان قد أخذ ضمادات ورتبها حول الساق ليحدد حقـل العملية . والتفت نحو المرأة الشابة وقال :

ـ بعض قطرات من المخدر . كفى . حسناً .

وفكر : « انها تطيع كجندي في اطلاق النار » . ثم تطلع بانتباه إلى الفخذ الصغير المتورم ، وبلع ريقه ، ورفع المبضع :

ـ لنبدأ .

وبحركة وجيزة اعمل المبضع. وقال للطبيب المنحني بقربه : نشّف . وفكر: « كم هي هزيلة ! سننتصر حالاً . هذه صغيرتي ديـــديت تشخر . حسناً لنعمل بسرعة . والآن إلى المنظفات» . وهمس : «دورك» . فترك الآخر القطن المبلل بالدم وأمسك بالمنظفات وأخذ يتأمل الجرح .

وتوقف انطوان لحظة ، وقال لنفسه : « حسناً ، طـريقتي الكلاسيكية ، كل شيء على ما يرام . برق آخر أيضاً . هذا لم يحدث بعيداً . على اللوفـر . أو ربما على اولئك السادة سان روك » . وشعر انه هادىء جداً : لم يكن جزعـاً على الطفلة ، ولا من الموت الوشيك الحـــدوث : كان يفكر بفرح « بالرباط الفخذي في قناة هونتر » .

« زم ! واحد ايضاً . لا مطر تقريباً . اكاد اختنق . الشريان مجروح على مستوى منطقة الكسر : لقد مزقه طرف العظم ؛ انه عمل صبياني . ومع ذلك

فلم يكن لديها دم كثير تفقده » . والقى نظرة على الصغيرة : « هوم ! لنسرع ! انه عمل صبياني . ولكن يمكن ان يحدث الموت . ملقط ، حسناً . ملقط آخر . زم ! هذه البروق لا تحتمل ؛ تأثير سهل .. ليس لدي سوى حرير املس ؛ لا يهم » . وكسر الانبوب، وأخرج كبة الخيوط وصنع رباطاً الى جانب كل ملقط . « تماماً . بلغنا الهدف . الدورة الدموية الجانبية تكفي ، وخصوصاً في هـــذا الســن . انا طراز مدهش . هل اخفق يا موهبتي ؟ لدي كل ما يلزم لأكون جرّاحاً ، جرّاحـــاً كبيراً » .. في الصمت ، بين زمجرتين للزوبعة التي كانت تبتعد ، سُمعت قرقعة المقص الذي كان رأسه يقطع اطراف الحرير . « كل شيء : النظرة ، الدم البارد ، الطاقة ، المهارة » .. وفجأة اصـــاخ السمع وشحب لونه . وقال بصوت منخفض :

— يا للشيطان !

لم تكن الطفلة تتنفس .

وأبعد المرأة بدفعة مباغتة ، ونزع الضمادة التي تغطي وجه الصغيرة . ووضع اذنه على القلب . وكانت عيون الطبيب والمرأة الشابة محلقة بأنطوان . وكانا ينتظران . فتمتم :

— بلى ، لا تزال تتنفس .

وامسك بالمعصم . ولكن النبض كان كثير السرعة بحيث كفّ عن النبضات . ووجهه المتشنج زاد انقباضه . وشعر مساعداه بنظره يقع عليهما ؛ ولكنه لم يكن يراهما .

وأمر بنبرة مقتضبة :

— انت ، ارفع الملاقط وضمد الجرح . ثم ارفع المضغط .. وانتِ ، هاتي شيئاً اكتب عليه .. لا فائدة . معي دفتري الصغير . ـ ونشف يديه بشكل محموم بكتلة قطنية . ـ كم الساعة ؟ لم تبلغ التاسعة بعد . الصيدلي لا يزال في صيدليته . ستسيرين اليه ركضاً .

كانت واقفة امامه ؛ ومن الحركة الخفيفة التي رسمتها ، كأنها تلف عليها

جانبي مئزرها بشكل افضل ، ادرك انها تتردد بالخروج لأنها كانت نصف عارية . وفي مدى نصف ثانية استحضر تفكيره هذا الجسد المكتنز تحت الثوب . وكتب الوصفة بسرعة ووقعها . « انبوب مصل سعته ليتر . اركضي ايتها السيدة . اركضي » !

فتمتمت : واذا ..

فقاسها بنظرة وصاح :

— اذا كان مقفلاً فستقرعين الجرس وتطرقين الباب الى ان يفتح لك . هيا !

وانطلقت وأمال رأسه ، وتأكد من ابتعادها راكضة . ثم التفت نحو الطبيب :

— سنجرب المصل . . وليس تحت الجلد فهذا لا يساوي الجهد : بالشريان . حظنا الاخير . — واخذ زجاجتين صغيرتين عن خزانة ادوات المائدة — هل رفع المضغط ؟ حسناً . اصنع لي دائماً ابرة زيت بالكافور . ثم واحدة كافيين *Caféine* ،النصف فقط . باللطفلة المسكينة .. ولكن أرجوك ، افعل ذلك بسرعة .

وعاد الى الطفلة وامسك بالمعصم الهشّ بين اصابعه ؛ فلم يشعر بشيء تقريباً ، رعشة متسارعة تكاد لا يُشعر بها . ففكر : « هذه المرة لا يمكن عد النبض بوضوح » . عندئذ مرت عليه دقيقة من الضعف واليأس . وتمتم :

— آه ! اقول ان كل شيء قد نجح ، وان ذلك لن يفيد شيئاً !

ومن لحظة الى اخرى كان وجه الطفلة يزداد زرقة . كانت تموت . وشاهد انطوان بالقرب من الشفتين المفتوحتين قليلاً شعرتين ملتفتين ، اكثر خفة من خيوط العذراء ، كانتا ترتفعان بين فترة واخرى : انها لا تزال تتنفس .

وفكر وهو يراقب الطبيب الذي يقوم بغرز الابر : « انه كإنسان أحسر ليس عديم المهارة . ولكننا لن ننقذها » . كان يشعر بالحزن المصحوب بالغضب اكثر من شعوره بالغم . كان يملك عدم حساسية الاطباء الذين تعني آلام الغير عندهم تجربة ، مصلحة ، فائدة مهنية ، والذين لا يتأثرون الا على

حساب الالم او الموت .

في تلك اللحظة ظن انه سمع باباً يقرع . واندفع الى امام المرأة الشابة . كانت تركض فعلاً ، بخطوتها المتموجه ، وتمسك نفسها لئلا تبدو لاهثة ، وانتزع الصرة من يدها وقال ، دون ان يفكر حتى بشكرها :

ـ ماء ساخن .

ـ يغلي ؟

ـ كلا ، بل ليصبح المصل فاتراً . بسرعة .

وما كاد ينتهي الوقت الذي نشر فيه محتويات الصرة حتى عادت تحمل وعاء يتصاعد منه الدخان . فتمتم هذه المرة دون ان ينظر اليها :

ـ جيد. جيد جداً .

كان الوقت يستعجله. وببضع ثوان كسر رأسي انبوب المصل وضبط انبوب المطاط . وفي الحائط كان ميزان جوٍ سويسري من الخشب المحفور ، معلقاً . فرفعه بيده وعلق بالاخرى انبوب المصل بالمسمار . ثم اخذ وعاء الماء الساخن وتردد عشر الثانية ، ولف المطاط في داخلها . وفكر : « سوف يسخن المصل بمروره . رائع ! » واتخذ وقتاً لإلقاء نظرة نحو الطبيب ليتأكد من ان الآخر رآه يعمل. وأخيراً عاد إلى الطفلة ورفع الذراع الصغير الذي لا حياة فيه ودهنه باليود . وكشف العِرق بضربة مبضع ، وأدخل المسبر تحته ، وغرز الإبرة في الشريان . وصاح :

ــ انه يأخذ مجراه . عد النبض . أما أنا فلن اتحرك .

ومضت عشر دقائق لا تنتهي ، في صمت مطلق .

وكان انطوان ينتظر ، وجسده مغطى بالعرق ، والنفس قصير ، والجفون متغضنة . ولم يترك الإبرة بنظره . وأخيراً رفع عينيه نحو أنبوب المصل :

ــ أين صرنا ؟

ــ نصف ليتر تقريباً .

ــ والنبض ؟

فهز الطبيب رأسه دون ان يجيب .

ومضت خمس دقائق اخرى بنفس القلق الذي لا يحتمل . ورفع انطوان عينيه نحو انبوب المصل وقال : — أين صرنا ؟

— بقي ثلث الليتر .

— والنبض ؟

فتردد الطبيب وقال : — لا أدري . اعتقد انه يميل إلى الرجوع قليلاً

— أتستطيع عدّه ؟

فترة صمت .

— كلا .

وفكر انطوان : « لو كان النبض يعود .. » انه يعطي عشر سنوات من حياته لبعث الحياة في هذه الجثة الصغيرة . « كم عمرها ؟ سبع سنوات ؟ لو أنقذتها ، فستصاب بعد عشر سنوات بالتدرن الرئوي في هذا البيت . ولكن هل سأنقذها ؟ انها على الحد ـ الحد النهائي ... ومع ذلك فقد فعلت كل شيء ، المصل يأخذ مجراه . ولكن فات الوقت ... ننتظر ... لا شيء نعمله ... لا شيء نجربه : الانتظار » . كانت الشقراء حسنة . مخلوقة جميلة . وهي ليست الام . ما هي إذن ؟ شاسل لم ينبس بكلمة عن كل هؤلاء الناس . ومع ذلك فليست هي ابنته . لا افهم عنها شيئاً . والعجوز ، بألحانها ... على كل حال قد تركوني بسلام . هذه السلطة التي يتخذها المرء فجأة .. انهم فهموا كل شيء عمّن قضيتهم معه . نفوذ رجل عزوم ! ولكن كان يجب النجاح .. هل أنجح ! كلا ، لقد فقدت كثيراً من دمها اثناء نقلها . على كل حال . ما من شيء الآن يدل على التحسن . آه !

ونظر إلى الشفتين اللتين زال لونهما ، والخيطين الذهبيين اللذين لا يزالان يرتفعان بالتواتر : لقد ظهر له التنفس اكثر وضوحاً . هل كان مخدوعاً ؟ ومضت نصف دقيقة وبدا ان آهة خفيفة نفخت الصدر وتصاعدت ببطء كأنها تستنفد بقية الحياة . وظل انطوان لحظة مرتبكاً ، وعينه ثابتة . كلا ، انها لا تزال

تتنفس . يجب الانتظار . الانتظار . والانتظار ايضاً. وبعد دقيقة. آهة اخرى متميزة تقريباً .

ـ أين صرت ؟

ـ انبوب المصل فارغ تقريباً .

ـ والنبض ؟ هل عاد ؟

ـ نعم .

فتنفس انطوان الصعداء .

ـ اتستطيع العد ؟

فسحب الطبيب ساعته ، وضبط نظارته وصمت دقيقة وقال :

ـ مئة واربعون .. مئه وخمسون تقريباً .

فقال انطوان : هذا افضل من لاشيء .

كان يدافع بكل قواه ضد الانفراج العظيم الذي اجتاحه رغماً عنه . إلا أنه لم يكن يحلم . لقد كان واثقاً من ذلك . واصبح التنفس اكثر انتظاماً . واضطر إلى بذل الجهد حتى لا يغير مكانه : كان يشعر بحاجة صبيانية للصفير والغناء . وكان يدندن لنفسه : « هذا افضل من لا شيء نا ـ نا ـ نا ـ نا ... ينام ماذا ؟ » وفكر فجأة : « آه ! أنا هنا ! ضوء وقمر ! ضوء قمر صيف ! » .

« في قلبي ينام ضوء قمر ،

ضوء جميل لقمر صيفي .. »

وكانت له لحظة خلاص ، سرور حقيقي. وفكر : « والصغيرة نجت ؛ يجب ان تنجو ! » .

« ضوء جميل لقمر صيفي » .

وقال الطبيب مؤكداً :

ـ انبوب المصل فارغ .

ـ تماماً .

في هذه اللحظة ارتعشت الطفلة التي لم يفارقها بنظره . والتفت انطوان بفرح تقريباً نحو المرأة الشابة التي كانت منذ ربع ساعة مستندة إلى خزانـــة

لوازم المائدة ، ولم تحرك هدباً . وصاح بنبرة فظة :

— ايه ، مدام . أننام ؟ ووعاء الماء المغلي ؟ — وكاد يبتسم من دهشتها — حتماً ياسيدتي. هذا يدركه الحس! كرة، وساخنة تماماً لتدفئة رجلي هذه الطفلة.

وكان في أعماق نظراتها وميض سرور مقتضب ، واختفت .

عندئذ سحب انطوان الابرة ، وهو منحن مع مضاعفة الحيطة والحنو ، وبأطراف أصابعه وضع ضمادة على الجرح الصغير . ثم تلمس الذراع الذي كانت يده متدلية ولا تزال عادمة الحياة .

— انبوب مصل آخر من الزيت الممزوج بالكافور يا عزيزي ، كيفما كان ؛ ونكون قد استنفدنا اللعبة الكبرى . — وأضاف بين أسنانه : — لن ادهش إذا أمسكنا بالطرف الصالح .

ومن جديد رفعته قوة فرحة .

وظهرت المرأة وبين ذراعيها ابريق . وكانت مترددة . وبما أنه لم يقل شيئاً، فانها اقتربت من قدمي الطفلة . فقال انطوان بنفس اللهجة المباغتة المرحة :

— ليس هكذا يا سيدتي . ستحرقينها ! اعطني هذا . أقول ان من اللازم ان اعلمك كيف تلفين اناءً لغلي الماء .

وأخذ منشفة ملفوفة كانت على الأرض ، مبتسماً هذه المرة ، وألقى حلقة المنشفة على أعلى الخزانة . ولف الابريق وثبته برجلي الفتاة . وكانت الشقراء تنظر إليه مندهشة من تلك الابتسامة الشبابية التي كانت تجدد شباب ذلك الوجه . وقالت :

— هل .. نجحت؟

فلم يجرؤ على الإجابة بنعم . وقال متذمراً :

— سأقول لك ذلك في مدى ساعة .

فلم تستخفّ به . وشملته بنظرة جريئة ملأى بالاعجاب

وسأل انطوان للمرة الثالثة :

— ماذا تفعل هذه الفتاة الجميلة هنا ؟

ثم أشار إلى الباب : والآخرون ؟
فابتسمت ابتسامة خفيفة وقالت :
ـ انهم ينتظرون .
ـ طمأنيهم قليلاً . قولي لهم ليناموا . ليذهبوا إلى النوم. وانت أيضاً أيتها السيدة . يجب أن تذهبي وتستريحي .
فتمتمت وهي ذاهبة : اوه ! أنا ..
واقترح انطوان على الطبيب :
ـ لنعد الصغيرة إلى السرير كما كانت في السابق . اسند الساق . ارفع المخدة؛ الرأس مسطح . والآن جاءت اللحظة لتنظيم جهاز .. اعطني تلك المنشفة .. وخيط الصرة . سنرتجل جهازاً لتمديد العضلات . ادخل الحبل بين القضبان الحديدية . حسناً . انها مريحة تلك السرر الحديدية . والآن ثقل . لا يهم . هذا الاناء . كلا . ذاك أفضل : تلك المكواة .. يوجد هنا كل ما يلزم . ولكن نعم إعطِ . هناك ! غداً سنتقن .. وحتى ذلك الوقت فهذا يكفي لإحداث شيء من الامتداد .. أليس هذا رأيك ؟
فلم يجب الطبيب . كان يحدق بانطوان كما نظرت مرتا إلى المخلّص حين قام اليعازر خارج تابوته . وانفتحت شفتاه قليلاً ، وتمتم فقط :
ـ هل بامكاني توضيب حقيبتك ؟
في ذلك الصوت الخجول كانت ترن حاجة للخدمة ، للتفاني ، شعر انطوان منها بنشوة الرؤساء. كاناوحدهما. فسار نحوالرجل الشاب ونظر في عينيه وقال:
ـ انت رجل ممتاز يا صغيري .
وفقد الآخر نفسه. ولم يترك له انطوان وقتاً للاجابة ، وهو أكثر خجلاً منه:
ـ الآن ، عد الى بيتك يا عزيزي . لقد اصبح الوقت متأخراً . لسنا بحاجة لنكون أثنين هنا ـ وتردد : ـ اعتقد ان باستطاعتي القول انها نجت . اظن ذلك . الا انني مهما كان الامر فسأقضي الليل هنا اذ سمحت . لأنني لا انسى انها مريضتك . بالضبط . لقد تدخلت بالضرورة لأن الدلالة كانت قطعية.

أليس كذلك ؟ ولكن منذ الغد ، فاني اترك الصغيرة بين يديك . وبدون قلق : هاتان يدان صالحتان جداً . ــ وكان يوصل الطبيب الى الباب وهو يتكلم ، وأضاف : اتريد ان تمر من هنا حوالي الظهر ؟ سأعود بعد المستشفى وسنتفق معاً على المعالجة .

ــ ايها الاستاذ .. انا سعيد جداً لأنني استطعت ..

كانت المرة الاولى التي سمع انطوان فيها من يحييه « كأستاذ » . فتنشق هذه النفحة من البخور بكاملها ، وبصورة تلقائية مدّ يديه للشاب . ولكنه امتلك نفسه حالاً . وقال بصوت مضطرب :

ــ انا لست استاذاً . أنا طالب يا عزيزي ، تلميذ : تلميذ بسيط مثلك. مثل الآخرين . مثل جميع الناس . أجرّب ، اتلمس .. اعمل ما استطيع ، وهـذا حسن .

كان انطوان ، بنوع من فراغ الصبر ، يرغب برحيـــل الطبيب الشاب ، أليكون وحيداً ؟ إلا أنه حين سمع خطوة المرأة الشابة التي عـــادت ، انتعش وجهه ، وقال :

ــ ألن تذهبي لتنامي ؟

ــ كلا يا دكتور .

فلم يلحّ .

وكانت المريضة تئن ، وشهقت ، وبصقت فقال :

ــ هذا حسن يا ديديت ، حسن جداً . ــ وأخذ النبض ــ مئة وعشرون . من حسن إلى أحسن . ــ ونظر إلى المرأة دون ان يبتسم ــ هذه المرة اعتقـــد اننا انتصرنا .

فلم تقل شيئاً ، وشعر انهـا تؤمن به . ولم يكن يعرف كيف يعقد الحديث الذي كان يتمناه، وقال :

ــ لقد كنت شجاعة .

وكان يسير إلى الأمام حين يكون خجلاً ، كما هو الأمر دائماً :

ـ بأية صفة انت هنا ؟

ـ أنا ؟ لا شيء . جارة . حتى ولا صديقة . ذلك لانني اسكن شقة الطابق الخامس .

ـ ولكن ، من هي أم الطفلة إذن ؟ فأنا لا أعرف شيئاً .

ـ اعتقد ان الأم ميتة ، وكانت اختاً لألين .

ـ ألين ؟

ـ الخادمة .

ـ العجوز التي كانت اصابعها ترتجف ؟

ـ نعم .

ـ إذن فالطفلة ليست قريبة لشاسل ؟

ـ كلا . إنها ابنة اخت تربيها ألين هنا ؛ على حساب السيد جول ، كما هو معلوم .

كانا يتكلمان بصوت منخفض ، منحنيين قليلاً الواحد نحو الآخر ، وكان انطوان يرى عن قرب ، الشفتين ، والخدين ، وتلك البشرة الصارخة التي أضاف إليها التعب نوعاً من الفتنة . وشعر انه ضعيف ومحموم ، دون مقاومة ضد غرائزه.

وبدأت الطفلة بالتحرك في نومها فاقتربا معاً من السرير . وفتحت الصغيرة عينيها وأطبقتهما . وقالت المرأة وهي تأخذ القنديل لتبعده :

ـ ربما الضوء هو الذي يزعجها .

ثم عادت إلى فراش المريضة لتمسح الجبهة الصغيرة التي يتلألأ عليها العرق . وبما انها كانت منحنية فان انطوان الذي كان يلاحقها بعينيه أصيب بصدمة : لقد شاهد تحت قماش المئزر ، كخيال الظل ، جسد المرأة الشابة بوضوح يحدث الاضطراب ، كما لو انها وجدت عاريةً فجأة امامه . فأمسك نفسه ، واخذ يتطلع ، بشعور احتراق في اعماق عينيه ، إلى النهد في النور النصفي وهو ينخفض ويرتفع باسترخاء على إيقاع التنفس . ويدا انطوان المتجمدتان فجأة تشنجتا . انه لم يتمنّ ابداً اية مخلوقة بمثل هذه الفورة المفاجئة .

وهمس احد الناس :
ـ يا آنسة راشيل .
فنهضت .
ـ انها ألين التي تريد المجيء إلى جانب الصغيرة .
وكانت تبتسم وتبدو انها تتشفع للخادمـــة . وكان مغتاظاً لمجيء شخص ثالث ، ولكنه لم يجرؤ على الرفض ، وتمتم :
ـ هل اسمك راشيل ! نعم ، نعم : لتدخل .
انه لم يكد يرى العجوز تركع على حافة السرير . واقترب من احدى النوافذ المفتوحة ؛ كان صدغاه يدويان ، ولم تدخل أية نسمة منعشة من الخارج ، وفوق السطوح ، فإن ظهور بعض البروق البعيدة كان يجعل لون السماء كامداً بين لحظة واخرى ، واحس عندئذ بتعبه ، لقد ظل واقفاً ثلاث أو أربـع ساعات متتابعة . وبحث عن كرسي ليجلس . وكان بين النوافذ فراشا ولد موضوعان على الطاولة ويؤلفان نوعاً من الأريكة . وهذا يجب أن يكون هو الفراش الطبيعي لديديت والغرفة يجب أن تكون غرفة ألين . وترك نفسه يسقط على هذا الفراش الحقير ، واسند ظهره إلى الحائط . ومن جديد كان ذلك كأنه يسلم نفسه دون دفاعٍ لما يشتهيه : ان يشاهد مـــرة اخرى ، في شفافية المئزر ، النطاق الصلب للنهد ، واختلاجه ! ولكن راشيل لم تكن واقفة في النور . وتمتم دون أن ينهض :
ـ ألم تحرك الصغيرة ساقها ؟
فخطت خطوة نحو السرير ، وقد تموج جسدها كله تحت الثوب :
ـ كلا .
كانت شفتا انطوان قد جفتا ، وكان يشعر دائماً بذلك الاحتراق في داخل العينين . ولم يكن يعرف كيف يجعل راشيل تتقدم إلى أمام القنديل .
ـ ألا تزال شاحبة ؟
ـ أقل من الأول .
ـ ضعي رأسها مستقيماً . أتريدين ؟ مسطحاً ومستقيماً ..

عندئذ دخلت في المنطقة المضاءة . ولكن لم يكن سوى مرورها بين المنطقة الساطعة وانطوان . وكانت هذه اللحظة كافية لتنفلت رغبته من عقالهـــا من جديد . واضطر إلى اغماض عينيه ، ولسحق ظهره على الحائط ، وظل هناك منضم الاسنان ، باذلاً جهده ليبقى الجفــون مغلقة على رؤياه السرية . ان رائحة المدن الكبرى أثناء الصيفـ تلك العفونة المصنوعة من الدخان وروث الدواب ، وغبار الاسفلت ـ تجعل الهواء غير صالح للتنفس . وكان الذباب يضرب حاجز النور كالكرات ويأتي ليتحكك بوجه انطوان الرطب . ومن وقت لآخر كان الرعد مستمراً بهزيمه على الضاحية .

وشيئاً فشيئاً ، فإن الحرارة والحمى ، وفرط اضطرابــه أخذت تنتصر على قواه : فلم يكن يشعر بالخمود المستحوذ عليه ، وعضلاته ترتخي ، واطمأن كتفاه للجدار . ونام .

وأيقظه من نومه إغراء خاص ، ودون ان يخرج من إغفاءٍ نصفي احس أنه يشعر بشيء لطيف . وظل فترة طويلة في تلك الحالة من الغبطة المبهمة ، قبــل أن يميز من أي قسم من جسده ، من أية نقطة من حـــدوده تسرب ذلك الشعور الفاتر بالرفاهية . من ساقه . لقد وعى في اللحظة ذاتها ان أحداً جاء وجلس بقربه ،وان هذه الحرارة على فخده صادرة عن جسد حي ،وان هذا الجسد ،وتلك الحرارة ، كانا من راشيل ؛وان ما شعر به كان في الواقع لذة جسدية تجسدت منذ أن تأكد من مصدرها . لقد اضطرت المرأة الشابة إلى الانزلاق إلى جانبه وهو نائم. وكان له من حضور الذهن ما جعله ألا يقوم بحركة ، واستيقظ . لقد جـــرى احتكاك الفخدين من خلال الثوبين ، بواسطة مساحة أقل عرضاً من اليد ، حيث كانت كل حساسية انطوان مركزة في تلك اللحظة . وظل لاهثاً ، جامــداً ، صاحياً بشكل اعجوبي ، ناهلاً من امتزاج حــرارتيهما لذة أكثر إثارة من أكثر القبل امتداداً .

وفجأة استيقظت راشيل ، وشدت ذراعها ، وابتعدت عنه دون سرعـة ووقفت . فتظاهر بالاستيقاظ ايضاً لانها تحركت . واعترفت مبتسمة :

ـ لقد نمت طويلاً .

ـ وانا ايضاً .

وقالت متأكدة ، رافعة يدها لترتيب شعرها :

ـ لقد طلع النهار .

وتطلع انطوان في ساعته وقال : تكاد الساعة تبلغ الرابعة .

وكانت الطفلة مرتاحة ، هادئة تقريباً وألين تضم يديها وتبدو انها تصلي . واقترب انطوان وكشف السرير . « لا يوجد أية قطرة دم . هـذا حسن » . واخذ معصم الفتاة ، ملاحقاً بعينيه حركات راشيل ، وعـد مئة وعشر . وفكر : « كم كان ساقها ساخناً » .

كانت راشيل تتأمل نفسها في شذرة مرآة مثبتة في الحائط بثلاثة مسامير وتضحك . وبقبعتها من الشعر الاشقر ، وطوقها المفكوك العرى ، وذراعيها المتينين العاريين ، ونظرتها الحرة الجريئة الساخرة نوعاً ، كانت تعيد إلى الاذهان صورة الثورة الجمهورية « المرسيلية » على المتاريس .

وتمتمت وهي تمط شفتيها : « هاأ أنا جميلة ! » كانت تعلم جيداً ان صبغتها وشبابها يحتفظان بزهرتها حتى في لحظة استيقاظها من النوم . وقد قرأت ذلك بوضوح على قسمات انطوان حين تقدم قريباً منها واخذ ينظر إليها في المرآة . ولاحظت ان نظرة الرجل هذه لا تبحث عن عينيها ، بل عن شفتيها .

إلا ان انطوان انتبه لنفسه في المرآة فحسر الكمين عن ذراعيه المحروقين من اليود ، والقميص مدعوك ومبقع بالدم . وقال :

ـ وانا حيث كانوا بانتظاري على العشاء عند باكميل !

فأضاءت ابتسامة فضولية وجه راشيل وقالت :

ـ ماذا ؟ اتذهب أحياناً إلى باكميل ؟

كانت عيونها تضحك . وشعر انطوان انه مسرور جداً ! لم تكن لديه أية مغامرة أخرى سوى مغامرات مع نساء ذوي حياة خفيفة . وفجأة بـدت له راشيل أقل بعداً عن رغبته . وقالت :

ـ انا هابطة إلى بيتي .
والتفتت نحو ألين التي كانت تتفحصها وقالت :
ـ لو أمكن ان أكون ذات فائدة فلا تترددي في مناداتي .
وبدون ان تودع انطوان ، وضعت طرفي مئزرها الواحد على الآخر وتسللت بخفة .

وما ان خرجت حتى شعر برغبة في الذهاب . وفكر وهو يلقي نظرة من فوق السطوح نحو السماء الصباحية؛ « اتنشق الهواء النقي، ثم أعود إلى البيت وأوضح الجاك .. وسأعود بعد ان أمرّ على المستشفى ، مغتسلاً ، حسن المظهر . وربما استطيع ان اطلبها لتساعد في الضماد . أم اخبرها وانا صاعد ؟ ولكني لا اعلم إذا كانت تسكن وحدها » .

واعطى بعض التعليمات لألين في حالة استيقاظ الصغيرة قبل عودته . ثم ساوره هاجس في لحظة الذهاب . ماذا صار بالسيد شاسل؟ واوضحت الخادمة :
ـ غرفته تفتح على الدهليز بالقرب من الموقد .

وبالقرب من الموقد باب خزانة في حائط يفتح على ممر طويل وضيق يتسع بشكل مثلث ، وينيره في الداخل نور سقيم مثقوب في حاجز الدرج . وهناك ، كان السيد شاسل مرتدياً ثيابه وممدداً على سرير حديدي ، مفتوح الفم ، يشخر بهدوء . ولاحظ انطوان :
ـ الأبله ، لقد حشا اذنيه بالقطن جيداً .

وعزم على ان يصبر بضع دقائق آملاً ان يفتح الرجل عينيه . وعلى طول الجدران صور دينية ملصقة على كرتون ملون ، وكتب دينية هي ايضاً تملأ رفاً يحمل لوحه الاعلى خريطة نصفي الكرة الارضية بين صفين من زجاجات العطر الفارغة .

وقال انطوان لنفسه : « الحالة شاسل .. عندي ميل مفرط الى الحالات . انه اكثر بساطة : وجه غير معبر ، حياة ابله . حين اسعى لأنظر فإني أشوه ، وأجسّم . الحيطة . انه كخادمة تولوز .. لماذا هذا التقارب ؟ ألآن غرفته

الضيقة يأتيها الهواء من الدرج ؟ كلا ، بسبب هذه العفونة من صابون الزينة .. ما اعجب تسلسل الافكار ! » واكتشف انه استحضر في ذهنه ، وبسرور شديد ، مرأى تلك الخادمة في الفندق ، يوم كان لا يزال شاباً ، اثناء رحلة مع والده الى احد المؤتمرات ، وقد ذهب يقضي ليلة في غرفتها الواقعة تحت السقف المنحني . ودفع غالياً في تلك الدقيقة ثمن جسد تلك الفتاة السمين الذي استولى عليه بين الاغطية الخشنة .

وكان السيد شاسل لا يزال يشخر . واقلع انطوان عن الانتظار وبلغ الرواق الموصل الى سطح الدرج .

ولم يكد يضع رجله على الدرجات حتى تذكر ان راشيل تسكن تحت ؛ وحين صار في المنعطف بحث عن الباب بعينيه : لم يكن مغلقاً . انه بابها بالتأكيد . ولا يوجد باب غيره هناك . لماذا كان مفتوحاً ؟

لم يكن لديه وقت للتردد : هبط دون ان يجرؤ على التباطؤ ، ووصل إلى الطابق . كانت راشيل في غرفة الزائرين . والتفتت صدفة حين سمعته يمشي . كانت ناضرة، وقد اعادت تصفيف شعرها ، وغيّرت مئزرها الوردي بكيمونو من الحرير الأبيض . وشعرها الأشقر على قمة ذلك البياض يذكّر بلهب شمعة . وقال :

ـ إلى اللقاء يا آنسة .

فأتت نحوه إلى فرجة الباب وقالت :

ـ اتريد ان تتناول شيئاً قبل ان تذهب يا دكتور ؟ لقد انهيت الآن صنع الشوكولا .

ـ كلا ، بالحقيقة انا متسخ . إلى اللقاء .

ومد لها يده . فابتسمت نصف ابتسامة ولم تعطه يدها . فكرر :

ـ إلى اللقاء .

وحين استمرت بالابتسام دون ان تأخذ اليد التي قدمها ، اضاف :

ـ ألا تريدين ان تعطيني يدك ؟

ورأى ابتسامة المرأة الشابة تختفي، ونظرتها تقسو . ومدت يدها بدورها، ولكنها لم تتح له الوقت ليشد عليها : فقــد امسكت بانطوان بقوة وجذبته بحركة فجائية إلى الدهليز وأغلقت الباب وراءه . ووجدا نفسيهما واقفين الواحد امام الآخر . لم تكن تبتسم ، ومع ذلك فلم تدني شفتيها : ورأى لمعان اسنانها . وغمرته رائحة شعرها . وفكر بالنهد العاري ، وبالساق المحرق . فقرب وجهه بخشونة ، وغمس نظره في عيني راشيل المتسعتين القريبتين من عينيه ، فلم تتراجع؛ وما كاد يشعر بانطواء القامة التي احاطها بذراعيه حتى كانت هي التي ألقت فمها على شفتي انطوان . ثم تخلصت بجهد ، وخفضت رأسها وتمتمت وهي تبتسم من جديد :

ـ ليالٍ كهذه تثير الاعصاب .

وشاهد في الداخل ، من الابواب المفتوحة ، سريراً تحت ستائر من الحرير الوردي ؛ وكانت الشمس المشرقة قد جعلت من هذا المخدع البعيد والقريب جداً كأساً واسعاً من الزهر ، مبللاً بالفجر ..

٤

في ذلك الصباح نفسه ، نحو الساعة الحادية عشرة والنصف . جاءت راشيل تطرق باب شاسل . فصاح صوت حاد : أدخل .

كانت السيدة شاسل قد استعادت مكانها في النافذة المفتوحة في غرفة الطعام، وكان نصفها الأعلى مستقيماً، وقدماها على كرسي صغير، واليدان غير مشغولتين كما هو الامر دائماً . وكانت تقول احياناً : « انا خجلة لعدم قيامي بأي عمــل . ولكن هناك عهد لا يستطيع المرء فيه ان يقتل نفسه في سبيل الآخرين »

وسألت راشيل :

ـ كيف حال الصغيرة ؟

ـ لقد استيقظت ، وشربت ، ثم عادت إلى النوم .

ـ أليس السيد جول هنا ؟
فاجابت مدام شاسل ، هازة كتفيها ، بتعبير مستسلم :
ـ كلا ، لقد ذهب .
فشعرت راشيل بخيبة أمل . وتابعت العجوز بحزن :
ـ لقد كان طوال الصباح كالبعوضة . آه ! نهار الاحد يوم جهنمي لأولئك الذين عندهم رجال . كنت اعتقد ان هذا الحادث سيجعله على شيء من اللياقة معنا . نعم ! إلا انه في هذا الصباح كان يفكر بشيء آخر . والله اعلم بماذا ! كان له ذلك الانف الممتد الذي أعرفه جيداً منذ اكثر من خمسين سنة ، وقد احتملته . لقد ذهب لحضور القداس الكبير قبل الوقت بأكثر من ساعة . اتعتقدين ان هذا طبيعي ؟ ولم يعد حتى الآن . انظري . ـ قالت ذلك حين كانت شفتاها تنقبضان ـ ها هو . حين يتكلم المرء عن المصيبة .. أرجوك يا جول . ـ قالت ذلك وهي تمد عنقها نحو ولدها الذي كان داخلاً على رؤوس أصابعه ـ لا تغلق الباب هكذا . لا لأجل مرضي القلبي فقط ؛ هذه المرة ، لأجل ديديت التي تموت من ذلك .
لم يحاول السيد شاسل ان يبرىء نفسه . وقد بدا ذاهلاً مهموماً . واقترحت راشيل :
ـ تعال وانظر الصغيرة .
وحين اصبحا أمام سرير الطفلة النائمة قالت :
ـ هل تعرف هذ الدكتور تيبو منذ زمن طويل ؟
فقال شاسل : ماذا ؟
واتخذت عينه تعبير ذعر ؛ ولكنه ابتسم بهيئة حاذقة وردد : « ماذا ؟ » على نسق الصدى ، وصمت . ثم ، كشخص عزم على القيام باعتراف ، التفت نحوها وقال :
ـ اسمعي يا آنسة راشيل . لقد كنت كثيرة الطيبة حيال ديديت ، واني اطلب منك خدمة صغيرة . لقد ضُربتُ بكل هذا بحيث لم يكن عقلي معي دون

شك هذا الصباح : من باب اللياقة يجب أن أعود . وحالاً . ولكن من المؤلم جداً المثول مرة اخرى أمام تلك الكوة وحدي! – وقال متوسلاً : – لا تقولي كلا. اني أتعهد لك كرجل فاضل يا آنسة راشيل بأن هذا لن يدوم أكثر من عشر دقائق.

فرضيت وهي تبتسم دون أن تفهم عم يتكلم ، مستعدة للتسلية بغرابات الرجل الساذج، وراغبة أيضاً في اغتنام فرصة وجودها معه لتسأله عن انطوان. ولكن طول الطريق لم يبد انه يسمع اسئلتها ولم يفتح أسنانه .

وكانت الساعة قددقت الظهر منذ وقت طويل حين وصلا إلى مخفر الشرطة. وكان المفوض قد ذهب . وبدا السيد شاسل والهاً بحيث أن المستخدم اغتاظ بلا داعٍ وقال :

– ما دمت أنا هنا فكأن المفوض موجود . ماذا تريد :

فألقى عليه السيد شاسل نظرة خائفة ، ولم يجرؤ على الانسحاب وبدأ الايضاحات :

– هذا لانني فكرت بكل ذلك . لدي أشياء أريد اضافتها إلى تصريحي .

– أي تصريح ؟

– لقد أتيت هذا الصباح ، وتحدثت من تلك الكوة تحت .

– اسمك ؟ أنا ذاهب للبحث عن الملف .

واقتربت راشيل قلقة . وعاد المستخدم على الأثر ، وبيده ورقة ، وتفحص الرجل من القدمين إلى الرأس :

– شاسل ؟ جول – اوغست ؟ أهذا أنت ؟ ما الأمر ؟

– حسناً. اني أخشى ان يكون السيد المفوض لم يفهم جيداً أين وجدت النقود.

فقال الآخر متطلعاً بالورقة : شارع ريفولي .

فابتسم السيد شاسل كأنه ربح رهاناً :

– أرأيت ! كلا ، ليس الأمر كذلك تماماً . لقد عدت من هناك . وفي مكان الحادث تذكرت تفاصيل يمكن ان يكون تسجيلها مفيداً ، لكي أكون رجلاً فاضلاً . – وسعل في يده وتابع : – وبالاجمال ، لا أجرؤ على التأكيد ان ذلك

كان في الشارع. بل بالاحرى كان في التويلري . نعم . كنت في الحديقة، أتفهم؟ وكنت أيضاً جالساً على مقعد حجري هو الثاني بعد كوخ الصحف ذهاباً من الكونكورد إلى اللوفر . كنت هنال ، جالساً ومعي عصاي . وستكتشف بعد قليل لماذا ألحّ على هذه النقطة . رأيت سيداً وزوجته يمران أمامي ، وولداً يتبعهما من الوراء . كانا يتحدثان . حتى انني فكرت : « هذان اثنان عرفا أن يكوّنا عائلة ، وولداً . الخ .. » ها أنت ترى اني أقول كل شيء لك . عندئذ سقط الولد في اللحظة التي مر فيها أمام مقعدي. وصرخ . ولم تكن سرعة الزلل من عادتي ، فلم أتحرك . وأسرعت الام . وعندئذ ، أمامي ، على قدمي تقريباً – ليست غلطتي أليس كذلك ؟ – ها هي تركع بقرب الولد . ولكي تمسح له وجهه سحبت من كيس صغير للسيدات كان في يدها منديلاً ، أو لا أدري ماذا ، أما أنا فظللت جالساً . حسناً – وتابع رافعاً بنصره : – وحين ذهبوا . وقد كنت جالساً ألعب بعصاي ، بطرف عصاي في الرمل ، شاهدت النقود فجأة . لقد تذكرت كل ذلك فيما بعد . وكنت دائماً ما يسمونه رجلاً متحسباً . وتستطيع الآنسة أن تقول لك . اثنان وخمسون عاماً ليس فيها ما ألام عليه . وهذا له قيمته . إذن ليس المقصود قول هذا أو ذاك . أما أنا فقد توصلت إلى الظن انه ربما كانت السيدة وكيسها الصغير ضالعين في قصة النقود هذه : وأقولها بنزاهة .

وسألت راشيل :

– الم تستطع الركض وراءهما ..

– كانا بعيدين جداً .

ورفع المستخدم انفه عما يكتبه :

– اتستطيع على الاقل اعطاء اوصافهما ؟

– السيد ، لا ادري . اما المرأة فكانت بملابس داكنة ؛ في الثلاثين من سنها تقريباً . وكان مع الطفل قاطرة . نعم . هنا انا متأكد من هذه النقطة . قاطرة صغيرة . اخيراً اقول صغيرة : اريد ان اقول كبيرة هكذا . وكان يجرها .

اتكتب كل شيء جيداً ؟
ـ كن مطمئناً . هل انتهيت ؟
ـ نعم .
ـ أشكرك .
وكانت راشيل قد بلغت الباب . ولكن السيد شاسل ، بدلاً من ان يتبعها، أسند مرفقيه الى اللوحة وحنى رأسه نحو الكرة، وتمتم وقد اصبح قرمزي اللون:
ـ نقطة اخرى ايضاً . من الممكن انني ارتكبت خطأ خفيفاً هذا الصباح وانا اضع النقود . نعم . ـ وتوقف ليجفف جبهته ـ اعتقد جيداً انني اعدت ورقتين نقديتين . اليس كذلك ؟ ورقتان بخمسماية فرنك ؟ اجل ، اجل ، الآن انا متأكد . انه خطأ من ناحيتي ، أو بالاحرى اهمال . لأن .. ما وجدته .. لم يكن هكذا : كان ورقة واحدة .. وورقة بألف فرنك . اتفهم ؟ ـ وكان يسبح بالعرق ، وجفف جبهته من جديد ـ سجل هذا ما دمت فكرت به ؛ مع ان الأمر يظل هو نفسه .
فأجاب المستخدم :
ـ هذ لا يظل هو نفسه ابداً وأعتقد ان هذا هام ! فالسيد الذي اضاع ورقة بألف فرنك يستطيع ان يأتي الى هنا مئة مرة متتابعة ولن يُعطى قطعتاك بخمسماية . يالها من قصة !
واخذ يقيس السيد شاسل بنظرة مستاءة :
ـ امعك تذكرة هوية ؟
فبحث السيد شاسل في جيوبه : كلا .
فقال الآخر :
ـ هذا لا يكفي ، انا آسف . ولكني لا استطيع ان اتركك تذهب هكذا. سيرافقك شرطي حتى بيتك : وسيشهد بوابك ان الاسماء والمسكن ليست مفترضة مسبقاً .
وبدا السيد شاسل انه غير مبال بشيء . وكان دائماً يجفف عرقه ، ولكن

وجهه كان قد عاد الى طلاقته ، مبتسماً تقريباً . وقال بأدب :

ـ بخدمتك .

وذهبت راشيل وهي منفجرة بالضحك . ورفع السيد شاسل اليها نظراً مليئاً بالكآبة ؛ ثم عزم بعد تفكير على التقدم خطوة نحوها وقال بشيء من التلعثم:

ـ احياناً يا آنسة راشيل يوجد تحت سترة رجل بسيط مجهول قلب اكثر نبلاً ـ نعم اقول اكثر نبلاً ، واريد ان اقول ايضاً اكثر نزاهة ـ مما هو موجود تحت قبعة عالية لهذا او ذاك من ذوي الاعتبار والمثقلين بالشرف ايضاً .

وارتجف اسفل وجهه ، وأسف حالاً على حدته وأضاف ، متطلعاً دون أي خجل ، بالشرطي الذي كان داخلاً :

ـ لا اقول ذلك لأجلك يا آنسة راشيل ولا لأجلك يا سيدي الشرطي .

وتركت راشيل السيد شاسل والشرطي يتفاهمان في المنزل وصعدت إلى بيتها .

كان انطوان ينتظر على سطح الدرج . ولم تفكر انها ستجده هنا ، وحين شاهدته شعرت بسرور شديد جعلها تخفض جفونها لحظة ، ولكن كاد لا يظهر على وجهها . وقال معترفاً :

ـ رننت الجرس ، ورننت . وكنت يائساً .

ونظرا إلى بعضهما البعض بمرح وبابتسامة مشتركة . وسأل وهو منتشٍ لانه رآها كثيرة الاناقة في ذلك الثوب من القماش الفاتح وتحت تلك القبعة المزهوة .

ـ ماذا فعلت هذا الصباح ؟

ـ هذا الصباح ؟ ولكن مضت الساعة الواحدة ولم اتناول غدائي .

ـ ولا أنا أيضاً .

فقرر فجأة :

ـ اتريدين المجيء لتتغدي معي ؟ اتريدين ؟ نعم ؟

فابتسمت وقد استولت عليها تلك الهيئة التي تشبه هيئة ولد جشع لا يعرف ان يخفي رغباته .

ـ قولي نعم .

ـ حسناً ، نعم .

فقال وقد تمدد صدره : آه !

وتابعت وهي تفتح الباب :

ـ الوقت الذي اخبر به مدبرة البيت وارسالها إلى بيتها .

وظل وحيداً ، دقيقة ، على مدخل الدهليز . واستعـــاد الاحساسات التي شعر بها في الصباح حين تقدمت نحوه . وفكر : « كيف اعطتني فمها » . وكان متأثراً بحيث استند بقبضتيه إلى الجدار .

وعادت راشيل وقالت : « هيا » . وأضافت بابتسامة حيوانية تبدو كأنها تنادي اللذة :

ـ انا جائعة .

واقترح بحماقة : اتفضلين الخروج وحدك ، ثم ألحق بك في الشارع ؟

فالتفتت ضاحكة :

ـ انا ؟ انا حرة تماماً ، ولا اختبىء من شيء ابداً .

وسارا في شارع ريفولي. ولاحظ انطوان من جديد سهولةخطواتها الايقاعية التي تظهرها كأنها ترقص منذ ان تنتقل من مكانها . وسأل :

ـ إلى اين نذهب ؟

فأشارت بطرف مظلتها إلى مطعم للحي في زاوية الشارع وقالت :

ـ وإذا دخلنا بكل بساطة إلى هنا ؟ فالوقت متأخر .

لم يكن يوجد أحد في (الانترسول) . وكانت الطاولات الصغيرة مصفوفة على طول نوافذ بشكل نصف دائرة تطل على القناطر ، وتنير القاعة المنخفضة بشكل غير منتظر ، لانها مفتوحة على محاذاة الارض . وكانت الحرارة معتدلة ، والظل ثابت . وجلسا ، الواحد قبالة الآخر ، بنظرات طفلين يريدان اللعب . ولاحظ فجأة :

ـ اني لا أعرف حتى اسمك .

- راشيل غوبفير . ست وعشرون سنة . بيضوية الذقن،متوسطة الانف..
- وكل اسنانها ؟
- سترى .
هتفت بذلك وهي تنقضّ على صحن مقانق .
- احذري . ربما كان بالثوم .
فأجابت : لا يهم . أحب ان أفعل كالرعاع .
غوبفير ".. ان القليل الذي بقي عند انطوان من تربيتهقد ظهر لدى تفكيره انها ربما كانت اسرائيلية : وهذا كاف ليتبّل المغامرة بفليفل الاستقلال والغربة
وصرحت بدون فخر ، كما لو انها أدركت افكار الشاب :
- كان ابي يهودياً .
وجاءت خادمة بأكام بائعة زبـدة تحمل لائحة الطعام . فاقترح انطوان :
- شواء خليط .
واستضاء وجه راشيل بابتسامة غريبة جداً بحيث بدا ظـاهراً انها لا تستطيع ردعها .
- لماذا تضحكين ؟ انها اكلة ممتازة . وفيها كثير من الاشياء الطيبة مشوية معاً ، كالكلى ، ولحم الخنزير المقدد ، والمقانق ، والاضلاع ..
- .. مع الجرجير والتفاح المنفوخ بالطبخ .
وقالت : أعلم ، أريد ذلك بطيبة خاطر .
والبهجة التي توصلت إلى كبحها بدت انها لا تزال تتأجج في نظرتها اللغزية .
- اتشربين ؟
- جعة .
- وانا ايضاً ، باردة .
وكان يتأمّلها بينما كانت تقضم أوراق خرشوف نيئة . وقالت معترفة :
- احب كل ما هو بالخل .
- وانا ايضاً .

كان يريد ان يجعل نفسه شبيهاً لها . وكان يملك نفسه من ان يقاطعها لدى كل كلمة ليهتف : « هذا مثلي ! » وكل ما كانت تقوله ، وما تفعله كان يطابق ما ينتظره منها . وكانت ترتدي تماماً كما كان يتمنى ان ترتدي امرأة . وتحمل في عنقها عقداً من العنبر القديم ، حيث حباته الكبيرة ، شبه الشفافة والمستطيلة تبعث على التفكير بالاثمار ، بعنب مالقة الضخم ، بالخوخ الصغير الاصفر المنتفخ من الشمس . وكان لبشرتها تحت العنبر سطوع حليبي مقلق . وشعر انطوان أمامها انه شبيه بكائن جائع ، لا يتوصل شيء ابداً إلى اشباع جوعه الشديد . وفكر من جديد ، مع تدفق الدم إلى القلب : « كيف اعطتني فمها.. » وكانت هناك ، أمامه ، هي نفسها .. كانت تبتسم .

ووُضع على الطاولة قدحان كبيران من الجعة المزبدة . وكانا يتمتعان بنفس فراغ الصبر لتذوقها . واخذ انطوان يلهو بالشرب مع راشيل في الوقت نفسه دون ان يحول عينيه عنها . وحين شعر بالجرعة القارصة الصابونية تبلل لسانه وتبرده في نفس اللحظة التي اسالت راشيل فيها على لسانها نفس المائع المثلوج ، كان ذلك كما لو ان فميهما امتزجا مرةً اخرى . وظل متخدراً لحظة قبل ان يسمع صوتها . فقد كانت تقول :

ــ .. انهما تعاملانه كخادم لهما .

فملك نفسه وقال :

ــ من هذا ؟ هما ؟

ــ الام والخادمة . (فأدرك ان راشيل تتحدث عن ساشل) . والعجوز لا تدعو ولدها ابداً بغير اسم داديه !

ــ أعترف بأن هذا يليق به .

ــ ما ان يدخل حتى تصفعه . وفي الصباح هو الذي ينظف الوحل عن احذيتهما على سطح الدرج ، وحتى حذاء الصغيرة .

وقال انطوان لاهياً : السيد شاسل ؟

لقد شاهد الرجل الساذج يكتب ما يمليه السيد تيبو ، أو يستقبل مكان

معلمه زميلاً في العلوم الاخلاقية .

ـ وهما متفاهمتان على سلبه ! وتسيران إلى درجة سرقة نقوده من جيبه بحجة تنظيف الظهر بالفرشاة حين يريـــد الخروج . وفي السنة الماضية وقعت العجوز على مبلغ ثلاثة أو اربعة آلاف فرنك على سندات ، مقلدة توقيع ولدها حتى ظُن ان السيد جول سيقع مريضاً .

ـ وماذا فعل ؟

ـ دفع كل شيء طبعاً . في مدى ستة أشهر ، وبمبالغ صغيرة ، ولم يستطع ان يشكو امه .

ـ نحن الذين نراه كل يوم لم نكن نرتاب بشيء من هذا .

ـ ألم تأت ابداً إلى عندهم ؟

ـ ابداً .

ـ ان بيتهم الآن مفروش بأسوأ من فرش الفقراء . ولكن كان يجب رؤية داخليتهم الصغيرة منذ سنتين في هذا المنزل المبلط ذي الخشبيات والخزائن في الجدران لتظن نفسك في عصر فولتير ـ اتعرف ذلك؟ مفروشات مغطاةبصفائح رقيقة ثمينة ، ولوحات للعائلة ، وحتى فضيات قديمة .

ـ وماذا اجرى ؟

ـ كل هذا باعته المرأتان خفية . وذات مساء عاد السيد جول : مكتب من طراز لويس السادس عشر قد ذهب .وفي يوم آخر كان دور المطرزات والفرش، والكراسي الواسعة ذات الوسائد ، والمنبّه ، والتحف الصغيرة . حتى صورة الجد ، وهو شاب جميل باللباس الرسمي مع قلنسوة مثلثة القرون تحت ذراعه وخريطة منشورة امامه .

ـ نبلاء سيف ؟

ـ تقريباً . فقد خدم في اميركا تحت امرة لافاييت .

ولاحظ انها ثرثارة،ولكنها تروي بطريقة لابأس بها والتفاصيل التي اعطتها كانت ذات لون . انها ذكية . وتشغل عقلها، ولها طريقة في الملاحظة والالتقاط

رأى انها ذات قيمة . وقال .

ـ انه لا يشكو في البيت ابداً .

ـ اوه، انا شاهدته في اغلب الاحيان حين كان يلجأ في المساء الى الدرج ليبكي.

فهتف : هذا لا يُصدق .

القى هذا التعجب مع نظرة وابتسامة حيتين بحيث انقطعت عن التفكير بما كانت ترويه ، ولكي لا تفكر الا به . وسأل :

ـ هل هم في حالة بؤس ؟

ـ بالتأكيد كلا ! جميع هذه الاموال جعلت المرأتان منها مالاً مطموراً خبأتاه ، ولا تحرمان نفسيها من شيء ، وأؤكد لك ؛ الا انهما تتشاجران معه حين يشتري لنفسه كرات من الكوم ! آه ! لو قصصت عليك كل ما اعرفه عن هذا البيت ! فقد ارادت الين.. احزر ! ان يتزوجها السيد جول ! لا تضحك ، كان يلزمها القليل : فقد كانت على اتفاق مع العجوز . ومن حسن الحظ انهما تشاجرتا في احد الايام .

ـ وشاسل ! هل كان يريد ذلك ؟

ـ اوه ! كان سينتهي بالقبول بسبب ديديت . انها كل حبه . وحين تريدان الحصول على شيء منه تهددانه بارسال الصغيرة الى السافوى ، الى بلاد ألين ؛ عندئذ يبكي ويعد بكل ما تريدان .

لم يكن يسمع ابداً ما تقوله راشيل : كان يرى تحرك ذلك الفم الذي قبّله : فم مرسوم جيداً، مكتنز في الوسط ، ودقيق في طرفيه كالحزّة ؛ وعند الاستراحة تكاد زاويتا الشفاه لا ترتفعان في نصف ابتسامة معلقة لم تكن ساخرة، بل هادئة ، مرحة .

كان يفكر قليلا جداً بهذا المسكين شاسل ، بحيث صرح بصوت منخفض:

ـ انا رجلٌ سعيد ، كما تعلمين .

ثم احمر وجهه .

وانفجرت ضاحكة . فبعد ان قاست قيمة هذا الرجل جيداً ، البارحة ،

امام طاولة العمليات ، كانت منتشية من هذه الناحية الصبيانية التي اكتشفتها ، والتي كانت تقربه منها . وسألت :

ـ منذ متى ؟

فكذب قليلاً وقال : منذ هذا الصباح .

ومع ذلك فقد كان هذا صحيحاً . وتذكر الشعور الذي احس به وهو خارج من عند راشيل ، مندفعاً في الشارع المشمس . لم يشعر ابداً قبل ذلك انه كان على خير حال كهذه المرة . وتذكر امام الجسر الملكي انه القى نفسه في الازدحام بدم بارد غير عادي ، وانه قال وهو داخل بين العربات : « كم انا واثق من نفسي ، كم انا سيد قواي في هذه اللحظة ! وهناك اناس ينكرون حرية الارادة ! » وقال :

ـ دعيني اخدمك . هذا الفطر المشوي ؟

ـ بكل سرور [1] .

ـ أتتكلمين الانكليزية ؟

ـ بالتأكيد . « لقد رؤيت أشياء أكثر غرابة [2] » .

ـ والايطالية أيضاً ؟ والالمانية ؟

ـ ولكن ليس بصورة جيدة [3] .

ففكر لحظة وقال : هل سافرتِ ؟

فملكت نفسها عن الابتسام : قليلاً .

وبحث عن نظرتها ، فقد بدت له نبرتها كنبرة العرافات ، وتابع :

ـ ماذا كنت أقول ؟

قليلاً ما كان الكلام يهم : فقد شعرا بتبادل لا ينقطع قد حدث بينهما بواسطة

---

١ ـ بالانكليزية في الاصل .

٢ ـ بالايطالية في الاصل .

٣ ـ بالالمانية في الاصل .

نظراتها وابتساماتها ، وبصوتيها ، وبأقل حركة من حركاتها .

وقالت وهي تتفحصه فجأة :

ـ كم انت مختلف عمن رأيته تلك الليلة .

فقال رافعاً يديه اللتين لا تزالان صفراوين من اليود :

ـ اقسم لك انه هو نفسه . مع ذلك لا أستطيع ان امثل دور طبيب كبير حين لا يكون هناك سوى ضلع واحد اجرّد عظامه .

ـ لقد كان لدي الوقت الكافي لأنظر إليك جيداً ، أتعلم ..

ـ وبعد ؟

فصمتت . وتابع :

ـ هل هي المرة الاولى التي تحضرين فيها اجتماعاً من هذا النوع :

فنظرت إليه ولم تجب حالاً ، واخذت تضحك :

ـ أنا ؟

قالت ذلك بنبرة تبدو انها تقول : « لقد رأيت كثيراً غيره» ولكنهاقطعت تفكيرها وقالت :

ـ أتقوم بعمليات كبيرة كهذه في جميع الأيام ؟

ـ أبداً ، اني لا أزاول الجراحة ، أنا طبيب ، اختصاصي بالاطفال .

ـ لماذا لم تكن جراحاً ؟ رجل مثلك ..

ـ يجب ان تؤكدي انني لم أكن أميل إلى الجراحة .

فتأوهت قائلة : كم هذا مؤسف !

وكانت وقفة قصيرة . ان ما قالته أيقظ فيه صدى من الكآبة . وقال بصوت مرتفع :

ـ باه ! طبيب ، جراح .. كثيراً ما تتكون أفكار خاطئة حول الميل . يعتقد المرء دائماً انه اختار . انها الظروف .. (لقد رأت على قسماته معاودة ظهور ذلك القناع الرجولي الذي أغواها جداً البارحة عند سرير الطفلة) . ما فائدة إعادة البحث بشيء قد تم ؟ الطريقة التي يأخذها المرء هي دائماً الفضلى

بشرط ان تسمح بالسير قدماً .

وفكر فجأة بتلك المخلوقة الجميلة الجالسة قبالتـــه ، وفكر بالمركز الذي احتلته في حياته منذ ساعات ، وقال لنفسه بقلق مباغت : « نعم ، ولكن قبل كل شيء ، ان لا يمنعني هذا من العمل والوصول .. » . ولاحظت ذلك الظل الذي مر على جبهته وقالت :

ـ يجب ان تكون عنيداً بشكل مخيف .

فابتسم وقال :

ـ ألا تسخرين مني ؟ لقد اتخذت شعاراً منذ وقت طويل كلمة لاتينية تعني: سأنال ! وقد طبعتها على أوراق رسائلي ، وكتبتها على الورقة الحافظة لكتبي .

ـ وسحب سلسلة ساعته ـ وحفرتها ايضاً على خاتم قديم لا ازال احمله .

واخذت الحلية المعلقة في طرف سلسلته ، وقالت :

ـ انها بديعة .

ـ صحيح ؟ أأعجبتك ؟

ففهمت مراده واعادتها اليه ، قائلة : كلا .

عندئذ انتزع الحلية من السلسلة وقال :

ـ أرجوك .

ـ انت مجنون .

ـ راشيل . ذكرى لـ ..

ـ لماذا ؟

ـ لكل شيء .

فرددت « لكل شيء » دون ان تكف عن التطلع إلى وجهه وهي تضحك ضحكة صريحة .

آه ! كم كانتْ تعجبه في تلك اللحظة ، وكم كان يحب تلك الابتسامة الحـرة كابتسامة الغلام تقريباً ! كانت تختلف كثيراً عن المحترفات اللواتي عرفهن وعن الفتيات والنساء الشابات اللواتي سنحت له الفرصة ان يلتقي بهن في الدنيا أو

في الفنادق أثناء العطل المدرسية ، واللواتي كن يخجلنه دون ان يجتذبنه. وراشيل لم تكن تخجله . كانت على نفس المخطط مثله . وكانت ذات فتنة وثنية ، وقليل من تلك البساطة الموجودة لدى الفتيات اللواتي يحببن مهنتهن ؛ ولكنها تملك ذلك السحر دون ابهام أو إبتذال . لكم تعجبه ! فهو لا يجد فقط فيها رفيقة ً لا مثيل لها . فللمرة الاولى في حياته أخذ يفكر بالحصول على رفيقة ، على صديقة .

وكانت هذه الفكرة تلازمه منذ الصباح. وجهز تنظيماً لحياةٍ جديدة تكون لراشيل حصتها فيها ولكن رضا صاحبة العلاقة وحده كان لا يزال ينقص العقد. وكذلك ، بفراغ صبر طفولي ، كان يحترق ليأخذ يديها ويقول لها : « انت التي كنت انتظرها . اريد ان اقلع عن غراميات الصدفة . ولكني اخشى ما هو غير اكيد . لننظم بقية علاقاتنا . ستكونين عشيقتي . لنرتب انفسنا » . في عدة مناسبات كان يفصح عما يشغل باله ويجازف بكلمة تحاول ان تُلزم المستقبل . ولكنها لم تبد أبداً انها فهمت ؛ وادرك وجود تحفظٍ عندها جعله يتردد في في كشف مخططاته .

وقالت وهي تقضم عنقوداً من الكشمش المثلج صبغ شفتيها بالحمرة القانية .

ــ ألسنا على خير حال هنا ؟

ــ نعم . يوجد في باريس كل شيء ، حتى الريف .

وأضاف مشيراً إلى الغرفة الفارغة .

ــ وليس هناك لقاءات يخشى منها .

ــ أيقلقك ان تُرى معي ؟

ــ اني أقول ذلك لأجلك .

فهزت كتفيها .

ــ لماذا ؟

كانت تسرّ لشعورها كم تشغل باله ؛ ولم تتعجل لتستوضح أكثر من ذلك . إلا انه كان يستجوبها بنظره وبكثير من القلق الخفي ، بحيث انتهت إلى القول :

ــ اكرر لك انه ليس علي ان اقدم حساباً لأحد . لدي ما اعيش منه ،

بتواضع ، وأكون مسرورة . أنا حرة :

فتمدد وجه انطوان المتشنج بسذاجة . وادركت أن هذا يعني : « أنا ملك لك إذا أردتِ » . لو كان ذلك مع أي رجل آخر غيره لتمردت ، ولكنه كان يعجبها ؛ وكانت تشعر أيضاً بكثير من اللذة لشعورها انهـــا مشتهاة أكثر من الانزعاع لرؤيته كم كان مخدوعاً بها .

وجيء بالقهوة . وصمتت ، وأخذت تفكر . وهي نفسها لم تكن دون ان تتفحص احتمال حدوث علاقةما دامت فاجأت نفسها منذ قليل وهيتفكر: « سأجعله يحلقهذه اللحية » . ومع ذلك فهي لم تكن تعرفه . وهذا الميل الذي تشعر به اليوم نحوه كانت قد شعرت به في الماضي نحو آخرين . يجب ألا يغلط ويستمر فيالنظر إليها ، كايفعل في تلك اللحظة ، بكثيرمن الاطمئنانوالشراهة . .

ـ سيكارة ؟

ـ كلا ، معي هنا ، اخف من ذلك .

وقدم لها لهب عود ثقاب ؛ وسحبت نفساً غلفها دخانه .

ـ شكراً .

من المؤكد ان من المهم تجنب سوء التفاهم منذ البدء . وكانت تستطيع السماح لنفسها بالصراحة حيث تشعر انها لا تتعرض لأي خطر . وقدمت فنجانها قليلا ، ووضعت مرفقيها على السماط وذقنهاعلى اصابعها المشتبكة . وجفونها المغضنة من الدخان كانت تغطي نظرها تغطية كاملة تقريباً . وقالت :

ـ اقول اني حرة ، ولم اقل انني بتناول اليد . افهمت ؟

فاستعاد هيئته المشؤومة . وتابعت :

ـ اعترف لك ان الحياة عجنتني جدياً . وحريتي لم تكن دائماً معي . منذ سنتين لم اكن املكها . واليوم املكها ، وأتمسك بها . (كانت تعتقد نفسها صادقة) . انيياتمسك بها بنوع اني لا ارضى بأن اتخلى عنها مقابل اي شيء في العالم . افهمت ؟

ـ نعم .

وساد صمت . كان يتفحصها . وكانت تبتسم قليلا دون ان تنظر اليه مديرة ملعقتها في فنجانها .

ـ ومع ذلك فاني اقول لك ببساطة بان ليس لدي شيء مما يلزم لأكون صديقة مخلصة ، وعشيقة مرتاحة. احب ان اتخلى عن كل نزواتي. كلها . ولأجل ذلك يجب ان اكون حرة . اريد ان ابقى حرة . افهمت ؟

وجرعت قهوتها متمهلة ، بجرعات صغيرة ، وهي تحترق .

واصاب انطوان دقيقة يأس . فقد انهار كل شيء . ومع ذلك فهي لا تزال هنا ، امامه ؛ ولم يضع شيء . لم يكن يعرف ان يقلع عما يريده بشدة ؛ ولم يكن الاخفاق من عادته . وعلى كل فقد كانت الوضعية صريحة ؛ وهذا افضل من التمويه ؛ انك تستطيع العمل اذا كانت معلوماتك متوفرة . وفكرة رفضها مشاريعه في المشاركة لم تبد ممكنة له ولا لحظة . لقد كان هكذا : واثق دائماً من بلوغ الهدف .

اما ما كان يلزمه فهو ان يفهمها بصورة افضل ، ويمزق ذلك القناع الذي لا يزال يحيط بها . وتمتم بنبرة استفهامية بحتة ؟

ـ منذ سنتين لم تكوني حرة . فهل انت حقيقة حرة الى الابد ؟

فتأملته راشيل كما تتأمل ولداً . ثم تحولت نظرتها الى سخرية . وبدت انها تقول : « اريد ان اجيبك ولكن لأني اريد ذلك » . وقالت موضحة :

ـ الرجل الذي كنت اعيش معه كان مقيماً في السودان المصري . ولم يظهر ابداً في فرنسا .

وأنهت عبارتها بضحكة صغيرة صامتة ، وخبأت نظرها ثم قطعت حديثها ونهضت قائلة : لنذهب .

وفي الخارج استعادت طريق شارع الجزائر . وكان انطوان يرافقها صامتاً ؛ وكان يتساءل عما يفعل ؛ ولم يكن يستطيع ان يقرر تركها .

وجاءت راشيل لمساعدته حين وصلا امام الباب ، واقترحت :

ـ اتصعد لرؤية ديديت ؟

ثم اضافت دون ان تحرك ساكناً :
ـ ولكنني اقول هذا . فهل انت مشغول في الخارج ؟
وبالفعل ، فان انطوان كان قد وعـــد بالعودة الى مريضه الصغير في باسي، وكان عليه ايضاً ان يعيد قراءة مسودة تقرير أوصلها رئيسه اليه هذا الصباح الى المستشفى ، متوسلاً اليه ان يتحقق من الاسانيد . ويريد على الخصوص الذهاب لتناول العشاء في ميزون ـ لافيت حيث كانوا ينتظرونه ، وحيث كان عازماً عزماً اكيداً على ان لا يصل متأخراً وذلك ليتحدث قليلاً مع جاك . ولكن لم يبق شيء من كل هذا منذ اللحظة التي توقع فيها امكان اتباع راشيل . وقـــال مؤكداً ، ومنتحياً ليدعها تمر :
ـ انا حر طول النهار .
لم تكد تلامسه فكرة العمل الذي تخلى عنه ، ولا اي اضطراب في الطريقة التي يتصرف بموجبها . لا يهم . (كان تقريباً على وشك ان يفكر : احسن) .
وصعدا الدرج دون ان يقولا كلمة .
ووصلت الى بيتها ، فوضعت مفتاحها في القفل والتفتت . كانت الرغبة تتفجر في وجهها: رغبة دون حيل او تستر،ورغبة طليقة ، مسرورة،لا تقاوم.

٥

منذ ان عاد جاك راكضاً من عند باكميل علم من حارسة المنزل ان هناك من جاء يبحث عن السيد انطوان بسبب حادث، فتبدد رعبه الوهمي دفعة واحدة: ولكنه ظل مغتماً لظنه ان تمني ملابس الحداد يمكن ان يكفي لإحداث موت اخيه . واختفاء زجاجة اليود التي كان بحاجة اليها لأجل بثوره زاد من هياج اعصابه ، فخلع ملابسه في هذه الحالة من الحقد غير الواضح الذي كان معتاداً عليه والذي كان مؤلماً بالنسبة اليه لأنه كان خجلاً بسببه . وظل طويلاً دون ان ينام . ان نجاحه لم يأته بأي سرور .
وفي صباح الغد التقى انطوان بجاك تحت الباب الكبير ، في اللحظة التي عزم

فيها على الذهاب الى ميزون ـ لافيت دون ان يشاهد احدهما الآخر . وببضع كلمات اخبره انطوان بما حدث مساء البارحة ؛ ولكنه لم ينبس بكلمة عن راشيل . وكانت عينه متوقدة وعلى وجهه الشاحب تعبير حربي عزاه اخوه الى صعوبات العملية .

كانت الاجراس تقرع بشدة حين وضع جاك رجله خارج محطة ميزون ـ لافيت . ولم يكن هناك شيء يتعجله ؛ فلا السيد تيبو ولا المدموازيل دي ويز ولا جيزيل يفوتهم القداس الكبير : اذن كان لدى جاك وقت ليقوم بدورة قبل العودة الى الدارة . وكانت ظلال الحديقة الفاترة تدعو الى التجول الكسول . وكانت الجادات مقفرة فجلس على مقعد . ولم يكن يسمع سوى صوت دبيب الحشرات في العشب والطيران المباغت للعصافير الجواثم التي كانت تترك الشجرة واحداً اثر واحد فوقه . وظل جامداً ، وعلى شفتيه ابتسامة ، غير مفكر بشيء معين ، سعيداً لوجوده هنا .

ان املاك ميزون القديمة المحاذية لغابة سان جرمان دي لاي كان قد اشتراها، في عهد عودة الملكية ، لافيت الذي وضع مساحة الحديقة البالغة خمسماية هكتار قيد التقسيم لكي لا يحتفظ بسوى القصر ، ولكن الرجل المالي اتخذ احتياطات لكي لا تسبب هذه التجزئة اي اذى للمناظر الرائعة المرتبة حول مسكنه ولكي يصبح استئصال الغابات لا غنى عنه . اذن فقد بقي ميزون بفضله حديقة واسعة سيادية حيث ممرات اشجار الزيزفون البالغ عمرها مئتا سنة تؤمن الاتصال بمستعمرة من الاملاك الصغيرة ، دون جدران فاصلة ، وغير منظورة تقريباً من خلال الخضرة .

وكانت دارة السيد تيبو قائمة في الشمال الشرقي من القصر ، على ساحة صغيرة خضراء ، محاطة بحواجز بيضاء ابدية الوجود في ظلال الاشجار الكبيرة ، وفي وسطها حوض مستدير بين اجزاء متناسقة من شجر البقس .

وسار جاك بخطوات متمهلة نحو هذه الساحة . ومن بعيد، ومنذ ان استطاع

مشاهدة البيت ، ميز ثوباً ابيض متكئاً على حاجز المدخل : كانت جيزيل تترقب . وكانت ملتفتة نحو ممر المحطة فلم تره آتياً . عندئذ اخذ يركض مدفوعاً باندفاعة فرحة . وشاهدته فلوحت بذراعها، ووضعت يديها حالاً على فمـــها كحامل الصوت وسألت :

ـ هل ُقبلت ؟

ومع انها بلغت السادسة عشرة فلم تكن تجرؤ على الخروج من الحديقة بدون اذن المدموازيل .

ولم يجب لينكد عليها . ولكنها قرأت الخبر السار في عينيه واخذت تقفز في الساحة كطفلة . ثم اندفعت الى بين ذراعيه ، فقال بدافع العادة :

ـ هيا ، هيا ، ايتها المجنونة !

فتخلصت منه ضاحكة لترتمي عليه منجديد وهي ترتعش.ورأى ابتسامتها المتألقة ، وعينيها اللامعتين من الدموع : فتأثر شاكراً ، وابقى الفتاة الصغيرة هنيهة على صدره .

وضحكت وخفضت صوتها :

ـ لقد اخترعت قصة لأجبر عمتي على المجيء معي الى قداس غير صارخ ؛ وكنت افكر انك سوف تصل في الساعة العاشرة .اماوالدك فلم يعد بعد.تعال.

قالت ذلك وهي تجره نحو الدارة .

وظهرت المدموازيل الصغيرة في داخل الدهليز : حدباء قليلاً الآن . وكانت تتقدم بخطى متعجلة وقد جعلها التأثر تهز رأسها . وتوقفت على طرف الدرج . وما ان اصبح جاك على موازاتها حتى مدت نحوه ذراعيها اللذين يشبهان ذراعي دمية خشبية تحرك بالخيوط ؛ وكادت تفقد توازنها لتقبله . وهمهمت كأنها تمضغ شيئاً دون انقطاع :

ـ أُقبلت !؟هل ُقبلت ؟

فقال بفرح :

ـ آخ . احذري ، هناك دمل يؤلمني جداً .

ـ دو : يا للرب الرحيم !

لما كان هذا الألم في رأيها اهم من امتحانات دار المعلمين فانها اقلعت عــن سؤال جاك عن نجاحه لتضطره الى غسل بالماء المغلي والى ضمادات ملينة .

وتمت عملية الضماد في غرفة المدموزيل حين رن جرس الحاجز : لقد عاد السيد تيبو .

وصاحت جيزيل وهي منحنية على النافذة .

ـ لقد نجح جاك .

بينما كان جاك ينزل لملاقاة والده .

ـ آه ! أهذا انت ! اية درجة ؟

سأل السيد تيبو وقد لون الوجه الشاحب سرور جلي للحظة .

ـ الثالث .

وبدا استحسان السيد تيبو اكثر ظهوراً . لم يرفع جفنيه ولكن عضلات الانف اهتزت . وسقطت النظارة على طول الخيط ، ومد يده وهو يدمدم ، ممسكاً يد جاك بين يديه .

ـ درجة لابأس بها .

وتردد لحظة ، واتخذ هيئة قاتمة وتمتم : « يا له من حر ! . » ثم جذب ولده اليه وقبله . وخفق قلب جاك . كان يريد ان ينظر الى والده . وكان السيد تيبو قد التفت ، واسرع الخطى وهو يصعد الدرجات . وبلغ مكتبه ، وألقى كتاب الصلاة على الطاولة، ومشى بضع خطوات وسحب منديله، وجفف وجهه ببطء .

كان طعام الافطار جاهزاً .

وكانت جيزيل قد زينت مكان جاك بباقة من الخطمية ، أكسبت المائــدة العائلية هيئة عيد . ولم تكن تستطيــع الامتنــــاع عن الضحك ما دام في قلبها فرح . كانت حياتها صارمة كفتاة بين العجوزين؛ وكان فيها من الحياة ما يكفي لكي لا تتعذب : الا يكون المرء سعيداً وهو ينتظر السعادة ؟

ودخل السيد تيبـــو وهو يفرك يديه ، وقال بعد ان نشر منشفته ووضع قبضتيه على ناحيتي لوازم المائدة :

ـ حسناً . المقصود الآن الا نقف هنا . نحن لسنا بلهاء . اذا دخلت ثالثاً فلماذا لا تخرج الأول اذا درست ؟ ـ وفتح عيناً ، ومسد عثنونه بهيئة ماكرة ـ الا يجب دائماً ان يكون هناك اول في الفوج ؟

واجاب جاك على ابتسامة والده بابتسامة مراوغة . لقد اعتاد التظاهر اثناء هذه الوجبات العائلية بأن ليس عليه ان يكبح جماح نفسه : في بعض الايام كان يلوم نفسه على هذه العادة كخطأ يصيب جدارته . وتابع السيد تيبو :

ـ ان تخرج الاول من مدرسة كبيرة ، بامكانك ان تسأل اخاك . ان هذا يرافقك طول الحياة : ففي كل مكان توجد فيه تكون موضع اعتبار بشكل مؤكد . هل اخوك بصحة جيدة ؟

ـ يجب ان يأتي بعد الغداء .

ولم يخطر ببال جاك ان يقص على والده ان هنـــاك حادثاً في محيط السيد شاسل . فالجميع يصمتون حول السيد تيبو باتفاق مشترك . ليس هناك من يقترف ذنب الغفلة ليخبره بأي شيء مهما كان لأن من المستحيل معرفـــة النتيجة التي يستخرجها الرجل الكبير ، القوي ، العملي من اقل خـــبر ، ولا بأية مساعٍ ، رسائل او زيارات ، يعتقد ان من حقه التدخل وعرقلة الحوادث .

وسأل المدموازيل ، مع انه يعرف انها لم تفتح ابداً اية صحيفة :

ـ هل رأيت ان صحف الصباح تؤكد اخفاق تعاونيتنا في فيلبو ؟

إلا انها اجابت بعلامة إيجابية ملحوظة ، فضحك السيد تيبو ضحكة صغيرة باردة . ثم صمت . وبدا حتى نهاية الطعام غير مهتم بالحديث . وكان سمعه المتمرد يزيد من عزلته كل يوم . ويحدث له في أغلب الاحيان ان يظل هكذا ، طوال فترة الطعام ، صّامتاً ، مبتلعاً القطع الوافرة التي تتطلبها معدتـــه كمصارع ، منطوياً على نفسه . وفي الواقع كان يجتر قضية صعبة . وجموده الخادع كان كجمود عنكبوت في حالة ترصد . كان ينتظر ان يوفر له ذهاب واياب تفكيره

حلاً لمشكلة إدارية أو اجتماعية. هكذا كان يشتغل دائماً. منفعل وكأنه متحجر، والعينان نصف مطبقتين، والدماغ وحده في حالة يقظة؛ وما من مرة سجل هذا المجتهد الكبير ملاحظات، ولم يكتب رؤوس أقلام لخطاب؛ فقد كان كل شيء يتركب، ويرسخ بالتأكيد، حتى آخر التفاصيل، تحت جمجمته غير المتحركة.

كانت المدموازيل جالسة قبالته منتبهة للخدمة، مصالبةً على السماط يديها الصغيرتين الباقيتين جميلتين، واللتين تصونهما (خفيةً كما تعتقد) بواسطة دهان لتحسين الجلد من حليب الخيار. ولم تكن تتغذى تقريباً. فبعد الطعام يقدم اليها طاسة حليب وقطعة بسكوت كانت بدافع الدلال تقضمها جافة لانها تحتفظ باسنان فأرة. وكانت تجد دائماً ان هناك من يتغذى بشكل مفرط وتراقب صحن ابنة اخيها عن قرب. ولكن في هذا الصباح، وعلى شرف جاك، تنكرت لمبادئها الى درجة انها اقترحت بعد انتهاء الحلويات:

ـ جاكو، اتريد ان تذوق مربياتي الجديدة؟

فتمتم جاك طارفاً بعينه نحو جيزيل:

ـ «مذاق لذيذ، قابلية تامة للهضم».

هذه المزحة القديمة التي تذكرهما بكيس من الملبس وبواحـــدة من افضل ضحكات طفولتهما الجنونية، قد جعلتهما يضحكان كطفلين حتى الدموع.

ولم يسمع السيد تيبوشيئاً ولكنه ضحك بسلامة طوية. وتابعت المدموازيل

ـ عفريت شرير. انظر كيف هي موضوعة بشكل جيد.

على مكانٍ لوضع الاطعمة مغطى بنسيج من الموسلين يهتاج الذباب ضده على غير طائل، كان هناك ما يقارب الخمسين إناء ملأى بياقوت متجمد، تنتظر ان تحاط بحلقات من الورق المبلل بشراب الروم.

وكانت قاعة الطعام تفتح، بواسطة نافذتين، على شرفة مجهـزة بصناديق مزهرة. وعلى طول الستائر كانت الشمس تمد حتى الارض الخشبية اشعتها المبهرة. وحول صحن من الخوخ الاخضر كان زنبور يدوي، والبيت كله يبدو انه يدوي

معه بتأثير فترة الظهر . وقد اضطر جاك فيما بعد ان يتذكر هذه الوليمة كأنها اللحظة الوحيدة التي سبب له فيها قبوله في دار المعلمين عاطفة سرور عابرة .

وجيزيل ، المتحركة السعيدة ، الصموتة بداعي العادة ، كانت تبادله بعض النظرات الخفية المثقلة بمشاركة بالذنب دون داع. وكان مرحها يسير بسرعة صاروخ لدى اقل كلمة من جاك .

ـ اوه ! يا جيز . هذا الفم !

قالت المدموازيل ذلك بصوت مرتجف ، ولم تكن راضية ان يكون لجيزيل فم مشقوق بشكل عرضي ، وشفتان قويتان . ولم تكن تشاركها الرأي بالشعر الاسود . شيء تافه مجعد ، والانف الافطس ، ولا بتلك الصبغة الشقراء ذات الظلال الحارة ، والتي كانت تذكرها ، اكثر مما كانت تتمنى ، بأم جيزيل ، الخلاسية التي تزوجت القومندان دي ويز اثناء اقامته في مدغسقر . وكذلك لم تكون تفوتها الفرصة أبداً لتذكر بأسلاف ابنة اخيها من جهة الاب . وتابعت وهي تبتسم :

ـ حين كنت في مثل سنك ، فان جدتي ، وانت تعرفين الجدة ذات الشال الايكوسي ، لكي تجعل فمي صغيراً ، كانت تجعلني اردد مئة مرة متتابعة . « اعطنا يا صديقي خوختين صغيرتين جداً من خوخ تور » .

وكانت وهي تتكلم تسعى لتتلقف الزنبور في شرك منشفتها الممدودة ، وتضحك في كل لحظة لأنها اخطأته . والعجوز العزيزة لم يكن لديها شيء شرس! فمصائب حياتها لم تفسد شباب ضحكتها اللؤلؤية ، الناقلة للعدوى . وتابعت :

ـ كانت تلك الجدة قد رقصت في تولوز مع الكونت دي فيلال ، الوزير وتكون بائسة في عصرنا هذا لانها لم تكن تحب الافواه الكبيرة ولا الاقدام الكبيرة.

كانت المدموازيل فخورة بفمها وقدميها التي صنعت كأفواه واقدام المولودين حديثاً ، وهي تنتعل دائماً خفاً من القماش ، مربع الطرف ، لكي يقي اصابع رجليها من كل تشويه .

في الساعة الثالثة فرغ البيت بسبب صلاة العصر . وظل جاك وحده ،

فصعد إلى غرفته .

وكانت غرفته في الطابق الثاني قريبة من السقف ، ولكنها واسعة ، معتدلة البرودة ، مغطاة بورق رسمت عليه زهور : كان الافق فيها محدودا ، ولكن من قمة شجرتي كستناء كانت اوراقها ذات الريش تداعب النظر .

وعلى الطاولة يوجد معاجم ، وبحث في علم اللغة : فألقى الجميع في اسفل خزانة وعاد يجلس إلى مكتبه . وتساءل فجأة :

ـ هل انا ولد ام رجل؟ ان دانيال.. شيء آخر. اما انا، فاني.. ماذا اكون؟

وشعر بكونه عالماً ؛ عالم مأهول بالمتناقضات ، وخليط ، من الثروات . وكان يبتسم لاتساعه الخاص ، وعينه شاردة على تلك المساحة من الأكاجو التي افرغها لاجل .. لاجل ماذا ؟ بالتأكيد فالمشاريع لا تسبب له عيباً . منذ كم من الشهور كان يبعد عن نفسه كل يوم تقريباً محاولة الشروع بشيء ؟ وكان يقول لنفسه: « حين انجح » . والآن فان تلك الحرية التي ظهرت فجأة في متناول يده لم يبد لهاي شيء جديراً بتضحيتها في سبيله : لا «حكاية الشابين» ولا «النيران»، ولا حتى « نجوى مباغتة » !

وترك مكتبه ومشى بضع خطوات ، وتلمس على الرفوف رف الكتب التي كدسها ـ وبعضها منذ السنة الماضية ـ للوقت الذي يصبح فيه حراً ، وبحث ذهنياً عن الكتاب المختار الاول بينها جميعاً ، ومط شفتيه ، وجاء يسقط على سريره فارغ اليدين ، وفكر : « كفى كتباً ، كفى ملاحظات كفى عبارات ! كلمات ! كلمات ! كلمات ! » . ومد ذراعيه نحو ما لا يعرف ، نحو شيء لا يمسك واصبح على وشك البكاء. وتساءل، وقد ضاق صدره«هل استطيع الآن.. ان اعيش ؟ » ومن جديد : «اما ازال ولداً ؟ ام انني رجل ؟» واستفزته مطامح عنيفة ؛ وكان مرهقاً بها ، ولم يجرؤ على القول ماذا ينتظر من القدر .

وردد : « العيش » ؛ « العمل » .

واضاف : « الحب » ، واطبق عينيه .

ونهض بعد ساعة . هل حلم ام نام ؟ كان يحرك رأسه بصعوبة؛ وكان عنقه

متهيجاً . خَوَرٌ ناتج عن قلق دون سبب وقوة مفرطة قيَّد فيه كل ارادة عمل، واظلم كل فكرة . واجال عينيه في غرفته . ايظل راكداً شهرين كاملين هنا في هذا البيت ؟ ومع ذلك فقد كان يشعر بقدر غامض يقيده هنا ، هذه السنة ، وانه في كل مكان في الخارج سوف يلاقي شقاءً اسوأ .

واقترب من النافذة ليتكىء بمرفقه عليها ؛ وطارت كآبته دفعة واحدة : كان ثوب جيزيل يشكل بقعة واضحة خلال اغصان الكستناء المنخفضة . وكان يشعر بقربها انه سيجد مذاقاً في ان يكون شاباً وان يعيش .

وحـــاول ان يفاجئها ولكن اذنها كانت مترصدة ، او ان قراءتها لم تكن تسجن انتباهها ، لأنها التفتت بسرعة ، وقد عرفت خطى جاك وراءها :

ـ أخفقت .

ـ ماذا تقرئين ؟

فرفضت ان تجيب وشدت الكتاب الى صدرهـــا بذراعيها المتصالبتين . واستعدا للنزاع مع ميل مفاجىء للسرور .

ـ واحد ، اثنان ، ثلاثة .

واوقـــع الكنبة ، ورمى الفتاة بين العشب . ولم تترك الكتاب فاضطر الى الصراع فترة كبيرة ضد هذا الجسد المرن الحار ، قبل ان يستطيع الاستيلاء على الكتاب .

ـ « السافوايار الصغير » الجزء الاول . وهل يوجد كثير من هذه الاجزاء ؟

ـ ثلاثة .

ـ تهنئتي . وهل يستهوي ؟

فضحكت وقالت :

ـ لم أصل بعد حتى الى إنهاء الجزء الإول

ـ وايضاً ، لماذا تقرئين اشياء كهذه ؟

ـ لا خيار لي

(« جيز لا تحب القراءة كثيراً » ، هكذا كانت تؤكد المدموازيل بعد عدة محاولات من هذا النوع) . وصرح جاك الذي يرضيه ان ينصح بالتمرد وعدم الطاعة :

ـ انا ، سأعيرك كتباً .

فلم تظهر جيزيل انها سمعت . وقالت متوسلة وهي تنام على العشب :

ـ لا تذهب حالاً . خذ مقعدي او اجلس هنا .

فتمدد الى جانبها . وكانت الشمس تسقط اشعتها الحارة على الدائرة التي ترتفع الى علو خمسين متراً عنها في وسط ارض مركومة رملية . فيها اغراس برتقال في صناديق . ولكن العشب تحت الشجر ظل معتدل البرودة .

ـ اذن ، ها انت حر يا جاك .. حر تماماً .

واتخذت هيئة طلقة ليس فيها شيء طبيعي لتسأل :

ـ ماذا ستفعل ؟

وظلت ملتفتة نحوه وشفتاها مفتوحتان قليلاً .

ـ كيف ؟

ـ نعم . الى اين ستذهب الآن . وانت حر لمدة شهرين ؟

ـ لا الى اي مكان .

فقالت رافعة نحوه عيني كلب جيد ، مستديرتين لامعتين :

ـ ماذا ؟ انظل معنا قليلا .

ـ نعم . وفي العاشر من الشهر سأذهب الى التورين لحضور زواج صديق

ـ وبعد ؟

ـ لا ادري . ـ وادار رأسه ـ افكر ان أبقى في ميزون كل العطلة .

فتمتمت منحنية لتلتقط نظرة جاك : اصحيح ؟

وابتسم سعيداً لأنه سبب لها كثيراً من السرور ولم يكن يشعر بكثير من الخوف المبهم لأمله ان يعيش شهرين بالقرب من هذا الكائن الساذج الرقيق الذي يحبه كأخت : افضل من اخت . لم يكن يفكر ان مجيئه سيؤلق الى هـــذه الدرجة حياة هذه الطفلة ، هو الذي يبدو ان وجوده ليس مرغوباً من احد ؛ وعرف لها كثيراً من الفضل لهذا الاكتشاف بحيث اخذ يدها المتروكة على العشب وداعبها .

ـ ان بشرتك ناعمة يا جيز ـ اتستعملين مرهم الخيار انت أيضاً ؟

فضحكت واقتربت منه بزحلقة جعلت جاك يلاحظ مقدار مرونتها . كان لديها الشهوانية الطبيعيةالفرحة لحيوان صغير ، وضحكتها الخارجة من حنجرتها، حين لا تبعث على التفكير بضحكة ولد مجنونة ، كانت تشبه هديــلا غرامياً . ولكن روحها كعذراء كانت تسكن مرتاحة في هذا الجسد السمين ، رغم الألف رغبة التي كانت تختلج فيها دون ان ترتاب بطبيعتها . وتابعت مكشرة :

ـ ما زالت عمتي لا تريد ان العب التنس هــذه السنة . وانت ، اتذهب إلى النادي ؟

ـ بالتأكيد كلا .

ـ هل ستقوم بنزهات على الدراجة ؟

ـ هذا ممكن .

فهتفت : « يا لها من سعادة ! .. » وكان نظرها يبدو دائمـاً انه يشاهد شيئاً مذهلا .

ـ انت تعلم ان عمتي وعدتني بانها ستدعني اخرج معك . اتريد ؟

فتفحص لحظة حدقتيها الداكنتين اللامعتين وقال :

ـ لك عينان جميلتان يا جيز .

وظن انه لاحظ اضطراباً فجائياً زاد من دكنتها. وادارت رأسها مبتسمة. ان ذلك الشيء المرح ، الساخر الذي يدهش فيها قبـل كل شيء لم يكن يظهر فقط بواسطة بريق النظرة ، ولا بلعب الغمازتين المتحركتين اللتين ينحفر ظلها دائماً في زاوية الشفتين ، ولكنه كان يظهر حتى في استدارة الوجنتين ، في طرف الانف المستدير ، في بروز الذقن المستدير الصغير وعلى كل وجهها اللحيم الذي يتنفس الصحة والبشاشة .

وبما انه لم يجب على ما قالته فقد انتابها الخوف وقالت :

ـ اتريد ؟ قل .

ـ ماذا اذن ؟

ـ تصحبني الى الغاب ، او الى مارلي كما في الصيف الماضي .

وكانت مسرورة جـــداً لرؤيته يبلسم علامة القبول ، بحيث التفتت نحوه وقبلته . ثم بقيا متمددين جنباً إلى جنب حتى الظهر ، ونظرهمـــا يجوس اعماق الاشجار الكثيرة الغصون .

وكان يُسمع صوت سقوط نوفرة الماء ، ونقيق الضفادع حول حوض الساحة وبين فترة واخرى اصوات المتنزهين على محاذاة سور الحديقة . وكانت رائحة الباتونيا *Petunia* التي شوت الشمس طول النهار كؤوسها الملطخة بالقار ، تنمتق بتثاقل من أصص زهور الشرفة وتحوم في الهواء الحار .

ـ ما اغربك يا جاك ! انت تفكر دائماً ! بماذا تستطيع ان تفكر ؟

ونهض متكئاً على مرفق ، ونظر الى جيز ، ورأى شفتيها المفتوحتين قليلاً ، رطبتين مندهشتين .

ـ افكر بأن لك اسناناً جميلة .

فلم يحمر وجهها ولكنها هزت كتفيها ، وقالت بنبرة ولد :

ـ كلا ، اني اتكلم جدّياً .

فأخذ يضحك . وجاءت حشرة طنانة منتفخة بالضـــوء الأصهب تطوف حولها ، واصطدمت بوجه جاك كخصلة صوف ، ثم استهدفت الارض ، ودخلت في ثقب بين الاعشاب محدثة ً ضجة كصوت الدرّاسة *Batteuse* .

ـ وأفكر ايضاً ان هذه الحشرة الطنانة تشبهك يا جيز .

ـ انا ؟

ـ نعم .

ـ لماذا ؟

فقال وقد عاد الى التمدد على ظهره من جديد :

ـ لا ادري . انها مستديرة وسوداء مثلك . حتى طنينها يشبه قليلاً الضجة التي تحدثينها حين تضحكين .

هذه الملاحظة المعبّر عنها بنـــبرة رصينة بدت انها أغرقت جيزيل

بتفكير عميق .

وصمت الاثنان . وعلى المرج الملون باللون الأسمر الذهبي كانت الظلال تمتد منحرفة . وجيزيل ، التي كانت الشمس تبلغ وجهها ، لم تستطع مرة اخرى ان تمنع نفسها من الضحك ، وقد دغدغتها الشذرات الذهبية التي كانت تلعب على خديها وتزعج عينيها من خلال الاهداب .

حين اعلن جرس الحاجز وصول انطوان وشاهد جاك اخاه في طرف المشى. انتصب بعزم كأنه فكر اولاً بما سوف يعمله ، وركض اليه :

ـ اتعود هذا المساء ؟

ـ نعم الساعة العاشرة والدقيقة العشرين .

ولم تكن امائر التعب على قسمات انطوان هي التي استلفتت انتباه جاك مرة اخرى اكثر من تألق هذه القسمات بشكل يكسبه مظهراً غير اعتيادي ، شبه محارب . وخفض صوته قائلاً :

ـ الا تريد ان تأتي معي بعد الطعام إلى بيت مدام دي فونتانان ؟

وشعر ان هذا الاخ يتردد ، فكف عن النظر إليه وأضاف بسرعة :

ـ يجب ان اقوم بزيارتها ، ويزعجني كثيراً ان اذهب إليها بمفردي .

ـ هل سيكون دانيال هناك ؟

كان جاك يعرف تماماً ان لا ، وقال :

ـ بالتأكيد .

وصمتا لرؤيتهما السيد تيبو يظهر في احد نوافذ قاعة الاستقبال وفي يده صحيفة منشورة ، وصاح بأنطوان :

ـ آه ! ها أنت اتيت . انا مسرور لاستطاعتك المجيء ـ كان يكلمه دائماً بمراعاة ـ إبق خارجاً . سآتي إليك .

وهمس جاك :

ـ إذن متفقان ؟ سنعتذر بنزهة بعد الطعام .

لم يكن السيد تيبو قد عاد عن المنع الذي ابلغه في السابق إلى جاك بأن لا يعقد اقل علاقة مع آل فونتانان ، وبداعي الحيطة ، فان الاسم الملعون لم يلفظ ابداً امامه . هل كان يجهل ان اوامره قد خرقت منذ وقت طويل ؟ ما من احد يستطيع التأكيد . كان الصلف الابوي اعمى عنده بحيث لم تخطـــر بباله ابداً فكرة عصيانه .

وقال السيد تيبو وهو يهبط درجات السلـّم بخطى ثقيلة :

ــ حسناً ، لقد نجح ! وها نحن اخيراً نشعر بالاطمئنان حيال المستقبل . ــ وأضاف : ــ لنقم بدورة في المرج قبل الطعام . ــ ولكي يوضح هذه القضية غير المألوفة صرح قائلاً : ــ اريد ان اكلمكما ، كلا كما . ولكن أولاً ــ ووجه السؤال إلى انطوان : ــ هل قرأت صحف المساء ؟ ما يقال عن افلاس فيلبو ؟ الم ترَ ذلك ؟

ـ تعاونيتكم العمالية ؟

ـ نعم يا عزيزي . هزيمة مع فضيحة في الأساس . هذا لم يدم طويلاً .

وضحك ضحكة صغيرة جافة تشبه السعال .

وكان انطوان يفكر : « كيف اعطتني فمها » . واستعاد في ذهنه المطعم ، وراشيل جالسة قبالته ، والنور يأتيها من اسفل ، كما في المسرح ، بواسطة النوافذ التي على محاذاة الأرض . « لماذا تلك الضحكة الغريبة ، حـــين اقترحت عليها شواءً خليطاً ؟ » .

وبذل جهداً ليهتم بحديث والده . ومع ذلك فقد كان مندهشاً لأن السيد تيبو قبل هذه « الهزيمة » بسهولة : لأن المحسن كان يشكل قسماً من الجمعية التي جهزت الاشياء الأساسية لصانعي الازرار في فيلبو ، حين ارادوا ، بعد الاضراب الأخير ، ان يؤسسوا تعاونية للانتاج ليثبتوا ان باستطاعتهم الاستغناء عن سلطة أرباب المهنة .

وكان السيد تيبو قد خطب باسهاب آنذاك :

ـ في نظري ، فان هذه ليست نقوداً ذهبت جزافاً في القضيـــة الصالحة . وكان دورنا كاملاً. فقد حملنا على محمل الجد التدابير الباطلة للطبقة العاملة ، وكنا اول من ساعدهم برؤوس اموالنا . النتيجة : الافلاس في اقل من ثمانية عشر شهراً . ويجب الاعتراف في هذا الظرف انه كان بين مندوبي العمال وبيننا وسيط كامل . ولكنك تعرفه جيداً . ــ اضاف ذلك وهو يتوقف وينحني نحو جاك . ــ انه فاييسم الذي كان في كروي في ايامك .

فلم يجب جاك بشيء .

ــ انه يمسك جميع رؤساء الصف بواسطة رسائل يطلب فيها منا هؤلاء الرسل الصالحون ضرائب؛ نعم، رسائل مكتوبة في اسوأ لحظات الاضراب. ما من احد يجرؤ على التحرك . ــ وسعل من جديد سعلة راضية وتابع وقد عاد الى سيره : ــ ولكن ليس حول هذا اريد استشارتك .

كان يتقدم بتثاقل ، وقد ضاق نفسه بسرعة ، جاراً قدميه على الرمل ، والجسم منحن الى الامام ، واليدان وراء الظهر ، والسترة مفتوحة منسدلة . وكان ولداه يحيطان به صامتين . وتذكر جاك عبارة قرأها لا يعرف اين: «حين ألتقي برجلين ، احدهما مسن والآخر شاب ، يسيران جنباً الى جنب دون ان يجدا ما يقولانه ، اعرف انهما اب وابنه » وقال تيبو :

ــ اسمعا . اني احرص على ان آخذ رأيكما في مشروع صفته لأجلكما .

واتخذ صوته نبرة حزن ورنة اكيدة لم تكونا مألوفتين لديه :

ـ سترون يا اولادي حين تبلغون سني كم يسأل المرء نفسه ، رغم كل شيء ، عن مدى ما فعل . وأعلم جيداً ، وهذا ما كان يقوله لي الاب فيكار دائماً ، ان جميع القوى المستعملة في عمل الخير تتسابق الى نفس الهدف ، وتضاف بعضها الى بعض. ولكن اليس من المؤلم التفكير ان كل جهد لحياة فردية يمكن ان يضيع في وحول الجيل ؟ أليس مشروعاً لأب ان يحتفظ اولاده منه بتذكار شخصي على الاقل ؟ ولو لم يكن سوى لقب ؟ ـ وتأوه : ـ وبمـــوجب ضميري كنت افكر بكما اكثر من نفسي. وقد قلت لنفسي ان من الممكن في المستقبل، وانتم اولادي،

الا تجدوا من الملائم ان تختلطوا بكل آل تيبو في فرنسا . الا يوجد وراءنا قرنان من دناءة النسب مبررة بالشكل المطلوب ؟ وهذا شيء ذو قيمة . وفيما يتعلق بنصيبي فأنا مرتاح الضمير لأني أنميت حسب وسائلي هذه التركة المحترمة؛ ولي الحق - وهذه ستكون مكافأتي - ان اتمنى الا يجهل اصلكم ؛ وأرغب ان تحملوا اسمي بكامله لتنقلاه دون تشويه الى اولئك الذين سيولدون من دمي . وقد توقعت المستشارية رغبات مماثلة . اذن فقد ملأت منذ عدة اشهر الشكليات الضرورية لتبديل احوالكم المدنية ؛ وسيكون لدي بعد قليل بعض الاوراق ليوقعها كل منكم للآخر . وعند العودة ، في عيد الميلاد على الاكثر ، سيكون لكم شرعياً الحق ، حسب رأيي بألا تكونوا من اي تيبو كان . تيبو بصورة مختصرة . بل من عائلة اوسكار - تيبو مع خط متوسط بين الكلمتين: « الدكتور انطوان اوسكار - تيبو » . - وجمع يديه وحك الواحدة بالاخرى - هذا ما كان عندي لأقوله لكم. لاتشكراني.ولن نتكلم في ذلك. وهيا لتناول الطعام: فالمدموزيل تشير الينا . - ووضع كالبطاركة ذراعاً على كتف كل من ولديه . - فاذا حدث ، فضلاً عن ذلك ، ان هذا التمييز عاد عليكم ببعض الفائدة في عملكم يكون خيراً يا ولدي . أليس عدلاً ، من ناحية الضمير ، ان رجلاً لم يطلب شيئاً لحياته الزمنية ، جعل اعقابه تستفيد من الاعتبار الذي اكتسبه ؟

كان صوته يرتجف . ولكي لا يلين ترك فجأة الممر الذي كانوا فيه واسرع الخطى وحده ، متعثراً خلال مدر الارض المعشوشبة ، وبلغ الدارة . ولم يذكر انطوان وجاك ابداً انهما رأياه مضطرباً بهذا الشكل . وتمتم انطوان وقد شعر بسرور بالغ :

- هذه اشياء لا تبتكر !

فقال جاك : اسكت .

لقد شعر أن اخاه يلمس له قلبه بيدين قذرتين . وكان من النادر ان يتحدث جاك عن السيد تيبو دون نوع من الاحترام ؛ كان يتجنب ان يقاضيه : ان بصيرته تؤلمه حين تعمل ضد والده وفي اغلب الاحيان دون ان يسعى الى ذلك.

ولكن هذا المساء تأثر بشكل مؤلم مما يرشح من قلق من هذه الحاجة الى الخلود : هو نفسه ، رغم سنيه العشرين ، لم يكن يستطيع التفكير بالموت دون خور .

لماذا جئت بأنطوان الى هنا ؟

هكذا كان جـــاك يتساءل ، بعد ذلك بساعة ، حين كان يتبع مع اخيه الجادة الخضراء المغروسة بصف مزدوج من اشجار الزيزفون القديمة الموصلة من القصر الى الغابة . كانت نقرته تؤلمه : فقد الحـّت المدموازيل ليتفحص انطوان الدمل ، وقد رأى هذا ان من اللازم بضعه رغم احتجاجات المريض الذي كان قليلا مايهتم بالخروج وهو مضمد .

وانطوان، المتعب ، ولكنه ثرثار،لم يستطع ان يفكر إلا براشيل،البارحة ، في مثل هذه الساعة لم يكن قد عرفها بعد، والآن فهي تشغل كل دقيقة في حياته .

كان هوسه يتناقض مع العواطف التي كانت تحث جاك بعد ذلـــك النهار الهادىء، وخصوصاً في هذه اللحظة ، على هذه الطريق، وعلى عتبة تلك الزيارة حيث ايقظ فيه التفكير تأثيراً متغيراً كثير الشبه بالأمل في بعض اللحظات . وكان يسير الى جانب إنطوان ، ويشعر انه مستاء، مرتاب، وكان يشعر في هذا المساء نحو اخيه بميل غريزي لا يمكن تفسيره ولكنه كان يخفيه في نوع من الصمت، مع ان الحديث بينهما كان ودياً اكثر من المعتاد . وفي الواقع كانا يلقيان امامهما كلمات ، وعبارات ، وابتسامات كخصمين يلقيان ملء المجارف من التراب ليشيدا متراساً بين وضعيتين . ولم يكن اي منهما مخدوعاً بهذه المناورة. وخلقت الاخوة فيهما حساسية بحيث لم يكونا يتوصلان الى اخفاء شيء ذي اهمية . وبمجرد رنة صوت بسيطة من انطوان مطرية رائحة الزيزفون المتأخر ـ والتي كانت تذكره خفية بشعر راشيل المعطر ـ دون اعلام جاك بشكل واضح ، كانت مع ذلك تقول له اشياء بشكل اطول من مسارّة . ولم يكن مندهشاً ابداً حين امسك انطوان بذراعه، خاضعاً لمضايقته، وجره بخطوة اكثر سرعة، وأخذ يسرد عليه سهرته الغريبة وكل ما تبعها . ونبرة انطوان ، وضحكته ،

وهيئته كرجل ، وبعض التفاصيل الفجة التي كانت تتناقض مع تحفظه المعتاد كأخ اكبر ، اثارت عند جاك اضطراباً نفسياً جديداً . وكان يظهر الحزم ، ويبتسم ، ويوافق برأسه ، ولكنه كان يتألم . وكان يحقد على اخيه لأنه سبب له هذا العذاب ، ولم يغفر لانطوان هذه المذمة التي اوجدها انطوان نفسه . وكلما جعله الآخر يستشف حالة النشوة التي عاشها منذ اثنتي عشرة ساعة يزداد لجوء جاك الى مقاومة متعالية ويشعر بأن عطشاً الى الطهارة قد نما فيه. وحين كان انطوان يتكلم عن فترة ما بعد الظهر ويسمح لنفسه بقول كلمات « يوم من الحب » كان جاك يشعر برجفة لم يستطع اخفاءها ، وقال متمرداً :

ـ آه ! كلا يا انطوان ، كلا . ان الحب شيء آخر غير هذا .

فابتسم انطوان ، ليس بدون غطرسة ، وأصيب بالدهشة رغم كل شيء ، وصمت.

كان آل فونتانان يملكون في نهاية الحديقة ، على طرف الغاب ، وتجاه سور المقبرة القديمة ، مسكناً قديماً كانت مدام دي فونتانان قد ورثته عن امها . وطريق محاط بالأكاسيا ومطروق قليلاً بحيث يظل دائماً مغطى بالاعشاب المرتفعة ، يربط الجادة بباب الدخول الصغير المثقوب في جدار الجنينة .

وهبط الليل حين اجتازا العتبة . ورن جرس صغير ، وسُمع في الطرف الآخر من الحوش ، وبالقرب من البيت ، حيث عدة نوافذ قد أضيئت ، نباح بوس كلبة جني . وكانوا يقيمون ، بعد الطعام ، في الناحية الاخرى من البيت ، حيث الارض ، وقد ظللتها شجرتا دلب ، تشكل سطحاً مائلاً فوق حفرة الخندق القديم . واضطر الاخوان الى الدوران حول سيارة كانت كتلتها الجامدة تسد الممشى .

وتمتم جاك ، وقد شعر بأسف مفاجيء لمجيئه :

ـ عندهم من يزورهم .

ولكن مدام دي فونتانان كانت تتقدم الى امامها . وهتفت منذ ان

استطاعت معرفتها :

ـ لقد ادركت ذلك !

واسرعت بخطى صغيرة فرحة مفتوحة اليدين، وعلى وجهها ابتسامة مرحبة .

ـ لقد كنا مسرورين جداً هذا الصباح عندما فتحنا برقية دانيال !(لم يحرك جاك ساكناً) ـ وأكملت وهي تنظر الى جاك بهيئة جدية : ـ ولكنني علمت انك نجحت . ان شيئاً ما قال لي ذلك . في ذلك الاحد من حزيران حين اتيت مع دانيال . هذا العزيز دانيال ! يجب ان يكون كثير السرور ، كثير الفخر ! وجني ايضاً كانت مسرورة .

فسأل انطوان :

ـ اذن فدانيال ليس هنا هذا المساء ؟

وكانوا قد وصلوا إلى دائرة المقاعد. وتناهى اليهم رجع حديث حام . فميز جاك حالاً بين الاصوات صوتاً له رنة خاصة، انه رنان ومع ذلك فهو غير جهير: صوت جني . كانت قد بقيت جالسة بالقرب من ابنة خالها نيكول ورجل في الاربعين من عمره تقدم انطوان نحوه بدهشة : لقد كان جراحاً شاباً وزميلاً له في مستشفى نيكر . وشد الاثنان يدي بعضهما البعض بتعاطف .

وهتفت مدام دي فونتانان منتشية :

ـ أتعرفان بعضكما البعض قبلاً ؟

ثم قالت موضحة للدكتور هيكيه :

ـ انطوان وجاك تيبو صديقان كبيران لدانيال . اريد أن يشتركا في الحديث ؟

ثم التفتت نحو انطوان وقالت :

ـ ستسمح لي صغيرتي نيكول ان اعلن لكم خطوبتها . أليس كذلك يا عزيزتي ؟ ان الأمر لا يزال غير رسمي ؛ ولكن انتم ترون : لقد أتت نيكول بخطيبها إلى بيت عمتها ويكفي النظر اليها لمعرفة سرهما .

ولم تكن جني قد أتت إلى أمام الاخوين ؛ وكانت تنتظر ان يصيرا امامها

لتقف ؛ وتبادلت معها مصافحة باردة . وقالت لنيكول قبل أن يجلسوا :
ـ تعالي يا صغيرتي نيكول لأريك حمائمي . عندي منها ثمان .
ـ ... لا تزال ترضع .
قذف جاك ذلك بنبرة تستهدف الوقاحة ولكنها لم تكن سوى مكـدرة وغير لائقة .
وشعر بها حالاً وشد فكيه . ولم تبد جني انها سمعت . وأكملت :
ـ ... بدأت تطير .
فتدخلت مدام دي فونتانان بمهارة لتبقيها :
ـ ولكن الحمائم نامت الآن .
ـ سبب جديد يا امي . في النهار لا يمكن الاقتراب منها . أتأتي معنا يا فليكس ؟
وأسرع الدكتور هيكيه ، الذي كان يتحدث مع انطوان، باللحاق بالفتاتين وقالت مدام دي فونتانان وهي تنحني نحو انطوان وجاك حين ابتعد الخطيبان:
ـ انه زواج صغير رائع . فنيكول المسكينة التي ليس لها اية ثروة ، كان لديها فكرة ثابتة بألا تكون عالة على احد . ومنذ ثلاث سنوات وهي تربح معيشتها كممرضة. وها انتم ترون كيف كوفئت! فقد التقى بها الدكتور هيكيه أمام سرير أحد مرضاه ، ووجدها كثيرة الذكاء ، كثيرة الاخلاص ، وكثيرة الشجاعة أمام الحياة بحيث شغف بها حباً. وهكذا . أليس ذلك شديد الروعة؟
كانت تتذوق بسذاجة رومانتيكية هذا الحادث،حيث لم يكن يوجد سوى عواطف نبيلة وحيث انتصرت الفضيلة ؛ وكان وجهها يتألق بالإيمان . وكانت تتوجه بالكلام مفضلة انطوان ، وتتحدث معه بنبرة ودية تفترض وجود توافق لا يتغير في وجهات النظر بينهما ؛ وكانت تحب جبهته ، ونظرته النافذة ، دون ان تفكر مطلقاً انها تكبره بست عشرة سنة ، وانه كان بالامكان ان يكون لها ولد من سنه . وقد سحرها حين اكد ان فليكس هيكيه كان جراحاً ذا قيمة ورجل مستقبل .

ولم يشترك جاك بالحديث ، وكان يردد بغضب: « لا تزال ترضع ! » وكان كل شيء يثير سخطه منذ وصوله ، حتى هذر مدام دي فونتانان اللطيف . ولم يكن باستطاعته احتمال تهنئتها حتى النهاية ، وقد لفت رأسه ، خجلاً عنها لانها تعلق اهمية على هذا النجاح ـ مع انه اعتنى بارسال برقية اليها بالخبر . ولاحظ: « جني على الاقل احسنت الي بمجاملاتها . فهل تحسب انني اعلى من هذا النجاح ! كلا ، لامبالاة بحتة . تفوقي .. لا تزال ترضع ! ابله ! ومع ذلك فهل تعرف فقط ما يعني تلميذ دار المعلمين ؟ وماذا يهمها مستقبلي ؟ لم تكن تقول لي صباح الخير . وانا .. ولكن ايضاً لماذا تخليت عن هذه الاستحالة ؟ » واحمر وجهه ، وشد على اسنانه من جديد « بقولها لي صباح الخير استمرت في الاصغاء الى ابنة خالها . وعيناها .. لا يدرك كنهها . الوجه كله لا يزال وجه طفلة ؛ ولكن العينان .. » كان الدمل في كل لحظة يذكـّر حافظته ، بواسطة اوجاع شديدة؛ وفضلاً عن ثؤلوله ، كان يتألم أيضاً من ذلك الضماد الذي فرضه الجميع عليه ، المدموازيل ، وجيز نفسها ! وكان ذا مظهر كريه .

وكان انطوان يبتسم ، ويحدث ، دون ان يهتم بجاك . وكان يقول :

ـ ... من وجهة النظر الاخلاقية .

وفكر جاك : « انطوان يتكلم ، وليس هناك شيء إلا له .. » وفجأة ، فان لطف اخيه الاجتماعي ، « ووجهة النظر الاخلاقية » تلك ، خصوصاً بعد الحديث الداعر الذي حدثه به انطوان ، كانا يغيظانه كمداجاة لا تغتفر . آه ! كم كانا مختلفين ، أحدهما عن الآخر ! كان جاك يندفع دفعة واحدة إلى أقصى غاية ولا يرى شيئاً مشتركاً بين أخيه وبينه . نعم ، عاجلاً أم آجلاً سوف ينفصلان ، وهذا شؤم : كانت قوتاهما متعاكستين ، والاثنتان ، منافيتان الواحدة للأخرى ! وعندئذ اجتاحته كآبة مؤلمة حين فكر ان خمس سنوات من التفاهم لم تكفِ لتقيهما من التباغض الوشيك الحدوث ، ولم تمنعهما من أن يصبحا غريبين الواحد عن الآخر ، وربما اعداء ! وكان على وشك النهوض والذهاب متذرعاً بأي عذر . ويهيم على وجهه في الليل ولا يهم أين ، خلال الغاب ! هناك

كائن وحيد في الدنيا يعرف أن يجعله يبتسم : انها جيز . وهو يتخلى بطيبة خاطر عن نجاحه البارحة ليكون في اللحظة نفسها بقربها على المرج ، بالقرب من وجهها ، بالقرب من عينيها ـ عينان لا إبهام فيهما : ـ حين كانت تهتف : « أتريد ؟ قل .. » وتضحك ، بضحكتها التي تشبه هديل اليمامة ! أما جني ، فلا يذكر أبداً انه سمعها تضحك ، وابتسامتها نفسها ذات تعبير خال من السحر ! وقال لنفسه ، محاولاً أن يتمالك : « مابي اذن ؟ » ولكن ذلك الحنين الذي كان له طعم الحقد ، والذي جعله يكره الجميع دفعة واحدة ، أقوال مدام دي فونتانان ، وهوان انطوان ، والناس ، وشبابه العقيم ، وكل شيء ، وجني التي تبدو انها تعيش على هواها بين الاعتدال العالمي ، ذلك الحنين كان أكثر قوة من إرادته .

وسألت مدام دي فونتانان :

ـ ماذا ستفعل بعطلتك يا جاك ؟ عليك ان تجعل دانيال يقرر ترك باريس لبضعة أسابيع : رحلة ثنائية ، يمكن أن تكون مسلية جداً ، ومفيدة جداً . (كانت على شيء من الحزن لعدم رؤيتها بوضوح ارتسام المستقبل غير العادي الذي كانت تتوقعه لولدها ؛ ودون ان تريد تأخره ، كانت تقلق احياناً بسبب الحياة التي يحياها ، كثيرة الحرية ، قليلة الانتظام ـ ولم تكن تجرؤ على القول انها متحللة) .

وحين علمت ان في نية جاك البقاء طوال الصيف في ميزون قالت :

ـ كم انا مسرورة ! آمل ان تجتذب دانيال قليلاً ؛ انه لا يأخذ اجازة ابداً وسينتهي باتلاف صحته .. جني ! ـ اعلنت للفتاة التي عادت مع ضيوفها ـ خبر سار : جاك من جماعتنا طوال الصيف ! وهذا يعد ببضعة ادوار جميلة بكرة المضرب (التنس) كما اتصور .. ان جني حانقة هذه السنة ، فهي تمضي كل فترات الصباح في النادي . يوجد هنا الآن ناد مشهور لكرة المضرب ـ أوضحت ذلك للدكتور هيكيه الجالس بقربها ـ كلها شبيبة فاتنة تكون هناك في الصباح ! ملاعب ممتازة مع مباريات وبطولات .. ـ واعترفت ضاحكة ـ اني لا اسمع

هناك شيئاً ذا اهمية ولكن يبدو انه يستهوي .. ويشكون دائماً من نقص في الشبان ! أأنت دائماً عضو في النادي يا جاك ؟

ـ نعم يا سيدتي .

ـ حسناً .. يجب ان تأتي يا نيكول هذا الصيف مع خطيبك لتمضية اسبوع كامل عندنا . أليس كذلك يا جني ؟ انا واثقة ان الدكتور هيكيه لاعب ماهر ايضاً .

والتفت جاك نحو هيكيه. وكان قنديل الصالون ينير، من الفرجة المفتوحة، الوجه المستطيل الجدّي للجراح الشاب ، ولحيته الكستنائية القصيرة بالقدر الكافي ، وصدغيه اللذين بدءا يصبحان فضيين. يجب ان يكون اكبر من نيكول بعشر سنوات . وكان انعكاس النور اللاعب على زجاج نظارتيه يمنع من ملاحظة نوع نظرته ؛ ولكن هيئته المفكرة كانت ذات جاذبية . وقال جاك لنفسه : «نعم ، انا ولد ، وهذا هو رجل . رجل يمكن ان يُحب . بينما انا » .

وكان انطوان قد نهض ؛ فقد شعر انه تعب ولا يريد ان يفوته القطار . وألقى جاك عليه نظرة حانقة ، هو الذي كان يفكر منذ بضع دقائق أن يذهب متحللاً اي عذر ، ولم يكن يستطيع البت في انهاء هذه السهرة هنا ؛ ومع ذلك يجب أن يرافق أخاه .

واقترب من جني وقال :

ـ مع من تلعبين في النادي هذه السنة ؟

فنظرت إليه وتقلص خط اهدابها الدقيق بشكل خفيف ، وأجابت :

ـ مع من أجدهم .

ـ الاخوات كازان ، وفاكيه ، وعصبة بريغو ؟

ـ طبعاً .

ـ دائماً هم أنفسهم ودائماً روحيون ايضاً .

ـ ماذا تريد ؟ ليس كل الناس ينجحون في امتحان دار المعلمين .

ـ بعد كل هذا ، ربما كان مما لا غنى عنه أن يكون المرء أبله ليلعب جيداً

بكرة المضرب .

ـ هذا ممكن ـ ورفعت رأسها بوقاحة ـ يجب أن تعرف ذلك أفضل من أي انسان ؛ فقد كنت لاعباً ممتازاً في السابق ـ ثم قطعت الحديث والتفتت نحو ابنة خالها : ـ ألم تذهبي بعد يا نيكول الصغيرة ؟

ـ سلي فليكس .

فقال هيكيه وقد لحق بالفتاتين :

ـ ماذا يجب أن تسأل فليكس ؟

وفكر انطوان ، وعينه محدقة بنيكول : « ان لهذه الصغيرة صبغة رائعة . ولكن إذا قورنت براشيل .. » وفجأة انتفخ قلبه .

وقالت مدام دي فونتانان :

ـ إذن ، سنراك يا جاك فيما بعد ؟ أتذهبين للعب غداً يا جني ؟

ـ لا اعرف يا امي . لا اعتقد .

فقالت مدام دي فونتانان ، محاولة اجراء مصالحة :

ـ اخيراً ، اذا لم يكن غداً ، فستلتقون في احد هذه الصباحات .

ورغم اعتراضات انطوان فانها قادت الاخوين حتى باب الحديقة الصغير .

وقالت نيكول منذ ان ابتعد الاخوان تيبو بعض الشيء :

ـ الحقيقة يا عزيزتي انك لم تكوني لطيفة ابداً مع اصدقائك .

فأجابت الفتاة :

ـ اولاً ، هما ليسا باصدقائي .

فقاطع هيكيه :

ـ ان تيبو الذي عملت معه هو شاب يستحق الاعتبار .وهو معروف جداً. اما اخوه فلا ادري .

اضاف ذلك ونظره الاصهب كان ذا بريق ماكر تحت النظارة ، لانه كان قد سمع الحوار القصير بين جاك وجني . وقال :

ـ من النادر قبول ابله لأول مرة في دار المعلمين ، وبين الاوائل ...

فاحمر وجه جني . واسرعت نيكول بالتوسط . لقد عاشت طويلاً بجانب ابنة عمتها لتعرف بعض انحرافات طباع جني ، ذلك الخجل الذي يكافح دون انقطاع ضد الكبرياء ، والذي كان احياناً يتحول الى نزق غريب . ولاحظ بتسامح :

– ان للمسكين دملاً في عنقه . وهذا لا يهيء لترطيب الجو .

فلم تجب جني . وهيكيه لم يلح ؛ والتفت نحو عروسه وقال بنبرة رجل معتاد على ادارة حياته بضبط :

– نيكول يجب ان نستعد .

وانهى ظهور مدام دي فونتانان لهوهم . ورافقت جني ابنة خالها الى الغرفة التي وضعت هذه فيها معطفها ؛ وهناك تمتمت بعد صمت طويل :

– ها ان صيفيتي فسدت تماماً .

وكانت نيكول جالسة امام المرآة ترتب شعرها مع همها الوحيد ان تعجب خطيبها ؛ وكانت تشعر انها جميلة، وتتساءل ماذا كان يقول لعمتها تحت، وتفكر بهذه العودة في سيارة الطبيب الشاب ، خلال الليل الصامت ، ولم تكن تعير اهمية كبيرة لمزاج جني السيء ، ولكنها ابتسمت لرؤية امائر صديقتها المهتاجة وقالت :

– انت طفلة !

لم تر النظرة التي رشقتها بها جني .

وسُمع بوق السيارة ، فالتفتت نيكول بمرح ، مع ذلك المزيج من الرقة والبراءة والغنج الذي كان ذا فتنة كبيرة عندها ، وقفزت نحو ابنة عمتها وارادت ان تحتضنها ، ولكن جني اطلقت صرخة لاارادية وقفزت جانباً . لم تكن تستطيع احتمال لمسة احد ؛ ولم تشأ ان تتعلم الرقص لأن احتكاك ذراع غريب كان يبدو لها جسدياً لا يحتمل . وحين كانت لاتزال فتاة صغيرة ، وفي فترة بعد الظهر ، ديس على كعبها في لوكسمبورغ واصبح من اللازم اعادتها بالعربة . ففضلت صعود الدرج جارة رجلها المصابة على ان تدع البواب يحملها بين ذراعيه

حتى الطابق الذي تسكنه .

وقالت نيكول :

– انت سريعة الغيظ !

ثم قالت ، بنظرة صافية ، مشيرة الى اللحظة التي مرا فيها وحدهما ، قبل الطعام ، في المشى الوردي :

ـ أنا مسرورة لاستطاعتي أن اكلمك يا عزيزتي . هناك أيام أشعر فيها بأن سعادتي تخنقني . أما معك، فكما ترين ، أكون دائماً « حقيقية ». وكا أنا معك أكون في حقيقة نفسي ! اريد يا عزيزتي أن تكوني أنت أيضاً ، عما قريب ..

كانت الحديقة التي بدلت هيئتها الاضواء سحرية ومسرحية . وقد رفع هيكيه سقف السيارةوأخذ يشد على شمعة بحركات منظمة لرجل ماهر. وكانت نيكول تريد الاحتفاظ بمعطفها مطوياً على ركبتيها ؛ ولكن خطيبها أجبرها على ارتدائه . وكان يعاملها كفتاة صغيرة مكلف بحراستها . هل يعامل جميع النساء كالاطفال ؟ إلا أن نيكول كانت تخضع بطيبة خاطر ادهشت جني وأيقظت فيها نوعاً من الحقد على الخطيبين . وكانت تفكر هازّة جبهتها الصغيرة : « كلا، هذه السعادة .. أنا ، كلا ...» .

وتبعت بعينيها طويلاً بين الاشجار الخط المضيء الذي كان يتقدم العربة في الليل ، وهي مستندة إلى جدار الحديقة ، ضامّة الكلبة بين ذراعيها ، وكانت تشعر بكآبة مؤلمة ، بكثير من الضغينة ضد ما لاتعرف، وكثير من الآمال دون هدف، بحيث رفعت رأسها نحو السماء الملأى بالنجوم، وتمنت، خلال بضع ثوان، أن تموت قبل أن تجرب أن تعيش ..

٦

كانت جيزيل تتساءل لماذا أصبحت النهاراتقصيرة منذ بضعة أيام والصيف مجيداً ، ولماذا ، وهي تقوم بزينتها في الصباح بالقرب من النافذة المفتوحة على مصراعيها ، لم تكن تستطيع امتلاك نفسها عن الغناء والابتسام لكل ما كانت

تراه : لمرآتهـا ، للسماء الصافية ، للحديقة ، وللجلـبّان الذي كانت تسقيه على متكأ نافذتها ، ولأغراس الليمون على الشرفة ، والتي كانت تبدو لها موضوعة بشكل كرة كالقنافذ لتدافع عن نفسها بشكل أفضل ضد أشعة الشمس .

ولم يكن السيد تيبو يقيم في ميزون ـ لافيت أكثر من يومين أو ثلاثة دون أن يعود إلى باريس لمدة أربع وعشرين ساعة لأجل أعماله . وأثناء غيابه كان يدور في الدائرة هواء أكثر خفة . وكانت وجبات الطعام كالألعاب : كان جاك وجيز يعاودان ضحكهما الصبياني المجنون الاحمـق . والمدموازيل ، وهي أكثر نشاطاً ، كانت تركض بخطى قصيرة من المكتب إلى خـزانة البياضات ، ومن المطبخ إلى منشر الغسيل ، مدندنة تراتيل بطل طرازها كانت تشبه أدواراً في اغنيات نادو *Nadaud* [١] . وفي تلك الايام ، فان جاك المسترخي ، بعقله المكين الملىء بالمشاريع المتناقضة ، كان مستسلماً دون كتمان لموهبته ، ويقضي فترة ما بعد الظهر في زاوية من الحديقة ، جالساً ، ناهضاً ، كاتباً ملاحظات . وجيزيل هي ايضاً وقد اجتاحتها الرغبة في استعمال وقتها بشكل جيد كانت تجلس على سطح الدرج ، ومن هناك كانت تستطيع مشاهدة ذهاب وإياب جـاك تحت الاشجار ، وهنـــاك انغمست في كتاب « الآمال الكبرى » لديكنز ، حيث المدموازيل ، بناء على إلحاح جاك ، اجازات القراءة كفرصة للتقدم بالانكليزية ، وكانت تبكي بلذة لأنها أدركت منذ البدء ان بيب سوف يتخلى عن بيدي لأجل الآنسة استيل الطاغية الغريبة الاخلاق .

وهناك غياب قصير اضطر جاك إليه في الاسبوع الثاني من آب ، ليحضر في التورين زواج باتنكور حيث لم يستطع أن يرفض أن يكون الشاهد . وهـــذا الغياب كان كافياً ليقطع السحر .

وفي غد عودته الى ميزون ، وقد استيقظ باكراً بعد نوم خامل ، وحـــلق

١ ـ غوستاف نادو : مغني فرنسي ولد في روبيه (١٨٢٠ ـ ١٨٩٣) وقد ظلت بعض أغانيه شعبية كأغنية « الدركيان » .

باعتناء وتأكد من ان صبغته لا تظهر اقل احمرار وانه لم يبق مكان دمله سوى جرح غير منظور ، فان الامل في استعادة تلك الحياة المتحدة بـــدا له خائباً بحيث ترك زينته ليستلقي بالعرض على سريره غاضباً ، وفكر : « والاسابيع تمر ». هل هنا هي العطلة التي كان يأمل بها؟ وفجأة ، وثب إلى الارض وقال لنفسه بنبرة عاقلة كانت تتناقض مع حمى حركاته : « علي ان اقوم ببعض التمارين » . واختار من خزانته قميصاً ذا قبة مفتوحة ، وتأكد من سلامة حذائه ومضربه ، وبعد بضع لحظات ركب دراجته ليكون في النادي بأقصى سرعة .

كان اثنان من الملاعب مشغولين . وكانت جـــني تلعب . ولم تظهر انها لاحظت مجيء جاك الذي لم يسرع بالذهاب لتحيتها . وحدوث بعض التغيير في الفرق جمعها في فرقة واحـــدة ، اولاً كخصمين ، ثم كشريكين . وكانا بنفس القوة .

واستعادا دفعة واحدة النبرة الجلفة لرفقتها الماضية. وكان جاك يهتم كثيراً بجني ، ولكن بطريقة منكدة ، وجارحة ، ساخراً من اخطائها في اللعب ، مظهراً السرور بمـــعارضتها . وكانت جني ترميه بحجره بصوت من الرأس لم يكن طبيعياً لديها . وكان سهلاً عليها تجنب شريك مكدر ، الا انها لم تظهر انها تحاول ابعاده ، بل بالعكس، كانت تصر على ان تكون لها الكلمة الاخيرة. وحين بـــدأ اللاعبون الآخرون بالتفرق لتناول الغداء سألت جاك بنبرة لم يطفأ غضبها :

— اني الاعبك اربع دورات فردية .

وأبدت له حدة ميّالة للحرب بحيث ُغلب اربعة مقابـــل صفر . وجعلها الانتصار سمحة فقالت :

— هذا لا قيمة له ، فانت غير متمرن. وستأخذ بثأرك ذات يوم .

واستعاد صوتها النبرة غير الجهيرة التي كانت معتادة عليها . وقال جـــاك لنفسه : « نحن ولدان » . وكان سعيداً لتقاسمه الضعف معها . وكان هـــذا كبريق امل . واجتاحه الخجل لتفكيره بموقفه حيال جني ، ولكن حين بحث

عن موقف آخر يختاره لم يجد اي موقف . ابداً لـــن يعرف ان يكون طبيعياً حيالها ، ولا يريد ان يكون اكثر حرارة مع اي شخص منه معها .

ودقت ساعة الظهر حين خرجا معاً من النادي، ودراجتاهما بأيديهما، وقالت:

ـ الى اللقاء . سر امامي . اني اشعر بالحر بحيث اخشى ان اصاب بأذى من الآلة .

فلم يجب وتابع سيره بجانبها .

ولم تكن جني تحب أن يفرض نفسه عليها . وشعرت بالملل لعدم استطاعتها التخلص من رفيقها في اللحظة التي كانت تتمناه بها. ولم يكن جاك يحدس بذلك؛ كان يفكر بالعودة إلى اللعب منذ الغد ويبحث عن عبارة تتيح له تعليل هـذه المواظبة غير المتوقعة . وبدأ بارتباك :

ـ الآن وقد عدت من التورين ..

وأقلع عن نبرته الساخرة . (إلا أنها كانت قد لاحظت في السنة الماضية أنه يكف عن التنكيد عليها حين يحدث لها أن يكونا وحيدين) . وقالت ، لكي تقول شيئاً :

أكنت في التورين ؟

ـ نعم . زواج صديق لي . ولكنك تعرفينه : ذاك الذي التقيت بـــه عندكم : باتنكور .

ـ سيمون دي باتنكور .

وبدت انها تجمع بعض الذكريات ، وقالت بنبرة مؤكدة :

ـ لم يكن يعجبني .

ـ عجيب ! ولماذا !

كانت لا تحسن احتمال هذا النوع من الاستجواب ؛ وتابع جاك ، وقد رأى انها لم تجب : ،

ـ انت قاسية جداً . فهو غلام لطيف ـ ولكنه بدل رأيه ـ كلا ، بالحقيقة انت على حق : أنه متعجرف .

فوافقته بإشارة من رأسها وكان بذلك سعيدا . وقالت :
ـ لم أكن أعلم أنك مرتبط بصداقةٍ معه .
فأصلح مبتسماً :
ـ عفواً. أنه هو المرتبط معي. وقد جرى ذلك ذات مساء ونحن عائدان لا اعلم من اين . وكان الوقت متأخراً . وقد تركنا دانيـــال . وعندئذ اتخذني باتنكور مستودعاً لسره دون تحفظ . وسرد عليّ كل حياته ، كمن يودع ثروته عند صاحب مصرف قائلاً له : « اهتم باشغالي ، انا معتمد عليك » .
كانت تصغي اليه بشيء من الفضول ولم تكن تفكر في تلك اللحظة بالتخلص منه . وسألت :
ــ هل يحدث لك في الغالب ان تُتخذ كموضع اسرار ؟
ــ كلا ، لماذا ؟ نعم ، ربما ... ــ وابتسم ــ نعم ، في الحقيقة ، هذا يحدث لي في اغلب الاحيان . ــ واضاف مع شيء من الحذر : ــ أيدهشك هذا؟
وتأثر لسماعها تجيب بلهجة عاقلة :
ــ كلا ، ابداً .
وهبت على وجهيهما ريح حارة حاملة لهاث الحدائق التي كانا يسيران بمحاذاتها، واريج تراب مبلل ، ورائحة خفية لزهور في الشمس ، لقرنفل الهند ، لدوار الشمس . وصمت جاك . وكانت هي التي قالت ثانيةً :
ـ ومن حديث إلى حديث ، زوّجته ؟
ـ اوه ، كلا . بالعكس تماماً . لقد فعلت كل شيء لمنع هذا الزواج الاخرق. أرملة تكبره بأربع عشرة سنة. ولها ولد! وقد اختصم آل باتنكور مع ولدهم. ولكن ليس هناك ما يمكن عمله .
وأضاف ، متذكراً انه استعمل في موضوع صديقه ، كلمة « مجنون » بالمعنى الطقسي : « أن باتنكور مجنون تماماً بهذه المرأة » .
فقالت دون أن تلاحظ قوة التعبير :
ـ أهي جميلة ؟

ففكر طويلاً بحيث عضت على شفتيها واضافت :
— لم اكن افكر بأن القي عليك سؤالاً مزعجاً كهذا !
وظل يفكر ولم يكن يبتسم :
— لا استطيع القول انها جميلة. انها مخيفة. ولا أجد كلمة اخرى. —وهتف بعد وقفة : — ان الكائنات عجيبة جداً ! — ورفع عينيه نحو جني ورأى انها تبدو مندهشة فتابع : — جميع الكائنات عجيبة ! حتى تلك التي لا تعجب احداً . هل لاحظت ، حين يتكلم المرء عن اناس يعرفهم الى آخرين يعرفونهم ايضاً ، كم من الاشياء الكاشفة ، ذات الدلالة ، تغيب عنهم ؟ لهذا السبب يتفاهم الناس فيما بينهم بشكل سيء .
وتطلع من جديد وشعر انها كانت تصغي اليه جيداً، وانها كانت تكرر ما قاله لنفسها . والحذر الذي كان يحتفظ به دائماً حيال جني فسح فجأة المجال لاستسلام فرح : كان يرغب في ان يزيد من أسر هذا الانتباه غير المعتاد ، وان يبعث التأثر في الفتاة بأن يسرد عليها بعض تفاصيل الاحتفال التي لا تزال ماثلة في ذاكرته . وقال بطيش .
— اين كنت ؟ اني احب ان اكتب ذات يوم قصة حياة تلك المرأة من خلال القليل الذي اعرفه عنها! وقد قيل بأنها بدأت بائعة في سوق . والصعود المتواصل لهذه المرأة ... — قال ذلك مكرراً الصيغة التي كان قد كتبها على دفتر جيب — اخت لجوليان سوريل . اتحبين « الاحمر والاسود » ؟
— كلا ، ابداً .
فقال .
— عجيب . نعم اني افهم ما تريدين قوله. — وفكر لحظة وابتسم — ولكن اذا بدأنا بفتح هلالين فاني لن انتهي من ذلـــك . الا أسيء استعمال وقتك على الاقل ؟
— كلا. لن نتناول غداءنا الا في الساعة الثانية عشرة والنصف بسبب دانيال.
— هل دانيال هنا ؟

فوجدت نفسها مضطرة الى الكذب ، فقالت وقد احمر وجهها :
– قال ان من الممكن ان يأتي . ولكن انت ؟
– لست متعجلا ، فأبي في باريس . اتريدين ان نأخذ ناحية الظل ؟ اما ما اريد ان اقص عليك خبره فهي الوليمة التي اقيمت بعد حفلة الزواج .اوه ! لم يكن الامر على شيء من الاهمية . ولكنه كان مؤلماً ، واؤكد لك . لنر . اولاً كإطار ،قصر من نوع تاريخي ،مع برج رممه غوبيو.وغوبيو هو الزوج الاول.رجل غير عادي ، مستخدم في محل خردة اكتشف في نفسه عبقرية السوق . ومات صاحباً لعدة ملايين ، بعد ان مهر كل مدننا في الاقليم بسوق من طراز القرن العشرين . وبالتأكيد قد رأيت ذلك. لأن الارملة ،ولنقل ذلك بمعرض الحديث، هي مفرطة في الغنى . ولم أُقدَّم لها ابداً فكيف اصفها لك ؟ امرأة هزيلة ، مرنة ، كثيرة الاناقة ؛ ورأس غير حسن التكوين ، ووجه جانبي فخور ؛ وعينان رماديتان كعيني الخلد بفارق الاضطراب : الماء الراكد . اترين هذا ؟ ومواقف طفل مدلل ؛ ومواقف اصغر من وجهها بشكل محسوس ؛ تتكلم عالياً ، وتضحك ؛ وبين فترة واخرى – ولا ادري كيف تفسرين ذلك – يركض نظرها الرمادي بين جفونها على طول اهدابها ، وعندئذ ، وفجأة ، تأخذ الصبيانيات التي تلقيها مرمىً مقلقاً ، ويفكر المرء رغما عنه بالضجة التي سرت بعدترملها بأنها سممت غوبيو ببطء .
– انها تخيفني .
قالت جني ذلك وقد كفت عن مقاومة الاهتمام الذي احدثه جاك فيها . وشعر بذلك فشحذ عزيمته بشكل لطيف وردد :
– نعم . ان الامر كذلك . امرأة تبعث على شيء من الخوف . واذكر انه نفس الشعور الذي انتابني في اللحظة التي جلسنا فيها الى المائدة ، لقد نظرت اليها : كانت واقفة ، بوجه قاس امام المائدة المجهزة بزهور بيضاء .
– اكانت ترتدي الملابس البيضاء ؟
– تقريباً ؛ ليس ثوب عروس تماماً : ثوب حديقة اذا اردت ، مسرحي

بشكل كاف ذو بياض داكن بلـون الكريما . وقد وُضع طعام الغداء على طاولات صغيرة . وكانت تدعو اناساً الى مائدتها دون ان تهتم بعدد الاماكن ، بلا تمييز . وكان باتنكور بقربها . وهيلته عصبية ، وقد قال لها : « ها انت ترين انك شوشت كل شيء » . وتبادلا نظرة ... آه ! نظرة غريبة جداً ! وقد شعرت انه لا يوجد بينهما شيء جديد ، ولا شيء طويل البقاء : من الماضي فقط.

وكانت جني تقول لنفسها : « ربما لايكون فاسداً كما فكرت ، ولا جافاً ، ولا .. » وفي اللحظة ذاتها ادركت انها كانت تعرف منذ زمن طويل ان جاك كان حساساً وطيباً ، وظلت مضطربة . وحين كانت تتابع حكاية جاك فانها لم تستطع منـع نفسها من ان تحفظ ما يزيد من تبرير الحكم المناسب الذي اطلقته عليه . وتابع :

– اراد سيمون ان اجلس الى شماله . كنت الوحيد الحاضر من جميع اصدقائه . وكان دانيال قد وعد بالجيء : ولكنه هرب . وليس هناك اي عضو من عائلة باتنكور ، حتى ولا ابن عم سيمون الذي نشأ معه والذي كان يعتمد عليه حتى ساعة اخر قطار . لقد كان الشيطان المسكين يستحق الشفقة . انه طبيعة حساسة ، رقيقة جداً ، واؤكد لك ؛ اني اعرف عنه اشياء حسنة جداً . كان ينظر الى جميع الناس حوله : الكل غرباء . كان يفكر بأهله . وقال لي : « لم اكن افكر ابداً انهم سيعاملونني بقساوة الى هذه الدرجة . يجب ان يكونوا حاقدين علي ! » وفي لحظة اخرى اثناء الوليمة قال لي : « لا كلمة ، حتى ولا برقية . اذن انا غير موجود بالنسبة اليهم . قل ؟ » فلم اكن اعرف بماذا اجيبه . عندئذ امرع واضاف : « اوه ! اني لا أقول ذلك لأجل نفسي . انا لا يهمني . بل لأجل انـّا » . وفي الوقت نفسه فضت انا الرهيبة ختم برقية جيء بها اليها . واصبح باتنكور اكثر شحوباً . ولكن البرقية كانت لها : تهاني من صديقة . عندئذ لم يعد يستطيع التماسك : فرغم جميع الناس الذين كانوا ينظرون اليه ، ورغم أنـّا ووجهها المقفل ، وتلك النظرة الباردة التي كانت تراقبه ، اخذ يبكي . واهتاجت . فحسب حساباً لذلك . وكان

الى جانبها ، فوضع يده على ذراعها وقال لها بصوت منخفض كولد : « اسألك الصفح » . كان سماع ذلك فظيعاً . فلم تتحرك . عندئذ ـ وهذا اكثر ايلاماً من رؤيته باكياً ـ اخذ يتكلم بحيوية ، ويمزح ، وبين فترة واخرى وهو يقول اي شيء بنبرة مرغمة ، كانت ترى الدموع في عينيه ، وكان يمسحها بقفا يده دون ان يتوقف عن الكلام .

كان اضطراب جاك يضفي على هذا المشهد كثيراً من التأثر بحيث تمتمت جني:

ـ هذا فظيع ..

وشعر بسرور المؤلف ، وربما السرور الاول . سرور شديد. ولكنه اخفاه بمداجاة ، وقال كأنه لم يسمع :

ـ ألم اضجرك ؟

ثم تابع :

ـ ليس هذا كل شيء . فأثناء تناول المربيات نادت الموائد الاخـــرى : « العروسان » ! واضطر باتنكور وزوجته إلى النهوض ، والابتسام ، والقيام بدورة في القاعة ، وكأس من الشامبانيا باليد . وهنا حدث شيء مؤلم : في نزهتها حول المائدة نسيا ابنة الزوج الاول ، وهي طفلة في الثامنة أو التاسعة من عمرها . وركضت الشيطانة وراءهما . وكانا قد عادا إلى مكانيهما . فقبلتها امها مسدة طوق الفستان الصغير ، ثم رفعت ابنتها نحو باتنكور . ولكنه ، بعد تلك الدورة التي لم يلتق فيها بنظرة صديق ، كانت عيناه مليئتين بالدموع ولم يكن يرى شيئاً : وقد اضطروا إلى وضع الابنة على ركبتيه . ! تلك الابتسامة الزائفة التي أظهرها وهو ينحني نحو طفلة الآخر ! لقد مدت الصغيرة خدها : كانت ذات عينين حزينتين ، تلك الطفلة ، ولن أنسى أبداً هذا . وأخيراً قبلها. وبما انها لم تذهب ، فقد داعب ذقنها بحمق ، هكذا ، بإصبع . أفهمت ؟ اؤكد لك أنه أمر يستحق الرثاء . ولكن مهما كان الامـــر فهي حكاية جميلة .. ألم تجدها كذلك ؟

فالتفتت نحوه مندهشة من الطريقة التي نفظ بها « حكاية جميلة » ولاحظت

بأن نظرة جاك لم يكن فيها ذلك الثقل العنيف الذي تجده مثيرا للنفور ، وحتى حدقتاه الصافيتان ، المتحركتان ، المعبرتان ، كانتا في تلك اللحظة كماءٍ صافٍ جداً . وفكرت : « لماذا لا يكون دائماً هكذا » ؟

كان جاك يبتسم . وكآبة هذه الذكريات لا تعد شيئاً بالنسبة لهذا التذوق الذي يشعر به حيال حياة الغير ، وحيال كل ما يكشف الفكر وعــواطف الكائنات. وجني أيضاً كانت تشعر بهذا السرور؛ وربما كان هذا السرور عندها كما هو عنده قد توهم في تلك اللحظة أنه ليس وحيداً .

وبلغا طرف الجادة: وكانا يشاهدان حواشي الغاب. والشمس تفرش أمامهما على الاعشاب بساطاً فاتناً . ووقف جاك وقال :

ـ اني أثرثر ، وأضجرك .

فلم تعترض . إلا أنه بدلاً من أن يستأذن ويذهب ، اقترح :

ـ ما دمت قد أتيت إلى هنا ، فانا راغب بالذهاب لإلقاء التحية على أخيك.

وكان هذا يذكرها بكذبتها بشكل سيء . وانزعجت منه لأنه لم يتردد في تصديقها . ولم تجب . وأدرك جاك أنها اكتفت منه ولا ترغب أن يرافقها إلى أبعد من ذلك .

واغتم . ومع ذلك لم يكن يستطيع ان يقرر تركها وان يدعها تحت تأثير مكدر ، خصوصاً هذا الصباح حيث شعر بولادة شيء بينهما كان يتمناه بشكل غامض منذ اشهر ، وربما منذ سنوات !

وطافا صامتين الطريق المحاط بالأكاسيا والموصل الى الباب الصغير . وكان جاك ، وقد تأخر قليلاً وراء جني ، يشاهد خط خدها المنحني البديع الحزين .

وكلما تقدم كان يقل احتمال تغيير فكره وتركها لوحدها. وتتابعت الدقائق. ووصلا الى الباب ، ففتحته . وتبعها ، واجتازا الحديقة .

كانت الشرفة مقفرة وقاعة الاستقبال فارغة . ونادت جني : ماما . فلم يجب احد . فسارت نحو نافذة المطبخ وسألت وهي لا تزال مرتبطة بكذبتها :

ـ هل وصل السيد دانيال ؟

ـ كلا يا آنسة .. ولكن جيء ببرقية منذ لحظة

فقال جاك اخيراً :

ـ لا تزعجي والدتك . فأنا ذاهب .

ووقفت جني منتصبة واتخذ وجهها تعبيراً عنيداً . وتمتم جاك :

ـ الى اللقاء . ربما الى الغد .

فأجابت دون ان تتقدم خطوة لإيصاله : الى اللقاء .

وما ان ادار جاك عقبيه حتى دخلت الى الدهليز ووضعت مضربها بعنف في الشبكة ، وألقت الكل على الصندوق ، مروّحة عن نفسها بحركة عنيفة لإظهار مزاجها . وفكرت : « كلا . ليس غداً . بالتأكيد ليس غداً » .

وكانت مدام دي فونتانان قد سمعت من غرفتها نداء ابنتها، وعرفت صوت جاك . ولكنها كانت مضطربة جداً بحيث لم تكن لديها القوة لتتظاهر بالهدوء . فالبرقية التي تلقتها كانت من زوجها . كان جيروم في امستردام ، وحيداً بدون مورد ، كما قال ، بجانب نويمي المريضة . وقد اتخذت مدام دي فونتانان قرارها على الاثر : سوف تذهب الى باريس ، اليوم بالذات ، وتأخذ ما بقي لها في المصرف لترسله إلى العنوان الذي اعطاه جيروم .

وكانت ترتدي ملابسها حين دخلت ابنتها الى غرفتها . وقسمات مدام دي فونتانان المضطربة ، والبرقية المفتوحة على الطاولة ، أقلقت جني فتمتمت :

ـ ما الخبر ؟

وكان لديها الوقت الكافي لتفكر : « لقد حدث شيء . لم اكن هنا . انه خطأ جاك » .

وتأوهت مدام دي فونتانان قائلة :

ـ لا شيء خطير يا عزيزتي . ابوك .. ابوك بحاجة الى شيء من المال .

وكانت خجلة من ضعفها ، خجلة على الخصوص من الاب امام الابنة ، فاحمرت وخبأت وجهها بين يديها .

٧

كان الفجر يولد وراء زجاج عربة القطار المغطى بالبخار . ومدام دي فونتاناك متلبدة في زاويتها ، تتأمل مروج هولندا المسطحة دون ان تراها

عند وصولها عشية امس الى باريس ، وجدت في بيتها برقية ثانية من جيروم : « صرح الطبيب ان نويمي تموت . لا استطيع البقاء وحدي . ارجوك الحضور . وهاتي معك نقوداً اذا امكن». ولم يكن باستطاعتها اللحاق بدانيال قبل قطار المساء . ولكنها تركت له كلمة ، تخبره فيها بذهابها وتكل اليه امر جني .

ووقف القطار وسمعت من يصرخ :

ـ هارلم !

انها آخر موقف قبل امستردام . وقد أطفئت المصابيح . والشمس التي لم تظهر بعد كانت قد ملأت السماء كلها ببياض اللؤلؤ ، المنتشر ، المتعدد الالوان. واستيقظ المسافرون، وتحركوا ، وطووا المعاطف . وجمدت مدام دي فونتاناك لتطيل أمد هذا الخدر الذي لا يزال يقيها قليلاً ضد شعورها بعملها . ان نويمي على فراش الموت . لقد حاولت ان تقرأ في نفسها . غيورة ؟ كلا . فالغيرة هي تلك اللهبات الفجائية التي كانت تلتهمها أثناء السنوات الاولى لزواجها،حين كان الشك يساورها دائماً ، وتكابر في الملموس ، وتناضل ضد المزعجات المنظورةالتي لا تحتمل.ومنذ ذلك الوقت لم تعد تتألم من الغيرة ، بل من الظلم الذي وقع عليها. ولكن هل كانت تستطيع القول أنها تتألم ؟ لقد عرفت عذابات اخرى كثيرة ! ومع ذلك، فهل كانت امرأة غيورة حقيقة ؟ لقد كان أسوأ ما يؤلمها أن تعرف بعد فوات الاوان أنها كانت مخدوعة ؛ وفي أغلب الاحيان لم تكن تشعر حيال عشيقات جيروم بسوى شفقة متعالية قليلاً ، وأحياناً ملونة بالعطف ، كما هو الامر حيال أخوات مغفّلات .

وارتجفت أصابعها حين اضطرت إلى ربط شريط الحذاء . ونزلت الاخيرة

من عربة القطار. واللمحة السريعة المشدوهة التي أجالتها حولها لم تلتق بالنظرة التي تنتظر صدمتها . ألم تتلق برقيته ؟ أن فكرة امكان وجود عينين تراقبانها اضطرتها إلى التشدد . وتبعت صف الوافدين .

هناك من لمس ذراعها . كان جيروم أمامها . ونظره متردد مع أنه فرح ، عاري الرأس ، منحنٍ نصف انحناءة ، ويحتفظ دائماً بكياسته المقلقة كأمير شرقي ، رغم وجهه الهزيل وكتفيه المتقعرين قليلاً . ودفعتها موجة المسافرين قبل ان يجد كلمة الاستقبال ؛ ولكنه استحوذ على حقيبة تيريز بسرعة رقيقة ، فقالت مدام دي فونتانان لنفسها : « لم تمت » . وخافت ان تضطر إلى رؤيتها وهي تموت .

وبلغا ساحة المحطة صامتين . وبإشارة ، أوقف السيد دي فونتانان عربة فارغة . وحين صعدت إليها، خنقها تأثر يشبه السعادة : لقد جاءت تسمع صوت جيروم ! وحين كان يصدر أوامره بالهولندية للحوذي ، ظلت لحظة على درجة العربة جامدة مهتزة ، ثم فتحت عينيها وجلست .

والتفتت نحوه منذ أن أصبح إلى جانبها في العربة المكشوفة. وعرفت بريق حدقتيه الاسمر الذهبي والخفي ؛ وأصبحت مرة اخرى مغلفة بوهجها الحار . وبدا مستعداً لأخذ يد تيريز ، ولمس ذراعها . وكان هذا الموقف يناقض كثيراً أساليب لاطفته المهذبة بحيث صُدمت منه كما تصدم من دالة مفرطة مسموح بها، ولكنها كانت مضطربة كما لوان اضطرابها كان برهاناً على حب لم تكن تأمل به.

وكانت هي التي ألقت الكلمة الاولى في الصمت :

– كيف حال ..

واصطدمت بالاسم ؛ وأضافت حالاً :

– هل تتألم ؟

فقال : كلا ، كلا . أبداً .

مع انها كانت تتجنب النظر الى وجهه ، فقد ادركت من نبرة جوابه ان نويمي تتحسن كثيراً . وظنت انها شعرت انه مضطرب جداً لدعوة زوجته الى

جانب سرير عشيقته المريضة . واستولى عليها أسف محرق . ولم تكن تفهم اي سحر مؤذٍ استطاع ان يجعلها تقرر المجيء بسرعة . وما دامت نويمي ستعود الى الحياة ، وما دام كل شيء سيعود سيرته الاولى ويستمر ، فلماذا جاءت تفعل هنا ؟ وعزمت على الرحيل حالاً . وتمتم جيروم :

ـ اشكرك يا تيريز .

وكانت رنة الصوت رقيقة ، محترمة ، خجولة . وشاهدت على ركبة جيروم يده الهزيلة قليلا ، يده الطويلة ذات العروق ، التي كانت ترتجف بشكل طفيف ، والحجر الثمين المهتز في البنصر . وملكت نفسها فلم ترفع رأسها ، ولكنها اسندت نظرها الى تلك اليد العارية ولم تتوصل الى الاسف على رحلتها. ولماذا ترحل ؟ لقد جاءت بحرّية ، باندفاع أوحته الصلاة اليها : لا يمكن ان ينتج عن ذلك اي شر . ولكي تبعد كل عزم على الرحيل اتخذت نقطة الارتكاز هذه معتمدة على ايمانها ، وشعرت انها عادت قوية . لم تكن النسمة الإلهية تتركها طويلاً في الحيرة .

ودخلت العربة مدينة كبيرة مهوّاة ، تسرح فيها العين. ولم تكن مصاريع الدكاكين قد سحبت بعد ، ولكن عمالاً على الارصفة كانوا ذاهبين الى المشاغل . واتخذ الحوذي طريقاً اقل عرضاً ، انها قطع متتابعة من الاراضي المرتفعة مرتبطة بجسور بشكل ظهر حمار : وكان الشارع يقطع اقنية متتابعة متوازية محاطة ببيوت تخلو واجهاتها من النتؤات ، مرتفعة ، ضيقة ، ومعظمها حمراء بنوافذ بيضاء ، كانت تنعكس في الماء الراكد قليلاً ، بين اغصان الدردار المنحنية على حافة الارصفة . وشعرت مدام دي فونتانان انها بعيدة عن فرنسا. وسأل جيروم :

ـ كيف حال الاولاد ؟

ولاحظت انه تردد في إلقاء هذا السؤال ، وانه تأثر ، وفي هذه المرة لم يحاول اخفاء اضطرابه .

ـ على خير حال .

ـ ودانيال ؟
ـ انه في باريس ، يشتغل ، ويأتي الى ميزون عندما يكون حراً .
ـ أأنتم في ميزون ؟
ـ نعم .
فصمت ؟ من المؤكد انه يستحضر في ذهنه الحديقة ، والمسكن المعروف على حاشية الغاب .
ـ و . . . جني ؟
ـ بخير .
وبدا انه يستجوبها بنظرته ، ويتوسل ؟ فأضافت :
ـ لقد كبرت كثيراً وتغيرت جداً .
وطرفت جفون جيروم . وتمتم بصوت لفّقه الجهد :
ـ نعم ، اليس كذلك ؟ يجب ان تكون قد تغيرت كثيراً .
ثم صمت من جديد ، ولفت رأسه وهتف فجأة بصوت خفي ، واضعاً يده على جبهته : « آه ! كل هذا فظيع » . وصرح بدون رابط بين الكلام :
ـ اني بدون مال تقريباً يا تيريز .
فقالت بسرعة : لقد جلبت معي مالاً .
وشعرت بكثير من الشقاء في تلك الصرخة بحيث اتت اولاً بحركة سرور لاستطاعتها تطمين جيروم . ولكن فكرة جارحة برزت حالاً : لم تكن نويمي مريضة بالقدر الذي جعلها تعتقده ، ولم يجعلها تأتي الا لأجل المال ! ولهــذا ارتجفت ، متمردة ، حين لم يستطع جيروم امتلاك نفسه من سؤالها بنبرة خجولة بعد ان انتظر بضع ثوان :
ـ كم ؟
وخطر لها ، لبرهة ، ان تنقص الرقم . وقالت :
ـ كل ما استطعت جمعه . اكثر من ثلاثة آلاف فرنك بقليل .
فتمتم :

ـ آه ! شكراً ... شكراً .. لو تستطيعين ان تعرفي يا تيريز ... المهم ان يكون لدي خمساية فلورين لإعطائها للطبيب ...

وكانت العربة قد اجتازت ، على جسر حجري ، نهـــراً كبيراً مزدحماً بالزوارق ، ثم بعـــد ان دارت في ازقة احدى الضواحي بلغت ساحة صغيرة ووقفت امام درجات معبد .

ونزل جيروم ، ودفع ، واخذ الحقيبة ، بهيئة طبيعية جداً جعل تيريز تمر امامه ، ورقي الدرجات ، ودفع مصراع الباب . انها لم تكن كنيسة ولا معبداً ، ربما هي كنيس لليهود . وقال :

ـ اسألك الصفح . كان ذلك لكي نتجنب المجيء بالعربـــة حتى البيت . فالاجانب مراقبون جداً . وسأوضح لك ذلك .

وبدّل صوته وتابع بابتسامة جذابة لرجل مجتمع :

ـ ومع ذلك فان بضع خطوات لن تكون سيئة . كان الطقس جميلاً هـذا الصباح ! اني اريك الطريق .

وتبعته دون جواب . لم تكن العربة في الساحة . وسار جيروم في ممر مقبب يدخل بواسطة درجات إلى الرصيف الوحيد لإحدى الاقنية : وعلى الضفة الاخرى ، كانت اسس البيوت مصفوفة في الماء . والشمس تلعب على القرميد ، وعلى زجاج النوافذ اللامع والتي تبعث فيها البهجة أزهار العصيفرة وإبرة الراهب . وكان الرصيف مزدحماً بالناس و « الجحاش » *Les Tréteaux* [1] والسلال . فقد أقيم نوع من السوق في الهواء الطلق ؛ وبين الثياب العتيقة والبضائع الرخيصة كانوا يفرغون حمولة زوارق صغيرة محملة بالزهور التي كان أريجها يمتزج بمفونة الماء الراكد قليلاً .

والتفت جيروم وقال :

ـ ألم تتعبي كثيراً يا صديقتي ؟

---

١ ـ قوائم خشبية توضع عليها ألواح .

كانت لديه دائماً نفس الطريقة المغنّاة في لفظ كلمة « صديقتي » . وخفضت رأسها دون أن تجيب .

ولم يشك أبداً بالتأثير الذي أحدثه ؛ وأشار نحو الضفة الاخـرى إلى بيت على الزاوية ينتهي إليه جسر ضيق وقال :

— هناك . اوه ! أنه متواضع جداً . وسوف تسامحيني لاستقبالك بمثـل هذه البساطة .

وبالفعل ، فقد كان البيت ذا مظهر فقير ، ولكن طلاءه الحـديث بلون الأكاجو وخشبه المدهون بالابيض يبعثان على الظن أنه يخت معتنى به . وقرأت تيريز بحروف متفرقة على ستائر الطابق الاول الليمونية اللون ، والتي كانت مسدلة :

بنسيون روج – ماتيلدا

اذن فجيروم كان يسكن نوعاً من الفندق ، منزلاً غفلاً بحيث لم تشعر كثيراً انها استقبلت « عندهما » . وشعرت من ذلك بتعزية .

وسارا على الجسر . وتحرك احد ستائر الطابق الاول . اذن فنويمي تترصد ؟ .. وانتصبت مدام دي فونتانان ، ولاحظت عندئذ فقط ، بين نافذتين في الطابق الارضي ، آرمة مدهونة من الصفيح ، تمثل بجعة بالقرب من وكنة يخرج منها طفل صغير عار .

وسارا في رواق ، ثم في درج تتضوع منه رائحة الدهان . ووقف جيروم على قرص الدرج ورن الجرس مرتين . وسمع نقل اثاث في الداخل ، وانزلقت فتحة الباب وراء قضبانها الحديدية ، اخيراً فتح الباب قليلاً ليفسح ممراً كافياً لجيروم . وقال :

ـ اتسمحين ؟ انا ذاهب لأنبىء بوصولنا .

وسمعت مدام دي فونتانان مناقشة قصيرة بالهولندية . وعلى اثر ذلك فتح جيروم باب الدخول على مصراعيه . كان وحده . فتبعا ممراً طويلاً مفروشاً بقماش مشمع يجعل الطريق حراً ، امامهما ؛ وكانت مدام دي فونتانان متضايقة ، خائفة في كل لحظة ان تجد نفسها امام نويمي . واستعانت بجدارتها لتحتفظ

بدمها البارد » ، ولكن الغرفة التي دخلاها كانت غير مأهولة ؛ انها غـــرفة نظيفة مبهجة تطل على القناة . وقال بحزم :

ـ ها أنت في غرفتك يا صديقي .

فأمسكت عن السؤال : « ونويمي » ؟

الا انه ادرك ما جال في فكرها وقال :

ـ اتركك لحظة . وسارى اذا كانوا بحاجة الي .

وقبل ان يخرج تقدم نحو زوجته وأخذ يدها :

ـ آه ! يا تيريز . دعيني اخبرك .. لو تعرفين بأي قلــق نفسي مررت ! ولكن ها أنت هنا ، أنت هنا .. ـ ووضع على يدي مدام فونتانان شفتيه ، وخده ، فتراجعت خطوة ؛ ولم يفعل شيئاً لإبقائها ، وقال وهو ينفصل عنها :

ـ سوف أعود بعد لحظة في طلبك . اتريدين ان .. تريها ؟

نعم ، سوف ترى نويمي ، ما دامت قد قامت بهذه الرحلة بملء رضاها . ولكن بعد ذلك ، بعد ذلك سوف تذهب حالاً مهما حدث ! وأشارت أن نعم ، ولم تسمع كلمة « شكراً » التي تمتم بها ، وانحنت على محفظتها ، متظاهرة بالبحث فيها ، إلى ان ترك جيروم الغرفة .

وعندئذ وجدت نفسها وحدها تجاه نفسها ، وهبطت طمأنينتها . فنزعت قبعتها، وألقت في المرآة نظرة على وجهها المتعب ، ووضعت يدها على جبهتها . كيف استطاعت ان تكون هنا ؟ لقد شعرت بالخجل .

ولم يكن لديها وقت للاستسلام ! فقد طرق الباب ، وقبل ان تجيب فتح الباب امام امرأة ترتدي مئزراً أحمر ، بدت انها تقدمت في السن رغم شعرها الكثير السواد ووجهها المعتنى به . فلفظت بضع كلمات استفهامية بلغة لا تفهمها مدام دي فونتانان ، وأتت بحركة ملل ، وأدخلت امرأة أخرى أصغر سناً ، بمئزر ايضاً ولكن بلون زرقة السماء ، وبدت انهـــا كانت تنتظر في الرواق ، وحيت مدام دي فونتانان بصوت خارج من حنجرتها :

ـ صباح الخير يا سيدتي !

وجرى حديث قصير بين الآتيتين الجديدتين . وكانت الكبرى تشرح للصغرى ما يجب ان تقول ، فتجمعت أفكارها لحظة ، والتفتت بكياسة ، وبدأت تقول بين وقفات :

ـ تقول السيدة ان عليكم ان تحملوا السيدة المريضة ، وتدفعوا الفاتورة وتنتقلوا إلى بيت آخر . هل فهمت [1] ! هل فهمت لغتي ؟

فأتت مدام دي فونتانان باشارة مراوغة . كل هـذا لا يعنيها . وعندئذ تدخلت السيدة المسنة من جديد ، بهيئة قلقة عنيدة . وقالت الصغرى :

ـ تقول السيدة ، حتى لو لم تدفعوا الفاتورة حالاً فيجب أولاً ان تنتقلوا ، وتذهبوا ، وتأخذوا المريضة إلى غرفة فندق في مكان آخر . افهمت ؟ وهـذا أفضل للبوليس .

في تلك اللحظة فتح الباب بسرعة وظهر جيروم . وتقدم نحو المئزر الاحمر واخذ يشتمه بالهولندية ويدفعه خارجاً. وسكت المئزر الازرق ، متطلعاً بالدور إلى جيروم ومدام دي فونتانان بعينين وقحتين . إلا ان العجوز بدت في أوج هياجها ، ورفعت يدها التي توسوس فيها الحلى كأنها يد غجرية . وأخذت تصيح بعبارات متقطعة تعود فيها دون انقطاع إلى الكلمات نفسها :

ـ مورجن ... مورجن ... بوليق [2] !

واخيراً توصل جيروم إلى اخراجها واغلق المزلاج وقال ملتفتاً نحو زوجته بهيئة معاكسة :

ـ اسألك الصفح .

وادركت تيريز عندئذ انه بدلاً من الذهاب إلى نويمي فقد ذهب لتبديـل ملابسه ، لأنه حلق حديثاً ،ووضع قليلاً من البودرة على وجهه، وجدد شبابه ، فقالت لنفسها : « وانا ، كيف انا بعد تلك الليلة من السفر ؟ »

---

١ ـ بالهولندية في الاصل .

٢ ـ *Morgen .. Morgen .. Politie* .

وتابع وهو يقترب :

ـ وكان عليّ ان أقول لك لتقفلي على نفسك . فهذه المؤجرة العجوز امرأة شجاعة ولكنها ثرثارة ولا تراعي شعور غيرها .

فقالت تيريز لاهية :

ـ إذن ماذا كانت تريد مني ؟

وكانت قد عرفت أريج الاترج الذي يحوم دائماً حول جيروم بعد زينته . وظلت بضع ثوان مفتوحة الشفتين قليلاً ونظرها مضطرب ، وقال :

ـ لم افهم شيئاً من طمطمانيتها . فقد حسبتك مستأجرة اخرى .

ـ قالت الزرقاءعدة مرات بضرورة دفع الحساب والانتقال إلى مكان آخر.

فهز جيروم كتفيه ، والتقطت مـــدام دي فونتانان ، كصدى لضحكته القديمة ، تلك الضحكة المتصنعة قليلاً ، والمزهوة قليلا ، والتي كانت تجعله يقلب رأسه إلى الوراء ، وهتف :

ـ هه ! هه ! هه ! ما أعجب هذا ! ربما خافت العجوز أن لا أدفع لها .

كان يبدو أنه يعتبر عجزه عن دفع ديونه هو افتراض مجنون . وتابـــع ، وقد دكن وجهه فجأة :

ـ هل الخطأ مني ؟ لقد جربت كثيراً . وما من فندق اهتم بأخذنا .

ـ ولكنها كانت تقول لي : بسبب الشرطة .

فردد بدهشة :

ـ هل قالت لك : الشرطة ؟

ـ أعتقد .

وميزت مرة اخرى على قسمات جيروم ذلك التعبير عن سلامة الطوية المرتابة التي ظلت ذكراها مرتبطة بازمات حياتها السيئة . والتي كانت تضايقها كما لو ان الهواء محمل بالطاعون .

ـ افكار نساء ساذجات ! لماذا القيام بتحقيق؟ ألأنه يوجد عيادة طبيب في

الطابق الارضي ؟ كلا ـ المهم هو القدرة على اعطاء ذلك الطبيب الصغير خمسماية فلورين .

لم تفهم مدام دي فونتانان جيداً ، وكانت تتألم من ذلك لانها كانت بحاجة دائمة الى الاستنارة . وكانت تتألم على الخصوص لأن تجد جيروم ملبكاً، محرجاً مركزه دائماً في ترتيبات لم تكن تعرف الا ان تفكر بها . وسألته عازمة على الحصول على بعض الايضاحات :

ـ منذ متى انت هنا ؟

ـ خمسة عشر يوماً . كلا ... ليس اكثر : اثني عشر تقريباً . اني لا اعرف ابداً كيف أعيش .

ـ ولكن ... تلك المريضة ؟

قالت ذلك واكملت بنبرة استفهامية لم يستطع التخلص منها ؟ فقال دون ان يبدو متردداً :

ـ تماماً ، ان المرء يتعذب كثيراً في التفاهم مع هؤلاء الاطباء الاجانب ! انه مرض من هذه البلاد ، احدى حمياتها ... الهولندية ، اتعرفين ؟ روائح الاقنية ـ وفكر لحظة : ـ يوجد حتى المستنقعات في هذه المدينة ، وجميع انواع الأبخرة التي لا تزال مجهولة ..

لم تكن تصغي اليه سوى نصف إصغاء . ولم تستطع منع نفسها من الملاحظة انه في كل مرة يتعلق الامر بنويمي ، فان موقف جيروم ، وهزات كتفيه ، وحتى الطريقة الجامدة التي يتكلم بها عن ذلك المرض ، لا تدل على عاطفة قوية. ومع ذلك فقد ابت على نفسها ان ترى في ذلك اقراراً بالانفصال .

ولم يفاجيء النظرة المتفحصة التي القتها عليه : كان قد اقترب من النافذة ، وبدون ان يرفع الستار ، اخذ يتفحص الرصيف باعتناء . وحين عاد نحوها كانت له تلك الهيئة الوقور ، المهتدية الصادقة التي تعرفها جيداً وترتاب بها اكثر . وقال بدون رابط بين الكلام :

ـ اشكرك ، فانت طيبة القلب . ولقد اتيت رغم كل ما سببته لك من ألم..

تيريز .. يا صديقي ..

كانت قد تراجعت ولم تنظر اليه . ولكنها كانت لينة الجانب لعواطف الغير ، ولعواطف جيروم على الخصوص ، بحيث لم تستطع الانكار في تلك اللحظة انه كان متأثراً وان هذا التكريم كان صادقاً . الا إنها رفضت ان تجيبه ، ورفضت حتى ان تطيل الحديث . وقالت :

– سر بي الى تحت .

فتردد لحظة ، ، ورضي .

– تعالي .

واقتربت اللحظة الرهيبة .

وكانت مدام دي فونتانان تردد لنفسها وهي تتبع الرواق الطويل المظلم وراء جيروم : « لأتشجع ! الا تزال نائمة؟ ناقهة ؟ ماذا اقول لها ؟ » وفكرت فجأة بوجهها المنهوك من التعب ، واسفت لأنها لم تعتمر قبعتها على الأقل .

وتوقف جيروم امام باب مقفل . وبحركة مرتجفة أمرّت مدام دي فونتانان يدها على شعرها الابيض وفكرت: « ذلك لأنها ستجدني قد شخت » ، وتخلت حيويتها عنها .

وكان جيروم قد فتح الباب دون ضجة. وقالت مدامدي فونتانان لنفسها: « إنها نائمة » ! كان ضوء الغرفة قليلاً ، والستائر من النسيج المصبوغ المشجّر الازرق كانت مرفوعة . وهناك امرأتان مجهولتان ، نهضتا . واحدة صغيرة يجب أن تكون خادمة أو حارسة ؛ وتضع مريلة ، وهي تطرز ؛ والاخرى قوية مسنة في الخمسين من عمرها، تعتمر قلنسوة بنفسجية اللون كقروية ايطالية، قامت بحركة تراجع بينما كانت مدام دي فونتانان تتقدم إلى وسط الغرفة ، وهمست بضع كلمات في اذن جيروم ، وخرجت .

ولم تلاحظ تيريز ذهاب المرأة، ولا عدم ترتيب الغرفة، ولا الطست والمناشف الملوثة الملقاة على السرير . ولم تعر انتباهها إلا للمريضة الممدودة على ظهرها ، دون وسادة . هل ُتلفت نويمي رأسها ؟ كانت تنام دون شك ، لانها ُسمعت

وهي تغط ؛ وفكرت مدام دي فونتانان أن تنسحب بتوانٍ لئلا تعكر غفوها حين أشار إليها جيروم أن تقترب حتى رجل السرير . فلم تجرؤ على الرفض . وعندئذ رأت أن العينين كانتا مفتوحتين ، وان الغطيط كان يتغلب بهزات من الفم المفتوح . ولما كانت معتادة على الظلمة فانها شاهدت الآن الرأس الفقير بالدم ، وتينك الحدقتين اللتين زال بريقها ، الزرقاوين كحدقتي حيوان صريع. وأدركت حالاً أن المضطجعة هنا ستموت ، وتأثرت الى درجة أنها التفتت ، مستعدة لطلب النجدة . ولكن جيروم كان بقربها ، ومع أنه تأمل المحتضرة بوجه يجتاحه الحزن ، فقد رأت أنه لم يكن لديها شيء تعلمه به . وقال موضحاً بصوت منخفض :

ـ منذ النزيف الاخير ، وقد كان الرابع ، لم تستعد وعيها . وقد بدأت هذه الحشرجة البارحة مساءً .

ونفخت دمعتان حافة جفونه ببطء ، واهتزتا لحظة بين الاهداب وسالتا على خديه الملونين بلون الصدأ .

وبذلت مدام دي فونتانان جهوداً بلا فائدة لتملك نفسها ولم تتوصـل إلى قبول هذا المنظر المفروض على نظرها .

إذن سوف تموت ، ستختفي أخيراً من حياتها تلك النويمي التي كانت تفكر في هذه اللحظة نفسها أنها منتصرة . لم تجرؤ على فصل عينيها عن ذلك الوجه الذي جمد فيه كل شيء : النظرة ، جناحا الأنف القاسيان ، وتانك الشفتان البيضاوان اللتان تفلت من بينهما نسمة آتية من مكان بعيد جداً ، بحَّاء ، متواترة ، تتجدد دون انقطاع . كانت تتفحص قسماتها واحدة واحدة ، دون أن تستطيع إشباع فضول مشحون بالرعب . هل هذه هي نويمي ، ذلك اللحم الكامد المفرغ من الدم ، وتلك الخصلة السمراء الملصقة على تلك الجبهة الجافة واللامعة ؟ لم تتعرف إلى شيء في تلك السحنة التي لا لون لها ولا تعبير . منذ كم من الوقت لم ترها إذن؟ عندئذ تذكرت تلك الزيارة التي قامت بها إليها منذ خمس سنوات ، حين هرعت إلى نويمي لتصيح بها : «ردي إلي زوجي ! » وظنت أنها تسمع الضحكة المفرطة

لابنة عمها . وفجاة، دون أن تستطيع منع انتفاضة ، ظنت أنها تشاهد المخلوقة الجميلة المستلقية على الأريكة ، وتلك الزاوية من الكتف اللحيم الذي كان يختلج تحت المخرمات . في ذلك اليوم ، فإن نيكول في الدهليز .. وقالت بحرارة :

ـ ونيكول ؟

ماذا ؟

ـ هل أعلمتها ؟

ـ كلا .

كيف لم تفكر هي نفسها بذلك وهي تغادر باريس ؟ وقادت جيروم جانباً:

ـ يجب ذلك يا جيروم . انها امها .

وقرأت كل ضعف هذا الرجل في نظرته المتوسلة،وهي نفسها ترددت..بمجيء نيكول الى ذلك البيت الكريه ، ودخولها الى تلك الغرفة ،والتقاؤها بجيروم على رأس هذا السرير ! الا انها قالت بصوت اقل صلابة :

ـ يجب ذلك .

ولاحظت ذلك اللون الترابي الذي يزيد من دكنة صبغة جيروم حين يُرغَم في مشاريعه ، وفتحة الفم تلك التي تتيح رؤية الاسنان بين الشفتين المرققتين كأثر شرس . و كررت بهدوء .

ـ يجب ان تأتي نيكول يا جيروم .

والتقى الحاجبان الرقيقان ، وانخفضا . كان لا يزال يقاوم . وأخيراً رفع اليها نظره القاسي : لقد خضع . وقال :

ـ اعطني عنوانها .

وحين ذهب لأجل البرقية عادت إلى جانب نويمي . كان مستحيلاً عليها الابتعاد عن هذا السرير .

وظلت واقفة ، متدلية الذراعين ، واليدان مضمومتان . كيف أمكنها الظن أن المريضة قد نجت ؟ ولماذا لم يبد جيروم أنه يتألم كثيراً؟ ماذا يصيربه ؟ أيعود للعيش إلى جانبها ! آه ! بالتاكيد فهي لن تقترح عليه ذلك ؛ ولكنها

أيضاً لا ترفض له هذا المأوى .

نوع من الفرح، أو بالاحرى عاطفة عذبة جداً من السلام، عاطفة خجلت منها، كانت تولد فيها ، رغماً عنها . وحاولت إبعادها . وحاولت أن تصلي . تصلي لأجل تلك النفس التي ستعود نحو « الروح » . وفكرت : «يا للنفس المسكينة، ان أمتعتها ليست ثقيلة » ! ولكن في هذا التقدم المحتوم للكائنات نحو الافضل، وخلال تلك المراحل المتتابعة التي تشير اليها التجسدات الارضية ، فان كل جهد مهما كان صغيراً ، ألا يبقى لمنفعة من قام به ؟ وكل ألم ، اليس هو درجة اكثر نحو الكمال، بقدر محتوم؟ لم تكن تيريز تشك ابداً ان نويمي تتعذب . فالبائسة، رغم حياتها اللامعة ، لم تنقطع دون شك ان تجر معها قلقاً مرّاً ، تلك المعاكسة للضمائر التي تجهل بعضها بعضاً ، ولكنها مـع ذلك تخاف سراً من تدنيسها . وهذا العذاب للنفس المسكينة يُعدُّ كتجسد من جديد بشكل افضل ، وكذلك حبها ، مع انه حب مجرم وقد سبب كثيراً من الأذى ! وهذا الاذى ، غفرته تيريز في هذه الدقيقة دون جهد . كانت تفكر بانها لم تكن ذات فضيلة كبيرة . واقتنعت بأنها لم تنجح بالتفكير ان موت نويمي كان مصيبة كبرى . لأي كان. وهي ايضاً ، كجيروم ، كانت قد اعتادت على هذا الاختفاء . وكانت عواطفها تتطور بسرعة لا ترحم . لم يمض ساعة على « معرفتها » ـ ولم تفعل شيئاً سوى انها سلمت امرها لله .

حين هبطت نيكول من قطار باريس السريع ، بعد يومين ، كان قد مضى ست وثلاثون ساعة على وفاة والدتها . ووجب ان يكون موعد الدفن في الصباح التالي .

كان الجميع يبدون متعجلين الانتهاء من ذلك: المؤجرة، جيروم ، وخصوصاً الطبيب الشاب ذو الحساسية فلورين والذي اصدر شهادة الدفن دون ان يصعد الى الطابق الذي فيه الميتة ، بعد اجتماع مقتضب في الطابق الارضي .

ومع ان هذا الواجب كان مؤلماً فوق الحد بالنسبة الى تيريز ، فانها ابدت رغبتها في المساعدة في زينة نومي الاخيرة ، تستطيع ان تقول لنيكول انها

حلت محلها في هذا العمل التقوي . ولكن في اللحظة الاخيرة ، وبقدر سيء أبعدت عن غرفة الميتة . وكانت الممرضة هي التي قامت بهذه المهمة دون اي شاهد سوى الحارسة ـ «من عادتها ان تفعل ذلك » كما اوضح جيروم .

وكان في حضور نيكول تسلية .

لا يزال هناك وقت : فلقاءات المرأة المسنة ، والمؤجرة ، والطبيب في الاروقة اصبحت من ساعة الى ساعة لا تحتمل بالنسبة لمدام دي فونتانان ؟ فمنذ مجيء المرأة المسكينة لم تجد في ذلك البيت نسمة هواء صالحة للتنفس بالنسبة اليها . ووجه نيكول المنفتح ، وصحتها ، وشبابها ، كل هذا حمل اخيراً إلى ذلك المكان جواً مطهراً . إلا ان انفجار ألمها ـ الذي ضعضع جيروم فالتجأ إلى الغرفة المجاورة ـ بدا لمدام دي فونتانان غير متناسب مع العواطف التي كانت الفتاة تشعر بها حقيقة حيال تلك الام التي دالت دولتها ؛ وهذا الحزن العنيف ، غير المفكر لطفلة ، يطابق رأيها حول طبيعة ابنة أخيها ، وفكرت: « طبيعة سمحة . ولكن دون كثافة حقيقية » .

وكانت نيكول راغبة في نقل الجثة إلى فرنسا ؛ وبما انها لم تكن تريد توجيه الكلام إلى جيروم الذي لا تزال تعتبره مسؤولاً عن سوء سلوك امها ، فأن العمة تيريز كُلفت بعرض القضية ، فاصطدمت بمقاومة عامة وقطعية ؛ وقد عورضت بالاجرة المتجاوزة الحد لمثل هذه الانواع من النقليات ، وبالشكليات التي لا تعد والتي يجب الخضوع لها ، واخيراً التحقيق في كل كبيرة وصغيرة ، والذي لا يفوت الشرطة الهولندية ان تأمر به ، وهو تحقيق مزعج جداً للاجانب كما اكد جيروم . ولذا وجب الاقلاع عن ذلك .

وأرادت نيكول ان تسهر إلى جانب النعش مع انها منهوكة من التأثر ومن السفر ، وقد قضى الثلاثة تلك الليلة الاخيرة ، وحدهم ، صامتين في غرفة نويمي. وكان التابوت موضوعاً على كرسيين تحت الزهور . وعبير الورود والياسمين يدير الرأس بحيث وجب فتح النافذة على مصراعيها . وكان الليل حاراً وصافياً جداً ، وبريق القمر يبهر النظر . وكان يُسمع في فترات متواترة هدير الماء وهو

يضرب أعمدة البيت . والساعات تدق في برج مجاور . وشعاع قمري منزلق على الارض الخشبية كان يمتد ، ويتمطّى من دقيقة إلى اخرى ، نحو وردة بيضاء نصف ذابلة ، ساقطة على قدم التابوت وأصبحت شفافة ، زرقاء تقريباً . وكانت نيكول تتفحص بعين عدائية عدم ترتيب الغرفة . ربما كانت امها تعيش هنا ؛ وهنا دون شك قد تعذبت . وربما شعرت بانذار النهاية وهي تحصي باقات هذا البساط ، وربما استعادت بشكل بائس جنونيات حياتها الموحلة ، فهل كان لديها فكرة متأخرة عن ابنتها ؟

وكان موعد الدفن باكراً جداً .

لا المؤجرة ، ولا الممرضة ظهرتا وراء الجنازة . كانت العمة تيريز تسير بين نيكول وجيروم ؛ وليس هناك شخص آخر سوى قس هرم كانت مدام دي فونتانان قد طلبت منه مرافقة الجثمان وتلاوة الصلوات الاخيرة .

ولكي توفر مدام دي فونتانان على نيكول العودة لرؤية بيت القناة البغيض فقد عزمت ان تسير بالفتاة رأساً إلى المحطة عند خروجهم من المقبرة ؛ وكان على جيروم اللحاق بها مع الامتعة . الا ان نيكول رفضت ان تحمل أي شيء كان شاهداً على حياة والدتها في الخارج ؛ وهذا التخلي عن صناديق أمتعة نويمي سهّل بشكل غريب مناقشات التسويات الاخيرة مع المؤجرة .

وحين أصبح جيروم وحده ، وقد صفيت جميع الحسابات ، في العربة التي يجب أن تسير به إلى القطار ، وبما أنه قد بقي لديه وقت طويل حتى ساعة الرحيل ، فقد أرجع العربة القهقرى ، خاضعاً لدافع فجائي ، ليعود مرة أخيرة إلى المقبرة .

وتاه قليلاً قبل أن يجد مكان القبر . وما أن عرفه من بعيد ، عند الارض المقلوبة ، حتى رفع قبعته وتقدم بخطى منتظمة . هنا تضطجع الآن ست سنوات من الحياة المشتركة ، والانفصال ، والغيرة ، والعودة إلى الوئام ، ست سنوات من الذكريات والاسرار حتى آخر كل شيء ، حتى الاكثر إفجاعاً ، والذي انتهى إلى هنا .

وفكر : «وبعد كل هذا» فإن الامر كان من الممكن ان ينتهي إلى ما هو أكثر

شراً .. انني أتألم قليلاً ». أكد ذلك بينما جبهته المتشنجة وعيناه الغارقتان بالدموع كانت تبدو أنها تؤكد العكس . هل الخطأ خطأه إذا كان السرور الذي سببه له مجيء زوجته أشد قوة من حزنه ؟ أن تيريز هي الكائن الوحيد الذي أحبه ! فهل ستعرف ذلك ؟ هل ستدرك أنها وحدها كانت ، في بروده الصارم ورغم الظواهر ، تملأ تلك الحياة لرجل محظوظ حيث لم يكن يوجد سوى حب كبير ؟ أتدرك أن كل ميل آخر إلى جانب الحب الكلي الذي نذره لها لا يمكن أن يكون إلا زائلاً ؟ ومع ذلك فقد كان لديه في هذه اللحظة برهان جديد : أن موت نويمي لم يتركه مبعداً ولا وحيداً . وما دامت تيريز حية فإنه لن يكون وحيداً ولو كانت أكثر بعداً ، ولو فكرت أن تقطع جميع الروابط التي تربطها به . وأراد التخيل ، لهنيهة ، أن تيريز هي المدفونة هنا ، تحت الارض المغطاة بالزهور ؛ ولكنه لم يستطع احتمال الفكرة . وربما لم يوجه إلى نفسه أقل لوم بسبب الاحزان التي سببها لزوجته ، ما دام في تلك الدقيقة الاحتفالية ، وأمام ذلك القبر ، كان مرتاح الضمير لأنه لم يسرق منها شيئاً جوهرياً ، وأنه كرس لها الأندر والأكثر ديمومة من قلبه ؛ وما دام مرتاح الضمير بأنه لم يكن غير مخلص لها ولا ثانية واحدة . وفكر ، ولكن بثقة : « ماذا ستفعل بي ؟ أنها ستعرض علي العودة إلى جانبها ، إلى جانب الاولاد .. » وظل منحنياً ، والوجه مغمس بالدمع — والقلب متألق بأمل مخادع .

« كل شيء سيكون حسناً لولا وجود نيكول » .

واستعاد في ذهنه موقف الفتاة الصامت ، ونظرها الحقود ، واستعادها وهي منحنية على الحفرة ، واعتقد أنه يسمع من جديد ذلك النحيب الجاف ، المؤلم الذي لم تستطع كبحه .

آه ! لقد كان تفكيره بنيكول عذاباً . ألم تغادر الطفلة بسببه منزل امها يحدوها الاحتقار ؟ وتصاعدت من أعماق ذاكرته شذرات قسم : « الويل لمن يجلب الفضيحة .. » وفكر : « كيف أكفر ؟ كيف أستحق عفوها ؟ كيف أكتسب عطفها ؟ » لم يكن يستطيع احتمال فكرة وجود من لا يحبه . وعندئذ

أجتازت عقله فكرة رائعة : « لو تبنـّيتها » ؟

ووضح كل شيء . وتصور نيكول جالسة إلى جانبه في شقة صغيرة يفرشها لها ، ويحيطها بالعناية ، ويساعدها في الاستقبال ، وفي الصيف يستطيعان السفر معاً . وسيعجب الجميع بحميته في اصلاح غلطته . وسوف تستصوب تيريز ذلك.

واعتمر قبعته ، وابتعد عن القبر ولحق بالعربة بخطى سريعة .

كان القطار جاهزاً منذ وقت طويل حين وصـــل الى المحطة . وكانت المرأتان قد اتخذتا مكاناً في مقصورة . ودهشت مدام دي فونتانان لأن زوجها لم يلحق بها بعد . هل لاقى جيروم صعوبة في البنسيون ؟ كل شيء بدا ممكناً . الا يستطيع جيروم الذهاب ؟ ذلك الحلم الذي حلمت به بأن تعيده الى ميزون، وان تسهل عليه عودته الى البيت ، وربما توبته ، هذا الحلم الجميل هل سيتلاشى ولم يكد يتكون ؟ وتضاعف خوفها وهي تراه يتقدم نحوها بخطى عريضة وهيئة قلقة :

ــ اين نيكول !

ــ انها هنا ، في الرواق .

كانت نيكول واقفة امام الزجاج المنخفض الى نصفه ؛ وكان نظرها ينزلق بتثاقل على تشابك الخطوط الحديدية . وكانت كئيبة ، وتعبة على الخصوص ؛ كئيبة الا انها سعيدة لأن كل احزان اليوم لم تستطع ان تحرمها لحظة من سعادتها . وسواء أكانت امها حية أم ميتة ، الم يكن خطيبها ينتظرها ؟ وحاولت ان تطرد هذه الفكرة مرة اخرى كأنها خطأ . هذه الفكرة القائلة ان اختفاء امها كان لخطيبها على الأقل خلاصاً ومحواً للنقطة الوحيدة السوداء التي كانت تلوث مستقبلها حتى الآن .

ولم تكن قد سمعت جيروم يقترب منها :

ــ نيكول ! ارجوك ! باسم والدتك . سامحيني .

فارتجفت ، والتفتت . كان امامها ، وقبعته بيده ، وقد تطلع إليها بنظر خاضع ملاطف . ذلك الوجه الذي أتلفه الألم وتوبيخ الضمير ، لم يرعبها هذه

المرة : لقد شعرت بالشفقة . وقـد جرى ذلك كأنها كانت تنتظر هـذه الفرصة لتكون طيبة . نعم ، لقد عفت .

ولم تجب ، ولكنها مدت اليه بسلامة طوية يدها الصغيرة في قفاز أسود . فأخذها ، وشد عليها ، وتمتم دون ان يستطيع السيطرة على تأثره :

ــ شكراً .

وابتعد .

ومضت بضع دقائق . ولم تتحرك نيكول ابداً . كانت تفكر ان ما فعلته هو الافضل بسبب العمة تيريز وانها سوف تروي هذا المشهد المؤثر لخطيبها . وبدأ الناس يصعدون ، ويلامسونها بصناديقهم. واخيراً سار القطار. وساعدتها الهزة على الخروج من تخدرها . وعادت الى العربة . وكان مجهولون قد شغلوا الاماكن التي كانت فارغة قبلاً . وفي الداخل شاهدت العم جيروم جالساً قبالة مدام دي فونتانان ، وذراعه في الحلقة المعلقة ، ووجهه مدار نحـو المناظر الطبيعية ، وكان يقضم خبزاً بلحم خنزير .

٨

قضى جاك السهرة وهو يتذكر حديثه مع جني كلمة كلمة . لم يكن يحاول تحليل السبب الذي جعل هذه الذكرى ملازمة ، ولكنه لم يكن يستطيع الانفصال عنها،وقد استيقظ عدة مرات في الليل ليعود إليها بسرور لا يضعف. وكذلك في الغد ، عند وصوله إلى ملعب التنس كان اخفاقه كبيراً لانه لم يشاهد الفتـاة .

لم يكن يريد رفض دور اللعب الذي عرض عليه ؛ ولعب بشكل سيء ، متطلعاً دون انقطاع نحو المدخل . ومضى الوقت ولم تأت جني . وما ان استطاع الهرب حتى فعل . إذا لم يكن يأمل شيئاً فأنه لم ييأس بعد . وفجأة رأى دانيال يتقدم نحوه ، فسأله دون ان يندهش للقاء :

ــ وجني ؟

ـ لن تلعب هذا الصباح . إذن فقد كنت تخرج ؟ سأرافقك . انا في ميزون منذ البارحة مساءً .

وتابع حين أصبح خارج النادي :

ـ نعم ، كانت امي مضطرة الى التغيب فطلبت الي ان أنام هنا لكي لا تبقى جني وحدها ليلاً ؛ فالبيت بعيد جداً عن كل شيء .. ابتكار جديد لوالدي . وامي المسكينة لا تعرف ان ترفض له شيئاً .

وظل مغتماً لحظة ، ثم ابتسم بعزم : انه لم يكن يصبر على ما يكون مؤلماً له . وقال مع عناية رقيقة في نظراته :

ـ وأنت ؟ أنت تعلم انني اعدت التفكير كثيراً « بمناجاتك المعنّفة » . وبالحقيقة فاني مستمر بمحبة ذلك . وكلما فكرت به يزداد حبي . انها سيكلوجية غير منتظرة ، عنيفة قليلاً ، غامضة قليلاً ايضاً من ناحية الاماكــــن . ولكن الفكرة جميلة ، والشخصيتان حقيقيتان دائماً وجديدتان جداً .

فقاطعه الآخر بملل لم يستطع السيطرة عليه .

ـ كلا يا دانيال . لا تقاضيني على ذلك . أولاً ، الشكل مكروه ! انه منتفخ . عجيني ، مثقل بالثرثرة . ـ وفكـّر بهياج : ـ « الوراثة » ..

وتابـــــع :

ـ وحق المحتوى ، انه ايضاً اصطلاحي ، مصنوع .. بواطن الكائن . آه ! اني أرى جيداً ما يلزم . ولكن ..

وسكت فجأة .

ـ ماذا تفعل في هذه الايام : هل بدأت شيئاً آخر ؟

ـ نعم .

وتابع بدون ان يعرف لماذا احمر وجه جاك :

ـ اني أرتاح على الخصوص . كنت اكثر تعباً مما ظننت بعد تلك السنة في البيت . وثم . ثم اني آت من زواج ذلك المسكين باتنكور . يا له من مستسلم !

فقال دانيال :

— لقد قصت جني علي ذلك :

واحمر وجه جاك من جديد . أولاً استياء مقتضب لأن حديثها البارحة لم يكن سراً بين جني وبينه، ثم سرور شديد جداً لمعرفته انها أقامت لهذا الحديث وزناً ، وانها تذكرته ، حتى انها حدثت أخاها به في نفس المساء .

واقترح وهو يدخل ذراعه تحت ذراع دانيال :

— اريد ان ننزل حتى ضفة السين ونحن نتحدث ؟

— مستحيل يا صديقي . اني عائد الى باريس في قطار الساعة الواحدة والدقيقة العشرين . وانت تعلم ، اني أريد ان أكون كلب الحراسة ليلاً .

ان ابتسامته التي ُفهم منها أي نوع من الواجب يدعوه في باريس، لم تعجب جاك الذي سحب ذراعه . وقال دانيال ليبدد هذا الظل :

— ولكن ، اتعلم ؟ ستأتي لتناول الغداء معنا. وهذا سيسبب السرور لجني.

فخفض جاك عينيه ليخفي اضطراباً جديداً . وبدا متردداً ، فوالده ليس على وشك العودة ، ومن السهل عليه أن تفوته وجبة . والسرور الذي اجتاحه أدهشه هو نفسه ، فكبحه ليجيب .

— إذا شئت : الوقت الذي أمر فيه على البيت لأعلمهم . سر أمامي ، وسألحق بك إلى الساحة .

وبعد بضع دقائق لاقى صديقه ، الذي كان ينتظره ، نائماً على العشب أمام القصر . وصاح فيه دانيال وهو يمدد ساقيه في الشمس :

— ما أجمل الطقس! ما أجمل هذه الحديقة في هذا الصباح ! ما أسعدك لانك تعيش في هذا الاطار !

فأجاب جاك :

— لم يبق إلا أن تأتي وتعيش فيه أنت أيضاً .

ونهض دانيال مسلماً بما قال رفيقه ولكن بتعبير حالم ومرح :

— اعلم ذلك جيداً . ولكن ، أنا ، ليس نفس الشيء .. اوه ! يا عزيزي . — قال ذلك مقترباً ومبدلاً النبرة — أعتقد أنني بدأت مغامرة عجيبة .

ـ الصغيرة ذات العينين الخضراوين ؟

ـ ذات العينين الخضراوين ؟

ـ عند باكميل .

فتوقف دانيال ؛ واستقر نظره أمامه برهة ، وابتسم بشكل غريب :

ـ رينيت ؟ ولكن كلا ، شيء جديد : وأفضل أيضاً ! ـ وسكت مهتماً، وقال أخيراً : ـ آه ! رينيت تلك ! يا للفتاة الغريبة ! أنت تعلم أنها هي التي تركتني. نعم، بعد بضعة أيام ! وضحك كرجل لم يحدث له شيء من ذلك سابقاً. أنت الروائي ، ربما تروق لك . أما أنا ، فقد كانت تتعبني. لم ألتق أبداً بامرأة مثلها لا تُحل طلاسمها . واني لا أزال أتساءل إذا كانت احبتني عشر دقائق متتابعة ؛ ولكن مثلاً ، حين كانت تحبني ! مختلة العقل ! يجب أن تكون ذات ماض مريب يلاحقها . لقد قيل لي أنها كانت في الماضي تنتمي إلى إحدى تلك العصابات السوداء ، أتعلم ؟ ولن أدهش إذا كان الأمر غير ذلك .

ـ ألا تراها أبداً ؟

ـ كلا، حتى اني لا أعرف ما حلّ بها . لم تعد تظهر أبداً عند باكميل . ـ وأضاف بعد وقفة : ـ أحياناً كنت آسف عليها . أقول هذا ، ولكن في دخيلة نفسي فإن هذا لا يمكن أن يدوم ؛ أنها تصبح غير محتملة بسرعة . ذات عدم رصانة ليس لديك فكرة عنها ! لم تكن تنقطع عن إلقاء الاسئلة . أسئلة عن حياتي الخاصة . ولكن نعم ، عن عائلتي ، عن والدتي ، عن اختي ؛ والافضل : عن والدي !

وخطا بضع خطوات صامتاً وتابع :

ـ مهما كان الامر فعندي منها تذكار ملكي : تذكار السهرة حين سرقتها من لودفيكسون .

ـ وهو ، ألم يسرق منك موارد عيشك ؟

ـ هو ؟

أخذ نظر دانيال يلمع . وثنية ابتسامته كشفت أسنانه :

ـ لم تسنح لي فرصة كهذه لاحكم على لودفيكسون : وبعد ،لم يظهر عليه أنه يتذكر شيئاً ! إعتقد به كما يحلو لك ، يا صديقي . أما أنا فأقول : أنه رجل كبير طيب القلب .

كانت جني قد قضت هذا الصباح دون أن تخرج؛ وحين عرض عليهادانيال أن يرافقها إلى ملعب التنس رفضت بعناد، متعللة بأن عندها ما تعمله . ولكنها لم تكن تستسيغ عمل شيء ، ولم تتوصل إلى إشغال وقتها .

وحين رأت الشابين من نافذتها يجتازان الحديقة ، كانت اول حركة لها هي الاستياء : لقد أفسد جاك عليها هذه الوجبة من الطعام مع اخيها بمفردهما ، حيث كانت تتمتع بها . الا ان حزنها الغاضب لم يستطع مقاومة ظهور دانيال السار في الباب المفتوح قليلاً .

ـ احزري بمن اتيتك لتناول الغذاء .

ففكرت : « لدي وقت لتبديل ثوبي » .

كان جاك يتنزه طولاً وعرضاً في الحديقة ؛ فقد تزوق هذا الصباح جاذبية المكان اكثر من اي وقت . ولدى الخروج من هذه الروضة ذات الدارات ، فان لعقار آ ل فونتانان فتنة مزرعة متروكة على طرف الغابة . ابنية غير متلاصقة جاءت تنضم الى المنزل المركزي . كوخ قديم للصيد دون شك ذو نوافذ عالية أصلحت عشر مرات : « هناك درج خشبي تحت افريز » يشبه درج هري يوصل الى اعلى الجناحين . وكانت حمائم جني تطير باستمرار على منحدر السطوح القرميدية ، والجدران مطلية بجص وردي صارخ يشرب النور كطلاء ايطالي . وصنوبرات كبيرة ، ترتفع بغير ترتيب ، وتغطي البيت بظل جاف يشتم منه رائحة الصمغ وحيث المشب لا ينبت ابداً .

وكان الغداء ذا بهجة بواسطة بشاشة دانيال المنتقلة الى الجميع . كان منتشياً بصباحه ، مليئاً بالآمال لفترة ما بعد الظهر . وقد اطرى جني بسبب ثوبها الكتاني الازرق ، ووضع لها في فتحة الصدر وردة بيضاء ؛ وكان يدعوها « الاخت الصغيرة » ويضحك من كل شيء ، ويسخر هو نفسه من حدة ذهنه

كان يريـد من جاك وجني ان يذهبا معه الى المحطة وينتظرا القطار معه . وسألت .

ـ هل ستعود للعشاء ؟

ولاحظ جاك . ليس بدون فرق في الكآبة ، النبرة العنيفة ، اللاارادية دون شك ، والتي كانت تبدو بين فترة واخرى تحت ظواهرها المحتجبة الـــمذبة . واجاب دانيال :

ـ يا الهي ، هذا محتمل . اريد ان اقول انني سأفعل المستحيل لآخذ قطار الساعة السابعة . ولكنني سأعود قبل الليل على كل حال ؛ وقـــد كتبت ذلك الى والدتي .

لفظ هذه الكلمات الاخيرة بنبرة ولد مطيـع ، وبشكل لطيف جداً على شفتيه كرجل ، بحيث لم يستطع جاك ان يمنع نفسه من الضحك ، وحيث جني نفسها ، التي كانت منحنية لتربط الزمام في طوق كلبتها ، رفعت رأسها بنظرة لاهية .

ودخل القطار المحطة . وتركهما دانيال ليركض الى العربات الاولى التي كانت تمر فارغة ؛ ومن بعيد ، رأياه منحنياً على النافذة يحرك منديله بشيطنة .

ووجدا نفسيهما وحيدين ، دون ان يجدا فراغاً من الوقت للاستمداد لذلك ، وهما ما برحا متخدرين من بشاشة دانيال . وقد احتفظا دون جهد بنبرة الصداقة ،كما لو أن دانيال استمر بأن يكـــون رابطاً بينهما . وشعر الاثنان بالتعزية بسبب هذه المهادنة الجديدة وكانا متنبهين لئلا يخسرا الوفاق .

وجني الكئيبة من هذا الرحيل كانت تفكر بغياب اخيها المستمر . وقالت :

ـ عليك ان تطلب من دانيال الا يقضي العطلة هكذا بالرواح والمجيء . فهو لا يعلم مقدار حزن والدتي من رؤيته يأتي قليلاً جداً هذه السنة .

وأضافت ولكن دون أية وخزة .

ـ اوه ! من الطبيعي ان تدافع عنه .

فأجاب :

— كلا، ليس لدي اية نية بذلك. اتعتقدين انني استصوب الحياة التي يحياها؟

— هل قلت له على الاقل ؟

— بالتأكيد .

— ولكن ألا يصغي اليك ؟

— انه يصغي الي ، وهذا اكثر خطورة : اعتقد انه لا يفهمني .

فجازفت والتفتت نحوه :

— ... لا يفهمك ابداً ؟

— ربما ؛ نعم .

للوهلة الأولى اتخـــذ حديثهما منعطفاً جدّياً ، وفيما يتعلق بدانيال فقد كانا يتبادلان تعاطفاً لم يكن منذ البارحة جديداً تماماً بينهما . ولكنهما لم يكونا يرضيان ابداً ان يدعا هذا التعاطف يتقرر بشكل مفتوح. وبما انهما كانا يدخلان الحديقة ، فانها هي التي اقترحت :

— لو سرنا على الطريق ! اتسير بي إلى البيت بطريق الغاب ؟ لا يزال الوقت مبكراً والطقس جميلاً .

وانتابته سعادة كبيرة لم يحاول إخفاءها ؛ ولم يجرؤ على الاطمئنان اليها؛ كان يخشى ان يزول موضوع تفاهمهما الثمين فأسرع بإعادة عقده :

— في دانيال نوع من الانتشاء بالعيش !

فقالت :

— آه ! اعرف جيداً . دون مضايقة . ولكن حياةً دون مضايقـــة هي كثيرة الخطر . هي دنسة .

أضافت ذلك دون ان تنظر اليه . وردد برصانة :

— دنسة . اني اعتقد مثلك يا جني .

هذه الكلمة التي كان يتردد دائماً في لفظها، بينما كانت تصعد دائماً إلى الشفتين، كان يلتقطها بتهلل على شفتي الفتاة . كانت كل مغامرات دانيال دنسة . وحب

انطوان دنس ايضاً . ودنسة جميع الرغبات الجسدية . لقد كانت وحدها طاهرة تلك العاطفة التي لا تسمّى ، والتي اخذت تنبت فيه منذ اشهر ـ ومنذ البارحة كانت تتفتح من ساعة الى أخرى .

الا انه تابع بهدوء ظاهري :

ــ كم احقد عليه أحياناً بسبب ذلك الموقف الذي يقفه امام الحياة ! ذلك النوع من ...

فقالت بسذاجة :

ــ ... فساد الاخلاق .

وهي عبارة كانت تستعملها في الغالب مع نفسها ، مرادفة عندها لكل ما يبدو مشبوهاً لدى براءتها .

وقال مصححاً :

ــ ذلك النوع من قلة الحياء .

مستعملاً هو ايضاً العبارة غير النظيفة ، التي اختارها لاستعماله . ولكن على أثر ذلك خطرت له الفكرة بانه كان يشي بنفسه إلى حد ما ، وتوقف ، وهتف :

ـ لا يعني ذلك انني احمل الاعتبار للطبائع التي تناضل دون انقطاع ضد نفسها : اني افضل .. (كانت جني تتأمله منتبهة لتنفذ إلى تفكيره ، وكما لو ان تلك الجملة الاخيرة كانت هامة بنظرها بشكل خـــاص) .. اني افضل الطبائع التي تحب ان تكون كما هي . الا انه يلزم ايضاً ..

وخطر بباله عدة امثلة لم يكن يجرؤ على استعمالها امام الفتاة . وتردد . فقالت :

ــ نعم . اني اخشى ان ينتهي دانيال الى ان يفقد الـ.. كيف اقول ؟ معنى الخطيئة . اتفهمني ؟

فوافق برأسه ولم يستطع بدوره ان يمتنع عن النظر اليها بالحاح لأن وجهها المفكر كان يضيف الكثير الى اقوالها . وفكر ! « ان فيما قالته اعترافاً لا إرادياً ! .. » »

وظلت مالكة نفسها ؛ ولكن انقباض فمها وتنفسها الضيق كانا يكشفان عن جهدها في ان تكتم في هذه اللحظة احدى تلك الاندفاعات المباغتة التى

كانت تلاشيها في اغلب الاحيان ولاتدعها تظهر .

وتساءل جاك : « لماذا اذن يتخذ وجهها بسهولة ذلك المظهر القاسي المغلق؟ هل ذلك بسبب الحاجبين اللذين كان خطهما كثير الرقة وكثير الجفاف ؟ .. او بالاحرى ، اليس بسبب ذينك الثقبين الاسودين اللذين يشكلهما البؤبؤان عند انقباضهما في الحدقة الزرقاء الرمادية » ؟ ومنذ تلك اللحظة نسي جـاك دانيال لكي لا يفكر بسوى جني .

وسارا بضع دقائق دون ان يتكلما . انها فترة طويلة نسبياً بدت لهما قصيرة جداً . إلا انهما حين أرادا معاودة الحديث أدركا ان أفكارهما كانت ، من هـذه الناحية وتلك ، قد غطت كثيراً من الطريق ، وربما في اتجاهات مختلفة . بنوع ان أحداً منهما لم يعرف كيف يقطع حبل الصمت .

ومن حسن الحظ كانت الطريق تمر بجـانب نوع من المرأب يزحم الارض بالسيارات التي هي قيد التصليح . ورجّة المحركات لا تدعو الى الحديث .

وهناك كلب هرم ، أجرب ، عاجز ، كان يمشي في برك الزيت ، وجاء يدور حول بوس : فأخذت جني كلبتها بين ذراعيها . وما كادا يجتازان باب ذلك المكان حتى جعلهما الصراخ يلتفتان : هناك هيكل لسيارةٍ تقرقع حدائده ويقوده تلميذ عامل في الخامسة عشرة من عمره ، قام بدورة فجائيـة عند خروجه من المشغل . ورغم صرخة الغلام المتأخرة فان الكلب الهرم الاسود لم يتسع له الوقت الكافي ليتنحّى . ورأى جاك وجني العربة تصيب الكلب المسكين في خاصرته بحيث مرّ الدولابان الواحد بعد الآخر على جثته .

وصرخت جني مرتعبة :

– سيموت ! سيموت !

– كلا ، انه يمشي .

وبالفعل ، فقدّ نهض الحيوان وهرب على غير هدى ، دامياً ، عاوياً ، جاراً في الغبار مؤخرته المحطمة التي كانت تجعله يسير بخط منكسر وينهار كل مترين .

وكانت جني تردد بنفس النبرة ، وقد تغير وجهها :

ــ سيموت ! سيموت !

واختفى الكلب في باحة البيت ، واصبح أنينه متقطعاً ، ثم انقطع كليّاً .

وفترة الاستراحة هذه بعثت البهجة في عمال المرأب فتبعوا آثار الدمـاء . وصاح واحد منهم في الآخرين ، وكان قد وصل حتى البيت :

ــ انه هنا ، لا يتحرك ابداً .

وكأن جني قد خفّ ما بها ، فتركت الكلبة تنزل على الأرض ، وسارا باتجاه الغاب . ولكن هذا التأثر الذي شعرا به معاً زاد من تقاربهما . وقال جاك :

ــ لن أنسى ابداً وجهك وصوتك حين كنت تصرخين .

ــ كنت حمقاء . هذا مثير للاعصاب . ماذا صرخت ؟

ــ لقد صرخت : « سيموت ! » لاحظي : لقد رأيت الكلب تقلبه السيارة ، ويصبح معجوناً دامياً . وكان هذا هو المرعب . إلا ان القلق النفسي الحقيقي لم يبدأ إلا بعد تلك اللحظة . يعني في اللحظة الفاجعة حيث الحيوان الذي كان حياً لم يبق له إلا ان يتمدد ليموت . أليس كذلك ؟ لأن الشيء الاكثر تأثيراً هو ذلك العبور ، تلك السقطة ، التي لا تدرك ، سقطة الحياة في العدم . ان فينا رعباً من تلك الدقيقة ، نوعاً من الرعب المقدس المستعد دائمـاً للاستيقاظ ... اتفكرين غالباً في الموت ؟

ــ نعم ... يعني كلا ، ليس في أغلب الأحيان ... وانت ؟

ــ أوه ! انا ، دون انقطاع تقريباً . أريد أن أقول ان معظم أفـكاري توصلني إلى فكرة الموت هذه .ــ وتابع بلهجة خامدة :ــ ولكن، من المستحسن الرجوع إليها غالباً ، انها فكرة ...

ولم يكمل . كان وجهه محتدماً ، متمرداً ، شبه جميل . وقد امتزج عنـــده الملل من العيش بالرعب من الموت .

ومشيا بضع خطوات صامتين ، ثم بدأت بصوت خجول :

ــ اسمع ، لا أدري لماذا ــ وليس لهذا أية علاقة ــ ولكني افكر بأمر ربما كان دانيال قد قصه عليك : أول لقاء لي مع البحر .

ــ كلا ، قولي .

ــ أوه ! انها حكاية قديمة .. كنت في الرابعـة عشرة أو الخامسة عشرة وإليك القصة : كنا ، انا وامي ، قد ذهبنا في نهاية العطلة لنلتحق بدانيال في تريبور . وكان قد كتب إلينـــا ان ننزل في ما لا أدري أية محطة ، وجـاء بطلبنا في عربة . ولـكي يجنبني اكتشاف البحر كان يعصب عيني شيئاً فشيئاً عند المنعطفات .. انها حماقة أليس كذلك ؟ وذات لحظة ، جعلني انزل من العربة وقادني من يدي . وكنت اتعثر لدى كل خطوة . وشعرت بريح عاصفة تكنس وجهي ، وسمعت صفيراً وهديراً وضجة جهنمية . فكدت اموت من الخوف ، ورجوت دانيال ان يتركني . واخيراً ، حين بلغنا النقطة الاكثر ارتفاعاً من الصخور على شاطيء البحر ، مر ورائي وفكّ العصابة دون ان يقول شيئـاً . وعندئذ رأيت البحر كله : البحر المتفلت من عقاله في الصخور تحتي والقائمـة عمودياً تقريباً ؛ البحر حولي على مدى النظر ، وانقطع نفسي ؛ وسقطت بـين ذراعي دانيال ، ولم أعد إلى صوابي الا بعد بضع دقائق . وعندئذ اخذت ابكي، وابكي .. وقد اضطروا إلى اعادتي إلى البيت ، فنمت ، وانتابتني الحمّى. وكانت امي مستاءة جداً .. والآن ، اتعلم ؟ اني لا آسف على شيء . واعتقد اني عرفت البحر جيداً .

لم يكن جاك قد رآها ابداً بهذا الوجه الذي اختفت الكآبة منه ، وتلك النظرة المتحررة ، مع شيء من الهوس . وفجأة انطفأت تلك النار .

وكان جاك يكتشف شيئاً فشيئاً جني مجهولة . وهذا التعاقب بين التحفظ والفوران الفجائي يبعث على التفكير بنبع مستور ولكنه غزير سوف يجد مخرجه بين لحظة واخرى . هل كان يلمس تقريباً سر تلك الكآبة الاصلية التي تكسب ذلك الوجه انعكاس حياة داخلية بمقدار سرعة زوال ابتساماته؟ وفجأة اجتاحه القلق لفكرة ان نزهة كهذه يمكن ان تنتهي .

وقال ملمحاً حين اجتاز قنطرة باب الغابة القديم :

ــ انت لست على عجلة من أمرك . فلنقم بالدورة الكبرى . اؤكـــد انك

لا تعرفين هذا الدرب الصغير .

هناك ممشى رملي ، سهل على الاقدام ، كان يدخل في ظلال الغابة ، ويحاط عند نقطة الانطلاق بالعشب بشكل واسع؛ ثم اصبح ضيقاً اكثر فأكثر . وكانت الاشجار في هذه القطاع قـــد نبتت بشكل سيء ، والسماء تظهر من كل ناحية من خلال اوراقها الصفراء . وكانا يتقدمان دون ان يزعجهما صمتهما .

وتساءلت جني : « مابي اذن ! انه ليس كما كنت اظن ، انه ... انه .. » ولم يستطع أي نعت ان يرضيها. ولاحظت فجأة ، بعاطفة من الوضوح والسرور « لكم نتشابه » . ثم قالت قلقة : « بماذا يفكر ؟ .. »

لم يكن يفكر بشيء . فقد استسلم لراحة لذيذة وفارغة ؛ كان يسير بجانبها دون ان يتمنى شيئاً آخر . وتمتم اخيراً :

— هذه واحدة من ابشع زوايانا في الغاب تلك التي اريها لك هنا .

فارتعشت لنبرة صوته وساورتها معاً تلك الفكرة القائلة ان لدقائق الصمت هذه اهمية رئيسية لاجل الامور المبهمة التي كان كلاهما يفكران بها . واجابت :

— انا من رأيك .

وتابع جاك دائساً بشدة على التراب :

— انها ليست اعشاباً ، انها نوع من النخيليات .

— ان كلبتي تأكل منها ، انظر اليها .

كانا يقولان كل ما يجول بخاطرهما : ومعنى الكلمات تغيرت قيمته بالنسبة اليهما . وقال جاك لنفسه : « أحب صبغة ثوبها الزرقاء. لماذا هذا الازرق الحلو، الأشهب قليلاً؟ هل هو لونها ؟ » ثم هتف دون أي استعداد آخر :

— أقول لك : أن ما جعلني كثير الحمق. ذلك لانني لم أتوصل إلى أن أفصل انتباهي عما أشعر به في نفسي .

وظنت جني أنه يحبها ، فصرحت :

ـ هذا مثلي . اني أحلم في كل وقت تقريباً . وأحب ذلك . هل أنت أيضاً؟ وما أحلم به لا يخص سواي ؛ ويرضيني ألا أتقاسمه مـع الآخرين . أتفهمني ؟

فقال : اوه ! تماماً .

هناك فروع من النسرين يحمل أحدها ثمراً صغيراً ، كانت تغمر بالزهر دغلاً على عرض الدرب . وكان جاك على وشك تقديم هذه الفروع لها : « هـا هي أزهار ، وأثمار ، وأوراق ، وفروع . وثم .. » وتوقف وتطلع إليها . ولم يجرؤ . وحين اجتاز الدغل قال لنفسه : ذلك لانني أدبي !

وسألت : أتحب فرلين ؟

ـ نعم . وعلى الخصوص « حكمة » التي كان دانيال يحبها كثيراً فيما مضى .

وتمتم :

« جمال النساء ، ضعفهن ، وتلك الايدي الشاحبة

التي تصنع الخير في أغلب الاحيان وتقدر على الشر كله .. »

وتابع بعد وقفة :

ـ ومالارميه ؟ عندي مجموعة من القصائد العصرية التي لم تنظم بشكل سيء سآتيك بها . أتريدين ؟

ـ نعم .

ـ أتحبين بودلير ؟

ـ أقل . أنه مثل ويتمان . ومع ذلك فاني أعرف بودلير قليلاً .

ـ وويتمان هل قرأتِ له ؟

ـ لقد قام دانيال ببعض القراءات لي في هذا الشتاء . أشعر جيداً لماذا هو يحب ويتمان كثيراً . أمـا أنا .. (وفكر الاثنان بتلك الكلمة « الدنس » التي لفظاها منذ برهة . وقال جاك لنفسه : « لكم تشبهني ! ») . وتابع :

ـ ولكن أنت . ألأجل هذا تماماً لا تحبين ويتمان مثله ؟

فحنت رأسها ، سعيدة لأنه أتم فكرتها .

وكان الدرب يتسع من جديد لينتهي الى بقعة جرداء فيها مقعد بين سنديانتين نخرهما الدود . وألقت جني على العشب قبعتها القش الكبيرة اللدنة وجلست .

واعترفت تلقائياً كما لو أنها تفكر بصوت مرتفع :

ـ هناك لحظات أصاب فيها بالدهشة تقريباً من صداقتك الخالصة مع دانيال.
فابتسم وقال :
ـ لماذا ؟ ألأنك تجدينني أختلف عنه ؟
ـ اليوم ، جداً .
وتمدد على مسافة منها على المنحدر ، وتمتم :
ـ صداقتي مع دانيال . هل كان يحدثك أحياناً عني ؟
ـ كلا ، يعني ، نعم . قليلاً .
واحمر وجهها ؛ ولكنه لم ينظر إليها . وتابع وهو يمضغ قشة :
ـ آه ! انها الآن محبة ثابتة ، شيء قد هدأ . ولم يكن دائماً كذلك .
وصمت ، ودلها باصبعه ، في بقعة شامسة وعلى طرف عشبة ، على حلزونة شفافة كالعقيق كانت تحرك قرنيها الهلاميين في النور بحيرة . وتابع دون رابط بين الكلام :
ـ أنت تعلمين ، أثناء حياتي كطالب ، كانت تمر أسابيع بكاملها أعتقدنفسي فيها أنني أصبحت مجنوناً ما دامت هناك أشياء في حـــالة الذوبان في رأسي المسكين . ودائماً وحدي !
ـ مع انك تعيش مع أخيك ؟
ـ من حسن الحظ . ومن حسن الحظ أيضاً اني كنت كثير الحرية . وبدون ذلك أعتقد جيداً انني كنت سأصبح مجنوناً ، وعلى وجه جدي ، كنت سأهرب.
وفكرت بهربها إلى مرسيليا ، وبشيء من التسامح للمرة الاولى في حياتها .
وصرخ هو بصوت قاتم :
ـ كنت أشعر انني غير مفهوم ؛ غير مفهـوم من الجميع ؛ حتى من أخي ، حتى من دانيال في أغلب الاحيان .
فقالت لنفسها : « مثلي تماماً » .
ـ أثناء تلك الحقب كنت غير قادر على الاهتمام بأي عمل في البيت . كنت أقرأ ، أقرأ كالمجنون كل ما كان موجوداً في مكتبة انطوان ، وكل ما استطاع

دانيال أن يأتيني به . وجميع الروايات العصرية تقريباً ، من فرنسية وانكليزية وروسية ، قد مرت علي . لو تعرفين الاندفاعات التي أكسبنيها ذلك ! وبعد هذا ، فان كل شيء كان يبدو مضجراً مميتاً : الدروس ، مماحكات النصوص ، اخلاق الناس الصالحين الجميلة ! انني بالتأكيد لم أخلق لكل هذا .

ولم يضع في الكلام عن نفسه أي ادعاء ؛ ولكنه وهو المتمكن من نفسه ككل كائن شاب وقوي ، لم يكن يتخيل متعة أكثر اصالة من تحليل نفسه هكذا أمام هاتين العينين المنتبهتين ؛ والسرور الذي أصابه من ذلك كان سريع العدوى . وتابع :

ـ انه الوقت الذي كنت ارسل فيه الى دانيال رسائل من ثلاثين صفحة ، كنت اقضي في كتابتها ليلة بكاملها . رسائل أسلت فيها كل حماساتي في النهار ، وكل حقدي بوجه خاص ! آه ! اكاد اضحك منها الآن .. ولكن كلا ـ قال ذلك ضاغطاً جبهته بين يديه ـ كل هذا جعلني اتألم كثيراً ، ولا استطيع الصفح عن ذلك حتى الآن . وتلك الرسائل كنت استعيدها من دانيال واعيد قراءتها. وكل رسالة منها كاعتراف مجنون في فترة ألق من صفاء الذهن . كانت تتتابع بين الواحدة والاخرى بضعة ايام ، واحيانا بضع ساعات ، وكانت كل واحدة منها كالانفجار ، انفجار ازمة داخلية تتناقض في اغلب الاحيان مع الأزمة السابقة . ازمة دينية لانني ألقيت نفسي بجسد هالك في الاناجيل ، او في العهد القديم ، او في فلسفة كونت [١] الوضعية .آه! رسالتي بعد قراءة لإمرسون[٢] . وكنت مصاباً بكل امراض المراهقة : « فنسية [٣] *VInci*te » حادة، وبودليرية ساخطة ! ولكن ليس هناك اي داء مزمن ! وذات صباح كنت كلاسيكياً ، وفي المساء رومنتيكياً . وقد اشعلت خفية في مختبر انطوان كتب ماليرب

---

١ ـ اوغست كونت : فيلسوف ورياضي فرنسي . ولد في مونبليه (١٧٩٨ ـ ١٨٥٧) .
٢ ـ رالف والدو امرسون : فيلسوف اميركي ولد في بوستون (١٨٠٣ ـ ١٨٥٧) .
٣ ـ نسبة الى ليوناردو دي فنسي الرسام الايطالي الشهير .

وبوالو . فعلت ذلك وحدي ، ضاحكاً كالشيطان ! وفي الغد فان كل ما كان أدباً بدا لي فارغاً ايضاً ، وكريهاً . واخذت ادرس هندستي بجهد ، مبتدئاً من الاول ؛ كنت عازماً عزماً اكيداً على اكتشاف قوانين جديدة يجب ان تقلب جميع المعلومات المكتسبة. ثم عدت واصبحت شاعراً . ونظمت لدانيال قصائد مغناة ، ورسائل شعرية من مائتي بيت مكتوبة دون شطب تقريباً . ولكن ما لا يصدق في كل هذا ـ قال ذلك وقد هدأ فجأة ـ هو انني كتبت وانا اكثر جدّية ، وباللغة الانكليزية ، نعم ، كله باللغة الانكليزية ، بحثاً بثمانين صفحة حول « حرية الفرد في علاقاته مع المجتمع» . ولا يزال عندي الى الآن.انتظري، ليس هذا كل شيء ، مع مقدمة قصيرة ، وأعترف بذلك ، ولكن باللغة اليونانية الحديثة (هذا التفصيل الاخير كان خطأ ، فقد كان يتذكر فقط انه كان يريد كتابة هذه المقدمة) . ـ وانفجر ضاحكاً ـ كلا ، لست مجنوناً .

قال ذلك بعد صمت . ثم صمت برهة ايضاً ، وأكد دون كبرياء ، نصفه رزين والنصف الآخر ضاحك :

ـ مهما كان الامر فأنا اختلف كثيراً عن الآخرين .

كانت جني تداعب الكلبة الصغيرة وتفكر. كم مرة رأت في جاك ذلك الكائن المقلق ، الخطر تقريباً ! ومع ذلك فقد اضطرت الى الاعتراف انه لم يكن يخيفها .

كان جاك متمدداً على العشب يتطلع امامه . وكان سعيداً لأنه تكلم على سجيته . وسأل بكسل :

ـ ألسنا على خير حال تحت هذه الاشجار ؟

ـ نعم ، كم الساعة ؟

لم يكن معهما ساعة . وكان طرف الغاب قريباً ، وليس هناك ما يتعجلهما ، وكانت جني تشاهد من مقعدها رؤوس شجرتي الكستناء اللتين تعرفهما جيداً ، وأبعد من ذلك ، ارزة البيت الموجودة في الغاب ، والتي تمد اغصانها السوداء على السماء الزرقاء .

وقالت وهي منحنية على الكلبة التي كانت جالسة على تنورتها ، متجنبة الالتفات إلى ناحية جاك :

ـ لقد قرأ لي دانيال بعضاً من أشعارك .

ثم دهشت من صمته فعزمت على النظر إليه : لقد احمرّ حتى منبت شعره ؛ وكان نظره الغاضب يتوه حوله . واحمرّت بدورها وهتفت :

ـ آه ! لقد اخطأت بأن قصصت عليك ذلك .

ولام جاك نفسه على غضبته وحاول كبحها ؛ ولكنه لم يكن يحتمل فكرة وجود أحد ـ حتى جني ـ يستطيع الحكم عليه من خلال لجلجة شاب . وكان متحذراً في هذا الموضوع بحيث كان يعلم انه لم ينل قيمته في شيء بعد ؛ وهذا ما كان يتألم منه في جميع أيام حياته . وقال بعنف :

ـ اشعاري ، انها صفر .

(لم تعترض ، حتى انها لم تحرك يدها ، وقد سره ذلك) . وهتف اخيراً :

ـ هذا يجعلني أقل اعتباراً من .. اولئك الذين .. آه ! لو كانوا يرجمون بما أريد عمله !

هذا الموضوع المحرق ، ووجود جني ، وتلك الوحدة ، كل هذا بعث فيه تأثيراً حيث اختنق صوته ، وقرصته عيناه كأنه سينفجر باكياً . وتابع بعد فترة توقف :

ـ اسمعي . هذا كأولئك الذين هنأوني لقبولي في دار المعلمين ! لو كنت تدركين ما اعتقد في ذلك ! انا مخجول ! ليس مخجولاً فقط لأنني قُبلت ، بل مخجول لانني رضيت .. بحكم جميع اولئك ! آه ! آه لو تعرفين ما هم ! كلهم مصنوعون بنفس القالب ، بنفس الكتب ! الكتب ، ودائماً الكتب ! وقد تحتم علي ان أذهب لأتسول منهم .. انا ! لقد انحنيت إلى .. آه .. انا ..

كانت تعوزه الكلمات . وكان يشعر جيداً انه لم يعط لنفوره أي سبب ذي قيمة . ولكنّ الحجج الجيدة ، الحقيقية ، كانت طويلة البقاء ، متأصلة جداً فيه فلا تُقتلَع بسرعة وتنشر في وضح النهار . وصاح :

ـ آه ! اني احتقرهم كلهم وازيد من احتقاري لنفسي لأنني بينهم ! ولن استطيع ابداً ، ابداً .. لن استطيع ان اعفو عن كل هذا .

وفعلت حسناً باحتفاظها بهدوئها حين رأته منفعلاً . ولاحظت دون ان تعرف ما هو تفكير جاك انه كان يعبر في الغالب عن ذلك الحقد غير المحدود ، وذلك الرفض للصفح . وبالحقيقة ، يجب ان يكون قد تعذب كثيراً . ومع ذلك ـ وهو في هذا يختلف كثيراً عنها ـ فان إيمانه بالمستقبل ، بسعادة مستقبلة ، ظل واضحاً ؛ وخلال لعناته كانت تطوف نسمة دائمة من الامل ، واليقين ؛ وكانت مطامحه تبدو متجاوزة الحد ، ليس فيها أي اثر للشك . وجني لم تكن تصفحت في السابق ما يمكن ان يكون مستقبل جاك . ولكنها لا تشعر بأية مفاجأة لو اكتشفت انه وضع هدفه عالياً جداً . وحتى في الوقت الذي كانت تعتبر جاك فيه ولداً شرساً وزقاقياً ، فانها لم تنقطع عن الاعتراف بالقوة الموجودة فيه . واليوم ، فأن هذه الأقوال المحمومة ، واللهب الذي كانت تشعر انه يلتهم قلب جاك ، كل هذا اثار فيها دواراً ، كما لو انها وجدت نفسها محمولة بنفس الاعصار رغماً عنها . ونتج عن ذلك انطباع بعدم الاطمئنان مؤلم جداً ، بحيث انها نهضت . فقال جاك عندئذ بصوت مختنق :

ـ اسألك الصفح ، ذلك لان كل هذا ، كما ترين ، يشد بقوة على قلبي .

وسارا في الدرب المحاذي لمتعرجات الخندق القديم ، لطريق العسس ، وبلغا باب الغاب الآخر على الحديقة ؛ وكان مقفلاً بقضبان حديدية ذات حراب ، وكان القفل يصر كمزلاج سجن .

وكانت الشمس مرتفعة ، والساعة لم تتجاوز الرابعة بعد . وما من شيء يضطرهما إلى انهاء نزهتهما . لماذا إذن سارا في طريق العودة ؟

وفي الحديقة التقيا ببعض المتنزهين ؛ ومع انهما البارحة أيضاً طافا معاً هذه الجادات نفسها دون ان يفكرا بالشر ، فان عاطفة مماثلة من الحياء جاءتهما اليوم لوجودهما معاً ، وحيدين ، جنباً إلى جنب .

وقال جاك فجأة عند تقاطع ممرين :

ـ حسناً ، سأتركك هنا ، أليس كذلك ؟

فأجابت دون تردد :

ـ نعم ، فها أنا في البيت تقريباً .

ووقف امامها قلقاً دون ان يدري لماذا ، غير مفكر حتى برفع قبعته . واعاد القلق إلى وجهه ذلك التعبير الثقيل ، الخشن ، الذي يتخذه في اغلب الاحيان ، والذي لم تره طوال النزهة . ولم يمد اليها يده . وبذل جهداً ليبتسم . وفي اللحظة التي دار فيها على اعقابه ملتفتاً إليها بنظرة خجولة ، قال متلجلجاً :

ـ لماذا .. لا أكون دائماً .. هكذا .. معك ؟

فلم تظهر جني انها سمعت ، وسارت بخط مستقيم خلال الاعشاب دون ان تلتفت. انها تقريباً نفس الكلمات التي رُددت عدة مرات منذ البارحة . ولكن الشك ساورها فجأة . شك لم تكن تجرؤ على صياغته : ربما اراد جاك ان يقول : «لماذا لم يكن مسموحاً لي ان أعيش معكم دائماً كاليوم ؟ » هذا الافتراض كان يحرقها . وسارعت الخطى ، ودخلت إلى غرفتها ملتهبة الخدين ، مترنحة الساقين . وامتنعت عن التفكير .

وقضت كل فترة ما بعد الظهر وهي تشتغل بحمّى : بدلت ترتيب غرفتها ، وغيرت مكان الاثاث ، ورتبت خزانة البياضات . وأعادت صنع باقات الزهر في البيت. وبين لحظة واخرى كانت تمسك بالكلبة الصغيرة ، وتضمها ، وترهقها بالمداعبات. وحين اضطرت إلى التأكد من ان دانيال لن يأتي على العشاء ، وذلك بأن نظرت مرة اخيرة الى الساعة ، اجتاحها اليأس ، ولم تستطع الجلوس على المائدة وحدها ، فأكلت صحناً من الفريز على الشرفة . ولكي تهرب من احتضار النهار الذي لا ينتهي التجأت إلى قاعة الاستقبال ، وأشعلت المصابيح كلها ، واخذت مجموعة بيتهوفن . ثم غيرت فكرها فألقت بيتهوفن وأخذت دفتر « دروس » لشوبان ، واسرعت إلى البيانو .

وبالفعل فقدْ بدا النهار انه يموت ببطء خاص ، لأن ضوء القمر الطالع ، المختبيء خلف الأشجار ، كان يقوم مقام آخر اضواء المغيب دون ان يُشعَر به

وكان جاك ، بدون مقصد واضح ، قد وضع في جيبه ذلك الكتاب للشعراء المعاصرين الذي عرضه على جني . ولم يستطع احتمال لا مبالاة الحياة العائلية هذا المساء ، فخرج يطوف في الحديقة . وكان تفكيره يشرد دون ان يستطع تركيزه على شيء. وبعد اقل من نصف ساعةوجد نفسه يسير في الطريق المحاط بالاكاسيا مفكراً : « بشرط ألا يكون الباب مقفلاً » .

ولم يكن مقفلاً . ورن الجرس ؛ وارتعش كأنه مختلس . وكانت رائحة حارة صمغية ، تمتزج فيها عفونة منملة ، تأتي من تحت الصنوبر . وصوت البيانو الضعيف لا يكاد ينعش الجنينة المقطوفة . انهما جني ودانيال يعزفان الموسيقى دون شك . وكانت غرفة الاستقبال تفتح على الواجهة المعاكسة . وكان البيت ينام من الجهة التي كان جاك موجوداً فيها ، وكل النوافذ مقفلة ، ولكن السطح كان سابحاً بنور غريب . والتفت مدهوشاً : انه القمر الذي كان يبعث الشحوب في دعائم السقف من فوق رؤوس الاشجار ، ويجعل زجاج النوافذ يلمع . وكان يقترب من البيت واجف القلب ، قلقاً لعدم وجود اية وسيلة يعلن بها عن وجوده وشعر بتعزية حين اندفعت بوس وهي تنبح . اما صوت البيانو فيجب ان يكون قد غطى على النباح ، لأن الموسيقى لم تنقطع. وانحنى جاك ورفع الكلبة الصغيرة بين ذراعيه كما تفعل جني ، ولامس بشفتيه الجبهة الحريرية . ثم دار حول جناح البيت ووجد نفسهعلى الشرفة امام قاعة الاستقبال التي كانت فرجة بابها مفتوحة ومضاءة . وكان يقترب دائماً . وحاول ان يعرف ماذا تعزف جني : كان النغم وكأنه حائر ، يبدو انه يتأرجح فترة ، ويقوم بين الضحك والدموع لينفرج اخيراً في منطقة عليا لا وجود للفرح والألم فيها .

وكان قد وصل الى العتبة . وبدت له قاعة الاستقبال فارغة . ولم يميز اولاً سوى الغطاء النسيجي المغطى به البيانو ، والاشياء الصغيرة الموجودة فوقه . وفجأة ، من الثقب المحفور بين إنائين ، شاهد وجهاً ، قناعاً مكشراً ، معلقاً في هالة الشموع ، انها جني التي شوهها الاهتزاز الداخلي . وكان تعبير هذا الوجه مجرداً ، عارياً ، بحيث تقهقر بدافع الغريزة كما لو انه فاجأ الفتاة وقد خلعت

ملابسها .

وأنتظر جانباً في ظل البيت حتى تنتهي المعزوفة ، ضاماً الكلبة دائماً الى كتفه ، مرتجفاً كالسارق : وعندئذٍ نادى بوس بصوت مرتفع ، متظاهراً انه وصل لتوه الى الحديقة .

وارتجفت جني حين عرفت صوته ونهضت بسرعة واحتفظت على قسماتها بأثر تأثرها المنفرد ، ونظرها الشارد كان يدفع نظر جاك كأنه يدافع عن سر وسأل :

ـ هل أخفتك ؟

فعبست دون ان تستطيع اخراج صوت . وتابع :

ـ الم يأت دانيال بعد ؟ ـ ثم بعد وقفة قصيرة :ـ لقداتيتك بهذه المختارات التي حدثتك عنها قبلا .

وأخرج الكتاب من جيبه بحمق فأخذته وتصفحته بحركة آلية . ولم تجلس ، ولم تطلب اليه الجلوس ، فأدرك جاك ان عليه ان يذهب . وخرج الى الشرفة وتبعته جني . فقال مدندناً :

ـ لا تزعجي نفسك .

كانت ترافقه لأنها لم تكن تعرف كيف تنتهي منه بسرعة ، بحيث انها لم تجرؤ على مد يدها اليه وقطع الزيارة .

وكان القمر ينير جيداً ، وقد تخلص من الاشجار ، بحيث انه حين التفت الى جني رأى اهدابها تطرف . وكان لثوبها الازرق سرعة تقلب الرؤية .

واجتازا الحديقة كلها دون ان يلفظا كلمة . وفتح جاك الباب الصغير وهبط الى الطريق ، وكذلك جني اجتازت العتبة دون ان تفكر ، واصبحت في منتصف الدرب واقفة امام جاك ، محاطة بالنور . وعندئذ شاهد على الجدار اللامع بنور القمر ظل الفتاة ، ووجهها الجانبي ، ونقرتها وحواشي شعرها ، والذقن ، حتى اثر الفم ـ خيال مخملي اسود ، ذو وضوح خال من كل عيب . فدل عليه باصبعه ، واجتازت عقله فكرة مجنونة ، وبدون ان يفكر ، وبتلك

الجرأة التي يقوم بها الخجولون وحدهم، انحنى على الجدار وقبل خيال الوجه الحبيب.
فتراجعت جني بشكل فجائي كأنها تريد انتزاع خيالها منه، واختفت في فرجة الباب. ولم يعد مربع الجنينة الساطع ماثلاً للعيان: وسقط الباب. وسمع جاك جني هاربة على الحصباء. عندئذ اوسع خطاه وسار في الليل ضاحكاً.

وكانت جني قد اخذت تركض، وتركض كأن جميع الاشباح البيضاء والسوداء التي تعمر الجنينة الصامتة تلاحقها. واندفعت الى البيت وتسلقت حتى غرفتها، وارتمت على سريرها. وجعلها العرق البارد ترتعش. وكان قلبها يتألم، فضغطت على صدرها بيديها المرتجفتين، ونبشت الوسادة بقسوة بواسطة جبهتها. وتحولت ارادتها نحو جهد واحد: الا تتذكر شيئاً! وقد ضايقها الخجل ومنع الدموع من الصعود الى العينين. وسيطر عليها شعور جديد: الخوف. الخوف من نفسها.

واخذت بوس، المنسية تحت، تنبح. لقد عاد دانيال.

وسمعته جني يصعد الدرج مدندناً، ثم يقف دقيقة بقرب الباب. لم يجرؤ على طرق الباب وقد رأى انه لا يوجد أي ضوء يتسرب من الغرفة، ظاناً ان اخته نائمة. إلا ان كل مصابيح قاعة الاستقبال كانت مضاءة.. وجني لم تقم بأية حركة؛ كانت تريد ان تظل وحيدة في الظلام. ولكن لدى سماعها خطى أخيها تبتعد، انتابها القلق ووثبت من سريرها:

ـ دانيال.

وعلى ضوء القنديل الذي يمسك به، رأى الوجه المتغير، والحدقتين المحملقتين، فظن ان تأخره ارعب اخته؛ وكان يبحث عن أعذار حين قاطعته قائلة بصوت صافر:

ـ كلا، انا متوترة الاعصاب. لم استطع التخلص من صديقك. فقد تبعني، ولم يتركني.

وكانت شاحبة من الغضب، تطرّق كل مقطع. ثم غمرت وجهها موجة

فجائية من الاحمرار ، فبكت ، وجلست منهوكة على سريرها :

ـ أؤكد لك يا دانيال . قل له ... اطرده ... لا أستطيع . اؤكد لك ، لا أستطيع !

فتأملها ملياً ، عاجزاً عن الفهم ، محاولاً معرفة ما يمكن انه حدث بينهما : وتمتم : ـ ولكن ماذا ؟

وخطرت له فكرة ، فتردد في اعطائها شكلاً . وارتفعت شفته باعوجاج ، وبابتسامة قلقة ، ولمّح اخيراً :

ـ هذا المسكين جاك . ربما انه ...

كانت النبرة ذات دلالة بشكل كاف بحيث لم يكن عليه ان يتم عبارته . ودهش لرؤية جني ترتجف ، منخفضة العينين ، وقد بدت انها اصبحت لامبالية . وملكت نفسها ، وبعد رقفة طويلة لم يأمل دانيال بعدها بجواب ، قالت :

ـ ربما .

واستعاد صوتها رنته العادية .

وفكر دانيال : « انها تحبه » . وهذا الاستنتاج جاء بغتة بحيث ظل صامتاً ، مصاباً بالذهول .

في تلك اللحظة التقت جني بنظرة اخيها : وقرأت فيها بوضوح ما كان يفكر . فتمردت : كان لعينيها الزرقاوين بريق ، واتخذ وجهها تعبيراً من التحدي ، وبدون ان ترفع صوتها ، وعيناها في عيني دانيال ، هزت رأسها الرصين ، ورددت ثلاث مرات متتالية :

ـ ابداً ! ابداً ! ابداً !

وبما ان دانيال كان يتأملها حائراً ، ولكن بحنو ، وعناية اخ اكبر كانت تصفعها ، فانها سارت نحوه ورفعت عن جبهة الشاب خصلة متمردة وربتت على خده قائلة :

ـ هل تناولت عشاءك على الاقل ايها المجنون الكبير ؟

٩

كان انطوان بالبيجاما ، واقفاً امام الموقد ، يقطع كعكة بخنجر ماليزي . وتثاءبت راشيل وقالت بصوت كسول :

ـ اقطع بشكل سميك يا عزيزي .

كانت على السرير ، ويداها تحت رأسها ، وهي عارية .

وكانت النافذة مفتوحة ولكنها مغطاة من اسفل بستار من النسيج لا يدع شيئاً يصل الى الغرفة سوى ظل حار لخيمة ٍ في الشمس . وكانت باريس تشوى بنار نهار احد ٍ من آب . ولا تتصاعد من الشارع اية ضجة . والبيت ، هو ايضاً، كان صامتاً ، فارغاً تقريباً ، باستثناء الطابق الاعلى حيث كانت ألين دون شك تقرأ الجريدة بصوت مرتفع لتسلي مدام شاسل والصغيرة الناقهة ، المحكوم عليها بعدة اسابيع اخرى تظل فيها في وضعية افقية .

واكدت راشيل ، فاتحة فم هرة وردياً :

ـ انا جائعة .

ـ الماء لم يغل بعد .

لا يهم ! هات .

فوضع قطعة كعك كبيرة في الصحن ووضعه على حافة السرير . وادارت جذعها الاعلى ببطء ، دون ان تترك الوضعية المتمددة ، واتكأت على المرفق ، ورأسها منقلب ، وبدأت تتذوق وهي تشد بين اصبعين شذرات الحلوى التي اخذت تسقطها في الفم .

ـ وانت يا عزيزي ؟

فقال وقد استلقى بين وسائد الاريكة :

ـ اني انتظر الشاي .

ـ أتشعر بالتعب ؟

فابتسم لها .

كان السرير منخفضا ، مكشوفا كلياً . وكان حرير الستائر الوردي يتكور في المخدع حيث بدا عري راشيل المعروض باعتزاز مرتاحاً كصورة رمزية في تجويف محارة شفافة . وتمتم انطوان :

ـ لو كنت رساماً . .

ولاحظت راشيل بابتسامة سريعة :

ـ انت ترى انك تعب . حين تصبح فناناً فذلك يعني انك تعب

وألقت رأسها الى الوراء واختفى وجهها في الظل على فراش شعرها المتوهج. وهناك نور كان يشع على هذا الجسد اللامع كعرق اللؤلؤ . والساق الايمن الملقى باسترخاء بشكل منجل كان ينغمس في الاغطية ، والساق الآخر مرفوع بالعكس ، ومطوي فيجعل منحنى الركبة بارزاً ويرفع في ضوء النهار رضفته العاجية . وزفرت :

ـ انا جائعة .

وحين اقترب ليأخذ الصحن الفارغ لفّت حول عنقه ذراعيها ، كذراعي رجل ، وجذبت وجهه وقالت دون ان تبعده :

ـ اوه ! هذه اللحية ، متى تخلصنا منها ؟

فنهض ، وألقى على المرآةنظرة قلقة ، واخذ يبحث عن قطعة كمك ثانية ، وصرح بينما كانت تقضم الشريحة بأسنانها الجميلة :

ـ ان ما يعجبني كثيراً عندكِ هو هذا .

ـ شهيتي ؟

ـ صحتك . هذ الجسد الذي يدور الدم فيه جيداً . انت مقوية ! وانا ايضاً ، الجسد جيد . .

اضاف ذلك باحثاً من جديد عن المرآة ليرى نفسه فيها : كان يربع كتفيه ، ويرفع ويمدد نصفه الاعلى دون ان يفطن الى اية درجة ظلت اعضاؤه نحيلة بالنسبة لحجم الرأس ، وكان يتخيل دائماً ان لبنيته الجسدية نفس مظهر القوة الذي لقسماته . وهذا الاحساس بالقوة والامتلاء كان قد ازداد منذ اسبوعين الى

درجة الزهو بكل ما اثاره الحب فيه . وقال مختتماً :

ـ اتعلمين ؟ لقد بُني جسدانا لنعيش قرناً .

فتمتمت وقد رقت عيناها نصف المطبقتين :

ـ معاً ؟

لقد خطرت لها فكرة غريبة : الخوف من عدم الاحتفاظ الدائم بهذا الطعم الذي شعرت به منه والذي جعلها سعيدة جداً . وفتحت عينيها . وتحسست ساقيها ، وأمرّت يديها على طول جسدها المرن واكدت قائلة :

ـ اوه ! انا اذا لم أقتل فأني واثقة من العيش الى ان اصبح هرمة جداً . لقد كان لأبي من العمر اثنتان وسبعون سنة حين فقدته . وكان متيناً كرجل في الخمسين . ومات على اثر ضربة شمس ، مصادفة . انهم يموتون بحادث عندنا ، فأخي مات غريقاً ، وانا ايضاً سأموت بحادث : بطلقة مسدس . هذه الفكرة تلازمني دائماً .

ـ وأمك ؟

ـ امي ؟ ليست ميتة . كنت اراها في كل مرة وقد استعادت شبابها . وصحيح ايضاً ان الحياة التي تحياها ... ـ اضافت ذلك دون نبرة خاصة ـ انها حبيسة في سانت ـ آن .

ـ في مأوى الـ...

ـ اما قلت لك ذلك ؟

وابتسمت كأنها تعتذر وتابعت ملاطفة :

ـ لقد مضت سبع عشرة سنة على وجودها هناك . ولا أذكرها إلا بالجهد . كنت في التاسعة . وهي مرحة ، ولا تبدو انها تتألم من شيء ، وتغني ... اننا مقاومون في العائلة ... ماؤك يغلي .

فأسرع نحو الموقد . وحين انتقع الشاي ، انحنى نحو المرآة مخبئاً لحيته بيده ومحاولاً ان يتخيل مظهر وجهه الحلوق . كلا . انها تحجبه تلك الكتلة الداكنة في أسفل الوجه : لقد كانت تجعل كثيراً من الاهمية لمستطيل الجبهة الظاهر ،

ولتغمض الجفون ، وللنظرة ! وثم ، فانه كان بدافع الغريزة يخاف ان يكشف الفم كما لو ان ذلك اقرار بالتعرض للخطر .

وجلست راشيل على السرير لتشرب شايها ، واولعت سيكارة ، وانقلبت من جديد .

ـ تعال إلى جنبي . ماذا تفعل لتبقى مستاءً هناك ؟

وانزلق إلى جانبها مبتهجاً وانحنى على وجهها . وتصاعدت رائحة الشعر المحلول نحوه في برودة المخدع : رائحة مثيرة وعذبة معاً ، رائحة لاصقة ، كريهة نوعاً ، كان يبحث عنها ويخشاها بالتناوب ، لأنه بعد ان تنشقها طويلاً اصبح مشبعاً بها حتى اعماق حنجرته . وقالت :

ـ ماذا تريد ؟

ـ انظر إليك .

ـ يا عزيزي ..

وما ان انفصل عن شفتيها حتى استعاد وضعيته وتطلع بفضول في عيني راشيل .

ـ ماذا تنظر إذن ؟

ـ اني ابحث عن حدقتيك .

ـ هل يستصعب إيجادهما إذن ؟

ـ نعم ، بسبب أهدابك . فهي تشكل ضباباً مذّهباً أمام عينيك . وهذا ما يكسبك هذه السحنة .

ـ أية سحنة ؟

ـ غامضة .

فهزت كتفيها وصرحت :

ـ ان حدقتيّ زرقاوان .

ـ اتظنين ذلك ؟

ـ ازرق فضي .

ـ ابدا .

قال ذلك واضعاً شفتيه من جديد على شفتي راشيل ثم انتزعها بعد ذلك بداعي اللعب .

ـ حدقتاك تارة رماديتان وطوراً بنفسجيتان زاهيتان .

ـ شكراً .

وابتسمت وحركت عينيها يمناً وشمالاً .

اما هو فكان يتأملها مفكراً : « خمسة عشر يوماً ... يبدو لي ان هناك شهراً . ومع ذلك فلم استطع معرفة لون عينيها . وماذا اعرف من حياتها ؟ست وعشرون سنة عاشتها بدوني ، وفي عالم يختلف عن عالمي . عاشتها : يعنى ملأى بالاشياء ، والتجارب . اشياء غامضة بــدأت اكتشفها شيئاً فشيئاً ... » ولم يعترف لنفسه بكل اللذة التي شعر بها لهذا الاكتشاف ، ولم يدعها ترى ذلك : لم يكن يطلب منها شيئاً . ولكنها كانت تثرثر بطيبة خاطر . وكان يصغي إليها ، ويفكر ، ويقرّب التفاصيل والتواريخ ، ويحــاول ان يفهم . ويندهش على الخصوص ، يندهش دون انقطاع محاولاً الا يظهر شيئاً من ذلك . ـ اكان ذلك بداعي المداهنة ؟ ـ كلا . ولكن منذ وقت طويل كان موقفه أمام الآخرين هو أن يبدو عارفاً ! لم يتعلم ان يسأل سوى مرضاه . والفضول والمفاجأة كانا في عداد العواطف التي اعتاد كبرياؤه على تغطيتها تحت هيئات صاغية ومنتبهة . وقـالت :

ـ انت اليوم تنظر إليّ كأنك لم تعرفني . كفى . دع هذا .

وأبدت الملل . وكانت قد اطبقت عينيها لتتحاشى هذا الفحص . واراد ان يرفع الجفون باصابعه فقالت وهي تطوي ذراعها العاري امام عينيها :

ـ كفى ، كلا . لقد انتهى هذا ولا اريد ان ادعك تنظر في عيني .

ـ اذن تريدين إخفاء شيء عني ، يا ابا الهول الصغير ؟

وقبّل الذراع الجميل اللامع من الكتف إلى المعصم . وتساءل : « هل تكتم اسرارها ؟ كلا . انه شيء من التحفظ ؛ ولكنه ليس كتمان اسرار . بالعكس ،

انها تتحدث عن نفسها بسرور . وتصبح من يوم لآخر اكثر ثرثرة ... لأنها تحبني » . وفكر منتشياً : « لانها تحبني » .

ولفّت ذراعها حول عنقه وجذبته مرة اخرى نحـــو وجهها . ثم فجأة ، وبنبرة جدية :

ـ هذا صحيح، كما تعلم: لا يمكن تصور ما يستطاع رؤيته في نظرة واحدة !

وصمتت ، وسمع في اعماق حنجرتها تلك الضحكة الصغيرة الصامتة التي تتفلت منها في اغلب الاحيان حين تستحضر الماضي .

ـ اسمع . اني اتذكر : كان ذلك بنظرة ، بنظرة بسيطة اكتشفت سر رجل عشت معه عدة شهور. كان ذلك على المائدة ، في مطعم في بوردو . وكنا نجلس وجهاً لوجه ، وعيوننا تروح وتجيء من صحنينا إلى وجهينا ، أو تطوف القاعة بسرعة . وفجأة ـ لن أنسى هذا ابداً ـ وفي فترة لا تكاد تبلغ الثانية ، فاجأت نظره يتطلع ورائي ، بشكل معـــبر ... كان كثير القوة بحيث التفتُّ دفعة واحدة ، رغماً عني ، لأرى ..

ـ وبعد ؟.

ـ وبعد ، ذلك لأقول لك ـ وتابعت بنبرة اخرى : ـ انه يجب الحذر من نظراته .

وكان انطوان على وشك ان يقول ملحّاً : « ولكن ذلك السر ؟ » ولم يجرؤ . كان يشعر بخوف متناهٍ من ان يبدو ساذجاً بمجازفته بأسئـــلةٍ لا فائدة منها ؛ وكان في السابق قد جازف مرتين أو ثلاث بطلب ايضاح من هذا النوع، وكانت راشيل قد تطلعت اليه ، مباغتة ، لاهية ، ضاحكة ضحكة صغيرة ساخرة أخزته بشكل عميق .

إذن فقد صمت . وكانت هي التي تابعت :

ـ هذه القصص القديمة تحزنني . قبّلني . أيضاً . افضل من ذلك ـ ولكنها لم تكف عن التفكير بذلك لانها أضافت : ـ الا اني حين اقول « سره » . فان ما عليّ أن اقوله هو «واحد» من اسراره ! ان المرء لن ينتهي الى اكتشاف

كل شيء مع ذلك الرجل الساذج .

ولكي تتخلص من ذكرياتها ، وربما ايضاً من استجواب انطوان الصامت ، دارت كلها بحركة بطيئة متموجة بحيث بدا جسدها متجمداً. وقال وهو يداعبها كما تمتدح بهيمة أصيلة :

ـ أنت مرنة .

ـ حقيقة ؟ اتعلم انني درست عشر سنوات في الأوبرا ؟

ـ انت ؟ وفي باريس ؟

ـ نعم ، يا سيد ، حتى انني كنت الأولى عندما تركت

ـ منذ زمن طويل ؟

ـ ست سنوات .

ـ ولماذا تركتِ ؟

ـ الساقان .

ودكن وجهها لحظة ، وتابعت على الأثر :

ـ بعد ذلك كدت ان اصبح فارسة في (سيرك) . أيدهشك هذا ؟

فصرح بعزم : كلا . في اي سيرك ؟

ـ اوه ! ليس في فرنسا . في سيرك دولي كبير حيث كان هيرش آنذاك يطوف خلال العالم . انت تعرف هيرش ، الصديق الذي حدثتك عنه ، الرجل الموجود في السودان المصري . لقد أراد ان يستفيد من مؤهلاتي ؛ ولكنني لم أمش !

وكانت وهي تتحدث تلهو بان تطوي ساقها وتمده بمهارة مكتسبة من مدرسة الالعاب الرياضية . وتابعت :

ـ فكرة ساورته . لأنه جعلني اقوم قليلاً بالسير على الحبل في نويي . وكنت احب ذلك . وكان عندنا خيول رائعة نستفيد منها .

ـ هل سكنت نويي ؟ *Neuilly*.

ـ لست انا، بل هو. كان يملك ميداناً لترويض الخيل في نويي آنذاك. وكان

دائم الشغف بالخيل . وانا أيضاً . وأنت ؟
فقال وقد انتصب :
ـ اركب قليلا . ولكن الفرص فاتتني . والوقت أيضاً .
ـ أما أنا فقـــد كانت لدي الفرص . بعض منها ! وظللنا ذات مرة اثنين وعشرين يوماً على ظهور الخيل .
ـ اين هذا ؟
ـ في داخلية مراكش .
ـ هل كنت في مراكش ؟
ـ مرتان . كان هيرش يبيع بنادق قديمة لحركات الجنوب . انها غزوة حقيقية . وذات يوم هوجم مخيمنا، ودام القتال ليلة ونهاراً .. كلا ، ليلة بكاملها دون ان نرى شيئاً . كان الأمر مخيفاً ، وكذلك كل فتره صباح الغد . من النادر أن يهاجموا ليلا . وقد قتلوا لنا سبعة عشر حمالاً وجرحوا ثلاثين . وكنت أنام بين الصناديق لدى كل اطلاق نار . ومع ذلك فقد أصبت قليلاً .
ـ أُصبتِ ؟
فقالت ضاحكة : نعم . لا شيء مهم . جلفة .
وأشارت تحت الضلوع ، عند طية القامة ، إلى ندبة دقيقة . وسأل انطوان الذي لم يكن يبتسم :
ـ لماذا قلت لي أنك سقطت من عربة ؟
فقالت هازةً كتفيها :
ـ اوه ! انه يومنا الاول. وكان عليك أن تعلم انني كنت أريد أن أبدو شائقة.
وصمتا . وقال انطوان لنفسه : « أهي إذن خليقة بالكذب علي ؟ »
وأصبحت عينا راشيل حالمتين ، ثم لمعتا من جديد ولكن بوميض حاقـــد انطفأ بسرعة .
ـ كان يتصور أنني سألحق به إلى كل مكان ، ودائماً . لقد كان مخطئاً .
وكان انطوان يشعر بسرور مضطرب في كل مرة تلقي على ماضيها هذه النظرة

الحاقدة . وكان يرغب في أن يقول لها : « أبقي معي ، دائماً » . ووضع خده على الندبة وتريث . وكانت اذنه المهنية تتبع رغماً عنه الذهاب والاياب الحويصلي الرخيم في أعماق الصدر الرنان . وشعر بدقات القلب السمحة ، البعيدة ولكنها واضحة . واختلج منخره . وفي حرارة السرير فان جسد راشيل كله كان يعبق بنفس الرائحة المتضوعة من شعرها ، ولكنها أقل ، ومتنوعة : رائحة مسكرة وتافهة ، مع لذعة كلذعة الفلفل ؛ وعفونة رطوبة تبعث على التفكير بالرائحة الاكثر تبايناً للسمن الناعم ، وورق الجوز ، والخشب الابيض ، وملبّس اللوز المعطر بالفانيليا ؛ أنها فوحان أكثر منها رائحة ، أو طعم أيضاً . فقد كان يبقى منها على الشفاه كطعم التوابل . وتابعت :

ـ لا تكلمني عن كل هذا . واعطني سيكارة .. كلا . السكاير الجديدة على الطاولة الصغيرة . هناك صديقة تصنعها لي : يوجد قليل من الشاي الاخضر الممزوج بتبغ ماريلاند ؛ أنه يذكر بالنار المشتعلة في الورق ، والعسكرة في الخارج ، ولا أدري ماذا ، والخريف ، والصيد ؛ وأنت تعلم رائحة البارود هذه حين تطلق النار تحت أشجار الغاب ويتبدد الدخان بشكل سيء في الضباب .

وتمدد من جديد إلى جانبها في دخان التبغ الحلزوني . وكانت يداه تلاعب بطن راشيل الناعم ، ذا البياض شبه الفوسفوري والمتورد قليلاً : بطن رحب كحوض محفور باتقان . وكانت قد احتفظت من رحلاتها بعادة الدهانات الشرقية . وكان لحم المرأة هذا يحتفظ بنضارة ونقاء جسد ولد غير بالغ .

وتمتمت وهي تتلو من الذاكرة ، بقدر الامكان مقطعاً من « نشيد الانشاد » كان قد بعث فيها كثيراً من الاضطراب في سنتها السادسة عشرة :

- *Umbilicus Sicut Crater Eburneus . Venter Tuus Sicut. .. Euh .. Sicut Cupa .*

فسألها وقد نهض نصف نهضة :

ـ ماذا يعني هذا ؟ انتظري . دعيني أحزر . *Culpa* ، أنا أعرف : *Mea culpa* ؛ وهذه تعني غلطة ، خطيئة . أليس كذلك ؟ بطنك هو خطيئة .

فانفجرت ضاحكة . أنه لم يكبح جماح مرحها منذ أن عاش معها . وقال مصححاً وهو يسند رأسه إلى خصر راشيل .

ـ كلا . *Cupa* .. بطنك شبيه بقدح .

وأكمل تلاوته التقريبية :

- Quam pulchroe Sunt Mammoe , Tuoe , Soror Mea !

ما اجمل نهديك ، أوه يا شقيقتي ! *Siuct duo* (لا أعرف ماذا) *Gemelli* *qui Paceuntur in Lillis* ! كمزاتين صغيرتين تقضمان العشب بين الزنابق !

وكانت ترفع نهديها دورياً وباعتناء وتتأملهما بابتسامة رقيقـــة ، كزوج من الحيوانات الصغيرة المخلصة . واكدت بكثير من الجدية :

ـ من النادر جداً وجود الحلمات الوردية ، الوردية النقية ، الوردية كبراعم التفاح . وانت كطبيب ، هل لاحظت ذلك ؟

فأجاب ؟

ـ لعمري ، نعم . بشرة دون اي بثور تلونها . بياض ، بياض ، ثم ظلال وردية ـ واغمض عينيه وجثم قريباً منها بقدر ما يستطيع وتابـــع بصوت ناعس : ـ آه ! كتفاك .. اني اخشى اكتاف الغلمان الصغيرة السهلة التـأثر من البرد .

ـ صحيح ؟

ـ هذه المدورات السمينة .. وتلك الطيات الجميلة الصلبة ... وذلك الجسد الصابوني .. احب هذا .. لا تتحركي . انا مرتاح .

وفجأة صفعه تذكار مؤلم .« جسد صابوني.. » كان ذلك بعد حادث ديديت بايام قليلة . وذات مساء ، كان مسافراً مع دانيال لدى عودته من ميزون . وكانا وحيدين في مقصورة ، وانطوان الذي لم يكن يستطيع التفكير بسوى راشيل خضع ايضاً لسروره من استطاعته ان يقص مغامرة على ذلك الخبير . ولم يستطع امتلاك نفسه طوال الرحلة من ان يقص على دانيال قصة السهرة المؤلمة : العملية النهائية ، والانتظار المقلق على رأس سرير الصغيرة ، ثم رغبته المباغتة بالفتاة

الجميلة الشقراء التي نامت ملتصقة به على الاريكة ؛ وقد استعمل هذه العبارات نفسها : « مدورات سمينة .. جسد صابوني .. » ولكنه لم يجرؤ على سرد البقية ؛ وحين وصل إلى اللحظة التي رأى فيها باب بيت راشيل مفتوحاً حين كان يهبط درج آل شاسل عند الفجر ، فانه اضاف بدافع اهتمام ارعن ليعطي برهاناً على إرادته أقل مما هو بدافع الرصانة ؛ « هل كانت تنتظرني ؟ هل يجب ان استفيد من الظروف ؟ لقد تحاملت على نفسي وتظاهرت بعـــدم الرؤية ، ومررت . ماذا كنت تفعل لو كنت مكاني ؟ » عندئذ ، فان دانيال الذي كان يصغي إليه صامتاً حتى الآن ، اخذ يتطلع في وجهه وناوله هذه الصفعة :

– كنت أفعل مثلك تماماً – أيها الكذوب !

وكانت نبرة صوت دانيال لا تزال تدوي في اذنه ، ساخرة ، ارتيابية ، جارحة ، ولكن يبقى فيها ما يكفي من سلامة النية لكي يصبح مستحيلاً حملها على محمل الشر . وهذه الذكرى كانت تلدغه بشدة كل مرة . كذوب ... لقد كان هذا صحيحاً وكان يحدث له أحياناً ان يكذب ، أو بصورة أصح ، ان يكون كاذباً .

وفكرت راشيل من ناحيتها : « مدورات سمينة .. » وقالت :

– ربما اصبحت امرأة سمينة . فاليهوديات ، كما تعلم .. ولكن والدتي لم تكن يهودية . فانا لست سوى نصف حصة من اليهودية . آه ! لو كنت عرفتني منذ ست عشرة سنة حين دخلت الصف الاعدادي ! فأرة صغيرة حقيقية شقراء ..

وانزلقت خارج السرير قبل ان يستطيع ابقاءها .

– ما بك ؟

– فكرة .

– اخبريني .

فقالت ضاحكة ، ومتخلصة من الذراع الممتد :

– الافضل ان لا ..

فتمتم بصوت مرتخ : لولو .. تعالي ونامي

فقالت وهي ترتدي مئزرها :

– كفى يا دودو . فقد وضعت البردعة .

وركضت إلى خزانتها وفتحتها، واخذت درجاً مليئاً بالصور الفوتوغرافية، وعادت تجلس على حافة السرير ، والدرج على ركبتيها المضمومتين .

– اني احب هذه .. الصور القديمة . وفي المساء غالباً ما آخذ الكدسة وانام معها واحركها خلال ساعات ، وافكر .. ابق هادئاً .. انظر. ألا يقلقك هذا؟

وانتصب انطوان المتكوم وراءها ككلب صيد ، قلقاً ، واتكأ على مرفقه بشكل مريح . وكان يرى من الناحية الجانبية وجه راشيل منحنياً على الصور ، وجه متعقل ، حيث الاهداب المسبلة على الخد كانت تحيط عروة العين الدقيقة بخط من الصمغ الصنوبري . والشعر المرفوع على عجل ، والذي كان يراه في الظل ، يشبه خوذة من الحرير المخملي ، الليموني تقريباً ؛ ولكن ما إن تحرك الرأس على زاوية الصدغ ، وعلى النقرة ، حتى كأن شرراً يتطاير منه .

– هذه هي التي كنت ابحث عنها . اترى هذه الراقصة الصغيرة ؟ هي انا . لقد اضطررتهم الى اللحاق بي في ذلك النهار لانني دعكت دائر ثوب الرقص وذلك بان سحقته هكذا على الجدار ، أتصدق ؟ هذا الشعر على الكتفين ، وهذان المرفقان المرّوسان ، وهذا الجزء الاعلى من الثوب الذي يكاد لا يكون مقوّراً . لا يبدو علي انني مبتهجة ، اليس كذلك ؟ وهنا ، انظر . كنت آنذاك في السنة الثالثة : ربلات الساق أصبحت افضل . وهذا ، انه الصف . اترانا على الحاجز ؟ هل وجدتني فقط ؟ نعم ، هو هذا . وتلك ، انها لويز . وهذه ، الا تذكرك بشيء ؟ حسناً . انها فيتي بللا الشهيرة التي كانت تدرس معي ، وكانت في ذلك الوقت تدعى لويز ، بكل اختصار . وايضاً لويزون . وكنا نتنازع المراكز . وانا ايضاً ربما كنت صرت اليوم اول نجمة لولا التهاب الشريان .. اتريد ان ترى هيرش ؟ آه ! ايشوقك ذلك ؟ هذا هو . كيف تجده ؟ انت لا تعتقد انه مسن ، انا متأكدة . ولكنه يحمل سنيه الخمسين بنشاط، اؤكد لك. الرجل الرهيب! انظر الى عنقه،تلك النقرة الضخمة الغائرة

بين الكتفين : حين يدير رأسه فان كل ما بقي يدور معه . ومنظره لأول وهلة يبعث على الظن انه ما لا ادري : بائع خيل ، مروض . اليس كذلك ؟ كانت ابنته تقول له دائماً : « ميلورد ، لك هيئة نخاس » . وكان هذا يجعله يضحك ، هو ، بضحكته الضخمة الداخلية . ومع ذلك فانظر الى جمجمته ، وهـذا الانف المريض الاعقف ، وثنية فمه . انه قبيح ، ولكنه ليس رجلاً كبقية الناس . والعينان ! لو لم يكن لديه هذا النوع من العيون لبدا كانسان شرس : لا اعرف كيف اقول . هل يبدو واثقاً من نفسه ، مستعداً لكل شيء ، عنيفاً ! ها ؟ عنيفاً وشهوانياً ؟ آه ! لو انه كان يحب الحياة ! لقد فعلت حسناً بكرهي له . وقد ارغب في ان اقول كما يقال عن بعض الكلاب ، كما تعلم : « انه جميل من القبح » . الا تجد ذلك ، انت ؟ وهذا ابي ! ابي بين عاملاته . كان دائمـاً هكذا ، بالقميص ، وبلحيته الصغيرة البيضاء ، ومقصه المعلّق . كان يصنع لك بزة بثلاث خرق واربعة دبابيس . وقد أخذت هذه الصورة في مشغله . أترى عارضات أزيائه ملتحفات في الداخل ، والنماذج على الجدار ؟ لقد اصبح صانع ملابس الأوبرا . ولم يكن يشتغل لآخرين . ولا يزال بامكانك أن تسأل جماعة الأوبرا عما يعتقدونه بالأب غوبفير . حين اضطر إلى الحجر على والدتي وبقي وحيداً معي كان يأمل ان اشتغل معه ، الهرم المسكين ؛ وانه سيستطيع ان يترك لي مؤسسته . وكانت هذه المؤسسة تدر كثيراً من المال . والبرهان هو انني استطيع ان اعيش دون ان اعمل شيئاً . ولكنك تعرف ما هي الطفلة التي كانت ترى المشغل مليئاً دائماً بالاصناف ! لم يكن لدي سوى فكرة : أن أكون راقصة . وقد تركني أفعل ذلك . وهو نفسه وضعني بين يدي الام ستوب . وحين رأى أن الامر يسير على ما يرام كان مسروراً . وكان غالباً ما يحدثني عن مستقبلي . لو كان الهرم المسكين يراني اليوم وقد أصبحت فتاة عادية ! آه ! أنت تعلم ، لقد بكيت حين اضطررت إلى ترك كل شيء . والنساء بوجه عام ليس لهن مطامع . انهن يعشن . ولكن نحن ، في المسرح ، نتشبث لنصل ، ونكافح ، ونتذوق الكفاح بسرعة ؛ كالنجاح على الاقل . إذن أنه لرهيب أن يتخلى المرء عن مطامحه

ويعيش كجميع الناس ولا يكون أمامه أي مستقبل .. انظر هذه ، انها صور رحلات ، بدون ترتيب . هذه ، انها صورة غداء تناولناه لا أدري أين ، في الكربات . فقد ذهب هيرش إلى هناك للصيد . ها أنت ترى أنه جعل شاربيه يكبران ويتهدلان، وهيئته كهيئة سلطان. وكان الامير يناديه دائماً باسم محمود. أترى الرجل الاسمر الواقف ورائي ؟ أنــه الامير بيير الذي أصبح ملكاً على الصرب. وكان قد أعطاني هـذين الكلبين السلوقيين الابيضين النائمين في الصف الاول : انهما نائمان مثلك ، مثلك تماماً . وهــذا الذي يضحك ، ألا تراه يشبهني ؟ انظر جيداً . كلا ؟ انه مع ذلك أخي . نعم. انه هو. اسمر كوالدي. بينما أنا ، شقراء كوالدتي .. أخيراً شقراء ، بلون أشقر متوهج . ماذا ! أأنت أحمق ! مغراء هنا ، إذا أردت . ولكن من الناحية الاخلاقية فأنا أخذت عن والدي، وأخي كان فيه شبه من امي. انظر: انه يُرى بشكل أفضل في هذه.. ليس لدي أية صورة لأمي ، لاشيء؛ فقد أتلف والدي كل شيء. ولم يكن يحدثني عنها أبداً، ولم يأخذني إلى سانت ـ آن أبداً. مع أنه كان يذهب إلى هناك مرتين بالاسبوع، وقد دام ذلك تسع سنوات دون أن يتأخر مرة واحدة. وقد حدثتني الحارسات عن ذلك . كان يجلس أمام والدتي ، ويبقى معها ساعة ، واحياناً اكثر. لأجل لا شيء لانها لم تكن تعرفه ؛ لا هو ولا أحد . ولكنه كان يعبدها . وكان يكبرها بكثير ، ولم يكن يذكر هذه الحوادث . ولا أزال اذكر المساء الذي جاؤا فيه بطلب والدي في المشغل لأن والدتي أُوقفت . نعم ، في اللوفر . كانت قد سرقت قلانس معروضة من أحد المصانع . اتصدّق ، مدام غوبفير ، بائعــة ملابس الاوبرا ! لقد وجدوا في فروة كمها جوارب رجــل وثوب ولد ! وتُركت على الاثر ، وقيل انها مصابة بمرض السرقة . اتعرف هذا ، انت ؟ انه مرضها الذي كان قد بدأ . ثم ان أخي أخذ كثيراً عنها . وكانت له قصص مخيفة ، قصص مصارف . وكان هيرش مشتركاً بها . وكان سيصبح مثلها بين يوم واخر لولا الحادث الذي وقع له .. وهذه ، دعها . دعها إذن ! ما دمت اؤكد لك انها ليست انا ! انها .. فليونة صغيرة . ماتت .. من الافضل ان تنظر هذه . انها

على أبواب .. طنجة .. كلا . لا تهتم يا عزيزي . لقد انتهى الامر كما ترى . اني لا ابكي .. سهل بوبانا : معسكر محلة سي غباس . وهذه بجانب مسجد سيدي بلعباس . اترى مراكش في الداخل ؟ انظر . وهذه بجانب ميسوم ـ ميسوم ، أو الدونغو ، لا ادري . انهما زعيمان من الدزيم *Dzem* . وقد تعرضت للاذى بتصويرهما . من آكلة لحوم البشر . ولكن نعم . فهذا لا يزال موجوداً .. آه ! انه رهيب . ألا ترى شيئاً ؟ ولكن بلى . هنا ، هذه الكومـة الصغيرة من الحجارة . اترى الآن ؟ حسناً ، يوجد تحتها امرأة. مرجومة ! انه أمر رهيب. تصور امرأة شجاعة يتركها زوجها دون سبب طوال ثلاث سنوات . لقـد اختفى ، وظنته ميتاً وتزوجت من جديد . وبعد سنتين من هذا الزواج عاد . وتعدد الازواج في تلك القبائل جريمة لا تغتفر . عندئذ رجموها .. وقد اجبرني هيرش على المجيء من ميشاد عمداً لرؤية ذلك ؛ ولكني هربت على بعد خمسماية متر . وكنت قد رأيت المرأة وهم يسحبونها في القرية صباح يوم تنفيذ العقوبة ؛ وقد اصبت بالمرض من جراء ذلك . اما هو فقد رأى كل شيء . واراد ان يكون في الصف الاول .. اسمع : يبدو انهم حفروا حفرة ؛ جحراً ، حفرة عميقة جداً ، ثم جيء بالمرأة ، فنامت فيها من تلقاء نفسها دون ان تقول شيئاً. أتصدق؟ لم تكن تقول شيئاً، ولكن الجمهور كان يصيح؛ وقد سمعتهم "يصرخون طالبين الموت ، الا اني كنت بعيدة .. وكاهنهم الاكبر هو الذي بدأ . فقرأ الحكم اولاً. ثم اخذ اول الجميع حجراً ضخماً وقذفه في الحفرة بكل قواه .وقد قال لي هيرش انها لم تصرخ . ولكن هذا أفلت الجمهور من عقاله . وكانت هناك اكوام كبيرة مهيأة . وكان كل واحد يغترف منها ويقذف كتلاً من الحجارة في الحفرة. وقد اقسم لي هيرش انه لم يُلق اي حجر وحين امتلأت الحفرة (الى فـوق الحافة كما ترى) اخذوا يدوسونها صائحين بشدة . ثم ذهب الجميع . وعندئذ اضطرني هيرش الى العودة لألتقط هذه الصورة ، لان آلة التصوير كانت معي . واضطررت ان اذهب .. انظر ، ليس لك الا ان تفكر بذلك لترى اذا كان قلبي قد وثب . كانت هنا ، تحت .. ميتة ـ على الارجح .. آه ! كلا .

ليس هذه .

وانطوان الذي كان يمد رأسه من فوق كتف راشيل لم يتسع له الوقت ليميز شيئاً آخر سوى تشابك اعضاء عارية . وكانت راشيل قد وضعت يدها فجأة على عينيه . وقد ذكرته حرارة هذا الكف على جفونه بالحركة التي كانت تقوم بها اثناء لذتها لتخفي عن عشيقها منظر وجهها وهي في شبه اغماء ، انها الحركة نفسها ولكنها أقل تشنجاً . وكان ينتفض وهو يلعب . ولكنها نهضت بوثبة وهي تضم إلى مئزرها قبضة من الصور المربوطة معاً .

وركضت إلى خزانتها ، ووضعت الرزمة في الدرج وهي تضحك ، وأقفلته بالمفتاح وقالت :

ـ اولاً هذه ليست لي . ولا املك حق التصرف بها .

ـ لمن هي ؟

ـ لهيرش .

وعادت إلى الجلوس بقرب انطوان .

ـ ستكون عاقلاً الآن . أتعد ؟ سنستمر . الا يضجرك ذلك ؟ انظر هذه . غزوة أيضاً . غزوة على الحمير في غابات سان كلود . ها أنت ترى اننا قد بدأنا بارتداء أكمام الكيمونو . لقد كان أنيقاً ثوبي الصغير هذا .

١٠

كانت مدام دي فونتانان تفكر : « اني اكذب على نفسي دون انقطاع . ولو كنت صريحة مع نفسي لما املت بشيء ».

كانت واقفة بالقرب من احدى نوافذ قاعة الاستقبال تتبع بعينيها رواح ومجيء جيروم ودانيال وجني في الحديقة ، دون ان ترفع الستار الرقيق .

وقالت لنفسها : « كم ان باستطاعة الكائنات الأكثر استقامة أن تعيش على راحتها في الكذب ! » . ولكن ، كما انه كان يحدث لها في أغلب الاحيان الا تستطيع الامتناع عن الابتسام ، فكذلك لم تكن تستطيع أن تمنع سعادتها من

ان تصعد فيها كالموجة بين فترة واخرى .

وتركت النافذة وجاءت إلى الشرفة . انها الساعة التي تتعب فيها العيون من النظر ملياً في ما يحيط بها ؛ كانت السماء متموجة ، تظهر فيها نجوم شاحبة . وجلست مدام دي فونتانان . وشردت نظرتها لحظـــة على الأفق المألوف . وتنهدت. كانت تعرف جيداً ان جيروم لن يستمر في العيش بقربها كما يفعل منذ اسبوعين : كانت تعلم ان هذه العائلة التي ُوجدت بعد ضياع ستصبح زائلة مرة اخرى ! ألم تجد في موقف جيروم حيالها . وفي رقته اللطيفة ، وبسرور ممزوج بالخوف، ذلك الذي كانه دائماً؟ أليس هذا برهاناً على انه لم يتغير؟ وانه سيذهب حالاً كما كان يفعل دائماً ؟ انه الآن لم يعد جيروم الهرم ، المتضرع الذي أتت به من هولندا ، والذي كان يتعلق بها كالغريق . والآن ، رغم هيئة الولد المعاقب التي يتخذها حين ينفرد بها ، ورغم التنهدات الخاضعة المستحَقة التي يصدرها حين يتذكر حداده ، فقد اخرج من صندوقه ملابس الصيف وبـــدا في هيئة متجددة الشباب دون ان يدري . وهذا الصباح نفسه حين قالت له قبل تناول الافطار : « اذهب اذن وهات جني من النادي ، فهذا يجعلك تتنزه قليلاً » تظاهر بالانصياع لنصيحتها بلامبالاة ، ولكنه كان قد نهض دون ان يبطىء في الاستجابة ، وبعد قليل،رأته يخرج بخطوة سريعة ، ببنطلون من الفانيلا البيضاء، والقامة منتصبة في سترة فاتحة ، حتى انها فاجأته وهو يقطف في طريقه عود ياسمين لعروته .

في تلك اللحظة فطن دانيال إلى ان امه وحيدة فجاء إليها . كانت مدام دي فونتانان تشعر منذ عودة زوجها بشيء من القلق أمام ولدها . وقد لاحظ دانيال ذلك : ولهذا ضاعف زياراته إلى ميزون وحاول أن يكون اكثر انتباهاً من السابق ، راغباً أن يدخل في الاذهان انه كان يعرف امـــوراً كثيرة ولا يستهجن شيئاً :.

وتمدد في كنبة من النسيج كثيرة الانخفاض ، كنبة كان يحبهـــا . وابتسم لوالدته وهو يولع سيكارة (كم ان يديه وحركاته تشبه يدي وحركات والده).

ـ الن تذهب هذا المساء يا كبيري ؟
ـ ولكن بلى يا امي . عندي موعد مبكر في الغد .
وأخذ يتحدث عن اشغاله ، الامر الذي كان نادراً ما يفعله : انه يجهزللعودة عدداً من « التربية الجمالية »مخصصاً لأحدث مدارس الرسم في اوروبا . واختيار صور عديدة لتزيين النص كان يسليه جداً . ثم توقف الحديث .
كان الصمت مليئاً بتمتمات المساء التي يسيطر عليها تحت الشرفة صرير الصراصير في خندق الغابة ؛ وكان طعم العطور المحروقة يمر بين فترة واخرى في النسمة التي كانت تجتاز الصنوبر وتجعل الاوراق الليفية وجذور الدلب تحدث حفيفاً على الرمل . وجاء خفاش بخفقة جناحيه المسرعة الرخوة ، يلامس شعر مدام دي فونتانان ؛ ولم تستطع هذه ان تكبح صرخة خفيفة ، وسألت :
ـ اتكون هنا نهار الاحد ؟
ـ نعم ، سآتي غداً ليومين .
ـ عليك ان تدعو صديقك لتناول الفطور .. فقد التقيت به البارحة في القرية .
اضافت ذلك لانها كانت تعزو إلى جاك الصفات التي كانت تعتقد انها تلاحظها عند انطوان ، وكذلك ايضاً لتسر دانيال . وقالت :
ـ انه ذو طبيعة صادقة وسمحة ! فقد مشينا قسماً طويلاً من الطريق معاً .
ودكن وجه دانيال . فقد تذكر غيظ جني الغريب مساء نزهتها في الغابة مع جاك . وفكر بحزن : « نفس حزينة نابتة بشكل سيء ، وذات قسمة سيئة ، وبدون توازن ؛ نضجت كثيراً بسبب التفكير والوحدة والقراءة .. تجهل الحياة جداً ! ماذا استطيع ان أعمل لاجلها ؟ انها الآن على شيء من الحذر مني . لو كانت فقط ذات صحة متينة : ولكنها أعصاب فتاة صغيرة ، وتلك الرومانتيكية ! تلك الحاجة إلى ان تعتقد نفسها انها غير مفهومة ، وذلك الرفض الدائم للافصاح عن نفسها ! كبرياء صموت تسمم كل شيء ! إلا ان يكون هذا بقية من العمر الكريه » !

وغيّر كرسيه وجاء يجلس اكثر قرباً من والدته . وقال تبريرا لضميره :
ـ قولي لي يا امي . الم تلاحظي شيئاً في موقف جاك منك ؟ من جني ؟
فرددت مدام دي فونتانان :
ـ من جني ؟
هاتان الكلمتان اللتان القاهما دانيال بلورتا فيها ، فجأة ، قلقاً خفياً . قلقاً ؟ ربما اقل من ذلك : احد تلك الانطباعات الطافية الذي سجلت حساسيتها المتناهية رسالته دون ان تفهمها جيداً . وعندئذ انتابها القلق النفسي ، ورفعت اندفاعة من حرارة العبادة قلبها نحو « الروح » . وصلّت :
ـ لا تتخلَّ عنا !
وعاد المتنزهون . وهتف جيروم :
ـ الم تضعي عليك شيئاً يا صديقي ؟ احذري ، فالحرارة هذا المساء اقل من الايام الاخرى .

ودخل الى الدهليز وعاد بشال غطى فيه كتفي زوجته ثم فطن الى ان جني تجر على الرمل المقعد الخيزراني الطويل حيث كان من عادتها ان تتمدد عليه بعد الطعام . وكانت قد ظلت تحت اشجار الدلب فأسرع لمساعدتها واجلاسها .

كان يبذل بعض الجهد لتدجين هذا العصفور النفور . فقد عاشت جني طفولتها كلها بجانب امها بحيث قاست نتيجة آلام هذه الام ، واصدرت على ابيها ، وهي بعد صغيرة جداً ، حكماً لا تساهل فيه . ولكن جيروم ، وقد شاقه ان يجد جني متغيرة ، امرأة تقريباً ، ضاعف من اظهار الرغبة في خدمتها واظهر بقربها ادق اغراءاته ، بكثير من الكياسة والفطنة معاً ، بحيث لم تظل الفتاة غير حساسة بذلك . واليوم ، فان الاب والابنة اصبحا يتحدثان بدون حيطة ، كصديقين. وكان جيروم كثير التأثر من ذلك .
وصرح وهو يستلم لرواح ومجيء مقعد هزاز :
ـ ان ورودك تتضوع هذا المساء يا صديقي . « ان امجاد ديجون في برج

الحمام ليست سوى زهرة ؟

ونهض دانيال وقال :

ـ انها ساعة رحيلي .

واقترب من امه وقبلها على جبهتها . فأخذت وجه الشاب بكلتا يديها وتأملته لحظة عن قرب ، وتمتمت : يا ولدي الكبير !

واقترح جيروم :

ـ اذن سأرافقك الى المحطة .

لقد حرضته نزهته الصباحية على الهرب قليلاً من هذه الحديقة التي عاش فيها اسبوعين مسجوناً .

ـ الا تأتي يا جني ؟

ـ سأبقى مع امي .

ـ اعطني سيكارة .

قال جيروم ذلك آخذاً ذراع دانيال (منذ عودته لم يشأ الخروج لشراء التبغ فقد كان محروماً من التدخين) .

ورافقت مدام دي فونتانان بنظرها الرجلين اللذين ابتعدا . وسمعت صوت جيروم يسأل :

ـ اتعتقد انني اجد تبغاً شرقياً في المحطة ؟

ثم اختفيا في ظلال الصنوبر .

كان جيروم يشد إليه ذراع هذا اليافع الجميل الذي هو ولده . أية جاذبية يمارسها كل كائن شاب عليه ! ولكن أية جاذبية تسممها الحسرات ! لقد كان ذلك هو عذاب كل يوم منذ أن أصبح في ميزون : كان منظر جني يوقظ فيه الحنين إلى شبابه في كل لحظة . وهذا الصباح ايضاً ، لكم تعذب في ملعب التنس! جميع اولئك الفتيان والفتيات ذوي النظر الصافي ، المشعثي الشعر من اللعب ، والطوق مفكوك العرى ، والثياب مختلة دون أن يستطيع شيء إفساد فتنة شبابهم المنتصرة ؛ كل هذه الاجسام اللينة ، السابحة بالشمس ، كان كل ما

تُنضح به رطباً ينشر أريج الصحة! آه ! لكم ادرك بشكل عنيف مقدارفضيحة السن أثناء الدقائق العشر التي قضاها هناك ! وكم كان يشعر بالخجل والرعب من ذلك الصراع اليومي الذي كان عليه أن يقوده ضد نفسه، ضد الذبول، والقذارة، ورائحة الشيخوخة ! ضد جميع العلامات المبشرة بهذا الانحلال النهائي الذي بدأ فيه ! ولدى المقارنة بين مشيته المتخدرة ، ونفسه السريع ، وجهوده ليظل رشيقاً ، وبين خطوات ولده المرنة ، فانه ترك فجأة ذراع ولده ولم يستطع ان يرد صرخة حسد :

ـ كم أتمنى أن تكون لي سنواتك العشرون يا صغيري !

لم تعترض مدام دي فونتانان حين صرحت جني بانها تريد مرافقتها. وقالت لها بعد ان أصبحتا وحيدتين :

ـ تبدين تعبة يا عزيزتي . ألا تريدين الذهاب لتنامي ؟

فقالت جني :

ـ باه ! الليالي كثيرة الطول .

ـ ألا تنامين جيداً في هذه الفترة ؟

ـ ليس كثيراً .

ـ لماذا إذن يا عزيزتي ؟

ان اللهجة التي اكسبتها مدام دي فونتانان لهذه الكلمات تجاوزت معناها العادي . وقد نظرت جني إلى امها بدهشة ، وفهمت حالاً ان لدى هذه فكرة تخفيها ، وتمنت ايضاحا . وبالغريزة ، عزمت على استخراجها منها ؛ لا لأنها مكتومة ، بل لأنها لم تكن تستسلم منذ ان يبدو ان هناك من يحرضها .

وكانت مدام دي فونتانان غير ماهرة في التصنع : كانت قد التفتت نحو ابنتها وتأملتها بصراحة من خلال رماد المساء ، آملة ان تُخضِع تحت رقةنظرتها ذلك التصلب عند جني والذي يضع كثيراً من المسافة بينهما .

وقالت باصرار خفيف كأنه طلب صفح من الابنةعن الاختلال الذي احدثته عودة الاب في علاقتهما الخاصة :

ـ ما دمنا وحدنا هذا المساء ، فهناك شيء اريد ان اكلمك عنه يا عزيزتي .. الامر يتعلق بذلك الصغير تيبو الذي التقيت به البارحة .

وتوقفت : كانت على عتبة الموضوع دون اي دوران. ولم تكن تعرف كيف تسير إلى أبعد من ذلك ؛ ولكن الاعتناء بوضعها المنحني كان يطيل عبارتهـــا ويوضح الاستجواب .

ولم تجب جني . أما مدام دي فونتانان ، وقد ارتفع جذعها شيئاً شيئاً ، فقد أخذت تنظر أمامها إلى الحديقة التي غشيها الظلام .

ومضت خمس دقائق . وكانت الريح باردة . وظنت مدام دي فونتانان انها لاحظت ارتعاش جني فقالت :

ـ سيؤذيك البرد . لندخل .

واستعاد صوتها رنته العادية . وفكرت : ما فائدة الالحاح ؟ كانت سعيدة لانها تكلمت، ومتأكدة من انها ُفهمت، وواثقة من المستقبل .

ونهضتا واجتازتا الدهليز دون ان يتبادلا كلاماً آخر ، وسارا على الدرج حين كان الظلام تاماً تقريباً. ومدام دي فونتانان التي كانت تصعد اولاً، توقفت على قرص الدرج امام باب غرفة جني لتقبّل ابنتها ككل مساء . ومع انها لم تكن تستطيع تمييز وجه الفتاة فقد شعرت تحت قبلتها بتمرد هذا الجسد المنقبض، وأبقت خد الفتاة على خدها مقدار دقيقة، علامة حنوٍ أثارت عند جني حركة المقاومة. وانفصلت عنها مدام دي فونتانان بلطف وتابعت طريقها نحو غرفتها. غير انها انتبهت إلى ان جني تبعتها بدلاً من ان تفتح بابها لتدخل الى غرفتها ، وفي اللحظة نفسها سمعتها وراءها تهتف دون توقف وبنبرة متحمسة :

ـ ليس عليك إلا ان تكوني اكثر برودة معه يا امي ، اذا رأيت انه اصبح يأتي كثيراً .

فقالت مدام دي فونتانان ملتفتة :

ـ من إذن ؟ جاك ؟ يأتي كثيراً ؟ ولكن ها ان خمسة عشر يوماً قد مضت دون ان أراه هنا

(وبالفعل ، فإن جاك بعد ان علم من دانيـــال بمجيء السيد دي فونتانان وبالانقلاب الذي حدث في حياتهم العائلية بسبب هذا الحادث ، فقد حرص ، بدافع الرصانة ، ألا يظهر عندهم) . ومن ناحية اخرى ، بما ان جني كانت تتردد على النادي بشكل أقل انتظاما وتتجنب جاك بقدر الامكان وتنتظر غالباً انهاكه في دورة لعب لتهرب دون ان تكلمه تقريباً ، فـــان التقاء الشابين اصبح قليلاً جداً منذ خمسة عشر يوماً .

وكانت جني قد دخلت عمداً إلى غرفة امها ، واغلقت الباب وظلت واقفة ، صامتة ذات هيئة جريئة .

وكانت مدام دي فونتانان تشفق عليها جداً ولم تفكر بسوى تسهيل الحـــديث :

ـ اؤكد لك يا عزيزتي انني لا ارى جيداً ما تريدين قوله .

فقالت جني بحدة :

ـ لماذا كان دانيال يأتي بآل تيبو هؤلاء الى بيتنا ؟ كل هذا لم يكن ليحصل لولا صداقة دانيال غير المفهومة لهؤلاء الناس .

فقالت مدام دي فونتانان التي كان قلبها يخفق بشدة :

ـ ولكن ماذا حدث يا عزيزتي ؟

فاحتدت جني :

ـ لم يحدث شيء . ليس هذا ما اردت قوله ! ولكن لو ان دانيال وانت يا امي ، لو لم تجتذبا هذين الاثنين من آل تيبو الى البيت لما كنت .. لما ..

وانقطع صوتها .

فجمعت مدام دي فونتانان شجاعتها وقالت :

ـ لنر يا عزيزتي . اوضحي لي .. هل لاحظت من ناحية .. عاطفة خاصة ؟

ولم تنتظر جني نهاية السؤال لتخفض رأسها بعلامة إيجابية . واستعادت صورة الحديقة الملأى بنور القمر ، والباب الصغير ، وخيالها على الجدار ، وحركة جاك المهينة ؛ ولكن ذكرى هذه الهنيهة المرعبة التي لا تزال تلازمها ليلاً ونهاراً ،

فانها كانت عازمة على السكوت عنها . كأنها ، باحتفاظها بها سجينة في قلبها هكذا ، تحتفظ بالحرية لتجعل منها موضوع رعب، او ببساطة موضوع تأثر .

وشعرت مدام دي فونتانان بالساعة الحاسمة . ولم تكن تريد ان تترك جني مستترة في صمتها . كانت المرأة المسكينة مستندة بذراع مرتجف إلى المنضدة الموجودة وراءها ومنحنية بكل جسدها نحو جني حيث كانت تستشف وجهها المضاء قليلاً من النافذة المفتوحة . وتابعت :

– يا عزيزتي . ان الامر لن يصبح خطيراً الا إذا كنت .. إلا إذا . انت أيضاً كنت ..

وكانت هذه المرة إشارة سلبية كررت عدت مرات بعناد . وتنهدت دي فونتانان لتخلصها من قلق فظيع .

وصرخت جني فجأة بصوت لم تكن والدتها تعرفه :

– كنت دائماً اكره آل تيبو هؤلاء ! فالكبير نوع من انسان احمق متبجح والآخر ..

فقاطعتها مدام دي فونتانان وقد احمر وجهها في الظلام :

– ليس هذا صحيحاً .

– .. والآخر كان دائماً الشيطان السيء لدانيال !

وهكذا تابعت جني ، مستعيدة شكاية قديمة كانت نفسها قد حكمت فيها حكماً عادلاً منذ وقت طويل . وتابعت :

– آه يا امي ، لا تدافعي عنهما ؛ لا تستطيعين ان تحبيهما. فهم اناس يختلفون عنك كثيراً ! اؤكد لك يا امي ، اني لا اخطىء : انهم ليسوا اناساً من نوعنا ! انهم .. لا ادري .. حتى يجب ألا نغترّ إذا بدت هيئتهم انهم يفكرون مثلنا ؛ ان ذلك يكون بطريقة اخرى ولأسباب أخرى ! آه ! انه عرق..– وترددت، وقذفت اخيراً : – كريه !

وتابعت مقادةً بفوضى افكارها :

– لا اريد ان اخفي عنك شيئاً يا امي . كلا ، ابداً . حين كنت صغيرة

كنت اعتقد ان لدي عاطفة قبيحة .. نوع من الغيرة من جاك . كنت اتألم لرؤية دانيال مفتوناً بهذا الغلام ! وكنت اقول لنفسي : ليس جـــديراً به . اناني ، متكبر ، شكس ، ملحاح ، سيء التربية ! لا شيء سوى مظهره الطبيعي ، فمه ، فكه .. كنت احاول الا افكر به ، ولكن لم استطع ؛ كان دائما يقذفني بشيء جارح أظل أتذكره ، ويثير غضبي . كان يأتي كل وقت إلى البيت حتى ليظن انه يتعمد الاهتمام بي ! ولكن هذا كان في الماضي . ولا أدري لماذا أعود إليه دائماً .. ومنذ ذلك الوقت أخذت ألاحظه عن قرب . وهذه السنة على الخصوص . هذا الشهر . والآن فاني أقاضيه بشكل آخر . اني احاول ان أكون عادلة . وأرى جيداً ما هناك رغم كل شيء حسن فيه . حتى اني سأقول لك شيئاً يا امي : كنت أظن ، عدة مرات ، نعم ، عدة مرات ، انني أنا أيضاً ، دون أن القي بالاً كنت كأنني مجتذبة إليه .. ولكن كلا ، كلا ، ليس هـــذا صحيحاً . ان كل ما فيه بغيض بالنسبة إلي ، كل شيء تقريباً !

فقالت مدام دي فونتانان مسلّمة :

ـ جاك ، لا أدري . لقد سنحت لك الفرصة أكثر مني للحكم عليه . أما فيما يتعلق بانطوان ، فبالعكس ، وأستطيع أن اؤكد لك .

فقاطعت الفتاة بحدة :

ـ ولكن عن جاك ، لم أقل .. لم أنكر أبداً أن عنده ، هو أيضاً ، صفات عظيمة جداً . ـ وكانت قد غيرت نبرتها شيئاً فشيئاً وأخذت تتكلم بتمهل ـ أولاً ، كل ما يقوله يدل على انه ذكي جداً . واعرف له ذلك . حتى اني أسير إلى أبعد من هذا : انه ليس فاسد الطبـع ؛ وهـــو خليق ليس بالصدق فقط ، بل بالسمو ، بالنبل ، انت ترين يا امي انني لا أقوم ضده . وليس هذا كل شيء .

ثم أضافت وهي تزن كلماتها برصانة ، بينما مدام دي فونتانان المندهشة كانت تتفحصها بانتباه :

ـ أعتقد انه مدعو لمصيرٍ سامٍ ، ربما لمصير سام جداً .. وهكذا ترين انني احاول أن أكون عادلة ! وأنا متأكدة تقريباً الآن ان تلك القوة التي فيــه هي

التي تدعى العبقرية : نعم ، تماماً ، العبقرية .

رددت ذلك بنبرةشبه مثيرة ، بينما كانت والدتها لاتبدو انها تفكربمخالفتها ثم صرخت فجأة بعنف يائس :

ـ ولكن كل هذا لا يمنع من أن له طبيعة آل تيبو ! انه واحد من آل تيبو! وأنا أكرههم .

وظلت مدام دي فونتانان لحظة صامتة ، ذاهلة ، وتمتمت أخيراً :

ـ ولكن يا جني ..

وعرفت جني في نبرة صوت امها تلك الفكرة نفسها التي قرأتها بوضوح في نظرة دانيال . عندئذٍ ، كطفلة ، هرعت نحو مدام دي فونتانان ووضعت يدها على فمها :

ـ كلا ، كلا ، ! ليس هذا صحيحاً ! أقول لك ان هذا ليس صحيحاً !

وبينما كانت والدتها تجذبها نحوها وتحيطها بذراعيها كأنها تريد حمايتها ، فان جني تخلصت فجأة من تلك العقدة التي كانت تشد على عنقها، واستطاعت أخيراً ان تنتحب، مرددة دون انقطاع بذلك الصوت الذي كان لديها في همومها كفتاة صغيرة سابقاً :

ـ امي .. امي .. امي ..

وأخذت مدام دي فونتانان تهدهدها بحنو على صدرها وتقول لتهدئتها :

ـ يا عزيزتي .. لا تخافي .. لا تبكي .. انها أفكار .. ولكن ما من أحد يجبرك .. من حسن الحظ انك لم .. (وتذكرت لقاءها الوحيد مع السيد تيبو صباح اختفاء الولدين ؛ واستعادت في ذهنها صورة الرجل الكبير بين الكاهنين في غرفة عمله ؛ وتخيلته رافضاً الموافقة على حب جاك ، معاقباً غرام جني بأسوأ الازدراءات) . آه ! من حسن الحظ ان هذا ليس .. انت غير ملومة بشيء .. سأكلمه أنا ، هذا الصغير ، وسأجعله يفهم .. لا تبكي يا عزيزتي . ستنسين كل هذا .. لقد انتهى ، انتهى .. لا تبكي ..

ولكن بكاء جني كان يزداد شدة، لأن كل كلمة من امها كانت تزيد من عذابها .

وظلت المرأتان وقتاً طويلاً واقفتين هكذا ، متعانقتين في الظلام ، والابنة دافنة ألمها بين ذراعي امها ، والام تتلو تعزياتها القاسية ، والعينان مفتوحتان بذعر : لأنها ، بمعرفتها الفريزية المعتادة للمستقبل ، كانت ترى المصير المشؤوم مبسوطاً امام جني ، ذلك المصير الذي لاتستطيع مخاوفها ولا حنوها ولا صلواتها ان تنتزع ابنتها منه . وفكرت وهي مرهقة : « في الصعود اللامنتهي للكائنات نحو « الروح » ، على كل فرد منا ان يتقدم وحيداً ، من تجربة الى تجربة ، وفي الغالب من ضلال الى ضلال ، على الطريق المحفوظ له ، في كل ابدية ، كأنه طريقه الخاص ... »

وارتجفت الاثنتان حين سمعا انغلاق الباب في اسفل ، وعرفا خطوة جيروم على بلاط الدهليز . وعندئذ أرخت جني حضنتها وهربت دون اية كلمة ، مترنحة تحت هذا الشقاء الذي اصابها ، والذي لايستطيع اي انسان في العالم ان يخفف ثقله .

١١

هناك اعلان فخم كان يستوقف المتسكعين في الشارع امام السينما :

افريقيا المجهولة

رحلة إلى قبائل الأولوف والسيرير ،
والفولبيه والموندانج
والباغيرميان

وتأوهت راشيل قائلة :

ــ هذا لا يبدأ إلا في الساعة الثامنة والنصف

ــ أرأيت !

لكي يقلل انطوان من عرض نفسه للعيان في خلوتـــه ، استأجر إحدى المقاصير المحاطة بالاسلاك في داخل القاعة ، مع القول انه لم يتخلَّ دون أسف عن مؤالفته للغرفة الوردية .

ولحقت به راشيل عند نافذة التذاكر ، وقالت وهي تسير به تحت الرواق ذي الاعمدة ، حيث كانت تُعرض بعض مناظر الافلام :

ـ انظر .

فقرأ انطوان الكتابة أولاً : « فتاة من الموندانج تذرو الذرة البيضاء على ضفة نهر مايوكابي » . جسد برونزي عارٍ تماماً باستثناء شريط من قش مضفور بشكل زنار . كانت فتاة الموندانج الجميلة واقفة ، مستندة على الساق الايمن ، والوجه منهمك ، والقسم الأعلى من الجسد يجتذبه عملها : ذراعها الايمن المرفوع بشكل مستدير فوق رأسها كان يحني قرعة كبيرة ملأى بالحبوب فتسيل حبلاً دقيقاً عالياً بقدر الامكان ، في طاسة ثانية من خشب ممسوكة باليد اليسرى على مستوى الركبة . كانت وضعيتها طبيعية : الرأس الملقى قليلاً إلى الوراء ، وانحناءة الذراعين المتأرجحين اللطيفة ، واستقامة القسم الأعلى من الجسد يرفع نهدين فتيين ذوي استدارة صلبة ، وثنية القامة ، وجهد الخصر ، وطرحة الساق الحر إلى الامام بحيث لم يكن يلمس الارض الا بطرف القدم ، كل هذا التناسق كان طبيعياً ، فرضه الشغل ، وذا جمال مؤثر .

وتابعت وهي تري انطوان عشرة من الشبان السود يحملون زورقاً هزيلاً على اكتافهم :

ـ انظر إلى هؤلاء . وذلك الصغير هناك ، هل هو جميل ؟ انه من الأولوف كما ترى : تميمة في عنقه ، وخرقته الزرقاء وطربوشه .

كانت هذا المساء تتكلم بهرجٍ خاص ؛ وكانت تبتسم دون ان تفتح شفتيها تقريباً ، كأن عضلات وجهها تتشنج خفيةً عنها ، وفي شق الجفون ، فان لنظرتها المحمومة ، المنسابة ، وميضاً غريباً لم يكن يعرفه انطوان .

وقالت : لندخل .

ـ ولكننا جئنا قبل الوقت بأكثر من ربع ساعة .

فأجابت بملل ولد :

ـ لا اهمية لذلك . لندخل .

كانت القاعة فارغة . وفي مغارة الجوقة الموسيقية بعض الموسيقيين يعدّون آلاتهم ، ورفع انطوان شبكة المقصورة . وظلت راشيل واقفة قبالته . وقالت ضاحكة :

ـ حلّ ربطة العنق هذه . هيئتك تدل دائماً على انهم أرادوا شنقك وهربت والحبل في عنقك . ـ فأتى بحركة عنيفة تكاد لا تدرك وتمتمت بعد ذلك : ـ آه ! ذلك لأنني اشعر بلذة في المجيء لرؤية الفيلم معك . ـ واخذت وجه انطوان بيديها واجتذبته نحو شفتيها : ـ ثم اني أحبك منذ ان فقدت لحيتك .

وخلعت معطفها ، وقبعتها ، وقفازيها . وجلسا . ومن خلال الحاجز الكافي ليبعدهما عن الانظار كانا يشاهدان إجراء التغيير في القاعة التي لم تعد بعد بضع دقائق تلك القاعة الصامتة المعفرة بالغبار ، المحمّرة ، حيث يطفو بعض الحطام لتصبح كتلة متحركة الوجوه ، في جلبة هادئة لقفص طيور ، يسيطر عليها بين لحظة واخرى لحن موسيقي صادر عن آلة موسيقية هوائية . ورغم حر الصيف الخارق للعادة ، فان النصف الثاني من ايلول اجبر كثيراً من الباريسيين على العودة ؛ وبعد ، فلم تكن هذه هي باريس العطلة التي كانت راشيل تحبها ، كل سنة ، كمدينة جديدة على الاكتشاف . وقالت : اسمع .

فقد بدأت الاوركسترا تعزف قطعة من « لاوالكيري » رومانس الربيع . وكانت قد تركت رأسها على كتف انطوان الجالس قريباً جداً منها ، وكان يسمع من خلال شفتي راشيل واسنانها المطبقة شيئاً كالصدى كان يضاعف غناء الكمانات. وقالت بتراخٍ :

ـ هل سمعت زوكو ؟ زوكو التينور ؟

ـ نعم ، لماذا ؟

فاستمرت تحلم ولم تجب حالاً ؛ واخيراً قالت بصوت منخفض كما لو انها مصابة بوسواس إخفاء تفكيرها عنه . وقالت :

ـ كان عشيقاً لي .

وشعر انطوان بفضول شديد لمعرفة ماضي راشيل دون اية غيرة . وكان

يدرك جيدا ما أرادت ان تقول حين اعترفت قائلة: «ان جسدي لا ذاكرة له». إلا ان زوكو ... واستحضر في ذهنه شبحاً مضحكاً بلباس قصير من الساتان الأبيض ، متسلقاً مكعباً من الخشب ، في الفصل الثالث من مسرحية « المعلمون المغنّون » ؛ وهو ضخم ، ربعـة ، يحتفظ بمظهر غجري رغم شعره الأشقر المستعار ، وكان يضع أيضاً يده على قلبه في الغناء الغرامي المزدوج . وحقد انطوان قليلاً على راشيل لهذا الاختيار السيء .

وتابعت ، واصبعها المرفوع يرسم في الهواء تشابك الجمل الموسيقية :

ـ هل سمعته يغني هذه الاغنية ؟ ألم احدثك ابداً عن زو كو ؟

ـ كلا .

كان ممسكاً بوجه راشيل على صدره ، ولم يكن عليه إلا أن يخفض نظره ليراها . ولم يكن لديها ذلك التعبير المستيقظ الذي تتخذه دائماً عند استحضار ذكرياتها : كانت عابسة قليـلا ، والجفون شبه مطبقة ، وزوايا الفم منخفضة قليلا . وفكر: « قناع الألم الجميل الذي تستطيع الحصول عليه» . ثم لاحظ انها صمتت ، ولكي يؤكد مرة اخرى انه لا يهتم ابداً بالماضي ، قال ملحاً :

ـ وبعد ، عشيقك زو كو ؟

فارتجفت وقالت بابتسامة فاترة :

ـ ماذا ؟ زو كو؟ في الأساس ، انت تعلم ، ان هذا ليس ذا بال ، كان زو كو هو الأول ، هذا كل شيء .

فقال ضابطاً نفسه قليلا : وأنا ؟

فأجابت دون قلق :

ـ انت الثالث .

وفكر انطوان : « زوكو ، وهيرش ، وانا .. فقط » ؟

وتابعت وقد ازداد انتعاشها :

ـ اذن ، ماذا كنت اروي ؟ سترى اذا كان الامر بسيطاً . لقد مات ابي : وكان اخي يشتغل في همبورغ . وكان لدي الاوبرا التي كانت تأخذ كل نهاراتي.

ولكن في المساء، حيث لم اكن ارقص ، كنت اشعر اني وحيدة . والمرء هكذا في سن الثامنة عشرة . اما هو ، زوكو ، فكان يغازلني منذ وقت طويل . وكنت اجده شخصاً عادياً ، دّعياً ـ وترددت ـ احمق قليلاً ، نعم ، في ذلك الوقت اعتقد اني اراه على شيء من الحمق . ولكني لم اكن اعلم انه شرس .

قذفت ذلك فجأة . والقت نظرة على القاعة حيث اطفئت الانوار .

ـ بماذا يبدأون ؟

ـ بالحوادث الجديدة .

ـ وبعد ؟

ـ فيلم طويل يجب ان يكون سخيفاً .

ـ وافريقيا ؟

ـ في النهاية .

وقالت وهي تلقي شعرها المعطر على كتف انطوان :

ـ آه! ستخبرني اذا كان يستحق الجهد . الا يتعبك ذلك يا عزيزي ؟ انا مرتاحة .

ورأى فمها مفتوحاً رطباً ، والشفتين تنضمان . وكرر :

ـ وزوكو ؟

وبعكس ما كان ينتظر فانها لم تبتسم .

ـ اني اتساءل اليوم كيف استطعت احتمال كل شيء . كان يعاملني ! سائق عربة ! كان في الماضي يقود بغالاً في مقاطعة وهران .. وكان صديقاتي يرثين لي ، ولم يفهم احد لماذا ابقى معه . وانا نفسي لم افهم .. يقال دائماً ان بعض النساء يحببن ان يُضرَبن .. ـ صمتت لحظة واضافت : ـ كلا ، ولكني اظن انني كنت خائفة من بقائي وحيدة .

لم يذكر انطوان ابداً انه فاجأ في صوت راشيل قبلاً تلك التغييرات الكثيبة الموجودة فيه هذا المساء. وقد أطبق ذراعه حول المرأة الشابة كأنه يريد ان يضمها في مأمن . ثم انحلت حضنته . كان يفكر بتلك الرأفة السهلة التي كانت

أحد وجوه كبريائه ، وكانت تقريباً سر تعلقه بأخيه ، بحيث كان يتساءل احياناً ـ قبل ان يلتقي براشيل ـ اذا لم تكن هذه هي الطريقة الوحيدة للحب عنده . وتابع :

ـ وبعد ؟

ـ وبعد ، فهو الذي تركني . بالاتفاق .

قالت ذلك دون اقل مرارة .

ثم بعد وقفة ، وبصوت منخفض يبدو انه يدعو الى الصمت حول هـــذا الاقرار ، اضافت :

ـ كنت حبلى .

فانتفض انطوان . حبلى ؟ لم يكن هذا ممكناً . وهو الطبيب ، لم يتح له ان شاهد آثاره بعد .. هيا اذن !

كانت مشاهد الحوادث الجديدة تمر امام نظره الذاهل ، المستاء :

الى المناورات الكبرى

السيد فاليير في حديث مع
الملحق العسكري الالماني .
مستقبل مصلحة الاستخبارات .
الهبوط في طائرة لاتام التي تحمل
معلومات قيمة الى الجنرال القائد الاعلى .
رئيس الجمهورية يستقبل الطيار الشجاع .

وتابعت راشيل مصححة :

ـ اوه ! ليس لهذا فقط تركني . لو اني ثابرت على دفع ديونه ...

وتذكر انطوان فجأة تلك الصورة لطفل مولود حديثاً والتي رآها عندها وانتزعتها من يديه قائلة : «انها فليونة لي ، ماتت » .

كأن تلك اللحظة اكثر غيظاً ، واكثر مهانة في ضميره المهني ، بحيث لم يكن مندهشاً من اعتراف راشيل . وتمتم :

ـ اصحيح هذا ؟ اكان لك ولد ؟

ثم اردف بابتسامة فطنة :

ـ كنت اشك في ذلك منذ وقت طويل .

ـ الا ان احداً لم يفطن لذلك ، فقد كنت شديدة العناية بنفسي بسبب المسرح .

واجاب بحركة من كتفيه .

ـ طبيب !

فابتسمت ؛ كانت تتباهى بذكاء انطوان . وظلت بضع دقائق . وتابعت دون ان تتخلى عن وضعيتها المضنية :

ـ انت ترى ، حين افكر في ذلك العهد يا عزيزي أقول لنفسي انني عشت افضل قسم من حياتي كلها . ذلك لاني كنت فخورة ! وحين لزم الامر إلى طلب اجازة من الاوبرا لأنني شعرت بالثقل ، ألا تعرف اين كنت ؟ في النورماندي ! كوخ صغير لحبي الوحشة ، حيث عرفت عجوزاً من بيتنا كانت قد قامت على تربيتنا انا واخي . آه ! هناك حيث استطيع ان اكون موضع عناية ! كنت أريد ان اظل هناك طوال حياتي . كان بودي . فقط ، انت تعرف المسرح حين يُعض المرء منه مرة واحدة .. واعتقدت انني افعل حسناً . فقد تركت الصغيرة مع مرضعة : لم اكن خائفة ثم ، بعد ثمانية أشهر .. وانا ايضاً انتابني المرض . ـ وتأوهت بعد صمت قصير : ـ كنت مختـــلة الجسم بسبب الولادة . وكان عليّ ان أترك الاوبرا ، وافقد كل شيء في الوقت نفسه . وعدت لأرى نفسي وحيدة .

وانحنى ، ولم تكن تبكي : كانت عيناها مفتوحتين وهي تنظر الى سقف المقصورة ؛ ولكن جفونها انتفخت بالدموع ببطء . ولم يجرؤ على تقبيلها ، وكان يحترم تأثرها ، ويفكر بما عرفه . كان يعتقد كل يوم انه توصل مع راشيل إلى نقطة

ثابتة يستطيع منها ان يكوّن رأياً عاماً عن حياة صديقته ، ولكن في اليوم التالي ، فان حديثاً ، أو ذكرى ، او تلميحاً بسيطاً ، كان يفتح رؤى ليست موضع شك يضيع فيها نظره من جديد .

وانتصبت من تلقاء نفسها ورفعت ذراعها لتصلح شعرها . ولكن حركتها توقفت حالاً : وامتدت يدها نحو الشاشة وهتفت :

ـ اوه !

واخذت تتابع بعينيها المفشّاتين ، وبانتباه لاإرادي، هرب فتاة على الجواد، يلاحقها حوالي الثلاثين من الهنود كانوا يركضون خيولهم على اثرها كسرب من كلاب الصيد . وتسلقت الامازونية الصخور وظهرت لحظة على القمة ، وهبطت منحدراً عمودياً ، وقذفت نفسها في سيل دون تردد ؛ والجياد الثلاثون تندفع وراءها وتختفي في عاصفة من الزبد؛ ولكن الفتاة بلغت الضفة الاخرى ووخزت جوادها بالمهماز وعادت إلى الركض : جهود بلا فائدة : فقد كان مضطهدوها يثبون على أثرها . وحاصروها عن قرب . وكادوا يتلقفونها بواسطة الوهق [1] الذي كان يسوط الهواء فوق رأسها ، حين بلغت جسراً حديدياً كان يمر تحته قطار سريع كالاعصار : وفي لحظة ، انزلقت عن السرج ، وتخطت الحاجز ووثبت في الفراغ .

وانبهرت القاعة .

وفي اللحظة نفسها عادت الفتاة إلى الظهور على سطح عربة كانت تحملها بأقصى سرعتها ، وهي مشعثه الشعر، وتنورتها في الهواء، ويداها على خصرها، بينا كان الهنود الحمر من أعلى الجسر يحاولون عبثاً ان يصوبوا إليها بنادقهم القصيرة.

وهتفت مرتجفة من السرور :

ـ أرأيت ؟ اني احب هذا .

---

١ ـ الوهق : حبل في طرفه انشوطة يلقى على الحيوانات للامساك بها والكلمة ترجمة للكلمة الاسبانية « اللاسو *Lasso* » .

لجذبها من جديد ، ووضعها على ركبتيه هذه المرة ، وأبقاها بين ذراعيه ، كولده ؛ وأراد التخفيف عنها وان يجعلها تنسى كل ما هو ليس بحبهما . إلا أنه لم يقل شيئاً؛ كان يلعب بعقدها الذي كانت حباته العسلية اللون منفصلة بكرات صغيرة من العنبر الاصهب ، بلون الرصاص ، وكانت تسخن تحت الاصابع فيتضوع منها عطر لاصق جداً لا يندر ان تجد عبيره بعد يومين في تجويف الكف . وقد جعلته يفك عرى ثوبها من أعلى ويضع خده على عنقها .

وقالت : ادخل !

انها عاملة صغيرة تعيّن لكل متفرج مكانه ، قد أخطأت المقصورة ، وأطبقت المصراع بسرعة بعد ان اتسع لها الوقت لتشمل بنظرة فضولية المرأة الشابة نصف العارية بين ذراعي انطوان. اما هو فقد قام بحركة متأخرة ليتخلص. وضحكت راشيل قائلة :

ـ انت احمق ! ربما كانت تنتظر أن ... انها لطيفة .

وفوجيء بالكلمات وبالنبرة بحيث بحث عن تعبير الوجه ؛ ولكن راشيل كانت قد وضعت جبهتها على كتفه ، واحس بضحكتها فقط ، بذلك النقيق الغامض شبه الصامت الذي لم يكن يسمعه ابداً دون ان يصاب باضطراب نفسي.

كل ذلك المجهول الذي كانت راشيل ، بين فترة واخرى ، تظل مثقلة به ، كان يسبب لأنطوان شعوراً بهاوية مفتوحة . انه مزيج من القلق ، ومن الفضول أيضاً يعقده غم خفي : لأنه كان حتى الآن ، بصفته كطبيب ، يدهش الآخرين بابتسامات ارتيابية وبافكار مضمرة أُنذر بها . اما مع راشيل فالادوار مقلوبة: فقد تكشف انطوان بشكل اعجوبي عن مبتديء . وبدون ان يعترف بذلك ، كان يشعر انه غير مطمئن على هذا الصعيد . وذات مرة ، لكي يثأر ، جرب ان يمزج بتذكارات العيادة بعض الأحاديث عن غرفة الطبيب المناوب في المستشفى، واخترع لراشيل حكاية عاطفية غريبة جعلها تفهم منها انه كان له ضلع فيها . ولكنها قاطعته منذ الكلمات الأولى بضحكة ودودة :

ـ هيا ، هيا ! لمن كل هذا ؟ ألا احبك كما انت ؟

فاحمر وجهه ، وازداد غيظه بحيث لم يعد إلى ذلك أبداً .

وانتهت الاستراحة دون ان يفكر واحد منهما بقطع الصمت . وأعلن عن الفيلم الافريقي . وسادت الظلمة . وعزفت الاوركسترا لحناً زنجياً .

وعندئذ انفصلت راشيل عنه وجاءت تجلس وحدها على حافة المقصورة وتمتمت :

ـ بشرط أن يكون ناجحاً .

ومرت مناظر طبيعية . ونهر من الماء الراكد تحت أشجار عملاقة مرتبطة بالتراب بواسطة تشابك المعرّشات . وهناك فرس نهر على سطح الماء يشبه جثة ثور غريق . وقرود صغيرة سوداء تشبه بحّارة مسنين بأطواقها من اللحى البيضاء ، تلعب لاهية على الرمل . ثم كانت قرية : ساحة مقفرة ، متشققة من الحرارة ؛ وأفق مسدود بالاكواخ والسياج ؛ وباحة فيها « فتيات صغيرات » عاريات القسم الأعلى من الجسم ، وعضلات الارداف متوترة تحت الوزرة ، كن ينخلن الحبوب في اوعية خشبية مرتفعة بين أطفال زنوج يتدحرجون في الغبار ؛ ونساء آخريات ، حاملات سلات واسعة ، وغيرهن أيضاً يغزلن جالسات ، واليد اليسرى ممسكة بعرناس مغزل ، واليد اليمنى تدير في قادوس خشبي مغزلاً بشكل خذروف يلتف عليه القطن .

وكانت راشيل تحملق في الشاشة ، والمرفق على ركبتيها المتصالبتين ، والذقن في اليد ، والجبهة إلى الامام . وكان انطوان يسمع تنفسها . وبين وقت وآخر ، ودون أن ترفع رأسها ، كانت تنادي بصوت منخفض :

ـ انظر يا عزيزي .. انظر ..

وانتهى الفيلم بقرع طبول وحشي ، عند الغسق ، على ساحة محاطة باشجار النخيل . وجمهور مؤلف من السود فقط ، حيث تُرى الاقنعة ممدودة والاجساد مرتجة من الفرح ، كان يؤلف دائرة حول زنجيين شبه عاريين ، جميلين ، ثملين ، لامعين من العرق ، كانا يتلاحقان ، ويتصادمان ، وينفصلان ، وينقض أحدهما على الآخر صاراً باسنانه ، أو أيضاً ، يطلب أحدهما الآخر ، ويتلامسان ، في جنون ايقاعي ، حربي وشهواني معاً ، لانهما كانا يمثلان بالايماء ، ودورياً ، هياج

المعركة ، واستشهادات الحب . والمتفرجون السود ، لأهون ، يفحصون الأرض بارجلهم من السرور ، ويضيقون حلقتهم أكثر فأكثر حول المجنونين ، ويزيدون جنونهما بزيادة التصفيق وبمصاحبة قراع الطبول . وكانت جوقة السينما الموسيقية قد صمتت : وفي المقاصير تصفيق منظم يعيد إلى الصورة حياةً تسبب الدوار ويجعل اللذة البالغة حد القلق النفسي أكثر عدوى ، ذلك القلق الذي تفصح عنه كشرات وجوه هؤلاء المتعصبين .

وانتهى المشهد . واخلى الجمهور القاعة ، واخذت بعض النساء المستخدمات يبسطن أقمشة على المقاعد الخالية .

وراشيل ، صامتة ، فاترة الهمة ، لم تنوِ النهوض . ولما كان انطوان قد وقف وناولها معطف السهرة ، فانها انتصبت واعطته شفتيها . وخرجا الأخيرين دون اية كلمة . ولكن امام السينما وفي هواء الشوارع ، بين الجمهور الخارج من جميع اماكن اللهو دفعة واحدة ، وفي عذوبة هذا الليل المتألق بالاضواء ، حيث كانت تدور بعض اوراق الخريف ، اخذ انطوان ذراعها وهمس في اذنها :

ـ انعود الى البيت ؟ قولي .

فهتفت : اوه ! ليس الآن . هيا الى مكان آخر . انا عطشى .

ثم رأت الواجهات الزجاجية تحت رواق الاعمدة فعادت لتعيد النظر في صورة الزنجي الصغير وقالت :

ـ آه ! هذا مدهش . انه يشبه ولداً هبط معنا الكازامانس [1] كله . واحد من الألوف : مامادو ديانغ .

وسأل دون ان يظهر خيبة امله :

ـ اين تريدين ان تذهبي ؟

ـ لا يهم . الى « البريتانيك »؟ كلا : عند باكميل ، اتريد ؟ لنذهب سيراً على الاقدام . نعم . نعم . كأس من الشارتروز المثلوج عند باكميل ، ثم نعود

١ ـ الكازامانس : نهر ساحلي في افريقيا الغربية ـ السنغال .

الى البيت .

والتصقت به باسترخاء مليء بالوعود . وتابعت :

ـ ان تفكيري بمامادوا الصغير ، في هذا المساء بعد الفيلم تماماً ، يذكرني بأمر . وانت تعلم ، لقد اريتك تلك الصورة التي يجلس هيرش فيها على مؤخرة الزورق الطويل المستعمل لصيد الحيتان . وقلت ان له هيئة بوذا بخوذة المستعمرات . حسناً ان الولد الذي يستند اليه ، الكثير السواد ، بوزرة بيضاء ، اتذكر ذلك ؟ انه هو ، مامادو .

فألقى في روعها ملاطفاً :

ـ ومن قال لك انه ليس هو نفسه ؟

فظلت لحظة دون ان تجيب وارتعشت .

ـ يا للصغير المسكين ، لقد التُهم امامنا بعد بضعة ايام . نعم ، وهو يسبح. او بالاحرى كلا ، انه هيرش .. لقد راهن هيرش ان مامادو لا يجرؤ على اجتياز ساعدمنالنهر سباحة ليلتقط زينة للرأس بشكل باقة كنت قد انتزعتها. وقد اسفت كثيراً على اسقاطي هذه الزينة في النهر . وحاول الصغير ان يجري ، فالقى نفسه في الماء ، وكان يسبح ونحن ننظر اليه ... وفجأة . آه ! لقد كان مشهداً مرعباً ! ببضع ثوان ، تصور ! رأيناه ينتصب خارج الماء ، ممسوكاً من اسفل جسده .. تلك الصرخة ! كان هيرش رائعاً في حالات كهذه ! فقد ادرك في اللحظة ذاتها ان الولد قد فقد ، وانه سيتعذب بشكل فظيع : فتنكب البندقية واطلق النار ! وانفجر رأس الولد كالقرعة. هذا افضل ، اليس كذلك؟ ولكني اعتقدت اني سأصاب بأذى .

وصمتت والتصقت بانطوان .

ـ وفي الغد اردت ان آخذ صورة للمكان . كان الماء هادئاً بحيث لا يمكن الظن ..

كان صوتها مضطرباً . وصمتت من جديد وقتاً اطول ، ثم تابعت :

ـ آه ! ان حياة رجل بالنسبة لهيرش ليست شيئاً . الا انه كان يحب غلامه !

وبعد ، لم يحرك ساكناً . فقد كان هكذا .. حتى بعد الحادث كان على خير حال ، ووعد باعطاء ساعته لمن يأتيني بزينة الرأس . ولم اكن اريد . ففرض علي الصمت ، وانت تعلم ، يجب ان يطاع .. واخيراً حصلت على زينة رأسي ، فقد جاء بها احد الحمالين وكان محظوظاً اكثر من الغلام . ـ وابتسمت الآن ـ وهي لا تزال معي ، وقد وضعتها هذا الشتاء على قلنسوه صغيرة ، مخملية رائعة .

ولم يقل انطوان شيئاً . فهتفت منفصلة عنه فجأة :

ـ آه ! كم فاتك هذا لانك لم تكن هناك !

ولكنها ندمت حالاً وعادت تتعلق بذراعه .

ـ لا تقلق بالاً يا عزيزي . ان سهرة كهذه تجعلني مريضة . انا أكيـــدة اني محمومة قليلاً . في فرنسا يشعر المرء بالاختناق كما ترى ، بالحقيقة لا يمكن العيش إلا هناك . لو كنت تعلم ! تلك الحرية للبيض بين السود ! هنا ، لايرتابون بما يمكن ان تكون هذه الحرية هناك . ليس هناك أية قاعدة ، ولا أية مراقبة ، حتى انك لا تخشى أحكام الغير ! أفهمت ؟ اتستطيع فقط ان تفهم هـذا ؟ من حقك ان تكون انت نفسك في كل مكان ودائماً . انت اكثر حرية أمام جميع اولئك السود منك امام كلبك هنا . وفي الوقت نفسه تعيش بين كائنات لذيذة ، ملأى بالفطنة والتنوع ليس لديك فكرة عنها ! ولا شيء حولك سوى الابتسامات الشابة المرحة ، والعيون المتوهجة التي تدرك اقل رغباتك .. واذكر .. ألا يزعجك هذا يا عزيزي ؟ اذكر ذات يوم في داخلية البلاد ، وفي نهاية النهار في إحدى المحطات . كان هيرش يتكلم مع رئيس قبيلة بالقرب من نبع كانت النساء يأتين ويغترفن الماء منه . وكانت الساعة المناسبة . ورأينا فتاتين لذيذتين آتيتين تحملان معاً قربة كبيرة من جلد الماعز . واوضح لنا الرئيس : « انهما ابنتاي » . ولا شيء غير ذلك . وفهم الهرم . وفي المساء نفسه ، في الدار التي كنت فيها مع هيرش ، رُفع البساط دون ضجة : انهما الصغيرتان تبتسمان . لقد قلت لـك : أقل الرغبات .. ـ وتابعت بعد بضع خطوات في الصمت ـ اني لا أزال اذكر . مما يخفف عني ان اتكلم مع احد عن كل هذا ! اني اذكر ، في لوميه *Lomé* ،

وفي السينما بالضبط . لان جميع الناس يذهبون إلى السينما مساء . وهي شرفة مقهى منارة جيداً ، ومحاطة بأغراس في صناديق ؛ ثم يُطفأ كل شيء وتبدأ السينما ، وتُشرب اشربة باردة . اترى هذا ؟ جميـــع المستعمرين جالسون ، بقماش ابيض منارٍ نصف إنارة من انعكاس نور الشاشة . وفي ليلة ذات زرقة غريبة ، تحت النجوم التي تلمع هناك كما لا تلمع في أي مكان ، كان وراءنا وحولنا من سكان البلاد الاصليين ، غلمان وفتيات هناك ، واقفون في الظل لا تكاد تبدو وجوههم ، والعيون تلمع كأحداق الهرة ، جميلة جداً .. وبعد ، فليس لك ان تقوم بأية اشارة ! يقع نظرك على أحد هذه الوجوه الملساء ، وتتلاقى عيونكم لحظة .. هذا كل شيء . هذا يكفي . وبعد بضع دقائق ، تنهض وتذهب حتى دون ان تلتفت ، وتعود إلى فندقك الذي تظل كل أبوابه مفتوحة عمداً .. كنت اسكن الطابق الاول. وما يكاد الوقت يتسع لخلع ملابسي حتى يُخدش الباب ، فأطفىء النور وافتح ؛ فيكون هو ! لقد تسلق الجدار كالجرذ ، ودون اية كلمة ، يزلق وزرته عن جسده الصغير . لن انسى هذا ابداً . كان فمه مبللاً ، رطباً ، رطباً .

ففكر انطوان رغماً عنه : « يا للشيطان ! زنجي دون فحص مسبق » !

وتابعت راشيل :

ـ آه ! تلك البشرات التي لهم ! ناعمة كقشرة ثمرة .. انتم الآخرون ليس لديكم فكرة عما يمكن ان يكون هذا . بشرة حريرية ، ملساء ، جافة ، كأنها دلكت بالتالك ؛ بشرة دون عيب ، دون خشونة ، دون رطوبة ، ومحرقة ، ولكنها محرقة من الداخل ، كما يشعر المرء بحرق الحمّى من خلال كمٍّ من الموسلين. اتدرك ذلك ؟ كجسد حار لعصفور تحت ريشه ! وحين ننظر إلى هذه البشرة في وضح النهار ، هناك ، حين يلامس النور الكتف او الخصر ، نجد على هـذا الحرير الاسمر النهي اضواء زرقاء لا استطيع شرحها لك ، كغبار الفولاذ الذي لا يدرك ، كانعكاس دائم لنور القمر .. ونظرتهم ! هل لاحظت الآن مداعبة نظرتهم؟ بياض العين ذاك الذي يشبه السكر المذاب إلى حدٍ ما ، وحيث الحدقة تسبح

برشاقة .. وثم .. لا أعرف كيف أقول لك .. الحب هناك، كلا ، ليس كحبك أبداً .. انه هناك عمل صامت ، مقدس وطبيعي معاً . طبيعي بشكل عميق . لا تمتزج فيه أية فكرة من أي نوع أبداً . والبحث عن الملذات الذي هو دائماً أكثر أو أقل خفية ، هنا وهناك ، هو ايضاً مشروع كالحياة ، وكالحياة والحب هو طبيعي ومقدس . أأدركت هذا يا عزيزي ؟ وكان هيرش يقول دائماً : « في اوروبا ، لك ما تستحقين ؛ اما هناك فإنها بلاد لنا نحن ، للكائنات الحرة » . آه ! ذلك لانه يحب السوداوات ـ وأخذت تضحك ـ أتعلم كيف فطنت إلى ذلك لاول مرة ؟ ربما قلت ذلك لك .. في مطعم في بوردو، كان يجلس قبالتي ، وكنا نتحدث . وفجأة ، استقر نظره ورائي هنيهة ، ولكن بلمعان .. بلمعان حاد جداً بحيث التفت فجأة: ورأيت بالقرب منخوان زنجياً صغيراً في الخامسة عشرة ، جميلاً كأمير ، وكان يحمل صحناً فيه برتقال . ـ وأضافت ولكن بنبرة غير واضحة : ـ ويمكن أن الرغبة اجتاحتني أنا أيضاً في ذلك النهار للذهاب إلى هناك .

وسارا بضع خطوات صامتين . وتابعت فجأة :

ـ وحلمي حين اصبح عجوزاً هو ان ادير بيتاً .. نعم .. لا يصدمنّك ذلك، يوجد بيوت من جميع الانواع ؛ أود أن ادير بيتاً جيداً، وهذا طبيعي. ولكن، أخيراً ، ألا أشيخ بين الشيوخ .. وان أكون متأكدة من وجود كائنات شابة حولي دائماً ، وأجساد جميلة فتية ، وحرة، وشهوانية. ألم تفهم ذلك يا عزيزي؟

وسارا إلى عند باكيل ، ولم يجب انطوان بشيء . لم يكن يعرف ماذا يقول . كان أمام تجربة راشيل الغريبة يصاب بالبهر دون انقطاع . وشعر بانه يختلف جداً عنها فهو مرتبط بأرض فرنسا بولادته البرجوازية، بعمله، بالمطامع، بمستقبل منظم ! وكان يشاهد جيداً السلاسل التي تربطه ، ولم يكن يتمنى لحظة أن يقطعها ؛ وكان يشعر ضد كل ما كانت راشيل تحبه ، وما كان غريباً جداً عنه ، بتجهم حيوان أليف ضد كل ما يطوف حول المسكن ويهددسلامته.

الخطوط الارجوانية المنسابة وحدها من الستائر القرمزية ، كانت تظهر انتعاشة البار وراء واجهة البيت النائمة . وحاجر الباب يزمجر ويدور ، قاذفاً نسمة غاضبة في الجو المشبع بالحرارة ، والغبار ، وعفونة الكحول .

وكان هناك كثير من الناس . وكانوا يرقصون .

ولمحت راشيل بالقرب من غرفة الملابس منضدة صغيرة فارغة . وقبل ان تسقط معطفها عن كتفيها طلبت كأساً من الشارتروز الاخضر بالجليد المسحوق. وحين جيء لها بما طلبت ، جمدت ؛ المرفقان على المنضدة، والعينان منخفضتان، والشفتان مضمومتان على عصافتي القش .

وتمتم انطوان : أأنت كئيبة ؟

فرفعت جفنيها لحظة دون ان تكف عن الشرب ، وابتسمت له بقدر مـــا تستطيع من المرح .

وبالقرب منها ياباني يظهر اسناناً صغيرة صدئة في وجه طفل، ويلامس بعدم انتباه مهذب ذراع ملاكم بسطته امرأة سمراء، كانت تجلس بقربه ،بوقاحة على السماط.

وقالت راشيل مظهرة كأسها الفارغ :

ـ أتريد ؟ اطلب لي قدحاً من الشارتروز ، قدحاً آخر مماثلا .

وشعر انطوان بيد خفيفة تلامس كتفه . وقال صوت صديق :

ـ لقد ترددت في معرفتك . اذن جززت لحيتك !

. كان دانيال واقفاً امامها ، رشيقاً ، متقوساً ، تنير الثريا وجهه البيضوي بشكل شديد . وكان يمسك بين يديه العاريتين مروحة ـ مسطرة كان يحنيها ويرخيها كالنابض ؛ وكان يبتسم بهيئة جريئة ، ويبعث على التفكير بداود شاب يجرب مقلاعه .

وحين قدمه انطوان إلى راشيل تذكر الطريقة التي قذفه دانيال بها: «لكنت مثلك ـ ايها الكذوب ! » ولكن هذا الترجيع بدا له هذه المرة أقل إيلاماً ؛ وفاجأ بسرور تلك النظرة التي ألقاها الشاب ، بعد ان انحنى ليقبل يد راشيل، عليها ، وعلى وجهها المرتفع ، وعلى ذراعيها ، وعنقها الذي بدا كثير البياض الى

جانب الزهرة الحريرية الخارجة من أعلى الفستان .

ونقل دانيال نظره الى انطوان ، ثم ابتسم للمرأة الشابة كأنه يهنئها على عملها . وقال : ـ نعم ، حقيقة . هذا أفضل بكثير .

فقال انطوان مسلّما ، بنبرة تلميذ طب ساخر :

ـ هذا أفضل بكثير ما دام المرء حيا . ولكن اذا كنت معتاداً مثلي على الجثث ! في مدى يومين .

فضربت راشيل على المنضدة لتسكته . وكانت غالبا ما تنسى ان انطوان طبيب ، والتفتت نحوه وتأملته لحظة وتمتمت :

ـ يا طبيبي !

ايمكن ان تكون هذه السحنة المألوفة هي نفسها التي ظهرت لها ليلة اجراء العملية ، في ضوء القنديل الشديد ؟ ذلك الوجه البطولي ، الجميل بشكل مخيف ، الصعب المنال ؟ كم كانت تعرف ، والآن على الخصوص وقد اصبح الوجه معرّى ، كل نتوءاته ، كل كثافاته المختلفة ، واقــل علاماته ! فقد كشفت الموسى ذلك التجوف الخفيف في الخد ـ ذلك النقص في النسيج اذا صح القول ـ حيث كانت العذوبة تخفف قساوة الفك قليلا . وكم اصبحت تعرف أيضا ، وحتى على طريقة العميان لأنها لمسته اكثر من مرة وهي مضغوطة بــين ذراعيه ، ذلك الشكل المربع لعظم الفك . وذلك النتوء القصير للذقن المسطحة من اسفل بحيث قالت له مندهشة : « لك فك افعى تقريبا ! » . اما الأكثر إيلاما بالنسبة اليها ، منذ ازالة اللحية ، فهو ذلك الشق الطويل الملتوي للفم ، الكثــير الليونة ، الا انه جامد ، حيث الزوايا لا ترتفع ابداً تقريبا ، وقليلاً ما تنخفض ، وحيث شيء من الارادة غير الانسانية تقريبا توقف المفاصل ، كما يُرى في شفاه بعض التماثيل القديمة . وفكرت مستفهمة : « كثير من الارادة ؟ » . وحنت رأسها وكانت حدقتاها تسير بمكر حتى نهاية الجفون وانزلق تلألؤ ذهبي مقتضب على حواشي أهدابها .

وكان انطوان يدعها تقوم بفحصها ، بابتسامة سعيدة لرجل محبوب . منذ

ان حلق لحيته اكتسب مفهوما عن نفسه يختلف قليلاً : لقد قلّ اهتمامه بنظرته المشؤومة . واكتشف امكانات جديـــدة كانت ترضيه . الا انه شعر منذ بضعة اسابيع بتبدل كبير ، الى درجة ان حوادث حياته بالنسبة اليه ، والتي سبقت لقاءه مع راشيل ، قد غاصت في غياهب الظلمات : وكان مكانها «قبل» . ولم يكن يوضح اكثر من ذلك ـ قبل ماذا؟ ـ قبل التغيير . لأنه كان قد تغير اخلاقيا: كأنه لان، ونضج مع انه اكثر شبابا. كان يحب ان يردد انه اصبح أكثر قوة . وليس هذا غير صحيح . قوة ربما كانت أقل تفكيرا من السابق ، الا انها اكثر قدرة في عفويتها ، واكثر اصالة ايضا في اندفاعها . وقـــد أدرك تأثيرها حتى في عمله ، حيث كان لعلاقته بها في بادىء الامر لحظة تعكر فيها المجرى ، ولكنه استعاد تطوره فجأة وملأ وجوده من جديد ، كالنهر الجاري ملء الضفتين .

وقال انطوان مقدماً مقعداً لدانيال :

ـ لا تهتم كثيراً ببنيتي الجسدية . نحن آتيان من السينما . الفيلم الافريقي ، هل تعلم ؟

وسألت راشيل :

ـ الم تترك اوروبا ابداً ؟

فدهش دانيال من رنة هذا الصوت :

ـ كلا يا سيدتي .

فقالت وهي تأخذ كأس الشارتروز الذي جيء لها به وغمست فيه بشراهة قشتين جديدتين :

ـ حسناً . يجب ان تذهب لترى الفيلم . هناك ، مع ما يوجد ، استعراض لحمالين عند مغيب الشمس .. أليس كذلك يا انطوان ؟ نعم ، اولئك الغلمان على الرمل بينما يفرغ النساء الزوارق .

وقال دانيال وهو يتطلع اليها :

ـ سأذهب بالتأكيد .

واضاف بعد وقفة قصيرة :

ـ هل تعرفين انيتا ؟

فأشارت بالنفي .

ـ انها اميركية ملونة ، تكون عادة على البار . انظري . انها تُرى من هنا. ترتدي البياض وراء ماري جوزف ، تلك الكبيرة التي تحمل كثيراً من اللآلىء .

ونهضت راشيل لترى ، من خلال ازواج الراقصين ، وجها جانبياً بلون الشاموا ، ضائعا في ظـــل قبعة كبيرة . وقالت دون ان تستطيع اخفاء خيبة املها :

ـ انها ليست امرأة سوداء . بل هي من مواليد المستعمرات .

فابتسم دانيال ابتسامة خفيفة وقال :

ـ عفواً يا سيدتي .

ثم التفت نحو انطوان وقال :

ـ اتأتي غالبا الى هنا ؟

وكاد انطوان يجيب بنعم ، ولكن وجود راشيل منعه ، فصرح :

ـ أبداً تقريبا .

وكانت راشيل تتبع بعينيها انيتا التي اخذت ترقص مع ماري جوزف . وجسد الاميركية اللدن كان مقولباً في ثوب منالساتان الابيض، مصقولاً كريش الطائر ، وحيث الألق اللامع كان يشي بكل حـــركة من حركات ساقيها الطويلين . وسأل انطوان :

ـ هل تذهب الى ميزون غداً ؟

فقال دانيال : اتيت هذا المساء .

واراد ان يتحدث عن جاك ، ولكنه نهض عندما شاهد امرأة شابة بطراز اسباني ، مغطاة بشال كبريتي اللون وتبدو انها تبحث بعينيها عن احد . وتمتم حالاً وهو يبتعد :

ـ أسألكما الصفح .

وأدخل تحت الشال ذراعاً معتنياً ثم قاد المرأة الشابة راقصاً ، نحو زاوية الموسيقيين .

وكانت أنيتا قد توقفت . ورأتها راشيل تشق موجة الراقصين بالكياسة الدمثة لبجعة جميلة ، وسارت نحو الزاوية التي كانت تجلس فيها هي وانطوان إلى منضدة ، ولامست كرسي الشاب واقتربت من المقعد الصغير حيث كانت راشيل جالسة ، وأخذت من محفظتها شيئاً أخفته في تجويف يدها ، وظنت نفسها في معزل(أو ربما دون أن تهتم بأن يراها أحد) ووضعت قدمها على المقعد، ورفعت أسفل ثوبها برشاقة ووخزت فخذها . ولمحت راشيل موضعاً من بشرة كستنائية اللون بين بياضين حريريين، ولم تستطع الاستمرار في اختلاج جفونها . وأسقطت أنيتا تنورتها ثم انتصبت بإهمال مسترخ جعل القرط البلوري يتوهج على خدها الملون بلون الصدأة ، ذلك القرط الذي كانت تثبته لؤلؤة في شحمة الاذن ، وانضمت إلى صديقتها دون عجلة .

وأعادت راشيل وضع مرفقيها على السماط، مغمضة العينين تقريبا. وتنشقت رائحة الشراب المثلوج بهدوء . أما مداعبة الكمانات وإلحاح أقواسها الطويلة المعبرةفقد مددتفتورها حتى الاسترخاء.وكان انطوانينظر إليها. وتمتم: لولو..

فرفعت عينيها . وأجهزت على لون الجليد المسحوق في كأسها حتى آخر قطرة خضراء ، وحدقت فيه بنظرة غير منتظرة ، ضاحكة ، شبه وقحة ، وسألت :

— ألم تر أبداً امرأة سوداء ، انت ؟

فقال انطوان هازاً رأسه برباطة جأش : كلا .

فصمتت. وكانتابتسامة مضطربة تتردد فيالوقوف علىشفتيها.وقالتفجأة:

— اذن ، تعال .

كانت واقفة ، مغطاة بمعطفها من التفتا القاتم كما في لباس حفلة راقصة مقنعة ليلية . وفي حاجز الباب حيث دخل وراءها ، سمع انطوان من جديد ، بين أسنان راشيل المضمومة ، تلك الضحكة الصامتة التي كانت تخيفه .

١٢

في الوقت الذي كان جيروم يعيش في باريس ، كان قد أصدر أمراً لبوابه في شارع الاوبسرفاتوار بأن يحتجز بريده . وكان من وقت لآخر يأتي شخصيا في طلب رسائله في المنزل . ثم انقطع عن الظهور دون ان يترك عنوانا ؛ وقد تكدست الاوراق باسمه طوال سنتين متتاليتين بحيث ان البواب ، حين عرف بعودة السيد دي فونتانان الى ميزون ـ لافيت ، كلف دانيال ان يسلمها بيده للمرسلة اليه .

في تلك المجموعة من المطبوعات دهش جيروم جـــداً لاكتشافه رسالتين قديمتين . واحدة يعود تاريخها الى ثمانية اشهر خلت تعلن له وضع عشرة آلاف وبضع مئات من الفرنكات في حسابه ، آتية من تصفية عمل غير ناجح لم يكن يأمل منه شيئا منذ وقت طويل .

وتهلل وجهه . فوصول هذا الرصيد بدد آخر آثار القلق النفسي الذي كان يثقل عليه منذ سكنه في ميزون ؛ قلق نفسي مسبب ليس فقط من وجوده في عائلة لم يكن يجد مكانه فيها ، ولكن ايضاً من هموم المال التي كانت تعذب كبرياءه .

(كان الزوجان يعيشان منفصلين في أموالها منذ خمس سنوات . وكانت مدام دي فونتانان قد اقلعت عن الطلاق ، ولكنها انقذت من زوجها الثروة المتواضعة الموروثة عن والدها القس . وهذه الثروة ، مع انها نقصت في السابق فقد كانت حتى الآن تتيح لها العيش بشكل لا بأس به ، دون ان تترك مسكنها أو تقتر على تربية أولادها . اما جيروم الذي لم يكن قد بدد بعد مجمل التركة الشخصية ، فقد كان مستمراً في القيام بأعمال : حتى في بلجيكا وهولندا حيث قادته نويمي على اثرها ، كان يضارب بالبورصة ، ويتعاطى اعمالاً تجـــارية ، ويشارك في مبتكرات جديدة ، انه موهوب بشيء من الذكاء رغم خفتـه ، وتخدمه روحه المغامرة . وكان يراهن احيانا على مشروع مثمر . سنة حسنة

وسنة سيئة . وعاش في أغلب الاحيان كسيد كبير ؛ حتى انه كان يجد الفرصة لتهدئة وساوسه بين وقت آخر ، وذلك بأن يحمل إلى حساب زوجته بعض الاوراق من فئة الالف فرنك ، لكي يساهم ، هو ايضا، بنفقات جني ودانيال. إلا انه اثناء الاشهر الاخيرة من اقامته في الخارج اصبح رقيق الحال : فقد وجد نفسه ، لفترة ، في حالة لا يستطيع معها لمس رؤوس أمواله . وليس فقط لم يكن يستطيع التفكير في اعادة النقود التي حملتها تيريز اليه في امستردام ، بل رأى نفسه مضطراً إلى العيش على حساب زوجته . وكان يتألم من ذلـــك ؛ ويتعذب على الخصوص لفكرة خطأها في تقدير عواطفه والافتراض ان الضيق الذي هو فيه كان احد اسباب عودته إلى البيت) .

هذا المبلغ غير المنتظر اعاد إذن الى جيروم شيئا من اهليته . وصار بامكانه ان يتحرر .

وفي سرعته ليعلن النبأ لزوجته ، سار نحو الباب وهو يزيل ختم الغلاف الثاني الذي كان خطه السيء لا يذكره بشيء ، إلا انه توقف ، منذهلاً :

« سيدي :

يجب ان أقول لك ان امراً حدث لي ولم يسبب لي غمـا . بالعكس ، فانا سعيدة جداً بسببه رغم كل شيء لأنني تعذبت كثيراً لكوني وحيدة . ولكني طُردت من عملي بسبب ذلك ، وانا يائسة ، ولا اعتقد انك ستستمر في تركي بدون موارد في لحظة كهذه ، لأنني لم استطع ان أجد عملاً . وقد بدأ هــذا يثقل علي ، وليس معي سوى ثلاثين فرنكا وعشرة سنتيمات ، ولا شيء غير ذلك لكي اربي الطفل الذي اود ان اغذيه بنفسي كما يقتضي ذلك .

وكذلك فلن اوجه اليك لوما ، ولكنني آمل ان تجدك رسالتي في وضعية حسنة من ناحيتي لأن من اللازم ان تأتي لنجدتي غداً او بعد غد او الخميس دون خطأ ، وبدون ذلك لا ادري ما سوف يحل بي .

تلك التي تحبك باخلاص . « ف. لوغاد »

لم يفهم اولاً . « لوغاد ؟ » وفجأة :

— فيكتورين ... كريكري !

عندئذ عاد أدراجه وجلس مديراً الورقة بين اصابعه . «غداً أو بعد غد..» وقرأ تاريخ الطوابع وأجرى حسابا : هذه الرسالة ظلت تنتظر منذ سنتين ! مسكينة كريكري ! ماذا حل بها ؟ ماذا قالت عن سكوته ؟ ماذا حل بالولد؟ كان يلقي هذه الاسئلة دون تأثر حقيقي والسحنة المشفقة التي اتخذها وهو لا يدري كانت اصطلاحية . الا ان جسداً صغيراً ، حييا ومرتعشا ، وعينين دالتين على سلامة الطوية ، وفم فتاة ، كل ذلك بعث حيا في ذاكرته بشكل واضح يبعث على المزيد من الاضطراب .

كريكري ... كيف عرفها اذن ؟ عند نويمي التي جاءت بها من بريتانيا وبعد ذلك ؟ كان يتذكر بشكل سيء ذلك الفندق في الضاحية ، حيث خبأها خمسة عشر يوماً. لماذا تركها؟ كان يتذكر لقاءهما بشكل افضل، بعد سنتين، اثناء هرب نويمي؛ واستعاد في ذهنه بشكل واضح غرفة الخدم حيث صعد عند زوال النهار ، ثم ذلك الفندق المفروش في شارع ريشبانس حيث اسكنها ، وحيث شعر نحوها بحب دام شهرين او ثلاثة — ربما اكثر ؟

واعاد قراءة الورقة والتاريخ . وكانت حرارة معروفة تجتاح دماغه ، وتشوش نظره . فنهض وشرب قدح ماء ، ووضع في جيبه رسالة كريكري وامسك إعلام المصرف بيده وسار باحثاً عن زوجته .

وبعد ساعة كان يأخذ القطار الى باريس .

ان اولى خطواته خارج محطة سان لازار في الساعة العاشرة صباحا ، وفي شمس ايلول ، سببت له دوار فرحا . وسار الى المصرف ؛ وضرب رجليه امام نوافذ الدفع وحين وقع ايصاله وطوى الاوراق النقدية في حافظة نقوده ، واستطاع اخيراً الانطلاق في العربة التي كانت تنتظره ، شعر انه افلت هذه المرة والى الابد من ظلمات تلك الاسابيع الاخيرة ، وانه بعث حيا .

وغندئذ قام خلال باريس ، ومن باب الى باب ، بسلسلة من الخطوات المعقدة غير المثمرة اولاً . والتي اوصلته نحو الساعة الثانية بعد الظهر ودون ان يجد وقتا لتناول غدائه ، إلى بيت من تدعى السيدة باربان، والتي كانت تدعى أيضاً مدام جوجو . وكانت قد خرجت . ولكن الخادمة التي كانت فتية وثرثارة صرحت انها كانت تعرف جيداً تلك الآنسة لوغاد ، « أو الآنسة رينيت » :

– فقط ، انها في الفندق الذي فيه غرفتها ، ولا تأتي أبداً إلا نهار الاربعاء: يوم خروجها .

واحمر وجه جيروم ، وكان ذلك خيطاً من النور . ولمّح بابتسامة خبيرة :

– أعرف جيداً ، ولكني احتاج العنوان الثاني .

ونظر إلى بعضهما البعض كرفيقين . وفكر جيروم فجأة : « انها لطيفة » . ولكنه لم يكن يريد التفكير بسوى كريكري .

وقالت الخادمة أخيراً وهي تبتسم :

– انه شارع استوكهولم .

وسار جيروم إلى هناك ووضع رجله على الارض ، ولم يطل بـه الامر حتى عرف المكان . وحلت كآبة تسربت إليه محل جميع العواطف التي كانت تنعشه منذ الصباح . ولم يعترف مع أنه كافح ضدها .

ومرور ضوء النهار الخارجي إلى العارفين بالضوء والظلام في هذا المسكن ، ساهم في تضليله . ففي الغرفة « اليابانية » التي أدخل إليها والتي ليس فيها مما هو ياباني سوى مروحة رخيصة منشورة على الجدار عند رأس السرير ، ظل واقفاً وقبعته بيده ، في وضعية طليقة أعادتها إليه بدون رحمة مرآة في ناحية ، حيث التفت : وانتهى بالجلوس على طرف الاريكة .

وأخيراً فتح الباب بنسمة ريح : وظهرت فتاة في غـــلالة بنفسجية زاهية وتوقفت ، قائلة : آه !

لقد ظنت انها أخطأت الغرفة . ولكنها تلجلجت ، وتراجعت حتى الباب الذي كانت قد أطبقته آلياً وهي داخلة .

ـ أنت ؟

وكان لا يزال متردداً في معرفتها :

ـ أهذا أنت يا كريكري ؟

ودون أن ترفع رينيت عينيها عن جيروم ، كأنها تنتظر أن تراه يُخـــرج سلاحاً من جيبه ، مدت ذراعها حتى السرير ، وسحبت نحوها القماش الذي كان يغطيه والتفـّت به ، وسألت :

ـ ما الامر ؟ هل أرسلك أحد ؟

كان يبحث بيأس عن أمائر كريكري الطفولية على الوجه المطلي بالمساحيق لتلك الفتاة الجميلة ، المنتفخة قليلاً ، وشعرها مجزوز بشكل قصير ؛ حتى انه لم يجد الصوت الطريء الفلاحي الذي كان في السابق . وقالت :

ـ ماذا تريد مني ؟

ـ جئت لأراك يا كريكري .

كان يتكلم بعذوبة . ولم تلق بالاً إليه ، وظلت مترددة هنيهة ؛ ثم كفـّت عن التطلع إليه وبدت انها تهتم بالحوادث ، وقالت :

ـ إذا أردت . .

وبدون ان تترك غطاء السرير الذي كانت مغطاة به ، بل خلصت قليلاً الصدر والذراعين ، واقتربت من الاريكة وجلست ورددت منخفضة الجبهة :

ـ من ارسلك ؟

فلم يفهم سؤالها . وكان واقفاً خجلاً ، وأوضح انه عاد الى فرنسا بعداقامة طويلة في الخارج ، بحيث جاء ووجد رسالتها. فقالت رافعة عينيها :

ـ رسالتي ؟

وعرف وبريق حدقتيها الرمادي الاخضر ، وقد ظلتا صافيتين . وناولها الغلاف فأخذته وتأملت بهيئة مشدوهة ، وقالت بنظرة حاقدة :

ـ صحيح !

واحتفظت بالرسالة في يدها فترة طويلة ، وهزت رأسها من اعلى الى اسفل وتابعت :

– ومع ذلك ! حتى انك لم تجاوبني !

– ولكن يا كريكري ، ما دمت لم افتح رسالتك الا هذا الصباح .

فصرحت وهي تهز رأسها بعناد :

– هذا لا يبدل في الامر شيئاً . كان عليك على الاقل ان تجيب .

فقال بصبر :

– بالعكس ، لقد اتيت حالاً – ودون ان ينتظر : – اخبريني : الولد ؟

فضمت شفتيها ، وبلعت ريقها وارادت ان تتكلم ، ولكنها صمتت وامتلأت عيناها بالدموع . واخيراً قالت :

– لقد مات . فقد جاء قبل اوانه .

فأفلت جيروم زفرة تشبه زفرة تعزية وظل خجلا دون اية كلمة يكاد يموت تحت النظرة الحاقدة التي القتها رينيت عليه . وقالت :

– لقد جرى كل هذا بسببك . (كان في صوتها من القساوة اقل مما في عينيها) . انني لم اكن من بنات الارصفة ، وانت تعرف ذلك جيداً . وقد صدقت مرتين كل ما كنت تقوله لي . وتركت كل شيء مرتين لأتبعك ! آه ! لكم بكيت حين ذهبت في المرة الثانية !

واستمرت في النظر اليه من تحت . والكتفان مرفوعان ، والفم معوج قليلاً ؛ وكانت عيناها تلمعان ، وهما اكثر اخضراراً من خلال الدموع . وهو مهتاج ، منتفخ القلب ، غير عارف الموقف الذي يتخذه . وكان يبتسم بجهد (لكم تشبه هذه الابتسامة الجانبية ابتسامة دانيال) .

وجففت عينيها ، ثم سألت بصوت هادىء غير منتظر :

– وكيف حال السيدة ؟

فأدرك جيروم انها تتكلم عن نويمي . وكان عازماً حين مجيئه على السكوت عن موت مدام بتي – ديتراي خوفاً من تأثر كريكري ، وخوفاً من ان يوقظ

فيها عواطف ووساوس تعاكس المقاصد المعينة التي اختمرت في رأسه آنذاك .
وانقاد اذن الى الكذبة التي اعدها دون تفكير آخر :

ـ السيدة ؟ انها تعمل في المسرح في الخارج .

الا انه شعر بتأثر خفيف اضطر الى التغلب عليه ليضيف :

ـ اعتقد انها بخير .

فرددت الفتاة باحترام :

ـ مسرح ؟

وصمتا . وكانت قد التفتت نحوه . وبدت انها تنتظر . وزادت من كشف عنقها وكتفها وابتسمت ، وقالت :

ـ ولكنك لم تأت لكل هذا .

كان جيروم يدرك انه ليس عليه سوى القيام باشارة ليجد رينيت راضية . ومما يؤسف له ! انه لم يبق شيء من تلك الرغبة الوالهة التي جعلته منذ الصباح يتبع ، ككلب صيد ، اثر هذه الفريسة خلال كل احياء باريس . واجاب :

ـ لا لشيء آخر .

فبدت رينيت انها بوغتت وجرحت تقريباً .

ـ انت تعلم انه لا يحق لنا هنا القيام باستقبال .. زيارات بسيطة ..

فأسرع جيروم يغير الحديث :

ـ لماذا جززت شعرك ؟

ـ هنا يحبون ذلك .

فابتسم بداعي المسايرة ، ولم يكن يجد شيئاً يقوله لها . ومع ذلك لم يعزم على الذهاب . هناك عدم رضا كان يختبىء في اعماقه ويمسكه في هذه الغرفة كأن هناك شيئاً هاماً عليه ان يقوم به . ولكن ماذا ؟ مسكينة كريكري .. كان الشر قد وقع : ولا يمكن عمل شيء .. لا شيء .

ورينيت التي أحست ببعض الضيق من هذا الصمت كانت تتفحص جيروم خلسة ، بداعي الفضول اكثر مما هو بداعي الحقد . لماذا عاد ؟ ألا يزال يحبها

دائماً؟ هذا السؤال بعث فيها الاضطراب ـ وفجأة خطرت لها فكرة. باستطاعتها أن تلد ولداً آخر منه . كل هذه الآمال المخفقة انتعشت فجأة . ابن لجيروم ، أخ صغير لدانيال ، ولد يصبح لها . يصبح لها وحدها .. كانت على وشك الارتماء على الارض لتحضن ركبتي جيروم ، وتتمتم وهي ترفع وجهها المتوسل نحوه : « أود ولداً منك ! » . ولكن هذا يهدم بنزوة مستقبلاً أُعِد بجهد . وشعرت برعشة خفيفة . وضاعت عيناها لحظة في حلمها المستحيل ، وقالت لنفسها وهي مطبقة الفم : « كلا ، كل هذا كلا » . وقذفت فجأة :

— ودانيال ؟

— من ؟ دانيال ، ولدي ؟ ـ وأضاف قلقاً : ـ اتعرفينه ؟

ودون ان تعرف رينيت لماذا كانت تأمل ان يكون لدانيال ضلع في عودة جيروم ، اسفت للفظها اسمه ؛ وعزمت على عدم قول شيء : الأب ، ليس اكثر من الابن، لن يعرف ابداً بأي حب ، بأي حب قد امتزج .. وأجابت متملصة :

— اذا كنت اعرفه ؟ كل باريس تعرفه . لقد التقيت به .

وكان جيروم قد اصبح اكثر قلقاً . إلا انه لم يستطع ان يسأل : « هنا ؟ » وقال :

— أين اذن ؟

— في كل مكان . في علب الليل .

فحقق قائلاً :

— آه ! كنت ارتاب .. وقد قلت له في الماضي عن اعتقادي بنوع حياته .

فأسرعت تضيف :

— اوه ! لقد كان هذا في السابق .. ولا أعرف اذا كان يذهب دائماً الى هناك . انه مثلي تقريباً . انا الآن رصينة .

فنظر اليها ولكن لم يجب بشيء . كان يفكر ، بحزن صادق ، بفجور الشباب ، وانحلال الاخلاق ، ثم بهذا البيت ، وبهذه المخلوقة المعطاة للشر وفكر : « لماذا تكون الحياة كما هي ؟ » . وشعر فجأة انه مرهق ونادم .

واجتاحت رينيت رؤى مستقبل كانت فعاليتها من الآن فصاعداً متجهة اليها ، واخذت تحلم احلاماً مختلفة بصوت مرتفع ، محدثة ً صوتاً بربطة ساقها :
— نعم ، الآن .. انا تقريباً منسحبة من القضية . ولهذا لا احقد عليك .. إذا استمريت في البقاء رصينة واشتغلت ، ففي مدى ثلاث سنوات ، وداعاً يا باريس ! باريسك القذرة الملأى بالشقاء .
— لماذا ثلاث سنوات ؟
— احسب : لم يمضي عليّ شهر منذ دخلت إلى هنـا ، وأنا أربح خمسين أو ستين فرنكا صافية ، أي أربعماية فرنك بالاسبوع . اذن ، ففي مدى ثلاث سنوات ، وربما قبل ذلك ، سوف يكون لدي ثلاثون الف فرنك . وفي ذلك النهار تنتهي رينيت و كريكري والباقي كله .. وتأخذ فيكتورين ما أدّخرته ، وكل ما تملك ، وهوب ! في قطار لانيون ! وداعا يا جماعة !
وضحكت .
وردد جيروم لنفسه بيقين يائس : « كلا ، مهما كان الامـــر فلست سيئاً كأعمالي . كلا . الامر أكثر تعقيداً من ذلك . اني اساوي أفضل من حيـاتي ، ومع ذلك ، فبدوني .. هذه الصغيرة .. بدوني !.. » وصعد الكلام المقدس من جديد من أعماق ذاكرته : « الويل للرجل الذي يسبب الفضيحة ! » وسأل :
— ألا يزال أهلك أحياء ؟
هناك فكرة لا تزال مبهمة كان يحاول كبحها ، قد ولدت في نفسه ببطء .
— الاب ، مات السنة الماضية في سان ـ ايف . ـ وتوقفت مترددة في رسم إشارة الصليب ؛ ولم تقم بها . ـ ليس لي سوى عمتي . لها بيت صغير في الساحة وراء الكنيسة . ألا تعرف بيرو ـ غيريك ؟ .. ليس للعجوز ورثـــة غيري ، بالفعل . وهذا لا يعني ان لديها أموالاً . ولكن عندها بيتها . وتعيش من دخل ُعين لها . الف فرنك بالسنة . فقد ظلت وقتاً طويلاً في الخدمة عند بعض النبلاء . وهي صانعة كراسي ، وهذا يأتيها بشيء قليل أيضاً . ـ وتابعت وقد تهلل وجهها : ـ حسناً .. بثلاثين ألف فرنك كرأس مال ، تقول مدام جوجو ان

بامكاني الحصول على نفس المدخول أو شبهه . وسأعرف جيداً كيف أعمل لأربح الزيادة . وسنعيش كلانا ، ونتفاهم جيداً هناك .

وختمت بآهة كبيرة، متطلعة إلى تحرك أصابعها في حذائها الصغير من الساتان:

ـ هناك ، لا يعرف أحد شيئاً عني : كل شيء سينتهي وينسى .

وكان جيروم قد نهض ، وقد نمت فكرته ، فقمعها . وقام ببضع خطوات طولاً وعرضاً . يكون كريماً .. يفتدي .. ووقف أمام رينيت :

ـ أتحبين إذن بلادك بريتانيا ؟

وفوجئت لسماعه يكلمها بصيغة الجمع بحيث لم تجب حالاً . وقالت أخيراً .

ـ بالتأكيد !

ـ حسنا ، ستعودين إليها .. نعم .. إصغي إلي ..

وأخذ يمشي ، واستولى عليه ملل ولد مدلل . وفكر : « إذا لم يحدث هذا حالاً فلست مسؤولاً عن شيء » ..

وتفحص وجهها جيداً وقال :

ـ ستعودين إليها ، هذا المساء .

فضحكت قائلة : أنا ؟

ـ انت .

ـ هذا المساء ؟

ـ نعم .

ـ إلى بيرو ؟

ـ إلى بيرو .

فلم تضحك ، وخفضت جبهتها وأخذت تتفحصه بتعبير سيء . لماذا يسخر منها الآن ؟ ولماذا يمزح في ذلك ؟

وابتدأ قائلاً :

ـ لو كنت تحصلين على الف فرنك بالسنة كعمتك ..

فابتسمت ، لم تكن ابتسامتها رديئة . ماذا أراد أن يقول بألوف فرنكاته ؟

وحسبت بتمهل وقسمت على اثني عشر .

وتابع ، وقد كف عن الابتسام :

- ماذا يدعى الكاتب العدل عندكم ؟

- الكاتب العدل ؟ أيهم ؟ السيد بينيك ؟

فقوس جيروم قامته :

- حسناً يا كريكري ، اني اعطيك كلام شرف ان السيد بينيك سيدفع لك الف فرنك على حسابي ، في جميع السنوات ، في اول ايلول . اما لهذه السنة فاليك المبلغ . - قال ذلك وهو يفتح حافظة نقوده - وهذه الف فرنك زيادة لاجل سكنك هناك . خذي .

ففتحت عينيها ، وعضت على شفتيها ولم تقل شيئاً . كانت النقود هنا ، تحت نظرها ، بمتناول يدها ... كانت بقية من السذاجة لا تزال موجودة فيها بحيث كانت ذاهلة ولكن ليست غير مصدقة . واخذت اخيراً الاوراق النقدية التي كان جيروم يمد يده بها بصبر ؛ وطوتها بقدر الامكان ووضعتها في جوربها وتطلعت الى جيروم غير عارفة ماذا تقول له . ولم تخطر على بالها فكرة تقبيله ، فقد نسيت ما كانته ، وحتى كل ما كان احدهما للآخر : لقد اصبح السيد جيروم ، صديق مدام بتي - ديتراي ، وكان يخيفها كما في الايام الاولى . وأضاف :

- بشرط واحد ، هو ان تسافري هذا المساء .

فشدهت :

- هذا المساء ؟ اليوم ؟ آه ! هذا كلا ، هذا مستحيل !

انه على الارجح يقلع عن عمله الصالح اذا ارجىء التنفيذ يوماً واحداً .

- هذا المساء نفسه يا صغيرتي . وامامي .

فأدركت بسرعة انه لن يخضع ، وفجأة اجتاحها الغضب . هذا المساء ؟ هذا لا يدل على حسن نية ! اولاً ، انها ساعة العمل تماماً . ثم ، اعمالها في الفندق ؟ والصديقة التي تقاسمها ايجار غرفتها ؟ ومدام جوجو ؟ وغسيلها عند الغسالة ؟ اولاً ، هنا ، لن يتركوها تذهب هكذا .. وجُنّت ، كعصفور علق

على الدبق . وصاحت اخيراً والدموع في عينيها وقد ضاقت بها الحيل :
ـ سآتيك بمدام روز . وسترى جيداً ان هذا مستحيل ! اولاً لااريد .
ـ اذهبي . اذهبي بسرعة .
كان جيروم ينتظر مناقشة غاضبة ، واستعد لرفع نبرته . وكان مندهشاً من ابتسامة مدام روز المتساهلة . وأجابت متنسمة فخاً للشرطة :
ـ ولكن ، بالتأكيد . كل سيداتنا احرار ولن نمسكهن ابداً .
والتفتت الى رينيت وبنبرة دون جواب ، وقد دقت كفيها السمينين الواحد بالآخر : « هيا ، ارتدي ملابسك بسرعة يا بنيتي . انت ترين ان السيد ينتظر » .
وذهلت رينيت ، وضمت يديها ، وتطلعت بالدور الى جيروم والمعلمة . وقد اذابت دموع غزيرة مساحيقها . وفي دماغها تتشابك عشرون فكرة متناقضة . كانت عاجزة ، هائجة ، والهة . كانت تكره جيروم . ولا تزال مترددة في ترك الغرفة دون ان تشير اليه ألا ينطق بكلمة تتعلق بالورقتين النقديتين اللتين اخفتهما في جوربها . وغضبت مدام روز واحمر وجهها ، فأمسكت رينيت من ذراعها ورفعتها نحو الدرج :
ـ اتريدين ان تطيعي يا آنسة : ـ ثم قالت لها هامسة : « انذرك بألا تضعي رجليك هنا ابداً ايتها الذبابة » !
بعد نصف ساعة كانت سيارة اجـــرة تضع جيروم ورينيت في الفندق المفروش الذي كان لهذه غرفة فيه .
لم تكن تبكي . فقد اعتادت رغم كل شيء على عجلة هذا الرحيل ، لأن كل مبادهة قد وفرت لها . ومع ذلك ، فانها كانت تتردد كاللازمة بين فترة واخرى :
ـ في ثلاث سنوات ، لا اقول .. اما حالاً ، فكلا" !
وربت جيروم على يدها دون جواب . وكان يردد لنفسه بصوت منخفض : « هذا المساء نفسه » . وكان يشعر بقدرته على تحطيم كل المقاومات ، ولكنه كان يدرك تماماً حدود هذه الطاقة : لم يكن هناك وقت للضياع .

وتذكر بيان الشهر والدليل . كان موعد القطار في الساعة التاسعة عشرة والدقيقة الخامسة عشرة .

وطلبت منه رينيت ان يساعدها على سحب الصندوق القديم الخشبي الاسود من تحت غرفة الملابس ، وكان يحتوي على بضعة اثـــواب ملفوفة بشكل حزمة . وقالت :

ـ ثوبي حين كنت مستخدمة .

عندئذ تذكر جيروم خزانة ملابس نويمي التي تركتها نيكول للمؤجرة في امستردام . وجلس ، وجذب رينيت على ركبته ، وبرصانة ، ولكن بحرارة جعلت نهايات عباراته ترتجف، نصحها بترك زينتها كبغي ، والاقلاع ، والعودة الكلية الى البساطة ، الى طهارة الماضي .

كانت تصغي اليه بتعقل . وكانت كلماته تجد صدى في قسم قديم جداً منها . ولم تستطع منع نفسها من التفكير : « وثم ، تلك الثياب عندنا ؟ في القداس الكبير ؟ من سيحسبونني » ؟ ولم تستطع ان تحل القضية بأن ترمي او ان تعطي هذه البياضات ذات المخرمات ، وتلك الملابس الصاخبة التي كلفتها كثيراً من المدخرات . ولكنها كانت مدينة بمائتي فرنك للرفيقة التي تقاسمها غرفتها ؛ ومنذ ان اصبحت القضية قضية رحيل فان هذا الدين لم يكن اقل هموم رينيت؛ ولكن بتركها ثيابها للصديقة تدفع دينها دون ان تنقص نقود جيروم : وسُوي كل شيء .

ثم ان فكرة ارتداء ثوبها المصنوع من النسيج الصوفي الخشن الاسود ، البالي جعلها تضرب كفاً بكف كما لو ان المقصود هو التنكر ؛ ووثبت بملل الى الارض وراحت تضحك ضحكة عصبية هزتها كنوبة نحيب .

كان جيروم قد ادار ظهره لكي لا يزعجها اثناء ارتداء ملابسها . واقترب من النافذة وشرد ذهنه في تأمل جدار الساحة الصغيرة . وكان يقول لنفسه : « مهما كان الامر فاني اساوي أفضل مما يظنون » . لقد كفرّ عمله الصالح في نظره عن غلطة لم يكن يعتبر نفسه مذنباً بها .

الا ان شيئاً كان لا يزال ينقص طمأنينته . وهتف دون ان يدير رأسه :
– قولي انك لا تحقدين علي .
– اوه ! كلا .
– قولي لي ، قولي لي : اني اسامحك .
فلم تجرؤ . وعندئذ اخذ يتوسل مستمراً بالنظر الى الخارج :
– كوني طيبة . الفظي فقط هذه الكلمات الثلاث .
فنفذت طلبه :
– بالتأكيد اني .. اني اسامحك يا سيدي .
ـ شكراً .

واغرورقت عيناه بالدموع . وبدا له أنه عاد إلى التوافق المطلق، وانه وجد السلام في القلب بعد سنوات من الحرمان . وصاح عصفور في نافذة من الطابق الاسفل . وردد جيروم لنفسه : « أنا صالح ، انهم يقاضونني بشكل سيء . انهم لا يعرفون . فأنا اساوي أفضل من حياتي » . وفاض قلبه بعذوبة دون غرض ، وبالرأفة ، وتمتم :
ـ مسكينة كريكري !

والتفت . كانت رينيت قد انتهت من تزرير ثوبها الصوفي الاسود . وألقت شعرها إلى الوراء، واستعاد وجهها المغسول زهرته : لقد عادت الخادمة الصغيرة الخجولة العنيدة التي جاءت بها نويمي من مقاطعة بريتانيا منذ ست سنوات .

ولم يستطع جيروم امتلاك نفسه ، فتقدم إليها ووضع ذراعاً حول قامتها ، وكان يردد كلازمة : « أنا صالح ، أنا أفضل مما ُيظن بي » . وكانت أصابعه تحل عرى الثوب بصورة آلية ، بينما كانت شفتاه تستندان إلى جبهة الصغيرة في قبلة أبوية .

وارتعشت رينيت، ولم تكن أقل نفوراً من السابق. ولكنه أبقاها مضمومة إليه . وتأوهت :
ـ أتعلم أن لديك دائماً هذا العطر الذي ُيشتم منه رائحة شراب الليمون ؟

وابتسمت وقدمت فمها وأطبقت عينيها .
ألم تكن تلك هي الشهادة الوحيدة التي تستطيع تقديمها اعترافاً بالجميل ؟ أو لم تكن لجيروم هي الحركة الوحيدة القادرة في تلك المنيهة من الحماس الصوفي على أن تشرح ، حتى النهاية ، تلك الرأفة الدينية التي كانت نفسه مثقلة بها ؟

حين وصلا إلى محطة مونبارناس كان القطار على الرصيف . وقد أفاقت رينيت على الواقع حين شاهدت على عربة القطار ورقة كتب عليها : «لانيون». كلا ، ليست هذه « خدعة » ، فقد لمست بشكل جدي اتمام ذلك الحلم الذي كان يداعبها طوال سنوات . فكيف أمكن أن تكون كئيبة ؟

واختار جيروم مكاناً لها . وأخذا يخطوان المئة خطوة امام المقصورة ، ولم يكونا يتكلمان كانت رينيت تفكر بشيء ما ، بأحد ما.. ولكنها لم تنو قطع الصمت. وجيروم أيضاً بدا أنه يتعذب من هم خفي لانه التفت نحوها عدةمرات كأنه يريد أن يكلمها ، ويصمت . وأخيراً اعترف دون أن ينظر إليها :

ـ لم أقل لك الحقيقة يا كريكري . ان مدام بتي ـ ديتراي قد ماتت .

فلم تطلب أي تفصيل ؛ ولكنها أخذت تبكي ، وهذا الحزن الصامت أحسن إلى جيروم ، ففكر بعذوبة : « كم نحن صالحان ! » .

ولم يتبادلا أية كلمة حتى موعد الرحيل . لو كانت رينيت على شيء من الجرأة لأعادت النقود دون أي سبب وصعدت ترجو مدام روز أن تعيدها . وجيروم الذي كان هذا الانتظار يزعجه لم يشعر بأي سرور لأنه عمل على هذا الانقاذ .

ـ لو أراد السيد أن يهدي تحيتي لدانيال .

ومنعت الجلبة جيروم من فهم ما قالت . ورأت جيداً أنه لم يسمع ؛ فأخذ فمها يرتجف ، وتشنجت اليد التي أسندتها إلى صدرها . أمـا هو فكان يبتسم سعيداً لرؤيتها تذهب . وكان يحرك قبعته بكياسة .

وخطرت له فكرة جديدة جعلته يهتاج من الملل: العودة إلى ميزون ـ لافيت في أول قطار ، والارتماء على قدمي زوجته والاعتراف لها بكل شيء تقريباً .

وقال لنفسه ، وهو يولع سيكارة ويبتعد عن المحطة بخطى عريضة :

ـ وثم ، لأجل هذا الدخل السنوي ، يجب أن تكون تيريز على علم بالامر : فهي كثيرة التنظيم ولن يفوتها هذا .

١٣

كان انطوان يأتي عدة مرات في الاسبوع بطلب راشيل ليأخذها لتنـاول طعام العشاء .

وذات مساء ، في لحظة الخروج ، وبينما كانت تقترب من المرآة وتأخذ علبة البودرة من محفظتها ، أسقطت ورقة مطوية التقطها انطوان .

ـ آه ! شكراً .

وظن أنه فاجأ اضطراباً خفيفاً في صوتهـــا ، وأدركت راشيل في اللحظة ذاتها ما جال في فكره ، فقالت محاولة أن تمزح :

ـ وبعد ؟ ماذا تفترض إذن ؟ اقرأ .. انها ساعات القطار .

فدفع الورقة ، وأعادتها إلى محفظتها ، ولكنه سأل على الاثر :

ـ أأنت ذاهبة في رحلة ؟

كانت ارتجافة الاهداب اللاإرادية واعوجاج الابتسامة واضحين هذه المرة .

ـ راشيل ؟

فلم تبتسم . وفكر انطوان وقـــد انتابه قلق نفسي مفاجىء : « آه ! لا اريد .. لن أستطيع احتمال أقصر غياب » !

وجاء اليها ولمس ذراعها فارتمت على صدره منتحبة . وغمغم :

ـ ولكن ماذا ؟ ماذا ؟

فأسرعت تجيب بعبارات متقطعة :

ـ لا شيء ، لا شيء ابداً . أنا متوترة الأعصاب . اسمع ، سترى ان ليس في الأمر شيء: ذلك لزيارة قبر الصغيرة كما تعلم ، في غيه ـ لا ـ روزيير . وبعد، فاني لم اقم بهذه الرحلة منذ وقت طويـــل . ويجب أن أذهب ، افهمت ؟ لقد

أخفتك ! سامحني . ـ ولكنها قالت زافرةً وهي تضمه بين ذراعيها : ـ ولكن يا عزيزي ، اصحيح إذن انك متمسك بي ؟ ستكون إذن تعيساً إذا ... ذات يوم .. ؟

ـ اسكتي .

ـ تمتم خائفاً للمرة الاولى من تقدير المركز الذي تحتـــله راشيل في حياته . وأضاف بخجل :

ـ كم يوماً.. ستظلين غائبة ؟

وكانت قد تخلصت من حضنته ، وحاولت أن تبتسم ، وأسرعت نحو غرفة الزينة لتجفف عينيها ، وقالت :

ـ ذلك لانني حمقاء ببكائي هكذا . اسمع ، كان ذلك ذات مساء كاليوم ، وقبل الذهاب لتناول العشاء تماماً. كنت في بيتي مع اصدقاء ـ لا تعرفهم. ورن الجرس : البرقية : « الطفلة مريضة ، حالة خطرة جداً ، تعالي » . ففهمت . وركضت إلى المحطة كما كنت ، بقبعة من النسيج الدقيق المقشش ، وحـــذاء مكشوف، ووثبت إلى أول قطار . تلك الرحلة ، ليلة بكاملها ، وحيدة مرتعدة من الخوف .. كيف لم أصل مجنونة ؟ ـ والتفتت نحوه : ـ اصبر قليلاً ، سأجعله يجف ، وهذا أفضل . ـ وانتعش وجهها فجأة . ـ أتعلم ، لو كنت لطيفاً ؟ لأتيت معي إلى هناك ! اسمع : يومان يكفيان ، نهار سبت ونهار أحد . نذهب وننام في روان أو في كوديبيك ؛ وفي الغد نذهب إلى مقبرة غيه ـ لا روزيير . ستكون نزهة لا بأس بها ، كلانا ! الا تظن ؟

وسافرا في آخر سبت من أيلول ، في فترة جميــــلة من بعد الظهر ، في قطار فارغ تقريباً : كانا وحيدين في مقصورتها .

وانطوان المنتشي بيومي الراحة هذين ومن وجوده وحيداً معها ، مسترخي الأعصاب، معيداً الشباب إلى نظره ، ضاحكاً ، يتحرك كولد ، ويمازح راشيل حول صناديق امتعتها التي تملأ الشبكة ، ويرفض الجلوس بجانبها لكي يتسنى له

التهامها بعينيه بشكل أفضل .

وقالت حين نهض مرة احرى لإسدال الستائر :

ــ دعها إذن ، لن أذوب .

ــ كلا ، ولكن عيني تعشيان حين تكونين في الشمس .

وكان هذا صحيحاً : حين كان النور يسبح على بشرة الوجه ، ويحرق الشعر كان متعباً للعينين اذا أطالتا النظر . وقال ملاحظاً :

ــ اننا لم نسافر معاً بعد ابداً . هل فكرت بذلك ؟

ولم تتوصل إلى الابتسام . وكان في فمها المنجذب قليلاً شيء من الاحتدام ، من الارادة . وانحنى وقال :

ــ ما الأمر ؟

ــ ابداً .. الرحلة .

فصمت ، مفكراً انه نسي بدافع الانانية هدف الزيارة . ولكنها اوضحت:

ــ ان السفر يبعث فيّ الاضطراب دائماً . هذه المناظر الطبيعية الراكضة .. وكل ذلك المجهول في النهاية .. ــ وتوقفت عيناها لحظة على الافق الهارب ــ طالما ركبت هذه القطارات .. وتلك السفن !

وأظلم وجهها .

وأنساب انطوان الى جانبها وتمدد على المقعد ووضع رقبته في تجويف ثوبها وتمتم :

ــ سرّة تشبه وعاء العاج [١] .

ثم سأل بعد لحظة صمت ، وقد شعر ان تفكير راشيل لم يكن معه :

ــ بماذا تفكرين ؟

ــ بلا شيء .

وبذلت جهداً لتكسب وجهها هيئة لاهيــــة . وقالت وهي تضع اصبعها تحت القماش :

---

١ ـ باللاتينية في الاصل .

ـ بربطة عنقك كمعلم مدرسة. حتى في السفر فانك لا تعرف ان تجعل العقدة مرتخية قليلاً ، حرة قليلاً . ـ وتمطت وابتسمت أيضاً : ـ يا له من حظ ان نكون وحيدين ! تكلم ، انت ! قصّ عليّ شيئاً .

فضحك :

ـ ولكنك انت التي كنت تقصّين دائماً ! اما أنا ، فمرضاي ، وامتحاناتي . كيف استطيع الحصول على شيء اقصه ؟ لقد عشت دائماً كخلد في سردابه : وانت التي جعلتني اخرج من جحري وأنظر إلى الكون .

لم يكن قد لفظ هذا الاقرار امامها بعد . فانحنت وأخذت بيديها الرأس العزيز الذي كان يرتاح على ركبتيها وتأملته :

ـ اصحيح هذا ؟ هل هو صحيح تماماً ؟

فتابع دون ان يغيرّ مكانه :

ـ انت تعلمين ، اننا لن نبقى طول الصيف في باريس في السنة القادمة .

ـ كلا .

ـ لم اطلب اجازات هذه السنة ؛ واني ارتب اموري لاحصل على خمسة عشر يوماً .

ـ نعم .

ـ ربما ثلاثة اسابيع .

ـ نعم .

ـ وسنذهب معاً الى اي مكان .. اليس كذلك ؟

ـ نعم .

ـ الى الجبال اذا اردت . الى جبال الفوج او الى سويسرا ، او أبعد ايضاً

فظلت راشيل حالمة ، وقال :

ـ بماذا تفكرين ؟

ـ بهذا . الى سويسرا ، نعم .

ـ او الى البحيرات الايطالية .

ـ آه ! كلا .
ـ لماذ ؟ الا تحبين البحيرات الايطالية ؟
ـ كلا .
فرضي ، وهو لا يزال ممدداً تهدهده رجة القطار :
ـ حسناً ، سنذهب الى مكان آخر .. حيث تشائين .
ولكنه تابع بكسل بعد وقفة :
ـ لماذا لا تحبين البحيرات الايطالية ؟
كانت تجيل اطراف اصابعها على جبهة انطوان ، وعلى جفونه ، وعلى صدغيه المتقعرين قليلاً كخديه ، ولم تجب . وكان قد خفض جفونه ولكن الفكرة نفسها كانت تقف في دماغه النعسان :
ـ لماذا لا تريدين ان تقولي ما في نفسك ضد البحيرات الايطالية ؟
فأتت بحركة غضب خفيفة وقالت :
ـ ذلك لأن هارون مات هناك ! اخي ، اتعلم ؟ في بالانزا .
فأسف لإلحاحه ؛ الا انه اضاف :
ـ هل كان يعيش هناك ؟
ـ اوه ! كلا ؛ كان هناك في رحلة . رحلة عرس .
وعبست ، ثم تمتمت بعد هنيهة كأنها ادركت ما يفكر به انطوان :
ـ مهما كان الامر .. ان ما رأيته قبلاً كان من جميع الانواع ..
وسأل :
ـ هل اختلفت مع زوجة اخيك ! انك لم تتحدثي عنها ابداً .
وتوقف القطار فنهضت وانحنت على النافذة . الا انها كانت قد سمعت سؤال انطوان لأنها التفتت .
ـ ماذا ؟ اي زوجة اخ ؟ كلارا ؟
ـ زوجة اخيك : قلت انه مات اثناء رحلة عرس .
ـ لقد ماتت معه . وقد قصصت عليك ذلك . كلا ؟ ـ واستمرت في

التطلع الى الخارج ـ لقد غرق في البحيرة . وليس هناك من يعرف ماذا جرى ـ وترددت ـ ما من احد . ربما باستثناء هيرش .

فقال وقد اتكأ على مرفقه :

ـ هيرش ؟ اذن كان هناك معها ؟ ولكن .. انت اذن ايضاً ؟

فقالت متوسلة وقد جاءت لتجلس :

ـ آه ! دعنا من الحديث عن ذلك الآن . ناولني محفظتي . أأنت جائع ؟

ونزعت الغلاف عن قطعة شوكولا ووضعتها بين اسنانها وقدمتها هكذا لانطوان الذي استعد للعب مبتسماً . وقالت بنظرة شرهة :

ـ هكذا افضل .

وتابعت بطريقة غير منتظرة ، فجائية :

ـ كانت كلارا هي ابنة هيرش ، افهمت الآن ؟ لقد عرفت الاب بواسطة البنت . الم اقل لك عن هذا ابداً ؟

فأشار بالنفي ، ولكنه امسك عن سؤالها اكثر من ذلك ، محاولاً ضم هذه التفاصيل الجديدة الى تلك التي التقطها في السابق . الا ان راشيل لم تتأخر في متابعة الكلام ، كما هو الامر دائماً عندما ينقطع عن سؤالها :

ـ الم تر صورة كلارا ؟ سأبحث لك عنها . كانت رفيقة لي . وقد عرفتها في الصف الصغير . ولكنها لم تبق سوى سنة في الاوبرا . لم تكن صحتها ملائمة ، وربما كان هيرش يفضل ان يبقيها الى جانبه : هذا ممكن تماماً .. وكنت على صلة بها ؛ وأذهب لرؤيتها نهار الاحد في ميدان ترويض الخيل في نويي . وهكذا تلقيت اولى دروسي في ركوب الخيل معها في الوقت نفسه . وثم اعتدنا فيما بعد على الركوب معاً نحن الثلاثة .

ـ من هذا ، نحن الثلاثة ؟

ـ كلارا ، وهيرش وانا . ابتداءً من عيد الفصح كنت آتي لآخذهما في الساعة السادسة صباحاً ، ثلاث مرات بالاسبوع . وكان يجب ان اعود في الساعة الثامنة لاجل

الاوبرا . وفي تلك الساعات كان الغاب لنا ، وكان هذا شيقاً .

وصمتت لحظة . وكان ينظر اليها وهو متكىء بمرفقه على المقعد ولا يتحرك ، وتابعت ملاحقة خيط ذكرياتها :

ـ فتاة جامحة ، كثيرة الجسارة، كثيرة الطيبة ،فتنة،فتنة فاسقة قليلاً ؛ وبين فترة واخرى نظرة والدها الرهيبة . كانت افضل صديقة لي في ذلك الوقت.وقد جن بها هارون منذ سنوات: لم يكن يشتغل الا ليستطيع الزواج بها ذات يوم . وكلارا لم تكن تريد،ومن الطبيعي الا يريد هيرش ايضاً. واخيراً قررت الزواج منه فجأة دون ان استطيع معرفة السبب . ومع ذلك ، ففي فترة الخطوبة لم يساورني الريب بشيء . وحين عرفت ، كان الوقت قد تأخر لأقول شيئاً . ـ وتوقفت ـ وثم ، بعد ثلاثة اسابيع من الزواج تلقيت برقية من هيرش يدعوني فيها الى بالانزا . وكنت اجهل انه لحق بهما ، ولكن حين علمت انه كان هناك تنسمت المأساة حالاً ! وبعد ، فهذا ليس سراً ، اذ رؤيت كدمات حول عنق كلارا . فقد اضطر الى خنقها .

ـ من خنقها ؟

ـ هارون . زوجها . فقد استأجر قارباً ذلك المساء ليذهب الى التنزه على البحيرة وحده . وجعله هيرش يفعل ذلك ، وقد لاقى هناك حسابه ، ومن المحتمل ان يكون له مبارته : كان يعلم ان هارون يريد الانتحار . وكلارا ايضاً كانت ترتاب في ذلك : فقد اغتنمت الفرصة حين لم يكن هيرش يراقبها لتثب الى الزروق الذي اقلع . على الاقل هذا ما ادركته تدريجيا ، لأن هيرش ـ وهزتها الرعشة ـ لا يسبر غوره .

ثم سأل انطوان حين صمتت من جديد :

ـ ولكن لماذا انتحر ؟

ـ كان هارون يتحدث دائماً عن ذلك. هوَس..منذ الطفولة. ولهذا السبب لم أجرؤ أبداً على قول شيء ، وتركته يتزوج .. ـ وقالت بلهجة ألم عميق : ـ آه ! لقد لمت نفسي كثيراً منذ ذلك الوقت . ربما لو تكلمت في تلك الفترة ـ

وتطلعت إلى انطوان كما لو كان باستطاعته تبرئتها أمام ضميرها : ـ لقد اطلعت على سرهما ، نعم ، ولكن هل كان ذلك سبباً لاطلاع هارون عليه ؟ قل ؟ كان قد صرح عدة مرات أنه سيقتل نفسه إذا لم تتزوجه كلارا ! وكان يفعل ذلك لو انني أعلمته بما اكتشفت بطريق الصدفة .. ألا تعتقد ذلك ؟

فلم يستطع انطوان الاجابة وردد :

ــ بطريق الصدفة ؟

ـ اوه ، تماماً بطريق الصدفة ؛ فذات صباح ، وقد جئت في طلب كلارا وهيرش للذهاب إلى الغاب . وصعدت رأساً إلى غرفة كلارا ؛ وعندما اقتربت سمعت جلبة عراك ؛ فأسرعت .. كان الباب مفتوحاً قليلاً : كانت كلارا بدون النصف الاعلى من ثوبها ، والذراعان عاريان ؛ كانت مرتبكة في تنورتها الامازونية ؛ وفي اللحظة التي دفعت فيها مصراع الباب رأيتها تأخذ سوطها الذي كان على كرسي ، وسقطت ضربة شديدة على وجه هيرش .

ــ والدها !

ــ نعم يا صغيري ! آه ! هذا . أعترف انني كنت غالباً ما افكر بذلك منذ ذاك . ـ وهتفت بانفجار سرور حاقد : ــ لقد كنت أرى رأسه في أغلب الاحيان ، ووجهه الشاحب ! والندبة الطويلة التي دكن لونها أكثر فأكثر ! آه ! كان يحب أن يضرب هو أيضاً ؛ حتى أنه كان يضرب بشدة ! إلا أنه في هذه المرة ، هه ! فهو الذي تلقى ضربة السوط .

ــ ولكن ماذا ؟

ــ أجل . لم أكن أعلم بالضبط ماذا جرى في ذلك الصباح .. وكان على كلارا أن ترفض منذ الخطوبة . هذه هي الفكرة التي خطرت لي حالاً . وقد تذكرت بعض الاشياء التي أدهشتني في السابق . وفي لحظة ، حزرت ، ورأيت بوضوح .. لقد خرج هيرش من الغرفة مرتدياً ملابس سيد كبير ، دون أن يقول كلمة ؛ وهيئته تدل على أنه متأكد من انني لن أتكلم . وكان على حق ، كما رأيت . أما أنا فقد أرهقت كلارا بالأسئلة ، فاعترفت بكل شيء ولكنها أقسمت لي ـ وهنا

كانت صادقة ، وأنا متأكدة ـ لقد أقسمت لي أن الامر انتهى إلى الابد ، وانها ستتزوج لتتخلص من كل هذا . لتتخلص من هيرش ؟ أم لتتخلص من عاطفتها الخاصة ؟ هذا ما كان علي أن أتساءل عنه في ذلك النهار . وكان علي أن أفهم أن الامر لم ينته أبداً ، لا شيء إلا على الطريقة التي تتكلم بموجبها عنه . ـ وتوقفت قبل أن تضيف بصوت منخفض : ـ ما دامت امرأة تتكلم عن رجل بهذا النوع من الكراهية ، فهذا يعني أنه لا يزال دائماً شغلها الشاغل !

وظلت حالة طوال دقيقة ، منخفضة الجبهة ، والعينان محدقتان بالارض ، ثم تابعت :

ـ . وحصلت بعد ذلك على البرهان ، ما دامت كلارا ، هي نفسها ، وفي رحلة العرس .. أتفهم ؟ هي التي جاءت بهيرش إلى ايطاليا .. وبعد ذلك ، ينقصني بعض التفاصيل . ولكن من المؤكد أن هارون فاجأهما ، وبدون ذلك لما حاول اغراق نفسه .. أما ما لم أجلوه أبداً فهو مقصد كلارا . لماذا لحقت بزوجها إلى الزورق ؟ لمنعه من قتل نفسه ؟ أم لتموت معه ؟ يمكن افتراض هذا وذاك .. يا لها من مواجهة ، في ذلك الزورق ، وفي ظلام الليل ، وفي منتصف البحيرة ! لقد تساءلت مئة مرة عما جرى . هل اعترفت بكل شيء بوقاحة ؟ كانت خليقة بذلك .. هل أراد هارون قتلها ليتأكد من عدم استمرار ذلك بعد موته؟ لقد وجد زورقهما فارغاً في الغد ، وبعد عدة أيام، الجثتان معاً .. ولكن الاكثر غرابة بالنسبة إلي هو أن هيرش أرسل إلي برقية يدعوني للمجيء دون أن ينتظر بدء التفتيش،في مساء النزهة نفسه قبل اقفال المكتب !ـ وتابعت بعد عدة ثوان من الاحلام : ـ ومع ذلك ، فباستطاعتك قراءة هذه الحكاية في صحف ذلك الوقت ؛ فقط ان هذا لم يكن ليدهشك . وقد قامت الشرطة الايطالية بتحقيقات؛ وتدخلت الشرطة الفرنسية بذلك أيضاً: وقد فتشوا مسكنهارون فيباريس، ومسكني.. ولكنهم لميجدوا سر اللغز.. اني أعرفذلك أفضلمنهم.

ـ وصاحبك هيرش ألم يكن قلقاً ؟

فانتصبت بحيوية وقالت :

ـ كلا ، فصاحبي هيرش لم يكن قلقاً .

كان يوجد تحدٍ في صوتها ، وفي النظرة التي شملت بها انطوان ؛ ولكنه لم ينتبه إلى ذلك ، لأنها حين تروي قصة حياتها الماضية في أغلب الاحيان تستعمل لهجة مثيرة نوعاً ، كأنها تشعر باللذة في ادهاش هذا الرجل الذي فرض نفسه عليها بقوة في أول مساءٍ من لقائها . ورددت بنبرة اخرى ضاحكة :

ـ هيرش لم يكن قلقا أبداً ، ولكنه رأى من الحكمة ألا يعود إلى فرنسا في تلك السنة .

ـ أمتأكدة أنت أنها هي ، الابنة ، وفي رحلة عرس ..

ـ كفى .

قالت ذلك ، وجاءت نحوه بذلك الشغف الذي كانت تظهره دائماً حين يكون الامر بينهما متعلقاً بهيرش ، وأقفلت فمه بقبلة لا تُغلب ، وتمتمت وهي تضم نفسها إليه :

ـ آه ! انت لست كالاخرين ، انت كريم ! انت مستقيم ! آه ! ذلك لأنني احبك يا عزيزي !

وبدا انطوان مستعداً لإلقاء الاسئلة عليها ايضاً لأن هذه القصة شاقته ، الا انها رددت :

ـ كفى ، كفى ... هذا يثير اعصابي كثيراً ... اريد ان انسى ذلك ... اطول وقت ممكن ... ضمني بشدة ، داعبني برقة ... نعم ، هدهدني ، هدهدني جيداً ياعزيزي لكي انسى ...

فضمها بين ذراعيه ، وفجأة انبجست من اعماق عقله الباطن حاجة المغامرة كغريزة جديدة : الهرب من هذه الحياة المنظمة ، والبدء من جديد ، وركوب الاخطار ، وان يستعمل في اعمال حرة تلك القوة التي كان فخوراً جداً باخضاعها في نهايات شاقة !

ـ لو ذهبنا معاً ... إصغي الي . نصنع حياتنا معاً من جديد ، بعيداً ، بعيداً .. لا تعلمين ماذا استطيع ان افعل !

فقالت ضاحكة : انت ؟

ومدت شفتيها اليه . وهو نفسه ، وقد انتشى ، ابتسم محاولاً جعلها تظن انه كان يمزح . وقالت وهي تنظر اليه عن قرب بقلقٍ تذكره فيما بعد :

ـ لكم احبك !

كان انطوان يعرف روان . فعائلته الابوية كانت من اصل نورماندي : والسيد تيبو لا يزال له في روان عدة اقارب أدنين . وفضلاً عن ذلك فان انطوان قضى فيها خدمته العسكرية منذ ثماني سنوات .

وكان من اللازم ان ترافقه راشيل ، قبل العشاء ، في الجهة الاخرى من الجسور ، في ضاحية مزدحمة بالجنود ، ليسيرا بمحاذاة جدارٍ لا ينتهي لثكنة عسكرية .

وهتف انطوان بسرور ، دالاً راشيل على بناية مضاءة :

ـ ردهة المرضى ! اترين النافذة الثانية؟ المكتب . لقد قضيت اياماً في الداخل دون أن أعمل شيئاً، حتى دون ان استطيع القراءة ، وأنا أراقب اثنين او ثلاثة من الكسالى ، وبعض العشاق المصابين .

كانت تضحك دون حقد ، واختتم :

ـ ها ؟ ذلك لانني سعيد اليوم !

فلم تجب بشيء ومرت أمامه ؛ ولم ير انها كانت على وشك البكاء . وكان هناك دار للسينما قد علقت اعلاناً عن «افريقيا المجهولة» . وارى انطوان الآرمة لراشيل ؛ فهزت رأسها وسارت به نحو فندقها .

ولم يتوصل إلى إضحاكها طوال وقت الطعام ؛ وحين فكر بسبب رحلتها لام نفسه قليلاً على مرحه .

ولكن ما ان اصبحا في غرفتها حتى تعلقت بعنقه وقالت :

ـ يجب ألا تحقد عليّ .

ـ بسبب ماذا ؟

ـ لانني أفسدت عليك نزهتنا .

وأراد الاعتراض ، فاحتضنته من جديد ، مرددةً ، كأنها تقول لنفسها :

ـ آه !.. احبك !

وفي الغد بلغا كوديبيك في ساعة مبكرة . وكان الحر ثقيلاً ؛ والنهر يجري كثير الاتساع تحت بخار يتلألأ . وحمل انطوان الصناديق الصغيرة حتى الفندق الصغير الذي كان يؤجر عربات . والعربة التي طلباها جاءت منذ وقت طويل تقف أمام النافذة التي كانا يتناولان طعامها بقربها . وقصرت راشيل امد تناول الحلوى ، وكدست كل رزمها بنفسها في غطـــاء العربة ، وشرحت بالتفصيل للحوذي الطريق التي تريد اتباعها ، واندفعت بمرح في العربة القديمة .

وكلما اقتربت من اللحظة المؤلمة في رحلتها كانت تبدو انها تستعيد انتعاشها . وقد سرّتها المسافة : كانت تعرف الطلعات والنزلات ، والتـــلال التي نصبت عليها الصلبان ، وساحات القرى. وكان كل شيء يثير دهشتها ، حتى ليظن انها لم تترك الضاحية ابداً :

ـ كلا ، ولكن انظر ! هذه الدجاجات، وتلك العجوز المشلولة التي تشوي نفسها في الشمس ! وذلك الحاجز ، مع تلك الكتلة الحجرية لايجاد التوازن ! هل هم متأخرون هنا ؟ انت ترى ، انني انذرتك : غابة الشوك الحقيقية !

وحين شاهدت في الوادي السطوح المبعثرة حول كنيسة غيه ـ لا ـ روزيير الصغيرة ، نهضت واقفة في العربة . وتألق وجهها كأنها وجدت مسقط رأسها . وقالت للحوذي حين بلغوا بيوت غيه *Gué* الأولى :

ـ المقبرة إلى الشمال ، بعيدة عن الضيعة ، وراء تلك الحورات . انتظر . ستراها .. ستجتاز القرية خبباً .

كانت الواجهات البيضاء المخططة بالسواد والمعتمرة بالنجيليات ، والمختبئة في داخل ساحة معشبة ، تلمع خلال أشجار التفاح ؛ وكانت المصاريع مقفلة . ومروا أمام سطح من الأردواز بين شجرتي سرو . وقالت راشيل منتشية :

ـ مكتب المخترة . لم يتغير شيء ! هنا تكتب القرارات .. أترى هناك ،

خلف ؟ . حسناً .. هناك كانت تسكن مرضعتها . اناس طيبون وقـــد تركوا البلاد: ولولا ذلك لذهبت وقبّلت العجوز.. اسمع، لقد سكنت هنا ذات مرة. وحين أتيت ، اسكنوني عند اولئك الذين لديهم سرير للاعارة . وكنت أتناول طعامي معهم ، واضحك من لهجتهم العامية . وكانوا ينظرون إليّ كبهيمة من معرض الوحوش.والنساءالطيبات كن يأتين لرؤيتي في السرير بسبب (بيجاماتي). انهم هنا متأخرون ، وهذا لا يصدق ! ولكنهم اناس طيبون ، كانوا كلهم لطفاء معي حـــين ماتت الصغيرة ! وبعد ذلك ارسلت اليهم كل شيء: مربـّى أثمار ، وشرائط لتوضع على قبعاتهن ، ومشروبات روحية للخوري ـ ونهضت من جديد ـ المقبرة هناك ، بعد هذا الضلع . انظر جيداً : سترى القبور في القعر . ضع يدك . أتعرف لماذا يثب قلبي ؟ اخاف دائماً ألا أجدها ، ابنتي المسكينة . لأننا لم نشأ أن ندفع ثمن قبر دائم ؛ فقد قال لنا الجميـع ان ليست هذه هي العادة السائدة في البلاد . ولكني أقول لنفسي رغماً عني في كل مرة اجيء : « وإذا ذروهالي في الهواء ؟ » . سوف يكون لديهم الحق كما تعلم .. قف أمام الممشى يا صديقي ؛ سنذهب سيراً على الأقدام حتى الباب .. تعال ، تعال بسرعة .

وقفزت خارج العربة واسرعت نحو حاجز من القضبان الحديدية وفتحته واختفت وراء شقة حائط ، وعادت إلى الظهور حالاً لتصيح بانطوان :

ـ انها لا تزال هنا .

وكانت الشمس تلفح وجهها الذي لا يبدو عليه سوى الفرح . وتوارت من جديد .

ولحق بها انطوان . وظلا واقفين وايديهما على خصريهما امام زاوية تجتاحها الاعشاب المجنونة ، على زاوية جدارين ؛ وهناك بقايا سياج كانت تبرز من خلال نبات القرّاص .

ـ انها لا تزال هنا ، ولكن في اية حالة ! آه ! الطفلة المسكينة . تستطيعين القول ان مقبرتك ممشطة جيداً ! مع اني ارسل اليهم عشرين فرنكاً بالسنة لأجل الصيانة .

ثم التفتت نحو انطوان ، مع تردد خفيف في الصوت، كأنها تعتذر عن نزوة :
ـ اخلع قبعتك يا عزيزي ، اتريد ؟ فاحمر وجه انطوان ، ونزع قبعته . وقالت فجأة :
ـ يا لطفلتي المسكينة !
وأسندت يدها الى كتف انطوان ، وامتلأت عيناها بالدمع وتمتمت :
ـ تصور اني لم ارها وهي تموت ، فقد وصلت متأخرة . ملاك صغير حقيقي شاحب ـ وفجأة مسحت عينيها وابتسمت ـ نزهة عجيبة جعلتك تقوم بها ، أليس كذلك ؟ ماذا تريد ، هذا من التاريخ القديم . ولكنه يؤثر بك مهما كان الامر .. ومن حسن الحظ ان لك عملاً يمنعك من التفكير .. تعال .
ووجب الرجوع الى العربة . وبدون ان يقبل مساعدة الحوذي ، نقل الى المقبرة الرزم التي اخذت راشيل ، وهي راكمة على العشب، تفتحها بنفسها . ونشرت على بلاطة مجاورة ، وبترتيب ، مجرفة ومنجلاً ، ومطرقة خشبية ، ثم كرتونة واسعة تحتوي على اكليل من اللؤلؤ الابيض والازرق . وقال انطوان مبتسماً :
ـ ادركت الآن لماذا كان هذا ثقيلاً .
ونهضت بمرح :
ـ ساعدني اذن بدلاً من ان تسخر . اخلع سترتك . خذ المنجل . والمقصود ان تقطع ، او تنتزع هذه القذارة التي تلتهم كل شيء . انت ترى ان الآجرة التي تعين المكان موجودة تحتها . لم يكن تابوتها كبيراً ولا ثقيلاً ، الابنة المسكينة ! اعطني هذا ! انه بقايا اكليل . ليس هذا حديثاً : « الى ابنتنا العزيزة » . ان زوكو هو الذي جاء به . لم اكن معه منذ سنة ولكني اخبرته مهما كان الامر . افهمت ؟ كان ذلك مناسباً ، وقد جاء ، وكان بملابس الحداد . لعمري كنت مسرورة ، كنت اقل وحدة عند الدفن .. ذلك لأنني حمقاء ! انتظر : هذا ، انه الصليب . ارفعه . سنمكنه حالاً .
وشعر انطوان بتأثر مفاجىء وهو يبعد العشب : لم يكن قد شاهد اولاً

الكتابة بكاملها : « روكسان ـ راشيل غوبفير » . كان الاسم الاول ممحواً ، ولم يقرأ سوى اسم صديقته . وظل حالماً بضع ثوان . وقالت راشيل :

ـ حسناً ، الى العمل . لنبدأ من هنا .

واخذ انطوان يشتغل باخلاص ، لم يــكن يشتغل شيئاً نصف شغل . وكان بالقميص ، يحرك المنجل والرفش . واخذ ينضح بالعرق كأنه احد العمال . وقالت :

ـ الأكاليل . اعطنيها لأمسحها .. هيه ! ولكنها تنقص واحداً . انظر . ذاك الذي قدمه هيرش ، الاجمل ! من زهور من البورسلين ! آه ! مثلا ، هذا انه قاس !

كان انطوان يتبعها بعينيه متسلياً : وهي بدون قبعة ، وشعرها المشمث يلمع في الشمس ، والشفة متحركة وساخرة ، والتنورة مرفوعة ، واكامها مشمرة حتى المرفقين ، كانت تطوف السور في كل ناحية ، متفحصة كل قبر ، متذمرة بغضب :

ـ لقد استعاروه مني ، النهمون .

ثم عـــادت وقد خمدت همتها ، وتابعت وقد هدأت كأن ذلك بفعل السحر :

ـ لقد حافظت عليه كثيراً ! ربما يضعون منه ما يعلّق بسلسلة الساعة ، انهم متأخرون جداً ، كما تعلم ! ولكني اكتشفت هـــناك رملاً اصفر يصلح للزينة .

وبين ربع ساعة واخرى اتخذ القبر الصغير مظهراً جديداً : الصليب اعيد وضعه قائماً ، ثم جرى غرزه بضربات المطرقة بحيث اشرف على مستطيل الآجر الذي نقي تماماً من العشب ، وحول كل ذلك درب ضيق مغطى بالرمل ، اكسب القبر هيئة حية .

ولم يكونا قد لاحظا امتلاء الافق بالغيوم وفوجئا بقطرات المطر الاولى ، وتشكلت زوبعة فـــوق الوادي . وتحت السماء التي بلون القصدير اصبحت

الحجارة اكثر بياضاً ، والعشب اكثر اخضراراً . وصاحت راشيل :
ــ لنسرع .
وابتسمت باتجاه القبر ابتسامة ام وتمتمت :
ــ لقد اشتغلنا جيداً ، حتى ليظن انها حديقة صغيرة لإحدى الدارات .
وكان انطوان قد لاحظ على زاوية الجدار غصن وردة متدلياً كان يؤرجح في الهواء وردتين قلبهما كالزعفران. وخطرت له فكرة تقديمها كوداع لروكسان الصغيرة . وأوقفه الاحترام الانساني : فقد فضل أن يترك للأم هذه الحركة الرومانتيكية ، وقطف الزهرتين وناولهما لراشيل ..
فأخذتهما ، وغرزتهما بسرعة في أعلى فستانها ، وقالت :
ــ شكراً . ولكن لنذهب ، أكاد أخسر قبعتي .
وهربت نحو العربة دون أن تلتفت ، ممسكة بيديها تنورتها التي بدأ المطر ينهال عليها .
وكان الحوذي قد حل الجواد عن العربة وآوى مع جواده إلى تجويف في السياج . والتجأ انطوان وراشيل إلى داخل العربة ، تحت الغطاء ونشرا على ركبهما المريلة الثقيلة التي يشتم منها رائحة الجلد المتعفن . وكانت تضحك ، لاهية بهذه الزوبعة غير المتوقعة ، سعيدة أيضاً بالواجب الذي قامت به .
ولم تكن سوى مزنة . وتناقص المطر ، وأسرعت الغيوم نحو الشرق ؛ وعلى الأثر ، ومن خلال الجو الذي تطهر من أبخرته ، عادت شمس المغيب إلى الظهور تبهر العين . وبدأ الرجل يربط جواده. ومر غلمان يدفعون أمامهم صفاً من الاوز المبلل . وأصغرهم ، ويمكن أن يكون في التاسعة او العاشرة من عمره، تسلق درجة العربة ليقذف بصوت طريء :
ــ الحب جميل أيها السادة والسيدات .
ثم هرب مقرقعاً بقبقابه .
وانفجرت راشيل ضاحكة وقالت لانطوان :
ــ متأخرون ! ان الجيل الشاب يعد بالكثير

وأخيرا أصبح المسافران على أهبة السير . ولكن الوقت فات للحاق بقطار كوديبيك . واضطرا أن يبلغا مباشرة أقرب محطة على الخط الكبير : ولم يشأ انطوان أن يبقى في الفندق حتى صباح الاثنين. وكان مضطراً للعودة إلى باريس ليلاً.

وأوقفهما الحوذي ليتناول عشاءه في سان ـ أوان ـ لانو وكان الفندق مليئاً بشاربي الاحد مساءً . وقدم الطعام للاثنين الجديدين في غرفة خلفية .

وكان العشاء صامتاً . ولم تكن راشيل تمزح . كانت تفكر ؛ كانت تتذكر انها جاءت إلى هنا يوم الدفن ، وفي نفس الساعة ، في عربة مماثلة وربما هي نفسها ـ ولكن برفقة المغني . وتتذكر على الخصوص المعركة التي اندلعت بينهما على الاثر ، وكيف انقض زوكو عليها وصفعها ، هنا ، أمام المعجن ؛ وكيف انها استسلمت إليه من جديد في المساء نفسه ، في غرفة من هذا الفندق ؛ وكيف انها بعد ذلك ، احتملت حماقته وشراسته طوال أربعة أشهر . لم تكن تحقد عليه آنذاك . حتى انها تفكر به في هذا المساء ، بتلك الصفعة مع تذكار شهواني . إلا أنها حرصت على ألا تقص المغامرة على انطوان ، لانها لم تكن قد اعترفت له على وجه أكيد أن المغني كان يضربها .

ثم ان فكرة جديدة ، واخزة ، انبجست في الظلام ، وأدركت ان ذلك كان لكي تتخلص من تلك المضايقة التي تسببها لها ذكرياتها. ونهضت، واقترحت:

ـ أتريد أن نسير على الاقدام حتى المحطة ؟ فالقطار لا يسير الا في الساعة الحادية عشرة . والحوذي يسير بالامتعة .

ـ ثمانية كيلومترات في الليل ، وفي الوحل ؟

ـ لماذا لا ؟

ـ أنت مجنونة .

فتأوهت قائلة :

ـ آه ! سأظل عاجزة عن السير ، وهذا يفيدني .

ودون أن تزيد من الحاحها تبعته نحو العربة . وكان الظلام تاماً والهواء بارداً. وما كادت تجلس حتى لمست بمظلتها ظهر الحوذي :

ـ بهدوء ، خطوة خطوة . لدينا متسع من الوقت .
والتصقت بأنطوان وتمتمت :
ـ الطقس حلو ، وأنا مرتاحة ..
وبعدبضع لحظات أراد أنيداعب الخد المستند إليه فرأى أنه مبللبالدموع. فأوضحت وهي تخلص وجهها :
ـ أنا متوترة الاعصاب .
ثم تلبدت بشكل أكثر لصوقاً بين ذراعيه وقالت :
ـ آه ! أبقني يا عزيزي . احتفظ بي بقربك .
وظلا صامتين ملتصقين بعضهما ببعض . وهناك أشجار وبيوت وقعت عليها أنوار المصابيح كانت تنتصب لحظة كالاشباح وتتلاشى في الليل . وكانت السماء تتألق فوق رأسيهما. ورواح ومجيء العربة يؤرجحعلى كتف انطوان رأسراشيل المستلقي. وبين لحظة واخرى ترفع أعلى جسدها لتحضن حبيبها. وكانت تتنهد:
ـ كم أحبك !

على رصيف المحطة حيث تتشعب الخطوط كانا الوحيـــدين اللذين ينتظران قطار باريس . وقد بحثا عن ملجأ تحت أحد الطنوف . وكانت راشيل دائمة الصمت تمسك بذراع انطوان .
وهناك مستخدمون يركضون في الليل ، محركين مشاعل كانت انعكاسات أضوائها تلمع على الرصيف المبلل .
ـ القطار المباشر ! ارجعوا إلى الوراء !
وكانت وثبة قطار سريع ، أسود ، تثقبه النيران ، مر كالفيضان ، رافعاً كل ما يمكن ان يطير ، جاراً معه حتى الهواء الصالح للتنفس. ثم استتب الصمت بسرعة . وفجأة ، فان خنخنة ضعيفة فوقهما كجرس كهربائي اعلنت وصول القطار السريـع .
ووقف القطار ثلاثين ثانية . ولم يكد الوقت يتسع لهما للتسلق إلى مقصورة،

دون اختيار ، كان ينام فيها ثلاثة اشخاص؛ وكان المصباح مغطى بقماش ازرق. ونزعت راشيل قبعتها وسقطت في الزاوية الوحيدة الفارغة ؛ وجلس انطوان إلى جانبها ، ولكن بدلاً من أن تستند اليه اسندت جبهتها إلى الزجاج الأسود .

وكان شعرها الليموني في ظلام العربة النصفي ، والوردي تقريباً في النور ، لم يعد له لون معين ؛ فقد كان يبدو من مادة سائلة ، متوهجة ، حريراً معدنياً أو زجاجاً مبروماً ؛ وبياض الخد الفوسفوري كان يعطي مظهراً غير واقعي لبشرتها . وكانت يدها ملقاة على المقعد ؛ وقد أمسك انطوان بها ؛ وبدا له أن راشيل ترتجف ، فسألها بصوت منخفض فلم تجب بسوى ضغطة محمومة وزادت من ادارة ظهرها له . ولم يكن يفهم ماذا يجري في نفسها ، وتذكر موقفها في فترة ما بعد الظهر في المقبرة ! ايمكن أن يكون الارتجاف العصبي هذا المساء نتيجة لتلك الزيارة التي أتمتها بمرح تقريباً ؟ ... وضاع في الظنون .

وعند الوصول ، وحين انتفض رفاقهم في السفر وأزالوا الغطاء عن المصباح ، لاحظ انها ابقت رأسها منخفضاً باصرار .

وتبعها خلال الجمهور دون أن يلقي عليها أي سؤال . ولكن ما إن اصبحا في عربة الأجرة حتى أمسك بمعصميها :

ــ ما الخبر ؟

ــ لا شيء .

ــ ما الخبر يا راشيل ؟

ــ دعني .. ترى جيداً أن الأمر قد انتهى .

ــ كلا ، لن أتركك ، ولي الحق .. ما الخبر ؟

فرفعت وجهها الذي أفسدت زينته الدموع ، وتطلعت اليه بيأس وقالت :

ــ لا أستطيع أن أقول لك .

ولكن لم تكن لديها طاقة للسيطرة على نفسها حتى النهاية ؛ فارتمت عليه قائلة :

ـ آه ! أبداً لن تكون لدي القوة يا عزيزي ، أبداً ، أبدا .

فأدرك في تلك اللحظة ان سعادته بلغت نهايتها ، وان راشيل ستتخلى عنه ، وتتركه وحيداً ، وانه لم يبق له ما يفعله ابداً . أدرك ذلك دون أن تقول له ، وقبل ان يعرف لماذا ، وقبل أن يتألم من ذلك كما لو أنه كان مستعداً لهـذا بشكل دائم .

وصعدا الدرج في شارع الجزائر ونفذا إلى مسكن راشيل دون أن يتبادلا كلمة . وتركته وحده دقيقة في الغرفة الوردية. وقد ظل فيها واقفاً ، مشدوهاً ناظراً إلى السرير في داخل المخدع ، وزينة الرأس ، وداخل البيت ذاك الذي اصبح له . وعادت ، وقد تخلصت من معطفها . ورآها تدخل ، وتقفل الباب ، وتتقدم والحدقتان مختبئتان تحت الأهداب الذهبية ، والفم منجذب ، غامض .

وفقد كل شجاعة ، وخطا نحوها متمتماً

ـ ولكن هذا ليس صحيحاً . قولي ... لن تتركيني ؟

وعندئذ جلست ، وصرحت بصوت متعب متقطع ان من اللازم ان يكون هادئاً . وان عليها ان تقوم برحلة طويلة ، رحلة تتعلق بمصلحتها ، الى الكونغو البلجيكي . ثم انخرطت في الايضاحات . ان تركة والدها ، اي كل ما تملكه ، كان هيرش قد وظفها لها في معمل للزيوت لا يزال حتى الآن يسير سيراً حسناً ويعطي مداخيل قيمة. ولكن أحد مديري المعمل قد مات، وعلمت أن الآخر ، وهو رب العمل حالياً ، عقد صفقة مع تجار كبار من بروكسل ، وأسسوا في كنشاسا ، أي في المناطق نفسها، مصنعاً منافساً للزيت ، وانهم يستعملون جميع الوسائل ليقضوا علىمعمل راشيل. (كانت تبدو انها اطمأنت قليلاً وهيتتكلم) . وقد كانت القضية تتعقد بسبب ظروف سياسية. وآل مولر هؤلاء كان يسندهم الحاكم البلجيكي . وراشيل لا تستطيع من بعيد أن تركن إلى أحد . والقضية تتعلق بميراثها الوحيد ، بسلامتها المادية، بكل مستقبلها. وقد فكرت، وبحثت عن وسائل . ان هيرش يعيش في مصر وليس له أية علاقة بالكونغو . إذن كان

الحل الوحيد ان تسافر بنفسها ، سواء أكان لإعادة تنظيم معمل الزيت ام لبيعه بثمن مناسب لآل مولر .

واجتاح الدم البارد انطوان ، وهو شاحب الوجه ، عابس ، وكان يتأملها دون أن يقاطعها . وجازف أخيراً :

ـ ولكن ايمكن لهذا ان يسوّى بسرعة ؟

ـ نعم ولا .

ـ ماذا ؟ شهر ؟ اكثر ؟ اثنان ؟ ـ وارتجف صوته : ـ ثلاثة اشهر ؟

ـ نعم .

ـ ربما اقل ؟

ـ اوه ! كلا . يلزمني شهر للذهاب الى هناك .

ـ واذا وجدنا واحدا نرسله الى هناك ؟ واحدا موثوقا به ؟

فهزت كتفيها :

ـ واحد موثوق به ؟ يراقب كل شيء في أربعة أسابيع ؟ مع منافسين مستعدين لشراء جميع الضمائر ؟

لقد كان هذا صحيحاً بحيث لم يلحّ . وفي الواقع ، فمنذ اللحظة الاولى لم يكن على حافة شفتيه سوى كلمة واحدة : « متى ؟ » . وكل قضية اخرى يمكن ان تنتظر . ورسم حركة خفيفة ، باتجاهها ، وبصوت متوسل يتناقض مع وجهه المتشنج كرجل عمل ، تمتم :

ـ لولو . . لن تذهبي هكذا حالاً ؟ قولي .

فاعترفت :

ـ ليس حالا ، كلا . . ولكن بعد قليل .

فتشدد وقال : متى ؟

ـ حين يصبح كل شيء جاهزا .. لا استطيع القول .

وساد صمت كانت ارادتاهما مرتبكتين اثناءه . وقرأ انطوان على قسمات راشيل المنهوكة انها على وشك الانهيار ؛ وهو ايضا تخلت عنه كل صلابة .

فاقترب منها وتوسل من جديد :

ــ ليس هذا صحيحاً ، قومي ، لن تذهبي ؟

فتلقفته على صدرها ، وضمته ، وقادته متعثراً نحو السرير حيث ارتميا وهمست :

ــ اصمت . لا تسأل شيئا . ولا كلمة ، ولا كلمة واحدة حول ذلك ، او اذهب حالا دون ان اعلمك .

فصمت ، خاضعاً ، مغلوباً ، غامساً وجهه في الشعر الشاحب . واخذ يبكي بدوره .

١٤

وقاومت راشيل ،وظلت طوال شهر تتجنب كل سؤال جديد. وحين تلتقي في عيني انطوان بنظرة قلقة ، فانها كانت تدير رأسها . وكان هذا الشهر قاسياً واستمرا في العيش ، ولكن كان لكل عمل ، لكل تفكير ، دويه في عذابهما.

وفي غد اليوم الذي اوضحت له مشكلتها تلمس انطوان قوته على غير طائل بحيث وجد نفسه قد فوجىء بهذا الالم الشديد ، وكان خجلا لقلة تأثيره على ألمه . واجتاحه شك موجع : «هل انا حقيقة ؟ » وعلى الاثر :« يجب الا يفطن احد ! » . ومن حسن الحظ فانه كان ، وهو سجين حياته العملية ، يسترد خصائصه على اتمام يومه كطبيب ، كالطلسم ، كل صباح وهو يجتاز ساحة المستشفى ،وامام مرضاه لم يكن يفكر الا بهم .ولكن منذ ان تسنح له الفرصة ليستفيد من بين زيارتين ، او على المائدة اثناء الطعام (لان السيد تيبو كان قد عاد الى باريس ، ومنذ تشرين الاول استعاد البيت العائلي سيره) . ــ ذلك الخور الذي لادواء له ، والذي لم ينقطع عن التحويم حوله ، فانه ينهار فجأة ويحوله الى كائن غير منتبه ، سريع الغضب بسهولة ، كما او ان كل هذه القوة التي كان فخوراً بها لم تكن تعرف شكلاً آخر سوى الهياج .

وكان يقضي بالقرب من راشيل امسياته ولياليه ، دون سرور . فكلاهما

وصمتها كانا مسمومين بالاسرار . وحضناتها كانت تستنفدهما بسرعة دون التوصل الى تهدئة ذلك العطش شبه العدائي الذي كان يشعر به واحدهما للآخر .

ذات مساء من اوائل تشرين الثاني ، فان انطوان عند وصوله الى شارع الجزائر رأى الباب مفتوحاً ، ورأى حالاً منظر الدهليز الذي كان جداره عارياً والارض دون بساط .. فأسرع الى المسكن : الغرفة فارغة من الاثاث يتجاوب فيها الصدى ، والغرفة الوردية حيث المخدع لم يكن سوى تجويف لا فائدة منه .

وسمع حركة في المطبخ ؛ فركض اليه ، زائغ العين . كانت حارسة البيت راكعة تنبش كومة من الثياب والاثاث . فانتزع انطوان من يديها الرسالة التي كانت معها له . ومنذ السطور الاولى عاد الدم الى قلبه ؛ كلا راشيل لم تترك باريس بعد . انها تنتظره في فندق مجاور . ومساء الغد فقد تأخذ القطار الى الهافر . وفي اللحظة نفسها أعدّ تركيبة اكاذيب تتيح له التغيب ، ومرافقة راشيل حتى المركب .

ونهار الغد قام ببعض المساعي التي اخفقت الواحدة بعد الاخرى . واخيراً، في الساعـــة السادسة مساء اتخذ للامر اهبته ، وتأمنت خدمته واصبح يستطيع الذهاب .

ولحق بها في المحطة . كانت شاحبة قد هرمت ، ترتدي ثوباً لم يعرفها فيه . وكانت قد سحبت هرماً من الصناديق الجديدة .

وفي صباح الغد فقط ، في الهافر ، في الفندق ، في مغطس ماء ساخن ، كان يحاول تهدئة اعصابه المهتاجة . وتذكر شيئاً صعقه : لقد وُضع على امتعة راشيل حرفا : ر . ه .

وقفز خارج الماء ، ودفع باب الغرفة :

ـ انت .. انت ذاهبة لملاقاة هيرش .

وابتسمت راشيل له بحنو ، مع دهشتها العميقة ، وتمتمت بصوت منخفض لم يدرك منه سوى نسمة :

ـ نعم .

ولكنه رأى جفونها تنخفض علامة الإقرار ، وانحنى رأسها مرتين . فجلس على كرسي كانت هناك . ومضت بضع لحظات ، فلم تأت الى شفتيه اية كلمة توبيخ ولم يكن الفم والغيرة هما اللذان جعلاه يطوي كتفيه في تلك الدقيقة ، بل شعوره بعجزه ، بعدم مسؤوليتها ، وثقل الحياة نفسه . وفطن وهو يرتعش الى انه عار ومبلل . فقالت :

ـ ستأخذ برداً .

ولم يكونا قد وجدا بعد كلمة يقولانها لنفسيهما .

وجفف انطوان جسده دون ان يعرف ماذا يفعل ، وبدأ يرتدي ملابسه . وظلت كما باغتها ، واقفة ، مستندة الى المشمة *Radiateur* ، وبين اصابعها مدلكة . كانا يتعذبان ؛ ولكن رغم كل شيء كانا يشعران ، احدهما كالآخر تقريباً ، بنوع من التعزية . كم مرة منذ شهر ، شعر انطوان انه لم يكن يعرف شيئاً ! اما الآن ، فقد انتشرت الحقيقة كاملة امامه على الاقل . وراشيل ، وقد تخلصت من ضغوط الكذب المعقدة شعرت بأهليتها تنتصب فيها ، وبشيء قد تفتح .

وقطعت اخيراً الصمت ، وقالت بوجه من الحب تقرأ فيه الرأفة ، دون اي اثر لتوبيخ الضمير .

ـ ربما كنت مخطئة بالكذب عليك . فللناس دائماً عن الغيرة افكار جاهزة كثيرة الحمق ، كثيرة الخطأ .. وعلى كل حال ، اؤكد لك انني لم اكذب الا لأجلك ، لأوفر عليك ؛ اما انا فلم افعل شيئاً سوى انني اصبحت اكثر تعاسة . والآن ، انا مسرورة ، فلم اتركك دون ان تعرف .

فلم يجب بشيء ولكنه كف عن ارتداء ثيابه وجلس . ورددت :

ـ نعم . هيرش يدعوني وانا ذاهبة .

وصمتت من جديد ، ثم تابعت ، بعد ان رأت انه لا يريد ان يتكلم ، وانها هوجمت من كل ما كانت مجبرة على رده :

ـ انت طيب يا عزيزي ، وقد سكتت . شكراً . اني اعرف كل ما يمكن قوله . وقد مضت ثمانية اسابيع بكاملها وانا انتفض بقصد التملص ! وما افعله هو الجنون ، وما من شيء استطاع منعي عن فعله .. لنفترض ان افريقيا هي التي تجتذبني . آه ! هذا صحيح ، كما ترى : انها تجتذبني الى درجة انني اجد نفسي مريضة من الرغبة في بعض الاحيان ! ولكن مهما كان الامر ، فهذا لم يكن يكفي .. عندئذ ربما تظن اني ألبي نداء مصلحتي . وهذا صحيح ايضاً . ان هيرش سيتزوجني ، وهو غني ، غني جداً ، وفي سني فان الزواج امر هام ، مهما قيل : من الشر ان يظل المرء على الهامش كل حياته .. ولكن ليس هذا ايضاً . كلا ، الحقيقة انني فوق هذه الحسابات بقدر ما تكونه يهودية ، نصف يهودية تقريباً ، والبرهان ، هو انك انت ايضاً غني ، او انك ستصبح غنياً . حسناً ، لو عرضت علي الزواج غداً لما تغير شيء من امر سفري .

اني أسبب لك الغم يا عزيزي ؛ ولكن اصغ إليّ وتجلبب بالشجاعة ، فهذا يجعلني أقول لك كل شيء ؛ ومن الأفضل ، لأجلك أيضاً ، أن تكون على علم بكل شيء . لقد فكرت ان اقتل نفسي . وبالمورفين يجري الأمر بسرعة ، دون قصة ، ودون ألم ؛ حتى أنني حصلت على الجرعة ؛ وقد رميتها البارحة ، قبل أن أترك باريس. اريد أن أعيش كما ترى؛ انني لم أتمن الموت .. وانت، لم يبد عليك ابداً انك غيور منه حين كنت احدثك عنه . وكنت على حق . كيف تصبح غيوراً ؟ انت تعلم انه هو يمكن أن يغار منك ! اني احبك يا عزيزي ، احبك ، انت، كما لم احب احداً أبداً : أما هو ، فاني اكرهه . فهو ليس رجلاً، انه .. لا أدري ماذا ! أي أكرهه وهو يخيفني. لقد ضربني كثيراً ! وسيضربني أيضاً . وربما سيقتلني .. ذلك لانه غيور ، هو ! وذات مرة ، في شاطىء العاج دفع أحد حمالينا لخنقي . أتدري لماذا ؟ لانه كان يظن أن غلامه جاء اليّ ذات ليلة ، في كوخي. انه خليق بكل شيء .

ورددت بصوت داكن :

ـ انه خليق بكل شيء ولكنه لا يقاوَم .. اسمع : هناك امر لم أجد

الشجاعة لأقوله لك . أنت تعلم ، في بالانزا بعد المأساة ، حين ذهبت إلى هناك بناء على دعوته . حسناً . هناك بدأ الأمر ؛ إلا اني ادركت كل شيء ، وكدت أموت من الخوف أمامه : وذات يوم لم اجرؤ على شرب ماء حشائش كان قد أعده لي لانه كان ذا ابتسامة غريبة وهو يحمل ذلك الي . ورغم كل هذا ، رغم كل هذا .. افهمت ؟ آه ! لا تستطيع تكوين فكرة عن جاذبية هذا الرجل .

وشعر انطوان برعشة جديدة . والقت راشيل مئزراً على كتفيه وتابعت بصوت لا عاطفة فيه :

ـ اوه ! لم يكن بحاجة لتهديدي ، ولا لأخذي بالقوة . لم يكن عليه الا ان ينتظر . وكان يعرف ذلك جيداً : انه يعرف قدرته . وانا ، اتيت اطرق بابه ! فلم يفتح لي الا في المساء الثاني .. وعندئذ تركت كل شيء لأذهب معه ، ولم اعد إلى فرنسا ، وتبعته ككلبه ، كظله . وطوال سنتين ، وربما ثلاث ، تحملت كل شيء ، الاتعاب ، الاخطار ، الضربات ، الاهانات ، السجن ، كل شيء . نعم ، السجن ! طوال ثلاث سنوات لم انقطع عن الارتجاف لاجل الغد ! وقد كنا نضطر احياناً الى الاختباء طوال اسابيع دون ان نجرؤ على الخروج .. وفي سالونيك ، فضيحة حقيقية : كان البوليس التركي كله في اثرنا : واضطررنا الى تغيير الاسماء خمس مرات لنبلغ الحدود ! دائماً قصص اخلاق . في لندن ، في احدى الضواحي ، وجد وسيلة ليشتري عائلة بكاملها : فتاة للجنود ، واختاها ، واخوها الصغير ... وكان يسمي هذا « شواءه الخليط » . وذات يوم حاصر الشرطة البيت وقبض علينا ، ماذا استطيع ان اقول ؟ لقد قضينا ثلاثة اشهر في السجن الاحتياطي . ولكنه توصل إلى اطلاق سراحنا .. آه ! لو اردت ان اقص كل شيء ! لقد رأيت ذلك وقاسيته .

وتقول لنفسك : « اني اعرف الآن لماذا تركته » . حسنا ، هذا ليس بصحيح . لست انا التي تركته ! فقد كذبت عليك . لن استطع ابداً. فهو الذي طردني ! وكان يضحك . وقال لي : « اذهبي ، وستعودين حين اريد » . فبصقت في وجهه .. وبعد ، اتريد الحقيقة ؟ منذ ان رجعت لم اكن استطيع

التفكير الا به ! وكنت انتظر وانتظر . وهـــا هو قد تذكرني اخيراً .. أأدركت الآن لماذا انا راحلة ؟

ونهضت، واتت تركع بالقرب من انطوان وتضع جبهتها على ركبتيه، وبكت. وكان ينظر الى نقرتها ، وقد هزه النحيب . وكان الاثنان يرتجفان .

وتمتمت مغمضة العينين : كم احبك يا عزيزي !

ولم يتكلما طول النهار عن شيء ، كأن ذلك باتفاق ضمني . ما الفائدة ؟ وعدة مرات اثناء الغداء، بعد ان عجزا عن تجنب جلوس إحدهما قبالة الآخر، كانت نظراتها تتجاذب ، مضطربة بسبب الافكار نفسها ، وتتحول الواحدة عن الاخرى بعزم . ما الفائدة ؟

وكان عليها ان تقوم بشراء بعض الاشياء التي لا اهمية لها ، وقد قضت في شرائها وقتاً طويلاً متظاهرة بفائدتها . وكانت عواصف من المطر يحملها الهواء من بعيد تغور في الشوارع وتنفتح على محاذاة البيوت . وكان انطوان يتبعها مطيعاً ، من مخزن الى مخزن حتى ساعة العشاء . ولم يبق عليها سوى الذهاب لبلوغ مكانها على السفينة ، لانها مسافرة على السفينة « رومانيا » . وهي تأتي من اوستاند وتبلغ الهافر نحو الساعة الخامسة صباحاً وتقلع بعد ساعة دون ان يقام بزيارات فيها . وكان هيرش ينتظرها في الدار البيضاء . اما حكاية الكونغو البلجيكي فلم يكن فيها اية كلمة صحيحة .

واطالا مدة العشاء ، شاعرين بنفس الجبن امام الدقيقة التي سيجدان نفسيهما فيها وجهاً لوجه في غرفتها لليلة الاخيرة . والمطعم الذي جنحا اليه قاعة كبيرة ملأى بالناس والاضواء والضجة ، وهو حانة ، وقاعة رقص ، واكاديمية بليار معاً : بالمستطاع قضاء السهرة فيه بين دخان السكاير ، وقرقعة الكرات وفتور رقصة الفالس . وحوالي الساعة العاشرة جاءت فرقة من الايطاليين الجوالين ؛ وكانوا حوالي الاثني عشر ، ببلوزات حمراء وبنطلونات بيضاء مـــع قبعات صيادي سمك نابوليتانيين وكانت الاباريم ترقص على اكتافهم. ومع الجميع آلات موسيقية ، كمان ، غيتار ، طبل ، صناجات . وكانوا وهم يعزفون

يغنون بملء اصواتهم ويتحركون كالشياطين . وكان انطوان وراشيل ينظران اليهم شاكرين ، سعيدين بتوجيه انتباههما المنهوك من الالم الى هؤلاء الذين يبعثون التسلية في الناس . وحين اخذ هؤلاء المجانين يجمعون الصدقات ويغنون مقطوعاتهم الاخيرة كان يبدو لهما ان ألمها قد تضاعف . فنهضا عندئذ مرتعشين تحت المطر وعادا الى الفندق .

وكان الوقت منتصف الليل . ويجب ايقاظ راشيل في الساعة الثالثة . انها ليلة قصيرة لم تنقطع اثناءها رياح تشرين الثاني عن سكب المطر على زنك الشرفة . وقد قضياها دون كلمة ، دون رغبة ، حاضنين بعضهما البعض كولدين انتابهما الهم .

ومرة واحدة سأل انطوان :

— اتشعرين بالبرد ؟

كانت ترتجف بكل اعضائها ، وقالت وهي تشد نفسها اليه كأنه لا يزال بامكانه ان يحميها ، وينقذها من نفسها :

— كلا ، انا خائفة .

فلم يجب بشيء ، وكان شبه متعب من عدم فهمه .

ولدى طرقة على الباب وثبت من السرير متملصة من العناق الاخير .

وكان راضياً بذلك . ان ارادتيهما بأن يكونا قويين جعلت واحدهما يدعم الآخر .

وارتديا ملابسهما صامتين ، وكانا يتظاهران بالهدوء ويتبادلان بعض الخدمات ويطيلان حتى النهاية عادات الحياة المشتركة . وساعدها على اقفال محفظة ملأى جداً ، وأضطر ان يركع فوقها بكل ثقله ، بينما هي مقعية على البساط لتدير المفتاح . واخيراً ، حين اصبح كل شيء جاهزاً ، وحين لم يكن هناك اية كلمة مبتذلة يقولانها ، او حركة يقومون بها ،وحين لفت اغطيتها واعتمرت قلنسوة السفر ، وربطت نقابها بدبوس ، وادخلت قفازيها في يديها ، وزررت محفظة يدها، ظل لديها بضع دقائق انتظار قبل وصول العربة. فجلست

ةقرب الباب على مقعد منخفض ؛ واجتاحها برد مفاجىء ،فضمت فكيها لئلا تصطك أسنانها ، وخفضت رأسها وحضنت ركبتيها بذراعيها . عندئذ جلس هو ايضاً غير عارف ما يقول وما يفعل، وغير متجرىء على الاقتراب منها ، ويداه متدليتان على أعلى الصندوق. ومضت بضع لحظات في صمت طاغ، منتظر. انها لحظة رهيبة ذات حدة لم يكن باستطاعتهما احتمالها دون ان تخور قواهما ، لو لم يكونا متيقنين ان الأمر سيبلغ نهايته بعد بضع ثوان . وتذكرت راشيل عادة سلافية : فهناك ، حين يسافر شخص محبوب في رحلة طويلة جداً ، فإن الجميع يجلسون حول المسافر ويجمعون افكارهم لحظة . وكانت على وشك ايضاح فكرتها بصوت مرتفع ، ولكنها لم تكن واثقة من صوتها .

وحين سمعت في الرواق خطى الغلمان الذين جاءوا يحملون الأمتعة ، رفعت رأسها فجأة ، ودارت نحوه بسرعة بكل جسمها . وعكست نظرتها يأساً مفرطاً ورعباً وحنواً بحيث مد ذراعه :

— لولو . .

ولكن الباب قد فتح . واجتاح الرجال الغرفة .

ونهضت راشيل .كانت تنتظر وجود شهود لتستطيع وداعه . فخطت خطوة ووجدت نفسها امام انطوان . ولم يشأ ان يحتضنها ، ولم يستطع ان يحل ذراعيه ليدعها تذهب . وشعر مرة أخيرة تحت شفتيه بالفم الحار، المسترخي ، الشاهق . وأدرك انها تتمتم :

— وداعاً يا مينو . .

وتخلصت بسرعة واختفت في الباب المفتوح على مصراعيه على رواق مظلم ، دون ان تلتفت ، بينما هو ظل واقفاً لاوياً يديه ، دون اي احساس آخر سوى نوع من المباغتة .

لقد جملته يعدها بألا يرافقها الى السفينة . ولكنه كان مقتنعاً انه سيذهب الى نهاية السد الشمالي عند قاعدة المنارة لكي يشاهد « رومانيا » عند خروجها من المرفأ . وما ان سمع ابتعاد العربة حتى رن الجرس طالباً ان يحملوا له أمتعته الى

مستودع الحقائب : لم يكن يريد الدخول الى تلك الغرفة . ثم اندفع الى الخارج في ظلام الليل .

كانت المدينة ميتة ،ترشحماء تحت الضباب ،ولا تزال غيوم مكفهرة تغطيها ؛ وغيوم اخرى كانت تتراكم في الافق ، وبين هاتين البقيتين من العاصفة واللتين تحاولان الالتقاء ،فان قطعة شاحبة من السماء بدت انها تذوب .

وكان انطوان يسير على غير هدى . وكافح ضد الزوبعة تحت أحد مصابيح الشارع لينشر مخططاً للمدينة .ثم ، وقد ضاع في الضباب الكثيف ،ولكنه مهتد بجلبة الامواج ، وبالتنبيه البعيد الصادر عن النفير البحري ، ومخترق الريح التي كانت تلصق معطفه بساقيه ، اجتاز ارضاً زلاقة بالوحل وبلغ رصيفاً ارضه غير مفروشة جيداً بالاسمنت حيث سار فيه .

كان السد يضيق كلما تقدم في البحر. والى اليمين ايقاعات امواج الاوقيانوس الحر ، بينما الى الشمال ، فان الماء المحصور في حوض المرفأ لا يسمع منه سوى هدير مشوش ، وهناك زمجرة بحّاء تملأ السماء لبوق يعزف لحناً حزيناً ، آتية من مكان غير معروف ، ولكنها تنضح اكثر فأكثر : هيه ! هيه ! هيه !

بعد عشر دقائق من المشي ، ودون ان يلتقي بكائن حي ، ميز انطوان فوقه تقريباً،بريق المنارة الذيخبأه الضباب حتى الآن . لقد بلغ طرف المصب.

وتوقف على عتبة الدرج الموصل الى السطح محاولاً النظر . كان وحيداً في الجلبة الممتزجة بالهواء والفضاء الواسع . وقبالته تماماً يوجد وميض بلون الكريما يشير الى الشرق حيث تشرق على الآخرين شمس الشتاء دون شك . وعند قدميه درج محفور في الغرانيت يدخل في مهواة الماء غير المنظورة.

وحتى عند انحنائه لم يكن يستطيع رؤية الامواج التي كانت تضرب الرصيف ، ولكنه كان يسمع تحته ، وفي مكان قريب ، تنفسها المنتظم المؤلف من آهة طويلة يتبعها نحيب مسترخ .

ومضى الوقت دون ان يشعر به . وشيئاً فشيئاً تسرب نور عظيم جداً من خلال ذلك البخار الذي كان يعزله من جميع النواحي عن عالم الاحياء . ورأى

الآن توهج نار السد الجنوبي . ولم يجرؤ على رفع عينيه عن الفضاء الفضي الذي يفصل منارته عن الاخرى : « لانها » ستنبجس من هناك ، بين مركزي الاشعاع هذين .

وفجأة ، والى شمال النقطة التي كان ملتفتاً باتجاهها ، برز من تلك الهالة التي تشير الى ولادة النهار ، كتلة ضيقة ، ومرتفعة كانت تتشكل على مرأى العين في الهواء الحليبي ، وتتسع ، وتصبح سفينة ، سفينة كبيرة زال لونها وتنقطت بالنور ، تجر وراءها دخاناً داكناً ومنخفضاً . كانت السفينة « رومانيا » تدور لتسير في الممر .

وانطوان ، متشنج اليدين على الحاجـز الحديدي ، والوجه يسوطه المطر ، كان يحصي بصورة آلية الجسور ، والصواري ، والمداخن . . راشيل ! اصبحت هناك على بعد مئة متر ، منحنية مثله دون شـك ، منحنية نحوه ، مثبتة عليه دون ان تراه عينان اعمتهما الدموع ؛ وكل حبهما المبتور الذي كان يميل بأحدهما نحو الآخر مرة اخرى اصبح عاجزاً عـن ان ينيلهما تعزية حركة وداع سامية . ونور المنارة اللامع وحده فوق رأس انطوان كان يبلغ بمداعباته المتناوبة تلـك الكتلة التي لاوجه لها ، والتي كانت تختفي من جديد في الضباب حاملة ، كسر"، اتصالا غير اكيد لنظراتهما .

ظل انطوان طويلاً هناك دون اية دمعة ، والذهن في خمود ، غير مفكر بالذهاب واذناه المعتادتان على نغمة البوق الحزينة لم تكونا تسمعان نداءه الموجع .

واخيراً تطلع بساعته وعاد نحو المدينة . كان والهاً . واسرع الخطى وخاض في برك الماء دون ان يراها . وكانت المحلات في الميناء الصغير قـد اشعلت مصابيحها البنفسجية . وكانت ضربات مطرقة خشبية تطن بشكـل سيء في الجو الذي يشبه القطن المندوف . وارتفعت مدينـة احلام وراء الشاطىء الذي يجتاحه المد العالي . وصنوف من الطنابر كانت تدخل خلال الشواطىء المغطاة بالحصى ، آخذة معها موكباً من الصرخات ، وقرقعة السياط ، وهـذه الجلبة ، بعد كثير من الصمت ، كانت تعزية لانطوان . فوقف يسمع الدواليب الحديدية التي تحدث صوتاً في الصوان

ثم فكر فجأة ان قطاره لا يسير الا في الساعة العاشرة . لم يسبق له ان واجه هذه الساعات الثلاث من الانتظار : لقد توقف لديه كل استدراك للامور مع رحيل راشيل . ماذا سيحل به ؟ ان الفراغ القاتل لتلك الساعات التي لا هدف لها زاد من خطورة شقائه الى درجة انه اصبح غـــير قادر على مزيد من الكفاح. واسند ظهره الى عمود ، وبكى .

وعاد الى السير دون ان يفطن لذلك ، سائراً بخط مستقيم امامه .

ودبت الحياة في الشوارع . وبقرب صنابير المياه جماعة من الاطفال المشعثي الشعر يتشاجرون على الماء . وهناك كميونات كانت تأخـــذ عرض الطريق ، وتتدحرج بصخب نحو احواض السفن . ومشى انطوان طويلاً دون ان يعرف الى اين يسير ، ووجد نفسه في وضح النهار امام الاطباق الملأى بالزهور في الساحة التي كان فيها فندقه : وهنا ، البارحة قبل الذهاب الى العشاء ، كاد ان يختار لراشيل باقة من االاقحوان : ولكنه كان يتفادى ، وكذلك كانا يتجنبان، وفقاً لاتفاق ضمني ، وحتى وقت الافتراق ، كل حركة ، وكل كلمة يمكن ان تفصم ارادتيهما في العمل على اشتداد ذلك الحزن لذي يحملانه بكثير من الجهد .

عندئذ تذكر ان عليه ان يأخـــذ نشرته لمستودع الحقائب من مكتب الفندق ، وعاودته الرغبة ليرى غرفتها مرة اخرى ، وذلك السرير .. ولكن الغرفة لم تكن شاغرة ؛ فقد اعطيت لاثنين من المسافرين .

وهبط درجات السطحية يائساً ، وتاه حول تربيعة ، وعرف شارعاً سارا فيه معاً ، وعاد الى السين على الطريق الموصل الى تلك الحانة التي سمعا فيها النابوليتانيين . وهناك شعر برغبة في الدخول .

وبحث عند المنضدة التي تناولا طعامهما عليها ، والنادل الذي قام بخدمتهما . ولكنه لم يكن يعرف شيئاً مما يظن انه رآه البارحة .

ونهار الشراب الذي لا يرحم حوّل مكان السرور هذا الى مخزن فسيح ، قذر ومتجمد ؛ كانت الكراسي تتكدس على الطاولات ؛ ومنصة الموسيقيين ــ بقماطرها المقلوبة ، وآلة الفيولنسيل المنائمة في تابوت اسود ، والبيانو المغطى

بقماش مشمع شبيه بجلد مقشر لأحد الحيوانات الصفيقة الجلود . — كانت تعوم بين ذلك الاوقيانوس من الغبار ، كطوف محمل بالجثث .

ـ اتسمح يا سيد ؟

لقد جاء الغلام يكنس تحت الطاولة . ووضع انطوان ساقيه على المقعد ، وتأخر نظره على رواح ومجيء المكنسة : سدادة ، عودا ثقاب ، قشرة برتقال . . كلا ، مندرين . . واجتاز القاعة مجرى هواء فبعثر النفايات . وسعل الغلام . وملك انطوان نفسه : هل ترك ساعة القطار تمر ؟ ونهض باحثاً عن الساعة بعينه : مع الاسف ، لم يمض عليه هنا سوى سبع دقائق .

ايعود إلى الجلوس ؟ كلا . فخرج ، واستولت عليه هذه الفكرة ، من انه لن يتعذب اكثر من ذلك إذا جلس في عربة القطار . والقى نفسه في عربة ، وبلغ المحطة كملجأ .

ولكن هناك بعد ان تسجلت امتعته ، أصبح عليه ان ينتظر من جديد ، ينتظر أكثر من ساعة .

وأخذ يمشي . وكان يهرب على محاذاة الرصيف كأنه مطارَد .

« ماذا تريد مني ؟ » . فكر بذلك وهو يتطلع إلى أوّال (ميكانيكي) كان ينظر اليه من فوق آلته المتوقفة . والتفت ، ورأى جمهوراً من الرجال يتبعونه بأعينهم . عندئذ تشدد ، وعاد أدراجه ، ودفع باب غرفة الانتظار وارتمى على كنبة . كان وحيداً في الغرفة الاحتفالية المظلمة . وكان هناك امرأة عجوز ، تجاه باب القاعة المزجج ، مقعية ، وقد رأى نقرتها الرمادية تتأرجح ، وكانت تهدهد طفلاً وترتل بصوت شبه فتي ولكن بدون رنة ، تلك الاغنية القديمة المؤثرة بعذوبتها ، والتي كانت المدموازيل تغنيها في السابق لجيز في أغلب الأحيان :

إلى صيد بلح البحر
لا أريد أن أذهب يا أمي

وامتلأت عيناه بالدموع . لا يريد ان يسمع شيئاً ولا أن يرى شيئاً .

ووضع وجهه بين يديه وتخيل راشيل قبالته : ذلك العطر العنبري الذي

بقي على أصابعه لتحريكه عقد راشيل في تلك الليلة ! وشعر على صدره بلحم الكتف المستدير، وعلى شفتيه بخال البشرة الفاترة! انها صدمة عنيفة جداً بحيث ألقى رأسه إلى الوراء ، وتجمد ، واليدان منفصلتان ناشبتان بذراعي الكنبة ، والرأس مصطدم بشدة بحشية المسند . وجاءت إلى ذاكرته عبـــارة راشيل : « كنت افكر بقتل نفسي .. » نعم ؛ لاجل الانتهاء ! فان الانتحار هو المخرج الوحيد لقلق نفسي بهذا الشكل . انتحار دون تبصر ، بدون رضا تقريباً ، ببساطة للتخلص ، ولا يهم كيف ، قبل أن تبلغ منتهى هذا العذاب الذي تضغط كلاّبتيه !

وفجأة ارتجف ، وبوثبة اصبح واقفاً : هناك رجل لم يكن قد رآه ، جـاء ولمس ذراعه . وكاد بحركة معاكسة ان يدفعه ، ويجند له بضربة من قبضتيه وقال الرجل :

ـ ماذا ؟

لقد كان رجلاً عجوزاً يثقب البطاقات ، وقال انطوان متلعثماً :

ـ قطار .. قطار باريس ؟

ـ الرصيف الثالث .

وأثبت انطوان على الرجل عيني رجل يسير في نومه واندفع بخطوة مسترخية نحو القاعة الكبرى . وصرح الآخر :

ـ لديك وقت . قطار الشرق لم يتجهز بعد ؟

وبما ان انطوان ، قبل ان يختفي ، كان قد اصطدم بصراع البـــاب وهو يتعثر فان الرجل العجوز هز كتفيه متذمراً :

ـ وهذا يريد ان يبدو قوياً !

تموز ١٩٢٢ ـ تموز ١٩٢٣

(انتهى الجزء الأول ويليه الجزء الثاني)

فهرست

١٥٤ / ٥ / ١٩٧٠

مطابع منشورات عويدات ـ بيروت ـ لبنان ـ تلفون ٢٧٢٧١٤

Roger MARTIN DU GARD

LES THIBAULT

Tome Premier

Le Cahier gris

Le Pénitencier

La Belle saison

Texte traduit en arabe

Par

Bahige CHAABAN

EDITIONS OUEIDAT

Beyrouth - Liban

المجموعة الكاملة من خمسة اجزاء

الثمن [illegible] ة او ما يعادلها